بوبسـطه

مدينة فرعونية تقدم أدلة أثرية جديدة تؤكد الصلات السامية مع مصر

د. محمد ابراهيم بكر
عميد كلية الآداب — جامعة الزقازيق

بوبسـطة[1] :

احدى عواصم مصر القديمة الهامة ، تقع على مدخل مصر من ناحية الشرق ومن ثم عاصرت الأحداث الجسام طوال مراحل التاريخ ، خلفت بصماتها على أرضها وهى مصادر للتاريخ العالمى ، تساهم به بوبسطة فى كشف الغموض وفى تكوين صورة واضحة المعالم لما كان يجرى فى هذه المنطقة الهامة من العالم القديم • فبالاضافة الى أهميتها بالنسـبة للتاريـخ الوطنى المصرى ، فان بوبسطه مفتاح مصر من ناحية الشرق حيث سيناء الغنية بالمناجم (النحاس والفيروز) وحيث يقع جيران مصر من الشعوب السامية التى عرفتها مصر منذ عهدها بالحضارة • ولكونها من أكبر الحواضر المصرية التى واجهت أفواج القادمين من الشرق فقد عاصرت العديد من غزوات الفاتحين بداية بهجمات القبائل البدوية الكنعانية ، ثم الهكسوس ، القبائل السامية ، التى استوطنت تدريجيا فى شرقى الدلتا ثم استولت على السلطة فى نهاية زمن الدولة الوسطى المصرية واستقروا بثقافتهم فى مصر نيفا ومائة عام ، ثم الآشوريين سكان العراق القديم ، فالفرس والاغريق المقدونيين والرومان هذا بالاضافة الى قوافل التجار والمهاجرين على مر العصور • فعبر بوبسطه دخلت الديانات السماوية

1) Porter B. and Moss, Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs and Paintings iv. 27-35.

مصر ، فلا شك أنها كانت معبرا ومقرا مؤقتا للنبى يوسف وآله ، والنبى موسى وقومه ، ثم للسيدة العذراء وطفلها النبى عيسى عليه السلام عند لجوئها الى مصر فرارا من بطش اليهود والرومان فى فلسطين الخاضعة لنفوذ الامبراطورية الرومانية .

وعاصرت بوبسطه فتوحات الجيوش المصرية صاعدة الى غربى آسيا وهابطة منها ، وذلك لموقعها الممتاز عند نهاية وادى طميلات ، الذى كان يقطع الصحراء الشرقية ويربط مابين المنطقة الواقعة شمالى البحيرات المرة عند مدخل سيناء ومنطقة دلتا النيل الخضراء عند بوبسطه . كما كانت تقع على الشاطىء الشرقى لفرع النيل البوبسطى وكان يسمى « مياه الاله رع » ، الذى كان يتفرع من النيل تجاه مدينة هليوبوليس (عين شمس عند المطرية الحالية ، ضاحية من ضواحى القاهرة) ويصب فى البحر المتوسط شرقى بحيرة المنزلة عند بلدة بيلوزيوم .

وقد أثبتت الحفائر فى أطلال المنطقة أنها كانت عامرة منذ فجر التاريخ المصرى .

المصادر القديمة :

وتذكر المصادر المصرية أن بوبسطه كانت جزءا من اقليم هليوبوليس (مدينة الشمس) وهو الاقليم الثالث عشر من أقاليم الدلتا ، وقد قدست المعبودة بسطه هناك بوصفها ابنة المعبود آتوم . مثلها فى ذلك مثل المعبودة تفنوت فى صورة لبؤة ، ثم أصبحت اقليما مستقلا هو الاقليم الثامن عشر أو مقاطعة الأمير الأمامية ، والتى سماها الاغريق البوبسطية نسبة الى عاصمتها بوبسطه . وهى تل بسطه الحالية أو الزقازيق القديمة . وغير بعيد من بوبسطه فى شرق الدلتا اتخذ الهكسوس من أواريس — (تل الضبعة — قنطير الحالية) عاصمة لهم ، كما أسس الرعامسة فى موقع قريب أيضا عاصمتهم برعمسو Br- Ramesse

وعندما هجرت مدينة بر رعمسو نتيجة لجفاف فرع النيل البوبسطى أو البلوزوى فى الجزء الذى يغذيها ، واتصل بالفرع التانيسى الواقع الى الشـــمال منه ، أسس ملوك الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين عاصمة لهم فى تانيس ونقلوا اليها آثارا كثيرة من المدينة الغاربة • والواقع أن ملوك الأسرة الثانية والعشرين أصلهم من بوبسطه ، اذ يسميهم هرودوت البوباسطيين • فبينما كانت بوبسطه موطنا لفرع الأسرة الثانية والعشرين كانت العاصمة الفعلية فى تانيس ـــ صان الحجر ـــ حيث عثر على مقابر وآثار الملوك : ششنق الثانى ، وأوسركون الثانى ، وتاكيلوت الثانى ، وششنق الثالث من ملوك تلك الأسرة البوبسطية ولقد اهتم ملوك هذه الأسرة ببوبسطة كما لو كانت عاصمة لمصر كلها •

وورد ذكر بوبسطة فى التوراة • اصحاح حزقيال ٣٠ ، ٧ وكتبت « بى ـــ بست » •

وأعطى المؤرخ الاغريقى هرودوت[2] ـــ الذى خصص كتابه الثانى عن مصر فى حوالى منتصف القرن الخامس ق•م ـــ اهتماما خاصا لمدينة بوبسطه ، وذكر أن اسمها ورد فى حوليات الأسرة الثانية • وأن معبدها كان يبدو كما لو كان قد بنى فوق جزيرة ، ووصف مهرجانها الذى كان يقام احتفالا بمعبودتها بسطه ، وكانت تتخذ هيئة اللبؤة ثم تحولت أخـــيرا لتأخذ شكل القطة الوحشية أو امرأة برأس قطة ، وفى بوبسطه عبـــد الثالوث : آتوم وهو صورة من صور الشمس ـــ بسطه ـــ والابن ميحوس الذى اتخذ شـــكل الأسد ، وكان يعبد أيضا فى الاقليم العاشر من أقاليم الصعيد • وورد فى بردية هاريس [3] أن معبد بوبسطه يقع على مياه رع (فرع النيل البوبسطى) ، وقد شبه الاغريق المعبودة بسطه بمعبودتهم أرتميس • وطبقا لهرودوت كان عيد بسطه يقع مرتين فى العام ، مرة

---

2) Herodotus II, 60, 138.
3) Papyrus Harris I, 62 a 2.

فى اليوم الثالث عشر من الشهر الثانى (بابه) ، ومرة أخرى فى اليوم الثامن عشر من الشهر السادس (أمشير) .

أما المصـــادر العربية فيذكر منها « معجم البلدان » لياقوت الحموى أن بسطه : « كورة (أى قرية) بأسفل الأرض (الدلتا) بمصر وتقـــرأ بسطه بضم الباء » وجاء ذكرها فى « قوانين الدواوين (لابن مماتى) على اعتبار أنها من مدن الشرقية [٤] .

فى سـنة ١٨٨٧ بدأ الأثرى السويسرى ادوارد نافيل بعمـل حفائر منظمة فى تل بسطة ، بعدما لاحظ نشاط تجار الآثار فيها منـــذ سنوات ، وكان قد كثر تعدى الأهالى على المنطقة بنقل أتربة لاستعمالها كسماد للزراعة وصناعة الفخار واستغلال الأراضى فى أغراض البنـــاء وغيرها . والاستفادة من كل قطعة حجر جيرى بحرقها وتحويلها لجير حى أو لاعادة استعمالها فى مبانيهم . وأصيب معبد بوبسطة الجرانيتى فى معظمه بهجمة شرسـة من الباحثين عن محجر جاهز لاعداد أحجـــار الطواحين عبر القرون ، فلم يدعوا حجرا صالحا لأغراضهم الا نقلوه .

وأثمرت حفائر نافيل خلال ثلاث مواسم من العمل الشاق فى المدة من ١٨٨٧ وحتى ١٨٨٩م [٥] ، فكشفت عن مجموعة من الآثار الهـامة ، التى ترجع الى جميع مراحل التاريخ المصرى القديم ، على مدى أربعـــة آلاف سـنة ، وكانت أهم اكتشافاته معبد القطة بسطه ، الذى بنى فى معظمه من أحجار الجرانيت الوردى ، التى جلبت خصيصا من أسوان عبر نهر النيل ، اذ كانت المدينة تقع احدى فروعه الهامة ، وكان طـول المعبد حوالى مائتى متر ، وعرضه حوالى ثلاثين مترا ويتألف من صالة

---

(٤) معجم البلدان ، شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت الحموى الرومى ، المجلد الأول . ص٤٢٢ ، دار صادر بيروت .

5) E. Naville, Bubastis 1891; The Festival Hall of Osorkon II in the great temple of Bubastis, 1892.

أولى من الجرانيت مزينة بصور المعبودات ومن بينها بسطه أمام صور الملك أو سركون الثانى الذى أمر ببناء هذا الجزء من المعبد • أما الصالة الثانية فقد أمر باقامتها الملك أوسركون الثالث بمناسبة جلوسه على العرش فى السنة الثانية والعشرين من حكمه • وكانت مبنية فى معظمها من الحجر الجيرى الذى ضاع ، وبقيت فقط الأجزاء المبنية من الجرانيت كالمدخل ، وأجزاء أخرى عليها رسوم جميلة مازالت فى حالة جيدة مما يندر وجوده فى الدلتا • وبعد ذلك صالة ثالثة للاعمدة ترجع لزمن الأسرة الثانية عشرة منها أربعة تيجان أعمدة على شكل رمز المعبودة حتحور على وجهين متقابلين منها ، بينما زين الوجهان الآخران برسوم زهرتى اللوتس أو البردى بين ثعبانين على رأس كل منهما تاج الوجه القبلى والبحرى ، نقلت كلها الى متاحف لندن وباريس وبوسطن ، ولكن ظهرت رأس عمود أخرى خامسة من نفس النوع زينت بها حديقة المتحف المصرى بالقاهرة • وفى نهاية المعبد أقام الملك نكتانبو الثانى معبدا صغيرا به سبعة مقاصير يحوى كل منها تمثالا من تماثيل المعبودات المعروفة فى بوبسطة •

كما كشفت حفائر نافيل أيضا عن جبانة كبيرة لدفن القطط المحنطة والى جوار بعضها تماثيل برونزية للقطط ذات قيمة فنية عالية ، كما كشفت أيضا عن معبد صغير الى جوار المعبد الرئيسى المذكور يخص المعبود ميحوس ابن المعبودة بسطه ، بناه الملك أوسركون الثالث الى الشمال الشرقى غير بعيد عن المعبد • كما كشفت الحفائر الى الجنوب من المعبد الكبير عن معبد للاله آتوم بناه الملك أوسركون الثانى • والجدير بالذكر أن حفائرنا الحالية كشفت عن مقبرة بالقرب من المكان دفن فيها أحد أولئك الموظفين المكلفين بنقل أحجار الجرانيت من أسوان لأعمال البناء الدائمة فى المعبد ، يمكن تأريخها بعصر الدولة الوسطى • وقد صور على لوحته التذكارية ومعه زوجته وأولاده ، كما حفر اسمه وألقابه • ويقول هرودوت أن المعبد كان يقع فى قاع المدينة بينما تحيط به بقية منشآت المدينة من جميع الجهات ، وتطل عليه من ارتفاعات عالية ،

وتعطى أرضية المعبد المستوى الأمثل الذى بنيت على أساسه المدينة ، ثم أخذت تنمو جيلا بعد جيل لدرجة أننا نعمل حاليا فى تلال ارتفاعها حوالى ثمانية أمتار فوق سطح المعبد هى عبارة عن مخلفات المدينة وأطلالها على امتداد تاريخها الطويل ، والسبب فى هذا النمو أو الارتفاع أن الأجيال الأولى كانت تتخذ لها مكانا مرتفعا نسبيا عن مستوى الأرض المجاورة قد تكون جزرا صحراوية وسط الرقعة الزراعية ، لتجنب خطر الرطوبة ومياه الفيضان ثم تعمره ببناء الساكن لمدة جيل أو جيلين ، الى أن يحدث مايدعو الى ترك المكان وهجرة كهجوم عدو ، أو وباء ، فيتحول الى اطلال ، ويأتى جيل آخر بعد زمن ، فيعيد تسوية الخرائب ويتخذ منها أساسا لمبانى جديدة قد تكون للسكنى أو للدفن . وهكذا تتوالى الطبقات بعضها فوق بعض ، ويرتفع المكان وينمو ويخفى بداخله تاريخ المنطقة وأهلها ، وعلى رجل الآثار أن يزيل تلك الطبقات بعناية فائقة ، لاينفع فيها استعمال أساليب العلم الحديث ، وانما يعتمد أساسا على العامل الفنى الذى يعمل بفأسه . وعلى الأثرى أو الآثارى الذى يعمل بفرشاته لملاحظة أدق التفاصيل وأن يعيد تكوين صورة للمبانى القديمة بمساعدة مهندس متخصص ، ويقرأ ما قد يكون عليها من كتابات ، ويستخرج ما بها من شواهد وقطع فنية هى ملك لتاريخ المكان .

اكتشافات بالصدفة :

وفى سنة ١٩٠٦ كشف عمال السكة الحديدية عن آثار هامة عبارة عن آنية وحلى من الذهب والفضة ترجع الى زمن الأسرة التاسعة عشرة حفظت بالمتحف المصرى ، بالاضافة الى تابوتين من الجرانيت تم اكتشافهما سنة ١٩٢٥ أثناء قيام عمال السكة الحديدية برفع الأتربة ، أحدهما يخص نائب الملك فى كوش (السودان) زمن الملكين رمسيس الثالث والرابع ، المدعى حورى الأول [٦] .

6) H. Gauthier, Un Vice-Roi d'Ethiopie enseveli à Bubastis in Annales du Service t. XXVII, p. 128-137.

حفائر مصلحة الآثار المصرية :

وفى الفترة مابين سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤٤ كشف لبيب حبشى عن معبد الملك ببيى الأول من أواخر أيام الدولة القديمة ، ويحتوى على مناظر تمثل الملك ببيى الأول أمام المعبودة بسطة تقدم اليه علامة للحياة قرب أنفه ومن خلفه المعبودة حتحور وكذلك اكتشف مقبرة لنائب الملك فى النوبة وشمالى السودان المدعو حورى الثانى وهو ابن صاحب المقبرة التى ظهرت عام ١٩٢٥ أثناء العمل فى انشاء خط السكة الحديد ، والتى نهبها العمال ولم يعثر بداخلها الا على التوابيت الحجرية[٧] .

وفى سنة ١٩٦٠ قام شفيق فريد باستئناف حفائر مصلحة الآثار فكشف عن جبانة وقصر من الدولة الوسطى كان يعتقد أنه معبد ، عثر بداخله على تماثيل لأفراد من الدولة الوسطى ، وكشف أيضا عن منطقة كبيرة لدفن القطط على مدى أجيال طويلة ، وكانت الحصيلة وفيرة، عبارة عن عدد كبير من التماثيل والأوانى والحلى وغيرها من أدوات الحياة اليومية معروض معظمها بمتحف قرية هرية بالقرب من الزقازيق . ولكنه لم ينشر حفائره بعد[٨] .

وفى سنة ١٩٦٧ وحتى ١٩٧١ قام أحمد الصاوى بمواصلة العمل فى منطقة القصر ، حيث تم الكشف عن بعض المخازن الملحقة ، عثر فى طبقاتها العليا على دفنات فى توابيت من الفخار ، وبعضها فى توابيت عبارة عن صناديق من الجبس متآكلة بفعل الزمن ، ولم ينشر حفائره بعد .

حفائر جامعة الزقازيق :

وفى فبراير سنة ١٩٧٨ باشرت جامعة الزقازيق تحت اشراف كاتب

---

(٧) وقد نشر لبيب حبشى حفائره فى سلسلة طبوعات مصلحة الآثار المصرية سنة ١٩٥٧ :

L. Habachi, Tell Basta, S. Annales du Service 22, 1957.

(٨) قام شفيق فريد بنشر تقرير مبدئي فقط :

S. Farid, A preliminary report ..., Annales du Service 58 (1964), p. 85 ff.

المقال حفائرها المنظمة لانقاذ ماتبقى من تلال المدينة الشهيرة التى كانت تشمل مساحة كبيرة ممتدة من قرية شوبك بسطة الى بلدة العصلوجى على عمق مدينة الزقازيق الحالية ، ومساحات كبيرة أخرى حلت محلها الآن أراضى زراعية على الجانب الآخر من خط السكة الحديدية المتجه الى القاهرة عبر مدينة بلبيس ، كما أقيم المجزر القديم ، والجبانة المسيحية، وبعض مدافن المسلمين ثم مستشفى الصدر ، ومخزن الأخشاب والمساكن الشعبية ، وبعض المواقع الخاصة بتدريبات الشرطة والمرور والجيش والمجارى كل ذلك على أجزاء كبيرة من المدينة القديمة [٩] •

وتم اختيار مواقع الحفر فى منطقة مجاورة لقصر الدولة الوسطى الذى تم الكشف عن أجزاء منه من قبل • وبدأ فريق العمل المتكامل المؤلف من الآثارى والمهندس والرسام والمصور والعمال الفنيين بالحفر على هيئة مجسات استطلاع فى منطقة مساحتها حوالى فدان على طول الطريق المرصوف تبدأ فى الركن الشمالى الشرقى من الخريطة عند أفران صناعة الفخار ، بغرض اخلاء مكان مناسب لتجميع مخلفات الحفر ، وحتى تطمئن الى أن هذه المخلفات لن تغطى آثارا تحتها • ومع أن هذا المكان سبق وأن عملت بعثة هيئة الآثار من قبل الا أن البعثة توصلت بعد تعميق الحفر الى الكشف عن دفنات فقيرة فى توابيت فخارية معظمها متحلل بسبب المياه الجوفية ، ومعها قطع من دمى فخارية كانت أجزاء من مسارج من العصرين اليونانى والرومانى وأوانى وجعارين وأختام وتمائم حول الدفنات • وظهرت بعض الجدران المبنية من الطين وأفران وأوان حجرية وصوامع غلال جنبا الى جنب مع الدفنات فى توابيت الفخار مما قد يشير الى أن هذه المنطقة السكنية لفقراء المدينة عندما أهملت وتحولت الى أنقاض أعيد استعمالها كمنطقة لدفن الفقراء فيما بعد نظرا لضيق المكان •

---

9) M. Bakr, New Excavations at Bubastis of Zagazig University, in IIe Congrè International des Egyptologues, Grenoble 1979.

المنطقة الأولي حفائر في منطقة القصر :

ثم انتقل العمل الى المنطقة المجاورة للقصر وفى الجانب الشمالى الغربى منه وعلى عمق أربعة أمتار من سطح الطريق المرصوف كشف عن بقايا بوابة حجرية ، عبارة عن العتب السفلى لبوابة كبيرة داخل سور من الطوب سمكه مترا وربع متر (١٫٢٥ مترا) يمتد تحت الطريق المرصوف من ناحية ، ثم فى اتجاه الجنوب داخل التل يواصل امتداده ليتصل بالسور الخارجى الضخم للقصر والذى تم الكشف عن أجزاء كبيرة منه من قبل • وتتبعنا البوابة والسور جنوبا ، وقد تبين أن التل الذى يقع فوق السور ، سبق أن أزيلت الطبقات العليا منه ، والتى كانت تحمل فى طياتها آثار العصر الاسلامى والمسيحى البيزنطى ، وكذا آثار العصرين الرومانى واليونانى البطلمى ، أما الطبقة العليا الحالية فتمثله مدافن مبنية بالطوب سقفها مقبى ، وقد عثر على ثلاث منها منهوبة فى الزمن القديم ، عثر فى احداها على الجزء العلوى من تمثال مجيب من الفيانس عليه كتابة هيروغليفية بالمداد تحمل اسم « بارع حور ابف » ، وهو اسم يظهر لأول مرة فى منطقة بوبسطة ويشير الى أن هذه المدافن يمكن أن تعود الى أواخر عصر الدولة الحديثة •

وبعد ازالة هذه الطبقة كشف عن عدد من الحجرات عبارة عن مخازن ملحقة بالقصر ، مليئة بالأوانى الفخارية السميكة خشنة الصنع ، فى وضع مقلوب ومكسورة ذات أحجام متقاربة ، وعند التعمق مع السور تبين وجود ثلاث مستويات من الجدران تنتمى الى ثلاثة عهود ، الطبقة الوسطى استعمل كسر الفخار (الشقف) بكثرة فى بناء الجدران فيها وفى جدران الطبقة السفلى وفى بعض جدرانها الضيقة نسبيا عثر على دفنات معها أوانى القرابين الفخارية ، مازالت جماجم بعضها واضحة• ويمكن تأريخها بزمن الدولة القديمة • واستمر العمل فى موقع مخازن

القصر ، حتى تم تحديد بعضها وظهور السور المحيط يمتد في اتجاه شمال جنوب ليتصل بسور آخر للقصر أكثر سمكا . وتعمق الحفر حتى وصل الى الأرض الرملية البكر ، حيث بدأت أولي عمليات الاستيطان وهناك ، وعلى مستوى يقع أسفل مستوى أرضية السور الضخم الممتد من الشرق الى الغرب عثر على دفنات لأقدم سكان للمنطقة ، اتخذ أصحابها وضع الجنين داخل توابيت من البوص أو الجبس وزودت في بعض الأحيان بعدد من الأواني الفخارية المميزة .

وأثناء التعمق في الحفر بجوار السور المحيط الضخم الممتد من الشرق الى الغرب وفي نقطة قريبة من التقائه مع السور كشفنا عنه يضم مخازن القصر ويمتد في اتجاه شمال / جنوب ، كشف عن مصطبة من الطوب على عمق ١٩ر٣ متر من أعلى الحفر ، لها مدخل مقبى يؤدى اليه درج من الطوب ، ولما كانت المقبرة مصمطة أى مليئة بالتراب المشبع بالرطوبة فقد تعذر محاولة فتحها من ناحية المدخل فلذا قمنا بعمل فتحة في السقف المسطح واستأنفنا الحفر حيث فوجئنا بدفنة تاليه لعصر بناء المصطبة في داخل بنائها وبشكل مستعرض معها في اتجاه وتمتد خارج المصطبة تحت السور الممتد من الشرق الى الغرب والدفنة تأخذ اتجاه شمال / جنوب والرأس ناحية الشمال وطولها ٤٧ر١ مترا وطول التابوت المصنوع من الجص ٩٦ر١ مترا والعرض ٥٤ر٠ مترا ، وسمك التابوت ٣ سم تقريبا ، ولم يعثر معها الا على بعض قطع الظران . أما المصطبة الأصلية فلم يعثر بها على أية متخلفات .

والى الشرق من هذه المصطبة وعلى الأرضية السفلى ، وفي ممر بين الجدران عثر على ثلاث جرار كبيرة قائمة في مكانها الأصلي مليئة بالأتربة ، عثر في احداها على ثلاث أواني فخارية سليمة ، جميلة الشكل ، احداها على هيئة الكأس له قاعدة وارتفاعه ١٢ سم وقطره ١٣ سم ،

وأخرى عبارة عن طبق رقيق الصنع يحمل زخارف على حافته على شكل السنارة • وقطره ١٩٫٦ سم وارتفاعه ٧ سم • ولعل هذه الجرار كانت تستعمل فى التخزين ، ووجود الأوانى الصغيرة الرقيقة سليمة داخل احداها يشير الى احتمال استعمالها لحفظ الأوانى القيمة ، وكان استعمال هذه الجرار الكبيرة لكل الأغراض تقريبا •

وفى الرديم فى الطبقة العليا عثر على قطعة من الحجر الجيرى عليها اسم ولقب الملك رمسيس الثانى — وعلى نفس المستوى فى منطقة القصر غير بعيد من موقع لوحة رمسيس الثانى هذه ، وبين الجدران العليا المتهدمة لمخازن القصر ، وعلى عمق ١٫٣٥ مترا من سطح التل ، وعلى عمق ٣٥ سم من مستوى ارتفاع الجدار الأساسى للسور ظهرت دفنة حيوانية نادرة • حيث استغلت الطبقة العليا لمخازن القصر لدفن عدد ثلاث جماجم من الفصيلة الخيالية ووضعت بعناية داخل مقبرة مبنية دائرية ومعها طبق من الفخار أحمر اللون ذو قاعدة مستديرة ، وكان فى وضع مقلوب ولا يغطى شيئا فيما يبدو من هذه الجماجم الثلاث اثنتان كبيرتان فى الحجم نسبيا ، ولم يعثر داخل المقبرة المستديرة التى لا ترتفع بقايا جدارها عن عشرين سنتمترا على بقايا للهياكل الحيوانية أو أية مادة أثرية أخرى • ودفن الجماجم الثلاثة بهذه الكيفية يؤكد الاهتمام الخاص بها ويشير الى تقديسها والمعروف أن هذه الحيوانات كانت رمزا لمعبود آسيوى هو بعل الذى توحد مع المعبود المصرى سيت وقدس فى مصر فى زمن الغزوة السامية لقبائل الهكسوس فى الفترة الانتقالية الثانية فيما بين زمن الدولة الوسطى والدولة الحديثة المصرية • وقد اتفق على أن فترة حكم الهكسوس لمصر امتدت مابين ١٦٥٠ ، ١٥٧٠ ق • م • احتفظ فيها الهكسوس بمعبوداتهم الآسيوية مع محاولاتهم الظهور بمظهر المتمصرين أمام الشعب •

وهناك بعض الشواهد الأخرى التى تشير الى ظاهر وجود عبادات سامية فى منطقة تل بسطه مارستها جاليات استقرت فى المنطقة لمدد طويلة وسنذكرها فى حينها •

وفى موسم الحفر الثانى لبعثة جامعة الزقازيق (من ١٩٧٨/٩/١٩ وحتى آخر ابريل ١٩٧٩) وعند استئناف العمل فى منطقة مخازن القصر هذه ، وأثناء رفع الرديم تم الكشف عن خاتم ذهبى يزينه جعران من العقيق الأحمر القانى وعليه حفر يمثل علامة الحياة • ومجموعة من الجعارين والتمائم وقطع من أوانى زجاجية وقطع من أوانى فخارية أو من القاشانى وعلى احداها رسم من الداخل يصور زهرة لوتس متفتحة تلتهمها سـمكة •

ومن أهم القطع التى ظهرت فى الرديم أيضا لوحة الكاتب كبير كهنة بسطه المدعو احبو • وهى قطعة مستطيلة الشكل طولها ٥ر١٢ سم وعرضها ٦ر٧ سم وسمكها ٥ر١ سم من القاشانى ، على سطحها طبقة مزججة صفراء اللون السطح العلوى أو الوجه يحمل بالحفر البارز وبشـكل متقابل برعمان من براعم اللوتس يخرج من كل برعم منهما سـاقان متماثلان يمتدان حتى حافة الضلع الكبير لوجه اللوحة • والساق الخارجى لكل ينتهى ببرعم لوتس ، أما الساق الداخلى فى كل ناحية فينثنى الى الداخل بالقرب من الضلعين القصيرين للقاعدة المستطيلة حيث ينتهى كل منهما بورقة مستديرة الشكل تقريبا ، حفرت لتحدث عمقا يساعده انثناء أطراف الورقة الى أعلى لتصبح مكانا مناسـبا يحتـوى مادة الحبـر المخصص للكتابة • ومن حول أطراف كل ورقة لوتس منهما حفرت أسماء وألقاب صاحب اللوحة • وفى ظهر اللوحـة وفى كل زاوية من الزوايا الأربعة توجد حفرة مربعة يحتمل انها كانت تحمل قوائم صنعت من مادة عضوية كالخشب أو العاج مثلا • تحولت بمضى الزمن الى تراب • وهذه القطعة الفنية يبدو أنها لم تستعمل فعلا • وانما صنعت لأغراض جنائزية • أى لتكون ضمن الأثاث الجنائزى الذى أعد ليوضع مع الميت فى القبر •

وعندما انتقل العمل الى الجنوب من السـور الضخم الذى يفصل مخازن القصر عن بقية منشآت القصر الأخرى ، تبين أن طبقة التوابيت الفخارية العليا قد زالت فى معظمها من قبل بفعل عوامل كثيرة ، أما الطبقة

مقابر مقبية ومعها مجموعات من الأوانى وبعضها يتخذ من لوحات حجرية قديمة أرضية للمقبرة ، ويستعمل قناع الكارتوناج المحلى بطبقة من رقائق الذهب للمحافظة على شكل الوجه •

معبد كنعانى ؟ : وعند ازالة الطبقة العليا هذه كشف عن قاعات كبيرة مربعة تقريبا ، أرضيتها مرصوفة بقوالب من الحجم الكبير وبانتظام تفصلها عن بعضها البعض جدران ، وفى داخل بعضها أفران مستديرة تحميها وتبعد الدخان عن ناحية القصر جدران ثعبانية الشكل ملتوية غير سميكة ومن الطين مباشرة فى اتجاه شرق / غرب ، وكأنها مصدات للريح ، اتخذت هذا الشكل لتصمد فى مكانها مدة طويلة • وهذه الحجرات على مستوى أعلا من مستوى أرضية قصر الدولة الوسطى المكتشف من قبل • ومن النظرة الأولى المبدئية يمكن أن نقول أن هذه الأفران قد استغلت هذا المكان ، أو هذه الطبقة ــ بعد أن هجرت فى بداية عصر الدولة الحديثة وأنه ربما كان يماثل ماعثر عليه من معابد كنعانية فى تل الضبعة القريبة من تل بسبطه والتى تعود الى عصر الهكسوس مع التحفظ والترقب لحين الانتهاء من الدراسة الشاملة بعد تمام عمليات الحفر المستمرة حاليا •

لوحة لمعبود آسيوى :

وقد عثر ضمن مخلفات الحفر على لوحة من القاشانى صغيره الحجم ، الجزء العلوى منها مكسور ، ومرسوم عليها بالحبر الجزء السفلى وساقا شخص واقف ، حافى القدمين يتمنطق بسيف فى حزام الوسط • وأمامه ما اعتقدنا فى البداية أنه مائدة قرابين مرتفعة القاعدة• ولكن تبين أنها تصور جزءا من درع ، وعلى ذلك يبدو أن الرسم يصور معبودا آسيويا قد يكون هو رشب •

المنطقة الثانية حفائر منطقة الجبانة :

كانت تمثل تلا مرتفعا الى الشمال الغربي من مقبرة نائب الملك فى كوش حورى الثانى التى كشف عنها لبيب حبشى عام ١٩٣٩ ، والى الشمال الشرقى من منطقة الدفن الذى كشف عنها شفيق فريد وكان من ضمنها مقبرة أيوتى • عندما بدأنا العمل ظهرت فى الطبقة العليا دفنة طفل ، فى مدخل مقبرة أسرية رقم (١) • ولم يبدو عليها آثار التحنيط وفى وضع الجنين ، وبالقرب من بقايا الهيكل العظمى طبقان ، أحدهما قطره ٢٦ سم كان يحتوى على مادة متفحمة ربما كانت نوعا من القربان أو بخور محروق • وكانت هذه الدفنة على عمق ١ر٠٤ مترا ، وعلى بعد ١ر٤١ مترا من مدخل المقبرة الأسرية رقم (١) • وعند استمرار الكشف وجدنا تحت رأس الطفل وسادة فى غاية الأهمية عبارة عن تمثال مجيب من حجر الشست لأحد كبار رجال الدولة الحديثة ، وارتفاعه ١٥ر١ سم وعرضه عند الكتفين ٤ر٤ سم ، وكان مكسورا غيما فوق القدمين وأعيد ترميمه فى الزمن القديم بواسطة عمل حفرة فى كل جانب والاستعانة بقطعة من الخشب لاعادة تثبيت الطرفين ، والتمثال الصغير جيد الصنع ، متقن الاخراج عليه اسم (باووت) • وربما كان أحد كبار رجال الدولة الحديثة • ولا شك أنه لاينتمى الى دفنة الطفل المذكور سوى أنه أعيد استعماله بعد نقله من مكانه الأصلى ليستقر كمسند لرأس طفل عزيز على أهله • ويمكن للمؤرخ أن يتخيل صورة الأحداث : كيف سرق هذا التمثال النادر من مكانه الأصلى ، ومن سرقه ؟ وكيف حصل عليه والدا الطفل ؟ ولماذا كل هذا الاهتمام بوضعه مع مقبرة الطفل• مما يعطى صورة النوازع الانسانية التى لا تتغير بتبدل السنين •

وصاحب التمثال يلبس رداء طويلا يصل الى مافوق القدمين ، ذى نقبة مثلثة من الأمام ، ويحتضن الصدر من الأمام ، ويحتضن الصدر من

الأمام طائر « البا » الذى يمثل روح المتوفى وفى مخالب الطائر علامتا (شن) وهناك خطان محفوران يبدآن من نهاية طرف ريش الجناحين ويمتدان فوق الكتفين حيث ينتهيان بعلامتين محفورتين ترمزان الى الفأس ، والمعروف أنها تميز تماثيل المجاوبين عن غيرها ، حيث الاعتقاد بأنها تقوم بالعمل بدلا من صاحبها فى حقول الجنة ، عندما ينادى عليه الاله أزوريس • وتنعقد ذراعا الرجل حول الصدر واليدان مفتوحتان والأصابع مبسوطة لتبدو وكأنه يحتضن بدوره طائر الروح « البا » ويضع شعرا مستعارا يمتد حتى يصل الى مستوى الكتفين فوق شعره الطبيعى الطويل الذى يرى من الأمام يتساقط على الجانبين من خلف الأذنين ، ليغطى جزءا من الصدر ويرتدى قميصه ذا أكمام قصيرة ومئزرا طويلا نقبته المثلثة الأمامية طويلة ومقواه • وفوقه وضع شال له ثنيات منتظمة يغطى أعلا الزراعين ويلتف حول الوسط وينتهى من الأمام فى موقع أعلا المئزر وينتعل صندلا ، وقد حفر على النقبة المثلثة الأمامية بالهيروغليفية « لعل المرحوم باووت يشرق (أى يعود الى الحياة من جديد) » وتستكمل الصيغة المعتادة لتماثيل المجاورين فى ستة أسطر أفقية على الجانبين والظهر تحت الوسط وحتى نهاية الأطراف السفلى للمئزر •

المقبرة ذات السقوف المقبية رقم (١) :

وأزيلت دفنة الطفل لتفسح الطريق لاكتشاف المقبرة الأسرية رقم (١) وكانت كلها من الطوب وتتألف من مدخل فى الناحية الشمالية الشرقية ، ويؤدى عبر عتب من الحجر الجيرى الى قاعة ذات سقف مقبى ، تؤدى بدورها الى قاعة دفن مقبية أيضا على كل من الجانبين • ولكل من قاعتى الدفن مدخل سقفه مقبى ومن الطوب أيضا • وقد نهب المدفن فى الزمن القديم عن طريق فتحات ثلاث فى السقوف الثلاثة ، وفى القاعة التى تقع على يسار المدخل (الشرقية تقريبا) والمغطاه أرضيتها بقطع غير منتظمة من الحجر الجيرى الجيد • عثر فى الركن الجنوبى الشرقى على اناء من نوع الأمفورا ذى مقبضين ، ارتفاعه ٤٧سم

وقطر الفوهة ١٣٫٥ سم • ومن حول هذه الأمفورا ظهر ثلاثة تماثيــل صــــغيرة للمجاوبين من القاشانى ذى اللون الأزرق الفاتح ، والثلاثة صناعتها واحدة ومقاييسها متفقة ، الطول ١٢٫٣ سم وعرض الأكتاف ٤٫٣ سم واتخذت شكل المومياء ، حيث انعقد الزراعان حول الصدر وفى كل يد فأس وحبل يلتف حول كل كتف لينتهى بغرار (زكيبة) فى الناحية اليمنى ، واناء فى الناحية اليسرى • وكل تمثال منها عليه من الأمــام فقط كتابة هيروغليفية بالحبر فى عامود واحد من أعلا إلى أســـفل • وأحدها يحمل لقب الخادم آمون ــ ام ــ حب (أمنمحب) والآخر يحمل اسم السيدة « مغنية المعبودة بسطه معى » •

المقبرة رقم (٢) ذات السقف المقبى :

والى الشرق من المقبرة الأسرية رقم (١) وغير بعيد من من مقبرة نائب الملك حورى الثانى اكتشفت مقبرة جديدة رقم (٢) وتتألف من قاعة دفن واحدة ذات سقف مقبى • ومدخل على هيئة العقد وفى المقبرة عثر على دفنتين واحدة فوق الأخرى داخل تابوتين من الفخار فى حالة سيئة ، وبالقرب من رأس الدفنة العليا عثر على اناء فخارى احتوى على خمسة تماثيل للمجاوبين على هيئة المومياء ماعدا واحد منها يلبس ازرارا له نقبة مثلثة أمامية والتماثيل رديئة الصـــنع والحرق ، وارتفاعها فى المتوسط ٢٠٫٧ وعرضها ١٠٫٦ سم عند الاكتاف ، وعليها نقط سوداء ، وعليها كتابات هيراطيقية بالحبر الأسود •

وعند ازالة التابوت العلوى واناء تماثيل المجاوبين ظهر تابوت فخارى على هيئة الانسان أيضا ، والى جوارى اناء فخارى داخله اثنا عشر تمثالا للمجاوبين ، عليهـــا كتابات هيراطيقية مقســـمة داخل الاناء الى مجموعات • وكلها تتجه بوجهها ناحية التابوت وارتفاع الاناء ٥٠ سم وعرضه ٢٨ سم ومتوسط ارتفاع كل تمثال ١٩ سم وعرض الاكتاف ٤ سم

دفنات داخل التوابيت الفخارية :

وأثناء الحفر بالقرب من جبانة الدولة الحديثة التى إكتشفها شفيق فريد ظهرت مجموعة كبيرة من التوابيت الفخارية • كل واحد منها على شكل المومياء له ثقبان كبيران عند قمة الرأس وعند أخمص القدمين • أما الغطاء الذى يغطى الصدر والوجه ويعتبر فتحة التابوت التى تدخل المومياء من خلالها ، فقد شكل على هيئة الجزء العلوي للمومياء حيث يظهر الوجه وقد ضخمت الأذنان بشكل يوحى بأهميتها بالنسبة للمعتقدات الدينية الخاصة بالبعث • ومن حول الوجه شعر مستعار تظهر عليه آثار أصابع صانع الفخار • والزراعان عقدا على الصدر حيث يبدو منها الكفان فقط • كل كف مضمومة الابهام بشكل أفقى تقريبا • وفى واحد منها (رقم ٣٤١) الابهام في وضع رأسى وقريب جدا من الذقن التى تبدو بدون لحية على عكس المتبع • وفيها أيضا لايظهر الشعر المستعار المألوف وانما يطل الوجه بملامح غير واضحة وغير محدودة من التابوت • مما يوحى بوجود أوجه شبه بينها وبين مناظر بعض شعوب البحار التى صورت علي جدران معبد الملك رمسيس الثالث فى مدينة هابو على الجانب الغربى من مدينة طيبة • وبعض التوابيت الفخارية كان ملونا واحدها مزين برسوم آلهة الجبانة ولكنه كان فى حالة سيئة جدا فلم يتحمل التعرض للضوء والهواء الجوى • وهذه الأنواع من التوابيت تعود الى زمن الرعامسة وتمتد حتي تغطى كل مراحل العصر المتأخر فى مصر •

جعارين مع الدفنات :

وظهر مع هذه الدفنات عدد كبير من الجعارين بعضها عليه زخارف حلزونية والآخر عليه أسماء الآلهة مثل آمون وبسطه وحورس وسبدو ، كما حمل عدد منها أسماء ملكية مثل تحوتمس الثالث وأمينوفيس الثانى، واثنان من حجر الاستياتيت ، كل واحد منهما عليه تصوير لمعركة حربية حيث يصور الملك على عجلة حربية يصرع بسهامه بعض الأعداء •

نوع آخر من الدفنات الفقيرة :

وفى هذه الطبقة التى بلغ سمكها مترا ظهر نوع آخر من الدفنات وعلى عمق حوالى ٧٠ سم ، وهذه الدفنات تؤلف فى حد ذاتها طريقة لها نوعية منفصلة وتتخذ اتجاه شرق / غرب • وتتكون الدفنة من اطار عبارة عن مدماك واحد من الطوب طول حوالى ٢ مترا وعرضه ٥٠ سم ، وبالقرب من القدمين اناء يحتوى عددا من تماثيل المجاوبين من الطين المحروق أو غير المحروق ، وأحيانا يلون باللون الأحمر ليعطى شكل التماثيل الفخارية المحروقة فعلا • والتمثال الصغير بارتفاع ١٨ سم فى المتوسط وعرض الكتفين حوالى ٥ سم وفى احدى هذه الحالات كان عددها ثمانية وتحمل اسم « حم ـ ان ـ بيروى » • ولم يعثر على تابوت له ، ولكن تغير لون التراب المحيط بالبقايا العظمية الى اللون البنى القاتم يشير الى احتمال وجود تابوت من الخشب أو من الحصير • وليس لهذه الدفنات سقف وانما يهال عليها التراب •

النوعية الرابعة من الدفنات :

وتتألف النوعية الرابعة من الدفنات فى هذه الجبلنة من اطار من مدماك واحد من الطوب أيضا ، وبداخله يوضع التابوت الفخارى وبالقرب من الرأس بناء دائرى مكون من مدماك واحد من الطوب ربما ليضم القرابين ، أما تماثيل المجاوبين لهذه الدفنات فكانت تحفظ داخل قدور كبيرة وتغطى فوهتها بقطعة من الحجر الجيرى وتوضع خارج اطار الدفنة •

أعداد أخرى من مجموعة المقابر ذات القباب :

والى الشمال من هذه الدفنات المختلطة اكتشفت أعداد كبيرة من المقابر ذات السقوف على هيئة القبو الكاذب أو الكامل ، وتمتد هذه المقابر الى جانب بعضها البعض فى اتجاه شمال / جنوب • ويتألف الواحد منها من غرفة مربعة من الطوب الغير محروق ذات سقف مقبى

ذات مدخل شبه تصف دائرى تقريبا فى الجانب الشمالى ، وبعض هذه المقابر صمم ليضم دفنتين الى جوار بعضهما البعض أو توضع الواحدة وراء الأخرى على نفس الجانب وفى هذه الحالة تزود المقبرة بمدخل آخر فى الجهة الجنوبية •

المقبرة رقم (٣) :

واحدى هذه المقابر وتحمل رقم ٤٧ فى الحفائر تختلف عن المجموعة الأخرى • فقد بنى السقف المقبى لها بطريقة مغايرة ، حيث يبدو كدرج يصعد من الجانبين الشرقى والغربى وزود الجدار الشرقى لهذه المقبرة بفتحتان تضم كل واحدة منهما لوحة مثبتة من الحجر الجيرى المكتوب بالخط الهيروغليفى تبدأ بصيغة تقديم القربان المألوفة : « فاليتعطف الملك ويأمر باعطاء ••• » ولكن لم ترد أسماء أصحابها على أى منهما ، واحدى اللوحتين فى حالة سيئة •

أما المقبرة فطولها ٥ر٢ مترا وعرضها ٦٥ر٣ مترا وأقصى ارتفاع لها هو ٩٥ر١ مترا ويتألف البناء كله من ٢٤ مدماكا من الطوب المجفف بما فى ذلك السقف المدرج الذى بنى بواسطة الثمانية مداميك الأخيرة • وحجم الطوبة ٣٣ × ١٥ × ٥ر٧ سم • وقد تم فتح المقبرة بواسطة حفر مقطع فى السقف ، وعلى عمق ٤٥ر١ مترا ظهر تابوتان من الخشب فى حالة سيئة جدا ، لونهما أبيض وأطوالها هى : ٣٦ر١ × ٥٥ر٠ مترا ، ١٫٣٠ر × ٤٥ر٠ مترا على التوالى • وفى التابوت أو الدفنة الأولى يستلقى الهيكل على جانبه الأيسر ، والرأس الى الشمال والوجه ينظر نحو الشرق ، واليدان موضوعتان بين الفخذين ، وظهرت سكين من حجر الظران بالقرب من الركبتين ، وفى التابوت أو الدفنة الثانية تثنى الزراعان على الصدر ، ويظهر مدخل هذه المقبرة فى الجهة الجنوبية وعلى ارتفاع ٥ر٠ مترا من سطح الأرض ، أما الجانب الشمالى للمقبرة فتشغله مقبرة أخرى تتخذ شكل مائدة القربان •

المقبرة رقم (٤) مقبرة « نب ــ سن » :

وبالقرب من نهاية الموسم الأول عثر علي مقبرة أخرى تحمل نفس ملامح المقبرة السابقة ، وتحتوي علي دفنتين ، كما اكتشفت فيها لوحتين مثبتتين فى فتحتين فى الجدار وكانت أرضية غرفة الدفن مغطاة بقوالب الطوب ، وغطيت الأرضية بطبقة سميكة من الرمل ٠ ثم وضع التابوتان الخشبيان فوقها ، وكان الهيكلان ممدين داخل التوابيت التى تهالكت تماما ، كما ثبتت اللوحتان المذكورتان فى الحائط الشرقى من الخارج وظهراهما الى الخارج ٠

وتشير الرسوم المنفذة بالحفر الغائر لصاحب المقبرة وزوجته وأولاده ، وكذا الكتابات الهيروغليفية المصاحبة لها الى أنها ترجع الى أواخر زمن الدولة القديمة ، أو على أكثر تقدير أوائل زمن العصر الوسيط الأول ، وصاحب المقبرة يدعى « نب ــ سن » وكان يشغل منصب (المشرف على أعمال الجرانيت) ٠ وهذا اللقب يفسره وفرة أحجار الجرانيت التى استعملت في بناء معابد مدينة بوبسطة وقد أشير اليه فى المقدمة من قبل ، وفى كل ركن من أركان المقبرة وضع أحد الأوانى الفخارية حسنة الصنع ، وبدت مقلوبة فى قاع كل منها ثقب وتشبه الى حد كبير تلك المستعملة حاليا كأصص لنباتات الزهور وغيرها وارتفاع الواحد منها ٣٢ سم وقطره ١٢ سم عند القاعدة و ٢٧ سم عند الحافة العليا ، ولايمكن الجزم أنها كانت تستعمل كأوانى للأحشاء ٠

مقابر جماعية :

وظهرت أسفل الطبقة العليا مباشرة التى كانت تضم التوابيت الفخارية والدفنات المشابهة عدد من المقابر المبنية من الطوب ذات سقوف مقبية أيضا ، تحتوى على ثلاث دفنات أحيانا فى شكل مجموعات وغرفة الدفن الجماعية هذه تتخذ اتجاه شمال / جنوب ٠ ونموذج ٠ لهذا النوع المقبرة رقم ١١٨ ٠ وطولها ٣٫٦٠ مترا وعرضها ٢٫٦٠ مترا

وارتفاعها ١٫٠ مترا وسمك الجدران ٠٫٣٥ مترا ، ويحتوى الجدار الشمالي على ثلاثة مداخل تؤدى الى الثلاث مجموعات من الدفنات ، كل مجموعة تتألف من ثلاث أو خمس أفراد الواحد فوق الآخر تقريبا . والرأس الى الشمال والهياكل يبدو بعضها راقدا على الظهر أو على جانبه الأيسر والوجه يتجه مرة ناحية الشرق ومرة ناحية الغرب ومرة ينظر الى أعلا . وقد عثر على ثلاث مجموعات من الأوانى الفخارية من رؤوس كل مجموعة . والملاحظ أن هذا النوع من الدفنات يتميز بوفرة أوانى القرابين على عكس النوع الذى يقع أسفله ويسبقه فى الزمن وهو الذى وصفناه قبل ذلك مباشرة . وقد عثر على ثلاثة مقابر من هذا النوع وأرقامها ٧٩ ، ٨٣ ، ١١٨ وهى تالية فى الزمن للتوابيت الفخارية .

مقابر على شكل المصاطب :

وعلى مستوى أسفل من مستوى مجموعة المقابر المقبية الكثيرة التى عثرنا مع بعضها على لوحات مكتوبة أمكن اقتراح تحديد عمرها ، ظهرت مصطبة كبيرة جدا سميكة الجدران استغلت لدفنات اضافية مربعة . ويؤدى الى مدخليها بئران عميقان . وكل مدخل على شكل نصف دائرة . وقد استغلت هذه الآبار فى أزمنة تالية لدفنات فقيرة ، كما عثر على بقايا عظام رأس خنزير واناء فخارى عند أحد المدخلين . ومع احدى الدفنتين الرئيسيتين وجدت مرآة برونزية فى يد صاحبتها ، ولم يظهر مع الدفنتين على أية أوانى أو متعلقات وستخصص دراسة لهذه المقبرة الهامة التى تعود الى العصور الأولى لتعمير بوبسطه . والتى يندر وجودها فى الدلتا نظرا لضياع معظم معالم الدلتا الأثرية .

مناطق جديدة :

كما عثر بالقرب من المكان على منطقة مخصصة لورش العمال ومخابز كبيرة على شكل حجرات مستطيلة .

وفى نهاية هذا العرض يمكن أن نشير الى بعض النقاط الهامة ذات الدلالة :

١ ــ من بين التماثيل الصغيرة الفخارية (تماثيل المجاوبين) التى عثر عليها مجموعة صناعتها رديئة تشير ملامحها الى احتمال أنها لقوم آسيويين •

٢ ــ العثور على ثلاثة أنواع ن الأوشابتى على مستوى واحد قد يكون معناه وجود ثلاث أجناس من البشر تعايشوا فى زمن واحد •

كما قد تشير الى اختلاف فى المستويات الاجتماعية •

٣ ــ الدفنات الحيوانية التى ظهرت تبين وجود عبادة سامية لقوم آسيويين يعيشون فى المنطقة لفترة طويلة •

٤ ــ أشكال بعض وجوه التوابيت الفخارية ذات ملامح غريبة ربما غير مصرية •

٥ ــ خلف قصر الدولة الوسطى عثر على فرن دائرى الشــكل من الطوب ارتفاعه حوالى المتر ، وفى داخله وبين الرماد اكتشفت أعداد كبيرة جدا من أوانى مخروطية الشكل سميكة من الفخار كتلك التى عثر عليها بالقرب من الأفران التى تم كشفها مع الحفائر • وهذه الأوانــى الفخارية طولها فى المتوسط حوالى ٣٠ سم وكان يعتقد أنها كانت مخصصة لحفظ تماثيل الأوشابتى والتمائم الفخارية أثناء حرقها لتصنيعها ، ولكن بمراجعة شاملة للموضوع تبين أنها كانت تحوى أرغفة الخبز المخروطية التى تظهر مع حاملات القرابين وعلى موائد القربان • وكذلك نماذج أعداد الخبز ضمن تماثيل الخدم من زمن الدولة القديمة ، فكان العجين يوضع داخل هذه الأوانى الفخارية ويلقى فى النار مباشرة لينضج ، ثم يستخرج من داخل الاناء بكسره ، وهذا يفسر وفرة البقايا المكسورة من هــذه الأوانى والتى استغلت أحيانا مع الطمى فى بناء الجدران •

٦ ــ اسفل طبقة التوابيت الفخارية مباشرة وعلى عمق ١٥٠ سم من مستوى سطح رديم منطقة الجبانة وبالقرب من حفائر شفيق فريد عثر على لوحة من الحجر الجيرى استعملت لتسند أحد الجدران هــو امتداد جدران طبقة المقابر المقبية التى كشفها شفيق فريد من قبـــل ، والتى استأنفنا العمل فى امتدادها ، وكشفنا فيها عن المقابر الجماعية والتى يقع أسفلها بحوالى نصف متر طبقة المقابر المقبية التى عثر على أعــداد كبيرة منها ، وارجعناها الى عصر نهاية الدولة القديمة وبداية العصر الوسيط الأول • واللوحة مقاييسها هى الطول ٦٥ سم والعرض ٤٠ سم والسمك ١٢ سم وتتخذ شـــكل مائدة القربان • وأهميتها ان عليها نصا هيروغليفيا يوضـــح اسم ولقب صـــاحبها :

« المفتش (أو المشرف) الكاهن خنسو حتب » •

وأهمية اللوحة تبدو فى اسم صاحبها المكون من اسم المعبــود خنسو أحد آلهة ثالوث طيبة ونعتقد أنه يرد هنا لأول مرة •

٧ ــ الملاحظ أن كثيرا من آثار المنطقة كالتمائم وألقاب رجال الدولة وغيرها تؤكد شـــيوع نفوذ معبودة المنطقة بسطه •

وأثناء حفر أساسات أحد المساكن فى منطقة جبانة القطط التى تم اكتشـــافها من قبل وغير بعيد من موقع عمل البعثة عثر على تمثـــال قيم من البرونز للقطة رمز معبودة المنطقة ، والعينان من النحاس الأحمر • وحول الصدر حفرت صديرية وسلسلة تنتهى بتميمة أوجات • أى العين التى تطرد الحســـد وترمز الى القربان •

عثر فى الرديم على قطعتين من الحجر الجيرى كل واحد منهـــا مزودة بثقف يحتمل أنها استعملت كمخطاف (هلب) للمراكب التى كانت تجرى فى الفرع البوبسطى •

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

• [illegible]

[illegible]
• [illegible]

[illegible]
• [illegible]

[illegible]
[illegible]
• [illegible]
[illegible]
• [illegible]

[illegible]
[illegible]
• [illegible]

حول النقوش الصفوية القديمة

بقلم : دكتور فتحى عفيفى بدوى
أستاذ التاريخ القديم المساعد
جامعة الأزهر

مقـــدمة :

تعتبر البحوث والدراسات الخاصة بالنقوش القديمة من أهم السبل للوصول الى المعرفة التاريخية ، ولذلك فقد حظيت دراســــة النقوش العربية القديمة باهتمام العلماء والرحالة الأوربيين منذ القرن الثامن عشر الميلادى ، فكان منهم على سبيل المثال : كارستن نيبور[1] Carsten Niebuhr وجوزيف هالفى[2] Josef Halevy وادوارد جلازر[3]

(١) هو مستشرق دانمركى زار اليمن خلال الفترة من ١٧٦١ — ١٧٦٤م ويمكن مراجعة التقرير الذى وصفه بالألمانية عن بعثته فى جنوب شـــبه الجزيرة العربية بعنوان :

Reisebeschreibung nach Arabian und Anderen Umliegenden Landern (Kopenhagen 1772).

— راجع احمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها ص٧٧ — ٩٩ .

(٢) هو مستشرق فرنسى يهودى ، زار اليمن حوالى عام ١٨٧٠ وتخفى فى زى يهودى متسول واستغل الشهامة العربية التي تقضى بعـــدم الاعتداء على المرأة أو الطفل أو اليهودى الأعزل وقد تمكن من جمع ونقل ما يزيد عن ٦٧٦ نقشا عربيا قديما .

(٣) هو مستشرق نمساوى زار اليمن فيما بين الأعوام ١٨٨٢ — ١٨٩٢م واستطاع أن يجمع مئات من النقوش الهامة ، كما نشر الكثير منها لكنه لـــم يتمكن نشر بقية اعماله .

Edward Glaser وهارى سان جون بريدجر فلبى[٤] H. St. J.B. Philby
الا أنه على الرغم من أهمية وجدية هذه الجهود فلا تزال النقوش العربية القديمة التى شاع ظهورها فى مناطق عديدة من شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا والأردن فى حاجة ماسة الى اجراء مزيد من البحوث والدراسات لتفسير مايكتنف بعض جوانبها من غموض والتى نرجو أن يتهيأ للعلماء والباحثين العرب النصيب الأوفر فيها .

ففى منتصف عام ١٩٨٢ عثر فى أحد الأماكن الصخرية بالمملكة العربية السعوية وعند خط الحدود الفاصل بينها وبين المنطقة الغربية من الأراضى العراقية على قطعتين من الحجر الجيرى تم حفظهما بمتحف قطر الوطنى ، وهما يحملان على سطحهما نقوشا قديمة ، وقد تبين من خلال عمليات الفحص المبدئية لهذه النقوش أنها من ذلك النوع الذى اصطلح المشتغلين بعلم الكتابة على تسميتها « بالكتابة الصفوية » ، لكنه من الأفضل قبل الخوض فى شرح معانى هذه النقوش - وهو ما لن يتسع المجال لتحقيقه الآن لما يحتاجه ذلك من وقت طويل للبحث والدراسة - القاء بعض الضوء حول ماهية هذه الكتابة فمما لاشك فيه أن معرفة الكتابة تعتبر من أهم الاختراعات البشرية الكبرى التى ساعدت على تقدم الحضارات الانسانية ، فهى لا تقل فى أهميتها عن أعظم الاكتشافات التى قام بها الانسان منذ ظهوره على كوكب الأرض ، ويكفى للتدليل على ذلك ما اتفق عليه المؤرخون من اعتبار التدوين والتوصل الى معرفة الكتابة لدى أى شعب بمثابة حدا فاصلا بين عصور ماقبل تاريخه وعصره التاريخى ، فهى دلالة كافية على مقدار النضج العقلى والتطور الذهنى والتقدم الثقافى الذى أحرزه هذا الشعب ، ولا يعنى هذا التحديد أن التدوين ومعرفة الكتابة قد توصلت اليه كل مناطق

---

(٤) هو مستشرق انجليزى سمى نفسه « الحاج عبد الله » وقام برحلات كثيرة آخرها عام ١٩٥٢ ، وتمكن من جمع ونقل مايزيد عن ١٢٠٠٠ نقشا عربيا قديما .

الاستيطان البشرى فى وقت واحد ، بل اختلف هذا التوقيت من منطقة لأخرى طبقا لظروف سكانها الجغرافية والاقتصادية ، بمعنى أنه اذا كان الانسان قد توصل فى مصر والعراق على سبيل المثال الى معرفة الكتابة فى بداية الألف الثالثة قبل الميلاد ، فانها قد تأخرت قرون عديدة فى مناطق أخرى من بقاع العالم • فقد عرفها فى اليونان حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، وفى روما حوالى القرن الخامس قبل الميلاد وفى غرب أوربا حوالى القرن الأول قبل الميلاد ، على حين ظلت مناطق أخرى عديدة تعيش فى عصور ماقبل تاريخها حتى العصر الحديث •

أما كيف توصل الانسان الى معرفة الكتابة فهى من الأمور الشائكة والتى يصعب تناولها ، الا أنه من المعلوم أن الانسان اتجه منذ أقدم عصوره الى التعبير عن بعض مايدور فى خلده من مشاعر وأفكار بتسجيل نقوش ورسوم تخطيطية ملونة على جدران كهوفه وأماكن سكناه ، وبالتدريج ومع ازدياد تطوره العقلى والحضارى ازدادت رغبته الى تدوين أعماله وأفكاره ومعتقداته باستخدام رموز وشارات بدائية غامضة ، ثم أخذ يطورها تدريجيا حتى وصل بها الى مرحلة الكتابة التصويرية Pictography والتى تعنى رسم صور الأشياء تعبيرا عنها ، فاذا شاهدها غيره أدركها وفهمها وسماها بأسمائها لكنها لم تكن كافية للتعبير عن الأمور الروحية والألفاظ المعنوية ، ومن هنا كان الدافع لاختراع الكتابة المقطعية ، وهى الكتابة التى اختزلت الصور والرموز وجزأتها الى مقاطع عديدة ، ثم أخذت منها مقاطعها الأولى وسميت بأسمائها الأصلية ، لكنه سرعان ما وضح أمام الانسان صعوبات هذه الكتابة والتى من أبرزها ضرورة حفظ صور مئات من العلامات المعبرة عن المقاطع لتدوين مايريده ، ولذلك سعى الى اختزالها واختصارها وصولا الى جذورها الأساسية ، فتوصل بذلك الى الحروف الهجائية والتى مكنته من تدوين مايدور فى خلده من أفكار وآراء •

أما عن المكان الذى شـــهد ظهور أول أبجدية مدونة فذلك يعتبر من المسائل التى يصعب تناولها ، اذ لابد من مواصلة البحث والدراسة المتصلة بكافة الرسوم والرموز التى سجلها الانسان خلال مرحلة ماقبل تاريخه ، وعقد المقارنات فيما بينها ، ودراسة أشكال الحروف وكيفية ترتيبهـــا والنطق بها وعندئذ يمكن تحديد المكان الأول ومعرفة ما اذا كانت عملية التدوين قد ظهرت لأول مرة فى احدى مناطق الشرق الأدنى القديم (مصر ــ الجزيرة العربية ــ العراق ــ فينيقيا .... الخ) أم ظهرت فى احدى مناطق حوض البحر الأبيض المتوســـط (كريت ــ قبرص .. الخ) أم ظهرت فى احدى مناطق الشرق الأقصى القديم (الهنـــد ــ الصين ــ اليابان ... الخ) .

أما عن الكتابة فى شبه الجزيرة العربية حيث عثر بها مؤخرا على هاتين القطعتين الحجريتين فالثابت أنها كانت معروفة عند العرب القدماء قبل ظهور الاســـلام لفترة طويلة . فقد عثر في مواضع كثيرة منهـــا على عدة أنواع من الكتـــابات المعينية والســـبئية والحميرية والنبطيـــة وغيرها . وكان أشـــهر هذه الكتابات جميعا كتابة أهل حمير والمعروفة باسم الخط المسند(٥) . اذ عثر على الكثير منها فى أرجاء عديدة من شـــبه الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربى ، وبعضها قديم والبعض الاخر يرجع الى عهد قريب من الاسلام . وكانت كتابة المسند أكثر الكتابات شيوعا عند العرب . لكن بظهور الاســـلام فى مكه كتب القرآن الكريم على طريقة أهل مكة الذين شهدوا نزوله بينهم ، فأصبحت بذلك كتابتهم هى كتابة المسلمين الشائعة . وتخلى العرب عن كتابة أهل حمير (المسند) وما لبثت أن أصبحت فى طى النسيان حتى تمت اعادة كشفها من جديد على يد بعض المستشرقين الأوربيين خلال حركة استكشافهم لشبه الجزيرة

---

(٥) الخط المسند هو الخط الذى كتب به ملوك حمير وثائقهم . وكان الهمدانى مؤلف كتاب الاكليل يجيد قراءة هذا الخط .

فى القرن التاسع عشر الميلادى • وخلال هذه الفترة كشف النقاب عن كتابات أخرى عثر عليها فى شمال الحجاز وتشبه الى حد كبير كتابة أهل حمير ، وبفحصها تبين أنها أحدث عهدا ومن ثم اعتبرت فرعا منها • ومن أمثلة ذلك تلك المعروفة باسم الكتابة الثمودية واللحيانية والصفوية • ولن يتسع المجال لتناول هذه الكتابات بالتفصيل ، وانما يعنينا منها الكتابة الصفوية التى دونت بها نقوش القطعتين الحجريتين السابق الاشارة اليهما آنفا والتى تعتبر أقرب الكتابات العربية القديمة الى اللغة العربية الفصحى أى لغة القرآن الكريم(٦) •

تنسب الكتابة الصفوية الى منطقة تاول الصفا (الصفاه) Safa الواقعة الى الشمال من جبال حوران فى الأراضى الشرقية من الشام وهى تتميز بأنها أرض بركانية تغطى قشرتها الخارجية صخورا سوداء اللون ربما كانت مخلفات براكين ثائرة قذفت بها الى سطح الأرض فى عصور غابرة(٧) • وتعنى كلمة صفا تلك الأرض الصخرية التى تختزن المياه بين طبقاتها(٨) ، وهى تسمية أغلب الظن أنها تعود الى عصور ما قبل الاسلام ، اذ أنه من الثابت حتى الآن أنها وردت فى بعض النصوص اليونانية القديمة تارة باسم صفاتين Safathene أى « الصفا » (٩) ، وتارة أخرى فى التسمية زيوس صفاتينون Zeus Safathenos أى « الاله زيوس الصفوى » •

ويعتبر المستشرق الأوربى « هالفى » من أوائل من أطلق تسمية « الكتابة الصفوية » على هذا النوع من الكتابات أثر عثوره على عدد

---

(٦) ديسو : العرب فى سوريا قبل الاسلام ، ص٦٣ ومابعدها •
(٧) جواد على : جـ٣ ، ص١٤٢ •
(٨) سعد زغلول عبد الحميد فى تاريخ العرب قبل الاسلام ص١٦٤ •
(٩) ديسو : المرجع السابق ، ص٢٧ •

من القطع الحجرية المدون عليها بعض من نصوصها خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى • ثم ما لبثت الكشوف أن أظهرت قطعا حجرية منقوش عليها هذه الكتابة فى أراضى الحرات الواقعة الى الجنوب الشرقى من دمشق ، وكذلك بالأراضى الممتدة على طول خط أنابيب البترول المتوقف ، وكذلك بمنطقة الصالحية وبالمنطقة الغربية من بادية العراق[١٠] كما عثر على عدد كبير من نقوش هذه الكتابة فى شمال الحجاز ، وفى بعض مواقع المملكة الأردنية الهاشمية (١١)•ومن ثم أصبحت هذه التسمية بمثابة اصطلاحا يطلقه الباحثون على هذا النوع من الكتابات التى أرجعوا تاريخ انتشارها فى المناطق السالفة الذكر الى تلك الفترة الزمنية الممتدة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد ومنتصف القرن الرابع الميلادى[١٥] •

أما عن حروفها الهجائية فقد بلغ عددها ثمانيــة وعشرين حرفا ، وهى تشبه الى حد كبير حروف كتابة خط المسند ، لكنها أحدث عهدا ، ولذلك يعتقد الباحثون أن الحروف الصفوية قد تطورت من حروف كتابة أهــل حمير ، وبالتالى فهى أحد فروع هــذه الكتابة ، لكنه حــدثت تعديلات وتغييرات فى كثير من أشكال حروف الهجاء الصفوية مما جعلها تختلف كثيرا عن أشكال حروفها الأولى • وأصبح التعبير عن حرف الهجاء الواحد يتم باستعمال عدة أشكال متباينة ، مما سبب الكثير من التشابه بــين بعض الحروف وبعضها الاخر • فعلى سبيل المثال • أصبحت صور الباء تشابه صور الظاء ، وصور الخاء تشابه صور التاء ، وصور اللام تشابه

---

(١٠) راجع النشرات الخاصة بمديرية الاثار العامة فى بغداد وكذلك مجلة ســــومر •

14) Annual Report of Department of Antiquities of Jordan, Vol. I, 1951, p. 2.

(١١) محمد محفل : فى اصول الكتابة العربية ، مجلة دراسات تاريخية العــدد الســادس ، ص٦٨ •

صور النون ... وهكذا ، فضلا عن ذلك فان هذه الحروف قد خلت من علامات التشديد والتشكيل وحروف العلة ، بالاضافة الى صعوبة التفريق بين الاسم والفعل والفاعل ، وهو أمر أصبح من العسير قراءة مفرداتها وتراكيب جملها بطريقة دقيقة منظمة ، مما ترتب عليه عدم امكانية فهم معانيها على الوجه الصحيح ، ولهذا السبب يحتاج قارئها الى مران طويل ودراسات مركزة لفهمها وترجمتها .

وقد تمكن هالفى بعد بحوث ودراسات شاقة من التوصل الى معرفة قراءة ١٦ حرفا من حروف هذه الكتابة لكنه أخطأ فى قراءة باقى حروفها ، ثم تابعه « بريتوريوز » فى هذا المجال وتمكن من التعرف على خمسة حروف منها ، ثم واصل « ليتمان » من بعده الجهود واستطاع قراءة سبعة حروف أخرى ، وبذلك اكتملت معرفة قراءة جميع حروفها الهجائية[١٢] .

ومن ناحية أخرى يرى بعض العلماء أن الاختلاف الذى ظهر فى أشكال حروف هذه الكتابة انما يرجع الى اختلاف يد الكاتب من قوة أو ضعف فى الضغط على القلم المستخدم للتدوين ، كما يرجع الى اختلاف نوع هذا القلم ومادته ، وهو اختلاف لم يكن موجودا فى كتابة أهل حمير « خط المسند » باعتبارها الكتابة الأصلية[١٣] . ويرجع سبب ذلك الى أن أهل حمير قد استخدموا للتدوين قلما حادا قويا بالاضافة الى ما أعطوه لهذه الكتابة من عناية باعتبارها وثائق ذات مكانة كبيرة عندهم .

أما عن اتجاه الكتابة الصفوية ، فيمكن معرفته من خلال ما أمكن العثور عليها منها حتى الان ، وهو يتلخص فى عدم وجود قاعدة ثابتة

---

(١٢) جواد علي : جـ٨ ، ص٢٣٧ .

(١٣) جواد علي : المرجع السابق ، ص٢٤٠ .

معينة تحدد هذا الاتجاه[14] • اذ يلاحظ أن بعض نصوصها يبـدأ اتجاه كتابتها من اليمين الى اليسار على نحو ماهو متبع فى الكتابة العربية ، والبعض الاخر يبدأ اتجاهه من اليسار الى اليمين • على نحو ما هـو متبع فى الكتابات الأوربية الحديثة ، وفى أحوال أخرى قد يكون اتجاه كتابة النصوص من أعلى الى أسفل على نحو ما كان متبعا فى بـعض الكتابات الفرعونية ، بل قد يكون هذا الاتجاه من أسفل الى أعلى ، وفى بعض الأحيان يأخذ اتجاه الكتابة شكلا حلزونيا مبتدئا من أيسر الجهـة السفلى للحجر المدونة عليه ومتجها الى اليمين ثم ينحرف الى اليسار، وفى أحيان أخرى قد يكون اتجاه الكتابة على العكس من الاتجاه الأخير أو قد يكون ملتويا على هيئة الثعبان •

وفيما يتصل بالموضوعات التي تتناولها الكتابة الصفوية فهى بصفة عامة تتعلق بالأمور الشعبية المتصلة بالشئون الفردية[15] • كأن تكون بيان لملكية خاصة أو تذكر لأحد أفراد الأسرة وربما لأحد اصدقاء وقد تكون شاهد قبر ، أو دعاء ديني لأحد الآلهة ، وقد تكون رسالة موجهة الى شخص آخر • وغالبا ماتكون كتابة هذه الموضوعات موجزة ، حيث تتركز فى عدد قليل من الجمل وأحيانا تتكون من كلمة واحدة ، ولما كانت معظـم هذه الموضوعات تتعلق بهذه الأمور الشخصية فقد تشابهت أسـاليبها فى التعبير عن مضمونها ، لكنها ساعدت كثيرا فى توضيح وتعيين معظم أسماء الآلهة والقبائل والأفراد والأماكن وبعض العادات العربية القديمة والتى كانت سـائدة قبل الاسـلام •

أما عن المواد التى استخدمت لتدوين هذه الكتابة عليها فانه فى ضوء ما تم جمعه حتى الان يمكن القول بأن تسجيلها تم على سـطح الصخور وعلى قطع الأحجار المتناثرة التى تتوافر فى الأماكن التى عثر

(١٤) جواد على : المرجع السابق ، ص٢٣٩ •

(١٥) جواد على : المرجع السابق ، ص٢٣٨ •

(١٦) جواد على : المرجع السابق ، ص٢٥٠ ، ٢٥٨ •

فيها على هذه الكتابة ، الا أن ذلك لايعنى أن تدوين هذه الكتابة اقتصر فقط على هذه المادة فربما كانت مدونة على مواد أخرى لم يعثر على بقاياها حتى الآن • وهى مواد كانت معروفة لدى العرب القدماء ومنها الجلود والأخشاب وسعف النخل وعظام الحيوان ، وجميعها مواد تحتاج الى عناية كبيرة للمحافظة عليها خاصة وأنها قابلة للتلف اذا ما تعرضت للنار أو الماء أو اذا ما طمرت تحت التراب • ونظرا لأنه لم يصلنا من هذه الكتابة سوى تلك المنقوشة على الحجر ، فقد أصبحت بمثابة المصدر الرئيسى للكشف عن بعض جوانب تاريخ أصحابها القديم •

وقد تبين من معانى نصوص هذه الكتابة أن أصحابها كانوا على دراية كافية بالقراءة والكتابة مع أنهم كانوا قبائل عربية متنقلة (١٧) ، ولم يثبت حتى الآن أن كان لهم مملكة أو حكومة معينة ، وانما كانوا رعاه يتنقلون خلال فترات الصيف والشتاء من مكان لآخر طلبا للماء والكلأ وبحثا عن مراعى لخيولهم وماشيتهم التى كانت تشكل ثروتهم الاقتصادية الرئيسية • ولذلك كان انتقالهم فى أرض النبط تارة وفى بلاد الشام وشمال الجزيرة العربية تارة أخرى ، حيث كان الرومان يسيطرون عليها • ولاشك أن الصفويين كانوا ينزعون الى تخليد ذكراهم بكل الوسائل الممكنة ، كما كانت لديهم رغبة قوية لتأريخ مايمرون به من أحداث شخصية وتدوينها ليطلع عليها غيرهم ممن يصلون الى الأماكن التى نزلوا بها (١٨) • ومثل هذه القبائل التى تنتشر الكتابة بينها على النحو الذى لمسناه لايمكن أن يكون أفرادها من الاعراب المعنيين فى الاعرابية على نحو عرب البادية البعيدين عن حياة الحضر ، فلابد أن كانوا أشباه أعراب وأشباه حضر (١٩) • الذين حققوا قدرا معقولا من الثقافة وسعة الادراك والذكاء الفطرى العميق • واذا كانت كتاباتهم قد تضمنت تعابير

---

17) Littmann : Thamud und Safa ..., p. 1-2.

18) Hofner : Die Beduinen ..., p. 53.

(١٩) سعد زغلول عبد ربه : المرجع السابق ، ص١٦٦ •

مقتضبة الا أنها دلت على وجود نوع من الحس المرهف المتسم بالبساطة والوضوح • ومن ناحية أخرى يرى بعض الباحثين أن الصفويين شأنهم فى ذلك شأن بعض القبائل العربية الشمالية هم من أصل جنوبى ، وقد هاجروا من شبه الجزيرة العربية الى المناطق الشمالية واستوطنوا فى منطقة الصفا غير أنهم لم يكونوا قد اندمجوا فى أثناء نقشهم لكتاباتهم التى تم جمعها بالثقافة السامية الشمالية مثلما اندمج الانباط وغيرهم • بل كانوا لايزالون محافظين على صلاتهم بمناطق الجزيرة العربية وخصوصا الجنوبية منها حيث موطنهم القديم •

وقد وضح ذلك فى بعض الحقائق اللغوية ذات الأصل العربى الجنوبى الا أنهم تأثروا بالعرب الشماليين الذين اختلطوا بهم وتعاملوا بالتجارة معهم ، وقد ظهر أثر ذلك الاختلاط فى الأسماء والكلمات والتعابير الخاصة التى تضمنتها نصوصهم المكتوبة •

أما عن القطعتين السابق الأشارة اليهما واللتين عثر عليهما في أراضى المملكة العربية السعودية بالقرب من الحدود العراقية فهما يعتبران من أحدث ما تم العثور عليه من نقوش الصفويين • ويبلغ طول القطعة الأولى ٣١ سم وعرضها ٢٣ سم وهى ذات لون بني غامق يميل الى السواد ، وقد نقش على سطحها نص يتكون من ثلاثة أسطر على الوجه التالي :

السطر الأول : ويبدأ من اليمين الى اليسار ويشتمل على الحروف التالية :

ل ع ب د ل ه ب ن ج ف ف ت •

السطر الثانى : ويقرأ من أعلى الى أسفل عند الطرف الأيسر للقطعة ويشتمل على الحرفين : ب ن

---

(٢٠) جواد علي : ج٣ ، ص١٥٣ •

السطر الثالث : ويقرأ من اليسار الى اليمين ويشتمل على الحروف التالية :

شصبا عجاية نه

ه م س ن ب (د) ق و م د ه

أما القطعة الثانية فهي أصغر من السابقة ، إذ يبلغ أقصى طول لها ٢١ سم وأقصى عرض لها ١٩٫٥ سم ، وتتميز باللون البنى الغامق المائل الى السواد • وقد نقش على سطحها نصا يتكون من ٤ أسطر • ويأخذ شكلا حازونيا وتفصيله كالآتي :

السطر الأول : يبدأ من اليمين الى اليسار ويشتمل على الحروف التالية :

س ع د ب ن ك ف (و) ـ ف (و) ب ن و ك •

السطر الثاني : ويبدأ من أعلى الطرف الأيسر الى أسفله ويحتوى على الحروف التالية :

د ذ أ ل ع ذ و

السطر الثالث : ويبدأ من اليسار الى اليمين ويشتمل على الحروف التالية :

ب (ر) ل ه ب ن ل ب (ك) د ر ل •

السطر الرابع : ويبدأ من أسفل الطرف الأيمن الى منتصف الطرف الأيسر ويشتمل على الحروف التالية :

ر ف ف د ه (أ) ف ـ ب ض م (ص ـ ت) ن ظ ن (ب)

تلك هي فكرة عامة عن الكتابة الصفوية القديمة مع ترجمة للحروف المنقوشة على هاتين القطعتين • قصدنا من نشرها على هذه الصفحات أن نفتح المجال أمام علماء اللغات القديمة عامة والمهتمين منهم بقراءة الخط الصفوى خاصة لاجراء دراسة تحليلية دقيقة تؤدى الى فهم معانيها الحقيقية والتى نرجو أن يتم تحقيقها قريبا •

من مراجع البحث

١ ـــ جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء الثالث بغـداد ١٩٧٨ ٠

٢ ـــ جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء الثامن بغـداد ١٩٧٨ ٠

٣ ـــ ديسـو : العرب في سوريا قبل الاسلام ، ترجمة : عبد الحميـد الدواخلى ، القاهرة ١٩٥٩ (وهو يختص بدراسة النقوش الصفوية التى وجدت فى بلاد الشام) ٠

٤ ـــ سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٧٦م ٠

٥ ـــ محمد محفل : فى أصول الكتابة العربية ، مجلة : دراسات تاريخية، العدد السادس ، دمشق ١٩٨١م ٠

6) Annual Deport Department of Antiquities of Jordan, Vol. 1, 1951.

وأيضا يمكن مراجعة الاعداد التالية التي صدرت لهذه المجلة العلمية بالأردن ٠

7) M. Hofner : Die Beduinen in den Vorislamischen Arabischen Inschriften, L'antica Societá Beduina, (Studi Semitici 2) 53, 1959.

8) E. Littmann : Thamud und Safa : in Abhandlung für die Kunde des Morgenlandes, 25, 1940.

طريق حجاج الشـــام ومصر

انتشار الاسلام الى منتصف القرن السابع الهجرى

د • سليمان عبد الغنى مالكى

مركز أبحاث الحج ـ جامعة أم القرى

نهدف في هذا المقال الى استـــتخلاص وصف لطريق الحجاج القادمين الى الأراضي المقدسة من الشام ومن مصر من المصادر الأولية للتاريخ الاســـلامي وما كان يتم من تحسين للخدمات في هذين الطريقين، ثم ماكان يقع على حجاج هذين الطريقين من اعتداءات من بعض القبائل البدوية • ونحن نضع الصورة التاريخية المستقاة من أوثق المصادر لهذين الطريقين جنبا الى جنب لنتيح للقارىء فرصة المقارنة والاطلاع على القدر الكبير من التشابه بين الطريقين ، والتنبيه الى الفوارق الضئيلة التى ميزت واحدا منها علـى الآخر ، ورد هذه الفـــروق الى ظروفها التاريخية ، والأسباب الواقعية التى دعت اليها ••

أولا : ــ طريق حجاج الشـــام :

(أ) وصـــف الطريق :

يخرج الركب الشامى من مدينة دمشق حيث يتجمع الحجاج فى هذه المدينة ثم يتجهون الى مكان يسمى الكسوة وهى قرية تنزل فيهـــا القوافل بعد خروجهم من دمشق وتكثر فيها الأنهار ويتزود منها بالماء[1] •

---

(١) ياقوت : معجم ، جـ٤ ص٢٦٠ •

ويرحل الركب متجها الى مكان يسمى الصنمين ويقع فى أوائل حوران[٢] ثم يرحلون الى درعا وهى قرية صغيرة يكثر فيها الماء ومن هنا يتجهون الى بصرى وهى قرية صغيرة يقيمون فيها ثلاثة أيام[٣] • وقد اشتهرت عند العرب قديما وقد مر بها القائد خالد بن الولية حينما توجه من العراق لمدد أهل الشام[٤] • ثم يرحل الركب الى الزرقاء[٥] ، وبعد الى زيزا حيث يقيمون فيها ثلاثة أيام وبها أسواق وتوجد فيها برك لسقيا الحجاج وزيزا فى اللغة هى المكان المرتفع[٦] ، ثم يرتحل الركب الى الكرك وتكثر الأودية فيه بعض الآبار ثم يرحل الركب الى الحسا وهى تقع بين الكرك ومعان فيرد الحجاج ماءها ومنها يرحلون الى معان •

ومن المعلوم أن معان تقع فى طرف بادية الشام ويقال انها بوابة الحجاز ، ومعان مدينة قديمة يعرفها العرب منذ الجاهلية وفيها موارد للمياه[٧] • ثم يرحل الركب حتى يصل الى العقبة المعروفة بعقبة الصوان وهى عديمة الماء ولا يستطيع الحاج المكوث فيها بسبب صعوبة الاقامة فيها[٨] ••

ثم يرحل الركب الى ذات حج وفيها ماء عذب يستقى منه الحجاج ثم يستعدون للرحيل الى تبوك ومنها يستعدون للمغادرة الكبرى حيث انهم يحملون معهم من ماء تبوك وهو ماء يسرع فساده اذا حصل ويتغير طعمه متجهين الى العلا • وتشتهر العلا بكثرة مياهها ويوجد بها نخل وزرع ويتزودون منها الماء بعد اقامتهم بها يومين مستعدين للرحيل

---

(٢) المصدر السابق ، ج٣ ، ص٤٤١ •
(٣) المصدر السابق ، ج١ ص٣١٠ •
(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج٢ ، ص٤٠٧ •
(٥) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٤٥٤ •
(٦) الزبيدى : تاج العروس ، مادة زيزا •
(٧) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٤٥٥ •
(٨) ياقوت : معجم ، ج٤ ، ص١٥٧ •

الى هدية ولا يقيمون فيها فترة طويلة لرداءة مائها[٩]، ثم يرحلون منها الى عيون حمزة حيث يستعدون لدخول المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام . فتمتع الحجاج بالزيارة ويقيمون بالمدينة عشرة أيام ويخرجون منها الى ذي الحليفة وهى ميقات أهل الشام بينها وبين المدينة ستة أميال ثم يتجه الى وادي الصفراء ويشقون هذا الوادي ثم يرحلون الى بدر حيث يلتقون مع الركب المصري متجهين الى مكة[١٠] .

(ب) الخدمات :

من المعلوم أن خلفاء الدولة الراشدين والخلفاء الأوائل من الدولة الأموية لم يهتموا بطرق الحج فلم يقدموا لهم أية خدمات فيها ولقد بدأ الاهتمام بطرق الحج فى سنة ٧٩هـ فى خلافة عبد الله بن مروان بسبب الأمطار التى الحقت ضررا بالحجاج وبالاعراب القاطنين القرى المجاورة بمكة فقد أرسل عبد الملك بن مروان الى عامله فى مكة أموالا ينفقها لكل من تضرر من جراء هذه الأمطار[١١] .

وفي سنة ٩١هـ حج بالناس الوليد بن عبد الملك فخرج من دمشق واهتم بطريق الركب الشامي وكان يوزع الأموال على القبائل التي تقطن على طريق الركب الشامي وأمر بحفر بعض الآبار كما أنه وزع دقيقا على سكان القرى الواقعة على طريق الركب الشامى[١٢] .

وفى سنة ٩٧هـ حج بالناس سلمان بن عبد الملك وقد أمر من معه بتوزيع الطعام على الحجاج ويقال انه حمل طعاما على سبعمائة بعير ووزعه على الحجاج[١٣] .

---

(٩) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٤٥٧ .
(١٠) على المالكى : الشامى الصغير ، ورقة ٣٦ .
(١١) ابن الاثير : الكامل ، جـ٤ ، ص٤٥٢ .
(١٢) المصدر السابق جـ٤ ، ص٤٥٥ .
(١٣) الطبرى : تاريخ جـ٦ ، ص٥٢٩ .

وفى سنة ٩٩هـ حينما بويع بالخلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اهتم بطريق الركب الشامى وحفر آبارا فى مناطق مختلفة على طول هذا الطـريق[١٤] .

ومنذ سنة ١٠٠هـ الى سنة ١٣٤هـ لم تذكر لنا المصادر أية خدمـات قدمت للحجاج فى هذه الفترة ولكن فى سنة ١٣٥هـ أمر الخليفة أبو العباس السفاح العباسى بتمهيد طريق الركب الشامى وأمر بحفر آبار لسـقيا الحجاج[١٥] .

وفى سنة ١٣٧هـ حج أبو جعفر المنصور بالناس وفى طريق عودته عاد مع الركب الشامى وأمر باصلاح الركب الشامى وأمر ببناء المساجد فيه وواصل العودة مع الركب الشامى حتى دخل بيت المقدس ثم عاد الى العراق[١٦] .

وفى سنة ١٤١هـ أمر أبو جعفر المنصور واليه فى الشام صالح ابن على بن عبد الله بن العباس بتعمير خطا لركب الشامى وبعمل محطات لاستقبال ركب الحج الشامى[٧] .

وفى سنة ١٤٨هـ اهتم أبو جعفر المنصور بحفر الآبار بين تبوك والعلا على طريق ركب الحاج الشامى[١٨] .

وفى سنة ١٦٦ هـ أمر الخليفة المهدى بعمل محطات للبريد فى طريق الركب الشامى وأمر صاحب البريد بشراء بغال وابل يقوم بتوزيعها على كافة طرق البريد[١٩] .

---

(١٤) المصدر السابق ، جا ، ص٥٥٣ .
(١٥) اليعقوبى : تاريخ ، ج٢ ، ص٣٥٢ .
(١٦) ابن الاثير : الكامل ج٥ ، ص٤٥٩ .
(١٧) ابن الاثير : الكامل ، ج٥ ، ص٤٨٠ .
الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢١٠ .
(١٨) اليعقوبى : تاريخ ، ج٢ ص٣٨٩ .
(١٩) الطبرى : تاريخ ، ج٨ ص١٦٢ .

وفى سنة ١٧٠ هـ أمر الخليفة هارون الرشيد بحفر الآبار فى طريق ركب الحاج الشامى[٢٠] .

وفى سنة ٢٠٩ هـ كتب أمير الحج صالح بن العباس الى الخليفة المأمون يستأذنه فى عمل البرك فى طريق الحاج الشامى فوافقه على ذلك يطلب منه أن يجدد بناء المحطات وأن يقوم بحفر الآبار واصلاح القديم منها[٢١] .

وفى سنة ٣٦٦هـ حجت جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل وقدمت خدمات فى طريق الحاج الشامى فأمرت ببناء البرك بين معان وتبوك وأمرت بحفر الآبار بين رابغ وعسفان وقامت بتوزيع دنانير الذهب على الاعراب القاطنين بطريق الحاج الشامى كما اسقت الحجاج بطريق الركب الشامى الماء بالسكر والثلج وقامت بأعمال خيرية جليلة[٢٢] .

وفى سنة ٥٥٥هـ حج نور الدين محمود بن زنكى سالكا طريق الحاج الشامى وأمر بتوزيع صدقات على سكان هذا الطريق[٢٣] . ويمكن اعتبار ماقام به نور الدين آخر الخدمات التى قدمت فى طريق الركب الشامى خلال الفترة الزمنية التى يهتم بها هذا البحث .

(جـ) اعتداءات القبائل :

لاتشير المصادر الى وقوع اعتداءات من القبائل أو الفرق المختلفة على حجاج طريق الركب الشامى الا بعد سنة ٢٤٤هـ .

---

(٢٠) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢١٩ .

(٢١) المصدر السابق ، ص٢٢٦

(٢٢) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٤٦ .

(٢٣) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ٢ ، ص١٢٩ .

ففى سنة ٢٤٥هـ بدأ ولى عهد الخليفة العباسي الموفق أحمد يحرض القبائل القاطنة فى شمال الحجاز ضد بن طولون • ففى هذه السنة اعتدت القبائل على ركب الحاج الشامي عند مكان يسمى وادى الصفراء وطلبوا من الحجاج دفع الضرائب فأعطوهم الضرائب التى طلبوها فسمحوا لهم بإكمال سيرهم الى مكة[٢٤] •

وفى سنة ٢٦٥ هـ اعتدت القبائل العربية التى تسكن شمال المدينة على ركب الحاج الشامى وقطعوا عنهم الطريق ونهبوا الحجاج وحينما علم الخليفة بذلك ولى محمد بن الساج عاملا له لتوفير الأمن وسلامة الحجاج فى كل طرق الحج ولقد استطاع بن الساج القضاء على الفتنة التى قام بها الاعراب[٢٥] •

وفى سنة ٢٦٩ هـ قام محمد بن الساج بحملة مشددة قتل فيها رؤساء القبائل التى تقف فى طريق الحاج الشامى وأرسل برئيسهم الى بغداد[٢٦] •

وفى سنة ٢٩٤ هـ تعرض القرامطة لطريق الحاج الشامى واعتدوا عليه فقاموا بطمر الآبار وغيروا معالم الطريق[٢٧] •

وفى سنة ٣٤٣هـ تعرض ركب الحاج الشامي لإعتداء قبيلة بنى سليم من قبيلة حرب وسلبوا أموال الحجاج وقتلوا أمير الركب[٢٨] •

وفى سنة ٣٥٥ هـ اعتدت قبائل الرحلة من قبيلة حرب على الركب الشامى وسلبوا أموالهم وفرضوا عليهم المكوس التى لم تدفع من قبل وأخيرا دفعوا ضريبة سنتين[٢٩] •

---

(٢٤) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٢٩ •
(٢٥) ابن الاثير : الكامل ، جـ٦ ، ص٧٨ •
(٢٦) المصدر السابق ، جـ٧ ، ص٣٨١ •
(٢٧) المصدر السابق ، جـ٧ ، ص٣٩١ •
(٢٨) المصدر السابق ، جـ٨ ، ص٥٩ •
(٢٩) الجزيرى : درر الفوائد : ص٢٤٤ •

وبعد أن تم للدولة الفاطمية السيطرة على مصر والشام اهتم المعز لدين الله الفاطمى بحماية ركب الحجاج فأرسل معهم فرقا عسكرية لحمايتهم واستمرت هذه الفرق تخرج مع الحجاج فى كل عام[٣٠] ولم يتعرض بعد ذلك حجاج الركب الشامى لاعتداء القبائل الا بعد ضعف الخلافة الفاطمية ونقص ارسال الاعطيات الى مكان الطرق •

ففى سنة ٤١٧ تعرض حجاج الركب الشامى لاعتداء قبيلة حرب شمال المدينة وقطعوا عليهم الطريق ومنعوا عنهم الماء وطلبوا منهم أن يدفعوا ضريبة سنتين ودفع الحجاج ما معهم من أموال من أجل أن يسمحوا لهم بمواصلة المسير الى مكة[٣١] •

وفى سنة ٥٤٣ هـ أصبح خطر قبائل حرب يزداد عنفا فى طريق ركب الحجاج الشامى فقد اعتدوا على حجاج هذه الركب وأخذوا ما معهم من أموال وأمتعة ومنعوا عنهم الماء[٣٢] •

وحينما ازداد خطر الاعراب بدأ حجاج الركب الشامى فى سلوك طريق غير الطريق الذى اعتادوه خشية اعتداء القبائل[٣٣] •

وفى سنة ٥٧٢ هـ قام السلطان صلاح الدين بدفع الاعطيات التى فرضتها القبائل التي تقطن في طريق الركب الشامى وبهذا أمن الطريق من خطر هذه القبائل[٣٤] •

وفى سنة ٥٨٣ هـ بدأ سلاطين الدولة الأيوبية ارسال حاميات عسكرية لحماية الحجاج فى طريق الحج المختلفة[٣٥] ولعل وجود ظروف معيشية

---

(٣٠) ابن الاثير : الكامل ، جـ٨ ، ص٥٨٧ •
(٣١) ابن الاثير : الكامل ، جـ٩ ، ص٣٥٦ •
(٣٢) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٦٠
(٣٣) المصدر السابق ، ص٢٦١ •
(٣٤) المصدر السابق ، ص٢٦٥ •
(٣٥) ابن الاثير : الكامل ، جـ١١ ، ص٣٥٢ •

قاسية أدت الى تعرض ركب الحجاج الشامى الى اعتداء الاعراب عليه فلقد هلكت كثيرا من منتوجات المزارع فى الهلال الخصيب بسبب انتشار الجراد سنة ٦٢٠هـ ولربما دفع هذا الحدث الاعراب على نهب حجاج الركب الشامى الا أن أمير الركب استطاع أن يستميلهم بمال وثياب وزعت عليهم مما جعل الركب يسلم منهم[٣٦] .

ثانيا ــ طريق حجاج مصر :

(أ) وصـــف الطريق :

يبدأ هذا الطريق من مدينة الفسطاط حيث يتجمع الحجاج فى جميع امصار شمال قارة افريقيا والأندلس ويجدر بنا أن نشير الى أن ركب الحجاج المصرى قد بدأ منذ سنة ٢٠هـ وبعد خروج حجاج الركب المصرى من مدينة الفسطاط يتجهون الى البركة ثم يرحلون من البركة الى السويس ومنها الى نخل بسيناء[٣٧] وقد وصف هذه القرية الشاعر المتنبى :

ومرت بنخـــل وفى ركبهـــا عن العالمين وعنـــه غنى[٣٨]

وهذه القرية هى منازل لبنى مرة بن عوف ويوجد بها آبار وبرك من الماء يستقى منها الحجاج[٣٩] ثم يرحل الحجاج الى ايله (العقبة) وتقع على ساحل القلزم وكان الحجاج يقيمون فيها يومين لوجود أسواق قديمة بها ويتوفر فى ايله المأكل والمشرب [٤٠] .

ومن ايله يرحل الركب الى حقل وهى مدينة تقع على ساحل بحر

---

(٣٦) الاشرف الغسانى : العسجد المسبوك ، جـ٢ ، ص٣٩٥ .

(٣٧) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٤٤٩ .

(٣٨) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ، دار الشعب بمصر ، ١٩٧٠ م جـ١٧ ، ص٦٣٤٣ .

(٣٩) ياقوت : معجم ، جـ٥ ، ص٢٧٤ .

(٤٠) المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٩٢ .

القلزم أيضا وبها ماء عذب ثم يرحلون بعد ذلك متجهين الى مدين وبها ماء عين مغارة وتوجد بها آثار قديمة لرسول الله شعيب عليه السلام ويقيمون فيها ويتزودون بمائها[41] .

ثم يرحلون الى عيون القصب وتكثر بها العيون وفي بعض الأحيان تضعف منابع هذه العيون والسبب يعود الى كمية الأمطار التى تسقط على شمال الجزيرة ولقد اشتهرت هذه المنطقة بزراعة نبات القصب[42] ومن هناك يرحلون الى مكان يسمى وماؤها شديد الملوحة وبعدها يرحلون الى الأزلم وتشتهر بأسواقها ويقيمون فيها يوما واحدا ثم يرحلون الى التوجه وتقع على بحر القلزم ثم يتجهون الى اكرى وهى منطقة وعرة وهنا يصادف الركب المصرى صعوبة فى وصولهم الى هذه القرية لخروج ماء البحر الى اليابس[43] .

ومن اكرى يرحل حجاج الركب المصرى الى الحوراء وتقع على ساحل البحر الأحمر أيضا ثم يرحلون الى نبطة وبها ماء عذب يتزودون منه ثم يرحلون الى ينبع حيث يقيمون يومين وبينبع آبار عديدة ومنها يرحلون الى بدر حيث يلتقى الركب المصرى بالركب الشامى[44] وبعد اجتماعهم فى بدر يرحلون الى رابغ وهى محاذية للجحفة التى تعتبر ميقات أهل مصر فيحرمون منها ويخرجون مهللين مكبرين متجهين الى خليص التى تمتاز بمائها العذب[45] ثم يرحلون منها الى عسفان ومن عسفان يتجهون الى بطن مر وفيها يستعدون لدخول مكة المكرمة وعند دخولهم مكة المكرمة يدخلونها من مكان يسمى الشبيكة[46] .

---

(٤١) الجزيرى : درر الفوائد ص٤٥٠ .
(٤٢) المصدر السابق ، ص٤٥٤ .
(٤٣) ياقوت : معجم ، جـ١ ، ص٤٥١ .
(٤٤) على المالكى : الشامى الصغير ، ورقة ٣٦ .
(٤٥) على المالكى : الشامى الصغير ورقة ٣٦ .
(٤٦) المصدر السابق ، ص٤٥٣ .
— انظر خريطة الركب المصرى رقم (٣) .

(ب) الخـــدمات :

وفى سنة ٧٩هـ أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان أموالا مع أمير الحج من أجل أن يقوم على انفاقها على كل من تضرر من الحجاج ولقد تضرر حجاج الركب المصرى هذا العام بسبب هطول أمطار كثيرة فى طريق ركبهم[٤٧] .

وفى سنة ٩١هـ أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بتعبيد طريق ركب الحجاج المصرى وأمر كذلك بحفر الآبار فى بعض القرى على هـذا الطريق[٤٨] .

وفى سنة ٩٧هـ أمر الخليفة سليمان بن عبد الملك عامله فى مصر بتوزيع المال على الحجاج القاصدين مكة[٤٩] .

وفى سنة ٩٩ه أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بتجديد تعبيد طريق ركب الحجاج المصرى[٥٠] .

وفى سنة ١٠٤هـ أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك بحفر الآبار فى طريق ركب الحاج المصرى[٥١] .

ويمكننا القول بأن الخدمات على طريق الركب المصرى توقفت من سنة ١٠٥هـ الى سنة ١٣٤هـ .

وفى سنة ١٣٥هـ أمر الخليفة أبو العباس السفاح باصلاح طريق الركب المصرى وأمر كذلك بحفر الآبار فى منطقة الوجه لأنه علم بأن الأعراب منعوا الحجاج من شرب الماء العذب[٥٢] .

---

(٤٧) الطبرى : تاريخ : جـ٦ ، ص٦٨٠ .
(٤٨) ابن الاثير : الكامل ، جـ٤ ، ص٥٥٤ .
(٤٩) المصدر السابق جـ٥ ص٢٦ .
(٥٠) الطبرى : تاريخ ، جـ٦ ، ص٥٥٣ .
(٥١) المصدر السابق ، جـ٧ ، ص٢٥ .
(٥٢) الطبرى : تاريخ ، جـ٧ ، ص٤٦٥ .

وفي سنة ١٣٧هـ أمر الخليفة أبو جعفر المنصور عامله على مصر بأن يقوم بتوزيع أعطيات للاعراب القاطنين بطريق الركب المصرى كما أنه أمر ببناء المساجد فى هذا الطريق(٥٣) .

وفى سنة ١٦١هـ أمر الخليفة المهدى عامله فى مصر ببناء محطات فى طريق الحاج المصرى كما أمر بتعبيد الطرق وبتوزيع أموال على الأعراب الموجودين على طريق الركب المصرى(٥٤) .

وفى سنة ١٦٥ هـ أمر أيضا صاحب البريد باقامة محطات للبريد فى طريق الحاج المصرى ووزع فيها البغال والحمير الخاصة بهذا الغرض(٥٥) .

وحينما آلت الخلافة الى هارون الرشيد أمر فى سنة ١٧٥هـ عامله فى مصر باصلاح طريق الحاج المصرى وبتوزيع أموال على الأعراب القاطنين فى هذا الطريق(٥٦) .

وفى سنة ٢٠٩هـ كان والى مكة صالح بن العباس قد كتب الى المأمون يستأذنه فى حفر الآبار وعمل البرك فى طريق الحاج المصرى ولقد تم عمل بركة فى السويس حيث ان حجاج الركب المصرى لم يجدوا ماء فى السويس فى السنوات التى قبلها(٥٧) .

وفى سنة ٢٦٠ هـ استطاع والى مصر أحمد بن طولون اصلاح ركب الحجاج المصرى ولقد وزع أعطيات على الأعراب القاطنين على هذا الطريق(٥٨) .

---

(٥٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ٥ ، ص٤٨٠ .

(٥٤) المصدر السابق ، جـ٦ ، ص٥٠ .

(٥٥) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ، ص٢٤٩ .

(٥٦) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٢٩ .

(٥٧) الجزيرى : درر الفوائد ص٢٢١

(٥٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، المطبعة الميمنية بمصر ، ١٣١٠هـ جـ ١ ص ٦٩ .

وفى سنة ٣٢٥هـ اهتم محمد بن الاخشيدى بطريق الحجاج المصرى وقدمت أعطيات للاعراب القاطنين على هذا الطريق من قبله[٥٩] .

وفى سنة ٣٦٣ هـ اهتم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بطـريق الحاج المصرى وقام بتوزيع أعطيات على سكان هذا الطريق كما شملت أعطياته لسكان مكة أيضا[٦٠] .

وفى سنة ٤١٠هـ وفى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى أعيد إصلاح طريق الحاج المصرى[٦١] .

وفى سنة ٥٥٥هـ حج أسد الدين شيركوه مع حجاج الركب المصرى ووزع على الأعراب أعطيات كثيرة[٦٢] .

وفى سنة ٥٧٢هـ أرسل صلاح الدين الاعطيات والصدقات لتوزيعها على سكان أهل القرى المجاورة لمكة ولسكان مكة والغى المكوس التـى كانت تؤخذ من الحجاج من قبل والى مكة والاعراب الموالين له ولقد دفع لوالى مكة ألفى دينار وألفى أردب من القمح وغدت تدفع وتحمل الى والى مكة كل عام[٦٣] .

وفى سنة ٦٤٥هـ أرادت شجرة الدر الحج وفضلت الذهاب عن طريق البر فأمرت باصلاح الطريق وحفر الآبار وبناء البرك على طول طريق الحاج المصرى ولقد قامت أيضا بتوزيع الهدايا والاعطيات على الاعراب القاطنين بطريق الحج المصرى[٦٤] . وبذلك أحيت شجرة الدر

---

(٦٠) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٤٦ .
(٦١) المصدر السابق ص ٢٥٢ .
(٦٢) ابو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ، جـ٢ ، ص٤٢ .
(٦٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص١١٢ .
ــ ابن جبير : الرحلة ، ص٢٨ .
(٦٤) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٧٥ .
ــ محمد لبيب البتانونى : الرحلة الحجازية ، ص٣١ .
ــ محمد ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، جـ١ ، ص٦٩ .

طريق الحجاج المصرى بعد أن فسد مدة من الزمن • وبعد هذا التاريخ أعيد خراب هذا الطريق ولم يستخدم من قبل الحجاج الا بعد أن أحياه الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦هـ •

(جـ) اعتداءات القبائل :

من المعلوم أن طريق الحجاج المصرى لم تحدث فيه اعتداءات كبيرة ويعود هذا الى اهتمام الطولونيين بطريق الحاج المصرى فى الفتره الزمنية التى حكموا فيها مصر • ولقد استمر هذا الاهتمام من قبل الاخشيديين وبعد أن سيطرت الدولة الفاطمية على مصر اهتم خلفاؤها بطريق الحجاج المصرى وقدموا الاعطيات ولم تحدث اعتداءات القبائل الا بعد ضعف الخلافة الفاطمية •

فى سنة ٤٦٣ هـ اعتدت قبائل حرب المقيمة فى الجوف على ركب الحجاج المصرى ومنعوا حجاج الركب من شرب الماء[٦٥] •

فى سنة ٥١٢ هـ اعتدت القبائل العربية (حرب) على حجاج الركب المصرى وقطعوا عليهم الطريق ومنعوهم من دخول مكة[٦٦] •

وفى سنة ٥٤٥هـ اعتدت القبائل العربية على ركب الحجاج المصرى واستولوا على أموالهم وهلك من الحجاج عدد كبير وفر البعض الاخر ووصلوا الى المدينة[٦٧] •

وفى سنة ٥٥٣هـ علم حجاج الركب المصرى بتربص الاعراب القاطنين فى الطريق لهم وأدى ذلك الى أن يغير حجاج الركب المصرى طريقهم ولذلك وجدوا صعوبة شديدة ولكنهم نجوا من شر الاعراب[٦٨] •

---

(٦٥) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٥٦ •

(٦٦) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٥٩ •

(٦٧) المصدر السابق ، ص٢٦٠ •

(٦٨) المصدر السابق ، ص٢٦١ •

وفى سنة ٥٦٠ اعتدى الاعراب على حجاج الركب المصرى وقطعوا عليهم الطريق وسلبوا أموالهم وأمتعتهم[٦٩] .

وفى سنة ٥٨٢هـ اعتدى عبيد الاشراف امراء مكة على حجاج الركب المصرى وقطعوا عليهم الطريق ونهبوا أموالهم[٧٠] .

(د) الطريق البحرى :

لقد أخذت عيذاب بعد انتقال الدولة الفاطمية الى مصر أى منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى تقوم بدور رئيسى فى تجارة الشرق الأقصى والبحر الأحمر • ويرجع ذلك التطور فى تاريخ ميناء عيذاب الى سياسة الفاطميين الحكيمة فى حسن معاملة التجار والترحيب بهم وفى توفير الأمن والاستقرار فى دولتهم التى سيطرت بسيادتها على المغرب ومصر والشام والحجاز على هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة فى الشرق الأوسط والتى تتحكم فى تجارة المرور بين الشرق الأقصى وأوروبا[٧١] • كما يرجع ذلك الى عمق وغزارة ميناء عيذاب وخلوها من الشعاب المرجانية التى يمتلىء بها البحر الأحمر والتى كانت من أكبر الأخطار التى تتعرض لها الملاحة فى هذا البحر ولذلك كان البحارة والتجار يفضلون الرسو فيها عند مقدمهم من عدن وعند رحيلهم منها[٧٢] •

وفى منتصف القرن الخامس الهجرى ازدادت أهمية ميناء عيذاب

---

(٦٩) المصدر السابق ، ص٢٦٣ .

(٧٠) المصدر السابق ، ص٢٦٦ .

(٧١) أحمد دراج : عيذاب مجلة نهضة افريقية — السنة الأولى — العدد التاسع ، يوليو ١٩٥٨م .

(٧٢) أحمد دراج : عيذاب مجلة نهضة افريقية ، السنة الأولى ، العدد العاشر اغسطس ١٩٥٨ .

— عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، رسالة دكتوراه ، لم تطبع ، ص١١٨ .

التجارية فأصبحت القاعدة الرئيسية لتجارة البحر الأحمر بعد أن اتخذها تجار القلزم المركز الرئيسى لنشاطهم بدلا من عدن[٧٣] .

ثم مالبثت أن ازدادت أهميتها وأكثر ابتداء من سنة ٤٦٠هـ بسبب الشدة العظمى التى قاستها مصر فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وذلك لخراب الوجه البحرى وتحول قوافل التجارة وركب الحجاج المصريين والمغاربة من طريق شبه جزيرة سيناء وشمال الحجاز الى طريق النيل من الفســطاط حتى قفط أو قوص ومنها كانوا يعبرون الصحراء الشرقية الى ميناء عيذاب . ومن عيذاب يعبرون البحر الأحمر الى جدة بواسطة الجــلاب[٧٤] .

وقد استمر استخدام الحجاج المصريين والمغاربة لهذا الطريق زيادة على مائتى سنة الى أن كانت سنة ٦٦٩هـ ففى هذه السنة أخرج السلطان بيبرس قافلة الحج من البر ، أى عبر شبه جزيرة سيناء وبذلك قل ســلوك الحجاج لطريق عيذاب غير أن بضائع التجار استمرت تحمل من عيذاب الى قوص الى أن أبطل ذلك بعد سنة ٧٦٠هـ بسبب خراب الصعيد[٧٥] . وبعد انتهاء الشــدة العظمى ظل طريق قوص — عيذاب — جدة الطريق الذى يسلكه حجاج مصر والمغرب بسبب تزايد أهمية ميناء عيذاب كقاعدة رئيسية لتجارة البحر الأحمر بعد أن اتخذها تجار الكارم المركز الرئيسى

---

(٧٣) ابن ايبك الدواوادارى : الدرة المضيئة فى اخبار الدولة الفاطمية وهو الجزء السادس من كتاب كنز الدرر وجامع الفنون ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ ١٩٦١م ، ص٣٨٠ . ويشير المؤرخ فى حوادث سنة ٤٠٦ هـ اى قبل الشدة المستنصرية الى تأخر تجارة الكارم الى عيذاب

(٧٤) ناصر خسرو : سفر نامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، ص٧٢ .

(٧٥) المقريزى : الخطط ، طبعة جديدة بالأوفسيت ، مؤسسة الحلبى للقــاهرة جا ، ص٢٠٢ .

لنشاطهم [٧٦] • فقد شهد ابن جبير في زيارته الى الأراضي الحجازية سنة ٥٧٩ هـ بان عيذاب كانت من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها بالاضافة الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة على الرغم من كونها فى صحراء لا نبات فيها وأنه لا يؤكل شيء فيها الا مجلوب لأن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كثير ولاسيما مع الحجاج لأن لهم على كل حمل طعاما يحملونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة بالاضافة الى الوظائف المكوسية التي كانت قبل أن يرفعها صلاح الدين [٧٧] •

وفضلا عن ذلك فان مملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد ملكها بلدوين الأول قد أخذت تؤمن حدودها من ناحية الجنوب الشرقى فقد قام بلدوين الأول بالسيطرة على صحراء النقب • ففى سنة ١١١٥م قام بتشييد حصن الشيوبك فسيطر منه الصليبيون على المنطقة الممتدة من البحر الأحمر حتى خليج العقبة • وفى العام التالى شيد حصنا آخر في ايله على ساحل خليج العقبة كما بنى قلعة فى جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيله فى خليج العقبة وبذلك يكون قد أغلق البرى للقوافل بين مصر والشام والحجاز وعزل مصر عن بقية العالم الاسلامى فى الشرق [٧٨] •

وبذلك استمر طريق قوص — عيذاب — جدة الطريق الرئيسى لحجاج مصر والمغرب زيادة عن مائتى سنة على الرغم من الأخطار

---

(٧٦) احمد دراج : عيذاب مجلة نهضة افريقية السنة الأولى العدد العاشر ، اغسطس ١٩٥٨م
— عطية القوصى : اضواء جديدة على تجارة الكارم المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٢ ، سنة ١٩٧٥م ص ١٧ — ٢٣ .

(٧٧) ابن جبير : الرحلة ، طبعة بيروت ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ص ٤١ .
— المقريزى : الخطط ، ج١ ص ٣٠٢

(٧٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية الطبعة الثالثة ١٩٧٥م ج١ ، ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

والأهوال التي كانت يتعرض لها الحجاج في قطعهم لهذا الطريق في الذهاب والعودة في الطريق من قوص إلى عيذاب كان الحجاج يقطعونه في سبعة عشر يوما وفيه كان يفتقد الحجاج الماء ثلاثة أيام ممتالية وتارة أربعة[79]. وفي عيذاب يعاني الحجاج من أهلها الأمرين تحملها على الحجاج الحكام كما يذكر ابن جبير الحكام الطواغيت[80]. وأما طريق العودة من جدة إلى عيذاب فيصفه ابن جبير على هذا النحو (والركوب من جدة إليها آفة للحجاج عظيمة إلا الأقل منهم ممن يسلمه الله عز وجل وذلك أن الرياح تلقيهم على الأكثر في مراسي بصحراء تبعد منها مما يلي الجنوب فينزل إليهم البجاه[81] وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال فيكرون منهم الجمال ويسلكون بهم غير طريق ماء فربما ذهب أكثرهم عطشان وحصلوا على نحلتهم من نفقة أو سواه وربما كان من الحجاج من يتعسف تلك المجهلة على قدميه فيضل ويهلك عطشا والذى يسلم منهم يصل إلى عيذاب كأنه منتشر من كفن شاهدنا منهم مدة مقامنا أقواما قد وصلوا على هذه الصفة في ناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة[82] أي للمتوسمين وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسي ومنهم من تساعده الريح إلى أن يحط بمرسى عيذاب وهو الأقل)[82].

إلا أنه منذ سنة ٦٢٣هـ بدأ أهل عيذاب يأخذون أجورا باهظة على الحجاج الذاهبين إلى مكة[83] كما أنهم كانوا يقومون بشحن الجلاب زيادة عن عدده حتى أن الحجاج كانوا يجلسون بعضهم على بعض وهذا ...

---

(٧٩) ابن جبير : الرحلة ص٣٧ ، ٤١ .
المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص٢٠٣

(٨٠) ابن جبير : الرحلة ص٤٣ .

(٨١) المصدر السابق ، ص٤٢ .

(٨٢) ابن جبير : الرحلة ص٤٣ .

(٨٣) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٥٤ .

ملكان يعبر عنه أصحاب الجلاب بقولهم (علينا بالألواح ، وعلى الحجاج بالأرواح) وهذا المثل الذي أصبح متعارفا فيما بينهم[٨٤] .

ومن هذه الفترة الزمنية بدأ الحجاج يلاقون الأهوال من أهل عيذاب في أخذ الأجور الباهضة واستمر الأمر على هذا الحال الى أن أمر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٢هـ أهالي عيذاب الذين كانوا يتحكمون في نقل الحجاج برفع زيادة ايجار الجلاب وأن يكون في نفس الوقت عدد ركاب الجلاب معتدلا كما أنه أبطل المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج وأغدق الاعطيات على أهل عيذاب[٨٥] وعلى هذا النحو استمر طريق قوص عيذاب جدة طريق حجاج مصر والمغرب حتى نهاية الحقبة الزمنية لهذا البحث .

وبعد أن كان الحجاج يصلون الى جدة ينزلون من الجلاب ويبدأ الأعراب الذين يسكنون جدة يتحكمون في سعر نقلهم الى مكة المكرمة بواسطة الدواب ولم تظهر ظاهرة زيادة ايجار هذه الدواب من قبل هؤلاء الاعراب الا منذ بداية القرن الخامس الهجري وقد استمرت هذه المساوىء من الأعراب تجاه الحجاج الى أن قام صلاح الدين باسقاط ما كان يأخذه شريف مكة من مكوس الحجاج بجدة مقابل تعويض عنها وبتوزيع الاعطيات على الاعراب الذين كانوا ينقلون الحجاج من جدة الى مكة . فمنذ ذلك الحين أصبحوا يأخذون من الحجاج أجورا معتدلة[٨٦] .

غير أن هؤلاء الاعراب كانوا يعودون الى المغالاة في أخذ الأجور من الحجاج والاساءة اليهم عندما كانت كانت لاتصل اليهم[٨٧] .

---

(٨٤) ابن جبير : الرحلة ، ص٤٤ .
(٨٥) المصدر السابق ، ص٤٦ ، ٤٧ .
(٨٦) ابن جبير : الرحلة ، ص٤٩ .
(٨٧) المصدر السابق ، ص٥٠ .

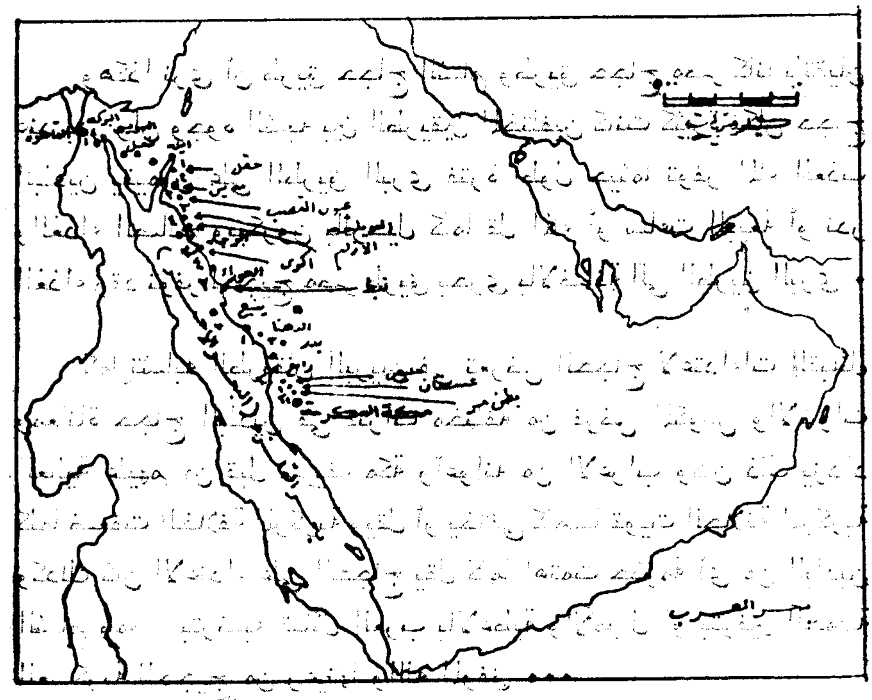
وكان هؤلاء الاعراب تابعين لشريف مكة فهو الذى كان يتحكم فيهم ويحرضهم على المغالاة فى معاملة الحجاج[٨٨] •

وتجدر الاشارة بنا الى أن ضعف سلطة الخلافة هو الذى دفع شريف مكة الى فرض المكوس على الحجاج والى استغلالهم بواسطة الاعـراب الموالين له •

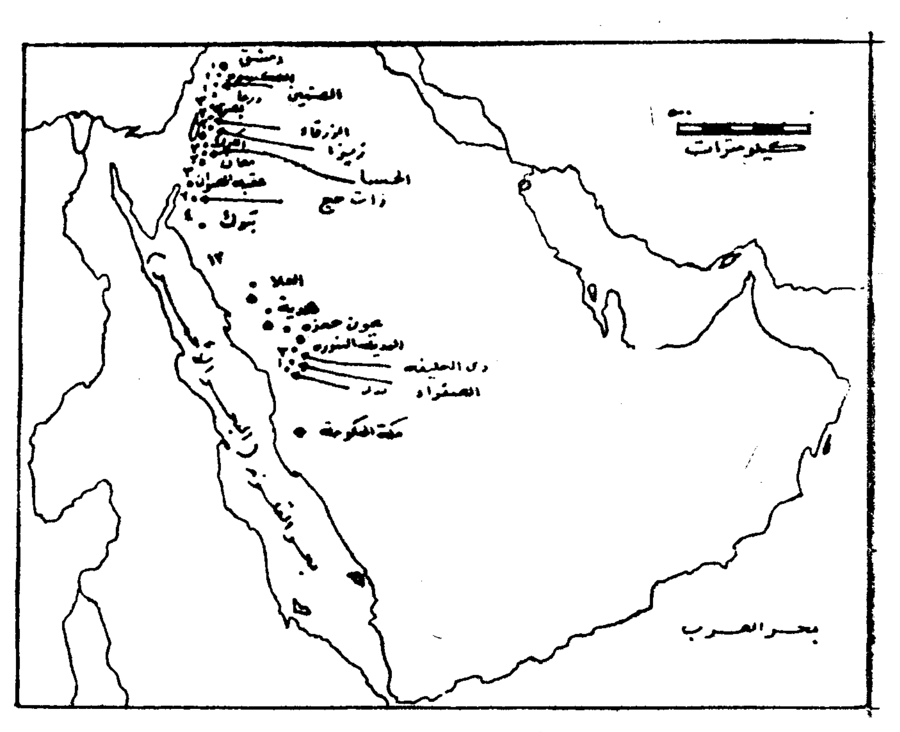
وهكذا نرى أن طريق حجاج الشام وطريق حجاج مصر كانا يلتقيان عند بدر وان وجوه الشبه بين الطريقين المختلفين كانت كثيرة فكان حجاج البلدين يقيمون على الطريق البرى فترة أطول حيثما توفر الماء العذب والغذاء الصالح ويبكرون بالرحيل كلما قل الماء أو ساءت البيعة أو ندر الغذاء وقد توفر لحجيج مصر طريق بحرى بالاضافة الى الطريق البرى •

كما تشابه الطريقان البريان فى تعرض الحجاج لاعتداءات القبائل ومعاناة حجاج البلدين فى فترات مختلفة من فرض المكوس والاتاوات العالية عليهم من قبل شريف مكة وأعوانه من الاعراب وكان ذلك يزداد كلما ضعفت الخلافة المركزية ويقل أو يختفى كلمـا قويت الخلافة المركزية وكذلك كان الاعتداء على الحجاج يقل كلما اهتمت حكومة أى من البلدين الشام ومصر بترضية قبائل العرب بالاعطية والأموال أو بتوفير الحماية العسكرية للحجيج من رعيتها والله الموفق •••

(٨٨) الفاسى : شفاء الغرام ، جـ١ ، ص١١٨ •

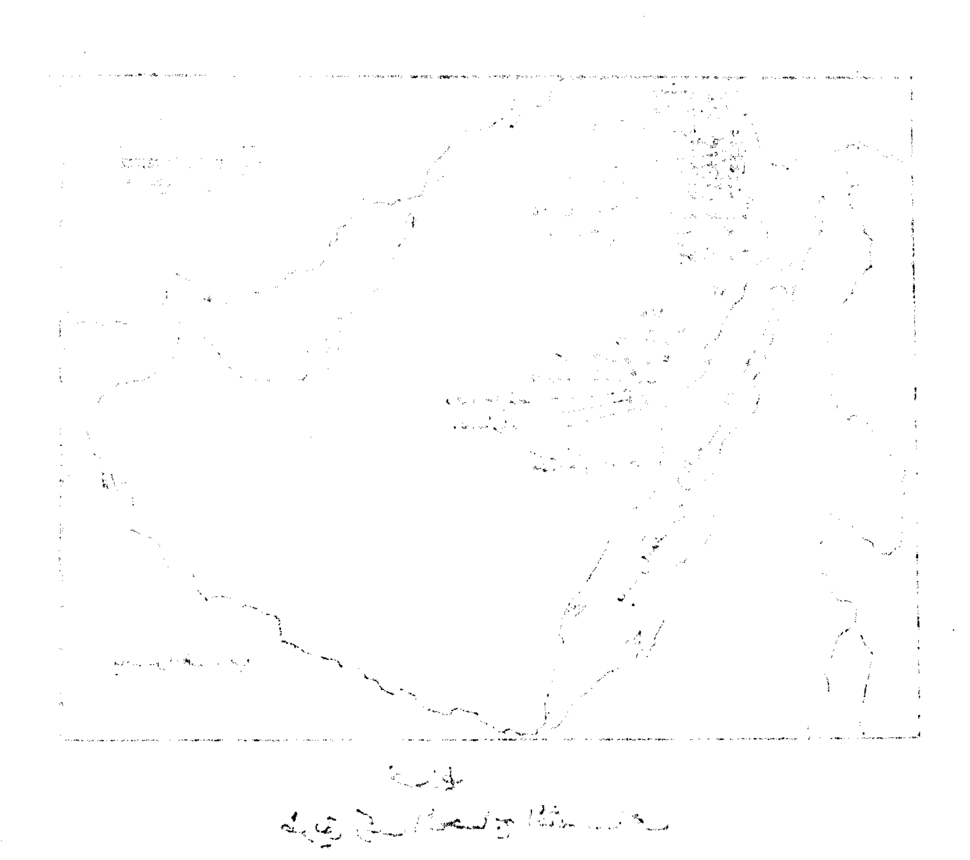


خريطة
طريق ركب الحاج المصرى



خريطة

طريق ركب الحاج الشامي



بنو أيوب مع الخوارزمية والمغول والمماليك
فى شمال الشام والجزيرة

د. سوسن محمد نصر
أستاذ التاريخ الاسلامى
المساعد

تقديم

كانت مصر هى القاعدة الأولى لحكم بنى أيوب وانطلق منها مؤسس دولتهم صلاح الدين الى الشام حينما أتيحت له الفرصة فاستولى على دمشق وحمص وحماه وحلب ولم يقف طموحه عند هذا بل تعداه الى شمال الشام والجزيرة واستطاع أن يبسط نفوذه على المنطقة ، ولم تكن الأراضى الخاضعة لنفوذ الأيوبيين ضمن هذين الاقليمين ثابتة الحدود وذلك بسبب الحروب المستمرة التي كانت تحدث بين بنى أيوب والامارات الاسلامية المحلية بالجزيرة كالأراتقة والاتابكة ، أو بين تلك الامارات نفسها ، أو بينهم وبين الصليبيين فضلاً عما كان للخلافة العباسية من أثر على سياسة الامارات الاسلامية وبني أيوب وبالتالي على رقعة الأراضى الخاضعة لنفوذهم •

أما من حيث الترابط التاريخى بين شمال الشام والجزيرة فهو قائم بلا شك وتجسده بعض الظواهر السياسية المشتركة كالصراع بين القوى السياسية من أجل السيطرة والنفوذ ومثله النزاع بين الأتابكة وبنى أيوب أو الاراتقة وبنى أيوب أو بينهم وبين الخوارزمية وفيما بينهم

حتى انتهى أخيرا باستيلاء المغول على بلاد الجزيرة والشام وتلاشى حكم بنى أيوب منهما .

وفى هذه البحاثة ألقيت بعض الضوء على علاقة بنى أيوب بالخوارزمية والمغول والمماليك واختلاف علاقة هذه القوى من الأيوبيين فى شمال الشام والجزيرة بحسب ما تمليه مصلحة دولتهم وظروفهم السياسية وطبيعة حكمهم ، وعلى العموم فان العلاقة مع هذه الأطراف تشوبها الحروب والقتال .

أولا : بنو أيوب والخوارزمية :

١ ـ العادل الأيوبى والخوارزمية فى شمال الشام والجزيرة :

الخوارزمية هى احدى الطوائف الاسلامية الساكنة فى اقليم خوارزم شاه وهى عدة أسر أشهرها أسرة أنوشتكين الذى استطاع التدرج بالوظائف السلجوقية حتى عينه السلطان ملكشاه واليا على اقليم خوارزم شاه سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م ، حتى استطاع حفيده اتسز الأستقلال عن دولة السلاجقة ٥٢٣هـ / ١١٢٧م ، وأخيرا استولى جنكيزخان على بلادهم فخرجوا هاربين فى اتجاه بلاد فارس والجزيرة وبلاد الشام والروم والعراق[1] .

ولقد قامت الدولة الخوارزمية من ٤٩٥هـ ـ ٦٢٨هـ / ١٠٩٧ ـ ١٢٣٠م فى اقليم خوارزم بما وراء النهر ، وكان السلطان خوارزم شاه علاء الدين ٥٩٦هـ ـ ٦١٧هـ ١١٩٩م ـ ١٢١٩م من حكامها المعاصرين

(١) العرينى : المغول ١٦٩ ـ ١٧٠ ، الغزى : نهر الذهب ٢ : ١٥٠٢ .

للدولة الأيوبية على عهد سلطانها العادل بن أيوب ، وترجع أول اشارة للعلاقة بين الطرفين الى عهديهما ، ففي سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م وصل رسول خوارزم شاه الى الملك العادل وهو بمرج الصفر [2] ولم تذكر المصادر التاريخية هدف الزيارة التي قام بها مبعوث خوارزم شاه الى الملك العادل ولكنها ربما كانت تتعلق برغبة الخوارزمية باقامة علاقة مع بني أيوب أو من أجل التحالف معهم بخاصة بعد فشل سلطانهم خوارزم شاه في غزو بغداد سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م [3] فقام الملك العادل بالرد على رسالة خوارزم وأوفد جمال الدين محمد الدولعي خطيب دمشق ونجم الدين خليل بن على الحنفي قاضي العسكر فوصلا الى همدان ولكنهما لم يلتقيا به لأنهما وجداه قد اندفع لمواجهة المغول فاكتفيا بالاجتماع مع ولده جلال الدين وهناك سمعا بوفاة العادل [4] فعادوا الى دمشق دون أن تحقق سفارتهما هدفها المنشود [5] .

ساد الجمود العلاقة بين بني أيوب والخوارزمية منذ ايفاد هذه السفارة اليهم وذلك لانشغال الطرفين في مجابهة المشاكل التي اعترضتهما، فقد انشغل الخوارزمية في صد الغزو المغولي في حين انشغل بنو أيوب في الصراع فيما بينهم على السلطة بسبب وفاة العادل ، ونتيجة للخلاف بين ملوك بني أيوب عادت منطقة شمال الشام والجزيرة الى سياسة الأحلاف العسكرية ، وما أن علم الملك المعظم باتفاق أخويه الملك الكامل صاحب مصر ، والملك الأشرف صاحب البلاد الشرقية وسنجار وخلاط وأعمالها كاتب جلال الدين خوارزم شاه وبعث اليه سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م رسوله الصدر البكري محتسب دمشق ومعه جماعة من الصوفية

---

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص٨ : ٣٨ (قسم المخطوط دار الكتب، أبو شامه ذيل الروضتين ص١٠٩ .

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكوبرتي الخوارزميه ص٢٥٢ ــ ٢٥٣ ، أبو شامه : ذيل الروضتين ص١١٠ .

(٤) توفى العادل ٦١٥هـ .

(٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ص٣٨٩ ، أبو شامة : ذيل الروضتين : ١٠٩ ــ ١١٠ .

واجتمع بالسلطان جلال الدين وقرر معه الأمور وجعله سندا للملك المعظم[٦]، ولما علم الملك الكامل والأشرف عن تحالف أخيهما المعظم مع جلال الدين قيل للمعظم « لو كنت بعثت برسالة مع بعض التجار الذين يسافرون الى خراسان كان أولى[٧] والمقصود بذلك بأن تكون مراسلة لخوارزم شاه سرية لايعلم أمرها أحد .

لقد حاول جلال الدين ايجاد علاقة من التفاهم والوئام مع بني أيوب فأوفد رسوله مجد الدين قاضي الممالك الحنفي الى الملوك الأيوبيين الثلاثة : الكامل ، الأشرف ، والمعظم الذي أحسن اليه وأجزل العطاء له [٨] وأهم ما ميز علاقة جلال الدين في هذه الفترة مع بني أيوب هو قوة ومتانة علاقته مع الملك المعظم صاحب دمشق دون غيره من ملوك الشام والجزيرة[٩] .

(ب) الأشرف الأيوبي وجلال الدين الخوارزمي :.

نجح الملك المعظم صاحب دمشق في تشكيل حلف دفاعي ضد أخيه الملك الأشرف وأطماعه التوسعية بالجزيرة وكان أقطاب هذا الحلف جلال الدين منكوبرتي ومظفر الدين صاحب اربل وناصر الدين صاحب ماردين كما أنضم اليه صاحب آمد واستهدف الموصل وبلادها[١٠] وتم توزيع الأعمال بين أقطاب الحلف وذلك بأن يقوم جلال الدين في مهاجمة مدينة خلاط وهي من أملاك الملك الأشرف في حين يتقدم مظفر الدين

---

(٦) أبو شامه : ذيل الروضتين : ١٣١ — ١٣٢ ، النويرى : نهاية الارب ٢٧ : ٣٣ مخطوط .

(٧) أبو شامه : ذيل الروضتين : ١٣١ — ١٣٢ .

(٨) الحموى : التاريخ المنصورى : ٣١١ .

(٩) العبود : الدولة الخوارزميه ص١٥٠ ، أبو شامه : ذيل الروضتين ١٤٧ — ١٤٨ ، الحموى : التاريخ المنصورى ٣١٤ — ٣١٥ ، ابن ايبك : كنز الدرر ٧ : ٢٨١ .

(١٠) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص١٨٣ : ص١٨٤ ، أبو شامه : ذيل الروضتين ١٤٤ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ١٠ : ٨١ قسم المخطوط .

باتجاه الموصل لاحتلالها ويقوم الملك المعظم بمهاجمة حمص وحماه ، وذلك من أجل فتح عدة جبهات للقتال حتى يصعب اجتماع عساكر شمال الشام والجزيرة على قتالهم ومواجهتهم فى حين ضم الحلف المقابل الملك الأشرف وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وصاحبى حمص وحماه ولما تقدم مظفر الدين صاحب اربل نحو الموصل كان بدر الدين قد أرسل من الموصل الى الملك الأشرف يستنجده وهو نازل فى الرقه ليدفع عن الموصل الخطر فأجابه وتقدم الى حران ودنيسر ونزل على ماردين فخربها وكان المعظم نازلا هو الاخر على حمص وحماه فارسل الى مظفر الدين كوكبرى بأن يتراجع عن بلد الموصل فوصل الأشرف عن ماردين وعاد كل منهم الى بلده ، وكان من نتائج هذا التحرك أن خربت آمال الموصل وأعمال ماردين[١١] .

تصدعت أركان الحلف وذلك لأن نائب جلال الدين فى كرمان ثار ضد سيده مما استوجب منه العودة الى بلاده للقضاء على التمرد فعاد اليها بعد أن ترك عسكره مع وزيره شرف الملك فى مدينة تفليس سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م[١٢] .

استغل جلال الدين خوارزم تحالفه مع المعظم فانطلق لتوسيع رقعة ملكه على حساب ملك بنى أيوب فنجده يعود من كرمان متوجها الى بلاد الجزيرة وفى طريقه نازل خلاط سنة ٦٢٣هـ / ١١٢٦م لانتزاعها من الأشرف[١٣] .

وكان بها الحاجب حسام الدين على الموصلى نائبا عن الملك الأشرف فحاصرها أربعين يوما تقريبا ، اذ بدأ حصاره لها خمسة عشر ذى القعدة

---

(١١) ابن الاثير : الكامل جـ٢ — ص١٨٤ ، جب : صلاح الدين ٢١٤ .
(١٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص١٨٤ ، ص١٨٨ .
(١٣) ابن الاثير : الكامل جـ١١ — ص١٨٨ ، أبو شامه : ذيل الروضة ١٤٧ — ١٤٨ ، العبود : الدولة الخوارزميه : ١٥٥ .

فقاومه أهلها وقاتلوه كمن يقاتل عن حريمه وماله ، ومما حال دون فتحها ورحيل عنها يوم الثلاثاء ثلاثة وعشرين ذى الحجة سنة ٦٢٣هـ [١٤] وكان لحلول الشتاء واشتداد البرد ونزول الثلج فضلا عن مخاوفه من غارات التركمان على ممتلكاته[١٥] وذكر فى رحيله غير هذا وهو وصول الأشرف الى أخيه المعظم فى دمشق فاصطلحا وطلب منه أن يسأل الخوارزمى بالرحيل عن خلاط فاتصل به المعظم فرحل[١٦] ، وربما اجتمعت جميع العوامل السابقة ففرضت عليه الانسحاب عن خلاط .

لم يكن أثر حصار خلاط مقتصرا على انتصار حاميتها وسكانها فحسب بل استطاع الحاجب حسام الدين نائب الملك الأشرف فيها أن يتجه الى أذربيجان سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م وينتقم للخسارة التى لحقت بالبلاد من وراء عبث الخوارزمية وحصارهم لخلاط[١٧] .

بعد أن رجع جلال الدين من حربه مع المغول حاول استعادة ما فقده من البلاد فى أذربيجان والتوجه الى خلاط انتقاما لما أقدم عليه حسام الدين وذلك سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م الا أن محاولته باءت بالفشل واكتفى جنده بنهب وسلب بلاد الجزيرة فخافهم أهل حران والرها وسروج وسائر البلاد الشرقية ، وعزم بعض الخوارزمية الانتقال الى بلاد الشام ، ولكن حلول الشتاء وسقوط الثلوج حال دون ذلك ، فقرر سلطانهم العودة الى بلاده[١٨] .

---

(١٤) أخطأ بن كثير فى ذكر سبب انسحاب جلال الدين عن خلاط هو عصيان نائبه فى كرمان ـ ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ : ١١٢ .

(١٥) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ـــ ١٨٨ ، الذهبى : العبرة ٥ : ٩٢

(١٦) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ : ١٩٢ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ : ١٩٩ أبو شامه : الروضتين ١٤٨ .

(١٧) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ : ٢٠٧ ، النسوى : سيرة السلطان جلال الدين : ٢٥٩ .

(١٨) ابن الاثير : الكامل : جـ١٢ : ١٨٧ ـــ ١٨٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ : ٣٣٥ .

استمرت العلاقة غير ودية بين الملك الأشرف والسلطان جلال الدين وأظهر الأخير رغبته في الاستيلاء على خلاط وما شجعه على هذا هو انشغال ملوك بني أيوب في الصراع على حكم دمشق لوفاة المعظم فاتفق الكامل والأشرف على ابن أخيهما الملك الناصر داود بن الملك المعظم صاحب دمشق ، وتوجه الأشرف الى دمشق لحصارها وجرى القتال بين عسكر الأشرف وأصحاب الناصر وعامة البلد[19] . وماكان على الناصر داود الا الاستنجاد بجلال الدين وسير رسولا اليه ليعلمه أن أعمامه انما قصدوه لانتمائه هو وأبيه اليه ويحثه بالتوجه الى خلاط ومضايقتها ليشغل الملك الأشرف ويصرف نظره عنه فلما وصل الرسول اليه اهتم لقصد خلاط وحصارها[20] ويبدو لنا أن الملك الأشرف بالرغم من انشغاله كطرف فى النزاع مع ملوك بنى أيوب حول الملك الا أنه انشغل بالتفكير بالسلطان جلال الدين واحتمال تجديد هجومه على خلاط ، وقام باتخاذ سلسلة من الاجراءات ليلفت فيها نظر جلال الدين على عدم موافقته ورضاه على ما أقدم عليه نائبه حسام الدين من غزو بلاده ، فبدأ بالقبض على نائبه وقتله وانتدب لهذه المهمة عز الدين أيبك مملوكه واعتقله سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م وقتله[21] وأوفد عز الدين أيبك رسولا الى السلطان جلال الدين[22] وسلمه رسالة تتضمن الخضوع والطاعة له وأن ما أقدم عليه الملك الأشرف من قتل الحاجب حسام الدين كان لسوء أدبه والوصل الى بلاده من غير أمر صدر له[23] . فلم يلتفت السلطان الى رسالته أو

---

(١٩) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٢٤٧ — ٢٣٩ .

(٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٢٤٠ .

(٢١) ذكر ابن الاثير انه لم يعلم من الناس أحد سبب قتله ، ابن الاثير: الكامل جـ١٢ — ٢٠١ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ — ٢٦٣ .

(٢٢) ذكر الأنصاري إن وقت وصول رسول عز الدين أيبك الى جلال الدين كان خلال حصاره لمدينة خلاط . الأنصـارى : تاريخ دولة الأكراد والأتراك — ورقة ١٢٤ .

(٢٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ٢٩٩ ، العبودى: الدولة الخوارزميه ص ١٥٩ .

يرد الجواب له بل اتجه الى خلاط ونصب حولها المجانيق وضايقها واشتد القتال وأهلها صابرون فقلت أقواتهم حتى أكل الناس الخيل والحمير والجيف والكلاب[٢٤] فاستنجد أهلها بالملك الكامل فلم ينجدهم ، وكاتب الخليفة المستنصر بالله العباسي جلال الدين خوارزم شاه يتشفع لأهلها فلم يقبل طلبه وبقي محاصرا لها الى أواخر جمادي الأولى من سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م فملكها عنوة يوم الأحد الثامن والعشرين من جمادى الأولى آذار — ١٢٣٠م [٢٥] .

دخل جلال الدين المدينة ووضع السيف في رقاب أهلها ، وسبى عسكره الحريم ومات بعض سكانها جوعا في حين في القسم الاخر من أثر الحصار [٢٦] ونهبت الأموال وتعدى ظلمهم الى سفك دماء أهلها وليس أدل على ذلك من قول ابن تغرى بردى في وصف جورهم وفسادهم وقتلهم للسكان ، « وأما الخوارزميون فهم تغلبوا على عدة قلاع وعاشوا وخربوا البلاد وكانوا شرا من التتار لايعفون عن قتل ولا عن سبى ولا فى قلوبهم رحمة [٢٧] ، وبعد أن دخل جلال الدين المدينة تسلم القلعة فوقع من الأسرى بيده الملك المعز مجير الدين يعقوب بن العادل ثم أطلقه بعد ذلك ومضى الى أخيه الأشرف كما قبض على الأمير عز الدين أيبك نائب الملك الأشرف الذى قتل بعد ذلك[٢٨] وأنقذ الأمير فخر الدين عباس بن العادل الى بغداد وأقام عند الخليفة المستنصر بالله حتى وفد اليه رسول أخيه الملك الأشرف فسلمه اليه وسار معه قاصدا دمشق[٢٩] وكان

---

(٢٤) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ — ٢٠١ ، الأنصارى : تاريخ دولة الأكراد ورقة ١٢٤ .

(٢٥) المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ : ٢٣٦ .

(٢٦) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٢٩٦ .

(٢٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ : ٣٢١ .

(٢٨) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص١٩٧ .

(٢٩) ابن الفوطى : تلخيص مجمع الألقاب جـ٥ ص٢٦٤ .

لاستيلاءه على خلاط أثر فى تعمير خزانته بالمال[٣٠].

أما موقف الملك الأشرف من عمل الخوارزمية هذا فانه لم يحرك ساكنا فى بادئ الأمر لانشغاله فى أمر دمشق حيث يتسلمها باتفاق مع الملك الكامل ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م الى جانب توفر الاعذار التى حالت دون قصده لها والدفاع عنها[٣١].

ان تزايد خطر الخوارزمية وتعاظم شرهم وعبثهم فى البلاد وما لاقته خلاط على أيديهم تطلب منه معالجة الموقف بسرعة فخرج بعسكره الى بلاد الروم ودخلها واتفق مع ملكها علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو على حرب جلال الدين[٣٢] وكان لقاؤهما فى سيواس وسارا معا الى خلاط ، والتقيا مع الخوارزمية بناحية أذربيجان سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م وهناك هزم جلال الدين وفر باتجاه أذربيجان وعادت خلاط الى الملك الأشرف ودخلها ، ثم ترددت الرسل بينهما حول الصلح فاصطلحا وتحالفا وتقرر فيه لكل واحد منهما ما بيده من البلاد[٣٣] وأطلق جلال الدين بموجبه أسرى خلاط الذين بحوزته ومن بينهم مجير الدين وتقى الدين ابنا الملك العادل من اخوة الملك الأشرف[٣٤] وعاد الأشرف الى سنجار وسار منها الى دمشق كما سار جلال الدين الى أذربيجان[٣٥] . وأخيرا كانت المعركة بين الطرفين بداية لعلاقة طيبة كما كانت فرصة استغلها جلال الدين ليحسن علاقته مع القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة خاصة وأن

(٣٠) عطا ملك جوينى : تاريخ جهانكشاى : جـ٢ ١٧٧ (مطبعة بريل ليدن) .

(٣١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٤ — ٤١٤ : ٤١٥ .

(٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ — ٢٩٨ ابن أيبك — كنز الدرر جزء ٧ — ٢٩٩ .

(٣٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٤ — ٤١٤ — ٤١٥ ، ابن واصل مفرج الكروب جـ٤ : ٢٩٨ .

(٣٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٤ — ٤٨٠ قسم المخطوط .

(٣٥) الانصارى : تاريخ دولة الأكراد والاتراك : ورقة ١٢٧ قسم المخطوط .

الخطر المشترك قادم من الشرق حيث وصلت الأنباء عن خروج التتر من بلاد ماوراء النهر قاصدين بلاد أذربيجان طمعا فيها وهم عازمون على قصـــد جلال الدين وتتبعه فلما رأى جلال الدين ماهو فيه من الوهن والضعف فارق بلاد أذربيجان الى خلاط الى جانب لختلاف عساكره معه وخروج وزيره عن طاعته فلم يسعه الا أن يغادر البلاد(٣٦) ، فلما وصل قرب خلاط كتب الى نائب الملك الأشرف يقول له : « انا لم نأت للحــرب والأذى وانما خوف هذا العدو حملنا على قصد بلادكم »(٣٧) .

عزم جلال الدين على قصد أمراء وملوك المسلمين فى بلاد ديار بكر والجزيرة وكذلك الخليفة المستنصر بالله يستنجدهم على التتار ، فقصــد آمد ونزل بالقرب منها وكبسه التتار ليلا فتفرق أصحابه وقصد ميافارقين ليعتضد بصاحبها الملك المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل الا أن وثوب أحد الأكراد عليه وقتله سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م حال دون لقائه مع الملك المظفر صاحب ميا فارقين(٣٨) وقد شمل موته انهيار السد الأمامى الذى كان باستطاعته انقاذ العراق وبلاد الجزيرة والشام والروم من المغول وهجماتهم(٣٩) ، كما مثل تشتتا لقواته وأتباعه فى البلاد الاسلامية، وذلك لاستفحال أمر المغول وسيطوتهم على بلادهم كخوارزم وخراسان وغيرها(٤٠) . فى حين استمر القسم الاخر على سياسة النهب والسلب حتى وصل جيشه الى أطراف الجزيرة وايران وقتلوا سكان بدليس وأرجيش بأرمينيا(٤١) وجتازوا الأقاليم والبلدان فوصلوا بلاد الجزيرة وجاوزوها الى سنجار وماردين ، وآمد يقتلون ويأسرون ويفسدون وبموته

(٣٦) العرينى : المغــول ١٧٢ .

(٣٧) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ص٣٢ .

(٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ ، ٣٢ ، سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ق٢ ص٤٤ .

(٣٩) ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة جـ٦ / ٢٧٧ .

(٤٠) الغيــود : الدولة الخوارزمية : ١٦٤ .

(٤١) العرينى : المغول ١٧٤ .

تفرق جيشه[٤٢] فمنهم من دخل فى خدمة الملوك من حكام المسلمين حتى وصل بعضهم الى بغداد وأقام فى خدمة المستنصر بالله العباسى[٤٣] ، فأما الذين استقروا بالجزيرة ملكوا بعض ملوكها فظاهرهم بعض ملوكها للاستعانة بهم على تحقيق أطماعه ونواياه[٤٤] وكان من بين الملوك الذين وقفوا الى جانبه الملك المنصور صاحب ماردين وسار بهم الى نصيبين ونهب وفعل بها كما فعل بنى أيوب[٤٥] .

(جـ) الصالح الأيوبى والخوارزمى :

استمال الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل الخوارزمية بعد أن استأذن أباه على أثر خروجهم من بلاد الروم حيث كانوا فى خدمة كيقباذ ولما تولى كيخسرو ابن كيقباذ وقبض على كبيرهم بركه خان وفارقه الخوارزمية الى بلاد الجزيرة الا أنهم اختلفوا مع الصالح وخرجوا عن طاعته وعزموا القبض عليه ونهبوا أمواله فلجأ الى سنجار[٤٦] عبرت هزيمته عن ضعفه وسوء سياسته فقصده بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليحاصره ويأخذه أسيرا فى قفص حديد الى بغداد وذلك لكرهه الشديد له بسبب تكبره وقوة سطوته[٤٧] كما أظهر غياث الدين كيخسرو رغبته للاستيلاء على آمد وسيبساط ولم يبق للقبض عليه الا القليل ، ورأى بأن الخطر يحدق به فكاتب الخوارزمية واستنجد بهم ووعدهم بأشياء

---

(٤٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ : ١٢٩ .

(٤٣) الحموى : التاريخ المنصورى ٤٦٠ .

(٤٤) الغزى : نهر الذهب جـ٢ : ١٥٤ — ١٥٣ .

(٤٥) ارنصارى : تاريخ دولد الأكراد : ورقة ١٢٧ .

(٤٦) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ : ١٤٢ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ : ١٦٥ .
ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ : ١٥٠ ، المقريزى : السلوك : جـ١ ق٢ : ٢٧٠ .

(٤٧) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ : ١٥٠ .

كثيرة ، وبذل لهم حران والرها[٤٨] فوافقوه وساروا بهم طالبا عسكر الموصل والتقى معه فدحره وغنم أمواله واثقاله وقوى الملك الصالح بهم[٤٩] وسلم الملك الصالح أيوب مما كان فيه من الشدة كما استطاع أن يثبت مركزه في بلاد الجزيرة .

وقف الخوارزمية الى جانب بني أيوب بالجزيرة ففي سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م نازل عسكر سلاجقة الروم آمد بقيادة غياث الدين كيخسرو وحصر بها المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الملك الصالح أيوب ، وما أن سمع الخوارزمية بحصارها حتى أسرعوا لانجادها مما جعل السلاجقة يرحلون عنها ولهذا فشل حصارهم لآمد ولم ينالوا منها شيئا[٥٠] .

نال الخوارزميه ثمرة أتعابهم وقتالهم الى جانب الملك الصالح فبذل لهم الرها وحران ومناطق أخرى بالجزيرة وعليه اندفع الخوارزميه للدفاع عن الأملاك الأيوبية في بلاد الجزيرة فنلاحظ اتصال الملك الصالح بهم وكان رسوله اليهم القاضي بدر الدين يوسف بن الحسن الزرزاري قاضي سنجار الذي اتصل بهم سرا[٥١] فوعدهم ومناهم حينما تعرضت سنجار لحصار من قبل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فجاؤا ملبين دعوته للدفاع عنه واستطاعوا أن يرحلوه عنها[٥٢] .

ان مكافأة الملك الصالح لهم شجعتهم بالمضي في غاراتهم على بلاد الشام والجزيرة وتوسيع دائرة نفوذهم السياسية فهددوا أمنها واستقرارها

---

(٤٨) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ : ١٦٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١ : ١٥٠ .

(٤٩) ابن العديم : زبدة الحلب : ٢٤٢ ، أبو شامة : الروضتين م٢ : ٩٩١ م الخطوط .

(٥٠) المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ : ٢٧٢ .

(٥١) الذهبي : تاريخ الاسلام ١٧ : ٢٢٨ — رجب صلاح الدين ٢٢٢

(٥٢) ابن واصل : تاريخ الواصلين : م٢ : ٩٩١ ، الذهبي : تاريخ الاسلام : جـ٢٧ : ٢٧٨ ، ابن خلدون : العبر : م٥ : ١٩٣ .

ففي سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م أغاروا على حمص بمساندة حليفهم الملك المظفر صاحب حماه الا أنهم انسحبوا عنها وذلك لاتفاقهم مع صاحبها الذى قدم لهم الأموال فكفوا عن قتالها[٥٣] وفي سنة ٦٣٨هـ خرج الخوارزمية وأغاروا على قلعة جعبر ونهبوها وقتلوا وأسروا حتى فر الناس منها الى حلب ومنبج[٥٤] وكان من نتائج غاراتهم خروج بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الى سنجار ومهاجمتها وانتزاعها من يد الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل أيوب وظلت بيده الى سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م[٥٥] .

تعرضت حلب الى هجماتهم في سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م ، وكان بصحبتهم الملك الجواد سليمان بن مودود بن العادل والملك الصالح بن الملك المجاهد صاحب حمص . وأشار ابن القوطي الى سير الهجوم « بأن أميرهم محمد تركان خان بن دولة شاه الخوارزمي خطب ابنة الملك العادل صاحب حلب فلم يجب الى ذلك وأمر باهانة رسوله مما دفعه الى جمع العساكر والهجوم على حلب[٥٦] وكان لقاء الفريقين عند قرية تسمى البيره سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م وانكسر الحلبيون وانهزموا أمام الخوارزمية ثم اتجهوا الى جيلان وقطعوا المياه عن حلب وعاثوا في أعمالها حتى وصلت خيلهم الى بلد عزاز وتل باشر ثم رجعوا الى منبج واعتصم أهلها ثم هجموا على البلد بسيوفهم وعادوا منها الى حران[٥٧] فارين أمام القوات الأيوبيــة .

---

(٥٣) ابن واصل : تاريخ الواصلين م٢ : ١٩١ ، ابن خلدون العبر : ٥ : ١٩٣م .

(٥٤) ابن العديم : زبدة الحلب : جـ٣ : ٢٤٩ ، السلوك : جـ١ ق٢ : ٣٠٢ — ٣٠٣ .

(٥٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة : قسم الجزيرة : ورقة ٥٦ أ (نسـخة مستنسخة) .

(٥٦) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ : ٢٤٩ ـ ابن أيبك : كنز الدرر ٧ / ٣٤٤ .

(٥٧) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ — ٢٥٠ .

ولما علم الملك المنصور خبرهم تعقبهم ، فوصل الى حران واستولى عليها ، وسار بعد ذلك خلف الخوارزمية الى الخابور فاذا ما وصـــل الخوارزميه الى الفرات ألقوا أثقالهم • ولما جاء الليل جاءهم السـيل فأغرق منهم الكثير[٥٨] •

ونتيجة لما لاقته جموع الخوارزميه م ن ضربات تلقتها من السلطة المحلية وبنى أيوب فى شمال الشام والجزيرة بدأ مركزها يضـعف أمام بنى أيوب •

وفى نفس الوقت بدأ استعادة المدن والبلاد من أيديهم فانحصر بذلك نفوذهم وتلاشى سيطرتهم ولم يعد بأيديهم شئ من البلاد ، وأقاموا ببلاد الخليفة المستنصر بالله العباسى الى أن دخلت سـنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م[٥٩] •

ضاقت السبل أمام الخوارزميه فاجتمعوا وقرروا منازلة الموصل ولقاء العسكر الحلبى فاستنجد صاحبها بدر الدين لؤلؤ بالملك النـاصر صاحب دمشق فأنجده بعساكر استطاعت أن ترحل الخوارزمية عنها[٦٠] ولكن الخوارزمية عاودت الهجوم عليها فكتب صاحبها أبو لؤلؤ الى الديوان العزيز يسألة منع الخوارزميه من الهجوم على بلاده • فأوفد الديوان العزيز الى الخوارزميه يمنعهم فامتثلوا لأمره ورجعوا[٦١] •

وذكر فى رحيلهم غير هذا وهو توقيعهم الصلح مع صاحبها بدر الدين حيث اضطر بموجبه تسليمهم نصيبين[٦٢] كجزء من سـياسة

---

(٥٨) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ١٤٤ .

(٥٩) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ : ٢٥٩ ، ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ١٤٤ .

(٦٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة ، ورقة ١١٠) .

(٦١) الغسانى : المسجد المسبوك جـ٢ : ٥٠١ .

(٦٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ : ٢٦٧ .

التهدئة والمصانعة معهم على أن يكفوا عن التحريش باملاكه والغارة على البلاد •

استمرت غارات الخوارزميه على مدن الجزيرة فهاجموا سنة ٦٣٩هـ ميا فارقين وآمد وغاودوا الهجوم من جديد على رساتيق الموصل[٦٣] ، فخرج الملك المنصور صاحب حمص الى قتالهم ولكن غزو المغول لمدينة آرزن الروم حال دون لقائه بهم فاكتفى بالانسحاب الى رأس عين خوفا منهم فى حين اتجه الخوارزميةوبصحبتهم الملك المظفر غازى الى دنيسر[٦٤] ومنها انتقلوا الى حلب فالتقت معهم عساكر حلب وحمص والموصل مجتمعة فيما بينهم ودارت معركة قرب الخابور عند المجدل انكسر فيها الخوارزميه والملك المظفر غازى صاحب ميا فارقين[٦٥] وأخذوا أثقال غازى وعسكره وغنموا أموالهم[٦٦] ، وتفرقت الخوارزميه بأراضى الجزيرة سنة ٦٤١هـ تنهب وتعبث وتشن الغارات حتى التقى معهم العسكر الحلبي قرب ماردين وحاصرهم فيها حتى اضطرهم الى الصلح معه وعاد كل منهم الى بلاده[٦٧] •

ظل الخوارزميه فى اتباع سياسة شن الغارات على الأملاك الأيوبية فى بلاد الجزيرة وشمال الشام فقصدوا نصيبين ورأس عين فنهبوا ورحلوا الى الخابور وفعلوا به كذلك وأخيرا لم يكتفوا بما فعلوه بأرض الجزيرة بل قرروا قصد دمشق سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٥م[٦٨] •

وهكذا نلاحظ أن علاقة الخوارزمية مع بنى أيوب فى شمال الشام والجزيرة سادها طابع المجابهة العسكرية ، فى حين اتخذت بعض

---

(٦٣) ابن العديم : زبدة الحلب : جـ٣ : ٢٦ ، السلوك : جـ١ ق٢ : ٣٠٩ •

(٦٤) ابن شداد : الاعلاق ورقة ١٠٩ — ١١٠ (قسم المخطوط) •

(٦٥) العينى : عقد الجمان جـ١٨ ق٢ : ١٥٣ •

(٦٦) العينى : عقد الجمان جـ١٨ ق٢ : ١٥٣ •

(٦٧) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ — ٢٦٧ •

(٦٨) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ — ٤٩١ قسم المخطوط •

مراحلها الأخرى طابع التحالف السياسى والعسكرى ، وبصورة عامة ظلوا متفرقين فى البلاد بدون أرض ووطن فما فرض عليهم اتباع أسلوب المخالفة مع أنظمة الحكم السياسية بالمنطقة ونظرا لارتباطهم مع بعض ملوك بنى أيوب عن طريق التحالف فاننا نلاحظ أنهم ساهموا معهم فى نزاعهم مع الصليبيين ، فقد استنجد بهم الملك الصالح أيوب سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٥م على حرب عمه الملك الصالح اسماعيل فعبروا الفرات الى دمشق[٦٩] ولحصانتها لم يستطيعوا النيل منها فاتجهوا الى الجنوب حتى وصلوا القدس فهاجموها وأنقذوها من السيطرة الافرنجية[٧٠] وعادت الى السلطة الاسلامية[٧١] ومنها اتجهوا الى غزه فالتقت عساكرهم وعساكر مصر مع الصليبيين وحلفائهم الشاميين فى معركة انجلت بانتصار الخوارزمية وعساكر مصر وتحكيم السيوف فى رقاب الفرنج وكان الفضل فى هذا الانتصار يعود الى الخوارزمية وقوتهم العسكرية، وعليه فقد سجلوا موقفا مشرفا بانقاذ بيت القدس من الفرنج الصليبيين ، وطمعوا فى تحقيق مزيد من المكاسب على حساب هذا الانتصار وخاصة بالشام . فحصلوا على بعض المواقع فيها كاستيطانهم بمنطقة الساحل[٧٣] ، ولكن خروجهم عن طاعة الملك الصالح غير ولاءهم فوقفوا الى جانب عمه الملك الصالح اسماعيل[٧٤] ولهذا دخلوا طرفا فى الصراع بين دمشق ومصر خلال العامين ٦٤٣هـ ، ٦٤٤هـ / ١٢٤٥م ، ١٢٤٦م الى جانب هذا فانهم تميزوا بطابع النهب والسلب خلال هذه الفترة فى بلاد الشام الى أن استطاع الملك الصالح أيوب من لقائهم يسانده الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص كما وقف الى جانبه الحلبيون وكذلك بعض العرب

(٦٩) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ — ١٦٦ ، العينى : عقد الجمان : ج١٨ ق ٢ ، ٢٧٢ .

(٧٠) المقريزى : السلوك ج١ ق٢ : ٣١٦ .

(٧١) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ : ١٠٤٥ .

(٧٢) أبو شامة : ذيل الروضتين : ١٧٤ ، السلوك ج١ ق١ : ٣١٧

(٧٣) العبود : الدولة الخوارزمية : ١٧٩ .

(٧٤) المقريزى : السلوك ج١ ق٢ — ٣٢٢ .

والتركمان [٧٥] سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م عند بحيرة حمص (بين حمص وبعلبك) وانكسرت الخوارزميه كسرة شنيعة ونهبت أموالهم ووصلوا الى حوران وقتلوا مقدمهم بركة خان[٧٦] ، وتفرقوا فى بلاد الشام ومصر فالتحقت بعض جموعهم فى خدمة الملك الناصر داود صاحب الكـرك الا أن اقامتهم معه لم تدم بحيث تمكن الملك الصالح من كسرهم [٧٧] كمـا فرض على بعضهم الالتحاق فى خدمته[٧٨] وتفرق الاخرون فى البلاد الشامية المصرية ، ولم يظهروا أى نشاط سياسى ملحوظ وانما اكتفوا فى البقاء مقاتلين كوحدات عسكرية ضمن تشكيلات الجيش الاسـلامى بالمنطقـة .

ثانيا : بنو أيوب والمغول :

(أ) بلاد الجزيرة والمغول وبنى أيوب :

تعرضت بلاد المشرق الاسلامى الى هجمات شنتها قوة جديدة هى قبائل التتار ، خرجت من أطراف الصين ، وقصدت بلاد تركستان ثم اجتازت الى بلاد ماوراء النهر وعبرت طائفة منهم الى خراسان فجاوزوها الى الرى وهمذان وبلاد الجيل حتى وصلوا الى حدود العراق ، وكانت بداية غزوهم للمشرق الاسلامى فى حدود سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م [٧٩] .

دخلت الدولة الخوارزمية ف حروب معهم حتى تجاوزت حدودها وأصبح شمال الجزيرة الفراتية أكثر المناطق تعرضا لهجماتهم وأصبحوا

---

(٧٥) ابن كثير : البداية والنهاية : جـ١٣ : ١٦٧ ، النجوم الزاهرة جـ٦ : ٣٢٢ — ٣٢٥ .
(٧٦) أبو شامة : ذيل الروضتين : ١٧٨ .
(٧٧) السلوك : جـ١ ق٢ : ٣٢٥ ، ابن أيبك : كنز الدرر جـ٧ — ٣٥٨ .
(٧٨) المقريزى : السلوك جـ١ ق٢ — ٣٢٥ .
(٧٩) ابن الاثـر : الكامل جـ١٢ — ١٤٨ — ١٤٩ .

خطرا على أملاك الأيوبيين فيها[٨٠] ، ففى سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م أوشكت اربل أن تتعرض الى غزوهم حيث وصلوا الى كرمان شاهان القريبة من الحدود العراقية الا أنهم عدلوا عن الهجوم عليها فى وقت اتخذ صاحبها مظفر الدين الاستعداد والاستنجاد لمواجهتهم[٨١] ، كما أبدى الخليفة استعداده بتحصين مدينة بغداد والدفاع عنها ، وعليه أضحت الأملاك الأيوبية فى الجزيرة منذ سنة ٦١٨هـ مهددة بحكم هجماتهم المتكررة على أقاليم المشرق الاسلامى .

فى سنة ٦٢٨هـ انهزم جلال الدين خوارزم شاه من المغول وفر الى دياربكر[٨٢] وكان من نتائج هروبه أمامهم مقتله فى منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م مما كان له الأثر الكبير فى تمكن التتار وتقدمهم فى بلاد الجزيرة[٨٣] ونهبها وقتل وسبى أهلها . وقصدوا آمد وأرزن وميافارقين وسنجار واربل وانتقلوا الى طنزة ثم الى نصيبين ثم تراجعوا عنها الى سنجار ودخلوا الخابور فقتلوا ونهبوا وعادوا . وسارت طائفة منهم باتجاه الموصل واستباحوا أعمالها ثم أعمال أربل ومضت طائفة أخرى الى نصيبين الروم وهى على الفرات من اعمال آمد وقتلوا من فيها ثم عادوا الى آمد ، وقصد الجيش الثانى بدليس وتحصن أهلها بالقلعة والجبال كما تعرضت خلاط الى سيوفهم[٨٤] كانت سياسة المغول مع الأهالى القتل والسلب والنهب فعمت الفوضى وساد الرعب دون أن يجرؤ أحد من السكان الى مقاومتهم ، فى حين زحف الجيش الثالث نحو أربك عبر اذربيجان سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م فوصل الى شهر زور[٨٥] .

---

(٨٠) العرينى : الشرق الأدنى ١٢٧ — ١٢٨ .
(٨١) القزاز : الحياة السياسية فى العراق : ٧٣ .
(٨٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ : ٦٤٠ .
(٨٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ : ٣٢٦ .
(٨٤) العينى : عقد الجمان : ١٨ ق ل : ١٢٩ .
(٨٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ : ٣٢٤ ، فؤاد : المغول فى التاريخ ١٧٩ .

أما موقف بنى أيوب من هذه الهجمات فقيل أن الملك الكامل والملك الأشرف خرجا من مصر لأنقاذ البلاد من شرهم فعبرا الفرات ونزلا على آمد سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م واستولوا عليها[٨٦] ، وعلى كل فان ملوك بنى أيوب لم يقدموا ماهو مطلوب منهم لمقاومة هذا الخطر قياســـا الى الامكانيات والقوة التى يمتلكونها ، بل انشغلوا فى الصراع الذى عم فيما بينهم الى جانب تركيزهم على خطر الخوارزميه كما انصرفوا الى عقد الأحلاف العسكرية ضدهم ، بل كان المفروض بهم وخاصة الملك الأشرف صاحب الجزيرة وخلاط الا يقدم على مثل هذا العمل ضد سلطانهم جلال الدين باعتباره يمثل السد الذى يحول بينهم وبين المغول ، وأن يعمل على تقوية بنيان ذلك السد[٨٧] • وبالرغم من معرفته المسبقة بمكانته الدفاعية أمام خطر المغول فقد جاء ذلك على لسان الأشرف نفسه « ان سلطانك سلطان الاسلام والمســـلمين وسندهم والحجــاب دونهم ودون التتار وسدهم[٨٨] ••• » وذكر ابن واصل نفس ما خاطب به جلال الدين الملك الأشرف قوله « كان سدا بيننا وبين التتار فبهلاكه تمكنت التتار من العراق والروم والجزيرة والتطرق الى الشام[٨٩] •

عاود المغول غزو بلاد الجــزيرة ففى ســـنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م هاجموا اربل ونزلوا قرية كرمليس[٩٠] وقام بدر الدين لؤلؤ بالكتــابة الى الملك الكامل يخبره عن قرب خطرهم ، وهو نازل فى دنيسر[٩١] بأنهم عبروا دجلة فى مائة طلب وكل طلب خمسمائة فارس[٩٢] وما كان على الملك

(٨٦) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ : ٢٤٥ ، العرينى : الشرق الأدنى ٤٣ •
(٨٧) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ٢٤٦ •
(٨٨) النسوى : سيرة جلال الدين ٣٣ — ٣٣٤ •
(٨٩) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٤ : ٣٢٣ •
(٩٠) ابن الفوطى : الحوادث ٩٨ — ٩٩ •
(٩١) القزاز : تاريخ العراق ٩٠ •
(٩٢) سبط الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ورقة ٤٦٢ •
(٩٣) الأنصارى : تاريخ دولة الأكراد ١٤٠ •

الا أن يوقف الحرب مع سلاجقة الروم ليتفرغ الى قتالهم وقرر السير على أن يحمى ظهره من الخلف بحران ، ويقيم هناك حتى تكتمل عساكره وكانت من بين مدن الجزيرة التى تعرضت الى هجومهم سنجار وقتلوا واليها ظهر الدين بن كمال الدين مهاجر على باب المدينة ، ومع استعداد الملك الكامل الا أنه لم يلتق مع المغول لتراجعهم[93] ثم رجع الكامل الى الشام مكتفيا بارسال ابنه الصالح أيوب لدفع المغول ، اذ اتفق تعيينه من قبل أبيه واليا على بلاد المشرق[94] .

كانت هذه الحملات التى قادها المغول ضد بلاد الجزيرة ، مجرد حملات استطلاعية هدفها اختبار أحوالها السياسية والوقوف على قوة جيوشها [95] كان يقابله انشغال ملوك المنطقة فى التناحر حتى وصل بهم الضعف الى درجة تطاول ملك المغول عليهم . ففى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م بعث هولاكو الى ملوك بنى أيوب يأمرهم بالدخول فى طاعته ويطلب من شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين هدم أسوار بلدته كما يهدد بقية الملوك أن يدخلوا فى طاعته .

ان استفحال أمر المغول فى بلاد الجزيرة أثار معه الرعب والذعر بين صفوف سكان الشام بعد أن أصبحت كل بلاد فارس فى قبضة أيديهم[96] وتعرضت أرمينية الى هجماتهم وتخريبهم وكل هذا وملوك بنى أيوب بعيدون عن النهوض الى معالجة أمرهم والتصدى لهم ومقاومتهم الا ما خلا من بعض الاشارات التى سجلت لهم بعض المواقف ضدهم[97] .

ففى سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م وقف الملك الكامل الى جانب الخليفة العباسى فأنجده بالعساكر يقودها ولدا الملك الأمجد صاحب بعلبك[98] .

---

(٩٤) العرينى : الشرق الأدنى .

(٩٥) د . العدوى : العرب والتتار : ٦٦ .

(٩٦) العرينى : المغول ١٧٥ .

(٩٧) الصياد : المغول فى التاريخ ١٨١ ــ ١٨٢ .

(٩٨) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ١١١ ــ ١١٢ .

وفي سـنة ٦٤١هـ / ١٢٤٤م استنجد غياث الدين بن علاء الدين صاحب الروم بالحلبيين ضدهم فأرسلوا اليه نجده بقيادة الأمير ناصح الدين الفارسي ، وأنجده الملك المنصور صاحب ماردين والملك الأيوبي المظفر صاحب ميافارقين ، وانضمت الى العساكر الاسلامية الخوارزميه وتقدموا جميعا في اتجاه المغول(٩٩) • ونازلوهم سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٤م • وكانت الكسره على التتار ثم تراجعوا وحملوا على العساكر الاسلامية وكروهم وذلك يوم الخميس الثالث عشر من المحرم سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٤م وكان من نتائجها أن رجع عسكر حلب بأسوأ حال في حين انهزم ملك الروم(١٠٠) •

وبدأ عجز بني أيوب واضحا في عدم قدرتهم على دفع المغـول وتجاوز ذلك الضعف حدود اقليم الجزيرة الى الشام ، اذ شرع بدر الدين لؤلؤ — الذي صانع هولاكو ودخل في طاعته — في جباية الأموال من أهالي الشام وحملها الى المغول امتثالا لأمرهم(١٠١) ، كما أوفد الملك الناصر صاحب حلب أخاه الملك الظاهر الى قراقورم محملا بالهدايا وبدأ المغول بتنفيذ غزوهم المنظم للجزيرة ففي سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٣م نهبوا ديار بكر وميافارقين ، ووصلوا الى رأس عين وسروج وقتلوا زيادة من عشرين ألف وصادفوا قافلة خرجت من حران تقصد بغداد فوقعوا عليها بين حران ورأس عين فأخذوا منهم ستمائة حمل سكر مصنع في مصر وستمائة ألف دينار ثم رجعوا الى خلاط(١٠٢) وعمدت جيوش هولاكو في هذه العملية الى قطع سبل الاتصال التجاري بين تلك الارجاء بمهاجمة القوافل التجارية الى جانب كونها تمثل جزءا من سياسة عامة عرف بها المغول هي سياسة النهب والسلب والقتل والتشريد(١٠٣) •

---

(٩٩) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ : ٢٦٨ •
(١٠٠) سبط بن الجوزي — مرآة الزمان ج٨ — ٧٣٣ •
(١٠١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص٨٦ •
(١٠٢) سبط الجوزي : مرآة الزمان ج٨ : ٥٢٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ : ١٨٢ •
(١٠٣) د • العدوي : العرب والتتار •

(ب) شمال الشام والمغول وبنو أيوب :

استقر ملك المغول في بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م بينما استمرت سياسة غزوهم لبلاد الجزيرة وشمال الشام وقد خرجت قوات هولاكو في أواخر سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م قاصدة الشام ، واتخذت طريقها عبر أراضي ديار بكر فقامت بالاغارة على ميافارقين تساندها القوات الصليبية من الأرمن المسيحيين[١٠٤] الذين وجدوا من المغول حليفا جديدا ضد المماليك من المسلمين وكان يقود الجيش المغولى شـمـوت بن هولاكو وسوناى نوين ، فحاصرها لمدة سنتين وأظهر أهلها الشجاعة والصمود وفني الجند وكثر القتال واستنجد صاحبها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل بالملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق وحلب فوعده بذلك[١٠٥] ولم يتمكن من انجاده وتسلمها المغول فأخذوا الملك الكامل وتسعة من مماليكه وأحضروا بين يدي هولاكو وقتلوا الا مملوكا واحدا اسمه قراسنقر أبقاه هولاكو[١٠٦] ونازل هولاكو آمد وبعث رسله الى الملك السعيد نجم الدين ايلغازى صاحب ماردين يطلبه فأرسل اليه ولده الملك المظفر قرا أرسلان مع هدية ورسـالة تتضـمن الاعتذار الا أن هولاكو لم يقبل عذره وفسرهـا خروجا على طاعته ، فتسرب الخوف الى الملك السعيد وراسل الملـك الناصر صاحب حلب ودمشق يستنجده واستعد للقتال ، وحاصر المغول ماردين لكنهم لم ينالوا منها فغادروها[١٠٧] كما قدم هولاكو البلاد التى شرق الفرات ونازل حران واستولى على البلاد الجزرية[١٠٨] وعبر جيش من جيوشه الفرات بقيادة ولده شموت فوصلوا الى ظاهر حلب فى أواخر

---

(١٠٤) د . الصياد : المغول في التاريخ ٢٩٢ .

(١٠٥) العبري : تاريخ مختصر الدول : ٤٨٣ .

(١٠٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان : ١ : ٩١ ، العيني : عقد الجمان ١٨ ق ورقة ٣٩٦ .

(١٠٧) العيني : عقد الجمان جـ١٨ ق ٣ : ٤١٧ .

(١٠٨) المختصر : ٣ : ١٩٩ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ٢ : ٢٠٣

ذي الحجة سنة ٦٥٧هـ / ١٢٦٠م وكان الحاكم فى حلب الملك المعظم توورانشاه ابن السلطان صلاح الدين نائبا عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف فخرج عسكر حلب لقتالهم ومعه العوام ونزلوا بجبل بانقوسا[١٠٩] واشتبك الطرفان فى قتال عنيف استمر أسبوعا ثم رحلوا الى عزاز فتسلموها[١١٠] ثم عادوا الى حصار حلب فى اليوم الثاني من صفر سنة ٦٥٨هـ ، يناير ١٢٦٠م(١١١) فى حين استمرت القلعة صامدة أمام المغول الى أن استسلمت فى الحادى عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م[١١٢] ودام القتال والنهب وقتل الكثير من الناس ولم يسلم منهم الا القليل ثم رحلوا الى حصار حارم وأبى أهلها من أن يسلموها لهم الا أنها استسلمت أخيرا ودخلوها وحكموا السيف فى رقاب أهلها[١١٣] كما سقطت حماه بأيديهم بعد أن قام أعيان أهل حماه بتسليم مفاتيح المدينة الى هولاكو وهو مقيم فى حلب وطلبوا الأمان منه فأمنهم ثم تسلمها منهم[١١٤] ، كما سقطت دمشق بأيديهم ، وتسلمها كتبغا بن هولاكو ودخلوا المدينة بلا حصار وقتال وفرضوا سيطرتهم على حمص ، ووصلوا فى حركة فتوحهم هذه الى غزة القريبة من مصر[١١٥] وعليه فقد استطاعوا أن يسيطروا ليس على شمال الشام وبلاد الجزيرة فحسب وانما على جميع بلاد الشام .

لقد قامت علاقة المغول مع الدويلات الأيوبية وسكانها على أساس القتل والنهب والسلب وتحكيم السيوف فى رقاب الناس ، وتعاملوا مع ملوك بنى أيوب مثلما تعاملوا مع سكان البلاد الاسلامية التى فتحوها

---

(١٠٩) ابن واصل : تاريخ الواصلين : م٢ ورقة ١٢٤٦ .
(١١٠) العينى : عقد الجمان جـ١٨ ق٣ : ٤١٨ .
(١١١) ابن الوردى : تتمة المختصر : جـ٢ : ٢٠٣ .
(١١٢) العينى : عقد الجمان جـ١٨ ق ٣ : ٤٢٤
(١١٣) الهمدانى : جامع التواريخ ١ : ٣٠٧ .
(١١٤) العمرى : مسالك الابصار جـ٢٧ ق ٣ : ٣٠١
(١١٥) الهمدانى : جامع التواريخ جـ١ : ٣٠٨ .

سواء فى العراق أو فى بلاد الجزيرة وبلاد الشام ، وذهب ضحية غدر المغول من بنى أيوب مثل صاحب ميافارقين وصاحب دمشق وحلب كما استشهد أيضا بعض الأمراء الأيوبيين[116] ، كما تعرضت مدنهم الى التخريب وتدمير الاستحكامات كالأسوار والقلاع كما فعلوا مع ميافارقين وحلب وحمص ، لكونها امتنعت عن التسليم اليهم[117] ٠

وأخيرا فان تعرض شمال الشام وبلاد الجزيرة الى غزو المغـول وحروبهم كان سببا فى وقوع هـذين الاقليمين تحت النفوذ الأجنبى كما يعتبر غزوهم لبلاد الشام والجزيرة السبب الرئيسى فى زوال دولتهم وانتهاء حكمهم فيهما ووقوع المنطقة تحت حكم جديد هو حكم المماليك ٠

ثالثا : بنو أيوب والمماليك[118] :

ترجع علاقة المماليك مع بلاد الشام الى أواخر الدولـة الأيوبية وخصوصا فى أيام استيلاء التتار على البلاد الشرقية والشمالية من العالم الاسلامى[119] واشتراهم ملوك بنى أيوب مثل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وأخوه الملك العادل أبو بكر ثم أولاده الكامل والأشرف والمعظم[120] ، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب أول من استكثر من المماليك[121] حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه(١٢٢) اذ بلغ ما اشتراه

---

(١١٦) العرينى : المغول ٢٤٨ ٠

(١١٧) القزاز : الحياة السياسية فى العراق فى عهد السـيطرة المغولية ١٢٠ ٠

(١١٨) ان مصدر الحصول على المماليك هو الشراء أو الاسر فى ميدان القتال الاهداء أو الهبات واذا ما أعتق الملوك حق له أن يتقلد المنصب الادارى فى الدولة كقيادة الجيش أو نيابة الاقاليم ٠
العينى : عقد الجمان ج١٨ : ق٢ : ورقة ٣٣٦ ٠

(١١٩) العينى : عقد الجمان ج١٨ : ق٢ : ورقة ٣٣٦ ٠

(١٢٠) ابن دقماق : الجوهر الثمين : ورقة ٩٨ ٠

(١٢١) اليونينى : ذيل مرآة الزمان ج١ : ١٨٦ ٠

(١٢٢) أبو الفدا : المختصر ج٣ : ١٧٦ ٠

منهم الف مملوك وكانت الأسباب التى دعته الى ذلك هو ما اتصفوا به من الشجاعة والاقدام فى الحرب وأن اختيارهم هذا جاء عن تجـربة فى الحرب ولاتخاذهم حرسا له فرتبه جاعة من المماليك الترك حـول دهليزه وسماهم البحرية[١٢٣] وربما أراد أن يحفظ بهم كفة التوازن داخل جيشه مع عنصرى الأكراد والخوارزمية وذلك بعد أن جرب كثرة غدر الأكراد والخوارزمية وغيرهم من العناصر الأخرى فضلا عم هدف بنى أيوب من وراء استخدامهم فى عساكرهم هو تزيين مواكبهم فى البلدان[١٢٤] .

وظلوا فى خدمة بنى أيوب حتى صارت منه مجماعة أمراء وكبار مقدمون فأمر الملك الصالح منهم جماعة وعندما تولى ولده الملك المعظم تورانشاه أساء معهم التدبير فوثبوا عليه وقتلوه فى مصر سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، واتفق الأمراء على تنصيب شجر الدر زوجة الملك الصالح فى السلطنة[١٢٥] وأن يكون عز الدين أيبك أتابك العسكر مما أثار غضب الأيوبيين فى مصر وتطلعوا الى حكم مصر وخاصة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب حلب الذى خرج من حلب واستولى عليها يوم السبت ٨ ربيع الاخر سنة ٦٤٨هـ[١٢٦] فقرب الأمراء القيمرية واعتقل جماعة من أمراء الملك الصالح ، أما فى مصر فقد اتفق الأمراء على تنصيب عز الدين أيبك فى السلطنة ولقب الملك المعز وكان أول من حكم من المماليك[١٢٧] أعقبها ثورة المماليك الصالحية الذين اتفقوا على أن يكون سلطان مصر من بنى أيوب فنصبوا الملك الأشرف موسى بن يوسف ابن الملك الكامل وأن يكون المعز أتابكا له الا أن ظهور طمع الملك

---

(١٢٣) أبو الفدا : المختصر جـ٣ : ١٧٦ .
(١٢٤) ابن أيبك : كنز الدرر جـ٧ : ٣٧٣ .
(١٢٥) ابن دقماق : الجوهر الثمين : ٩٨ ، أبو الفدا : المختصر ٤٥ : ١٨١ .
(١٢٦) اليونينى : ذيل مرآة الزمان جـ١ : ٥٦ — ٥٧ .

الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب والشام فى حكم مصر جعله يخرج بعساكر الشام وملوكها قاصداً مصر وتقدمت عساكره فى اتجاه غزه فوصلته العريش ، وخرجت العساكر المصرية لقتالهم[128] والتقى العسكران بالقوب من العباسية يوم ١٠ ذى القعدة سنة ٦٤٨هـ وانجلت اخيرا عن انكسار العساكر الشامية فقتل الكثير من أمرائهم وقادتهم فى حين أسر الاخرين[129] .

وحدث أن وقع خلاف بين المعز والمماليك البحرية وكان من نتائج الخلاف أن قتل فارس الدين أقطاى وهروب المماليك البحرية الى الشام واستقلال المعز فى سلطنة مصر ، بعد أن خلع الملك الأشرف من قبل الأمراء بحجة عدم قدرته القيام بواجب الحكم وتدبير المملكة وخاصة وأن الأخبار قد وصلت الى مصر بغزو المغول للعراق وتواترت أخبار هجومهم على بلاد المسلمين مما جعلهم يقرروا عزل الأشرف واستقلال عز الدين أيبك بالسلطة فى مصر عن نفوذ بنى أيوب[130] وفى سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١ عاود الملك الناصر يوسف صاحب حلب والشام غزوه لمصر فسار الى غزه وأظهر مماليك مصر استعدادهم للقائه ، واستمر الحال الى سنة ٦٥١هـ اذ تم الصلح بين الطرفين بوصول رسول الخليفة الشيخ نجم الدين البدرائى من بغداد على أن يكون للمعز الديار المصرية والقدس وغزه وأما باقى البلاد الشامية للملك الناصر ، وأفرج المعز عن أسرى بنى أيوب وملوكهم[131] .

---

(١٢٨) ابن واصل : تاريخ الواصلين م١ : ١١٧١ : ١١٧٤ ، ابو شامة : ذيل الروضتين : ١٨٦ .

(١٢٩) أبو الفدا : المختصر جـ٣ : ١٨٤ .

(١٣٠) العينى : عقد الجمان جـ١٨ ق٢ : ٣٣٧ ، المقريزى : السلوك جـ١ ق٢ : ٣٩٠ .

(١٣١) اليونينى : ذيل مرآة الزمان جـ١ : ٥٦ ، أبو الفدا : المختصر جـ٣ : ١٨٦ — ١٩٠ .

أن أهم مايمكن ملاحظته حول العلاقة بين الأيوبيين والمماليك للفترة السابقة اتسمت بطابع العداء ، وسعى المماليك من أجل الاستقلال عن حكم بني أيوب بعد أن توفر لديهم مايبرر عملهم هـذا ، والذى يمثله استفحال أمر المغول بالمشرق الاسلامى وزحف خطرهم نحو بلاد الشام الى جانب تعاظم خطر الفرنج على البلاد الاسلامية بالاضافة الى انشغال ملوك بنى أيوب فى الشام والجزيرة بالخلافات مما أثر على القـوة الدفاعية للمسلمين أمام عدوهم المشترك المغول والصليبيين ، مما نتج عنه رغبة المماليك بالاستقلال عن حكم الدولة الأيوبية . واستمرت العلاقة على هذه الحالة الى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٩م ، وهى سنة غزو المغول لبغداد وتهيئهم صاحب حلب والشام الملك الناصر يوسف أن يوفد القاضى كمال الدين بن العديم الى مصر ليستنجد بصاحبها الملك قطز فأجابه بالموافقة على نجدته[132] . ولكن ما أن وجه المغول ضرباتهم نحو المدن الأيوبية الا ونراها تتهاوى ساقطة بأيديهم وتعرض بعض ملوكهم الى القتل فى حين أقر القسم الاخر على مناصبهم ، ولهذا جاء الغزو المغولى ليعجل انهيار الدويلات الأيوبية في بلاد الشام والجزيرة ، ومابقى من تـلك الدويلات انهارت هى الأخرى بسبب تحرير الشام من قبل الملك ، أو بسـبب وفاة ملوكها .

وفى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م هزم المغول فى عين جالوت من قبل الملك المظفر قطز وكان بصحبته من ملوك بنى أيوب الملك المنصور محمد صاحب حماه وأخوه الملك الأفضل ، وبانتصارة توحدت مصر والشـام تحت حكمه وقيادته[133] وما أن وصل دمشق حتى وفدت اليه الملوك ومنهم الملك الأشرف موسى صاحب حمص ، وبصحبته الملك المنصور صاحب

---

(١٣٢) أبو الفدا : المختصر : جـ٣ — ١٩٩ .

(١٣٣) أبو الفدا : المختصر جـ٣ : ٢٠٥ ، ابن قلاوون : العبر جـ ٥ : ٣٦٧ .

حمـاه وتلقـاهما الملك قطز وأكرمهما وزاد فى اقطاعهما فعـادا الى بلديهما[١٣٤] .

وخرجت حلب من نفوذ بني أيوب لمقتل صاحبها على يد هولاكو[١٣٥] كما خرجت من نفوذهم دمشق ولم يبق من ملكهم فى شمال الشام سوى حمص وحماه أما حمص فقد خرجت من يدهم وذلك لوفاة الملك الأشرف صاحبها سنة ٦٦١هـ . وتسلم الملك الظاهر قطز حمص ، ولهذا اعتبر الملك الأشرف آخر ملك من بني شيركوه . أما حماه التى استمر فيها الحكم الأيوبى ، حيث ردها الملك قطز الى الملك المنصور ناصر الدين صاحبها ، وبقيت تحت حكمه الى سنة وفاته فى شوال ٦٨٣هـ / ١٢٨٦م ثم رتب السلطان سيف الدين قلاوون فى ملك حماه ولده الملك المظفر تقى الدين محمود بن محمد واستمر الى ٦٩٩هـ ، واستمر بنو أيوب فى حكم حماه واعتبروا فى الخدمة السلطانية للمماليك على رسم النواب[١٣٦] وتعاقبوا على حكمها الى سنة ٧٣٢هـ ، وكان انقراضهم على يد المماليك .

أما الجزيرة فقد تلاشى الحكم الأيوبى فيها منذ استفحال الغزو المغولى لبلادها وكان آخر من حـكم منهم فيها هـو الملك تقى الدين عبد الله بن الملك المعظم تورانشاه بن الملك الصالح الذى قتل على يد هولاكو بعد أن ظفر به كتبغا مقدم التتار سنة ٦٥٨هـ[١٣٧] .

وهكذا نرى انتقال الحكم الأيوبى فى شمال الشام الى المماليك فى حين استولى على ملك بنى أيوب فى الجزيرة ملوك الأطراف .

---

(١٣٤) العينى : عقد الجمان جـ١٨ ق٢ : ٢٥٩ .

(١٣٥) الهمدانى : جامع التواريخ جـ١ ٣١٧ .

(١٣٦) النويرى : نهاية الارب جـ٢٧ : ١١٦ ، زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة ١٥٤ .

(١٣٧) النويرى : نهاية الارب ٢٧ ورقة ١١٤ .

المصـــادر والمراجع

١ ـ المصـــادر :

(أ) المخطوطـات :

١ ـ الأنصارى :

محمد بن ابراهيم بن محمد بن أبى الفوارس عبد العزيز الخزرجى .

تاريخ دولة الأكراد والأتراك يبـــدأ من سنة ٥٧١ هـ ـ ٦٥٥ هـ) .

نسخة مصورة ـ معهد احياء المخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم (١١٢ تاريخ) .

٢ ـ ابن دقماق :

صارم الدين ابراهيم بن أيدمر (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م)

ـ الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين .

ـ مجلدان ـ معهد احياء المخطوطات .

ـ الجامعة العربية رقم (٩٤٥) .

ـ نزهة الأنام فى تاريخ الاسلام نسخة دار الكتـــب والوثائق القومية المصرية رقم (١٧٤٠) .

٣ ـ الذهبى :

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمـــان (ت ٧٤٨ / ١٣٤٧م) .

تاريخ الاسلام ، الجزءان السادس عشر والســـابع عشر ـ معهد احياء المخطوطات رقم (٩٨١ تاريخ) ، والمجلد الرابع رقم (٣٦٩) والمجلدات ٢٧ ـ ٣٠ ، نسخة دار الكتب والوثائق القومية المصرية رقم (٤٢) .

٤ ــ سبط بن الجوزى :

شمس الدين بن يوسف قزاوعلى التركى (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦ م) .

ــ مرأة الزمان فى تاريخ الأعيان الجزء الثامن .
نسخة من دار الكتب والوثائق القومية المصرية (رقم ٢١٨١) .

٥ ــ ابن شداد :

عز الدين محمد بن ابراهيم بن على بن ابراهيم (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) .

ــ الاعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة (قسم الجزيرة) مخطو اكسفورد رقم

٦ ــ ابن العديم :

كما الدين أبى القاسم عمر بن أحمد بن هبد الله (٦٦٠هـ / ٧٦٢م) .

بغية الطلب فى أخبار ٣ مجلدات نسخة دار الكتب والوثائق القومية المصرية رقم (١٥٦٦) ، ونسخة معهد المخطوطات رقم (٩٠ تاريخ) .

٧ ــ العمرى

شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)
مسالك الابصار فى ممالك الأمصار .

٣ أجزاء (مصورة) فى دار الكتب والوثائق المصرية القومية (٢٥٦٩) .

٨ ــ العينى :

بدر الدين محمود بن أحمد (ت ٨٥٥هـ ١٤٥٦م)

ــ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ٦٩ مجلدا مصورة فى دار الكتب والوثائق المصرية القومية (١٥٨٤) •

٩ ــ الفــارقى :

أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق (٥٧٨هـ / ١١٨٢م)

تاريخ أمد وميافارقين مخطوطة مصنور عن اكسفور •

١٠ ــ ابن الفرات :

ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم الحنفى المصرى ــ (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م)

تاريخ الدول والملوك ١٨ مجلدا مصورة فى دار الكتب والوثائق القومية المصرية رقم ٣١٩٧ •

١١ ــ النويرى :

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م)

نهاية الارب فى فنون الأدب ، ٢٨ جــزء مصورة بدار الكتب والوثائق المصرية تحت رقم ٥٤٩ •

١٢ ــ ابن واصــل :

جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م)

تاريخ المواصلين فى أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين ويسمى مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) ، مجلدان (مصوران) فى دار الكتب والوثائق المصرية رقــم (ح / ١٠٤١) مستنسخة من النسخة المحفوظة بدار الكتب تحت رقم (٥٣١٩) •

(ب) المطبوعات :

١ ـ ابن الاثير :

أبو الحسن عز الدين بن على الشيبانى الجزرى (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) .

ـ الكامل فى التاريخ ١٢ جزءا ـ المطبعة الكبرى القاهرة .

ـ التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية بالموصل ـ تحقيق د. عبد اللطيف أحمد طلميات ـ مطبعة الاستقلال الكبرى ـ القاهرة ١٩٦٣م .

٢ ـ الاصطخرى :

أبو اسحق محمد ابراهيم الفارسى (ت ٣٤١هـ) .

ـ مسالك الممالك ـ ابريل ـ ليدن ١٩٢٧م .

٣ ـ ابن أيبك :

أبو بكر بن عبد الله الدواه دارى (ت حوالى ٧٣٦هـ)

ـ كنز الدرر وجامع الغرر ويعرف باسم (الدرر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب) ـ الجزء السابع ـ تحقيق د. سعيد عاشور ـ القاهرة ١٩٧٢م .

٤ ـ ابن تغرى بردى :

جمال الدين أبى المحاسن الاتابكى (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)

ـ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ـ الجزء الأول تحقيق أحمد يوسف نجاتى ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٦م .

ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٦ جزءا عن مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٧٢م

٥ ــ ابن خلدون :

عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)
ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٦ مجلدات منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ــ بيروت سنة ١٩٧١م •

٦ ــ ابن خلكان :

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) •
ــ وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، ٦ أجزاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد •

٧ ــ الذهبى :

دول الاسلام ، جزءان ، تحقيق فهيم شلتوت ، محمد مصطفى ــ الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٢م •

٨ ــ ابن الساعي :

أبو طالب على بن أنجب تاج الدين (ت ٦٧٤هـ ــ ١٢٧٥ م) •
ــ الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير عنى بنشره مصطفى جواد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية بغداد ــ ١٩٣٤م •

٩ ــ سبط بن الجوزى :

شمس الدين يوسف قزاوغلى التركى (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦ م)
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ــ جزءان مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ــ مجيد أباد الدكن ــ الهند •

١٠ ـ أبو شامة :

شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل القدسى (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) •

ـ الروضتين فى أخبار الدولتين تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ، الجزء الأول القسم الأول ، مطبعة لجنة التأليف القاهرة ـ ١٩٥٦م ، جا ق٢ ، القاهرة ١٩٦٢م ، والنسخة المصورة عن دار الكتب الملكية القاهرة ، دار الجيلاط ، بيروت ـ ١٩٧٤م •

ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المعروف بالذيل على الروضتين) دار الجيل ط٢ ـ بيروت ١٩٧٤ •

١١ ـ ابن شداد :

عز الدين محمد بن على بن ابراهيم (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م) •

ـ الاعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة قسم حلب جا ق١ (تحقيق دومينيك سورديك ، المعهد الفرنسي ، دمشق ١٩٥٣ م •

١٢ ـ ابن الصابونى :

جمال الدين محمد بن على (ت ٦٨٠ / ١٢٨١م) ـ تكملة الأكمال فى الانساب والأسماء والألقاب ـ تحقيق مصطفى جواد ـ مطبعة المجمع العلمى العراقى ببغداد ـ ١٩٥٧م •

١٣ ـ ابن النديم :

كما الدين عمر بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ ـ ١٢٦١م) زبدة الحلب من تاريخ حلب ٣ أجزاء ـ تحقيق سامى الدهان •

١٤ ـ العمـرى :

شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)
ـ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، الجـزء الأول ،
تحقيق أحمد زكى ، دار الكتب العربية ١٩٢٤م •

١٥ ـ أبو الفـدا :

عماد الدين اسـماعيل بن محمد (٧٣٢هـ / ١٣٣١م)
ـ المختصر فى اخبار البشر ـ المطبعـة الحسـينية

١٦ ـ ابن الفرات :

المصرية القاهرة ـ ١٣٢٥هـ •

ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ / ١٣٠٤م)
تاريخ ابن الفرات ـ مجلدان ـ دار الطباعة الحديثة
بصرة ١٩٦٩ ، ١٩٧٠م •

١٧ ـ فضل الله الهمدانى :

رشيد الدين (ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م) التواريخ (تاريخ
المغول) مجلد ٢ جـ١ ـ ٢ والثانى (الايلخانيون) تاريخ
هولاكو ـ ترجمة محمد صادق نشأت وجماعته ـ مطبعة
عيسى البارى الحلبى القاهرة ـ ١٩٦٠ •

١٨ القلقشـندى :

أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨ م) ـ
صبح الأعشى فى صناعة الانشا ١٤ جـزءا ، نسخة
مصورة من الطبعة الأميرية وزارة الثقافة والارشـاد
القومى القاهرة ١٩٦٣م (سلسلة تراثنا) •

١٩ ـ ابن كثير :

اسماعيل بن عمر الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ ـ ١٣٧٢م)
البداية والنهـاية ـ ١٤ جزء ـ مطبعـة السـعادة
القاهرة ١٩٣٢م •

٢٠ ــ المقريزى :

تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ٦ أجزاء تحقيق مصطفى زيادة ــ مطبعة دار الكتب المصرية ــ القاهرة ١٩٣٦م •

٢١ ــ النسوى :

محمد بن أحمد بن على (ت ٦٣٩هـ / ١٢٤١م) ــ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ــ تحقيق حافظ أحمد حمدى مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٩٥٣م •

٢٢ ــ النويرى :

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) نهاية الارب فى فنون الأدب ١٨ جزءا نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب وزارة الثقافة والارشاد القومى القاهرة ١٩٤٠م (سلسلة تراثنا) •

٢٣ ــ ابن واصل :

جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ــ ٣ أجزاء ، تحقيق د • جمال الدين الشيال •
الجزء الرابع ١٩٦٠ • تحقيق د • حسنين محمد صبيح د • سعيد عاشور ــ مطبعة دار الكتب ــ القاهرة ١٩٧٢ •

٢٤ ــ ابن الوردى :

سراج الدين أبو حفص عمر (ت ٧٤٩هـ ــ ١٣٤٨م) ــ تتمة المختصر فى تاريه البشر ، جزءان ، المطبعة الوهبية ــ القاهرة ــ ١٢٨٥ هـ •

٢٥ ــ اليونينى :

موسى محمد بن أحمد بن قطب الدين البعلبكى
(ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) •

ــ ذيل مرآة الزمان ـ مطبعة دائرة المعارف العثمانية
حيدر آباد ــ الدكن ــ الهند (١٩٥٤ ــ ١٩٦١م) •

المراجعة الحديثة :

١ ــ حبشى :

نور الدين والصليبيون ــ دار الفكر العربى • القاهرة
١٩٤٨ •

٢ ــ حسن :

على ابراهيم
ــ دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الملك
الناصر محمد بوجه خاص ط٢ ــ النهضة المصرية
ــ القاهرة ــ ١٩٤٨ •

٣ ــ زامباور :

ادوارد فون
معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى
ترجمة د • زكى محمد وجماعته مطبعة جامعة فؤاد
الأول ١٩٥١م •

٤ ــ الصابونى :

أحمد (ت ١٩١٦م)
تاريخ حماه ط٢ • شرح وتعليق قدرى الكيلانى ــ
المطبعة الأهلية ــ حماه ــ ١٩٥٦م •

٥ ـ الصـياد :

فؤاد عبد المعطى

المغول فى التاريخ ، مكتبـة الشريف للطباعة والنشر القاهرة م ١٩٧٤م .

٦ ـ العـدوى :

ابراهيم أحمد

العرب والتتار ـ مطابع ـ دار القلم القاهرة ١٩٦٣م ضمن سلسلة المكتبة الثقافية .

ورقات تاريخية

عن حياة البربر الدينية والخلقية في المغرب العربى

د / علي عبد السلام سيد أحمد
جامعة الأزهر — فرع البنات
كلية الدراسات الانسانية

أولا : الجانب الدينى :

يتألف دين البربر فى العصور القديمة من عدد من العقائد المحلية يتوافق وانقسام البربر الى قبائل والمعبودات التى كانوا يعبدونها — والتى كانت من غير شك — من الأشياء الطبيعية كالكهوف والصخور والينابيع والأنهار والجبال — (كجبال الأطلس) والأجرام السماوية كالشمس والقمر وبعض الكواكب الأخرى .

على أن تقديس البربر لهذه الأشياء لا نزال نلمس آثاره فى بعض خرافاتهم[1] — بين القليل منهم — والبربر يدينون بديانات مختلفة ذلك أنه « حين أقبل العرب على المنطقة وجدوا تعددا فى المعتقدات الدينية واختلافا فى معبوداتهم »[2] فنجد أن ديانتهم قبل الاسلام — بل قبل الفتح الرومانى — المجوسية يقول ابن خلدون — في كتابه العبر — معبرا عن ذلك بقوله : « وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب الا فى بعض الأحايين . يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم فان الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم فقد غزتهم ملوك

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية جـ٣ ص٥١٣ — ٥١٤ .
(٢) د / حسن علي حسن : تاريخ المغرب العربى ص٢٩٩ .

اليمن من قرارهم مرارا على ماذكر مؤرخوهم فاستكانوا لغلبهم ودانوا بدينهم ... »(٣) .

وقد اختلفت مواطن هؤلاء البربر المعتنقين للمجوسية أماط اللثام عنها ابن خلدون بقوله : — « أن يليان على عقبة على بلد البربر وراءه المغرب مثل وليلى عند زرهون وبلاد المصامدة وبلاد السوس وكانوا على دين المجوسية »(٤) وكذلك كانت قبائل بنى بازغة وبنى يرعش وزناتة الحبابية ومغراوة وبنى يفرن الزناتى على دين المجوسية » .

هذا عن الديانة الوثنية أو عبادة الكائنات والظواهر الطبيعية الأخرى التى انتشرت بين هذه القبائل — التى كشف النقاب عنها ابن خلدون — والتى ظلت على وثنيتها الأولى « فلم يعتنق أصحابها دينا من الأديان السماوية التى دخلت المنطقة » حتى عم نور الاسلام الوهاج أرجاء البـلاد .

أما عن الديانة اليهودية فقد كانت داخل البلاد حيث ينتشر اليهود كتجار ومرابين شأنهم فى كل زمان(٦) ومكان فقد دخل كثير من البربر واعتنقوا الديانة اليهودية وذلك عند استفحال ملك بنى اسرائيل لقرب الشام وسلطانه منهم وقد نال علماء خلفاء بنى أمية من هؤلاء القبـائل

---

(٣) العبر جـ٦ ص١٠٦ .

(٤) المرجع السابق جـ٤ ص١٨٦ .

(٥) السيوطى : البستان فى اخبار الزمان ص٣٥ مخطوط نقلا عن : د / حسن : تاريخ المغرب العربى ص٢٩٩ ويضيف الى ذلك لوبون فيقول : وكان البربر قبل الفتح العربى يعبدون آلهة قرطاجة مثل « غرزيل ومستيمان » وغيرهما من الآلهة القساة وروى يرتوليان ان البربر كانوا يضحون ببعض الأولاد تقربا الى اله الزمن كيوان وكانوا يعبدون النار ايضا : (حضارة العرب ص ٢٤٨) .

(٦) عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص٢٧ .

منبقات عظيمة وطالما خرجوا على الخلفاء وقتلوا الجيوش ونهبوا الأمصار وانتشرت بينهم النحل والبدع فتدينوا بها ومالوا اليها[7] .

واذا كانت اليهودية لم يكن لها الشأن الذي أراد البعض نسبته اليها فانه مما لا شك فيه أنها انتشرت في شمال افريقية كلها — واذا استثنينا نسل اليهود الذين أخرجوا من بلاد الأندلس في القرن الخامس عشر الميلادي فان معظم أتباع هذا الدين من أهل البلاد هم من نسل أولئك الذين تهودوا قبل دخول الاسلام في بلادهم[8] ذلك أن اليهود — بلا ريب — قد رافقوا الفينيقيين في حلهم وترحالهم الى الموانىء والمعارف التجارية بافريقية وان تشتت يهود فلسطين على عهد الفرس جلب الى افريقيه والى العالم الروماني بأسره عددا كبيرا من المهاجرين اليهود .

وقد وقع تقرير عدد اليهود في العالم في القرن الأول الميلادي بما يفوق ستة أو سبعة ملايين يهودي منهم مليون بمصر وكان عددهم مرتفعا أيضا بطرابلس وكانوا يعيشون أحرارا طبق عوائدهم وتقاليدهم وقوانينهم ويقومون بدعاية كبيرة تحت ظل بيعتهم وكان التبشير ضاربا أطنابه والوثنيون يعتنقون دين اليهود بكثرة ثم انتشرت الديانة اليهودية في بعض القبائل بالجنوب الغربي من البلاد التونسية[9] .

على أن اليهودية كانت منتشرة بين البربر البتر بصفة خاصة وذلك بقيادة زعيمتهم وهي : الكاهنة وتدعى داهيا بنت ماتيا بن تيفان من قبيلة جراوة[10] ومكان اقامتها جبل أوراس حيث اتخذته معقلا

---

(٧) العبر جـ٦ ص١٠٧ .
(٨) دائرة المعارف الاسلامية جـ٣ ص٥١٤.٧
(٩) مدنية المغرب العربي في التاريخ ص٣٦١ — ٣٦٢ .
(١٠) البيان المغرب جـ١ ص٣٥ ، الخلاصة النقية ص٥ ، الاستقصا جـ١ ص ٩٣ .

وحصنا[11] وكانت تدين باليهودية وكذلك كانت عشيرتها وفى اطار هذا الصدد يقول ابن خلدون : « ان القبائل البربرية كانت وقت الفتح الاسلامى تدين باليهودية وانهم تلقوها منذ أقدم العصور عن بنى اسرائيل » ثم يستطرد قائلا : « أما القبائل التى أعتنقت اليهودية فقبيلة جراوة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة وقبائل نفوسة فى افريقية وقبائل فندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وبنو فازاز فى المغرب الأقصى[12] وأيضا اشتهرت مدينة جادوا والواقعة قريبا من جبل نفوسة بكثرة اليهود وشاركتها مدينة سلجماسة فى ذلك[13] .

ولما كانت اليهودية فى داخل البلاد ولم تكن هناك أحزاب معادية لها فقد سلمت من الأذى ولم يصبها ما أصاب المسيحية على أيدى الوندال غير أن اليهودية فى ذاتها قليلة الانتشار وذلك لضعف التبشير بها فلم يكن اليهود يعنون بالدين ونشره قدر عنايتهم بالمال واستثماره لذلك لم يكونوا متحمسين يوما — ما — لأن تكون ديانتهم ديانة عالمية .

ولم يعتنق اليهود فى المغرب الافريقى الاسلام ولذا فقد بقى حال اليهود بعد الفتح كما كان من قبل[14] ومع هذا فقد كانت جبال أوراس تكره الرومان وتبغضهم وتثور عليهم وتعمل لتطهير المغرب منهم فبغضته كل شىء يتصل بالرومان حتى حضارتهم ودينهم اللذين أخذا بهما البربر فى المدن وناوأت الرومان وضايقتهم فى كل الأشياء حتى فى الدين فان الرومان كانوا مسيحيين فاعتنق أوراس اليهودية التى تنابذ المسيحية وتعاديها فانتشرت اليهودية فى أوراس سيما فى قبيلة الكاهنة .

---

(١١) معالم الايمان جـ١ ص٦١ ، أبو الحسن على : كتاب الجغرافية ص ١٤٥ ترجمة اسماعيل العربى بيروت ، الكامل جـ٤ ص٣٧٠ .

(١٢) العبر جـ٦ ص٢٠٧ .

(١٣) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص٩ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، وراجع تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص٨ ومابعدها .

(١٤) المجمل فى تاريخ الأندلس ص٢٧ — ٢٨ .

ويرى « محمد دبوز » أنهم تحمسوا لهذا الدين الذى يعادى الرومان المسيحيين ونصروه بوجدانهم فقط أما أنهم يتقيدوا به فى الأعمال ويقيموا طقوسه فى المعابد فهذا مما يستبعد ذلك لأن المسلمين الفاتحين والمؤرخين الذين نقلوا عنهم لم يذكروا أنهم رأوا فى أوراس من آثار بيع للعبادة ولا عيدا من أعياد اليهود الكثيرة يحتفل به البربر ويبجلونه ٦

لقد اعتنقت أوراس اليهودية كما اعتنق البربر الآخرون المسيحية لغرض سياسى ولأشياء أعجبوا بها فى المسيحية واليهودية كالدعوة الى الأخلاق الحسنة والأمر بالعدل والاحسان والنهى عن الظلم والطغيان بيد أنه عندما جاء الاسلام وجدوا جماله أبرع وأمره بالأخلاق العظمى أروع وحضه على العدل والاخاء والمساواة أكثر فآمنوا به كل الايمان •

ان كره البربر للرومان وحب البربر للكمال سيما فى الأديان هو الذى جعلهم يؤمنون بالمسيحية واليهودية فايثار أوراس لليهودية كان للسبب الذى أسلفنا ـ وهو مخالفة الرومان فى كل شئ ومصادقة أعدائهم حتى فى الأديان ـ على أن هذه اليهودية ـ اذا صحت ـ فانه قد أخذت بها طوائف قليلة فى أوراس وكان مع جراوة فى جبال أوراس لواتة وهراوة وكتامة وقبائل أخرى أغلبها من البتر ـ ان أوراس هى المنطقة التى لم يستطع الرومان الأقوياء ـ رغم تسلطهم واحتلالهم للمغرب ـ ٣٩ عاما تقريبا ـ الاستيلاء عليها واحتلالها وأن ينشئوا مراكزهم الحربية فيها لقد استطاعوا دخول أوراس بعد جهد جهيد ومجالدات ومكايدات والبقاء فيه مدة قصيرة ثم ثارت عليهم أوراس تدحرجهم دحرجة الشمس الحامية أكداس الثلج من رؤوس الجبال اذا ذابتها وكانت أوراس ومعاقل البربر الكبرى يرون الرومان فى جلودهم البيضاء أضر لهم من حلول البياض فى سواد العيون فكرهوهم كراهية البصير للعمى فثاروا عليهم وجالدوهم بسيوفهم ومن ثم لم يستطع الرومان البقاء فى أوراس لينفثوا

فيهم ميوعة حضارتهم ومفاسد مدنيتهم التى يقيد بها الاستعمار فرائسه ليرتع فيها فبقيت أوراس على أخلاق بداوتها وفى رأسها الشجاعة والثبات والفداء والتضحية فى سبيل الوطن اذا هدده الأعداء[15] .

أما عن الديانة المسيحية فقد انتشرت فى المدن الساحلية حيث كانت السيادة الرومانية ذلك أن التبشير بالأنجيل كان حول بيع اليهود أول الأمر بالمدن والموانىء الســـاحلية وعلى الأخص بقرطاج ثم انتشر — التبشير — فى الحقول وفى داخل البلاد ويمكن القول : أن النصرانية بدأت فى الظهور بافريقية آخر القرن الأول الميلادى ولكنها لم تبـــرز حقيقة جلية فى التاريخ الا عندما دخلت المسيحية الى المغرب عن طريق رهبان مصر فى القرن الثانى الميلادى[16] .

ومع أنها لاقت قبولا طيبا فقد كان انتشـارها محدوداً وأخـذ الرهبان ينتشرون بين البربر فكانت المسيحية بذلك سبيلا للاتصال بين الرومان والأهلين وكانت الكنائس مكانا صالحا للاتصال والتفاهم وبذلك وفق الرهبان فيما عجز عنه الحكام وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد اليهم ولكن ظل تأثيرهم ضعيفا[17] ذلك أن المسيحية لم تنتشر داخل البلاد ولم تحقق نجاحا هناك وانما تمركزت فى المدن الســاحلية الساحلى وقد يرجع ذلك الى أن النفوذ البيزنطى لم يكن يتجاوز هذا النطاق [18] كما أن البربر سكان البلاد الأصليين لم يقبلوا على اعتناقها باعتبارها مذهب الطبقـــة الحاكمة والمستعمرة للبلاد[19] يضاف الى ذلك وجود الصحراء التى كانت تقف حاجزا منيعا فى اتجاه المسيحية من الشمال الى الجنوب[20] .

---

(١٥) محمد دبوز : تاريخ المغرب الكبير جـ٢ ص٧٧ — ٧٨ .

(١٦) مدنية المغرب العربى فى التاريخ ص٣٦٢ .

(٢٧) د / حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص٢٨ ، د/حسن محمود ليبيا بين الماضى والحاضر ص٩٤ .

(١٨) المصدر الســـابق ونفس الصفحة .

(١٩) الاسلام والثقافة العربية فى افريقية جـ١ ص١٤٣ .

(٢٠) المصدر نفســـه ص١٤٤ .

ولما استولى جيستنيان على البلاد اهتم اهتماما بالغا باعادة افريقية الى المسيحية فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها وشجع البعثات التبشيرية فأخذت المسيحية تنشط من جديد وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصبراته وفى طرابلس وأقيمت الكنائس فى واحات مثل (أوجلة) و (غدامس)[21] فقد استطاعت روما منذ أوائل القرن الرابع الميلادى أن تفرض النصرانية على معظم القبائل[22] ٠

على أن حياة المسيحيين الأولين بافريقية لاتختلف كثيرا عن حياة بقية النصارى المنبثين فوق مدى البحر الأبيض المتوسط فكانوا يجتمعون فى دار الأسقف للاصغاء الى تلاوة الانجيل وتفسيره والصلاة جماعة ولتناول القربان المقدس وكان المطران رئيس الجميع يساعده فى عمله القساوسة أو الكهنة والقارىء وهو من درجة الكهنوت الصغرى والمكلف بحفظ الكتب المقدسة والشمامسة المكلفون بالنواحى المادية المتعلقة بالشعائر وهو مايسمى بالتشميس ٠

هذا وقد بقى النصارى مدة طويلة وهم يقيمون شعائر دينهم بدون معارضة وتعليق من طرف السلطة الرومانية التى كانت تتركهم وشأنهم مثلما كانت تتسامح عادة مع الأديان الأخرى باختلاف أنواعها فكانوا يجتمعون فى محلهم الخاص ويكسبون الأملاك والمتاع كما كانت لهم مقابرهم الخاصة بهم والمنفصلة عن مقابر اليهود أو الوثنيين فكانت مقابرهم غير مسقوفة ولكنهم كانوا يدفنون موتاهم أيضا فى دهاليز تحت الأرض ويسمونها بالسراديب ثم الدياميس وأشهر الدياميس الموجودة بمدينة سوسة وفيها مايزيد على عشرين ألفا من قبور النصارى يرجع عهد أقدمها الى آخر القرن الثانى الملادى ٠

---

(٢١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ترجمة د/حسن ابراهيم حسن ص ١٤٣ ٠

(٢٢) ليبيا بين الماضى والحاضر ص٩٤ ٠

(٢٣) الأسقف فوق القسيس دون المطران وكثيرا ماتطلق هذه الكلمة على المطران أيضا راجع : مدنية المغرب العربى هامش ص٣٦٢ ٠

ويبدو أن السلطة الرومانية بدأت وقتذاك تقريبا فى اتخاذ وسائل القسر والقهر ضد النصارى وكانت أول عملية من عملياتها كانت سنة ١٨٠م ألقى فيها القبض على اثنى عشر نصرانيا حكم عليهم القنصل بالاعدام فضربت أعناقهم بقرطاج[٢٤] .

ولا غرو فقد كان النظام الكنسى مختلا فى افريقية بسبب تدهور الأخلاق بين رجال الدين وبسبب نشاط الكنيسة الغربية (كنيسة روما) فى عهد (جريجورى الكبير) الذى عمل جاهدا على توطيد مركز الكنيسة الغربية بارسال البعوث التبشيرية الى افريقية فتغلغل القسس فى البلاد واستطاعوا أن ينشروا لواء المسيحية بين كثير من القبائل البربرية .

واذا كانت الحكومة البيزنطية قد أخذت تنسحب رويدا من المواقع الداخلية فقد أخذ القسس يحلون محل الحكام حتى أصبحوا — بمرور الأيام — حماة الضعفاء والمظلومين فلم يعد هؤلاء يتوجهون الى القسطنطينية لتقديم مظالمهم وانما أخذوا يتوجهون الى بابا روما فهو أقرب اليهم وربما كان أقوى سلطانا ونفوذا .

ومن ثم أصبحت (روما) سلطة جديدة فى افريقية البيزنطية يحسب حسابها ويركن السكان اليها ويلوذون فى كثير من أمور حكومتهم فاعتمد الحكام على رجال الدين الذين لم يلبثوا أن سادوهم . ففى أوائل القرن السادس كان القساوسة يديرون افريقية[٢٥] .

ويصور — لنا — ابن خلدون فى كتابه « العبر » كيف دان السكان بالنصرانية وهم تحت حكم الرومان فيقول : — « وقد كانوا (البربر) دانوا لعهدهم بما تعبدوهم به من دين النصرانية وأعطوهم المهادنة وأدوا اليهم الجباية طواعية وقد كان للبربر فى الضواحى وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ماشاء من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء

---

(٢٤) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ص١٣ .

(٢٥) ليبيا بين الماضى والحاضر ص٩٤ .

وأقيال وأمراؤها لا يغلبون بذل ولا ينالهم الروم والافرنج فى ضواحيهم تلك بمسخطة ولا اساءة وقد صحبهم الاســـلام وهى فى مملكته قد استولوا علي رومة وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية كما كان المقوقس صاحب الإسكندرية وبرقة ومصر يؤدون الجباية له وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صـقلية وصاحب الأندلس من السقوط لما كان الروم غلبوا على هؤلاء الأمم أجمع وعنهم كلهم أخــذوا دين النصرانية •• »[٢٦] •

على أنه لم يكد ينتهى القرن السادس الميلادى حتى أصبحت علاقة افريقية بالدولة البيزنطية علاقة واهية وأصبح الموظفون البيزنطيون فى جميع نواحى الادارة يميلون الى التحرر من نير سيطرة الامبراطـــور البعيد عنهم جدا ــ كما أصبح المواطنون ينضمون بالكنيسة الغربيــة التى تحميهم بعض الشىء بل أخذت الكنيسة تحل سلطتها الادارية على تؤدة ومهل محل السلطة الادارية المركزية وتعمل على افســـاد الادارة المحلية التى لم يكن ينقصها الاضطراب[٢٧] والفوضى كما انتحل النصرانية كثير من القبائل البربرية المجاورة للمســتعمرات اليونانية أيام الحكم المسيحى[٢٨] ، وتذكر دائرة المعارف الاسلامية : أن اليهودية قد مهــدت السبيل للنصرانية التى سرعان ما افترقت عنها هنا ــ كما حدث فى غير بلاد البربر ــ وقوى شأنها وازدهرت بالرغم من الكفاح العنيف الذى كان لابد لها من أن تشنه على الوثنية وبالرغم من انقسام الرأى بــين النصارى أنفسهم انقساما أدى الى تمزيق وحدتها وتفتيتها •

على أن هذا ليس مقام الافاضة فى ذكر هذا الانقسام ــ وانما يكفينا هنا ملاحظة حرى بنا اماطة اللثام عنها وهى : ــ أن المسـيحية أتاحت للبربر فرصة الاتحاد ضد الحكم الرومانى المستبد والمتعسـف

---

(٢٦) العبر جـ٦ ص١٠٧ •
(٢٧) ليبيا بين الماضى والحاضر ص٩٥ •
(٢٨) لوبون حضارة العرب ص٢٤٨ •

فى الوقت نفسه وأنهم أقبلوا أيما إقبال على اعتناق الآراء الخارجة التى كانت تتعارض مع عقيدة الكنيسة فى رومية .

على أن هذا الأمر نفسه قد حدث بعد الفتح الاسلامى ولم يتغير فيه الا أسماء الخصوم لا غير[٢٩] ذلك أنه فى عهد ولاية (جريجورى الثانى) — جرجير — على افريقية حدثت انقسامات دينية فكثرت المذاهب وانقسم الروم شيعا وفرقا وأحزابا كل حزب بما لديهم فرحون لاهون

ومن ثم رأى هذا الوالى أن خير وسيلة لتجنب البلاد هذه الانقسامات هو اعلان الانفصال عن بيزنطة وشجعته البابوية فى روما على ذلك الانفصال لأن انفصال افريقية عن الكنيسة الشرقية ودخولها فى طاعة البابوية يعد نصرا عظيما للبابوية فى عصر اشتد فيه النزاع بين الاثنين معا هذا فضلا عن أن أهالى برقة وطرابلس بالذات كانوا فى مقدمة من آزر (جرجير) على الانفصال من ثم نرى أن الحكم العسكرى الغاشم الظالم والضرائب الباهظة الجائرة التى فرضتها السلطة الحاكمة الباغية والخلافات المذهبية واهمال المشروعات الاصلاحية كل هذا أوجد الفرصة الملائمة والموائمة للعرب فى وثبتهم الكبرى[٣٠] التحررية العادلة كى يرثوا هذه البلاد المضطهدة ويحرروها من نير العبودية والعسف والهوان — وفى الوقت نفسه ليخرجوها — أيضا — من ظلم الجاهلية وظلمات العبودية الى سماحة الاسلام وعدالته وسمو مبادئه ونور المدنية وسماء العرفان هذا وقد استمرت النصرانية فى ليبيا حتى بعد زوال الحكم البيزنطى[٣١] .

بيد أنه بعد أن فتح الرومان ليبيا ومع مرور الزمن وتعاقب السنين اندمج سكانها الأصليون من البربر بالروم ونسى بعضهم قوميتهم وعاداتهم وأصبحوا كروما — سواء بسواء — فى كل مقومات الحياة حتى

---

(٢٩) دائرة المعارف الاسلامية ج٣ ص٥١٤ .
(٣٠) ليبيا بين الماضى والحاضر ص٩٥ — ٩٦ .
(٣١) نقولا زيادة : — ليبيا من الاستعمار الايطالى الى الاستقلال ص٢٧

المناصب فى الدولة وكان هذا الاندماج فى برابرة السواحل وما قاربها أما البربر الذين يسكنون الجبال وما ورائها فقد احتفظوا بقوميتهم وعاداتهم ولم يتأثروا بعادات الروم ولذلك نراهم كثيرا ما قاوموا الروم وحاولوا ابعادهم باجلائهم عن وطنهم ولم يتركوا فرصة للثورة الا ثاروا عليهم تخلصا من حكمهم[٣٢] الجائر البغيض وتعسفهم الممقوت واستبدادهم المذموم ذلك أن نار الرغبة فى الاســـتقلال لم يخمد أوارها ولم يخب جذوتها ولما ضعفت سلطان الروم برزت شخصية البربر فلما اعتنق بعضهم المسيحية على مذهب يخالف مذهب الحكومة تحولت الخلافات الدينيـــة حربا ضروسا بين الأجناس كما كانت الحال بمصر بين الروم الملكانيين واليعاقبة المصريين وكانت الحكومة فى المغـــرب ـــ وقتذاك ـــ تعـــاقب مخالفيها أشد العقاب ، وبلغ الأمر الى حد أن أحد الأباطرة نســـلم ثلاثمائة أسقفا وألوفا من صغار القسس ونفاهم وحرم على العـــامة اقامة شعائر الدين كما حرم المخالفين منهم حقوقهم المدنية فكان هـــذا الاضطهاد الدينى مذكيا لنار العداء الجنسى فكثرت الثورات على الروم وتحرر كثير من البربر من نير الحكومة[٣٣] على حد قول ابن خلدون : « وصار لهم وراء الأمصار المرهوبة ماشاء الله من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء لاينالهم الروم والفرنج بمسخطة ولا اساءة[٣٤] ».

ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية نهائيا فى القرن الرابع الميلادي كانت برقة فى نطاق الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) ولعل الحـــادث الوحيـــد الأهم الذى عرفته برقة على عهـــد الرومان وأيام البيزنطيين هو انتشار النصرانية فى ربوعها فقد وصلتها النصرانية فى

---

(٣٢) تاريخ الفتح العربى في ليبيا ص١٨ .

(٣٣) محمد أحمد جسونة : الجغرافية التاريخية الاسلامية ص٥٤ ـــ ٥٥

(٣٤) ابن خلدون : العبر ج٦ ص١٠٧ .

القرن الأول الميلادي ويعتبر مرقس مؤسس الكرازة المرقسية المصرية قيريني الأصل[٣٥] .

ولعل نصارى برقة لم يتعرضوا للاضطهاد القــوى العنيف الذى تعرض له النصارى فى أنحاء أخرى من الامبراطورية الرومانية .

على أنه بعد أن منح قسطنطين النصــارى حريتهم الدينية نشــط النصارى البرقاويون الى بناء الكنائس وصار الأساقفة هم رجال الحل والعقد لضعف سلطة الامبراطورية المركزية .

ومن بين تلك الأسماء اللامعة فى أواخر القرن الــرابع الميلادى سيسيوس الفيلسوف القيرينى الأصل الذى كان نصرانيا ثم صار (سنة ٤١٠م) مطرانا فى بطوليماوس (طلميثة) التى كانت ـ على ما يبدو ـ مركز البلاد الادارى كما كان المشرف على شئون الدين والادارة وقائد الجيش ــ هذا وقد دهم طرابلس أوائل القرن الخامس الميلادى خطر الفندال اذ احتلوها واستقروا فيها (٤٢٧ ــ ٥٣٣م) ودمروا ما استطاعوا التدمير ــ ومع أن الفندال لم يحتلوا برقة ذاتها فان البلاد تأثرت ــ تأثرا بالغا ــ بسبب هذه الكارثة التى اصابت البــلاد الشــــقيقة ــ تلك ــ .

وحدث عام (٥٢٧ ــ ٥٦٥م) أن قام الامبراطور جستنيان بآخر محاولة لانعاش المدن البرقاوية فبنى أسوارها ورمم قلاعها وجــدد حصونها وأنفق ـ عن سعة وبذخ ـ على كنائســها لكن الرجال قل عددهم والمال نقص موارده فقد نخر السوس سريعا جسم برقة اليونانية الرومانية وأفقرت الضرائب الرومانية جيوب أهلها وأقفرت الأرض من سكانها ومابقى فيها من حصن قائم أو سور عامر الا وقد حطمته الغزوة

---

(٣٥) قيرين تبعد عن الشاطىء ثلاثة عشر كم حيث تقوم ميناء صالحة لرسو السفن وهى ميناء أبو لونية وظلت قيرينى تابعة ولو اسميا لبطريرك الاسكندرية .

البساسانية للبلاد بقيادة خسرو (٦١٦ – ٦١٨م) اذ قاد جيشه اليها بعد استيلائه على مصر[٣٦] •

استقر المسيحيون فى أماكن متعددة من أرض المغرب فعلى أطراف مدينة طرابلس وجدت جالية مسيحية كما أن مدينة تلمسان وجدت بها طائفة أخرى[٣٧] •

كذلك أشار ابن أبى دينار الى التجاء القبط للتحصن بمدينة نفيس • « وفتح – عقبة بن نافع – مدينة نفيس وكانت حصينة واليها التجأ كثير من البربر والنصارى لحصانتها فحاصرها عقبة وقاتلهم حتى فتحها وأصاب غنائم كثيرة »[٣٨] يضاف الى هذه الجماعات مجموعة الأسر القبطية والتى بلغت الألف – والتى انتقلت من مصر الى تونس للمشاركة فى انشاء الأسطول الاسلامى وذلك بأمر الخليفة عبد الملك بن مروان يقول البكرى : « كتب عبد الله بن مروان الى أخيه عبد العزيز وهو والى مصر – وقتذاك – أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش – وهى تونس وكتب الى ابن النعمان يأمره أن يبنى لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر فوصل القبط الى حسان بن النعمان وهو مقيم بتونس ••• وأمر القبط بعمارتها •• »[٣٩] •

واذا كان الهدف الأساسى من أعمال الفتح الاسلامى فى منطقة المغرب العربى هو نشر الدين الاسلامى الحنيف واتاحة الفرصة كاملة للبربر سكان البلاد الأصليين والواقعين تحت سيطرة النفوذ البيزنطى كى يتعرفوا على تعاليم الاسلام ومبادئه القيمة ومثله السامية وأهدافه

---

(٣٦) نقولا زيادة برقة الدولة العربية الثامنة ص٣٨ – ٣٩ •
(٣٧) المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص٧ ، ٧٦ •
(٣٨) المؤنس فى أخبار افريقية ص٣١ •
(٣٩) المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص٣٨ •

الزاهية الزاهرة وبالاضافة الى هذا تأمين الفتح العرب الاسلامى فى مصر وغير ذلك من الأهداف الأصيلة على أنه مما لاريب فيه ولا ارتياب أن الدين الاسلامي الحنيف قد تغلب على هذه الديانات ـــ اللا اسلامية ـــ المنتشرة فى شمال افريقية قبل الفتح الاسلامى لها فاعتنقه غالبيـــة الشعب البربرى عن رضى واقتناع ويرجع ذلك لأسباب كثيرة نجتزىء منها القليل قدر المستطاع : ـــ منها أن المسيحية كانت قد ضعفت فى المغرب وذلك لما انتابها من محن على أيدى الهجرات الجرمانية الهمجية خاصة ـــ الوندال ـــ فقد نفذ الوندال من أسبانيا الى شمال افريقية[٤٠] عن طريق البحر بقيادة ملكهم جنسريك وافتتحوها سنة ٤٢٩م وكانوا يدينون بالمذهب الاريوسى ويعادون الكنيسة الرومية وعاونهم البربر حبا فى التخـلص من نير روما وحاكمها ولكن الوندال عاثوا فى افريقية وعبثـوا بها أيما عيث وعبث وخربوا المدن والمنشات الرومانية واستقروا سادة فى البلاد المفتوحة مدى قرن من الزمن عانى البربر فى أمـر ضروب العسـف والطغيان[٤١] • لذا فقد أصابوا كنائس المسيحية فى شمال افريقية بتخريب جسيم[٤٢] أليم وفى سنة ٥٣٤م بعث يوسـتنيان امبراطور (قيصر) الدولة الرومانية الشرقية قائده الشهير بليزار يوس الى افريقية على رأس جيش ضـخم جم فافتتحها وحطم سلطان الوندال وأجلاهم عنها وحينئذ عادت افريقية الى سلطان وسلطة الدولة الشرقية[٤٣] هـ هذا الى تعدد المذاهب المسيحية وتناحرها وتكفير بعضها بعضا أن قلل الثقة فى نفوس الناس مما هيأ السـبل أمام هذه النفوس لتقبل التعاليم الاسلامية الواضحة الراقية •

أما اليهودية المنتشرة بين قبائل البربر البتر فقد سلمت من الأذى

---

(٤٠) المجمل فى تاريخ الأندلس ص٢٧ •

(٤١) دولة الاسلام فى الأندلس ص١٣ •

(٤٢) المجمل فى تاريخ الأندلس ص٢٧ •

(٤٣) دولة الاسلام فى الأندلس ص١٣ ـــ ١٤ •

ولم يصيبها ما أصاب المسيحية على أيدى الوندال وغيرهم وذلك لوجودها داخل البلاد ولم يكن هناك من يعاديها كما أن اليهودية فى ذاتها قليلة الانتشار ومن ثم لم يكن اليهود يهتمون بها قدر اهتمامهم بالمال واستثماره وتسخيره — بحق وبغير حق — للنماء والثراء — وكذلك لم يكونوا متحمسين يوما ما — لأن تكون ديانتهم ديانة عالمية ومن ثم لم يعتنق اليهود فى المغرب الإفريقى الإسلام الا قليلا — أما الوثنية فانها وان اعتنقها غالبية الشعب البربرى الا أنها لم تكن لتثبت أمام الفكرة الاسلامية الواضحة البسيطة خصوصا وأن العرب المسلمين كانوا يعترفون بالديانات السماوية الأخرى ، ووفد نفر من البربر المتعطشين للعلم على تلك المعاهدة لتلقى العلوم والمعارف . فيها واتضحت أهمية هذه الخطوة الهامة منذ أن أسس العرب بقيادة عقبة القيروان التى غدت على عهد موسى بن نصير مقر الوالى ومركز الدواوين الكبرى ومصدر الادارة والسلطان وكفل هذا التنظيم الادارى لبلاد المغرب الاستقرار والهدوء وأخذ السكان يألفون العرب وادارتهم ويفدون على العاصمة لقضاء حاجتهم فى طمأنينة وسلام[٤٤] .

وكان أول ما أنشأه العرب « الدور والمساجد ثم التفتوا الى تعليم صبيانهم فاتخذوا لهم محلا — مكانا — بسيط البناء يجتمعون فيه لقراءة كتاب الله العزيز » وكان انشاء هذه الكتاتيب منذ زمن مبكر فى بلاد المغرب سببا فى سرعة انتشار اللغة العربية بين سكانها الأصليين وذلك بفضل ما تحلى به العاملون فيها من خلق رفيع واخلاص فى العمل فترك أولئك المدرسون أثرا طيبا فى نفوس أبناء البربر الذين ظلوا يرددون الماثر الجليلة التى شاهدوها فى أولئك المدرسين فقد قال أحد رجال البربر : « كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا فى الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه » وأسهمت هذه المعاهد التعليمية

---

(٤٤) موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ص٥٦ .

التثقيفية فى انتشار اللغة العربية سريعا بين جموع البربر الغفيرة الذين استجابوا — نوا — لتلك اللغة الفصحى — لغة كتاب الله الحكيم — ووجدوا فيها سبيلا يجمع كلمتهم — ذلك أن أهل المغرب كانوا فى مسيس الحاجة الى لغة يتفاهمون بها ويتخاطبون وطريقة يكتبون بهـا ليعبروا عنها مايريدون — ولما كانت اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم فان شدة ايمانهم بالاسلام ورغبتهم الشديدة الى قراءة الكتاب الكريم مما دفعهم على الاقبال الى تعلمها — اللغة — واجادتها — كما وجـد البربر فى العرب الذين أقاموا بين ظهرانيهم نماذج رفيعة فى أداء فى أداء اللغة العربية السليمة والنطق بها اذ أجاد العرب الخطـابة والتعبير وتركوا للبربر صورا ناصـعة يمكن محاكاتها فى ميدان اللغة العـربية وكانت النتيجة الهامة لهذه السياسة اختفاء العنصر اليونانى والرومانى من بلاد المغرب حتى اختفت آثارهم من البلاد ولم تبـق الا آثار قليلة من مظاهر الحضارة القديمة فى نواح ساحلية أخرى[٤٥] .

على أن هذه المظـاهر الباهتة تلك لم تلبث أن اختفت بدورهـا تبعا لاختلاف اللغات اليونانية والفينيقية واللاتينية التى كان يسـتعملها الروم ومن تأثر بهم من السـكان .

ومن ثم أثبتت ادارة موسى بن نصير قدرتها الفائقة على دفـع بلاد المغرب الى التطور العظيم الذى مازال — وسيظل — يكلل حيـاة سكانها الى اليوم فلم تعد تلك البلاد شريطا ساحليا يسكنه جماعة من المستعمرين المتحضرين وفيما وراءهم في داخل البلاد سكان بعيدون عن الأخذ بأسباب الرقى وانما أصبحت بلاد المغرب العربى وحدة متماسكة لا انفصام فيها تشرف عليها ادارة مثالية[٤٦] رائدة ويسـكنها شـعب مسلم قوى بدينه تنتشر بين أفراده وشـائج المودة وأواصر الألفة والمحبـة .

---

(٤٥) المرجع السابق ص٥٩ ، ٦٠ .

(٤٦) نفسه ونفس الصفحة .

وكانوا يقبلون من أهلها بقاءهم عليها [٤٧] على أ ن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون • انما كانوا يشنون حربا لا هوادة فيها على الديانات الوثنية تلك — وقد أشار الى ذلك ابن خلدون فى كتابه العبر : « أن يليان دل عقبة على بلد البربر وراءه المغرب مثل وليلة عند زرهون وبلاد المصامدة وبلاد السوس وكانوا على دين المجوسية •• » [٤٨] وكذلك كانت قبائل بنى يازغة وبنى يرغش وزناتة الجبلية ومغراوة وبنى يفرن الزناتى على دين المجوسية » [٤٩] وظلت هذه القبائل على وثنيتها الأولى — كما سبق أن ذكرنا — فلم يعتنق أهلها دينا من الأديان السماوية التى دخلت المنطقة حتى دخل الاسلام البلاد •

ومنذ المراحل الأولى للفتح العربى والقادة المسلمون يعملون على تحقيق الفكرة التى أقبلوا من أجلها ألا وهو نشر الاسلام ويمكن القول أن ذلك بدأ بصورة عملية واقعية منذ تأسيس القيروان والتى كان من أهداف بنائها اقامة مجتمع اسلامى ينطلق منه الدعاة الى كافة أنحاء افريقية لنشر الاسلام فى جميع أصقاعها وبقاعها فضلا عن استقبالها للبربر الذين وجدوا فى اقامتهم بين العرب خير عون على تعلم الدين الجديد [٥٠] •

يقول الفردبل « بفضل القيروان التى صارت أول عاصمة اسلامية فى المغرب ويسهر عليها قادة عرب صادقو الايمان كان على سكانها أن يلتزموا باداء فروض الدين والبربر البدو المقيمون فى النواحى المجاورة وكانوا يغشون أسواق المدينة كان فى وسعهم أن يقتدوا بسيرة سكانها وأن يقدموا اليها لتلقى التعليم الدينى فيها ليعودوا بعد ذلك مرشدين

---

(٤٧) المجمل فى تاريخ الأندلس ص٢٨ •

(٤٨) العبر ج٤ ص١٨٦ •

(٤٩) عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى : — البستان فى أخبار الزمن ورقة ٣٥ مخطوط نقلا عن : د / حسن على حسن : تاريخ المغرب العربى ص ٣٠٠ •

(٥٠) د / حسن على حسن : تاريخ المغرب العربى ص٣٠١ •

لبنى عشيرتهم فيما يتعلق بالتعليم الدينى فضـــلا عن أولئك المعلمـــين العرب أو البربر الذين كانت ترسلهم الحكومة العـربية الى الأقاليم والقرى لتعليم الناس بعد أن يتكونوا فى العاصمة[٥١] وليس ببعيد أن كان فى دعاء عقبة بن نافع مايشير الى الهدف الدينى من انشاء القيروان حين دعا بعد الفراغ من بنائها قائلا : « اللهم املأها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا لمن كفر بك . وآعز بهـا الاسلام وأمنها من جبابرة الأرض »[٥٢] .

ولما كان الهدف الأساسى من عملية الفتح الاسلامى فى منطقة المغرب العربى هو نشر الاسلام من ناحية ولاتاحة الفرصة للبربر سكان البلاد الأصليين والواقعين تحت سيطرة البيزنطيين كى يتعرفوا على الاسلام ومبادئه المثلى السامية من ناحية ثانية ويضاف الى هذا الهدف الأساسى تأمين الفتح العربى فى مصر وغير ذلك من الأهداف من ناحية ثالثة فلذا فقد تضافرت عدة عوامل على نشر الاسلام فى المغرب العـــربى وجعله قطرا اسلاميا يشارك غيره من أقطار الدولة الاسلامية فى تشييد صرح الحضارة الاسلامية بعد أن أسلم أبناؤه وحسن ايمانهم[٥٣] ويمكننا أن نجمل هذه العوامل فيما يلى : —

انتشر الاسلام فى افريقية ابان وبعد الفتح الاسلامى لبلاد المغرب على يد القادة المسلمين ويأتى فى مقدمتهم عقبة بن نافع الذى أسس أول عاصمة اسلامية فى الشمال الافريقى فضلا عن تأسيس مسجدها

---

(٥١) الفرق الاسلامية فى الشمال الافريقى ص١٩٤ .

(٥٢) الدباغ : معالم الايمان جـ١ ص٧ .

(٥٣) راجع : د / حسن على حسن : تاريخ المغرب العربى ص٢٩٩ ، ص ٣٠٢ .

(٥٤) د / محمود اسماعيل : المالكية والشيعة بافريقية ابان قيام الدولة الفاطمية بحث نشر فى المجلة التـــاريخية المصرية المجـلد الثالث والعشرون سنة ١٩٧٦ ص٧٣ .

الجامع فقد اضطلع ـ عقبة ـ بمهمة الدعوة الى الاسلام الى جانب انشغاله بمهام الفتح ومشكلاته وعلى يده تم اسلام عدد غفير من البربر[٥٤] •

وجاء بعد عقبة القائد أبو المهاجر دينار الذى استطاع عن طريق سياسة المصالحة والتودد للبربر أن يشجعهم على الاقبال على الاسلام واعتناق مبادئه فنجد أن العناصر الأخرى من « الأفارقة » قد بدأت تعتنق الاسلام فى ولاية أبى المهاجر الذى نجح ـ كما ذكر المالكى فى ضم « عجم افريقية » الى حظيرة الاسلام وقد بدأ ذلك بشكل جلى فى اسلام كسيلة بن لزموقيبلته أوربة »[٥٥] على أن اسلام البربر والأفارقة ظل سطحيا حتى خلافة عمر بن عبد العزيز فقد بعث بالعلماء والفقهاء الى المغرب لتبصير المسلمين الجدد بأمور العقيدة والشريعة وأصبحت المساجد بمثابة مراكز للدعوة[٥٦] ـ كما سيتضح فيما بعد ـ ثم يأتى دور حسان بن النعمان فى نشر الدين الاسلامى فقد بدأ يوجه جهوده ـ بعد فراغه من نشاطه العسكرى ـ فى سبيل تهيئة المناخ المناسب لدخول البربر فى الاسلام وذلك باجرائه عدة تنظيمات ادارية واقتصادية كانت تهدف الى وضع البربر فى وضع أفضل مما كانوا عليه • أما من أسلم منهم فقد أصبحوا على قدم المساواة بغيرهم من العرب المسلمين كما أتاح لهم فرصة الانضمام الى الجيش العربى حيث يتسنى لهم الاختلاط والمعايشة مع المسلمين وبذلك يسهل التعرف على الاسلام[٥٧] •

ويأتى القائد العربى موسى بن نصير ليكمل ما بدأه حسان فى نشر الاسلام بين جموع البربر الغفيرة جهارا وعلانية اذ اقتصر الأمر قبل قيام الادارة العربية على عهد موسى بن نصير على اسلام نفر من

---

(٥٥) رياض النفوس جا ص٢١ •
(٥٦) البيان المغرب فى أخبار المغرب جا ص٤٠٣ •
(٥٧) تاريخ المغرب العربى ص٣٠٣ •

سكان تلك القبائل نتيجة اتصالهم بالجند العرب ثم بقائهم على دينهم اما سرا أو جهرا كل حسب ايمانه وموقفه بعد ارتداد الجيوش الاسلامية عن شمال افريقية لكن باستقرار الأوضاع على عهد موسى بن نصير بدأ المسلمون من البربر يعلنون اسلامهم وحماستهم للدين الجديد ويعملون على حمل لوائه بين جيرانهم من أهل البلاد خاصة بعد اشتراكهم مع الجيوش العربية فى الفتوح الاسلامية .

وأخذ الاسلام ينتشر سريعا من الجهات الداخلية لبلاد المغرب الى المناطق الساحلية وانتهى الأمر برسوخ الاسلام فى « افريقية والمغرب الأوسط » وتوج موسى بن نصير جهاده فى ذلك السبيل بنشر الاسلام فى المغرب الأقصى كذلك وأشارت المراجع التاريخية الموثوق بها الى هذه الحقيقة الهامة فى تاريخ البلاد فقد ذكرت أنه فى عهد موسى بن نصير « تم اسلام المغرب الأقصى » وحول المنابر هناك (بيوت العبادة القديمة) الى القبلة[٥٨] وفى الوقت نفسه نجد أنه ترك الدعاة من العرب يعلمون البربر القرآن الكريم وتعاليم الاسلام يقول ابن خلدون : « وأنزل معه سبعة وعشرين من العرب واثنى عشر ألفا من البربر وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه »[٥٩] يضاف الى ذلك ما شيده من المساجد العديدة ومنها مسجد أغمات هيلانة »[٦٠] وقد ساعد هذا على اقتلاع جذور المعتقدات الدينية القديمة من السكان المحليين وتثبيت أركان الدين الاسلامى فى نفوسهم . الى جانب الطريقة المثلى التى سار عليها موسى بن نصير منذ مطالع عهده بالمغرب العربى فقد حرص موسى بن نصير أن يضرب المثل بنفسه على سهر عمال الادارة العربية على مصالح السكان ومشاركتهم فى السراء والضراء فروت المراجع : أن موسى بن نصير دأب على الخروج بنفسه لمواساة الناس أثناء المجاعات التى تعرضوا

---

(٥٨) د / ابراهيم العدوى : موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ص ٥٨ .

(٥٩) العبر جـ٦ ص١١٠ .

(٦٠) البيان المغرب جـ١ ص٤٣ .

لها وتنظيم الأقوات اللازمة لهم فخرج مع الناس مرة الى الصحراء للاستسقاء ومعه سائر الحيوانات ••• وأقام فيها الى منتصف النهار ثم صلى وخطب في الناس ولم يذكر الوليد عبد الملك فقيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين فقال : — هذا مقام لايدعى فيه لغير الله تعالى » واستجابت السماء لصلاة الاستسقاء فانهمرت الأمطار وبدأت البلاد تعمر بالزروع والأقوات[٦١] •

وبذلك وضع موسى بن نصير الأساس السليم للادارة العربية الناجحة مما يجب أن تكون مثلا يحتذى وأسوة حسنة يجب أن تقتدى وهى العمل على احترام المواطن المغربى والسهر على خدمته ومطالبه ونجحت الادارة العربية بذلك — على عهد موسى بن نصير — نجاحا باهرا الى غير ذلك من الأمثلة التى لا عد لها ولا حصر وهذا مما جعل موسى بن نصير أن يعد بحق « مؤسس المغرب العربى » •

وفى الوقت نفسه فقد كانت توجيهات الخلفاء والحكام لولاتهم تسهم بدورها فى إقرار مبادىء الاسلام ومنها العدل والمساواة ومراقبة الله عز وجل • أى التطبيق العملى للاسلام •

ومن ذلك ما وصى به سليمان بن عبد الملك واليه على المغرب محمد بن يزيد حين قال له : يامحمد بن يزيد اتق الله وحده لاشريك له وقم فيمن وليتك بالحق والعدل اللهم اشهد عليه »[٦٢] وكان جواب الوالى على هذه النصائح القيمة والتوجيهات السديدة أن قال : « مالى عذر ان لم أعدل »[٦٣] ومن ثم يمكن القول أن الاسلام قد رسخت قواعده وتوطدت أركانه على عهد اسماعيل بن أبى المهاجر والى المغرب من قبل عمر ابن عبد العزيز اذ أشارت أكثر المصادر والمراجع التاريخية الى جهوده

---

(٦١) د / ابراهيم العدوى : موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ص ٥٤ •

(٦٢) القيروانى : تاريخ افريقية ص٩٣ •

(٦٣) المصدر السابق ونفس الصفحة •

الفعالة فى نشر الاسلام ومما قاله ابن عذارى فى هذا الصدد : « ومازال حريصا على دعاء البربر الى الاسلام حتى أسلم بقية البربر بافريقية على يديه فى دولة عمر بن عبد العزيز وهو الذى علم أهل افريقية الحلال والحرام »(٦٤) .

ثانيا : الدعاة المسلمون : ونعنى بهم الصحابة وغيرهم من التابعين الذين شاركوا فى أعمال الفتح الاسلامى لشمال افريقية ثم استقروا بالمنطقة كما يضاف الى هؤلاء مجموعة الدعاة التى أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز ليعاونوا اليه اسماعيل بن أبى المهاجر فى تأدية رسالته وهى نشر الاسلام وتعليم البربر قواعد الدين الاسلامى الحنيف .

وقد أشار الفرد بل الى هذه الحقيقة بقوله : « بدأت هذه الطريقة — ارسال الدعاة — فى نشر الاسلام على يد الدعاة الأتقياء منذ العصر الأموى . ويقول فون درهايدن : أن البدء فى تعلم علوم الدين كان فى الوقت الذى قام فيه الخليفة عمر بن عبد العزيز بحمله فى كل الدولة الاسلامية لنشر الدعوة فأرسل الى افريقية جماعة من الدعاة والمعلمين»(٦٥)

ومن خلال تراجم هؤلاء الدعاة يمكننا ادراك دورهم العظيم الخلاق فى تعليم البربر قواعد الاسلام ومن هؤلاء العشرة : أبو مسعود بن سعد بن مسعود التجيبى الذى قال عنه المالكى : « كان رجلا فاضلا مشهورا بالدين والفضل وهو من العشرة الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ليفقهوا أهل القيروان »(٦٦) فى كل مايتعلق بأمور دينهم . أما أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد فقد كان « رجلا صالحا فاضلا يروى عن جماعة من الصحابة منهم : أبو أيوب الأنصارى وعبد الله بن عمر ...

---

(٦٤) ابن عذارى : البيان المغرب جا ص٤٨ وراجع : د / حسن ابراهيم حسن : تاريخ المغرب العربى ص٣٠٤ .

(٦٥) راجع : الفرق الاسلامية فى الشمال الافريقى ص٩٧ .

(٦٦) رياض النفوس جا ص٦٦ ، ٦٧ .

بعثه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى أهل افريقية ليفقههم فى الدين فانتفع به أهل افريقية وبث فيها علما كثيرا »[٦٧] .

كذلك استطاع اسماعيل بن عبيد الأنصارى وهو أحد التابعين أن يعلم البربر المقيمين بالقيروان قواعد الدين « وانتفع به خلق كثير من أهلها وغيرهم وبث فيها علما كثيرا وهو أحد العشرة التابعين وكان رجلا صالحا يقال له تاجر الله وهو الذى بنى المسجد الكبير بالقيروان الذى يعرف بمسجد الزيتونة وكان يصلى به ويعمره »[٦٨] .

ثالثا : بناء المسجد :

كما حرص القادة والولاة على بناء المساجد وتجديدها باعتبارها المعاهد العلمية التى يتعلم فيها المسلمون أمور دينهم ويؤدون فيها شعائرهم فضلا عن أنها أماكن تجمعهم لمناقشة شئونهم وأوضاعهم وقد ظهر ذلك واضحا منذ تأسيس القيروان حيث أسس عقبة المسجد الجامع بها — وجاء القادة والولاة من بعده ليؤسسوا فى أماكن عديدة متفرقة العديد من المساجد ومن هؤلاء : موسى بن نصير الذى أسس مسجدا فى أغمات هيلانة — كما سبق أن أبنا — أما يزيد بن حاتم فقد جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان سنة ١٥٧هـ وفوق ذلك فقد قام الأفراد ببناء المساجد ومن هؤلاء رويفع بن ثابت الأنصارى الصحابى الجليل اذ بنى مسجدا سنة ٤٧هـ سمى بمسجد الأنصار[٦٩] كذلك أنشأ اسماعيل بن عبيد الله مسجدا عرف بمسجد الزيتونة[٧٠] .

على أنه مما لاشك فيه أن كثرة المساجد ومباشرة الفقهاء والدعاة

---

(٦٧) المصدر السابق ص٦٤ ، ٦٥ .
(٦٨) نفسه ص٤٦٩ — ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٧٩ .
(٦٩) الدباغ : معالم الايمان جـ١ ص٢٧ .
(٧٠) المصدر السابق والصفحة .

مهامهم التعليمية والتثقيفية بها خير عون للبربر على التعرف على الاسلام وتأدية شعائره الدينية المقدسة .

هذه الجهود الجبارة من جانب المسلمين قابلتها استجابة فورية من جانب البربر فقد أسلموا وحسن اسلامهم وتشبثوا بدينهم حتى عضوا عليه بالنواجذ حتى يمكن القول — بكل ثقة واطمئنان — أنه لم يكد ينته القرن الثانى الهجرى — الذى يمثل فى معظمه عصر الولاة — الا وقد أسلم البربر وأصبح المغرب العربى بلدا اسلاميا قلبا وقالبا يشارك غيره من أقطار العالم الاسلامى مايعود عليهم بالخير العظيم والنفع العميم لخير البلاد وصـــالح العباد .

هذا وقد صاحب انتشار الاسلام — الى جانب ما أبناه — بين البربر سرعة تعلمهم اللغة العربية كذلك فقد حرص العرب منذ أن دخلوا شمال افريقية على اقامة معاهد صغيرة ملحقة بالمســاجد لتعليم أبنائهم حيث يدرسون فيها القرآن والحديث والدين واللغة وغيرها من المواد وبذلك اكتملت للمغــرب جميع الأســباب المواتية ليصــبح قطرا عربيا اسلاميا بدأ يأخذ طريقه الى جانب البلاد العربية فى المشرق ليمثل دوره المجيد فى تاريخ الاسلام والحضارة العالمية وظهرت ثمار هذا التطور الهام فى بلاد المغرب مبكرة على عهد موسى بن نصير عندما خلق من أبنائها جندا جددا يتسابقون فى رفع راية الاسلام عالية خفاقة ونشر ألويته بالحماسة التى قام بها العربى الأول الذى خرج من موطنه فى شبه الجزيرة العربية على عهد الخلفاء الراشدين (٧١) فقد هيأت الادارة العربية وكفايتها السبيل أمام الاسلام لينتشر بين البربر سريعا — فقد وجدوا فيه كل الخـــلاص من متاعبهم كلها سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية وغيرها وفى الوقت نفســه رأوا فيه — أيضا — الطريق الأمثل لاستعادة سالف مجدهم الغابر فى ميدان الحضارة الانسانية وهكذا نهضت الادارة العربية برسالتها

---

(٧١) د/ابراهيم العدوى : موسى بن نصير ص٦٠ .

فى نشر الاسلام بين البربر فى جد واخلاص وكان الاسلام قد وجد طريقه الى نفوس نفر من سكان البلاد منذ دخلتها الجيوش العربية المظفرة خاصة أيام ـ القائد العربى الشهير ـ عقبة بن نافع الفهرى .

ذلك أن بناء القيروان ساعد على اجتذاب من حولها من السكان الى تعليم الدين الاسلامى[72] الحنيف ولاسيما بعد أن تهيأت لهم أسباب الاتصال بالعرب وفضلا عن ذلك فان سياسة قادة العرب فى اشراك جند من البربر مع جند من العرب فى الفتوح والحرص على المساواة بين الفريقين فى المغانم والعطاء هيأ السبيل لانتشار الاسلام فى قوة بين البربر الذين وجدوا فى العرب اخوة فى الدين لا طغاة مستبدين بل مصلحين منصفين عادلين .

ولذا لم يقم البربر بدورهم الهام التاريخى الا عندما استفزهم الدين ولا غرو فان « رجال الدين عند البربر هم الذين وضعوا أساس دولة المرابطين والموحدين وقد فهم عقبة بن نافع الفهرى عقليتهم فاستطاع بعد ذلك أن يختلب ألبابهم ويجتذبهم للاسلام ولما ذاع فيهم الاسلام الفينا أنه لم يكن اسلاما رسميا هينا وانما كان اسلاما جديا صارما ... »[73] .

---

(٧٢) المرجع السابق : ص٥٧ .

(٧٣) على أدهم : صقر قريش ص٥٥ ــ ٥٦ .

ثانيا : الجانب الأخلاقى : ـ(٧٤)

لعل أجمل وصف لأخلاق البربر (٧٤) ـ سكان شمال افريقية ـ هو ما عبر عنه ابن خلدون حيث نسب لهم الكثير من أسمى الصفات وأكرمها فيقول : ـ « وأما تخلقهم بالفضائل الانسانية وتنافسهم فى الخلال الحميدة وماجبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم ومراعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار وحماية النزيل ورعى الأذمة والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكارم والثبات فى الشدائد وحسن الملكة والاغضاء عن العيوب والتجافى عن الانتقام ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير أهل العلم وحمل الكل وكسب المعدوم وقرى الضعيف والاعانة على النوائب وعلو الهمة واباء الضيم ومشارفة

---

(٧٤) البربر هم سكان شمال افريقية الاقدمون وتعددت آراء المؤرخين حول مفهوم كلمة البربر فيرى الفيروز آبادى أن البربرة الكلام فى سرعة حين الغضب والبربرة كثرة الكلام والجلبة والصياح والفعل بربر .. » (القاموس المحيط جـ١ ص٣٧) وأن الرومان استعملون كلمة بربار بمعنى سيروا بسرعة والكلمة ليست كلمة جنسية تدل على جنس انما أطلقها عليها غيرهم وقد سماهم الاغريق والمصريون القدامى « الليبيون » (فيليب رفلة : الجزائر ص١٩٢) وثمة رأى آخر يقول : أن البربر غير الليبيين وأنهم أقدم منهم فى الشمال الافريقى (الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص٦) وكان الرومان يطلقون كلمة « بربر » على نحو ما فعل اليونان من قبل على جميع العناصر التى لا تدين بحضاراتهم أو التى تأبى الدخول فى ميدان تلك الحضارات (د/ابراهيم العدوى : موسى بن نصير ص٥١) وتسمية سكان شمال افريقية تتصل اتصالا وثيقا ولها علاقة وطيدة باللغة فلما كانت لغة السكان الأصليين غير عربية أصبحت فى نظر العرب رطانة أو عجمية أو بربرية وهى اصطلاحات استعملها العرب هنا وهناك وكانت كلمة البربر من نصيب السكان فى شمال افريقية (د/أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٤ ص١٠٨) والبربرة بلسان العرب هى اختلاط الأصوات غير المفهومة ومنه يقال البربر والبربرة بلسان العرب هى اختلاط الأصوات غير المفهومة ومنه يقال بربر الأسد اذا زار بأصوات غير مفهومة (ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٨٩ للاستزادة راجع (الجذور التاريخية للبربر للمؤلف (تحت الطبع) .

الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله فى نصرة دينه فلهم فى ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كان تمسطورة لحفظ منها مايكون أسوة لمتبعيه من الأمم وحسبك ما إكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها أن قادتهم الى مراقى العز وأوفت بهم على ثنايا الملك حتى علت على الأيدى أيديهم ومضت فى الخلق بالقبض والبسط أحكامهم وكان مشاهيرهم بذلك من أهل الطبقة الأولى .. »[٧٥]
ويشارك ابن خلدون فى كتابة « العبر » البكرى فى كتابه « وصف افريقية والمغرب والأندلس فتحت عنوان « لطف أهل افريقية » يقول : « ولأهل افريقية لطف أخلاق وشمائل بالنسبة الى أهل العدوة وسائر بلاد المغرب وما ذلك الا لمجاورتهم لمصر ومزجهم بأهلها ومخالطتهم لهم ولمن سكنها من أهل أشبيلية والأندلس وهم من هم ! خفة روح وحلاوة نادرة وهم على كل حال أهل انطباع وكرم طباع .. »[٧٦]

ويتحدث المقدسى عن صفات أقاليم المغرب كل اقليم على حدة نكتفى منها فى الحديث عن البعض منها ان لم يكن كلها على أن المقدسى يتحدث عن صفة المغرب بصفة عامة قبل حديثه عن كل اقليم على حدة فيقول عن المغرب : « هذا اقليم بهى كبير سرى كثير المدن والقرى عجيب الخصائص والرخا به ثغور جليلة وحصون كثيرة ورياض نزهة وبه جزائر عدة مثل الأندلس الفاضلة العجيبة وتاهرت الطيبة النزيهة وطنجة البلدة البعيدة وسجلماسة المختارة الفريدة .. أهلها فى جهاد دائم ثم الغنى فيه سالم ولهم أيضا فى الخير رغبة وللسلطان عدل ونظر وحسبه متصل بالبحر خير جار وخير قوم لكل سائر ومار قد غاب فى الزيتون مدنه وبالتين والكرمات أرضه يجرى خلالها الأنهار ويملأ غيطانها الأشجار .. »[٧٧] .

---

(٧٥) العبر جـ٦ ص١٠٤ .
(٧٦) وصف افريقية ص٢٧ .
(٧٧) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص٢١٥ ، ٢١٦ .

ويقول المقدسى عن القيروان واصفا ولسكانها مادحا : « القيروان مصر الاقليم بهى عظيم حسن الأخباز جيد اللحوم قد جمع أضداد الفواكه والسهل والجبل والبحر والنعم مع علم كثير ورخص عجيب و « هى فرضة المغربين ومتجر البحرين لاترى أكثر من مدنها ولا أرفق من أهلها •• مع ألفة عجيبة لا شغب بينهم ولا عصبية لا جرم أنهم على نور من ربهم قد أقبلوا على مايعنيهم وارتفع الغل من قلوبهم فهى مفخر المغرب ومركز السلطان وأحد الأركان أرفق من نيسابور وأكبر من دمشق وأجل من أصبهان •• »[٧٨] •

وعن برقة وأهلها يقول المقدسى : « برقة قصبة جليلة عامرة نفيسة كثيرة الفواكه والخيرات والأعسال مع يسار وهى ثغر أحاط بها جبال عامرة ذات مزارع •• قد أحاط بها تربة حمراء وهى على جادة مصر •• يحسنون الى الغرباء أهل خير وصلاح وأقل انقلاب من غيرهم •• »[٧٩]

وعن تاهرت يقول: « تاهرت •• قد أحدق بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغلبت فى البساتين ونبعت حولها الأعين وجل بها الاقليم وانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب يفضلونها على دمشق وأخطأوا •• هو بلد كبير كثير الخير رحب رفق طيب رشيق الأسواق غزير الماء جيد الأهل قديم الوضع محكم الرصف عجيب الوصف •• »[٨٠] •

و « سجلماسة قصبة جليلة •• وسطها حصن يسمى العسكر فيه الجامع ودار الامارة » صحيحة الهواء كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والخيرات كثيرة الغرباء موافقة لهم يقصدونها من كل بلد ومع ذلك فهى « ثغر فاضل وهم أهل سنة وقوم جياد بها علماء وعقلاء »[٨١] •

---

(٧٨) المصدر السابق ص٢٢٤ ، ٢٢٥ •
(٧٩) المصدر نفسه ص٢٢٤ •
(٨٠) نفسه ص ٢٢٨ •
(٨١) نفسه ص ٢٣١ •

وجاء في كتاب آثار الأول في ترتيب الدول في معرض حديثه عن أخلاق البربر وما يتصفون به : و « البربر فيهم الصبر على الشقاء . والاقدام على الموت والحروب ... وتأليفهم بالمواعظ والخطب والانقياد لمشايخهم ولكبرائهم وتؤثر فيهم النواميس غاية التأثير . وهم خفاف على الخيل خفاف في الجرى ومنهم رجالة يلحقون بالخيل .. ويعظمون شيوخهم وفيهم قبيلة تعظم النساء وتحكمها وتنسب الأولاد اليهن وينتقب الرجال وتسفر النساء في الغالب وهي قبيلة مسوفة وبالجملة فأهل البلاد الباردة أشجع من أهل البلاد الحارة تلزز أبدانهم واكتناز أعضائهم وقوتهم الا أن أهل البلاد أخف وأرشق وربما كانوا أركب وأهل الجبال اشجع واصبح من اهل السهل وكذلك أهل المشرق أشجع من أهل المغرب وأهل الشمال اشجع من أهل الجنوب والوسط وسط ... » قال أهل الفراسة : من صفة الشجاع أن يكون متازز الأعضاء قوى العصب شديد اللحم قائم الشعر سبطه كأنه ابر مفروزة عريض الصدر غليظ العنق جهورى الصوت أخمص البطن وهذه الصفات مأخوذة من الأسد »[٨٢] و « البربرى عميق العاطفة الدينية يأخذ الدين مأخذ الجد الصارم ويوغل فيه بغير رفق وهو شديد الاعتقاد كثير التصديق بما وراء الطبيعة ولايفطن من فوره الى الجوانب الفكاهية في الأشياء ولايدرك متناقضاتها وانما يكتفى بالايمان الشديد ومن ثم فرط احترامه لرجال الدين وسهولة انقياده لهم ... »[٨٣] والحيوية الجنسية هي المميز الرئيسى للبربر فهم يظهرون صفات دائمة ومستمرة باعثة على الدهشة وهي السبب في ازدياد عددهم رغم الاضطهاد الذى حاق بهم .

والبربرى يصبر ويثابر وقد يبدو لك أنه استكان وهدأ ولكنه عاود الكفاح في اصرار ومثابرة وقد يتسامح في الطريقة التي يعيش بها مع الآخرين ولكنه مع الوقت نفسه يظل محافظا على طريقته هو وقوة احتماله مثيرة وله قوة مقاومة لا تجارى .

---

(٨٢) آثار الأول في ترتيب الدول ص١٤٧ — ١٤٨ .
(٨٣) على أدهم : صقر قريش ص٥٥ — ٥٦ .

ويشهد الكتاب الأجانب في كثير من مؤلفاتهم : أن البـربر ذو شجاعة فائقة وذكاء والبربرى ان تخلى عن عزلته يكون شخصا مرحـا لطيفا ولهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة منذ آلاف السنين يعتبرونها جزءا لا يتجزأ من كيانهم فلا يستعملون موائد الطعام ويأكلون بأيديهم ويسلمون وهم جلوس فهم يعتزون بعاداتهم القديمة »[٨٤] التى جبلوا عليهـا وألفوها وصارت جزءا من كيانهم لاينفصل ولا ينفصم • ويضيف الى ذلك جوستاف لوبون قوله : « والبربر صبر على العمل الشاق فلا يرتدون عنه ويثيرون مايملكون من الأراضى الضعيفة بجد ونشاط ويكتفون بما يمسك به الرقيق لاحتياجاتهم القليلة وهم ذو استعداد صناعى يكفـى لصنع مايحتاجون اليه من مختلف الأدوات والنسائج والأسلحة والحلى ••• وهميرسلون الى الخارج مايزيد من مصـــنوعاتهم ورأيت بين مايصنعون من الحلى ما لايقل دقة عما نـراه فى مخازن أكثر الصـناع الباريسيين أناقة •

ويستطرد لوبون قائلا : وقد « رأيت فى مجموعة المصنوعات التى أحضرها مسيودو ويفالفى من آسيا الوسطى أشياء مماثلة لما يصـنعه البربر المعروفون بالقبائل • فمن المحتمل أن تكون قد اقتبست حينمـا كانت بلاد الهند ذات صلات بافريقية أيام دولة العرب »[٨٥] •

بيد أن فريقا آخر من قدامى المؤرخين من تناول أخلاق البـربر بالذم والقدح ويصفها بالقبح وهذا الفريق فيما ذهب اليه ــ كما اعتقد ــ متحاملا على الحقيقة ومتجنيا كل التجنى على سكان شمال افريقية ــ بلا استثناء ــ وكأن لم يكن ثمة فرد واحد منهم يتصف بصفات حسنة وأخلاق كريمة وهذا ــ بلا مرية ولا ارتياب ــ افتراء واختلاق غـير معقول وغير مقبول معا ــ على حد سواء •

---

(٨٤) فيليب رفلة : ــ الجزائر ص٤٤ •
(٨٥) لوبون : حضارة العرب ص٢٤٧ •

يقول ياقوت فى معجمه ويشاركه صاحب كتاب حقائق الأخبار عن دول البحار والبستانى فى دائرة معارفه ومن سار فى فلكهم : « البربر أجفى خلق الله وأكثرهم طيشا وأسرعهم الى الفتنة وأطوعهم لداعية الضلالة وأصغاهم لنمق الجهالة ولم تخل أجيالهم من الفتن وسفك الدماء قط ولهم أحوال عجيبة واصطلاحات غريبة وقد حسن لهم الشيطان الغوايات وزين لهم الضلالات حتى صارت طبائعهم الى الباطل مائلة وغرائزهم ضد الحق حائلة فكم من ادعى فيهم النبوة فقبلوا وكم من زاعم فيهم أنه المهدى الموعود به فأجابوا دعوته ولمذهبه انتحلوا وكم ادعى فيهم مذهب الخوارج فالى مذهبه بعد الاسلام انتقلوا ثم سفكوا الدماء المحرمة واستباحوا المنكرات ونهبوا الأموال وارتكبوا الفواحش حتى حكى عنهم فى ذلك أمور يمجها السمع وتكرهها النفس وهم يظنونها مبالغة فى اكرام ضيوفهم • على أنه مما يثير الدهشة والغرابة ويبعث على الاشمئزاز أنهم يختلقون أحاديث وينسبونها الى الرسول الكريم للاستدلال بها على آرائهم الباطلة فيقولون : « ويروى عن النبى أنه قال : ما تحت أديم السماء ولا على الأرض خلق شر من البربر » ولأن أتصدق بسوطى فى سبيل الله أحب الى أن أعتق رقبة بربرى » وينسب الى أحد المغاربة فى هجاء البربر قوله : —

رأيت آدم فى نومى فقلت له ... أبا البرية ان الناس قد حكموا
ان البرابر نسل منك قال اذا ... حواء طالقة ان كان مازعموا[86]

ويشارك هذا الفريق فى تجنيه وافترائه على البربر فى تعميمهم تلك الصفات السيئة على جموع البربر بلا استثناء يذكر بما لم يأت الله به من سلطان فيتفق معهم المسعودى فيما اليه ذهبوا •

يقول المسعودى : — أما المغرب فيقسى القلب ويوحش الطبع ويطيش

---

(٨٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ تحت مادة بربر ، حقائق الأخبار للدمشقى ص ٢٧٣ ، دائرة البستانى جـ ٥ ص ٢٨ • •

بالنب ويذهب بالرحمة ويكسب الشجاعة ويقشع الضراعة وفى أهله غدر ولهم خبر شومكو ، ديارهم مختلفة وهممهم غير مؤتلفة ولديارهم آخر الزمان نبأ عظيم وخطب جسيم من أمر يظهر وأحوال تبهر »[٨٧] •

وللرد على هذه الافتراءات نقول : أن أريد بلفظ البربر الوارد في قول هذا الفريق الجنس فهذا غير صحيح فالكلمة « بربر » ليست كلمة جنسية تدل على جنس انما أطلقها عليها غيرهم وقد سماهم الاغريق والمصريون القدماء « الليبيون »[٨٨] وفى الوقت نفسه فالتسمية بالبربر لا علاقة لها بالجنس وانما علاقتها باللغة ــ كما يرى فريق آخر من المؤرخين ــ فلما كانت لغة السكان الأصليين غير عربية أصبحت في نظر العرب رطانة أو عجم ــ أو بربرة وهي اصطلاحات استعملها العرب هنا وهناك وكانت كلمة البربر من نصيب السكان فى الشمال الافريقي[٨٩] على أنه يمكن التوفيق بين من يتناول أخلاق البربر بالثناء والمدح ومن يتناولها بالهجاء والقدح ذلك أن الفريق الذى تناول أخلاقهم بالمدح عندما أن أسلموا وحسن اسلامهم وعمر الايمان قلوبهم وملك عليهم جوارحهم ووجدانهم وسرى فيهم مسرى الروح فى الجسد والدم فى العروق فانعكس ذلك كله عليهم جميعا قولا وعملا ذلك أن ماانبنى على خير فهو خير ولا غرو فان الدين الاسلامى يتمثل فيه كل المبادىء السامية والتعاليم الراقية والمثل العليا النبيلة والقيم الرفيعة ولا ريب فالتمسك به فيه عزة البشرية وسعادتها فى الدارين فهو صلاح البلاد وخير العباد أما وجهة نظر الفريق الاخر الذى تناول أخلاق البربر بالهجاء والقدح فمرد ذلك الى الحالة التى كان عليها البربر قبل أن يروا نور الايمان وماكانت عليه أخلاقهم قبل أن تصفو روحهم وتتخلص من شوائب الدنايا والرزايا باعتناقهم الاسلام •

---

(٨٧) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٦٢ •

(٨٨) فيليب رفلة : الجزائر ص١٩٢ •

(٨٩) د/أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٤ ص١٠٨

وبالاضافة الى ذلك فلا تخلو أمة من الأمم أو دولة من الدول بل كل أسرة من الأسر من وجود نقص فى أخلاقها أو عيب فى سلوكها وتصرفاتها ولا غرو فالكمال لله وحده عز وجل على أنه ليس ببعيد أن يكون وجهة نظر هذا الفريق فى أخلاق البربر مرده الى اعتبارات مذهبية أو طائفية أو شخصية أو غيرها من الاعتبارات .

وفي اطار هذا الصدد أحسن المقدسى صنعا وقولا ذلك أنه بعد أن تحدث عن صفة المغرب وأقاليم وصفات أهله يختم قوله بعبارات لن يمحوها الزمن مادام الحمام يغرد ولا ريب فهى نابعة من قلب مملوء بالصدق يتسم بالتجرد وعدم التحيز لهذا أو لذاك يدل على شعور صادق واحساس مرهف يقول المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم : « وانما تركنا ماذكره من قبلنا فى تصانيفهم ومن مفاخر كتابنا الاعراض عما ذكره غيرنا وأوحش شيء فى كتبهم ضد ما ذكرنا ... واذا نظرنا فى كتابنا وجدناه تنسبح وهده يتيما فى نظمه ولو وجدنا رخصة فى ترك جمع هذا الأصل لما اشتغلنا به ولكن لما بلغنا الله تعالى أقاصى الاسلام وأرانا أسبابه وألهمنا قسمته[90] وجب أن ننهى ذلك الى كافة المسلمين ألا ترى الى قوله تعالى : « قل سيروا فى الأرض » « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم »[91] وفيما ذكرناه عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر .. »[92] .

وبالاضافة الى ذلك يقول لوبون : « وانتهى العلماء الذين بحثوا فى أمر البربر الى نتائج متناقضة كثيرا ويمكن التوفيق بين هذه النتائج المتناقضة فيصح أن نقول ان البربر الذين تباينت فروعهم قد تباينت طبائعهم وأن أخلاقهم تختلف باختلاف ظروف وطرق حياتهم وما يقال

---

(٩٠) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص٢٤١ .
(٩١) سورة محمد آية ١٠
(٩٢) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص٢٤١ .

عن الطوارق لا يقال مثله عن سكان الجبل من البربر ... »[٩٣] وقد تعد روح البربر قريبة جدا من روح العرب على أن يقاسى حضريو أولئك وبدويوهم بحضريى هؤلاء وبدوييهم ولطرق الحياة تأثير كبير فى أخلاق جميع الأمم فاذا تماثلت طرق حياة الأمم تماثلت هذه الأمم فى التفكير والسير فى الغالب ... والبربرى الحضرى كالعربى الحضرى جلد على العمل صبور وحازم ماهر والبربرى البدوى كالعربى البدوى طليق محراب قنوع خفيف طواق للمشاق ختار للأعداء ... واشتهر البربر قبل الفتح العربى بطويل زمن بأنهم ممن لايوثق بكلامهم وقد كان عددهم كثيرا فى جيوش قرطاجة فأوجبوا اشـــتهار الحروب اليونانية ... »[٩٤]

ولدراسة طبائع البربر المعروفين بالقبائل وعاداتهم التى ثبتت مع تعاقب الفاتحين أهمية خاصة فتشتمل كل قرية بربرية على أسر كثيرة مؤلفة من أناس منحدرين من أصل واحد ومن أناس انضموا اليهم بالولاء وتعد واحدة من تلك الأسر وحدة سياسية شرعية قادرة على التملك والبيـع والشراء وتتألف القبيلة من اجتماع عدة قرى والقرية لا القبيلة هى عنوان الوحدة السياسية البربرية خلافا لما هو عند العرب والقرية البربرية هى جمهورية صغيرة مستقلة يدير شئونها رئيس منتخب يسمونه الأمـين وأهم وظائفه أن يرأس جمعية البالغين من أهل قريته وتتمتع هذه الجمعية بالسلطة الشرعية والقضائية وتقرر شئون السلم والحرب.

وسلطة أمين القرية مقيدة جدا والوكيل هو الذى يراقبه والوكيل هو الذى يشكوه الى تلك الجمعية اذا أتى عملا يستحق اللوم والتعنيف ومن ذلك نرى أن الاستقلال البلدى الذى يحلم به بعض الاشتراكيين تام عند البربر الذين حرموا بسببه تأليف أمة فى كل زمن .

---

(٩٣) لوبون حضـــارة العرب ص٢٤٩ .

(٩٤) حضارة العرب ص٢٥٠ — ٢٥١ .

والتملك أمر فردى عند البربر ولكن للأسرة البوبرية والمقوية البربرية أملاكها المماثلة لأملاك بادياتنا — على حد قول لوبون — والأسرة البوبرية هى الوارثة حين لايكون للمورث ورثة أو حين يكون ورثته بعيدين .

وقانون العقوبات عند البربر بسيط — ولايعرف البربر أمر السجون وتندر عندهم الجرائم ولاسيما السرقة ويعيش البربر فى غير معزل عن عشيرته فيخشى معبة الاجرام ويرى للرأى العام سلطان عظيم فى تلك الجمهوريات البربرية التى يعرف فيها كل واحد من أفرادها .

ويقتصر البربرى على زوجة واحدة ولا تتمتع المرأة البربرية بأكثر مما تتمتع به الأوروبيات فى الحقوق وان كانت فى وصاية أقل مما هن فيه والمرأة البربرية على جانب كبير من الحمية وهى تحارب بجانب زوجها أحيانا وخلد أوميس ذكرها حين تغنى بخبر تلك الملة والنسوة الترجلات اللائى فتحن بلاد لوبية وبعض آسيا الصغرى ومن النساء البربريات من جلسن على عرش الملك ويدل هذا الأمر الذى ينفر منه العرب كثيرا على تباينهما فى النظر الى بعض الشئون »(٩٥) .

أما عن صفات البربر فى أحوالهم المعيشية فقد اتصف البربر سواء أكانوا بدوا أم برانس بعدة صفات أجملها ابن خلدون بقوله : « يتخذون من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر والشعر والوبر ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة لايجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفار الأملس ومكاسبهم الشاه والبقر والخيل فى الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم شأنهم شأن العرب ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والاظعان فى نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة ولباسهم من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة

---

(٩٥) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٢٤٧ — ٢٤٩ .

ويفرغون عليهم البرانس الكحل ورؤوسهم فى الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق »[٩٦] .

ويمكننا أن نستنتج مما ذكره ابن خلدون من صفات البربر المعيشية النقـاط التالية :

(أ) أن البربر كانوا يتخذون مساكنهم بحسب المكان الذى ينزلون فيه فحيث الاستقرار يكون البناء بالحجارة والطين وهؤلاء أهل المدن .

(ب) طبقة التجار وكانت تجارتها تعتمد على الشاء والبقر وما تنتجه هذه السائمة من لحوم وأصواف وألبان يستخدمونها فى حياتهم .

(جـ) الطبقـات العـاملة فى الأرض حيث تقوم بزراعة الأرض والاشراف على تربية الطيور وغيرها من المهن والحرف .

(د) على أن ثمة طبقة أخرى كانت تعيش بمنطق القوة أى بالاغارة على ما جاورها من الأغنياء وذلك بحد السيف للحصول على ماتريد .

(هـ) ونظرا لتوفر الماشية والأغنام نجد أن أغلب ملابسهم صوفية خاصة فى المناطق الجبلية والصحراوية حيث يشتد البرد وهو مما يحصلون عليه من أوبار ماشيتهم وأغنامهم »[٩٧] .

أما عن المزايا التى تتفرد بها بلاد البربر عن جزيرة العرب فهـى جبالها الشامخة ومسالكها الوعرة وكثرة ودياتها الخصيبة ممـا يهيئ للمدافعين عنها فرصا كثيرة للايقاع بالمغير حين تهب كل قبيلة للذود عن حماها وكان جمهور البربر قبائل بدوية يعيش أكثرها على الرعى فى هضبة الشطوط وفى الأطلس الصحراوية والكبرى ومن باب أولى فى الوديان الكثيرة التى تنحدر من هذه الجبال الى الصحراء والتى تكثر

---

(٩٦) ابن خـلدون : العبر جـ٦ ص٨٩ .

(٩٧) راجع د/حسين على حسن : تاريخ المغرب العربى ص٢٨٨ .

فيها الواحات وبسبب ضيق السهل الساحلى الخصيب وصعوبة الاتصال بين أجزاء البلاد لم تقم فيها دولة كبيرة تجمع شتاتها فترة طويلة من الزمن كما حدث فى مصر وانما قامت فيها فى أكثر حقب التاريخ دويلات صغيرة متنافسة شأنها فى ذلك شأن بلاد اليونان حيث قامت المدن الحكومية المتفرقة قبل أن تخضع تلك البلاد للمقدونيين (الاغريق) ثم للـــرومان •

وقد انبنى على هذا التشتت السياسى الذى أملته طبيعة البـــلاد أن كان السهل الساحلى محط أنظار المستعمرين فى مختلف العصور وكان بعضهم يتوغل الى الداخل عن طريق وديان الأنهار ولكن هذه الطبيعة بذاتها حين أطمعت المحتلين في البلاد بعثت في أهلها سبل المقاومة حتى استطاعوا فاذا عجزوا لجأوا الى قنن الجبال وتحصنوا بالصحراء يتربصون بالعدو حتى اذا لاحت « لهم » الفرصة خرجوا من كهوف الجبال ومخابئها العديدة بما يتمثل في جبل أوراس فانقضوا على العدو(97) وأهلكوا الحرث والنسل يريدون بذلك مطاردة الأجنبى المعتدي والمستعمر الدخيل البغيض حرصا منهم على الحرية والأمن والاستقرار •

---

(٩٨) محمد احمد حسونة : الجغرافية الاسلامية للتاريخية ص٥٤ — ٥٦

ثبت بأهم مصادر ومراجع البحث

أولا : المصـــادر :

ابن الأثير (أبو الحسن بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى ٦٢٩هـ ــ ١٢٣٢م)

الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، م الأزهرية سنة ١٣٥١هـ م المنيرية سنة ١٣٥٧هـ ، ط الحلبى سنة ١٣٠٣هـ •

الباجى (أبو عبيد الله محمد)

الخلاصة النقية فى أمراء افريقية • تونس ، م الدولة التونسية •

البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ت ٤٨٧هـ)

المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب • بغداد ، م المثنى سنة ١٩١١م

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربى ت ٨٠٨هـ)

العبر وديوان المبتدأ والخبر • القاهرة ، م الأميرية ، سنة ١٢٨٤هـ •

الدباغ (عبد الرحمن محمد بن عبد الله الأنصارى ت ٦٩٦هـ)

معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان • القـــاهرة ، م الخانجى ســـنة ١٩٦٨ •

الدمشقى : (شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى طالب ت ٥٢٧هـ)

نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ط ليبزج سنة ١٨٢٠م •

ابن أبى دينار (أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى ت ١١١٠هـ) •

المؤنس فى أخبار افريقية وتونس تحقيق محمد شمام • تونس ، م النهضـــة سنة ١٣٥٠هـ

السلاوى (أحمد بن خالد ت ١٣١٥هـ)

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى • القاهرة ، دار الكتاب العربى سنة ١٣١٢هـ •

ابن عذارى (أبو عبد الله محمد المراكشى ت أواخر القرن السابع الهجرى)

البيان المغرب تحقيق بروفنسال • بيروت ، دار الثقافة

العمرى (شهاب الدين بن يحيى المعروف بابن فضل الله الكاتب الدمشقى)

وصف افريقية والمغرب والأندلس تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ، م النهضة د ــ ت •

الفيروز آبادى (ت ٨١٧هـ)

القاموس المحيط ط٢ القاهرة ، م الحلبى سنة ١٩٥٢م •

القيروانى (أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم ت فى القرن الخامس الهجرى)

تاريخ افريقية والمغرب تحقيق المنجى الكعبى • تونس ، نشر مطبعة الوسط سنة ١٩٦٧ •

المالكى (أبو بكر عبد الله ت ٤٣٨هـ)

رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية تحقيق حسين مؤنس ، م النهضة سنة ١٩٥١ •

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على ت ٣٤٦هـ ــ ٩٥٦م)

مروج الذهب ومعادن الجوهر ط٣ القاهرة سنة ١٣٧٧هـ ــ ١٩٥٨ •

المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعى المعروف بالبشارى)

أحسن التقاسيم ط٢ طبعة بريل ، ليدن سنة ١٩٠٩

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى البغدادى ت ٦٢٦هـ)

معجم البدان • القاهرة ، م السعادة سنة ١٣٢٤هـ ــ ١٩٠٦م ط بيروت دار صادر سنة ١٣٨٦هـ ــ ١٩٥٧م عشرة أجزاء •

ثانيا : المراجع :

ابراهيم أحمد العدوى :

موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى • القاهرة ، دار الكاتب العربى ، سلسلة أعلام العرب أغسطس ١٩٦٧ العدد (٦٨) •

أحمد شلبى :

دراسات فى التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية • القاهرة ، م النهضة سنة ١٩٦٠م •

أحمد صفر :

مدنية المغرب العربى فى التاريخ • تونس ، دار النشر ، ١٩٥٩م

أرنولد السير توماس :

الدعوة الى الاسلام ترجمة وتعليق د/حسن ابراهيم ، عبد المجيد عابدين ط ٢ القاهرة ، م النهضة سنة ١٩٥٧م

البستانى (بطرس) :

دائرة معارف البستانى ط بيروت ، دار المعرفة سنة ١٨٨٧

حسن أحمد محمود :

ليبيا بين الماضى والحاضر • القاهرة ، م النهضة •

الاسلام والثقافة العربية فى افريقية • القاهرة ، ط ٢ ١٩٦٣ •

حسن على حسن :

تاريخ المغرب العربى ط ١ القاهرة ، م الشباب سنة ١٩٧٧

حسين مؤنس :

فتح العرب للمغرب • القاهرة ، م الآداب سنة ١٩٤٧ •

الزاوى (الطاهر احمد الطرابلسى)

تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ط٢ القاهرة ، دار المعارف سنة ١٩٦٣ •

عبد الحميد العبادى :

المجمل في تاريخ الأندلس ط٢ القاهرة ، دار القلم (سلسلة المكتبة التاريخية) •

على أدهم :

صقر قريش سلسلة كتاب الهلال عدد ١٦٣ أكتوبر سنة ١٩٦٤ •

فنسنك ، هو تسما وآخرون :

دائرة المعارف الاسلامية ترجمة محمد ثابت الفندى ط١ القاهرة ١٩٣٣ •

فيليب رفلة :

الجزائر مع تعريف ببلاد المغرب ط١ القاهرة ، م الصباح سنة ١٩٥٦م •

لوبون (جوستاف) :

حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر • القاهرة ، دار المعارف سنة ١٩٥٨ •

محمد أحمد حسونة :

الجغرافية الاسلامية التاريخية • القاهرة ، لجنة البيان العربى •

محمد عبد الله عنان :

دولة الإسلام فى الأندلس • القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧ •

محمد على دبوز :

تاريخ المغرب الكبير • القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٦٣ •

محمود إسماعيل :

المالكية والشيعة بافريقية ابان قيام الدولة الفاطمية بحث نشر فى المجلة التاريخية المصرية مجلد ٢٣ سنة ١٩٧٦م

نقولا زيادة :

برقة الدولة العربية الثامنة ط بيروت ، دار العلم للملايين سنة ١٩٥٠ م •

السلاف فى شبه جزيرة البلقان

وجهود الامبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها

(٥٩١ ــ ١٠١٨م)

دكتور / وسام عبد العزيز فرج ــ جامعة المنصورة(*)

لاشك أن أهم تغيرأصاب التكوين البشرى لشبه جزيرة البلقان منذ العصر القديم يتمثل فى غزو القبائل السلافية لاقليم البلقان واستقرارها هنـاك (١) . ان الظروف التى صاحبت هذا الغزو والتسلسل التاريخى

(*) يسرنى أن اتقدم بالشكر للاستاذ الدكتور بول شبيك Paul Speck أستاذ كرسى التاريخ البيزنطى ومدير معهد الدراسات البيزنطية بجامعة برلين الحرة للتسهيلات العديدة التى قدمها حتى يخرج هذا البحث فى أفضل صورة . كما اتقدم بالشكر أيضا لمؤسسة الكسندر فون همبولدت Alexander Von Humboldt التى تولت الانفاق على مهمتى العلمية فى جمهورية المانيا الاتحادية خلال العام الجامعى ٨٣ / ١٩٨٤ .

(١) أدى اضمحلال البناء الضخم الذى أقامه الهون Huns بعد وفاة أتيلا Attila سنة ٤٥٣م الى تغير ميزان القوى فى الأقاليم الواقعة الى الشمال من حدود الامبراطورية البيزنطية فى البلقان . وأدى انهيار دولة الهون الى ظهور قبائل متبربرة عديدة كانت قد خضعت فى الماضى لحكم الهون ، من بينها القبائل السلافية . ومن غير المعروف على وجه الدقة موطن السلاف الأول ، فالمصادر لاتقدم الكثير ، ولكن من المرجح أن القبائل السلافية كانت تقطن مساحة كبيرة من السهل الأوربى الشرقى الى الشمال من جبال الكروات . وحتى الآن لاتزال الأسباب التى دفعت السلاف الى الهجرة جنوبا والظروف التى صاحبت ظهورهم المفاجىء على طول الضفة الشمالية لنهر الدانوب فى مطلع القرن السادس الميلادى غير معروفة . ومن المحتمل أنه فى أعقاب وفاة أتيلا واضمحلال دولته ، تحركت الأقوام التى خضعت للهون سعيا وراء المراعى وأخذت تضغط على غيرها من الأقوام مما دفع

=

لقيام المستوطنات السلافية فى البلقان لايزال رغم كل ماكتب عن هذا الموضوع مسألة تثير الحيرة • والسبب فى ذلك يرجع الى قلة ما ورد فى المصادر التاريخية من ناحية ، كما أن التسلسل التاريخى للاحداث لايزال غير واضح من ناحية أخرى • وان عدم وضوح التسلسل التاريخى للاحداث يظهر جليا فى المصدر المعروف « بمعجزات القديس ديمترى » Miracula Sancti Demetri ، الذى يعتبر أهم مصدر لدينا عن استقرار السلاف فى شبه جزيرة البلقان[٢] . ولقد تناول عدد من المؤرخين المحدثين هذا المصدر بالدراسة ، الا أن الدراسات التى خرجوا بها فى النهاية عادت لتؤكد حيرة الباحث ، لأن هذه الدراسات قدمت تصورات مختلفة لتسلسل الأحداث ولم تحسم القضية[٣] •

= بالسلاف الى الاتجاه شطر نهر الدانوب . وتطلع السلاف بعد ذلك الى عبور النهر الذى كان شطر نهر الدانوب . وتطلع السلاف بعد ذلك الى عبور على أية حال ، فى النصف الثانى من القرن السادس يتقشع الظلام وتبدأ المصادر تاريخية فى ذكر السلاف واغاراتهم على الممتلكات البيزنطية ثم استقرارهم فى الأقاليم البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان . أنظر :

Lemerle, **Invasions,** 281-295 ; Obolensky, **Commonwealth,** 42-43.

Miracula Sancti Demetri, AASS, 104-197;

Miracula Sancti Demetri, PG, Cols 1174-1384.

وانظر أيضا الطبعة الجهيدة لهذا المصدر والتعليق الذى قدم به الأستاذ بول لاميرل لهذه الدراسة :

Lemerle, **Anciens Recueils,** 2 vols.

(٣) من هم الدراسات الحديثة التي تناولت المصدر المعروف « بمعجزات القديس دمترى » الدراسات التالية :

Laurent, Saint-Demetrius, 420-434; Delehaye, **Recueils Antiques,** 57-64; Lemerl, La **Composition,** 349-461; Burmov, **Les Sièges de Thessalonique,** 167-215; Barisic, **Miracles de St. Démétrius.**

على أية حال ، من المعروف أن أول ظهور للسلاف فى الامبراطورية البيزنطية حدث فى القرن السادس الميلادي[٤] فمنذ عهد الامبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧ — ٥٦٥م) وحتى نهاية القرن السادس ، أخذ السلاف يغيرون على الأقاليم البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان • وحتى بداية عهد الإمبراطور موريس Maurice (٥٨٢ — ٦٠٢م) لم يحاول السلاف الاستقرار هناك • وشهدت الفترة الممتدة من سنة ٥٧٩ وحتى سنة ٥٨٧م أعنف اغارات قامت بها هذه القبائل المتبربرة على الممتلكات البيزنطية فى البلقان وعلى الرغم من أن الآفار Avars تولوا قيادة وتوجيه تلك الاغارات ، الا أن السلاف شكلوا أغلبية هـذه العناصر المتبربرة التى أغارت على البلقان • لقد جاء السلاف فى اعداد ضخمة فى وقت انشغلت فيه الجيوش البيزنطية بقتال الفرس على الجبهة الشرقية ، وهاجموا مناطق عديدة فى البلقان • لقد أغاروا على الليريا Illyricum وتراقيا Thrace وتوغلوا جنوبا الى اقاليم اليونان وشبه جزيرة البلوبونيز ، وساعدوا الافار فى اجتياح العديد من المراكز البيزنطية ، وفى سنة ٥٨٦م ألقوا الحصـار على مدينة سـالونيكا Thessalonica وكان هذا هو الحصار الأول لهذه المدينة التى كان مقدرا لها أن تشهد سلسلة من هجمات السلاف[٥] •

---

4) Dvornik, **The Slavs**, 34, ff.

5) Grégoire, **L'Origine**, 88-118; Lemerle, **Invasions**, 281-282; Hauptmann, **Les Slaves et les Avares**, 137-170, Burmov, **Les Sièges de Thessalonique**, 167-215.

بالنسبة للحصار الأول لمدينة سالونيكا من قبل السلاف والآفار تذكر المصادر فقط أنه حدث يوم الأحد ٢٢ سبتمبر فى عهد الامبراطور موريس ، أنظر :

Miracula Sancti Demetri, PG, Col. 1288.

وعلى هذا فان السنة التى حدث فيها هذا الحصار لابد وأن تكون اما سـنة ٥٨٦م أو سنة ٥٩٧م ، ففى هاتين السنتين فقط خلال عهد الامبراطور

وجدير بالذكر أن السلاف على خلاف الآفار لم يجيئوا للسلب والنهب فقط ، لقد جاءوا ليستقروا فى الممتلكات البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان. فقد كتب يوحنا الافسوسى John of Ephesus الذى عاصر تلك الأحداث قائلا :

– « لايزال السلاف يعسكرون ويقطنون اقاليم الامبراطورية فى البلقان حيث يعيشون هناك فى سلام بعيدا عن القلق والخوف »[٦] .

أدركت الحكومة البيزنطية خطورة الموقف فى البلقان ، فما أن انتهى الامبراطور موريس من الحرب الفارسية حتى بدأ هجوما مضادا ضد الآفار سنة ٥٩١م . وكان للعمليات العسكرية التى وجهها الامبراطور ضد الآفار أثر كبير فى وقف غارات الآفار المتكررة على القسم الأوربى من الامبراطورية فى البلقان . ويبدو أن الآفار أخذوا ابتداء من ذلك الوقت يتطلعون للغرب ، وقاموا بالفعل بتحويل اغاراتهم فى اتجاه الغرب وراء حدود الاقاليم البيزنطية. أن اتفاقية السلام التى عقدتها بيزنطة معهم حوالى سنة ٦٠١م حددت نهر الدانوب كحد فاصل بين القوتين ، الا أن هذه الاتفاقية تركت الباب مفتوحا أمام الادارة العسكرية البيزنطية لعبور النهر شمالا لمطاردة أية جماعة من جماعات السلاف تهدد المصالح البيزنطية[٧] . ومن غير المعروف على وجه الدقة أثر العمليات العسكرية البيزنطية التى وجهها الامبراطور موريس ابتداء من سنة ٥٩١ على السلاف . فليس هناك مايشير الى أن السلاف الذين غزوا البلقان قد عادوا الى مواطنهم شمال نهر الدانوب .

= موريس كان يوم ٢٢ سبتمبر يوافق يوم أحد . واذا أخذنا فى الاعتبار الاماكن التى تواجد فيها الآفار سنة ٥٩٧م ، فسيتضح لنا أن الآفار كانوا بعيدين عن سالونيكا ولم يحاصروها . وعلى هذا فان سنة ٥٨٦ هى فى الغالب السنة التى وقع فيها الحصار الأول لمدينة سالونيكا . أنظر :

Charanis, **Capture of Corinth**, 347; Barisic, **Miracles de St. Démé-trius**, 60-64.

6) **John of Ephesus (Smith)**, 432.

7) Hauptmann, **Les Slaves et les Avares**, 168-169.

ومن المرجح أن استقرار السلاف فى شبه جزيرة البلقان قد حدث فى مطلع القرن السابع الميلادى خلال العهد المضطرب للامبراطور فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠) والسنوات الأولى من عهد الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١) بالنسبة لعهد الامبراطور فوقاس لا تشير المصادر بشكل واضح الى أية اغارات من قبل الآفار والسلاف على الممتلكات البيزنطية فى البلقان باستثناء تلك الاشارة التى وردت فى حولية ثيوفانس Thheophanes نقلا عن حولية ثيوفيلاكت سيموكاتا Theophylact Simocatta [٨] .

ففى تلك الاشارة يتضح أن الآفار هاجموا الأقاليم البيزنطية مرة أخرى . أما بالنسبة لعهد الامبراطور هرقل فتشير المصادر الى اغارات السلاف بشكل أكثر تفصيلا وان كان التسلسل التاريخى مضطربا فى كثير من الأحيان . ويتضح من هذه المصادر أن السلاف قد توغلوا حتى وصلوا الى البحر الايجى . أكثر من هذا تشير المصادر الى قيام السلاف ببناء السفن والاغارة على سواحل تسالى Thessaly والجزر المحيطة بها [٩] . والمرجح أن هذه الأحداث وقعت حوالى سنة ٦١٤م [١٠] . وفى العام التالى أغار السلاف على الاقليم المحيط بمدينة سالونيكا ثم حاصروا هذه المدينة . ولكن المدينة صمدت للحصار مما دفع السلاف الى طلب العون من خان الآفار ، وحين جاء الآفار بعد ذلك بعامين تأكد للجميع صعوبة الاستيلاء على سالونيكا لمناعتها وبسالة أهلها .

ويعتقد بعض المؤرخين المحدثين أن السلاف الذين أغاروا على مدينة سالونيكا أكثر من مرة جاءوا من مناطق استيطانهم الجديدة فى البلقان وبالتحديد فى مقدونيا والاقليم المحيط بسالونيكا ، وانهم استقروا

---

8) **Theophanes, I, 290; Theophylactus Simocatta, 308.**

(٩) كذلك أغار السلاف على الاقليم الآخى Achaca ، وعلى ابيروس ، والليريا . أنظر :

Miracula Sancti Demetri, PG, Cols. 1325 ff.
Tougard, **L'histoire Profane,** 118-126.

10) Barisic, **Miracles de St. Démétrius,** 149.

فى هذه الأقاليم فى الفترة الممتدة بين نهاية عهد الامبراطور موريس والسنوات الأولى لعهد الامبراطور هرقل(١١) •

استقرت العناصر السلافية بأعداد كبيرة فى مناطق متعددة من شبه جزيرة البلقان وامتدت مناطق استيطانهم عبر اليونان جنوبا الى البلوبونيز لدرجة أن المناطق التى ظلت تحت الادارة المباشرة للامبراطورية كانت قليلة واقتصرت على : تراقيا ، مدينة سالونيكا ، أتيكا Attica شرق البلوبونيز ، جزر البحر الايجى ، بعض المراكز القليلة على ساحل البحر الادرياتى وجزر البحر الأيونى(١٢) • والمرجح أن استقرار السلاف باعداد كبيرة فى الأقاليم البيزنطية بالبلقان لم يؤد الى القضاء على السكان البيزنطيين الأصليين(١٣) •

كانت العمليات العسكرية التى وجهها الامبراطور موريس ضد الآفار والسلاف فى البلقان ناجحة ولكنها توقفت بسبب تمرد الجيش وثورته على الامبراطور ، وتبع ذلك اعتلاء الامبراطور فوقاس للعرش وبداية فترة اضطراب فى الداخل والخارج • ولا شك أن السلاف استغلوا هذه الفترة المضطربة وأخذوا يستقرون باعداد ضخمة وعلى نطاق واسع فى الأقاليم البيزنطية بالبلقان وبدت الادارة الامبراطورية عاجزة وغير قادرة على تحديد وجهتها • وحين اعتلى هرقل العرش ، كانت الامبراطورية منهكة مضطربة الأحوال ، وكانت المشكلة الرئيسية هى كيفية التصدى لخطر الفرس الذين استولوا على معظم أقاليم

---

11) Charanis, **Ethnic Changes**, 38.

12) Charanis, **Demography**, 455; Charanis, **Observations**, 15-16.

13) Charanis, **Ethnic Changes**, 41.

ويرجح بعض المؤرخين حدوث امتزاج سريع بين السلاف والسكان الأصليين ، ويستندون فى هذا الى وجود أسماء سلافية لبعض الأماكن فى أقاليم اليونان . للمزيد عن هذا الموضوع انظر :

Vasmer, **Die Slaven**, 11-19.

الامبراطورية الشرقية • ووجد هرقل نفسه مضطرا لخوض صراع طويل ومرير ضد الامبراطورية الفارسية • وما أن حقق الامبراطور النصر فى النهاية حتى ظهر خطر جديد من الشرق أيضا متمثلا فى العرب المسلمين •

وهكذا لم تكن الادارة البيزنطية منذ مطلع القرن السابع الميلادى فى موقف يسمح لها بالاهتمام بالبلقان • وفى النصف الثانى من القرن السابع كان الوقت قد تأخر لانقاذ شبه جزيرة البلقان من التغلغل السلافى • وكانت الحكومة البيزنطية تأمل فى نشر الحضارة البيزنطية بين العناصر السلافية المستقرة فى البلقان لتتصهر فى البوتقة البيزنطية [١٤] ولكن الحضارة البيزنطية لم تنتشر بسرعة بين السلاف فى البلقان وطوال الفترة الممتدة من مطلع القرن السابع وحتى أوائل القرن الحادى عشر ، احتفظ العديد من السلاف بهويتهم اللغوية [١٥] • والمعروف أن السلاف المستقرين فى البلقان كانوا عبارة عن عناصر بشرية غير منظمة تفتقر الى الوحدة والتنظيم السياسى ولم يكن لها مطامع سياسية • كذلك كان السلاف شعبا زراعيا مجتهدا عمل على تعمير الأرض التى استقر فيها • وفى ظل هذه الخصائص التى ميزت السلاف ، حرصت الادارة البيزنطية على ترويضهم واغرائهم لاعتناق الديانة المسيحية الأرثوذكسية بهدف استيعابهم فى الكيان الامبراطورى ولكن الجهود البيزنطية لم تحقق دائما النجاح السريع • ولعل السبب فى ذلك يرجع الى قيام البلغار بغزو شبه جزيرة البلقان [١٦] •

---

14) Bon, **Le Péloponnèse**, 27-70.

15) Doelger, **Einsiedlung**, 1-28; Geogracas, **Slavic Groups**, 301-333.

(١٦) البلغار عناصر تركية استقرت فى البداية فى المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود وبحر قزوين ، وهناك خضعوا لسلطان الآفار الذين فرضوا سيادتهم على معظم العناصر المتبربرة المستقرة شمال البحر الاسود ، وذلك أثناء تقدمهم غربا تجاه الامبراطورية فى القرن السادس الميلادى • والمعروف أن سلطان الآفار فى البلقان بدأ مرحلة ضعف واضمحلال بعد فشل حصار =

قام البلغار حوالي سـنة ٦٧٠م بعبور نهر الدانوب الى الاقليم الشمالى الشرقى من شبه جزيرة البلقان • وأدى ظهور البلغار بخصائصهم الحضارية الى اضعاف جهود الحكومة البيزنطية لاستيعاب العناصر السلافية فى الكيان الامبراطورى • ولو اقتصر الأمر على السلاف فقط لتغيرت الصورة وربما استطاعت الامبراطورية احتواء كل العناصر السلافية المستقرة فى البلقان بسرعة •

لقد كان فى امكان الامبراطورية البيزنطية من الناحية النظرية أن تدعى السيادة على العديد من الجماعات السلافية المستقرة فى البلقان بما فيهم قبائل الصرب فى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة(١٧) • ولكن هذه السـيادة فى الواقع كانت محدودة فى المناطق التى كانت السلطة الامبراطورية المركزية ملموسة • ويجب ألا ننسى أن هجمات البلغار على الأقاليم البيزنطية فى البلقان عملت على اضعاف هذه السلطة الامبراطورية • ويمكن القول أن البلغار الذين طوروا نظامهم السياسى والعسكرى منذ فترة طويلة قبل عبور نهر الدانوب قد استطاعوا بمرور الوقت أن يحققوا ما لم يحققه أى غزاة رحل لشبه جزيرة البلقان من قبل • لقد استطاعوا تحقيق كيان حضارى مستقل قادر على أن يكون — فى نظر الجماعات السلافية المستقرة فى البلقان — البديل للامبراطورية

=

القسطنطينية سنة ٦٢٦ . وهنا ثار البلغار ضـد الآفار وأيدت الادارة البيزنطية البلغار فى صراعهم ضد الآفار فى أواخر عهد الامبراطور هرقل . وبسبب ضغط الخزر Khazars اضطر البلغار الى الهجرة غربا حتى وصلوا فى سنة ٦٧٠ الى دلتا نهر الدانوب . وهناك أخذ البلغار يتطلعون لعبور نهر الدانوب . للمزيد عن البلغار وأصلهم انظر :

Moravcsik, Byzantionturicica, I, 108-119.

وانظر أيضا :

وسام : **دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية** (الاسكندرية ١٩٨٢) جـ١ ص١٦٧ — ١٦٨ .

بالنسبة لأسباب فشل حصار الآفار للقسطنطينية سنة ٦٢٦ ، أنظر :

Barisic, Siège de Constantinople, 371-395.

17) Ostrogorsky, **Staatenhierarchie**, 41-61.

البيزنطية[١٨] • حقيقة لم تنم العلاقات بسرعة بين السلاف والبلغار ، ولكن ما أن نمت وتقدمت حتى ازدادت المصاعب فى وجه الادارة الامبراطورية من أجل احتواء العناصر السلافية داخل الكيان الامبراطورى •

لم ترحب الادارة البيزنطية بعبور البلغار لنهر الدانوب • فسياسة بيزنطة التقليدية تجاه البرابرة القاطنين المناطق الواقعة شمال نهر الدانوب هى الترحيب بصداقتهم واتخاذهم حلفاء • ولكن الحكومة البيزنطية عارضت دائما وتصدت لأية محاولة من جانبهم لعبور الدانوب • ولهذا قام الامبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥) بحملة عسكرية قادها بنفسه ضد البلغار ، الا أن الحملة منيت بالفشل وانتصر البلغار • ولم تكن الامبراطورية البيزنطية فى موقف يسمح لها باستئناف القتال ، فقد أدى مرض الامبراطور الى انهيار الروح المعنوية للجيش في أشد الأوقات حرجا • لقد جاء البلغار ليستقروا أيضا فى شبه جزيرة البلقان • واضطر الامبراطور قسطنطين الرابع الى عقد اتفاقية سلام مع خان البلغار أسباروخ Asbaruch سنة ٦٨١ • واعترف الامبراطور فى هذه الاتفاقية بوجود دولة بلغارية مستقلة فى البلقان [١٩] • ولم يتضح حجم الكارثة التى وقعت فى البداية ، لأن المنطقة التى استقر فيها البلغار كانت قد ضاعت من قبل حين استقرت فيها العناصر السلافية • ولكن مع حلول القرن الثامن الميلادي أصبحت بلغاريا خطرا كبيرا على الامبراطورية •

---

(١٨) لقد كان البلغار أمة ذات حضارة تركت آثارا ونقوشا • واذا كانت هذه الآثار والنقوش لاتزال موضع نقاش وبحث المؤرخين ، فلا شك ان هذه الآثار تعطى للبلغار جذور حضارية لم يتمتع بها غيرهم من الأقوام التى غزت شبه جزيرة البلقان . فالبلغار على خلاف الهون والآفار لم يقيموا دولة اليوم لتنهار بعد قليل . للمزيد عن آثار ونقوش البلغار أنظر :

Besevliev, **Inschriften**, 89-92.

للمزيد عن الهون والآفار أنظر :

Moravcsik, **Byzantinoturica**, I, 57-65; 70-76.

19) **Theophanes**, I, 356-359; **Nicephorus**, 35.

إذا نظرنا الى خريطة للممتلكات البيزنطية فى القسم الأوربى من الامبراطورية سنة ٦٨١ — باستثناء ايطاليا وصقلية — ستتضح حقيقة هامة ، وهى الاختلاف الكبير بين ما تدعى الامبراطورية البيزنطية ملكيته وبن ماتمتلكه بالفعل [٢٠] • ففى ذلك الوقت كان للبلغار دولة مستقلة فى شمال شرق البلقان ، كما أن الصرب Serbs والكروات Croats كانت لهم أيضا دويلات شبه مستقلة فى الجزء الشمالى الغربى من البلقان وفى ذلك الوقت أيضا كان أسوأ ما فى هجرة الصلاف جنوبا قد انتهى وانقشع الغبار عن البلقان ، وأصبح الصلاف حقيقة فى كل مكان [٢١] • ويلاحظ أنه وسط هذه التجمعات الصلافية وجدت أيضا تجمعات بيزنطية واستطاعت الصمود [٢٢] • ومن المرجح أن هذه المجتمعات البيزنطية فى البلقان كانت أكثر عددا فى اتجاه الجنوب ، وفى القسم الشرقى من البلوبونيز وفى جزر البحر الايجى • وكانت هذه المجتمعات البيزنطية كافية لتأكيد ادعاءات السيادة الامبراطورية هناك [٢٣] • كذلك كانت

---

20) Ostrogorsky, **World Order, 1-14.**

21) Vasmer, **Die Slaven, 20-173;** Charanis, **Slavonic Settlements, 254-258.**

22) Charanis, **Monemvasia, 141-161.**

(٢٣) كانت السلطة والادارة الامبراطورية موجودة بشكل أو باخر فى النصف الثانى للقرن السابع فى بعض اقاليم اليونان • فالمعروف ان الحكومة البيزنطية أنشأت ثيم هلاس Hellas بين عامى ٦٨٧ و ٦٩٥ • وكان هذا الثيم يضم أقاليم فى شرق ووسط اليونان مثل أقليم اتيكا Attica واقليم تسالى Thessaly أنظر :

Charanis, **Hellas, 173-174.**

كذلك كانت السلطة والادارة البيزنطية موجودة بشكل أو باخر فى القرن الثامن فى بعض مناطق شرق البلوبونيز ، بدليل اشارة المصادر البيزنطية لقيام الامبراطور قسطنطين الخامس فى سنة ٧٥٥ بتهجير عائلات بأكملها من جزر البحر الايجى ، ومن هلاس ، والبلوبونيز Peloponnesus الى مدينة القسطنطينية لتعميرها بعد أن فقدت عددا كبيرا من السكان خلال طاعون سنة ٧٤٦ / ٧٤٧م • أنظر :

الامبراطورية البيزنطية تسيطر على عدد من المدن والمراكز الحصينة مثل سالونيكا ، وكورنثا ومونمفازيا Monemvasia وباتراس Patras وكان الأسطول البيزنطي بعد انسحاب العرب المسلمين من أمام القسطنطينية ورفعهم الحصار البحري سنة ٦٧٨ ، قد استرد سيطرته على البحر الايجي •

حقيقة ان الغزو السلافى للبلقان قد دفع بعض السكان الأصليين الى الهجرة (٢٤) ، ولكن نسبة كبيرة من السكان صمدت • وبفضل هذه النسبة الطيبة من السكان البيزنطيين التي علونت الإدارة البيزنطية كان مركز بيزنطة يتحسن تدريجيا فى البلقان • ولاشك أن المدينة البيزنطية الهامة فى شبه جزيرة البلقان ، التى انطلقت منها جهود الادارة الامبراطورية من أجل استرداد السيادة على البلقان كانت مدينة سالونيكا (٢٥) ، على الرغم من أن معظم الأقاليم المحيط بالمدينة كانت تقطنه أعداد كبيرة من السلاف (٢٦) • وكان بقاء مدينة سالونيكا فى يد

Theophanes, I, 429.

على أية حال ، تم تأسيس ثيم مستقل فى البلوبونيز بعد ذلك • والمرجح أن ثيم البلوبونيز قد تأسس قبل سنة ٨٠٥م ، ففى هذا العام كان الثيم موجودا بالفعل بل وتعاقب على ادارته عدد من القادة العسكريين Strategoi للمزيد عن ثيمى هلاس والبلوبونيز ، أنظر :

De Thematibus, 170-173; Charanis, Observations, 4-11; Oikonomidès, Préséance, 350, 351.

(٢٤) ادى غزو السلاف لشبه جزيرة البلقان وتوغلهم جنوبا حتى البلوبونيز الى هجرة العديد من السكان البيزنطيين الأصليين من أقاليم اليونان والبلوبونيز فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا • أنظر :

Charanis, Helenization, 74-87, Charanis, Slavonic Settlements, 255.

(25) Charanis, Ethnic Changes, 41.

26) Charanis, Ethnic Changes, 38 ; Tapkova-Zaimova, La Colonisation, 113-115.

الادارة البيزنطية هاما للغاية فبدون هذه المدينة ، ذات الموقع الجغرافى الهام ، تصبح كل مشاريع الحكومة البيزنطية من أجل استرداد سيطرتها على اليونان والبلوبونيز صعبة التحقيق ان لم تكن مستحيلة . لقد كان فى امكان المراكز الحصينة مثل باتراس Patras ، ومونمفازيا Monemvasia فى شبه جزيرة البلوبونيز الصمود لهجمات السلاف رغم بعد وانعزال موقعهما . ولكن بدون مدينة سالونيكا كحلقة وصل ومركز امداد كان مصيرهما محتوما .

ولقد أدرك اعداء الابراطورية فى البلقان الأهمية الاستراتيجية لمدينة سالونيكا فحاول السلاف والآفار الاستيلاء عليها أكثر من مرة فى سنة ٥٨٦ وحوالى سنة ٦١٧[٣٧] . وتكررت محاولات السلاف ضد سالونيكا فى النصف الثانى من القرن السابع وفى القرن الثامن الميلادى بالتحالف مع البلغار[٣٨] .

وكان على الادارة البيزنطية التدخل فى البلقان من أجل انقاذ سالونيكا . ولقد جاء الوقت المناسب فى سنة ٦٥٧ / ٦٥٨ حين انتهز الامبراطور قنسطانز الثانى Constans II (٦٤١ — ٦٦٨) فرصة انشغال المسلمين بمشاكلهم الداخلية وقام بحملة ناجحة ضد السلاف فى شبه جزيرة البلقان[٣٩] . وكانت هذه الحملة هى أول هجوم عسكرى

---

(٣٧) انظر حاشية رقم (٥) فيما سبق ، وانظر ايضا :

Charanis, **Ethnic Changes**, 37-38.

(٣٨) عن نشاط البلغار فى المنطقة المحيطة بسالونيكا ومحاولات الاستيلاء على المدينة ، انظر :

Charanis, **Thessalonica**, 229-247; Angelov, **Formation**, 54; Besevliev, **Inschriften**, 110-111.

(٣٩) عن حملة الامبراطور قنسطانز الثانى ضد السلاف ، انظر :

Theophanes, I, 347-348.

بيزنطى ضد السلاف منذ عهد الامبراطور موريس [٣٠] • وفى هذه الحملة هاجم الامبراطور السلاف الذين استقروا فى اقليم مقدونيا وأولئك الذين استقروا فى الاقليم المحيط بمدينة سالونيكا • ولم يقم الامبراطور بطرد هؤلاء السلاف ولكنه أخضعهم للسيادة[٣١] • كذلك قام الامبراطور بتهجير اعداد كبيرة من هؤلاء السلاف الى آسيا الصغرى • ومنذ ذلك الوقت استقر السلاف أيضا فى بعض أقاليم آسيا الصغرى وتم تجنيد أعداد منهم فى الجيش البيزنطى[٣٢] • وكان السلاف المستقرين فى الاقليم المحيط بسالونيكا لايزالوا محتفظين بخصائصهم ولم ينعزلوا عن بقية القبائل السلافية التى استقرت فى مناطق أخرى من البلقان[٣٣] •

ان الحملة التى قام بها الامبراطور قنسطانز الثانى كانت تمثل الحد الأدنى من اهتمام الحكومة البيزنطية الضرورى لمواجهة تفاقم مشكلة السلاف • وتمت هذه الحملة بنجاح وبدون نفقات باهظة • وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الحملة تأمين مدينة سالونيكا من خطر السقوط السريع فى يد السلاف وذلك باخضاع العناصر السلافية المستقرة فى الاقليم المحيط بالمدينة وفرض الجزية عليها[٣٤] •

كانت حملة الامبراطور قنسطانز الثانى نموذجا اتبعته الادارة الامبراطورية كلما دعت الحاجة وتوفرت الظروف المناسبة • وفى سنة ٦٨٨ / ٦٨٩ عقد الامبراطور جستنيان الثانى (٦٨٥ — ٦٩٥ / ٧٠٥ — ٧١١) هدنة مع المسلمين فى الشرق ، فتوفرت الظروف المناسبة للاهتمام

---

30) Ostrogorsky, State, 105.

31) Ostrogorsky, State, 105.

32) **Theophanes, I, 348.**

(٣٣) للمزيد عن علاقات السلاف المستقرين فى اقليم سالونيكا بغيرهم من القبائل السلافية التى كانت لاتزال فى رحلة الارتحال ، انظر :

Tapkova-Zaimova, Colonisation, 111-123.

34) **Theophanes, I, 347.**

بالبلقان[٣٥] . وفى هذا العام قاد الامبراطور حملة كبيرة ناجحة الى البلقان وتوغل عبر أقاليم استقرت فيها قبائل سلافية حتى وصل الى مدينة سالونيكا.وأدى هذا بالطبع الى تدعيم مركز الامبراطورية فى الاقليم المحيط بسالونيكا واجبر القبائل السلافية على الخضوع للسيادة البيزنطية[٣٦] . ولم تقتصر النتائج على توطيد مركز سالونيكا كقاعدة هامة للادارة البيزنطية ، بل أكثر من هذا أدى اخضاع السلاف الى تأكيد السلطة المركزية البيزنطية على اقليم ستريمون Strymon الذى يقع شمال سالونيكا ، وبهذا تم وصل مدينة سالونيكا باقليم تراقيا[٣٧] . كذلك قام الامبراطور بتهجير اعداد كبيرة من السلاف الى آسيا الصغرى، وبالتحديد الى اقليم بيثينيا Bithynia وثيم الاوبسيق Opsikion لتعويض النقص فى سكان بيثينيا ولزيادة القوى العسكرية لثيم الاوبسيق[٣٨] .

---

(٣٥) وسام : **العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى** (الاسكندرية ١٩٨١) ص٤٢ ، ص٩٤ — ٩٥ .

36) **Theophanes**, I, 364.

وجدير بالذكر أن الامبراطور جستنيان الثانى أصدر فى نفس العام ٦٨٨/٦٨٩م مرسوما منح فيه كنيسة القديس ديمترى فى سالونيكا بعض الامتيازات تعبيرا عن شكره للقديس ديمترى الذى بفضله انتصر الامبراطور على السلاف كما تروى الأسطورة . وفى هذا المرسوم ورد ذكر زيارة الامبراطور لمدينة سالونيكا ، انظر :

Grégoire, **Justinien II**, 119-134; Ostrogorsky, **State**, 117 n.1.

(٣٧) تحول اقليم تراقيا **Thrace** الى ثيم فى الفترة الواقعة بين عامى سنة ٦٨٠ وسنة ٦٨٧م ، ربما كرد فعل لعبور البلغار نهر الدانوب واستقرارهم فى شمال شرق البلقان . والمرجح أن اقليم ستريمون Strymon كان يتبع الادارة العسكرية لهذا الثيم . انظر عن ثيم تراقيا :

De Thematibus, 156-159; Oikonomidès, **Préséance**, 349-355.

وانظر ايضا :

Charanis, **Demography**, 458; Ostrogorsky, **State**, 119; Browning, **Bulgaria**, 47.

38) Ostrogorsky, **State**, 117.

ان أبعاد حملة جستنيان الثانى سنة ٦٨٨ / ٦٨٩ تتضح أكثر عند فحص موقف الامبراطورية البيزنطية تجاه كل من السلاف والبلغار • ان طبيعة هذه العلاقة الثلاثية تفسر سياسة الحكومة البيزنطية بالنسبة للاقليم المحيط بمدينة سالونيكا بل وبالنسبة للممتلكات البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان[٣٩] • لقد سمح الامبراطور جستنيان الثانى مثل سلفه قنسطانز الثانى ببقاء المجتمعات السلافية داخل حدود الامبراطورية فى البلقان بشرط الخضوع للسيادة الامبراطورية • كان هدف الادارة الامبراطورية أن تقوم هذه العناصر الجديدة بزراعة الأرض التى هجرها أصحابها تحت وطأة الغزو الخارجى وأن تتقبل الحضارة البيزنطية • فاذا ماتقبلت هذه العناصر المسيحية الأرثوذكسية واللغة اليونانية وانخرطت فى جند الثيمات للدفاع عنها ، تكون الادارة الامبراطورية قد عوضت النقص الواضح فى السكان البيزنطيين فى البلقان واكتسبت دماء جديدة وعناصر منتجة •

ان حملة جستنيان الثانى كانت أكثر اهتماما بالخطر البلغارى الجاثم فى شمال شرق البلقان والذى يتهدد الممتلكات البيزنطية[٤٠] • ان وجود دولة بلغارية مستقلة فى شمال شبه جزيرة البلقان كان مكروها واضطرت الحكومة البيزنطية الى التسامح فيه ، ولكن بيزنطة ما كانت لتسمح بوقوع سالونيكا أو تراقيا أو شرق مقدونيا تحت سيطرة البلغار • وجدير بالذكر أن كثافة السكان البيزنطيين الأصليين كانت قليلة فى مقدونيا والاقليم المحيط بمدينة سالونيكا ، لهذا سمحت الحكومة البيزنطية ببقاء السلاف ولم تحاول طردهم حتى لاتعمل على خلق منطقة فراغ تغرى البلغار باحتلالها • وهكذا يمكن القول أن حملة جستنيان الثانى عملت على طرد البلغار بعيدا عن تراقيا وشرق مقدونيا واقليم

---

39) Angelov, Formation 49-64.

(٤٠) أشار ثيوفانيس الى ان حملة جستنيان الثانى كانت ضد السلاف والبلغار أيضا ، أنظر :
Theophanes, I, 364; Charanis, Observations, 11-12.

سالونيكا • كما عملت أيضا على اخضاع السلاف وتهجير اعـداد كبيرة منهم الى آسيا الصغرى لتعمير بعض المناطق فيها • وبالنسبة للسلاف الذين خضعوا للسيادة البيزنطية ، حرصت الادارة الامبراطورية على الحيلولةدون اتحاد أو حتى اتصال هذه العناصر السلافية بالبلغار •وفي هذا المجال حددت الحكومة البيزنطية جملة قواعد للحيلولة دون اتصـال السلاف بالبلغار ولضمان خضوع العناصر السلافية للسيادة البيزنطية(٤١)

ويبدو أن هذه السياسة البيزنطية قد حققت بعض النجاح • ولكن استمرار نجاح السياسة كان يعتمد على قوة الامبراطورية العسـكرية واهتمامها بممتلكاتها في البلقان • ولم تكن الامبراطورية البيزنطية قادرة دائما على توفير القوة لتأكيد ارادتها وردع أعدائها في القسم الأوربي من ممتلكاتها • وخلال انشغال الادارة البيزنطية بالصراع ضد العـرب المسلمين فى آسيا الصغرى ، أو أثناء الانشغال بالمشاكل الداخلية ، كان البلغار ينتهزون الفرصة لتهديد المصالح البيزنطية سواء بالاعتداء على أقاليم تراقيا ومقدونيا أو باثارة القلاقل بين العناصر السلافية المستقرة في الأقاليم البيزنطية والعمل على كسب ود هؤلاء السلاف(٤٢) •لقد أدرك البلغار أن الاتحاد مع العناصر السلافية المستقرة فى بلغاريا ، وتلك المستقرة في الأقاليم البيزنطية ضرورى من أجل اقامة دولة بلغارية قوية في البلقان •

ولم تكن العلاقات بين البلغار والامبراطورية البيزنطية سيئة دائما • فأحيانا كانت المصالح البيزنطية تلتقى مع المصالح البلغارية كما حـدث سنة ٧٠٥ حين تحالف خان البلغار ترفل Tervel (٧٠١ — ٧١٨) مع الامبراطور المعزول جسـتنيان الثانى وساعده على اسـترداد

---

41) Angelov, **Formation**, 55.

(٤٢) من أمثلة تمرد السلاف ضد السيادة البيزنطية ذلك التمرد الذى حـدث ضـد الادارة البيزنطية فى عهـد الامبراطور تيبريوس الثانى Tiberius II (٦٩٨ — ٧٠٥م) ومن المحتمـل أن بلغـاريا هى التى حرضت السلاف على التمرد . أنظر :

Michel Le Syrien, II, 473.

عرشه[٤٣] • ولكن المطامع البلغارية كانت واضحة ، وكانت الحكومة البيزنطية حريصة طوال القرن الثامن الميلادى بالدبلوماسية وعن طريق بناء حلقة من التحصينات القوية على طول حدودها الشمالية الحيلولة دون توغل البلغار الى تراقيا أو فى عمق مقدونيا •

ولكن فى منتصف القرن الثامن الميلادى أخذ الخطر البلغارى بعدا خطيرا واحتاج الأمر الى قوة بيزنطة العسكرية • فلقد نظر البلغار الى التحصينات البيزنطية على حدودهم كخطر يتهددهم ، ولم يكتفو باثارة السلاف القاطنين فى مقدونيا بل أغاروا على الممتلكات البيزنطية فى تراقيا سنة ٧٥٦[٤٤] • وأدرك الامبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥)، الذى كان قد حقق نوعا من الاستقرار فى الجبهة الشرقية ، ضرورة التدخل العسكرى فى البلقان • ففى سنة ٧٥٨م شن الامبراطور حملة سريعة حاسمة ضد المناطق التى استقر فيها السلاف فى مقدونيا ، واخضع هذا الاقليم للادارة البيزنطية[٤٥] • وأدت هذه الحملة أيضا الى عزل السلاف فى مقدونيا عن النفوذ البلغارى فى الشمال • وما أن انجز الامبراطور هذه المهمة حتى التفت الى مصدر الخطر الحقيقى المتمثل فى دولة بلغاريا • وقام الامبراطور بحوالى تسع حملات عسكرية ضد بلغاريا، واتبع فى معظمها تكتيك الهجوم المزدوج ليصبح هذا التكتيك تقليدا

---

(٤٣) بعد أن نجح جستنيان الثانى فى استرداد عرشه سنة ٧٠٥م ، عامل خان البلغار بكرم وحفاوة ومنحه لقب قيصر الذى كان يلى فى المكانة لقب امبراطور الا أنه فقد فى ذلك الوقت أهميته الأولى . وكانت هذه هى المرة الأولى التى تمنح فيها بيزنطة هذا اللقب لحاكم أجنبى . ومن المرجح أن خان البلغار ترفل أعتنق المسيحية أثناء اقامته بالعاصمة البيزنطية ، ولكن بلغاريا ظلت دولة وثنية . وكذلك قام الامبراطور جستنيان الثانى بمنح خان البلغار اقليم زاجوريا Zagoria الذى يرجح أنه يقع بين جبال البلقان وخليج بورجاس Burgas أنظر :
Browning, **Bulgaria**, 48; Besevliev, **Inschriften**, 58.

44) Ostrogorsky, **State**, 149.

45) **Theophanes**, I, 430.

عسكريا فى قتال البلغار بعد ذلك ، والحق الهزيمة تلو الهزيمة بالبلغار[٤٦] •
ورغم التفوق العسكرى البيزنطى وموهبة قسطنطين الخامس العسكرية وكفاءته السياسية لم يتمكن الامبراطور من القضاء نهائيا على البلغار • وطوال ثلاثة عشر عاما بدءا من سنة ٧٦٢ استمرت العمليات العسكرية بشكل غير متصل حتى نهاية حياة الامبراطور الذى توفى خلال حملته الأخيرة ضد البلغار فى ١٤ سبتمبر سنة ٧٧٥ دون أن يتم التوصل الى حل نهائى لمشكلة البلغار[٤٧] • واذا كانت حملات قسطنطين الخامس لم تقض على بلغاريا الا أنها استنفذت قوتها العسكرية وعطلت نموها لبعض الوقت • ونتج عن هذا تأمين مقدونيا وضمان عدم تدخل البلغار هناك لسنوات قادمة[٤٨] •

كذلك تم تدعيم مركز سالونيكا كقاعدة هامة للنفوذ البيزنطى • ويمكن القول أن النفوذ البيزنطى على السلاف المستقرين فى الأقاليم البيزنطية بالبلقان قد نمى بوضوح بفضل جهود قسطنطين الخامس • وبدا وكأن بيزنطة تسير قدما فى سبيل استرداد سيادتها على شبه جزيرة البلقان ، ولكن المستقبل كان ينذر بمزيد من الخطر •

---

(٤٦) يتلخص تكتيك الهجوم المزدوج الذى اتبعه قسطنطين الخامس فى حملته الأولى ضد البلغار سنة ٧٦٣ فى قيام الامبراطور بارسال فرق الفرسان بحرا الى مصب نهر الدانوب لتتقدم بعد ذلك من مصب نهر الدانوب جنوبا تجاه بلغاريا ، بينما يتقدم الإمبراطور بنفسه على رأس فرق المشاة برا عبر اقليم تراقيا وعلى طول ساحل البحر الأسود شمالا ، وبهذا يتحقق الهجوم على البلغار من الشمال والجنوب • انظر :
Theophanes, I, 434-435; Nicephorus, 67; Ostrogorsky, **State**, 150.
47) Ostrogorsky, **State**, 151.
48) Besevliev, **Konstantine** V, 5-17.
وجدير بالذكر أن حولية البطريرك نقفور تشير الى هجرة أعداد كبيرة من السلاف من منطقة الحدود البيزنطية البلغارية تجاه اقليم تراقيا ، وقيام الامبراطور قسطنطين الخامس بتوطينهم فى اقليم بيثينيا فى آسيا الصغرى • انظر :
Nicephorus, 68-69.

واذا كانت وفاة الامبراطور قسطنطين الخامس سنة ٧٧٥ قد وضعت نهاية مؤقتة للصراع ضد بلغاريا ، الا أنها لم تضع نهاية للجهود البيزنطية من أجل تأكيد السلطة الامبراطورية في مقدونيا واليونان والبلوبونيز • لقد استفادت الامبراطورية من الهدوء النسبى الذى ساد العلاقات البيزنطية البلغارية ، وقامت الحكومة البيزنطية فى أوائل عهد أيرين Irene كوصية على ابنها قسطنطين السادس (٧٨٠ — ٧٩٧) — بارسال حملة عسكرية بقيادة ستاوراكيوس Stauracius سنة ٧٨٣م الى الاقليم المحيط بمدينة سالونيكا • وبعد أن اخضع السلاف القاطنين هناك مرة أخرى ، تقدم الجيش البيزنطى جنوباً الى وسط اليونان وشبه جزيرة البلوبونيز [٤٩] • وهناك أخضع القائد البيزنطى القبائل السلافية للحكم البيزنطى وفرض عليها دفع الجزية[٥٠] وهكذا عادت السيادة البيزنطية على أقاليم اليونان والبلوبونيز •

ويلاحظ أنه طوال قرن وربع من الزمان (٦٥٨ — ٧٨٣) كانت سالونيكا وبالتحديد الاقليم المحيط بهذه المدينة هدفا لأربع حملات عسكرية بيزنطية : حملة قنسطانز الثانى سنة ٦٥٧ / ٦٥٨ ، وحملة جستنيان الثانى سنة ٦٨٨ / ٦٨٩ ، وحملة قسطنطين الخامس سنة ٧٥٨ ، ثم أخيرا حملة ستاوراكيوس فى عهد وصاية أيرين سنة ٧٨٣ • والسؤال الذى يفرض نفسه هنا : لماذا استلزم الأمر كل هذا الجهد العسكرى ؟ وهل كانت الادارة البيزنطية غير مسيطرة تماما على الموقف فى الأقاليم المحيطة بمدينة سالونيكا لفترة طويلة ؟ ان الاجابة على هذا السؤال تتضح فى سياسة التهجير التى قام بها الامبراطور نقفور الأول (٨٠٢ — ٨١١) • ففى سنة ٨١٠ قام نقفور الأول بتهجير أعداد كبيرة من السكان البيزنطيين من ثيمات آسيا الصغرى الى المناطق التى استقر

49) Theophanes, I, 456.

50) Theophanes, I, 457.

فيها السلاف فى البلقان[٥١] •

والحقيقة انه قبل عملية تهجير العناصر البيزنطية الى البلقان سنة ٨١٠م ، كانت أعداد السلاف المستقرين فى الاقليم المحيط بسالونيكا ، والقاطنين أقاليم مقدونيا واليونان والبلوبونيز كبيرة بالمقارنة لعـــدد السكان البيزنطيين المستقرين هناك • وان هذه الحقيقة جعلت الحكـــومة البيزنطية عاجزة عن تأكيد سيطرتها الكاملة على تلك الأقاليم بعد عودة كل حملة من الحملات العسكرية التى أرسلتها الى هناك • لقد كان الأمـــر يحتاج لوجود عدد أكبر من العناصر البيزنطية التى تتكلم اليـــونانية وتعتنق المسيحية الأرثوذكسية كى يتحقق اندماج السلافية وانصـــهارها فى بوتقة الحضارة البيزنطية • وكانت الادارة البيزنطية تفتقد الحـــل الحقيقى لهذه المشكلة قبل عهد الامبراطور نقفور الأول[٥٢] •

وكان الامبراطور نقفور الأول قد تأكد من عدم فاعلية الحمـــلات العسكرية ضد السلاف بعد تلك الثورة التى قام بها الســـلاف القاطنين شبه جزيرة البلوبونيز ضد الســـيادة البيزنطية • ففى أوائل عهد نقفور الأول ثار السلاف فى البلوبونيز وقاموا بنهب ممتلكات جيرانهم البيزنطيين ثم هاجموا قلعة باتراس Patras سنة ٨٠٥ ، الا أن ســـكليروس Sclerus قائد ثيم البلوبونيز الحق بهم الهزيمة • وأمر الامبراطور باعادة بناء باتراس لتصبح مدينة ، ونقل اليها عناصر بيزنطية من اقليم

---

51) **Theophanes**, I, 486.

ذكر ثيوفانس — وهو المصدر الرئيسي والمعاصر لأحداث هذه الفترة — ان العناصر البيزنطية التى قام الامبراطور بتهجيرها جاءت من كل أنحاء واقاليم الامبراطورية وأنها استقرت فى Sclavinia بالبلقان . وكلمة Sclavinia تعنى الأقاليـــم التى قطنهـــا الســـلاف فى شـــبه جزيرة البلقان . وهـــذا يتضمن بالطبع اقاليم تراقيا ، مقدونيا ، اقليم سالونيكا ، اليونان ، وشـــبه جزيرة البوبونيز . للمزيد عن معنى كلمة انظر :

Charanis, **Observations**, 11-12; Charanis, **Nicephorus** I, 79-83.

(٥٢) يطلق الأستاذ خرانيس Charanis على الامبراطـــور نقفور الأول لقب « منقذ بلاد اليونان » ، انظر :

Charanis, **Nicephorus** I, 86.

كالابريا Calabria لتعميرها ، كما حول كنيستها الى اسقفية[٥٣] .
ولا شك أن هزيمة السلاف عند قلعة باتراس سنة ٨٠٥ ، فضلا عن تهجير أعداد كبيرة من السكان البيزنطيين من أقاليم آسيا الصغرى الى اقليم سالونيكا وبقية أقاليم اليونان والبلوبونيز سنة ٨١٠ ، قد نتج عنهـا استرداد الادارة البيزنطية لسيادتها على اليونان والبلوبونيز كما أنهـا كانت البداية الحقيقية والعملية لامتصاص العناصر السلافية المسـتقرة هناك فى الكيان الامبراطورى[٥٤] ويمكن القول أن أحوال السـلاف استقرت الى حد بعيد بعد سنة ٨١٠ فى الاقليم المحيط بمدينة سالونيكا . والمرجح أن المشكلات التى تسببت فيها العناصر السلافية أصـبحت قليلة ، ولم تحتاج الى نفس القوة العسكرية التى احتاج لها الأمـر دائما قبل سـنة ٨١٠ . فالمصادر تشير أن السلاف فى اقليم سالونيكا عاشوا حياة هادئة وأنهم كانوا تابعين مخلصين للادارة البيزنطية وأنهم قاتلوا بشجاعة الى جانب البيزنطيين ودافعوا عن مدينة سالونيكا التـى تعرضت لهجوم المسلمين سنة ٩٠٤[٥٥] . وأدى اسـتقرار الأمور فى

---

(٥٣) المصدر الرئيسى لهذه المعلومات هو الحولية المعروفة بـ « حولية مونمفازيا » Chronicle of Monemvasia ولقد أثبتت الدراسات التاريخيـة أخيرا صحة المعلومات الواردة فى هذه الحولية التى تتضمن معلومات قيمة عن التغلغل السلافى فى بلاد اليونان منذ عهد الامبراطور موريس وحتـى عهد الامبراطور نقفور الأول فضلا عن معلومات أخرى مفيدة متأخرة زمنيا . ورغم كل الدراسات التى ظهرت حتى الان ، لايزال مؤلف هذه الحولية مجهولا ، كما أن تاريخ كتابتها غير معروف على وجه الدقة . أنظر :

Lemerle, **Chron.** Monemvasia 10; Charanis, **Monemvasia**, 147-148, 152; Charanis, **Nicephorus I**, 82-83.

ومن الجدير بالذكر أن الأحداث الخاصة بثورة السلاف فى البلوبونيز وهجومهم على قلعة باتراس Patras قد وردت فى مؤلف الامبراطـور قسطنطين السابع الخاص بالادارة الامبراطورية دون ذكر اسم سـكليروس قائد ثيم البلوبونيز الذى أخمد ثورة السلاف ، أنظر أيضا :

DAI, I, ch. 49, 228-232.

وللمزيد عن سكليروس قائد ثيم البلوبونيز ، أنظر :

Seibt, **Die Skleroi**, 20.

54) Ostrogorsky, **State**, 171, n. 4.

55) Cameniates, **De Exp.**, 20, 25.

الاقليم المحيط بمدينة سالونيكا فى القرن التاسع الميلادى ، الى تحسن الأحوال لصالح الادارة البيزنطية فى أقاليم اليونان والبلوبونيز وتأكد هذا فى تطور نظام الثيمات وانشاء ثيمات جديدة •

واذا أردنا تحديد الأقاليم التى كانت تحت الحكم المباشر للادارة الامبراطورية والأقاليم التى كانت تابعة اسميا للامبراطورية ، فمن الضرورى أن نحدد مدى انتشار نظام الثيمات فى شبه جزيرة البلقان فهذا هو المقياس الصحيح للاوضاع الحقيقية • فحيث وجدت الثيمات ، وجدت الادارة البيزنطية المباشرة والحقيقية(٥٦) • والمعروف أنه عند نهاية القرن السابع الميلادى كان لبيزنطة ثيم تراقيا فى شمال البلقان ، وثيم هلاس Hellas فى الجنوب • ولقد استمر هذا الوضع فترة طويلة ، وعند نهاية القرن الثامن الميلادى انشأت الحكومة البيزنطية ثيم مقدونيا ليكون ثيما مستقلاً عن ثيم تراقيا الأوربى • ولم يكن هذا الثيم الجديد يضم كل اقليم مقدونيا الجغرافى ، ففى الواقع كان هذا الثيم يشتمل على غرب تراقيا والجزء الشرقى من اقليم مقدونيا الجغرافى(٥٧) • وكذلك تم انشاء ثيم البلوبونيز فى أواخر القرن الثامن أو مطلع القرن التاسع الميلادى(٥٨) • وفى السنوات الأولى للقرن التاسع الميلادى انشأت الادارة الامبراطورية ثيم سفالونيا Cephalonia الذى ضم جزر البحر الأيونى فى غرب اليونان(٥٩) • وخلال النصف الأول من نفس

---

56) Ostrogorsky, **State**, 172.

(٥٧) أشار ثيوفانس الى مقدونيا كثيم منفصل عن تراقيا لأول مرة فى أحداث سنة ٨٠٢ • ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن ثيم مقدونيا تكون فى الفترة مابين سنة ٧٨٩ وسنة ٨٠٢ ، انظر :

Theophanes, I, 475; **De Thematibus**, 162-165; Oikonomidès, **Préséance**, 349; Lemerle, **Macèèonie**, 122-123.

(٥٨) للمزيد عن ثيم البلوبونيز ، انظر :

De Thematibus, 172-173; Oikonomidès, **Préséance**, 350; Charanis, **Observalions**, 4-11.

(٥٩) للمزيد عن ثيم سفالونيا ، انظر :

De Thematibus, 174-175; Oikonomidès, **Préséance** 352; Oikonomidès, **Cephalonie**, 118-119.

القرن أصبحت سالونيكا والاقليم المحيط بها ثيما مستقلا ، كما تحـول ميناء ديراخيوم Dyrrachium ، أهـم قاعـدة بحرية للامبراطـورية على البحر الادرياتى ، والاقليم المحيط به الى ثيم مستقل أيضا حـوالى نفس الوقت[٦٠] .

وهكذا أصبح جزء كبير من اقاليم البلقان يخضع للادارة البيزنطية المباشرة . وكانت المستوطنات السلافية تقع فى اطار هذه التنظيمات الادارية العسكرية .

وتجدر الاشارة الى أن بعض القبائل السلافية التى استقرت فى اليونان وخصوصا تلك التى استقرت فى البلوبونيز ظلت تعيش فى ظل نوع من الحكم الذاتى رغم التطور الذى أصـــاب الثيمات الأوربية . فبعض القبائل السلافية المستقرة داخل حدود ثيمى هلاس والبلوبونيز احتفظت بكثير من خصائصها وعاشت فى ظل نوع من الحكم الذاتى لفترة من الزمن قبل انصهارها فى النهاية فى بوتقة الحضارة البيزنطية . ويمكن تفسير ذلك بأن بعض القبائل السلافية استقرت فى المناطق الجبلية التى يصعب الوصول اليها فى غرب شبه جزيرة البلوبونيز ، وهى مناطق كان الكثير منها محـدود القيمـة الاقتصـــادية من وجهة نظر الحكومة البيزنطية[٦١] . والمعروف أن اقتصاد السلاف كان يقـوم على الاكتفاء الذاتى فى بداية استقرارهم فى أقاليم اليونان . وفى ظل الاكتفاء الذاتى كان الاتصال محدودا[٦٢] . وفضلا عن هذا وذاك كانت أعداد السـلاف

---

(٦٠) عن ثيم سالونيكا أنظر :

De Thematibus, 168-170; Oikonomidès, **Préséance**, 352; Dvornik, **Décapolite,** 8-12; Lemerle,

وللمزيد عن ثيم ديراخيوم Dyrrachium ، أنظر :

De Thematibus, 117; Oikonomidès, **Préséance**, 352; Ferluga, **Dyrrachium,** 83-92.

Karayannopulos, **Frage,** 448.

(٦٢) أشار المصدر العسكرى الذى ينسب للامبـراطور موريس الى حياة السلاف فى بداية مرحلة استقرارهم فى اقاليم البلقان . أنظر :

Maurice, **Strategikan,** 370-375.

كبيرة وفاقت بالطبع أعداد السكان البيزنطيين الأصليين • وطوال القرن الثامن الميلادى وجزء من القرن التاسع اقترن الحكم الذاتى للسلاف بالقرصنة واللصوصية[٦٣] • وكما سبق أن أوضحنا اذا كان فى مقدور الجيش الامبراطورى اخضاع القبائل السلافية للسيادة البيزنطية مع فرض الجزية عليها ، الا أنه لم يكن فى مقدوره القضاء على استقلالهم الذاتى ، وكان الحل الوحيد هو وجود أعداد أكبر من العناصر البيزنطية التى تتكلم اليونانية وتدين بالمسيحية الأرثوذكسية • وهذا ماتحقق فى القرن التاسع بفضل سياسة التهجير التى قام بها الامبراطور نقفور الأول • ولم تأت النتائج سريعة بالطبع ولم يتم القضاء على وضع الاستقلال الذاتى للسلاف بين يوم وليلة ، لقد احتاج الأمر الى تعاون العناصر البيزنطية مع ادارة الثيمات وبمرور الوقت اكتسب السلاف خصائص الحضارة البيزنطية[٦٤] • وحين نتحدث عن السلاف فى شبه جزيرة البلقان فيجب أن نفرق بين أحوال السلاف المستقرين فى شمال البلقان ، وأولئك المستقرين الى الجنوب من اقليم سالونيكا فى أقاليم اليونان والبلوبونيز • لقد كان هناك اختلاف وانعكس هذا الاختلاف على جهود الحكومة البيزنطية من أجل استيعابهم فى الكيان الامبراطورى •

بالنسبة للعناصر السلافية المستقرة فى أقاليم جنوب البلقان أى فى اليونان والبلوبونيز ، فقد سيطرت هذه العناصر على معظم أقاليم اليونان والبلوبونيز لأكثر من قرنين من الزمان : « منذ العام السادس لعهد الامبراطور موريس (٥٨٧) وحتى العام الرابع لعهد الامبراطور نقفور الأول (٨٠٥) » طبقا لرواية احدى الحوليات البيزنطية[٦٥] • فى القرن السابع الميلادى لم يكن فى مقدور الحكومة البيزنطية الاهتمام باليونان أو البلوبونيز التى كانت تقع بعيدا عن خطوط المواصلات

---

63) Maurice, **Strategikon**, 372,373; Dvornik,

64) Charanis, **Demography**, 462.

65) Monemvasias Chronik, 68-69; Charanis, **Nicephorus** I, 81; Charanis, **Monemvasia**, 149.

الرئيســـية للامبراطورية • وكانت الادارة الامبراطورية تعطى هذه الأقاليم أهمية ثانوية بالمقارنة بآسيا الصغرى التى كانت مركز الثقـل الحقيقى للامبراطورية • كذلك كانت بيزنطة مشغولة دائما بالتصـدى للاخطار الخارجية التى هددت آسيا الصغرى • وكان الحد المؤثر للادارة البيزنطية فى هذه الأقاليم قاصرا علي بعض مناطق وسط اليونان مثـل طيبـــة Thebes وأثينا وكورنثا ، وعلى بعض الموانىء الهامة مثـل سالونيكا وعلى جزر البحر الايجى • وفي شبه جزيرة البلوبونيز كانت الادارة البيزنطية ملموسة فى بعض المراكز الســـاحلية مثـل ناوبليا Nauplia ، مونمفازيـــا Monemvasia ، باتـــراس Patras بالاضافة الى جزر البحر الايونى[٦٦] أما بقية أقاليم اليونان والبلوبونيز فقد استقرت فيها العناصر السلافية بأعداد ضخمة •

ويلاحظ أن هذه العناصر السلافية لم تجمعها وحدة سياسية بل عاشت فى مجتمعات منفصلة • وكذلك لم تحاول أية قوة خارجية فرض الوحدة السياسية عليهم كما حدث للسلاف المستقرين فى أقاليم شمال البلقـــان سواء من قبل الأفار أو البلغار • لقد عاش السلاف هناك في وحـــدات قبلية ، وكل وحدة يحكمها مجلس القبيلة • وفى بعض الأحيان شـــكلت هذه الوحدات القبلية تحالفات مؤقتة لخدمة أغراض معينة • وفى هـــذا المجتمع القبلى تشكلت طبقة ارستقراطية عسكرية ، وكانت هذه الطبقة الحاكمة الجديدة معجبة بالحضارة البيزنطية ونمط الحياة البيزنطى • واذا كانت المجتمعات السلافية فى البداية محدودة الاتصال بالعنـــاصر البيزنطية المستقرة فى المناطق المجاورة لها فإن هذا الوضع لم يســـتمر طويلا • ففى القرن التاسع ازداد تدفق العناصر البيزنطية نتيجة لســـياسة التهجير التى اتبعتها الحكومة البيزنطية • وكانت الحاجة الى التجارة هى التى دفعت التجار البيزنطيين الى القـــرى السلافية • والفـــلاحين السلاف الى المراكز البيزنطية وفى القرن التاسع كانت هناك مجتمعـــات

66) Browning, **Bulgaria**, 52.

قروية بيزنطية قوية وسط المجتمعات السلافية وعلى هـذا بدأ طـور تدريجى من تقبل السلاف للحضارة البيزنطية ، وبدأ إعتناق العنـاصر السلافية للمسيحية تدريجيا[٦٧] .

ومن حسـن الحظ أن المجتمع البيزنطي لم يعـرف العنصرية ، فالسلافى الذى تعلم اليونانية واعتنق المسيحية الأرثوذكسية وجد أمامه معظم الأبواب مفتوحة . وان المؤامرة الفاشلة ضد حكم الامبراطـورة أيرين سـنة ٧٩٨ / ٧٩٩م التى شـارك فيها أكامير Akamir زعيـم قبيلة فلزيتى Velziti السلافية مثال ودليل على دخول بعض العناصر السلافية فى الحياة والسياسة البيزنطية . فهذا الزعيم السـلافي لم يتآمر ضد الامبراطورة ليعتلى هو العرش البيزنطى ، ولكنه تآمر لاسقاط أيرين ليعتلى أحد أبناء الامبراطور قسطنطين الخامس العـرش[٦٨] . وهكذا كان أكامير Akamir يؤيد أحد الاتجـاهات المعـادية لحكم الامبراطورة أيرين ولم يكن يعمل من أجل الاستقلال الذاتى .

مثال آخر ، ثورة توماس السلافي ضد الامبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩) . لقد كان توماس أحد أبناء المجتمعات السلافية المستقرة فى آسـيا الصـغرى ، وتدرج مناصب القيادة العسـكرية فى عهد الامبراطور ليو الخامس الارمينى (٨١٣ — ٨٢٠) وقاد الثورة ضـد خلفه ميخائيل الثانى ، وخلال هذه الثورة نادى بنفسه امبراطورا ولكن الثورة فشلت[٦٩] .

ومن الجدير بالذكر أن الطبقات العليا من العناصر السلافية المستقرة فى أقاليم اليونان والبلوبونيز حققت تقدما أسرع فى تقبل خصـائص

67) Obolensky, **Commonwealth**, 79.

68) **Theophanes**, I, 473-474.

69) Browning, **Bulgaria**, 52.

ويضيف الأستاذ براوننج Browning أن البطريرك نيكتاس Nicetas (٧٦٦ — ٧٨٠) قد يكون من أصل سلافى ، ولكن الأدلة غير كافية .

الحضارة البيزنطية ، وانصهرت فى المجتمع البيزنطى بعد أن اختلطت دمائها بدمائه ، بينما حققت العناصر السلافية القروية تقدما أبطأ واحتاجت لوقت أطول • ويتضح هذا فى قصة أسرة رنتاكيوس Rentacius ذات الأصل السلافى • فهذه الأسرة الأرستقراطية ، التى تعتبر من أقدم عائلات طبقة كبار الملاك فى القسم الأوربى من الامبراطورية ، كانت تمتلك الضياع الشاسعة فى الاقليم المحيط باسبرطة• ولقد ورد ذكر هذه الأسرة لأول مرة فى المصادر البيزنطية فى أحداث أوائل القرن الثامن الميلادى عندما ثار البطريق زيسينيوس رنتاكيوس Sissinius Rentacius ضد الامبراطور ليو الثالث سنة ٧١٧م[٧٠] واحتفظت هذه الأسرة بمكانة اجتماعية متميزة طوال القرنين التاسع والعاشر • ولقد ادرك الامبراطور رومانوس ليكابينوس Romanus Lecapenus أن هذه الأسرة ذات ثروة ونفوذ فحرص على الارتباط بها ليدعم مركز أسرته • ونتيجة لذلك تزوج كريستوفر Christopher ابن الامبراطور رومانس من صوفيا ابنة نيكتاس رنتاكيوس • وهكذا نجحت هذه الأسرة ذات الأصل السلافى فى الارتقاء بعد أن اختلطت دمائها السلافية منذ فترة طويلة بالدماء الهلينية[٧١] •

وفى الواقع أن السلاف المستقرين فى أقاليم اليونان والبلوبونيز والمنعزلين عن بلغاريا لم يكن أمامهم سوى طريق واحد فى النهاية الا وهو تقبل الحضارة البيزنطية • وفى القرن التاسع كان اندماج العناصر السلافية فى المجتمع البيزنطى يسير قدما •

بالنسبة للعناصر السلافية المستقرة فى أقاليم شمال البلقان فقد كان الموقف مختلفا • ويمكن التمييز بين مجموعتين من العناصر السلافية هناك : العناصر السلافية التى استقرت فى أقاليم تابعة للادارة

---

70) Theophanes, 1, 400.

71) De Thematibus. 91.

البيزنطية ، والعناصر السلافية المستقرة فى أقاليم غير خاضعة للادارة البيزنطية أو تابعة لدولة البلغار • بالنسبة للمجموعة الأولى ، فقد سبق أن أشرنا أن العناصر السلافية استقرت فى تراقيا ، ومقدونيا ، وستريمون Straymon ، واقليم سالونيكا • أما المجموعة الثانية ، فالمعروف أنه بعد عبور البلغار لنهر الدانوب واستقرارهم فى دبرودجا Dobrudja وموائسيا Moesia فى شمال شرق البلقان ، وكان هذا الاقليم تقطنه أعداد كبيرة من السلاف الذين خضعوا بالتالى للبلغار[٧٢] • واتخذ البلغار فى البداية بليسكا Pliska عاصمة لهم • وأدرك البلغار فى القرن الثامن أهمية كسب ود العناصر السلافية المستقرة فى اقليم البلغار وتلك المستقرة فى مقدونيا من أجل اقامة دولة بلغارية قوية • وفى مطلع القرن التاسع الميلادى كان اقليم مقدونيا منطقة حدود بين الامبراطورية البيزنطية ، ودولة بلغاريا ، فقد خضع الجزء الشرقى من مقدونيا فقط للسيادة البيزنطية • وفى منتصف القرن التاسع تحقق اندماج البلغار بالسلاف ، ونسى البلغار لغتهم التركية الأصلية واتخذوا لهجة مواطنيهم السلاف الذين كانوا يمثلون الأغلبية[٧٣] •

أن وجود دولة للبلغار فى شمال البلقان كان عاملا هاما أضعف الجهود البيزنطية فى سبيل نشر الحضارة البيزنطية بين العناصر السلافية المستقرة فى تراقيا ، ومقدونيا ، وستريمون ، واقليم سالونيكا بهدف احتوائهم داخل الكيان الامبراطورى • وكانت سياسة الامبراطورية البيزنطية تجاه البلغار بعد استقرارهم فى الاقليم الشمالى الشرقى من شبه جزيرة البلقان ، طوال القرن الثامن الميلادى ذات شقين • الشق الأول ، حرصت الادارة البيزنطية بالدبلوماسية وبالقوة على الحيلولة دون توسع البلغار وعلى تحديد حدودهم جنوبا بحيث لاتتخطى حد جبال

---

72) Obolensky, **Commonwealth,** 64.

73) Browning, **Bulgaria,** 53; Angelov, **Formation,** 54, 55, 58.

البلقان[٧٤] . وحين تخطت حـدود دولة البلغار نطاق جبـال البلقان جنوبا[٧٥] ، وهددت الممتلكات البيزنطية فى تراقيا ، قاد الامبراطـور قسـطنطين الخامس تسـع حملات عسكرية ضد بلغـاريا . واذا كان الامبراطور لم ينجح فى القضاء على بلغاريا نهائيـا الا أنه اضعفهـا عسكريا ، وانكمشت بلغاريا شمالا وراء جبال البلقان[٧٦] . والشـق الثانى ، حرصت الحكومة البيزنطية على اخضاع السلاف المستقرين فى تراقيا ومقدونيا وستريمون وسالونيكا بالقوة للسيادة البيزنطية ، كما عملت على الحيلولة دون اتحاد أو اتصال هذه العناصر السلافية بدولة

---

(٧٤) للمزيد عن اتفاقيات السلام بين الامبراطورية البيزنطية ودولـة البلغار ، والحدود بين الدولتين فى اتفاقية سنة ٦٨١ ، ومعاهدة سنة ٧٠٥م انظـر :

Besevliev, **Inschriften**, 57-59; Obolensky, **Commonwealth**, 65.

(٧٥) يلاحظ أن حدود البلغار تخطت بالفعل نطاق جبال البلقان كمـا يتضح هذا فى اتفاقية سنة ٧١٧م بين بيزنطة وبلغاريا . ولكن يجب الا ننسى ان الامبراطورية البيزنطية كانت مضطرة لعقد هذه الاتفاقية واعطاء البلغار بعض التنازلات الاقليمية كى تتفرغ لمواجهة الخطر الاسلامى . وجدير بالذكـر أن ثيوفانس لم يذكر هذه الاتفاقية فى أحداث سنة ٧١٧ ، بل أثناء سرد أحداث سـنة ٨١٢م . فقد ذكـر ثيوفانس ان الخان البلغارى كروم عرض على الامبراطور البيزنطى ميخائيل الأول رانجاب Michael Rangab (٨١١ — ٨١٣) مقترحات اتفاق سلام يماثل بنود اتفاقية السلام التى عقدها الامبراطور ثيودوسيوس الثالث Theodosius III (٧١٥ — ٧١٧) والبطـريرك جرمانوس مع خان البلغار . انظر :

Theophanes, I, 497; Besevliev, **Inschriften**, 60-62.

(٧٦) ولكن الموقف تغير فى عهد الامبراطور قسـطنطين السـادس (٧٨٠ — ٧٩٧م) مرة اخرى ، واضطر الامبراطور الى الخروج فى حملتين ضد البلغار : سنة ٧٩١ ، ٧٩٢م . وفى الحـملة الثانية الحـق البلغار بالامبراطور هزيمة كبيرة ، واستطاع قسطنطين الهرب بصعوبة . ومن المرجح أن بيزنطة اضـطرت الى عقد هدنة مع البلغار وتقرر بمقتضـاها قيام الامبراطورية بدفع الجزية لبلغاريا . ومن المرجح أيضا أن حدود دولة البلغار تخطت مرة أخرى نطاق جبال البلقان جنوبا . انظر :

Ostrogorsky, **State**, 162; Besevliev, **Inschriften**, 65-66.

البلغار . ويتضح هذا فى الحملات التى خرجت فى الفترة الممتدة من سنة ٦٥٨ وحتى سنة ٧٨٣ لاخضاع السلاف .

ولكن القرن التاسع الميلادى شهد تطورا خطيرا فى توازن القوى فى شبه جزيرة البلقان . فقد أدى الانتصار الساحق لقوات شارلمان على الافار فى بانونيا Pannonia سنة ٧٩٦ الى انهيار ما تبقى للافار من قوة على الدانوب الأوسط(٧٧) . وفتح هذا الطريق أمام توسع البلغار غربا ، على طول نهر الدانوب ، حتى جاورت حدود بلغاريا الشمالية الغربية حدود دولة الفرنجة(٧٨) . وكانت معظم الأقاليم التى استولى عليها البلغار ، تعيش فيها عناصر سلافية . وأدى هذا التوسع الذى حققته الدولة البلغارية الى زيادة مواردها الاقتصادية وبالتالى امكانياتها العسكرية ، وأصبح الصدام العسكرى بين بيزنطة وبلغاريا أمرا لا مفر منه . وأثبت خان البلغار كروم Krum (٨٠٣ — ٨١٤) ، ومن بعده القيصر سيمون Symeon (٨٩٣ — ٩٢٧) فى الانتصارات العسكرية على الجيوش البيزنطية أن بلغاريا تستحق أن تكون ندا للامبراطورية البيزنطية(٧٩) .

كذلك شهدت الامبراطورية البيزنطية فى منتصف القرن التاسع بداية عصر نهضة امتد حتى الربع الأول من القرن الحادى عشر وكان هذا العصر بحق أمجد فترة فى تاريخها الطويل . وتميزت بداية هذا العصر فى منتصف القرن التاسع الميلادى بالأحداث الاتية : تغير ميزان القوى فى الصراع البيزنطى الاسلامى على الجبهة الشرقية ، انتهاء النزاع حول عبادة الصور والايقونات باندحار اللاأيقونية وانتصار تقليد

---

77) Browning, **Bulgaria**, 48; Ostrogorsky, **State**, 173.

78) Browning, **Bulgaria**, 49

(٧٩) عن العلاقات البيزنطية البلغارية فى القرنين التاسع والعاشر ، أنظر :

Angelov, **Formation**, 49-64; Browning, **Bulgaria**, 54-78.

تبجيل الصور والايقونات المقدسة ، النهضـــة الثقافية[80] ، انطلاق الطاقات التبشيرية للكنيسة والمؤسسات الديرية فى شبه جزيرة البلقـان ووراء حدود الامبراطورية • ونتج عن هذه الأحداث الهامة أن أصـبحت الحكومة البيزنطية فضلا عن الكنيسة والمؤسسات الديرية فى موقف يسمح لها بالاهتمام بالبلقان أكثر من ذى قبل • وحين اجتمعت جهـود الحكـومة والكنيســة والأديرة تحقق فى النهـاية امتصاص العنـاصر السلافية ، المستقرة فى أقاليم جنوب البلقان ، فى المجتمع البيزنطى •

لقد تركز اهتمام الحكومة البيزنطية فى العمل على تدعيم نظـام الثيمات وتطويره فى البلقان • فحيث وجدت الثيمات وجدت السلطات الفعلية للادارة البيزنطية • وبدأت ادارة كل ثيم تعمل على دمج العناصر السلافية المستقرة داخل حدوده فى التنظيم الادارى والعسكرى • وفى البداية كان اندماج السلاف فى تنظيمات الثيمات يسير بطيئا ، ولكـن ما أن أطل القرن التاسع الميلادى حتى أخذ يسير بخطى سريعة وتم تجنيد العناصر السلافية فى جند الثيمات مع توزيع الأراضى العسكرية عليها • وهكذا تأكدت السلطة البيزنطية على السلاف المستقرين فى كل ثيم • وكان هذا يعنى تدعيم القوة الدفاعية للامبراطورية فضــــلا عن زيادة مواردها • وحتى منتصف القرن التاسع الميلادى كان عدد الثيمات فى البلقان سبعة ، فعملت الحكومة البيزنطية على انشاء ثلاثة ثيمات جديدة فى النصف الثانى من هذا القرن • اثنان منها على الساحل الغربى لشبه جزيرة البلقان لتحمى سواحل البحر الأيونى والبحر الادرياتى ، ولتعمل على اخضاع السلاف المستقرين فى غرب البلقان ، وهما : ثيم نيقوبوليس

---

(٨٠) عن النهضة الثقافية فى بيزنطة فى القرن التاسع الميلادى ، أنظر :

Dvornik, **Byzance,** 106-146; Dvornik, **Les Légendes,** 25-37.

وكان ثيم نيقوبوليس Nicopolis وثيم دالماشيا Dalmatia (٨١) يضم السهل الساحلي جنوب اقليم ابيروس Epirus أما ثيم دالماشيا فيقع الى الشمال من ثيم ديراخيوم Dyrrachium ، ويضم كل المراكز الساحلية الهامة على البحر الادرياتى مثل زادار Zadar (زارا) ، ودوبروفنيك Dubrovnik • وكان هذا الثيم هاما بالنسبة للحكومة البيزنطية لأسباب منها أنه ضم عددا من المراكز الساحلية والجزر ذات الأهمية الاستراتيجية لحماية الخط الملاحي شمالا الى البندقية التى كانت تابعة لبيزنطة فى ذلك الوقت ، كما كان هذا الثيم هاما كقاعدة بحرية من أجل التصدي لهجمات المسلمين المتكررة على البحر الادرياتى • كذلك كان لهذا الثيم أهمية من أجل اخضاع السلاف المستقرين فى شمال غرب البلقان ، وبث النفوذ البيزنطي فى دولة كرواتيا Croatia كما انه رأس حربة لأى مشروع بيزنطي فى المستقبل من أجل استرداد ايطاليا • أما الثيم الثالث فهو ثيم ستريمون Strymon ، وكان هذا الثيم يضم الجزء الجنوبى من اقليم مقدونيا الجغرافى فضلا عن الساحل الشمالى للبحر الايجى ، وكان الطريق البرى الرئيسى الذى يربط القسطنطينية بروما والذى يعرف باسم طريق اجناتيا Via Egnatia يمر فيه (٨٢) •

وهكذا نجحت الحكومة البيزنطية مع نهاية القرن التاسع الميلادى

---

(٨١) للمزيد عن ثيم نيقوبوليس Nicopolis أنظر :

De Thematibus, 176; Oikonomidès, Préséance, 351.

بالنسبة لثيم دالماشيا Dalmatia ، يلاحظ أن قسطنطين بورفيروجينتوس Constantine Porphyrogenitus يخصص له فصلا فى مؤلفه الخاص بالثيمات كما فعل بالنسبة للثيمات الأخرى ، أنظر ملاحظات برتوسى Pertusi فى تفسير ذلك فى نفس المصدر •

De Thematibus, 41-43; Oikonomidès, Préséance, 353.

(٨٢) للمزيد عن ثيم ستريمون Strymon ، أنظر :

De Thematibus, 166-168; Oikonomidès, Préséance, 352, 357.

في فرض سيطرتها الادارية على أقاليم عديدة فى البلقان من خلال سلسلة الثيمات التى أحاطت بشبه الجزيرة • فى بعض هذه الثيمات مثل تراقيا وستريمون كانت سلطة الادارة البيزنطية تمتد فى عمق المناطق الخلفية ، ولكن فى بعض المناطق الخلفية لثيمات أخرى كان الوضع مختلفا • على أية حال ، اذا تصورنا أن هناك خطا يمتد من سالونيكا على البحر الايجى شرقا الى ديراخيوم Dyrrachium على البحر الادرياتى غربا ، فيمكن القول أن المجتمعات السلافية المستقرة فى الثيمات الواقعة جنوب هذا الخط كانت تذوب تدريجيا فى تنظيم الثيمات وتنصهر فى المجتمع البيزنطى • أما المجتمعات السلافية المستقرة شمال هذا الخط (باستثناء تلك المجتمعات المستقرة فى تراقيا ، ستريمون، شرق وجنوب مقدونيا) فقد كانت بعيدة عن سيطرة الادارة البيزنطية ، وخلال القرن التاسع اندمجت فى الكيانات السياسية المستقلة فى شمال البلقان فى بلغاريا ، دولة الصرب ، كرواتيا • ولم يتم ضم المناطق الشمالية من البلقان الا فى القرن الحادى عشر الميلادى بعد فتوح الامبراطور باسيل الثانى (٩٧٦ ــ ١٠٢٥) الذى أدخل نظام الثيمات على أقاليم شمال البلقان[٨٣] •

ان انتهاء النزاع حول عبادة الصور والايقونات بانتصار تقليد تبجيل وعبادة الصور المقدسة فى مارس سنة ٨٤٣ ، وضع نهاية لذلك الصراع الذى عصف بالكنيسة ، والحياة السياسية والاجتماعية ، واستنفد الطاقات الثقافية فى الامبراطورية البيزنطية • وكان انتهاء هذا النزاع الداخلى نقطة تحول بالنسبة للجهود البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان • فقد أدى الى تحرير الطاقات الكنسية والديرية ، وأصبح فى امكان الكنيسة والمؤسسات الديرية أن تكرس جهودها لتكمل جهود الحكومة البيزنطية فى العمل على نشر الحضارة البيزنطية بين السلاف فى البلقان • وكان للرهبان دائما دور هام فى المجتمع البيزنطى •

83) Obolensky, **Commonwealth,** 78.

فالراهب في نظر أهل المدينة أو القرية على حد سواء هو الرجل المقدس الذى وهب نفسه للرب ، ولهذا كان الفرد يلجأ اليه فى وقت الأزمات[٨٤] • كذلك كان الراهب أكثر من أى فرد آخر قادرا على نقل الحضارة البيزنطية فى أفضل أشكالها[٨٥] •

وجدير بالذكر أنه بينما كان للديرية مؤسسات قوية فى بيثينيا Bithynia فى جبل الاولب Olympus ومناطق أخرى من آسيا الصغرى ، لم تكن المؤسسات الديرية العظيمة فى القسم الأوربى من الامبراطورية قد قامت بعد • ولا شك أن المؤسسات الديرية كانت مراكز ثقافية هامة لنشر المسيحية الأرثوذكسية واللغة اليونانية[٨٦] • ولقد اهتمت الأديرة دائما بالعمل على نشر مبادىء الكتاب المقدس الى كل الأمم ، ولهذا لعبت الأديرة دورا هاما فى دمج العناصر السلافية فى المجتمع البيزنطى • فاعتناق الفرد للمسيحية الأرثوذكسية كان يؤدى الى تقبل لغة الكتاب المقدس الا وهى اليونانية • وكانت المسيحية الأرثوذكسية واللغة اليونانية من أهم خصائص الحضارة البيزنطية • وحتى منتصف القرن التاسع الميلادى ، كانت أعداد الرهبان قليلة فى أقاليم اليونان والبلوبونيز بسبب انشغال الديرية بالنزاع حول عبادة الايقونات • وكانت الحاجة ماسة لوجود مؤسسات ديرية قوية مثل تلك التى وجدت فى جبل الأولمب فى بيثينيا Bithynia أو فى القسطنطينية • ان بطء انصهار العناصر السلافية فى المجتمع البيزنطى فى أقاليم اليونان والبلوبونيز يرجع الى بطء تطور المؤسسات الديرية هناك •

على أية حال ، تلقت سالونيكا والأقليم المحيط بها مرة أخرى اهتماما كبيرا من جانب الامبراطورية البيزنطية • فموقع سالونيكا كان

---

84) Hussey, **World**, 130.

85) Charanis, **Monk**, 63-84.

86) Charanis, **Monk**, 81-82.

هاما للغاية ومنها كان يمكن التأثير على المجتمعات السلافية فى شمال وجنوب البلقان • وشهد القرنان التاسع والعاشر واحدة من أعظم المؤسسات الديرية وأكثرها تأثيرا فى العالم البيزنطى الا وهى مؤسسة جبل آثوس Athos على اللسان الساحلى الضيق الذى يمتد فى البحر الايجى شرق مدينة سالونيكا • وكان يوحنا كولوبوس John Colobos قد حاول فى القرن التاسع اقامة أحد الأديرة هناك • ولكن المؤسسة الديرية الكبيرة لم تبدأ الا فى سنة ٩٦١ • وبفضل تشجيع الامبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣ — ٩٦٩) لصديقه القديس اثناسيوس St. Athanasius تم انشاء دير لافرا Lavra العظيم[٨٧] • وبفضل نشاط الكنيسة وهذه المؤسسة الديرية تحقق فى النهاية انتشار المسيحية الأرثوذكسية واللغة اليونانية بين معظم العناصر العناصر السلافية المستقرة فى أقاليم اليونان والبلوبونيز فى القرن العاشر وخلال الربع الأول من القرن الحادى عشر الميلادى[٨٨] •

لم تقتصر الجهود البيزنطية على نشر المسيحية بين العناصر السلافية المستقرة فى الأقاليم البيزنطية، ففى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى بدأت الكنيسة البيزنطية برنامجا تبشيريا واسع النطاق، استهدف نشر المسيحية الأرثوذكسية خارج حدود الامبراطورية وخاصة بين العناصر السلافية فى بلغاريا ودولة الصرب وبين العناصر الشمالية فى امارة كيف Kiev الروسية[٨٩] • ولقد تعاونت الكنيسة والادارة

87) Hussey, **Byzantine Monasticism**, 180-181;
Vlasto, **Christendom**, 298-299; Dujcev, **Mont Athos**, 121-144.

(٨٨) ولكن العناصر السلافية لقبيلتى Melingi و Ezeritae والمستقرة فى مرتفعات غرب البلوبونيز احتفظت بهويتها الجنسية واللغوية حتى الفتح العثمانى فى القرن الخامس عشر ، انظر :

Georgacas, **Slavic Groups**, 301-333; Vlasto, **Christendom**, 12.

89) Obolensky, **Byzantine-Slav Relations**, 4;
Obolensky, **Commonwealth**, 72.

البيزنطية معــا فى تنفيذ هذا البرنامج الذى ابتدأ بتعــاون البطريرك فوتيوس Photius والامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٣ ــ ٨٦٧م) والقيصر برداس Bardas [٩٠] • ولكن لاشك أن الفضل الأكبر يرجع الى البطريرك فوتيوس الذى يعتبر أعظم مفكرى وساسة عصره ، وأعظم دبلوماسى يشغل منصب بطريرك القسطنطينية[٩١] • لقد اعتبــر فوتيوس نشر المسيحية بين الشعوب الأخرى خارج حدود الامبراطورية أحد واجباته الرئيسية • وكان اعتناق المسيحية الأرثوذكسية يعنى قبول السيادة الروحية للكنيسة القسطنطينية وكان هذا يتضمن من حيث المبدأ قبول السيادة الزمنية للامبراطورية البيزنطية[٩٢] •

أرســـــل فوتيوس Photius بعثات تبشيرية الى دولة الخــزر Khazars والى امارة « كيف » Kiev الروسية والى ممـلكة مورافيا Moravia بوســـــط أوربا (تدخل الان فى نطاق حدود دولة تشيكوسلوفاكيا)[٩٣] • ولم تحقق الجهود البيزنطية فى دولـــة الخزر نفس النجاح الذى تحقق بعد ذلك مع امارة كيف Kiev الروسية • أما البعثة التبشيرية البيزنطية التى توجهت الى مورافيا فلها أهمية خاصة • ففى العقد السادس من القرن التاسع الميلادى أدرك ملك مورافيا ــ وهى دولة سلافية تقع شــــمال الدانوب الأوسط ــ أن جهود اللاتين لنشر المسيحية فى دولته ، تعمل أيضا من أجل اخضاع مورافيا لدولة الفرنجة• وفى محــاولة من جــانبه لوقف هــذا التطــور اتجه ملك مورافيا الى

---

90) Dvornik, **Byzance,** 133-146; Obolensky, **Byzantine-Slav Relations, 4.**

للمزيد عن حياة البطريرك فوتيوس Photius أنظر

Dvornik, **Photius, 1-56.**

92) Browning, **Bulgaria,** 55.

93) Ostrogorsky, **State,** 203; Browning, **Bulgaria,** 55.

بالنسبة للسفارة البيزنطية الى دولة الخزر Kharyars سنة ٨٦١م ، أنظر :

Dvornik, **Les Lékendes,** 178-211.

الامبراطورية البيزنطية مساعدتها فى نشر المسيحية الأرثوذكسية فى مملكته[٩٤] •

وعلى الفور استجاب البطريرك فوتيوس لهذا الطلب وأرسل بعثة تبشيرية على رأسها الاخوان قسطنطين (الذى عرف بعد ذلك باسم سيريل Cyril) ومثوديوس Methodius لتعميد شعب مورافيا ولتأسيس كنيسة سلافية على مذهب كنيسة القسطنطينية[٩٥] • وكان الأخوين سيريل ومثوديوس من أبناء ثيم سالونيكا كما كانا عالمين من الطراز الأول • وتوصل الأخوان الى تكوين حروف هجائية ساعدتهم على كتابة اللغة السلافية التى تتكلمها العناصر السلافية المستقرة فى مقدونيا ، ثم قاما بترجمة أجزاء من الكتاب المقدس من اللغة اليونانية الى هذه اللغة السلافية • وقد تم هذا كله قبل أن يتوجه سيريل ومثوديوس الى مورافيا سنة ٨٦٢ / ٨٦٣[٩٦] • وسيكون لهذا التطور الخطير الذى حدث للغة السلافية نتائج هامة بالنسبة لبلغاريا •

كان اعتناق مورافيا للمسيحية له دلالة هامة بالنسبة لبلغاريا التى أصبح عليها تدعيم كيانها السياسى والحضارى باعتناق المسيحية هى الأخرى • فاذا كانت مورافيا قد لجأت الى الامبراطورية البيزنطية ، فلماذا لا تلجأ بلغاريا الى دولة الفرنجة • وبالفعل أرسل خان البلغار بوريس

---

(٩٤) عن علاقة مملكة مورافيا بدولة الفرنجة والظروف التى دفعت الملك راستيسلاف Rastislav الى طلب مساعدة بيزنطة فى تأسيس كنيسة فى مورافيا ، أنظر :

Dvornig, **Byzance,** 147-163; Dvornik, **Les Légendes,** 226-235; Vlasto, **Christendom,** 29-28.

95) Dujcev, **Moravia,** 219-228; Dvornik, **Byzance,** 164-183.

(٩٦) للمزيد عن حروف اللغة السلافية التى توصل اليها سيريل Cyril ومثوديوس Methodius أنظر :

Vlasto, **Christendom,** 28-48; Obolensky, **Byzantine-Slav Relatons,** 10.

الأول Boris I (٨٥٢ — ٨٨٩) سفارة الى دولة الفرنجة • وأدركت الحكومة البيزنطية على الفور خطورة اعتناق بلغاريا للمسيحية الغربية وقيام تحالف بين دولة الفرنجة وبلغاريا وبينهما روما • وعلى الفور أرسل الامبراطور ميخائيل الثالث جيشا بيزنطيا الى بلغاريا ، كما أرسل الأسطول البيزنطى الى سواحل بلغاريا على البحر الأسود (٩٧) • ولم يكن بوريس مستعدا للحرب ، كما أن سياسة بوريس حرصت دائما على تجنب مواجهة شاملة مع الامبراطورية البيزنطية • وكانت الامبراطورية سنة ٨٦٤ فى موقف عسكرى جيد بعد الانتصار الكبير الذى حققه الجيش البيزنطى على جيش أمير ملطية فى آسيا الصغرى سنة ٨٦٣ (٩٨) • وعلى هذا فضل بوريس الاتفاق مع بيزنطة وقبل الشروط البيزنطية التى كان أهمها التخلى عن مشروع التحالف مع الفرنجة ، واعتناق المسيحية الأرثوذكسية من قبل بيزنطة • وفى نفس العام سنة ٨٦٤ تم تعميد بوريس الذى اتخذ اسما مسيحيا الى جانب اسمه وأصبح يعرف ببورس ميخائيل (٩٩) • وأرسل بطريرك القسطنطينية فوتيوس عددا كبيرا من رجال الدين الى بلغاريا ليقوموا بتعميد البلغار وتأسيس الكنيسة البلغارية •

وكانت المشكلة التى واجهها بوريس هى كيف يمكن لبلغاريا أن تعتنق المسيحية الأرثوذكسية دون أن تخضع للسيادة البيزنطية ؟ كيف يمكن تأسيس كنيسة بلغارية مستقلة عن بطريرك القسطنطينية ؟ كيف يمكن الحيلولة دون تحكم الايديولوجية البيزنطية فى قيم المجتمع البلغارى ؟ لقد كان الاحساس بهذه المشكلة أقل فى امارة كيف Kiev

97) Dvornik, **Les Légendes**, 229-231; Browning, **Bulgaria**, 55, 146; Ostrogorsky, **State**, 204.

(٩٨) وسام : **دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية جـ١** ، ص٢٥٨ — ٢٥٩ •

99) Obolensky, **Commonwealth**, 84; Ostrogorsky, **State**, 204; Dvornik, **LesLégendes**, 230; Dvornik, **Byzance**, 187.

الروسية ، أو فى مورافيا لبعد المسافة بينهما وبين القسطنطينية • أما بالنسبة لبلغاريا التى تقع مباشرة أمام الأبواب الشمالية للامبراطورية ، فقد كان الوضع مختلفا(١٠٠) • ولقد تحققت مخاوف العاهل البلغارى فى تلك الرسالة أرسلها له فوتيوس بطريرك القسطنطينية سنة ٨٦٥ • لقد كانت تلك الرسالة عبارة عن محاضرة من جانب فوتيوس عن واجبات الحاكم المسيحي الذي يدين بالطاعة لكنيسة القسطنطينية وللامبراطور(١٠١) ولم تتضمن الرسالة أية اشارة الى موضوع الاستقلال الذاتى للكنيسة البلغارية كما هو الحال فى المشروع البيزنطى بالنسبة لكنيسة مورافيا(١٠٢) • وكان الخلاف — فى ذلك الوقت — على أشده بين بطريرك القسطنطينية فوتيوس وبين بابا روما نيقولا الأول Nicholas • ورأى بوريس أن يستثمر هذا الخلاف بالاتجاه الى روما لمساعدته على تأسيس كنيسة بلغارية مستقلة استقلالا ذاتيا • وهكذا اتجهت سياسة بوريس فى الفترة من سنة ٨٦٦ وحتى سنة ٨٧٠ الى روما من أجل تحقيق هذه الغاية(١٠٣) • وبالطبع رحبت البابوية بمطالب

100) . Brownng Bulgaria, 145.

المسيحية وأهمية المجامع المسكونية وعددها ، وواجبات الحاكم المسيحى • أنظر النص الكامل لهذه الرسالة الطويلة •

Photius, **Epistola**, Cols, 627-696.

وانظر أيضا :

Dvornik, **Byzance**, 190.

102) Browning, **Bulgaria**, 147.

(١٠٣) للمزيد عن الخلاف العنيف بين فوتيوس بطريرك القسطنطينية ونيقولا الأول بابا روما ، وكيف حاول القيصر البلغارى استثمار هذا الخلاف، انظر :

Dvornik, **Schisme**, 144-195.

كذلك أتجه بوريس الى دولة الفرنجة وارسل سفارة الى لويس الألمانى ، ملك القسم الشرقى من دولة الفرنجة ، يطلب ارسال رجال دين من قبله ، أنظر :

Dvornik, **Byzance**, 191; Browning, **Bulgaria**, 148.

بلغاريا وأرسلت على الفور عددا من رجال الدين اللاتين لاقامة الكنيسة البلغارية[١٠٤] • ولكن روما تجاهلت باستمرار مطلب بوريس الخاص بالوضع شبه المستقل للكنيسة البلغارية ، كما رفضت مقترحاته بخصوص شغل وظيفة رئيس اساقفة بلغاريا[١٠٥] •

وخلال الفترة الممتدة بين سنة ٨٦٦ و ٨٧٠ حدثت تطورات هامة كان لها أثر كبير على مستقبل الكنيسة البلغارية • ففى سنة ٨٦٧ اعتلى العرش البيزنطى الامبراطور باسيل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦) بعد مقتل ميخائيل الثالث • وقام باسيل الأول بعزل فوتيوس من منصب بطريرك القسطنطينية وأعاد غريمه اجناتيوس Ignatius • وتبع ذلك انعقاد مجمع دينى فى القسطنطينية فى أكتوبر سنة ٨٦٩ لرأب الصدع الذى أصاب الكنيسة ولازالة كل أسباب الخلاف الدينى الذى نشب بين روما والقسطنطينية خلال بطريركية فوتيوس[١٠٦] • وأدرك بوريس

---

(١٠٤) لا نعلم على وجه التحديد محتوى رسالة القيصر البلغارى الى بابا روما ، ولكن رد البابا نيقولا الأول على هذه الرسالة قد وصلنا بالكامل . ويتضمن هذا الرد الاجابة على ١٠٦ سؤال فى شئون المسيحية والتنظيم الكنسى . للمزيد عن رد بابا روما على رسالة القيصر البلغارى ، أنظر :

Dujcev, Die Responsa, 349-362; Obolensky, Commonwealth, 87-92.

(١٠٥) فى منتصف عام ٨٦٩ اقترح القيصر بوريس على البابا هادريان الثانى (٨٦٧ — ٨٧٢) بعض الأسماء (من بين أعضاء الوفد البابوى فى بلغاريا) لشغل وظيفة رئيس أساقفة بلغاريا . ولكن البابا تجاهل المطالب البلغارية ، على اعتبار أن اختيار شخص رئيس الأساقفة من حق البابا وحده ، أنظر : Dujcev, Die Responsa, 357.

(١٠٦) كان الامبراطور باسيل الأول حريصا على اقامة علاقات طيبة مع الغرب وخصوصا مع البابوية . وبعد أن عزل الامبراطور البطريرك فوتيوس ، أرسل سفارته الأولى الى البابا هادريان الثانى . وتم الاتفاق على عقد مجمع دينى فى القسطنطينية لتصفية كل الخلافات بين الكنيستين الشرقية والغربية . ويعتبر هذا المجمع — الذى انعقد خلال الفترة الممتدة من أكتوبر سنة ٨٦٩ الى مارس سنة ٨٧٠ — بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية هو المجمع المسكونى الثامن . للمزيد عن هذا المجمع ، أنظر :

Dvornik, Schisme, 204-229; Vlasto, Christendom, 162.

أن روما و القسطنطينية فى طريق تصفية خلافاتهما ، وأنه لم يعد هنـاك جديد يمكن لروما تقديمه • وعلى هذا دخل فى مفاوضات مع الامبراطور باسيل الأول والبطريرك اجناتيوس • وقبيل انتهاء المجمع الدينى المنعقد فى القسطنطينية من دورة انعقاده الأخيرة ، وصل وفد بلغارى ودعى المجمع الى الفصل فى موضوع تبعية الكنيسة البلغارية ولمن تجوز لروما أم للقسـطنطينية • وبعد نقاش حاد ، وبفضل موقف البطـريركيات الشرقية الثلاث ، قرر المجمع أن الكنيسة البلغارية تقع فى نطاق نفـوذ كنيسة القسـطنطينية • وكان هناك اتفاق ضمنى يعطى لهذه الكنيسـة امتياز الاستقلال الداخلي[١٠٧] • ولم يكن أمام المندوب البابوي سـوى قبول قرار المجمع بخصوص بلغاريا • ونتج عن هذا رحيل رجال الدين اللاتين عن بلغاريا ، وعودة رجال الدين البيزنطيين • وأصدر البطريرك اجناتيوس قرارا بتعيين رئيس أساقفة لبلغاريا ، وقد وصل بالفعل الى بليسكا Pliska في أواخر سنة ٨٧٠[١٠٧] • وهكذا حقق بوريس انتصارا جزئيا في سعيه من أجل بناء كنيسة بلغارية لها اسـتقلالها الذاتى •

ومنذ ذلك الوقت بدأ بالفعل التنظيم الحقيقى للكنيسة البلغارية • وأخذ بناء الكنائس ينتشر فى كل اقاليم بلغاريا ، كذلك تم بناء مؤسسة ديرية فى شمال شرق بلغاريا[١٠٩] • ويلاحظ أن كل هذا النشاط التنظيمى للكنيسة البلغارية قد تم باللغة اليونانية • فكبار رجال الدين فى الكنيسة البلغارية ، حتى لو كانوا من أبناء بلغاريا ، كانوا رجالا تلقوا تعليمهم

---

107) Dvornik, **Schisme**, 123-124; Browning, Bulgaria, 151-152.

(١٠٨) لانعرف على وجه التحديد اسم رئيس أساقفة بلغاريا • ومن المحتمل أنه كان أحد أبناء الجالية اليونانية فى بلغاريا • انظر :

Vlasto, **Christendom**, 162.

و يرى البعض أن الاتفاق على شخص رئيس أساقفة بلغاريا تـم خلال المجمع الدينى وبموافقة الجميع ، نظر :

Browning, **Bulgaria, 152.**

109) Browning, **Bulgaria**, 153.

لسنوات طويلة فى القسطنطينية • وكان بوريس يخشى تأثير الحضارة البيزنطية على أولئك الرجال الذين وقع على عاتقهم نهضـــة بـلغاريا الحضارية • ولنا أن نتصور الفجوة الكبيرة بين هذه الصفوة المثقفة وبين الأغلبية الأمية من سكان بلغاريا ، وكيف كان هؤلاء الرجــال يباشرون القداس الدينى ويقرأون الكتاب المقدس بلغة أجنبية هى اليونانية التى لايفهمها أغلبية الســكان • لاشك أن هذا من أســباب بطء انتشار المسيحية بين سكان القرى البلغارية التى استمر بعضهم يمارس الوثنية حتى نهاية القرن التاسع الميلادى •

وكانت الأخبار تصل بلغاريا تباعا بخصوص ما كان يجـرى بعيدا فى مملكة مورافيا ، والنجاح الذى حققه فى البداية الاخوان سـيريل Cyril ومثوديوس Methodius هناك[110] وكان بوريس يدرك بلاشك أن اتخاذ اللغة السلافية بدلا من اليونانية كلغة للكنيسة البلغارية له أهمية كبرى وان استخدم اللغة السلافية ، التي يتكلمها أغلبية سكان بلغاريا ، فى الطقوس الدينية للكنيسة البلغارية سيؤدى الى انتشار المسيحية بين أهل القرى فى بلغاريا كما سيؤدى الى القضاء على خطر انتشار اللغة اليونانية ، وفضلا عن هذا وذاك فان الاستقلال الشكلي للكنيسة البلغارية يصبح حقيقة(١١١) •

على أية حال ، أدى تغلب الاتجاه اللاتينى فى مملكة مورافيا فى العقد الثامن من القرن التاسع الميلادى ، الى طرد تلاميذ الاخوين سيريل ومثوديوس • وكانت هذه فرصة العاهل البلغارى ، الذى سارع بالاتصال بهم وفتح أمامهم أبواب دولته • وبالفعل وصل تلاميذ الاخوين وعــلى رأسهم كلمنت Clement وناوم Naum الى حــدود بلغاريا ســـنة ٨٨٥ / ٨٨٦ ، واســـتقبلهم بعد ذلك بوريس ، ووضع تحت تصرفهم

---

(١١٠) عن نشاط الاخوين سيريل ومثوديوس فى مورافيا، أنظر :
Dujcev, **Moravia**, 219-228.

111) Browning, **Bulgaria**, 154; Vlasto, **Christendom**, 163.

إمكانيات هائلة لتحقيق هدف عزيز ألا وهو تطوير اللغة السلافية واتخاذها لغة الكنيسة البلغارية(١١٢) • وعلى الفور أقام ناوم Naum مركزا تعليميا في المقر الجديد لعاهل البلغار في برسلاف Preslav كما أقام كليمنت مركزا آخر في أوخريد Ochrid في غرب اقليم مقدونيا • وكان العمل الأول والهام هو الاعداد السريع لرجال دين يتكلمون اللغة السلافية ، والقيام بنسخ الترجمات التي قام بها كيريل وميثوديوس وهي ترجمات للكتاب المقدس والطقوس الدينية من اليونانية الى السلافية • وفضلا عن هذا اعداد ترجمات جديدة •

وفي خريف سنة ٨٩٣ وبعد أن نجح بوريس في القضاء على ثورة مضادة لانتشار المسيحية في بلغاريا ، أعلن العاهل البلغاري في اجتماع ضم رجال الدولة قرارات هامة ، منها اعتزاله العرش وتعيين ابنه الأصغر سيميون Symeon قيصرا للبلغاريا • كما تقرر رسميا نقل العاصمة البلغارية من بليسكا Pliska الى برسلاف • وأهم من هذا وذاك أصدر بوريس قرارا رسميا باعتبار اللغة السلافية اللغة الرسمية للكنيسة والدولة على حد سواء(١١٣) • ومن الجدير بالذكر أنه حتى صدور هذا القرار كانت اللغة اليونانية منذ أيام الخان اسباروخ Asparuch هي اللغة التي استخدمها البلغار في اتصالاتهم الخارجية ، وأحيانا في المراسلات الرسمية داخل دولة البلغار كلما دعت الضرورة • وبعد صدور قرار اتخاذ اللغة السلافية لغة رسمية للكنيسة والدولة ، يمكن القول أن التطور الذى بدأ باتحاد العناصر البلغارية التركية بالعناصر السلافية التي شكلت الأغلبية في بلغاريا قد اكتمل وأصبحت بلغاريا دولة سلافية(١١٤) •

---

112) Obolonesky, **Commonwealth**, 95-96; Browning, **Bulgaria**, 154-155; Angelov, **Formation**, 57.

Browning, **Bulgaria**, 158; Angelov, **Formation**, 57; Obolensky, **Commonwealth**, 97.

114) Angelov, **Formation**, 57-58.

وانظر أيضا : Dujcev, **L'Etat Bulgare**, 224.

ان توصل الاخوين سيريل ومثوديوس الى تكوين حروف هجائية للغة السلافية لأول مرة وتطور هذه اللغة بعد ذلك على يد كلمنت وناوم Naum ، قد حد من نجاح بيزنطة فى فرض كل عناصر الحضارة البيزنطية على الكيانات السياسية السلافية المستقلة فى شمال البلقان • حقيقة لقد أدى تحول بلغاريا الى المسيحية الأرثوذكسية بفضل جهود الامبراطورية فى عهدى ميخائيل الثالث وباسيل الأول ، الى دخول بلغاريا دائرة الحضارة البيزنطية • ولكن اتخاذ البلغار للغة السلافية لغة رسمية للكنيسة والدولة حال تماما دون انتشار اللغة اليونانية فى بلغاريا من خلال الكنيسة •

استمرت جهود الحكومة البيزنطية من أجل استرداد سيادتها على شبه جزيرة البلقان من عهد باسيل الأول المقدوني وحتى عهد باسيل الثانى « سفاح البلغار » • ومن أجل تحقيق هذه الغاية استعملت بيزنطة القوة العسكرية والبعثات التبشيرية فى اخضاع الدول السلافية المستقلة فى شمال وشمال غرب البلقان • والمعروف أن حدود بلغاريا الغربية كانت تتاخم دولة الصرب • وكانت عناصر الصرب السلافية قد استقرت منذ القرن السابع الميلادى فى مجتمعات متناثرة حول وديان الأقليم الجبلى الواقع جنوب الدانوب الأوسط ، وهو اقليم تجرى فيه الروافد الجنوبية لنهر السافا Sava • وكان هذا الاقليم يعرف فى العصور الوسطى باسم راسكا (Raskia)[١١٥] • وكان لبيزنطة سيادة اسمية على الصرب وعلى القبائل السلافية الأخرى المستقرة جنوب دولة الصرب حتى عهد الامبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩) ، حين تخلص الصرب والسلاف من سيادة بيزنطة الاسمية وأصبحوا مستقلين كما يروى أحد المصادر البيزنطية فى القرن

115) Obolensky, Commonwealth, 98.

العاشر[116] وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ، أدرك حاكم الصرب ان البقاء على الوثنية يعوق التقدم السياسى والحضارى لدولة الصرب ، تماما كما أدرك خان البلغار من قبل[117] وفى بداية عهد باسيل الأول أرسل حاكم الصرب سفارة الى القسطنطينية تعلن خضوع الصرب للسيادة البيزنطية ورغبتها فى اعتناق المسيحية على مذهب كنيسة القسطنطينية . وبالطبع استجابت الحكومة البيزنطية لمطالب الصرب[118] . وكانت الادارة البيزنطية ترى أن اعتناق دولة الصرب للمسيحية الأرثوذكسية سيؤدى الى تبعيتها للامبراطورية ؛ لأن التبعية الروحية لبطريرك القسطنطينية تتضمن من حيث المبدأ التبعية السياسية للامبراطور

---

(١١٦) أفرد الامبراطور قسطنطين السابع فصلا كاملا عن « اقليم دالماشيا والأمم السلافية المجاورة له » ، وهو الفصل رقم (٢٩) فى مؤلفه الخاص بادارة الامبراطورية De Administrando Imperio
ويعتبر هذا الفصل هاما لأنه يقدم مادة تاريخية قيمة عن التاريخ المبكر لدولتى الصرب والكروات فضلا عن القبائل السلافية الأخرى المستقرة على ساحل البحر الادرياتى ، أنظر :

DAI, I, ch, 29, 124.

وانظر أيضا الجزء الثانى من هذا المصدر الذى يتضمن تعليقات هامة من قبل بعض المؤرخين المحدثين :

DAI, II, 94-101.

(١١٧) تشير المصادر البيزنطية الى أن عناصر الصرب ظلت على وثنيتها ورفضت باستمرار محاولات الامبراطورية لكسب ودها أو اخضاعها . أنظر الفصل الخاص بحياة الامبراطور باسيل الأول Vita Basili فى صلة ثيوفانس :

Theophanes Con., 288-289.

والمرجح ان مؤلف هذا الفصل الخاص بحياة الامبراطور باسيل الأول والذى يحمل رقم (٥) فى المصدر سابق الذكر ، هو حفيد باسيل الأول ، الامبراطور قسطنطين السابع . أنظر :

Moravcsik, **Byzantinoturcica**, I, 380.

118) **Theophanes Cont.**, 291-292.

وانظر أيضا :

Dujcev, **Serbes**, 53-60.

لقد تبنت الحكومة البيزنطية هذه النظرية مع بلغاريا من قبل • ولكن اذا كان البلغار بعد تحولهم للمسيحية الاوثوذكسية قد ظلوا مستقلين سياسيا ، فان بيزنطة كانت حريصة على ألا يتكرر هذا بالنسبة لدولة الصرب •

ومن المرجح أن تبادل السفارات بين دولة الصرب والامبراطورية البيزنطية ، وتحول الصرب النهائي للمسيحية الأرثوذكسية ، قد حدث فى الفترة الممتدة من سنة ٨٦٧ وحتى سنة ٨٧٤[١١٩] • ولقد أدى تحول دولة الصرب الى المسيحية فضلا عن اعتناق القبائل السلافية الأخرى للمسيحية فى شمال غرب البلقان بفضل نشاط البعثات التبشيرية التى أرسلتها كنيسة القسطنطينية ، الى تعزيز مركز الامبراطورية فى شمال غرب شبه الجزيرة ، كما أدى انشاء ثيم دالماشيا كما سبقت الاشارة الى تدعيم مركز الامبراطورية على ساحل البحر الادرياتى •

ورغم أن ثيم دالماشيا قد دعم مركز بيزنطة على ساحل البحر الادرياتى طوال القرنين التاليين فيجب ألا ننسى أن الادارة البيزنطية هناك كانت قاصرة على المراكز الحصينة على الساحل • وكانت هذه المراكز الحصينة قليلة ومتباعدة ، ويحيط بها مجتمعات سلافية لم يكن لبيزنطة دائما عليها سلطان • ففي أقصى الشمال الغربى من شبه جزيرة البلقان ، استقرت عناصر الكروات السلافية منذ القرن السابع الميلادى بين نهر درافا Drava والبحر الادرياتى شمال ثيم دالماشيا • وكانت عناصر الكروات تنقسم الى مجموعتين رئيسيتين : كروات دالماشيا المستقرين جنوب نهر السافا Sava ، وكروات بانونيا Pannonia المستقرين شمال نهر السافا[١٢٠] • وكانت علاقة الامبراطورية البيزنطية

---

119) Dujcev, Serbes, 60.

120) Obolensky, Commenwealth, 100.

بالكروات متوقفة على مركز الامبراطورية ونفوذها على ساحل البحر الادرياتي . والمعروف أن توسع دولة الفرنجة شرقا قد أدى الى خضوع كروات بانونيا لشارلمان في السنوات الأخيرة من القرن الثامن الميلادي . ففي ذلك الوقت سيطر الفرنجة على الاقاليم الممتدة بين نهرى السافا Sava ودرافا Drava حتى الدانوب الأوسط[١٢١] .

أما كروات دالماشيا فقد تخلصوا من سيادة بيزنطة الاسمية وأعلنوا تبعيتهم أيضا لشارلمان بسنة ٨٠٣ ، ثم تنازلت بيزنطة عن سيادتها الاسمية على هـذا الاقاليم بعد ذلك للفرنجة بمقتضي معاهدة آخن Achen سنة ٨١٢ ، ولكنها احتفظت بسيادتها على المراكز الحصينة على ساحل دالماشيا والجزر المقابلة لهذا الساحل[١٢٢] ، وهو ما تحول بعد ذلك فى النصف الثانى للقرن التاسع الميلادى الى ثيم دالماشيا . ومن المرجح أن عناصر الكروات أخذت تتحول الى المسيحية بفضـل نشاط البعثات التبشيرية اللاتينية واهتمام البابوية فى هذه الفترة المبكرة من القـرن التاسـع[١٢٣] .

وفي عهد الامبراطور باسيل الأول حظى ساحل دالماشيا باهتمام الحكومة البيزنطية بسبب تهديد العرب المستمر للمراكز السـاحلية البيزنطية هناك ، وقامت الحكومة البيزنطية بانشاء ثيم دالماشـيا الذى

---

(١٢١) من المرجح أن خضوع كروات بانونيا Pannonia لشارلمان حدث سنة ٧٩٥ ، أنظر :
Vlasto, **Christendom, 189.**

(١٢٢) ترجع أهمية هذه المعاهدة الى انها حددت بوضـوح حدود الامبراطورية البيزنطية ودولة الفرنجة ومناطق نفوذهما فى شمال غـرب البلقان . أنظر :
Vlasto, **Christendom,** 18-190; Obolensky, **Commonwealth,** 100.

(١٢٣) للمزيد عن نشاط البعثات التبشيرية اللاتينية فى كرواتيـا ، انظـر :
Vlasto, **Christendom, 191-194.**

دعم من مركز ونفوذ الامبراطورية البيزنطية فى شمال غرب البلقان وعلى طول ساحل البحر الادرياتى • ونتج عن ازدياد النفوذ البيزنطى فى الربع الأخير من القرن التاسع على طول سـاحل البحر الادرياتى ، قيـام زد سلاف Zdeslav حاكم كروات دالماشيا بالاعتراف بالسـيادة البيزنطية وأعلن تبعية كنيسته لبطريرك القسطنطينية سنة ٨٧٨[١٢٤] وبدا وكأن سيادة بيزنطة السياسية ونفوذها الدينى سـيمتد شـمالا الى اسـتريا Istria فى أقصى شمال ساحل البحر الادرياتى • ولكن النجاح البيزنطى فى كرواتيا كان قصير المدى • فبعد عام واحد انتصر التيار المؤيد للغرب اللاتينى بفضـل نشاط رجال الدين اللاتين ، وبعـد مقتل زدسلاف Zdeslav تولى برانيمير Branimir الحكم فى كرواتيا التى عادت الى تبعية كنيسة روما[١٢٥] • ورغم السياسة المستقلة التى اتبعها حكام كرواتيا الا أن الامبراطورية كان لها بعض النفوذ فى منتصف القرن العاشر •

ان نشاط البعثات التبشـيرية والنجاح الذى حققته يعتبر أحد الانجازات الهامة للامبراطورية البيزنطية فى القرن التاسع • واذا كانت الجهود البيزنطية قد فشلت فى مورافيا التى عادت الى تبعية كنيسـة روما ، فان النجاح البيزنطى كان واضحا فى بلغاريا ودولة الصرب ، ومع العناصر السلافية المستقرة فى غرب مقـدونيا • لقد اعتنـق الجميـع المسـيحية على مذهب كنيسة القسطنطينية واكتسبوا بهذا أحد عنـاصر الحضارة البيزنطية •

ولكن التطور الذى حققته اللغة السلافية التى أصبحت اللغة الثالثة فى أوربا العصور الوسطى[١٢٦] ، واتخاذ بلغاريا هذه اللغة واكتمال الشخصية السلافية للدولة البلغارية ، كان خطرا كبيرا هدد المصـالح

Obolensky, **Commonwealth**, 100; Ostrogorsky, **State**, 210.
125) Vlasto, **Christendom**, 194.
126) Obolensky, **Byzantine-Slav Relations**, 10.

البيزنطية فى البلقان طوال القرن العاشر الميلادى • فقد أدى اكتمال الشخصية السلافية لهذه الدولة أن أصبحت مركزا هاما لجذب واستقطاب العناصر السلافية المستقرة خارج حـدود دولة البلغـار • ولو ظلت بلغاريا الجارة القوية للامبراطورية البيزنطية فى الشمال متمركزة حول مدينتى بليسـكا Pliska وبرسـلاف Preslav شمال نطـاق جبال البلقان ، فلربما كان الخطر محدودا • ولكن توسع بلغاريا غربا فى القرن التاسع وانشاء مركز تعليمى للغة السـلافية فى مدينة أوخريد Ochrid بغـرب مقدونيا تحت سـيطرة قياصرة بلغاريا الأقوياء كان خطرا يهدد جهود بيزنطة لامتصاص العناصر السلافية المسـتقرة فى مقـدونيا داخل الكيان الامبراطـورى • كذلك كان مثل هذا المركز الجنوبى للغة السلافية المدعم من قبل دولة قوية كبلغاريا يسـتطيع القضاء على الكثير من الانجازات التى تمت بالنسبة لامتصاص العناصر السلافية المستقرة فى اقليم سالونيكا وأقاليم اليونان • وكانت تـلك الانجازات البيزنطية قد تحققت بعد جهد كبير وكانت أيضا لاتزال غير مكتمـلة •

وتأكدت هذه المخاطر فى الربع الأول من القرن العاشر الميلادى ، حين قام قيصر بلغاريا الطموح سيميون Symeon باجتياح الأقاليـم البيزنطية فى البلقان وتقدم جنوبا عبر أقاليم اليونان حتى خليج كورنثاء بل وحاصر العاصمة البيزنطية نفسها أكثر من مرة [١٢٧] • ويلاحظ أن طموح القيصر سيميون لم يقتصر على تكوين امبراطورية بلغارية داخل حدود اقليمية تجاور الامبراطورية البيزنطية ، لقد بلغ طموح هذا القيصر البلغـارى حد التفكـير فى خلق امبراطورية عالمية جـديدة تحل محل

---

(١٢٧) للمزيد عن حروب القيصر سيميون ضد الامبراطورية البيزنطية انظـر :

Browning, **Bulgaria**, 62-67; Obolensky, **Commonwealth**, 105-113: Ostrogorsky **State**, 231-236.

الإمبراطورية البيزنطية(١٢٨) • واستطاع القيصر سيميون بفضل انتصاراته المتوالية ، واخضاعه لدولة الصرب ، وبسبب انضمام بعض العناصر السلافية المستقرة فى الأقاليم البيزنطية اليه ، أن يكون امبراطورية وان يصبح بحق سيد شبه جزيرة البلقان •

لقد اجتازت بيزنطة محنة الخطر البلغارى بصعوبة ، وبعد وفاة سيميون سنة ٩٢٧ مرت بلغاريا بمرحلة ضعف بعد أن انهكتها حروب سيميون الطويلة • وسادت العلاقات السلمية بينها وبين الامبراطورية قرابة الأربعين عاما • ولكن الهجوم الروسى على بلغاريا سنة ٩٦٨ بدعوة من الامبراطور نقفور فوقاس ، أدى الى خلق مشكلة خطيرة للادارة البيزنطية فى شمال شرق البلقان بعد أن أصبح أمير كيف Kiev الروسى سيدا على بلغاريا(١٢٩) • وبفضل براعة الامبراطور يوحنا

---

128) Ostrogorsky, State, 232.

(١٢٩) فى سنة ٩٦٥ توفت ماريا ليكابينا Maria Lecapena حفيدة الامبراطور رومانوس ليكابينوس ، وزوجة القيصر البلغارى الضعيف بطرس (٩٢٧ — ٩٦٩م) واعقب ذلك وقوع القيصر البلغارى تحت تأثير بعض العناصر المعادية لبيزنطة فى بلغاريا • وتحت تأثير هؤلاء ، أرسل بطرس سفارة الى العاصمة البيزنطية لاستلام الجزية التى كانت بيزنطة تدفعها أحيانا حسب اتفاقية رومانوس ليكابينوس والقيصر بطرس ، وهى الاتفاقية التى رتبت زواج بطرس من حفيدة الامبراطور سنة ٩٢٨ • على أية حال ، حين وصلت سفارة البلغار الى العاصمة البيزنطية ، كانت الظروف قد تغيرت وبدأت الامبراطورية عصر قوة وتوسع فى الشرق فى عهد الامبراطور نقفور فوقاس • ولم يتصور نقفور أن تقوم الامبراطورية بدفع جزية لهؤلاء البرابرة وقام بطرد السفراء البلغار • وتوقعا لنشوب حرب مع بلغايا ، قرر نقفور توجيه الضربة الأولى • وبالفعل أرسل الامبراطور جيشا الى حدود بلغاريا ، ثم غير رأيه وقرر الاستعانة بالروس لاداء هذه المهمة .. وارسل الامبراطور سفارة الى سفياسلاف Svjatoslav أمير كيف Kiev الروى ، ومعهما ١٥٠٠ رطل من الذهب كهدية مقابل غزو بلغاريا • وبالفعل استجاب الأمير الروسى وعبر الدانوب وهزم البلغار ، ولكنه رفض العودة =

تزيمسكس John Tzimisces (٩٦٩ – ٩٧٦) استطاع الجيش البيزنطى هزيمة الروس وطردهم من البلقان[١٣٠] . ولم تعترف بيزنطة ببلغاريا ، بل قامت بضم دولة بلغاريا الى الكيان الامبراطورى . وتبع ذلك الغاء استقلال الكنيسة البلغارية[١٣١] .

ان ما أنجزته الحكومة البيزنطية فى عهد الامبراطور يوحنا تزيمسكس فى بلغاريا ، اقتصر على القسم الشرقى من بلغاريا اما القسم الغربى الذى يضم غرب مقدونيا فقد كان بعيدا عن كل هذه الأحداث . وأدى ضم شرق بلغاريا الى الكيان الامبراطورى الى انتقال مركز دولة البلغار الى غرب مقدونيا بالقرب من اقليم سالونيكا واقاليم اليونان . وحين اندلعت ثورة البلغار فى غرب بلغاريا بقيادة صمويل Samuel سنة ٩٧٦م ، شكلت بلغاريا تهديدا أكبر من ذى قبل للسيادة البيزنطية على أقاليم اليونان . وكان مركز دولة صمويل فى غرب مقدونيا فى برسبا Prespa أولا وبعد ذلك فى أوخريد Ochrid[١٣٢] وكان هذا يعنى أن بلغاريا تستطيع ضرب الأقاليم الحيوية للامبراطورية فى اليونان وعلى ساحل البحر الادرياتى . ولاشك ان صمويل البلغارى استفاد من انشغال الحكومة البيزنطية بالتصدى للثورات الداخلية فى آسيا الصغرى خلال السنوات الثلاث عشرة الأولى

الى بلاده بعد أن ادى المهمة . وأدرك نقفور فداحة الخطأ الذى ارتكبه . وبعد مقتل نقفور فوقاس سنة ٩٦٩ ، اعتلى يوحنا تزيمكس العرش البيزنطى وأصبح عليه تسوية خطأ سلفه . انظر :

Browning, **Bulgaria**, 70-72; Ostrogorsky, **State**, 259; Obolensky, **Commonwealth**, 128.

(١٣٠) وسام : دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، جا ، ص٢٨٦ — ٢٨٨ .

131) Browning, **Bulgaria**, 72-73; Ostrogorsky, **State**, 262-263; Obolensky, **Commonwealth**, 129-131.

132) Obolensky, **Commonwealth**, 131.

من حكم الامبراطور باسيل الثانى ، كما استفاد من انضمام بعض العناصر السلافية المستقرة فى أقاليم اليونان اليه • واستطاع البلغار استرداد مدينتى بليسكا وبرسلاف فى شرق بلغاريا ، ثم اجتاح البلغار أقاليم اليونان وشبه جزيرة البلوبونيز ونجحوا فى الاستيلاء على بعض المدن والمراكز البيزنطية ولكن محاولات الاستيلاء على سالونيكا باءت بالفشل •

وأمام هذا الخطر الداهم استخدم الامبراطور باسيل الثانى كل موارد الامبراطورية فى حرب طويلة من أجل تدمير تلك الدولة القوية التى أراد صمويل اقامتها • وبعد الانتصار الساحق الذى حققه الامبراطور على البلغار فى المعركة الفاصلة من أجل السيادة على مقدونيا والتى وقعت فى ٢٩ من يوليو سنة ١٠١٤ ، توفى القيصر صمويل • وواصل الامبراطور الاستيلاء على معاقل البلغار • وانتهت الحرب بانتصار باسيل الثانى سنة ١٠١٨ ودخل الامبراطور مدينة اوخريد Ochrid عاصمة الدولة البلغارية ، وهناك استسلم له كل من تبقى على قيد الحياة من أفراد أسرة صمويل • وهكذا انتهى أعنف صراع شهدته شبه جزيرة البلقان فى العصر الوسيط ، فبعد حرب دامت قرابة الثلاثين عاما استردت بيزنطة سيادتها كاملة على شبه جزيرة البلقان بعد أن قضت على دولة البلغار •

وبضم بلغاريا الى الكيان الامبراطورى ، تحولت أراضيها الى أقاليم بيزنطية سرعان ما طبق عليها نظام الثيمات ، كما أصبح سكانها رعايا امبراطور القسطنطينية[١٣٣] • ولكن هذا لم يكن يعنى العودة الى عصر

---

(١٣٣) قامت الادارة البيزنطية بتقسيم أقاليم دولة البلغار الى ثيمات جديدة هى : ثيم بلغاريا وقاعدته سكوبلج Skoplje فى غرب مقدونيا . ثيم باريستريون Paristrion (ويعرف أيضا باسم Paradunavon) ويضم الاقليم الممتد بين الدانوب الأدنى وجبال البلقان وقاعدته سيلسترا =

جستنيان قبل الغزو السلافى للبلقان ، فوجود بلغاريا فى شبه جزيرة البلقان فى الفترة من [illegible] وحتى سنة ١٠١٨ أحدث تغييرا فى البلقان وترك آثارا • كذلك يجب ألا ننسى أن الحكومة البيزنطية بعد استرداد سيادتها على البلقان سنة ١٠١٨ أبقت أقاليم الصرب والكروات فى ظل حكم امرائها المحليين الذين اعترفوا بسيادة الامبراطور •

ولكن القضاء على دولة البلغار كان له نتيجة ايجابية وهامة ، لقد تأكد بهذا العمل نجاح الجهود البيزنطية بالنسبة لامتصاص العناصر السلافية فى أقاليم اليونان فى المجتمع البيزنطى • فلم تعد هناك قوة سلافية يستطيع السلاف الاتجاه اليها • وعلى هذا فان الانصهار النهائى للعناصر السلافية المستقرة فى أقاليم اليونان والبلوبونيز قد اكتمل بعد سنة ١٠١٨ • أما بالنسبة للاقاليم التى كانت تشكل دولة بلغاريا فان هذا التطور لم يحدث • ويمكن القول ان الحدود الجنوبية لدولة البلغار فى عهد القيصر سيمون ظلت تشكل الحد الشمالى للسان اليونانى • ورغم أن بلغاريا أصبحت ولاية بيزنطية منذ سنة ١٠١٨ وحتى نهاية القرن الثانى عشر ، الا أن البلغار احتفظوا بلغتهم السلافية ، واشعارهم وأساطيرهم وأغانيهم وتقاليدهم وأسلوب حياتهم وذكريات ماضيهم(١٣٤) • حقيقة لقد حدث تزاوج بين عائلات الارستقراطية البلغارية والعائلات البيزنطية ، ولكن هذا كان على نطاق ضيق • ورغم أن اللغة اليونانية كانت معروفة فى مدن بلغاريا طوال فترة الحكم

= Silistria على نهر الدانوب • ثم سيرميوم Sirmium فى أقصى الشمال وقاعدته سيرميوم على نهر السافا Sava ، وربما ضم مدينة بلجراد Belgrad التى تقع عند ملتقى الدانوب بنهر السافا • كذلك قامت الحكومة البيزنطية بتدعيم ثيم دالماشيا باضافة الاقليم الخلفى له • بالنسبة لاقاليم الصرب والكروات فقد أبقى باسيل الثانى عليها تحت حكم امرائها المحليين فى ظل السيادة البيزنطية • أنظر :

Ostrogorsky, **State**, 276-277; Obolensky, **Commonwealth**, 209-210.

134) Browning, **Bulgaria**, 76.

البيزنطى ، الا أن الزائر البيزنطى لولاية بلغاريا كان يدرك على الفور أنه فى أرض أجنبية لأن أهلها يتكلمون لغة أجنبية •

لقد نجحت الحكومة البيزنطية بعد جهد كبير ووقت طويل فى علاج أزمة الغزو السلافى واستردت سيادتها كاملة على شبه جزيرة البلقان ، الا أن صورة البلقان فى مطلع القرن الحادى عشر ظلت مختلفة عن صورته فى مطلع القرن السادس الميلادى •

قائمة

المصادر والمراجع والمختصرات

AASS : Acta Sanctorum. Antwerp 1643 ff.

AHR : American Historical Review.

An Boll : Analecta Bollandiana. Bruxelles 1882 ff.

Angelov, **Formation** : D. Angeliv, «Formation and Development of of the Bulgarian Nationality : Ninth to Twelfth Centuries», **BHR, 1 (1973), 49-64.**

AUS : Annuaire de l'Université de Sofia. Faculté de Philosophie et Histoire.

Barisic, **Miracles de St. Démétrius** : F. Barisic, **Miracles de St. Démétrius comme Source historique** (Belgrade, 19953).

Barasic, **Siège de Constantinople** : F. Barisic, «Le siège de Constantinople par les Avares et les Slaven en 626», **B**, 24 (1954), 371-395.

Besevlier, **Inschiriften** : V. Bessevliev, **Die Protobulgarischen Inschriften (Berlin, 1963).**

Besevliev, **Konstantine V** : V. Besevliev, «Die Feldzüge des Kaisers Konstantine V gagen die Bulgaren», **EB**, 7/III (1971), 5-17.

BHR : Bulgarian Historical Review.

Bon, **Le Péloponnèse** : A. Bon, **Le Péloponnèse Byzantin Jusqu'en 1204** (Paris, 1951).

Browning, **Bulgaria** : R. Browning, **Byzantium and Bulgaria. A Comparative Study Across the Early Medieval** Frontir (London, 1975).

BS : Balkan Studies.

BSI : Byzantinoslavica. Prague 1929 ff.

Burmov, **Les Sièges de Thessalonique**: A. Burmov, «Les Sièges de Thessalonique par les Slaves dans Miracula Sancti Demetrii Martyris et leur chronologie», AUS, 47 (1952), 167-215.

BZ : Byzantinische Zeitschrift. (Leipzig) München 1892 ff.

Cameniates, **De Exp.** : **Ioannis Caminiatae de Expugnatione Thessalonicae**, ed. G. Boehlig (Berlin, 1973).

Charanis, **Capture of Cornith** : P. Charanis, «On the Capture of Cornith by the Onogurs and its recapture by the Byzantines», **Speculum**, 27 (1952), 343-350.

Charanis, **Demography** : P. Charanis, "Observations on the Demography of the Byzantine Empire", **Proceedings of the XIII International Congress of Byzantine Studies** (Oxford, 1966, 445-463.

Charanis, **Ethnic Changes** : P. Charanis, «Ethnic Changes in the Byzantine Empire in the Seventh Century», **DOP**, 13 (1959), 23-44.

Charanis, **Hellas** : P. Charanis, «Hellas in the Greek Sources of the Sixth, Seventh and Eight Centuries», in : K. Weitzman (ed.), (**Late Classical and Medieval Studies in Honor of A.M. Friend** (Princeton, 1955), 161-176.

Charanis, **Hellenization** : P. Charanis, «On the Question of the Hellenization of Sicily and Southern Italy during the Middle Ages», **AHR**, 52 (1946), 74-87.

Charanis, **Monemvasia** : P. Charanis, «The Chronicle of Monemvasia and the Question of the Salvonic Settlements in Greece, **DOP**, 5 (1950), 141-166.

Charanis, **Monk** : P. Charanis, «The Monk as an element of Byzantine Society», **DOP, 25 (1971), 63-84.**

Charanis, **Observations** : P. Charanis, «Observations on the History of Greece during the Early Middle Ages, **BS**, 11/1 (1970), 1-34.

Charanis, **Slavonic Settlements** : P. Charanis, «On he Question of the Slavonic Settlements in Greece during the Middle Ages» **BSI**, 10 (1949), 254-258.

Charanis, **Thessalonica** : P. Charanis, «Kouver, the chronology of his activities and their ethnic effects on the regions around Thessalonica», **BS**, 11/2 (1970), 229-247.

DAI :**Constantine Porphyrogenitus, De Administrando Imperio.** Vol. I. Greek text ed. G. Moravcsik. English translation by. H. Jenkins (Budapest, 1949); Vol. II. Commentary, ed. R. Jenkins (London, 1962).

Delehaye, **Recueils Antiques** : H. Delehaye, «Les Recueils Antiques de Miracles des Saints», **An Boll**, 43 (1925), 57-64.

De **Thematibus** : **Constantino Porfirogento, De Thematibus**, ed. with commentary A. Perfusi (Citta' Del Vaticano, 1952).

Doelger, **Einsiedlung** : F. Doelger, **Ein Fall slavischer Einsiedlung im Hinterland von Thessalonike im 10. Jahrhundert** (Muenchen, 1952).

DOP : Dumbarton Oaks Papers. (Cambridge/Mass). Washington 1941 ff.

Dujcev, **Die Responsa** : I. Dujcev, «Die Responsa Nicolai I. Papae ad Consulta Bulgarorum als Quelle für die bulgarische Geschichte», **FHHS, I** (1959), 349-362.

Dujcev, **L'Etat Bulgare** : I. Dujcev, «La Formation de l'etat Bulgare et de la Nation Bulgare», in : **L'Europe aux IX-X Siècles. Aux Origines des Etats nationaux** (Varsovie, 1968), 205-224.

Dujcev, **Mont Athos** : I. Dujcev, «Le Mont Athos et Les Slaves au Moyen Age», **EM**, 2 (1964), 121-144.

Dujcev, **Moravia** : I. Dujcev, «L'Activité de Constantin Philosophe-Cyrille en Moravie», **BSl**, 24 (1963), 219-228.

Dujcev, **Serbes** : I. Dujcev, «Une Ambassade Byzantine auprès des Serbes au IX siècle», **KRSAN**, 7 (1961), 53-60.

Dvornik, **Byzance** : F. Dvornik, **Les Slaves, Byzance et Rome au IX Siècle** (Paris, 1926).

Dvornik, **Décapolite** F. Dvornik, **La Vie de Saint Grégoire le Décapolite** (Paris, 1926).

Dvornik, **Les Légendes** : F. Dvornik, **Les Légendes de Constantin et de Méthode vues de Byzance** (Prague, 1933).

Dvornik, **Photius** : F. Dvornik, «The Uatriach Photius in the light of recent research», **Berichte zum XL. International en Byzantinisten Kongress** (München, 1958), Vol. III/2, 1-56.

Dvornik, **Schisme** : F. Dvornik, **Le Schisme de Photius, Histoire et** Legende (Paris, 1950).

Dvornik, **The Slavs** : F. Dvornik, **The Slavs. Their Early History and Civilization** (Boston, 1956).

ÉB : Etudes Balkaniques.

ÉM : Etudes et Mélanges. Vanezia-Cheretogne.

Ferluga, **Dyrrachium** : J. Ferluga, «Sur la date de la Création du thème Dyrrachium», **Actes du XII Congrès International d'Études Byzantines** (Ochride, 1961), Tome II, 83-92.

FHHS : Festschrift des Haus —, Hof - und Staatsarchivs (Wien) 1949 ff.

Georgacas, **Slavic Groups** : D.J. Georgacas, «The Medieval Names Melingi and Ezeritae of Slavic Groups in the Peloponnesus», **BZ**, 43 (1950), 301-333.

Grégoire, **Justinien II** : H. Grégoire, «Un édit de l'empereur Justinien II daté de Septembre 688», **B**, 17 (1944-45), 119-124.

Grégoire, **L'Origine** : H. Grégoire, «L'Origine et le Nom des Croates ed des Serbes», **B**, 17 (1944-45), 88-118.

Hauptmann, **Les Slaves et les Avares** : L. Hauptmann, «Les Rap ports des Byzantins avec les Slaves et les Avares Pendant la seconde moitié du VI siècle», **B**, 4 (1927-28), 137-170.

Hussey, **Byzantine Monasticism** : J. Hussey, «Byzantine Monasticism», in : **The Cambridge Medieval History**, IV/Pt. 2 (1967), 161-184.

Hussey, **World** : J. Hussey, **The Byzantine World** (London, 1961).

John of Ephesus (Smith) : The Third part of the Ecclesiastical History of John of Ephesus, ed. and trans. R. Payne-Smith (Oxford, 1860).

Karayannopulos, **Peloponnes** : J. Karayannopulos, «Zur Frage der Slavenansiedlungen auf dem Pelopónnes», **RESEE**, 9/1 (1971), 443-460.

Laurent, Saint-Demetrius : V. Laurent, «Sur la date des Églises saint-Demetrius et Saint-Sophie à Thessalonique», BZ, 4 (1895), 420-434.

Lemerle, Anciens Recueils : P. Lemerl, Les Plus Anciens Recueils des Miracles de Saint Démétrius et la Pénétration des Slaves dans les Balkans (Paris, 1979, 1981), 2 Vols.

Lemerle, Chron. Monemvasie : P. Lemerle, «Le chronique impropement dite de Monemvasie : Le Contexte Historiqu et Legendaire», REB, 21 (1963), 5-49.

Lemerle, Invasions : P. Lemerle, «Invasions et Migrations dans Les Balkans depuis la Fin de l'Époque Romaine jusqu'au VIII siècle», RH, 211 (1954), 265-308.

Lemerle, La Composition : P. Lemerle, La Composition et la Chronologie des deux Premiers livres des Miracula S. Demetrii», BZ, 46 (1953), 349-361.

Lemerle, Macédonie : P. Lemerle, Philoppes et la Macédoine Orientale à l'Époque Chrétienne et Byzantine. Recherches d'Histoire et d'Archéologie (Paris, 1945).

Maurice, Strategikon Mauricius Arta Militara, ed. H. Mihaescu (Bucuresti, 1970).

Michel le Syrien : Chronique de Michel Le Syrien, ed. J.B. Chabot (Paris 1899-1905), 3 Vols.

Miracula Sancti Demetri, AASS : Miracula Sancti Demetri, in : AASS, Oct. 8, vol. IV, 104 to 197.

Miracula Sancti Demetri, PG : Miracula Sancti Demetri, in : Migne, PG, vol. 116, Cols. 1174-1384.

Monemvasias Chronikon : To Peri tes Ktiseos Monemvasias Chronikon, ed. A. Bees (Athens, 1909), 37-105. [= Byzantis, I (1909)].

Moravcsik, Byzantinoturcica : G. Moravcsik, Byzantinoturcica (Berlin, 1958), 2 Vols.

Nicephorus : Nicephori Archiepiscopi Constantinopolitani Opuscula Hstorca, ed. C. De Boor (Leipzig, 1880).

Obolensky, Byzantine Slav Relations : D. Obolensky, «The Cult of St. Demetrius of Thessaloniki in the History of Byzantine-Slav Relations», **BS**, 15 (1974), 3-20.

Obolensky, Commonwealth : D. Obolensky, **The Byzantine Commonwealth. Eastern Europe ; 500-1453** (London, 1971).

Oikonomidès, **Cephalonie** : N. Oikonomidès, «Constantin VII Porphyrogénéte et les thèmes de Céphalonie et de Longobardie», **REB**, 23 (1965), 118-123.

Oikonomidès, Préséance : N. Oikonomidès, **Les Listes de Préséance Byzantines des IX et X Siècles** (Paris, 1972).

Ostrogorsky **Staaten-hierarchie** : G. Ostrogorsky «Die byzantinische Staatenhierarchie», **SK, 8** (1936), 41-61.

Ostrogorsky, **State** : G. Ostrogorsky, **History of the Byzantine State**, trans. J. Hussey (New Brunswick, 1957).

Ostrogorsky, **World Order** : G. Ostrogorsky, « The Byzantine Emperor and the Hierarchical World Order», **SEER**, 35 (1956-57), 1-14.

Photius, **Epistola** : «Photii Sanctissimi Patrarchae Constantino-polilani Epistola ad Michaelem Bulgariae Principem; de Officio Principis», in : Migne, **PG**, Vol. 102, Cols. 627-696.

REB : Revue des Étude Byzantines. (Paris) 1946 ff.

RESEE : Revue des Études Sud-Est Européennes.

PH : Revue Historique.

SEER : Slavonic and East European Review.

Seibt, **Die Ekleroi** : W. Seibt, **Die Skleroi. Eine Prosopographisch-Sigillographische Studie** (Wien, 1976).

SK : Seminarium Konda Kovianum. Recueil d'Études Archéologie, Histoire de l'Art, Études Byzantines.

Tapkova-Zaimova, **Le Colonisation** : V. Tapkova-Zaimova, «Sur Quelques aspects de la Colonisation Slave en Macédoine et en Gréce», **EB**, I (1964), 111-123.

Theophanes : Theophanis Chronographia, ed. C. De Boor (Leipzig, 1883-1885), 2 vols.

Theophanes Cont. : **Theophanes Continuatus, Ioannes Cameniata, Symeon Magister, Georgius Monachus**, ed. I. Bekker (Bonn, 1838), 1-481.

Theophylactus Simocatta : **Theophylacti Simocattae Historiae**, ed. C. De Boor (Leipzig, 1887).

Tougard, **L'Histoire Profane** : A. Tougard, **De l'Histoire Profane dans Les Actes Grecs des Bollandistes** (Paris, 1874).

Vasmer, **Die Slaven** : M. Vasmer **Die Slaven in Griechenland** (Berlin, 1941).

Vlasto, **Christendom** : A. Vlasto, **The Entry of the Slavs into Christendom. An Introduction to the Medieval History of the Slavs** (Cambridge, 1970).

ZRSAN : Zbornik Oadova Srpske Akademie Nauka. Vizantoloski Institut.

الكتابات الأثرية العربية
دراسة فى الشكل والمضمون

دكتور حسين عبد الرحيم عليوه
كلية الآداب — جامعة المنصورة

المقـــدمة

تأتى الكتابات الأثرية بصـــــفة عامة فى مقدمة المصادر الأثرية الأصيلة اللازمة لدراسة التاريخ والآثار على الســـــواء ، وفى مجال الدراسات التاريخية والأثرية الإسلامية تحتل الكتابات الأثرية العربيـــة المركز الأول بين مصادر هذه الدراســـات ، وذلك للدور الرئيسى الذى لعبته هذه الكتابات حتى أنها كانت القاسم المشترك الأعظم على الأعمال الفنية الاسلامية سواء كانت معمارية أو تشكيلية أو تطبيقية ، ولأهميـــة هذا الدور قال بعض العلماء بأن هذه الكتابات تعتبر العـــلامة المميزة لآثار المسلمين فى جميع بلدانهم[1] .

وربما كان من العســـير حصر المجالات التى اســـــتخدمت فيهـــا الكتابات الأثرية العربية ، ومن أهمها الوثائق والوقفيات ، ونعنى بالوثائق المستندات الرسمية التى ترجع الى العصور التاريخية كالرسائل الصادرة من ديوان الكتابة والرسائل — أو ديوان الانشاء فيما بعد — الى الولايات

---

(١) كينل : (ترجمة أحمد موسى) ، الفن الاسلامى ، (دار صادر بيروت ١٩٦٦) ص١١٣ . ، دكتور حسن الباشا : الخط الفن العربى الأصـــيل ، حلقـــة بحث الخط العربى ، المجلس الأعـــلى للفنون والآداب والعلـــوم الاجتماعية ، القاهرة ١٩٦٨) ص٣٤ .

أو الامارات التابعة للحكومة المركزية ، وكذا تشمل الوثائق سجلات الدواوين ونصوص المعاهدات والمراسلات ، كما يتسع مدلولها ليشمل المستندات الخاصة بالمعاملات الفردية كعقود الزواج والطلاق وعقود البيع والشراء وما اليها .

وكانت الوثائق تكتب في صدر الاسلام بلغات البلدان التى دخلها الاسلام[٢] ، حتى تم تعريب الدواوين فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان ، فأصبحت تكتب بالتدريج باللغة العربية مما ساعد — كما هو معروف — على انتشار اللغة العربية وغلبتها على سائر اللغات فى عالم الاسلام[٣] .

وعلى الرغم من كثرة الوثائق الاسلامية فان معظمها لم يصلنا[٤] وأفادنا القليل منها الذى تخلف من العصور الاسلامية المختلفة ومعظمه من البرديات فى التعرف على بعض النظم الاجتماعية والاقتصادية والادارية بالاضافة الى ماوصلنا منها من عقود الزواج والبيع والشراء وغيرها[٥] ، حتى أنها لاتقل أهمية فى رأى بعض العلماء الذين تصدوا لدراسة مصادر التاريخ الاسلامى عن الكتابات الأثرية على العمائر أو التحف الفنية الأثرية[٦] .

---

(٢) دكتور عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٣) ص ٣٦ .

(٣) دكتور ابراهيم أحمد العدوى : تاريخ العالم الاسلامى (جـ ١ ، القاهرة ١٩٨٣) ص٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٤) دكتور السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب (دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧) ص١٣٥ — ١٣٦ .

(٥) دكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج بحث التاريخ الاسلامى (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١٢ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٠) ص١٥٨ — ١٦١ . ، دكتور السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ١٣٦—١٣٩ .

(٦) دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث غيه (القاهرة ١٩٦٠) ص٨٥ — ٨٧ .

وربما كانت الوقفيات[7] من أهم ماوصلنا من وثائق مكتوبة وذلك لما تضمه من نصوص على جانب كبير من الأهمية للمؤرخ والأثرى ، حيث تضمنت معلومات عن الأبنية الموقوفة ووصفها بدقة وذكر مرافقها بالتفصيل وذلك بلغة العصر ، كما كانت تصف قطع الأثاث والأدوات ، والأوانى التى يضمها المبنى — موضوع الوقفية أو الحجة[8] .

كما نقشت بعض الوقفيات على بعض العمائر الاسلامية من تلك التى كانت موقوفة ، ومن أمثلتها وقفية مؤرخة فى ١٠ جمادى الأولى سنة ٨٧٤هـ نقشت بالمدرسة السلطانية الظاهرية بحلب وتنص على :

« ألا يعمل للتربة حيط من رخام أو عمودا ألا جعله حاصلا بل للعبادة وللزيارة للواقف الملك الظاهر غازى »[9] .

وكان للوقف موظفون يباشرون النظر فى أموال الوقف والعناية بمرافقها ويلقب الواحد منهم بمتولى الأوقاف ، أو الوالى على الوقف ، أو متولى الوقف[10] .

---

(٧) يقصد بالوقف حفظ العقار من التصرف فيه بتخصيص دخله للصرف منه عليه أو على أفراد أو جهات أخرى ، ويعود تاريخ نظام الوقف فى الاسلام الى العصر الأموى ، ثم تطور بمرور الوقت حتى استقرت قواعده فى العهود الاسلامية التالية ، وأدى نظام الوقف خدمة جليلة لصيانة كثير من المساجد والمدارس والبيمارستانات وغيرها من المؤسسات ذات الخدمة العامة — دكتور السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١٣٩ — ١٤٠ .

(٨) تحتفظ دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، وكذا الأرشيف التاريخى بوزارة الاوقاف ، ومحكمة القاهرة للاحوال الشخصية ، ودار المحفوظات المصرية بعدد كبير من الوثائق والوقفيات التى يقصدها كل دارس التاريخ والآثار والاقتصاد والاجتماع وتاريخ الادارة — انظر دكتور عبد اللطيف ابراهيم — وثيقة السلطان قايتباى (كتاب المؤتمر الثالث للاثار فى البلاد العربية بفاس — القاهرة ١٩٦١) ص ٣٩٠ .

(٩) دكتور حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية (دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٥ — ١٩٦٦) جـ٣ ص١٣٠٦ .

(١٠) المرجع نفسه ، ص ١٠١٠ .

وبالاضافة الى الوثائق والوقفيات لعبت الكتابات الأثرية العربية دورا مماثلا فى كتابة المصـاحف والمخطوطات المختلفة • كما نقشت على واجهات العمائر الدينية أو المدنية أو الحربية وكذا على المنتجات الفنية المصنوعة من مختلف المواد كالمعادن والأخشـاب والخزف والفخـار والزجاج والعاج والنسيج والسجاد والأحجار ، فضلاً عن نقشها على قطع العملة والصنج والمكاييل ، وتبعا لهذا تنوعت طرق تنفيذ الكتـابات وتسجيلها ، فجاءت محفورة وبارزة وغائرة ، ومكفتة ومذهبة ، ومضافة ومقطوعة ، ومموهة بالمينا وذلك بحسب المواد التى نقشت عليها ، واذا أضفنا الى هذا ما تميزت به الكتابات الأثرية العربية من تعدد أنواعها وتنوع أشكالها أدركنا السبب فى اهتمام المؤرخين الأقدمين والمحدثين وعلماء الآثار والفنون بها ، فأفردوا لها الدراسات المتخصصة(١١) ، أو

---

(١١) نذكر من هذه الدراسات حسب أهيتها : موسوعة القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا التى خصص الجزء الثالث منها لدراسة الخط العربى وأنواعه وتاريخه وتطوره ، وخصص معظم أجزاء الموسوعة البالغة اربعة عشر جزءا للمعارف والعلوم التى يجب على الكاتب أن يتزود بهـا وكلها وثيقة الصلة بالكتابة وفنونها ومصطلحها ع ذكر أمثلة لأنواع الكتابة ،

وأيضا مقدمة ابن خلدون التى أفرد صفحات عديدة منها للتعريف بالخط ، وأنواعه واهميته ، كما أشار ابن خلكان فى وفياته الى طائفة الخطـاطين واشهرهم ، والصولى فى كتاب أدب الكتاب ، وابن عبد ربه فى العقـد الفريد ، وابن النديم فى الفهرست .

ومن أهم دراسات المحدثين نذكر دراسة الدكتور ابراهيم جمعة عن تطور الكتابات الكوفية فى القرون الخمسة الأولى للهجرة ، والدكتور خليل يحيى نامى فى دراسته لأصل الخط العربى ، ومحمد طاهر الكردى فى تأريخه للخط العربى ، وجرجى زيدان فى تاريخ التمدن الاسلامى ، والدكتور حسن الباشا فى مؤلفيه عن الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، والفنـون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية ، والدكتور محمد عبد العزيز مرزوق فى دراسته للمصحف الشريف وتاريخ كتابته والدكتور صلاح الدين المنجـد فى دراسته عن الكتاب العربى المخطوط وعبد الفتاح عباده فى دراسـته =

أشـــادوا بأهميتها عند دراستهم لمظاهر الحضارة الاسلامية وآثارهـــا المادية المختلفة •

وتدلنا الكتابة الأثرية العربية التى وصلتنا على أنها كانت ذات وظيفتين أساسيتين هما : وظيفة الزخرفة بما حققته من جمـــال زخرفى للاعمال الفنية ، ووظيفة التدوين بما سـجلتهمن نصـــوص لها أهميتها • وربما انفردت الكتابات الأثرية العربية بهذه الميزة التى لم تتوفر فى غيرها من الكتابات ، ومن هنا فان دراستنا لهذه الكتابات ستكون من خلال وظيفتيها الزخرفية والتسجيلية أو مايمكن التعبير عنه بالشكل والمضمون •

=

عن انتشار الخط العربى ، وناجى زين الدين المصرف فى كتابيه عن بدائع الخط العربى ، ومصور الخط العربى ، ويوسف أحمد فى مؤلفه عن الخـــط الكوفى ، وسهيل أنور فى تعريفه بالخطاط البغدادى على بن هلال المشهور بابن البواب .

ومن أهم الدراسات غير العربية نذكر :-

Van Berchem : Materiaux pour un corpus Inscriptionum Arabicarum.,

Huart : Les Calligraphes et les Miniaturistes de L'orient Musulman.

Flury : Le Dècor Epigraphique des Monuments Fatimides du Caire.,

Ornamental Kufic Inscriptions on Pottery.

Hawary and Rashed : Stéles Funeraires. T. 1.

Wiet : Stéles Funeraires T. 2—9.

Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library.

Wiet, Combe and Sauvaget : Répertoir chronologique d'Epigraphie Arabe.

Levi Provencal : Inscriptions Arabes d'Espagne.

أولا : الكتابات الأثرية العربية من حيث الشكل :

نشـأة الخط العربى وتطوره :

من المعروف أن الخط العربى يعتبر صورة مشتقة من الخط النبطى الذى كان منتشرا فى شمالى شبه جزيرة العرب كأحد فروع الكتـابة الآرامية القديمة (لوحة ١)(١٢) ، وعندما اشتق الخط العربى من الخط النبطى أخذ عنه الكثير من صور حروفه . وكانت تجمع بين الهيئـة الجامدة المزواة والهيئة اللينة المدورة(١٣) ، وتطورت الهيئة الجامدة الى صورة الخط الكوفى ، كما تطورت الهيئة اللينة المدورة الى صـورة الخط النسـخ(١٤) ، والقائلون (١٥) — خطأ — بأن الخط الكوفى هو أصـل الخطوط العربية وأن الخط النسخ مشتق منه يعتمدون فى قولهم على شيوع كتابات الخط الكوفى طوال الخمسة قرون الهجرية الأولى فى المجالات التسجيلية الرسمية كالكتابة على العمائر وعلى شواهد القبور

---

(١٢) محمد طاهر الكردى : تاريخ الخط العربى وآدابه (المطبعـة التجارية الحديثة ، القاهرة ١٩٣٩) ص٢٣ — ٢٥ .

(١٣) تتشابه بعض الكتابات النبطية المتأخرة — كنقش حران المؤرخ بسنة ٥٦٨ م (لوحة ١) مع الكتابات العربية المبـكرة كالكتابة الأثرية التى وصلتنا على شاهد قبر باسم عبد الرحمن بن خير الحجرى مؤرخ بسـنة ٣١ هـ فى جمـع الاثنتين بين الحـروف اللينـة الى جانب الحروف الجـامدة ، وفى حذف الألف الوسطى من بعض الكلمات ، وفى كتابة حرف العـين الوسطى بدون الشرطة العليا ، مع اهمال النقط والاعجام وعدم كتابة الهمزة . انظر : دكتور ابراهيم جمعة : دراسة فى تطور الكتابات الكوفية (دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٦٩) ص٥٢ — ٥٣ .

(14) Kratchkovskey : Ornamental Naskhi Inscriptions (A Survey of persian Art. vol. I, pp. 1770 — 1784) p. 1770.

(١٥) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنـون ، وكالة المعارف الجليلة ، المطبعة البهية بالقاهرة ١٣٦٠هـ ، ص٧١٠ — ٧١١ ، . جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، مطبعة الهلال بالفجالة ، القـاهرة ١٩٥٤ ، ج ٣ ص ٥٤ .

وعلى قطع العملة فضلا عن استخدامه في كتابة المصاحف والمخطوطات المختلفة ، ولما بدأت تشـيع الكتابة بالخطوط النسـخية فى المجـالات نفسها ابتداء من القرن السادس الهجرى (١٢م) قالوا باشـتقاق الخطوط النسخية من الخط الكوفي ، ولكن غاب عن هؤلاء أن كتابات خط النسخ كانت معروفة ومتداولة طوال القرون الخمسة الأولى للهجرة ولكن في مجالات كانت بطبيعتها مستترة وليس لها صفة الوضوح أو العلانية التي تتيحها الصفة التسجيلية ، فقد كانت تستخدم فى المكاتبات العادية واليومية كالرسائل والعقود وما اليها(١٦) .

وربما نسب الخط الكوفى الى مدينة الكوفة(١٧) ، وذلك لجهود خطاطيها على مر العصور لتحسين الخط وتطويره(١٨) بدرجة فاقت جهود مدارس الخط العربى الأخرى فى البصرة ومكة والمدينة(١٩) .

---

(١٦) دكتور ابراهيم جمعة : المرجع السابق ، ص٢٠ ، ٢٨ ، دكتور حسن الباشا : الخط الفن العربى الأصيل ، ص٢٨ .

(١٧) اسسها القائد سعد بن أبى وقاص سنة ١٧ هـ واتخذها فيما بعد الخليفة على بن أبى طالب عاصمة للدولة العربية الاسلامية ــ انظر :
دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقـافى والاجتماعى ، الطبعة التاسعة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ ، جـ ١ ، ص ٥٣٠ــ٥٣١ .

(١٨) يوسف أحمد : الخط الكوفى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣٣ ، ص ١٠ ، .

محمد طاهر الكردى : المرجع السابق ، ص٦٥ ، .

دكتور حسن الباشا : تطور الخط العربى فى الاسلام ، مجلة منبـر الاسلام ، عدد ٨ ، يناير ١٩٦٢ ، ص ٦٩ ، .

Flury : Ornamentai Kufic Inscriptions on Pottery. (A Survey of persian art, vol. II) p. 1743.

(١٩) يوسف أحمد : المرجع السابق ، ص ١١ ، محمد طاهر الكردى ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

وتجدر الاشارة الى أن الخط العربي كان فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى يجمع بين الحروف الجامدة المزواة الى جـانب الحروف اللينة المدورة ، ويتمثل هذا فى كتابة مؤرخة بسنة ٣١هـ (٦٥٢م) على شـاهد قبر باسـم عبد الرحمن بن خـير الحجـرى[٢٠] وبدأت الشخصية المتميزة للخط الكوفى فى الوضوح فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى (٧م) ويظهر هذا فى كتابات شاهد آخر مؤرخ بسـنة ٧١هـ (٦٩١م)[٢١] كما يظهر فى الكتابة التسجيلية المنقوشة على جدران قبـة الصخرة ببيت المقدس والمؤرخة بسـنة ٧٢ هـ (٦٩٢ م)[٢٢] حيث أصبحت الحروف أكثر جمودا وذات طابع هندسى واضح نتيجة تلاقى خطوط الحروف الأفقية مع الحروف الرأسـية المتعامدة عليهـا فتكونت زوايا عديدة ميزت هذا الخط لدرجة أنه يوصف بالخط المزوى نسـبة اليها •

الخط الكوفى ــ أنواعه وتطوره :

زادت العناية بالخط الكوفي بقصد تحسينه وزخرفته ، فلم يكتف الخطاط المسلم بنقش أشكال الحروف نفسها ، وانما بدأ يضيف الى بدايات الحروف ونهاياتها زيادات زخرفية اتخذت هيئة شرطة صغرى ــ أو شوكة ــ ويوصف الخط بهذه الصورة بالكوفى ذى الزيادات ، وتعود

---

(٢٠) باسم عبد الرحمن بن خير الحجرى ، ومحفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة تحت رقم سجل ٢٠/١٥٠٨ ، انظـر :

دكتور محمد مصطفى : دليل متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، ص٣١ .

دكتور ابراهيم جمعة : المرجع السابق ، ص ١٣٠ ــ ١٣٣ .

(٢١) باسم عباسة ابنة جريج ومحفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة. أيضا : رقم السجل ٩٢٩١ ، انظر :

دكتور ابراهيم جمعة : المرجع السابق ص ١٣٤ ــ ١٣٩ .

(22) Creswell : Early Muslim Architecture. (vol. I) pls. 5—20.

معرفته الى القرن الثانى الهجرى (٨م) ومن أمثلته كتابة أثرية على جدران مقياس النيل بالروضة بالقاهرة مؤرخة بسنة ٢٤٧هـ (٨٦١م)[٢٣]، وتطورت هذه الزيادات في القرن الثالث الهجرى (٩م) الى مايشبه الورقة النباتية وتشكلت بها بدايات الحروف ونهاياتها وهو ما يعرف بالكوفى المورق[٢٤]، وأقدم أمثلته نراه في نقش الرملة الذى عثر عليه فى رام الله وتاريخه سنة ١٧٢هـ (٧٨٩م) (لوحة ٢) كما وصلتنا منه اللوحة التأسيسية الرخامية لجامع أحمد بن طولون بالقطائع وتضم آيات قرآنية تنتهى بنص تسجيلى يفيد الانتهاء من بناء المسجد فى شهر رمضان سنة ٢٦٥هـ (ابريل — مايو ٨٧٩م) وكذا الشريط الكتابى الكوفى المنفذ بالحفر البارز على الخشب، ويقع أسفل سقف الجامع الطولونى مباشرة[٢٥].

وفى القرن الرابع الهجرى (١٠م) زادت درجة التوريق فتطورت الى رسم وريقات وزهور عديدة أو انصاف مراوح نخيلية تحف ببدايات الحروف أو تتشكل على هيئتها، أو تنتهى بها، أو تضاف أعلى بعض الحروف الأفقية، ويعرف هذا النوع من الخط بالكوفى المزهر، وخير أمثلته كتابات المحراب الفاطمى القديم بالجامع الأزهر بالقاهرة

---

(٢٣) تعتبر هذه الكتابة من أقدم ما وصلنا من الكتابات المؤرخة من هذا النوع من الخط الكوفى — دكتور محمد عبد العزيز مرزوق : الفن المصرى الاسلامى، القاهرة ١٩٥٢، ص ٢٠.

(24) Van Berchem : Inescriptions Arabes de Syrie. T. III, p. 422, pl. II, Fig. 3.

(٢٥) دكتور ابراهيم جمعة : المرجع السابق، ص١٩٩، شكل ٣١. محمود عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولونى، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٧، ص٢١. زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٥، ص ٣٧، لوحه ١٠.

والكتابات التى تزين كثيرا من المنتجات الفنية الفاطمية ، المحفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة[٢٦] .

وفى مرحلة تالية تمكن الخطاط من ضفر أو جدل بعض الحروف مع بعضها حتى أنها بلغت فى القرنين الخامس والسادس الهجريين (١١ — ١٢م) درجة من التعقيد والتركيب جعلت من العسير قراءتها على غير الخبير بها ، ويوصف هذا النوع من الخط بالكوفى المضفر أو المجدول[٢٧] ، وخير أمثلته كتابة تزين دواة من النحاس المكفت بالفضة باسم السلطان المملوكى المنصور محمد المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م)[٢٨] ، حيث تتشابك حروف الكتابة مكونة أشكالا مربعة أو معينة بالتبادل[٢٩] .

وفى تطور تال للمراحل السابقة ظهرت صورة أخرى من صور الخط الكوفى اتسمت بالهيئة الهندسية المربعة وارتبطت بنقشها داخل مناطق مربعة أو مستطيلة أو دائرية ويرى بعض العلماء أن

---

(٢٦) من أمثلتها قدر من الخزف يعرف بخزف الفيوم — يرجع الى القرن الرابع الهجرى (١٠م) رقم السجل ١٥٩٨٠ وتزينه كتابة نصها « بركة كاملة » بالخط الكوفى المورق والمزهر — عبد الرءوف على يوسف ، الخزف (كتاب القاهرة — تاريخها — فنونها — آثارها — مؤسسة الأهرام بالقاهرة ١٩٧٠) ص ٣١٦—٣١٧ ، شكل ٧٦ .

(٢٧) اختلفت آراء العلماء فى تحديد المكان والزمان اللذين ظهر فيهما الخط الكوفى المجدول ، فالبعض ينسبه الى بلدان المغرب الاسلامى والاندلس حيث استخدم فى مسجد القيروان ، وانه انتقل منها الى بلدان الشرق ، بينما يقول رأى آخر بانتقاله من المشرق الى المغرب ، انظر :

Flury : op. cit. pp. 1744 — 1763, Figs. 607, 611.

(٢٨) محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة — رقم السجل ٤٤٦١ .

(٢٩) يعرف هذا التكوين الزخرفى باسم « عقدة القلب » لاتخاذه شكل قلب ويتميز بتعقيد زخارفه .

Flury : op. cit. pp. 1763 — 65.

هـذا النوع نشأ فى ايران متأثرا فى تربيع حروفه وترتيبها داخل أشكال هندسية بأشكال الكتابات الصينية التى اتخذت هيئة أختام مربعــة أو مستطيلة على المنتجات الفنية الصينية المختلفة ، وربما ساعد على انتشار هذا النوع من الكتابة استخدام قوالب الآجر فى زخرفة واجهات العمائر أو المآذن في ايران والمناطق المتاخمة لها[٣٠] ، وهي وسيلة تتناسب مع شكل هذا النوع من الخط الكوفي ، وان كان هذا لم يمنع من اســتخدامه فى زخرفة بعض المنتجات الفنية غير المعمارية ، ومن أمثلتها بلاطــة خزفية من صنع « غيبى بن التوريزى »[٣١] الذى نقش توقيعه على أركانها الأربعة بخط كوفى مربع مع تكرار بعض الكلمات حتى يشــغل الفراغ المتاح أمامه[٣٢] .

وبالاضافة الى الأنواع السابقة ابتكر الخطاط المسلم أشـــكالا أخرى من الخط الكوفى كالنوع المعروف بالكوفى ذى الاطار ، وفيــه تمتد نهايات حروفه القائمة يمينا أو يسارا مكونة إطارا أو حافة تحـف بالكتابة من أعلى ، ومن أمثلة كتابات هذا النوع كتابة باب شلا بالمغرب المؤرخة بسنة ٧٣٩هـ[٣٣] .

---

(٣٠) دكتور زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص٢٤٣ و ٢٤٤ ، شكل ١٧١ و ١٧٣ و١٧٥ ..

Safadi : Islamic Calligraphy. (London, 1978) p. 49. Fig. 27.

(٣١) محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة — رقم السجل ٢٠٧٧ — انظر : عبد الرءوف علي يوسف : غيبى بن التوريزى ، كتاب القاهرة — تاريخها ، فنونها — آثارها ، ص١١٨ — ١٩٩ ، شكل ٢١ .

(٣٢) ناجى زين الدين المصرف : بدائع الخط العربى ، بغداد ١٩٧٢ ، ص ٤٥٤ ، شكل ١١٧—١٣٠ .

(٣٣) دكتور ابراهيم جمعة : دراسة فى تطــور الكتابات الكوفية ، ص ٤٩ ، شكل ١ (ز) — دكتور زكى محمد حسن : المرجع السبق ، ص ٢٤٣ ، شكل ١٦٩ .

ويضيف بعض العلماء كتابات خط الكوفى المنفذة فوق أرضية نباتية مورقة (أرابيسك) الى أنواع الخط الكوفى[٣٤] ، ومن أجمل أمثلتها الكتابة التى تعلو جدران ايوان القبلة بمدرسة السلطان حسن بالقاهرة .

وتجدر الاشارة الى أن شيوع نوع معين من الخط الكوفى فى اقليم بعينه كان يصاحبه انتشار هذا النوع فى الأقاليم الاسلامية الأخرى ، فقد ظهر الخطان الكوفى المورق والمزهر فى منطقة ديار بكر بشمال العراق[٣٥] ، وسرعان ما انتشر فى مصر وغيرها من البلدان الاسلامية ، فى وقت معاصر — أى فى القرن الثالث الهجرى (٩م) حيث استخدما فى زخرفة الكثير من العمائر والمنتجات الفنية المختلفة[٣٦] ، كما عرف المغرب الاسلامى الخط الكوفى المورق والمزهر فى الفترة نفسها ، بل أن انتشار هذين النوعين من الخط الكوفى هناك جعل بعض العلماء يقول بابتكارهما فى بلدان المغرب الاسلامى أولا ثم انتقالهما الى بلدان المشرق وبخاصة الى مصر على أيدى الفاطميين[٣٧] .

وهكذا نرى أن تنوع الخط الكوفى الى أنواع جاء نتيجة الذوق الخاص بالخطاطين ، وذلك بحسب ما اختاروه وأضافوه ، الى حروف الخط المزواة من عناصر زخرفية بدأت بسيطة على هيئة شوكة أو شرطة ، ثم تطورت الى عناصر التوريق والتزهير ، ثم تعقدت باضافة عناصر

---

(٣٤) دكتور زكى محد حسن : المرجع السابق ، ص ٢٣٨—٢٣٩ ، شكل ١٦٤ .

(35) Flury : Islamische Schriftbander. (Amida — Diarbekr- XI Yahrhundert, Basel, 1920) pl. II.

(٣٦) دكتور زكى محمد حسن : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ، دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص٢١ .

(37) Marcais : Les Monuments Arabes de Telemcen. (Paris, 1903) p. 88.

الضفر أو الجدل ، ثم بلغت قمة التركيب فى صورة الكوفى المربع ، وفى معظم هذه الأنواع تميزت كتابات الخط الكوفى بالتجانس التام بين أشكال الحروف وما أضيف اليها من عناصر الزخرفة ، وعلى الرغم من أصالة هذا الاتجاه الزخرفى العربى الاسلامى — الذى يتفق مع ما عرف عن الفنان المسلم من حب للزخرفة وحرص على شغل الفراغ المتاح أمامه بالتكوينات الزخرفية العديدة والمتنوعة — على الرغم من هذا نرى بعض المستشرقين يقلل من هذا التفوق الفنى والزخرفى فعقدوا مقارنة بين زخارف حروف الخط الكوفى المورقة والمزهرة وبين بعض الزخارف التى أضيفت إلى بعض الحروف اللاتينية وقالوا بتأثر الخطاطين المسلمين بها ، وذلك بهدف إرجاع ما أحرزه الخطاط المسلم من تفوق وابتكار الى أصول أوروبية قديمة ، فقال فلورى فى دراسته لزخارف مآذن جامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة (٣٩٣هـ / ١٠٠٣م) أن الزخارف المورقة التى تميز الخط الكوفى على المئذنة الشمالية مأخوذة من زخارف الفن القبطى ، وضرب مثالا لهذا بزخرفة حرف « الواو » التى قال بأنها مأخوذة من زخارف بعض تيجان الأعمدة من العصر القبطى[٣٨] (شكل ١) .

كما رأى جروهمان تشابها بين الكتابة العربية على مئذنة جامع الحاكم وبين زخارف بعض الحروف اليونانية القديمة ودلل على ذلك بتشابه زخارف حرف « الف » فى كتابات المئذنة الغربية مع حرف I فى زخارف المخطوطات اليونانية من القرن السابع الميلادى ، وكذا رأى تشابها بين حرف الألف نفسه وحرف T فى بداية كلمة بأحد المخطوطات اليونانية يرجع الى القرن التاسع الميلادى[٣٩] . (شكل ٢ ، ٣ ، ٤) .

---

(38) Flury : Die Ornament der Hakim und Ashar Moschee. (Heidelberg, 1912) p. 45, pl. 10, Fig. 25.

(39) Grohmann : The Origin and early Development of Floriated Kufic. (Ars Orientalis, vol. 2. 1967) p. 211, pl. 10, Fig. 25, 32.



شكل (١)
حرف الواو فى كتابات المئذنة
الشمالية بجامع الحاكم بالقاهرة



شكل (٢)
حرف الألف فى كتابات المئذنة
الغربية بجامع الحاكم بالقاهرة



شكل (٣)
حرف I فى
أول الكلمة
فى مخطوط يونانى
من القرن ٧ م

شكل (٤)
حرف T فى
أول الكلمة
فى مخطوط يونانى
قرن ٩ م

والحق أن هناك اختلافا كبيرا بين زخارف التوريق التى إتخذتها بعض الحروف العربية وبين الحروف التى ذكرها كل من فاورى وجروهمان ، ذلك أن الزخارف القبطية التى أشار اليها الأول تختلف فى شكلها عن زخارف الخط الكوفى المورق فضلاً عن أنها لم تكن متصلة بحروف كتابية حتى يمكن مقارنتها بزخارف الخط الكوفى المورق ، كما تختلف زخارف الحروف فى المخطوطات اليونانية التى أشار اليها جروهمان عن زخارف الخط الكوفى المورق فبينما تندمج عناصر التوريق مع الحروف الكتابية الكوفية حتى أنها تبدو مكملة لها ، فان الحرف الكتابى اليونانى يبدو مستقلاً بذاته عن زخرفته التى تبدو مضافة اليه دون أى تجانس بين الاثنين (شكل ٣ ، ٤) فضلا عن أن بعض الكتابات اليونانية التى استشهد بها جروهمان يعود تاريخها الى القرن التاسع الميلادى — أى الى الوقت الذى كانت كتابات الخط الكوفى المورقة شائعة الاستخدام ، بل ويعود تاريخ معرفة الخطاطين المسلمين لها الى تاريخ أقدم من هذا القرن (٩م) ، وكل ذلك ينفى زعم جروهمان بل يدعو الى القول بعكس ماذهب اليه ، أى الى القول بتأثر الكتابات اليونانية فى القرن التاسع الميلادى بالكتابات الكوفية المورقة •

ومما يؤكد أصالة الخط الكوفى وزخارفه المورقة أن الخط النبطى نفسه — وهو الخط الام للخط العربى — كانت حروفه تزود بزيادات زخرفية ربما كانت الأساس الذى تطورت منه زخرفة التوريق فيما بعد (لوحة ١ ، ٢) فضلا عما سبق ذكره من أن توريق حروف الخط الكوفى جاء تطورا طبيعيا لاحقا لزخرفة بدايات حروفه ونهاياتها بزيادات زخرفية على هيئة الشرطة أو الشوكة الصغيرة •

الخط النسخ — أنواعه وتطوره :

سبقت الاشارة الى أن الخط النسخ كان معروفا منذ البدايات الأولى لاشتقاق الخط العربى من الخط النبطى ، وأنه كان مستخدما فى الكتابات اليومية العاديةالتى لها صفة السرعة ، ومن هنا عرف بالخطالنسخ

لسهولة وسرعة نسخه[٤٠] ، فكتبت به المراسلات والمعاهدات والحجج والوثائق المختلفة والمكاتبات المرتبطة بالحياة اليومية العادية ، وهى بطبيعتها كانت مستترة الى حد كبير ، وفى الوقت نفسه كان الخط الكوفى يستخدم فى الكتابات التسجيلية على العمائر وعلى شواهد القبور وقطع العملة فضلا عن المصاحف والمخطوطات المختلفة ، وكلها كتابات يغلب عليها الطابع الرسمى بما يوفره من علانية ووضوح فى التداول والشهرة

ولكن منذ أواخر القرن الخامس الهجرى وبداية القرن السادس بدأت كتابات خط النسخ تفرض نفسها وتتصدر الكتابات الرسمية التسجيلية ، أى بدأت تحل محل كتابات الخط الكوفى[٤١] ، فصارت تكتب بها المصاحف والمخطوطات ، وتنقش على العمائر ، وقطع العملة ، وتسجل بها أسماء المتوفين وأنسابهم ووظائفهم وتاريخ وفاتهم على شواهد القبور ، بينما صارت الكتابات الكوفية زخرفية أكثر منها تسجيلية.

واذا عدنا الى بداية ظهور الخط العربى وجدنا أن العرب المسلمين كانوا يستخدمون فى كتاباتهم اليومية خطا لينا كتب به كتاب النبى عليه الصلاة والسلام رسائله الى ملوك وأمراء الدول والامارات المجاورة[٤٢]، وتوارثه الكتاب فى العهود التالية ، ويتضح من بردية مؤرخه بسنة

---

(٤٠) يعود استخدام الخط اللين الى ما قبل اشتقاق الخط العربى ، اذ كان الانباط يستخدمون خطا لينا فى مكاتباتهم العادية غير التسجيلية — ابن النديم — الفهرست ، المكتبة التجارية — القاهرة ١٣٤٨هـ ، ص٩ .

(٤١) دكتور حسن الباشا — الخط الفنى العربى الاصيل ، ص ٢٨ — ٢٩ .

(٤٢) من أشهر هؤلاء الكتاب زيد بن ثابت الذى يقال انه كتب بالخط اللين صحائف القرآن الكريم — دكتور ابراهيم جمعة ، قصة الكتابة العربية ، الطبعة الثانية ، سلسلة اقرأ — العدد ٥٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ص ٢٣—٢٩ .

٣٢٢هـ أنها كتبت بخط لين فى هذا الوقت المبكر من تاريخ الخط العربى فى الاسلام [٤٣] .

ولم تمنع صدارة الخط الكوفى طوال القرون الخمسة الأولى للهجرة الخطاطين من محاولات تهذيب الخط اللين وتطويره ، ويرجع اهتمام الخطاطين العرب بالخط الى عدة عوامل من أهمها أنه وسيلة حفظ اللغة العربية وتسجيلها — وهى لغة القرآن الكريم ، ولغة أداء الشعائر ، ولغة الحاكم ، وقبل هذا وذاك تجدر الاشارة الى احتفاء القرآن الكريم باللغة والخط والعلم فى أكثر من موضع من آياته وسوره [٤٤] ، كما كان لرعاية الحكام المسلمين للخط والخطاطين أثرها فى تطوير الخط بدءا من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام الذى اتخذ له كتابا كانوا يدونون مايتنزل عليه من وحى السماء ، كما أنه عليه السلام كان يأمر باطلاق سراح الأسير اذا علم الكتابة لعشرة صبية من المسلمين وذلك تشجيعا على التعلم [٤٥] ، وقد أدى تعريب الدواوين فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦هـ) الى تنافس العاملين بها على تعلم اللغة العربية ووسيلتها الكتابة حتى يحتفظوا بوظائفهم أو سعيا لتولى وظائف جديدة ، فضلا عما أدى اليه من تعريب البلدان الخاضعة

---

(٤٣) دكتور حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٤٤) من المعروف أن أول سورة نزلت من القرآن الكريم بدات بالدعوة للتعلم والقراءة فى قوله تعالى فى سورة العلق « اقرأ باسم ربك الذى خلق » كما أقسم الله تعالى بالحروف وبالقلم نفسه فى أول سورة القلم فى قوله تعالى « ن والقلم وما يسطرون » وربما جاء الاعتقاد بأن لبعض الحروف قداسة من قسم الله بها فى بداية العديد من السور القرآنية ، بل ان الأمر وصل الى أبعد من هذا باعتقاد البعض ان للحروف قوى سحرية تكمن فى كتابتها بترتيب خاص من باب التيمن أو التبرك به — انظر :

ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٦١ — ٥٩٢ .

(٤٥) دكتور حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

للاسلام ، ومن ضبط دواوينها وسك عملة اسلامية جديدة باللغة العربية [٤٦] لأول مرة .

ويضاف الى العوامل السابقة امتداد العالم الاسلامى فى رقعة واسعة من حدود الصين شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، ومن مرتفعات آسيا الصغرى شمالا الى البحر العربى جنوبا ، وانتشار الخط العربى فيها بسرعة كبيرة مما أدى الى اهتمام شعوب هذه المناطق به وتطوير العاشقين له لأنواعه وصوره ، وليس أدل على هذا من اتخاذ الخط العربى وسيلة لكتابة بعض اللغات غير العربية فى آسيا وافريقيا ، وهو الأمر الذى لايزال قائما حتى الآن فى بعض أقاليم القارتين [٤٧] .

وهناك عامل آخر كان وراء تطور الخط العربى واشتقاق أنواع جديدة منه ، ونعنى به توفر خصائص المرونة والمطاوعة وقابلية حروفه للمد والثنى والادغام والبسط والتقوير والتدوير والتربيع وغيرها من الهيئات حتى بلغت صور الحرف العربى الواحد أكثر من مائة صورة [٤٨] فى بعض الأحيان .

وربما يتصل بهذا العامل أيضا حرص الفنان المسلم على زخرفة كتاباته ، باضافة العناصر الزخرفية العديدة اليها وخاصة بعدما شاع فى فترة من الفترات أن الاسلام يحرم التصوير أو يكرهه ، فوجد الفنان المسلم فى الخط وزخارفه مجالا فسيحا يظهر فيه قدراته الفنية ويعوضه عما فقده فى مجال التصوير [٤٩] .

---

(٤٦) دكتور ابراهيم أحمد العدوى : مصر الاسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٢٣١ــ ٢٣٦ .

(٤٧) دكتور ابراهيم جمعة : المرجع السابق ، ص ٣٥ــ٣٩ .

(٤٨) دكتور حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٤٩) المرجع نفسه ، ص ٢٥ .

ولا ننسى أن معرفة المسلمين لصناعة الورق منذ النصف الأول من القرن الثانى الهجرى أدت الى زيادة اقبالهم على الكتابة والنسخ وبالتالى الى زيادة الاهتمام بالخط وفنونه(٥٠) .

واستغرقت محاولات تطوير الخط العربى قرونا عديدة ، وقام بها نفر كثير من كبار الخطاطين العرب والمسلمين ، وظهرت ثمرات جهودهم فى مجال الخط الكوفى فيما أضافوه الى حروفه من عناصر زخرفية أدت الى تنوعه كما ذكرنا من قبل ، أما فى مجال خط النسخ فقد اعتمدت جهود الخطاطين على أسس علمية ودراسات متأنية كان أبرز نتائجها وضع قواعد ثابتة للكتابة النسخية ، وابتكار صور جديدة عديدة لكل منها قواعده ومعاييره الخاصة ، بل ووضع مؤلفات تتناول خط النسخ وفروعه بالدراسة والتقنين وتتبع مراحل تطوره ، وهى ميزة لم تتوفر من قبل للخط الكوفى ، وذلك لارتباطه بأذواق الخطاطين فى حين ارتبط خط النسخ بدراسات الخطاطين الرواد وبقواعد الكتابة التى توصلوا اليها لكل خط(٥١) .

وتعود أقدم مراحل تطوير الخط النسخ الى الخطاط « قطبة المحرر » فى أواخر العهد الأموى وأوائل عهد الدولة العباسية(٥٢) ، اذ بدأ يهذب الخط المقور ويستخرج منه خطوطا أكثر دقة(٥٣) ، ثم أكمل جهوده من بعده خطاطان من الشام هما : « الضحاك بن عجلان » و « اسحق بن

---

(٥٠) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، لجنة التاليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ ، جـ ١ ص ٢٣٧ .

دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الاسلامية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص١٨٩ — ١٩٠ .

(٥١) دكتور حسن الباشا : الخط الفن العربى الأصيل — ص٢٨ .

(52) Kratchkoveskey : op. cit. pp. 1770 — 1771.

(٥٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٠ .

حماد » فى أوائل العهد العباسى ، ونجحا فى استنباط قلم « الطومار » أو القلم « الجليل »[٥٤] ، وظل الطومار يستخدم فى الدواوين الرئيسية كديوان الانشاء حتى عصر المماليك حيث عاصره القلقشندى عند عمله بالديوان فى حوالى سنة ٧٩١هـ [٥٥] .

وبينما اقتصر الطومار على كتابة علامات السلطان على مكاتباته اشتق قلم أصغر مساحة منه عرف بمختصر الطومار كان يستخدم فى مكاتبات الوزراء والنواب ومراسيمهم[٥٦] .

وفى عهد الدولة العباسية أثمرت جهود خطاط آخر هو : « ابراهيم الشجرى (أو السجستانى) فى ابتكار صورتين من صور خط النسخ هما قلم الثلثين الذى عرف بهذا الاسم لبلوغه ثلثى عرض قلم الطومار[٥٧] ، وكان يستخدم فى مكاتبات الخلفاء الى ولاة الأقاليم[٥٨]، وقلم خفيف الثلث الذى تميز بحروفه الرقيقة وحجمه الدقيق[٥٩] .

---

(٥٤) عرف الطومار باسمه نسبة الى نوع الورق وحجمه الذى كان يكتب به عليه حيث كان ذا حجم كبير ، وكذلك كان عرض القلم نفسه وقدره الخبراء الأقدمون بأربع وعشرين شعرة من شعر الحصان — كما عرف بالجليل لضخامته أيضا وجلال هيئته — انظر : القلقشندى — صبح الاعشى — جـ ٣ — ص ١٦ .

(٥٥) دكتور حسن الباشا : الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٩٨ .

(٥٦) يقدر عرض قلم مختصر الطومار بثمانى عشرة شعرة أو أكثر قليلا ، القلقشندى ، المرجع السابق ، جـ٣ ، ص٥٩ ،. محمد طاهر الكردى، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٥٧) أى ست عشرة شعرة ، القلقشندى ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٥٨) ابن النديم ، الفهرست ، ص١١ .

(٥٩) كان عرضه يقل شعرتين عن عرض قلم الثلث البالغ ثمانى شعرات وان كان من الصعب التمييز بينهما ، القلقشندى — المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ١٠٤ .

وتمثلت أهم خطوات تطوير خط النسـخ واشتقاق أنواع جديدة مميزة منه فى عهد « ابن مقلة » وأخيه « عبد الله » ، ويعود تاريخ ابن مقلة الى[60] نهاية القرن الثالث الهجرى (٩م) واليه يعود الفضل فى حصر وتجميع عشرين نوعا من خط النسخ ــ كان قد توصل اليها الخطاطون السابقون عليه ــ فى ستة أنواع فقط هى : النسخ ، والثلث ، والتعليق ، والريحان ، والمحقق ، والرقاع (الرقعة) كما نجح ابن مقلة فى وضع قواعد ثابتة لحروف كل خط منها ، فضلا عن دوره فى نشر الخط البديع (النسخ الحالى) فى بلدان العالم الاسلامى، وتفضيله فى كتابة المصاحف[61] .

كما برع فى مجال الخط أخوه « أبو عبد الله » الحسن بن مقلة والتزم بالقواعد التى وضعها أخوه ، وتفوق على أخيه فى كتابة خط النسـخ [62] .

وسار على درب ابن مقلة عدد من الخطاطين من أمثال : « ابن

---

(٦٠) ولد ابن مقلة فى ٢١ من شوال سنة ٢٧٢ هـ وتوفى فى ١٠ من شوال سنة ٣٢٨ هـ ، ووصل الى وظيفة الوزير ثلاث مرات فى عهود الخلفاء العباسيين المقتدر والقادر والراضى ، وقد أشاد بفضله المؤرخون الأقدمون ، والمحدثون على السواء .

انظر : ابن النديم : الفهرست ، ص١٤ ، دكتور سهيل أنور : الخطاط البغدادى على بن بن هلال الشهير بابن البواب ، ترجمة محمد بهجت الاثرى وعزيز سامى ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ، بغداد ، ١٩٥٨ ، ص ١٥ــ١٦ .

(٦١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، ج٣ ، ص ٥٥ ــ سيد ابراهيم : الخط العربى ، أصله وتطوره (حلقة بحث الخط العربى) ، ص ١٥ــ١٦ .

(٦٢) يعود تاريخ ابن عبد الله الى الفترة من ٢٧٨ ــ ٣٣٨ هـ ــ ابن النديم ــ الفهرست ــ ص ١٤ .

عبد السلام » الذى أتم القواعد التى أرساها ابن مقلة[٦٣] و « محمد بن السمانى » و « محمد بن أسد » ، حتى جاء « أبو الحسن على بن هلال » المعروف « بابن البواب »[٦٤] وهو يمثل مرحلة هامة من مراحل تطوير خط النسخ واستقرار أشكاله ، اذ أنه نجح فى الجمع بين النسب والقواعد التى أرساها ابن مقلة ، وبين الجمال الفنى لكتاباته[٦٥] .

وخلف ابن البواب فى رعاية خط النسخ وتطويره عدد كبير من الخطاطين حتى اكتملت جودة الخط ونضجت أشكاله كلها فى القرن السابع الهجرى (١٣م) على يد خطاط شهير آخر هو ياقوت المستعصمى الذى عرف « بقبلة الكتاب » لعلمه وخبرته بفنون الخط[٦٦] .

وتجدر الاشارة الى أن تحسين خط النسخ وتطويره لم يقتصر على مدرسة العراق وحدها وانما ساهمت مصر وايران وتركيا بجهود خطاطيها فى هذا المجال منذ وقت مبكر ومعاصر لجهود مدرسة العراق[٦٧] ، كما أن هذه الجهود وثمارها لم تكن قاصرة على البلدان

---

(٦٣) دكتور حسن الباشا : الخط الفن العربى الأصيل ، ص ٢٩ .

(٦٤) كان الخطاط ابن البواب عالما جليلا ، حفظ القرآن الكريم ، ونظم الشعر ، وبين قصائده قصيدة شرح فيها قواعد الخط وادوات الكتابة ، وقد حظى بالعديد من الدراسات التى تناولت جهوده فى مجال خط النسخ وتطويره ومن أهمها دراسة دكتور سهيل أنور بعنوان « الخطاط البغدادى على بن هلال المشهور بابن البواب » . والتى قام بنشرها المجمع العلمى العراقى ببغداد سنة ١٩٥٨ ، وقد توفى ابن البواب سنة ٤١٣هـ .

(٦٥) دكتور حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٦٦) دكتور سهيل أنور : المرجع السابق ، ص ١٨ـ١٩ . ، دكتور حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٦٧) على سبيل المثال كان ديوان المكاتبات المصرى فى عهد أحمد ابن طولون يضم الخطاط الشهير المصرى « طبطب » الذى بلغت شهرته حدا جعل أهل العراق يتمنون لو أن للخلافة العباسية ببغداد مثله ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٣ صفحة ١٣ ـ دكتور حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ، صفحة ١٦ .

التى عاش فيها خطاطوها وانما سرعان ما كان صداها ينتشر فى سائر بلدان العالم الاسلامى ، وان كان كل من هذه البلدان قد اختار صورة أو أكثر من صور أو أنواع خط النسـخ تلائم روحه الفنية وذوق خطاطيه ، من ذلك مثلا شـيوع خط النسخ (بمفهومه الحالى) فى سوريا فى العصر الأتابكى ، حيث كان لحكامها من أسرة الأتابكة فضل العناية به ونشره فى البلدان التى خضعت لحكمهم فى الجزيرة والشام ، وبلغ خط النسخ هناك درجة من النضـج والجمال جعلته يوصف أحيـانا بالخط البديع أو المنسوب[٦٨] .

وفى عهـد المماليك تطـور خط الثلث وغلب استخدامه فى مصر وسوريا حيث تصدر الكتابات التسجيلية على العمائر وشواهد القبور ، وقطع العملة وعلى المنتجات الفنية المختلفة ، كما كتبت به المصـاحف والمخطوطات ، ومن أمثلة كتابات خط الثلث التى وصلتنا من ذلك العصر تلك التى تعلو جدران الواجهة فى مدرسة السلطان قلاوون بحى النحاسين بالقـاهرة[٦٩] ، والكتـابات التى تعلو جدران المدفن الملحق بمدرسـة السلطان حسن ــ من الداخل[٧٠] .

كما لعبت كتابات خط الثلث دورا رئيسيا فى زخرفة معظم المنتجات الفنية المصنوعة فى ذلك العصر من مواد مختلفة ومن أشهرها كرسى عشاء من النحـاس المكفت عليه كتابات باسـم السـلطان الناصر محمد ابن

---

(٦٨) دكتور ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ، ص ٦٢ــ٦٣ .

(٦٩) تحدد الكتابة تاريخ الفراغ من انشاء المدرسة فى سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) ــ انظر :

دكتور حسن الباشا : سيف الدين قلاوون (كتاب القاهرة ــ تاريخها ــ فنونها ــ آثارها) ، ص ١٣٨ ، شكل ٢٥ و٢٦ .

(٧٠) يعود تاريخ بناء المدرسة الى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م) انظر : دكتور صالح لمعى مصطفى : التراث المعمارى الاسلامى فى مصر ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٦٥ .

قلاوون [٧١] ، وتوقيع الصانع محمد بن سنقر البغدادى وتاريخ الصنع سـنة ٧٢٨ هـ ، ومشكاة من الزجاج المموه بالمينا عليها كتابة باسم الأمير سيف الدين ألماس الذى كان أميرا حاجبا فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ — ٧٤١هـ) ، كما زودت المشكاة نفسها بتوقيع صانعها « على ابن محمد أمكى » على قاعدتها [٧٢] ومصحف باسم السلطان أبى المظفر شعبان مؤرخ بسنة ٧٧٠ هـ [٧٣] .

كما نجح الخطاط فى طبع الكتابات على النسيج بهيئات زخرفية متنوعة ، ومن بينها قطعة من النسيج تعود الى العصر العثمانى تزينها كتابات بخط الثلث نفذت داخل أشرطة متعرجة واسعة وضيقة [٧٤] .

أما فى العراق فشاع استخدام الخط النسخ (بمفهومه الحالى) فى العصرين السلجوقى ، والأتابكى ، حتى أنه أصبح الخط الرسمى

---

(٧١) محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٣٩ .

انظر : حسين عليوه : كرسى الناصر (كتاب القاهرة — تاريخها — فنونها — آثارها) ، ص ٥٣٢—٥٣٦ .

(٧٢) محفوظة بتمحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٣١٥٤ .
انظر : معرض الفن الاسلامى فى مصر ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

(٧٣) محفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، تحت رقم ٩/٢٨٩ مصاحف.

انظر : دليل معرض الفن الاسلامى فى مصر ، ص ٣٩٦ ، ٤٤٢ ، لوحة ٥٣ .

(٧٤) قطعة من ستار كان يستخدم فى تغطية الأضرحة أو للتعليق على جدرانها ، محفوظ بمتحف طوبقابى سراى باستانبول .

انظر : دكتور محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية فى العصر العثمانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٠٥ ، شكل ٣١ .

خلالهما ، وحل محل الخط الكوفى فى كل المجالات التى كان يستخدم فيها ، وسادت فى مدينة الموصل تقاليد فنية مميزة نلمسها فى الكتابات التى نقشت على التحف المعدنية الموصلية التى ترجع الى القرن السابع الهجرى (١٣م) ومن أمثلتها دواة من نحاس مكفت بالذهب والفضة مؤرخة بسنة ٦٨٠ هـ وتحمل توقيع صانعها « محمود بن سنقر »[٧٥] .

ولم يختلف الأمر كثيرا فى ايران عنه فى العراق من حيث ذيوع خط النسخ فى العصر السجلوقى (٤٢٩ — ٧٠٠هـ) مع استخدام الخط الكوفى الى جانبه كعنصر زخرفى ، أو لكتابة النصوص الأقل أهمية[٧٦] ، ومن أشهر ما وصلنا من منتجات ذلك العصر اناء برونزى مؤرخ بسنة ٥٥٩هـ (١١٦٣م) تزينه أشرطة كتابية نسخية تميزت حروفها بكثرة استدارتها وصغر حجمها ، فضلا عن تشكيل بعض الحروف على هيئة وجوه آدمية[٧٧] .

أما فى العصرين التيمورى والصفوى قد شاع استخدام خط

---

(٧٥) محفوظة بالمتحف البريطانى بلندن وقد نقش توقيع الصانع على غطاء الدواة فى اربعة أسطر نصها : عمل/ محمود بن سنقر/فى سنة ثمانين /وستماية . انظر :

Barett : Islamic Metal work in the British Museum. (London, 1949) p. 18, pls. 32—33.

(٧٦) دكتور زكى محمد حسن : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ، ص ٢١—٢٢ .

(٧٧) الاناء محفوظ بمتحف الهرميتاج بالينينجراد — ويرجع الى صناعة مدينة هراة فى التاريخ المذكور ، كينل ، الفن الاسلامى ، ص ٧٩ — ٨٠ ، صورة ٣٦ .

النستعليق[٧٨] ، الذى عرف فيما بعد بالخط الفارسى ، وأصبح السمة المميزة للمنتجات الفنية أو المعمارية الايرانية ، ومن أشهر خطاطيه بايران فى القرن التاسع الهجري (١٥م) مير على التبريزى[٧٩] ، وابراهيم سلطان[٨٠] وسلطان على المشهدى[٨١] .

ومن أهم مميزات خط النستعليق أنه لاتختلط بحروفه حروف أخرى من أى قلم ، ولا يضم علامات الحركة ، وتنقط فيه السين بثلاث

---

(٧٨) هو مزيج من خطى النسخ والتعليق ويتميز برشاقة حروفة وميلها من اليمين الى اليسار فى اتجاهها من أعلى الى اسفل ويعود أقدم ما وصل منه الى اوائل القرن الخامس الهجرى (١١ م) وظل يتطور فى ايران حتى بلغ نضجه فى العصرين التيمورى والصفوى .

أنظر : دكتور زكى محمد حسن : المرجع السابق ، ص٦٨ .

محمد طاهر الكردى : المرجع السابق ، ص١٠٥ .

ناجى زين الدين : مصور الخط العربى ، ص ٣٧٥ .

(٧٩) من أبدع أعماله واقدمها نسخة من مخطوط قصة غرام هماى وهمايون للشاعر الايرانى خواجو كرمانى محفوظ بالمتحف البريطانى ، مؤرخة بسنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٧ م) ديماند — الفنون الاسلامية (ترجمة أحمد محمد عيسى — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر ١٩٥٨) ص ٨١ .

(٨٠) اشتهر ابراهيم سلطان بمهارته فى التلاعب بالحروف وأشكالها ، ومقدرته على الكتابة بستة أساليب مختلفة ، ومن أشهر منتجاته الخطية — مصحف كتبه بخط يده سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) محفوظ بضريح الامام الرضا بمدينة مشهد بايران . وله مصحف آخر محفوظ بمتحف المتروبوليتان بنيويورك مؤرخ فى ٤ رمضان سنة ٨٣٠ هـ (٢٩ يونيو ١٤٢٧ م) ديماند ، المرجع نفسه .

(٨١) عمل سلطان على المشهدى فى بلاط حسين ميرزا بمدينة هراة ووصلنا من انتاجه نسخة من ديوان الشاعر مير علي شير نوائى مؤرخة بسنة ٩٠٥ هـ (١٤٩٩/١٥٠٠ م) ويحتفظ بها متحف المتروبوليتان — ديماند — المرجع نفسه .

نقط من أسفل للزخرفة ، كما ترسم فيه الهاء المنفردة بهيئة مستديرة[٨٢] ، وتظهر هذه الخصائص فى صفحة من مخطوط جلستان سعدي يرجع الى القرن العاشر الهجرى (١٦ م)[٨٣] .

وعرف الخط النسخ بأنواعه المختلفة أيضـــا فى بلدان المغرب الاسلامى والأندلس ، واستخدم فى سائر المجالات الى جانب الكتابات الكوفية التى حافظت عليها بلدان المغرب والأندلس[٨٤] ، وتميزت كتابات خط النسخ هناك باطالة الحروف القائمة ، وبالتداخل بين بعض الحروف والكلمات ، وبرسم هامات الحروف القائمة بهيئة كبيرة الحجم ونهايات الحروف بهيئة مدببة ، وبنقط حرف الفاء بنقطة واحدة ولكن من أسفل ، وبرسم الصـــاد واختها ، والطاء وأختها بغير سنة تلى رأس كل منها ، ويلاحظ أن الخطاطين فى المغرب الاسلامى احتفظوا ببعض صور الحروف الكوفية فى كتاباتهم النسخية ، وربما يرجع هذا الى اعتقادهم بأن الخط الكوفى هو الخط الأصل الذى عايشوه واستخدموه طوال القرون الخمسة الأولى للهجرة ، ولاقى قبـــولا وذيوعا كبـــيرا لديهم[٨٥] ، وتتمثل هذه هذه الخصائص فى احدى صفحات مصحف من مراكش يعود الى القرن السادس أو السابع الهجرى (١٢ – ١٣ م)[٨٦] .

---

(٨٢) ناجى زين الدين المصرف : المرجع السابق ، ص ٣٧٦ .

(٨٣) محفوظ بمتحف المتروبوليتان أيضا – ديماند – المرجع السابق ، ص ٨٤ ، شكل ٤٤ .

(٨٤) دكتور ابراهيم جمعة : دراسة فى تطور الكتابات الكوفية – ص٧٢

(٨٥) المرجع نفسه وانظر أيضا :

Levi Provencal : Inscription Arabes d'Espagne. pp. 28 — 36., Marcais. Manuel d'Art Musulman. T. 1, pp. 165—168.

(٨٦) محفوظة بمتحف المتروبوليتان – ديماند – المرجع السابق ، ص ٧٨ ، لوحة ٣٩ .

ولم تكن آسيا الصغرى فى العصر العثمانى أقل اسهاما من غيرها فى تطوير أنواع الخط النسخ ، فقد عرفت خطوط النسخ والثلث والتعليق والجلى ، كما نجح الخطاطون الأتراك فى اشتقاق صور جديدة من خط النسخ كان من أهمها الغبار – أو الغبارى ، والخط المثنى ، والمحقق والطغراء والخط الديوانى ، وخط الرقعة وغيرها[٨٧] .

ويعتبر الخط الغبارى صورة مصغرة دقيقة من خط النسخ ، واستخدمه الخطاطون الأتراك فى كتابة بعض آيات وسور كاملة من القرآن الكريم على حبة من أرز أو على بيضة دجاج صغيرة ، أو فى كتابة المصحف كاملا بحجم صغير للغاية أمكن معه وضعه فى علبة صغيرة من فضة أو ذهب[٨٨] .

أما الخط المثنى – أو الكتابة المنعكسة كما يسمى أحيانا فيمثل اعجازا آخر حققه الخطاط التركي في العصر العثماني ، حيث برع فى كتابة عبارة واحدة مكونة من عدة كلمات مرتين متعاكستين فضلا عن حرصه على أن تتخذ الكتابة بهذه الهيئة شكلا زخرفيا دقيقا وجميلا[٨٩] (لوحة ٨) .

وتعتبر الطغراء صورة أخرى من صور الاعجاز الفنى الذى حققه الخطاط التركى باخراجه صورة جديدة من الطغراء لم تكن معروفة

---

(٨٧) كينل : المرجع السابق ، ص ١٧٣ – دكتور محمد عبد العزيز مرزوق : المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(٨٨) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بأمثلة عديدة من هذه الكتابات وتعرض بعضها بمعرضها الدائم عن فنون الخط العربى .

انظر : دكتور محمد عبد العزيز مرزوق : المرجع السابق ، ص ١٧٩ – ١٨٠ .

(٨٩) يحتفظ متحف قصر المنيل بالقاهرة بمجموعة كبيرة من اللوحات الخطية ذات الكتابات المنعكسة من العصر التركى العثمانى – انظر دليل متحف قصر المنيل ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٥٣ – ٥٩ .

من قبل[٩٠] ، وتختلف عن الطغراء التى عرفت فى عصر المماليك[٩١] واستخدمت الطغراء التركية أولا كاطار يضم بداخله اسم السلطان وألقابه فى صورة توقيع أو علامة خاصة بالسلطان (لوحة ٣٨) ثم تطور استخدام الطغراء لتصبح شكلا زخرفيا تتخذه بعض الكتابات القرآنية أو العبارات الدعائية فضلا عن تزويدها أحيانا ببعض العناصر الزخرفية النباتية .

أما الخط المحقق فليس صورة جديدة من الخط النسخ بقدر ما هو صورة محكمة دقيقة للخط بمعنى اعطاء كل حرف حده من العناية والجودة، ويدلنا اتجاه الخطاطين الأتراك الى هذه الصورة من الخط على مدى حرصهم على اجادة أعمالهم الخطية ، ولهذا كانت كتابة المصاحف الشريفة أهم مجالات استخدامه[٩٢] .

وخط الرقعة من الأقلام النسخية المتميزة بصغر الحجم ودقة الحروف ، ولهذا استخدم بكثرة منذ التوصل الى صورته فى كتابة « الرقاع » أي الوريقات الصغيرة لكتابة الرسائل العادية وما يشبهها ، وقد أجاده الخطاطون الأتراك فى العصر العثمانى [٩٣] .

---

(٩٠) عرفت الطغراء من قبل عند سلاجقة العراق وسلاجقة الروم ، كما عرفتها مصر والشام فى عصر المماليك ولكن بصور اخرى — دكتور محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع السابق ، ص ١٨٠—١٨١ .

(٩١) طغراء باسم السلطان المملوكى البحرى الاشرف شعبان (١٣٦٣ — ١٣٧٦ م) أمدنا بها القلقشندى فى صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ١٦٦ ونصها :

« السلطان الملك الاشرف ناصر الدنيا والدين ابن الملك الامجد ابن السلطان الملك الناصر ابن الملك المنصور قلاوون » .

ويتوسط الحروف القائمة اسم السلطان نفسه « شعبان بن حسين » .

(٩٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٢٢ — ناجى زين الدين : بدائع الخط العربى ، ص ٤٦٥ .

(٩٣) دكتور محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ والحاشية .

أما الخط الديوانى فقد ارتبط بالأتراك العثمانيين حيث يعود اليهم فضل ابتكاره وتحسينه ونشره ، وهو خط تزدحم فيه الكلمات وتتزاحم بما لا يترك بينها أي فراغ يسمح باضافة حرف أو كلمة ، ولهذا استخدم بكثرة فى المكاتبات الرسمية والأوامر الصادرة من الدواوين الحكومية أو من السلطان حيث كان قصره يضم خطاطين متخصصين فى كتابته[٩٤] (لوحة ٧) .

ويمكننا أن نقرر أن الدور الزخرفي للكتابات الأثرية العربية يقوم على عدة أسس أولها ما رأيناه من تنوع الخطوط العربية الكوفية والنسخية ، وتميز حروفها بالمرونة والمطاوعة مما ساعد الخطاط على تشكيلها فى هيئات عديدة متميزة ، فضلا عما هو معروف عن أن الحروف العربية تتخذ أشكالا مختلفة بحسب موقع الحرف من الكلمة وصلته بالحرف السابق أو اللاحق ، كا كان للمادة التى نقشت عليها الكتابات الأثرية وطريقة النقش أثرهما على الدور الزخرفى لهذه الكتابات ، ومن الطبيعى أن يختلف شكل الكتابة المنسوجة أو المطرزة عن شكل الكتابة المحفورة أو المكفتة على المعدن ، أو المطعمة على الخشب ، أو المموهة بالمينا على الزجاج ، كما تختلف الكتابة المذهبة على صفحة مصحف عن تلك المذهبة على نصل سيف .

وبالاضافة الى ذلك فان تصميم الكتابة نفسه كان له دوره فى توفير الطابع الجمالى للأعمال الخطية ، وتدلنا الكتابات الأثرية التى وصلتنا على أن الفنان المسلم نجح فى تصميم كتاباته بأشكال متنوعة داخل أشرطة ضيقة متكررة أو متعاكسة كما على بعض قطع النسيج الفاطمى (لوحة ٣)[٩٥] ، أو داخل أشرطة عريضة طويلة كما في الأطار الكتابى

---

(٩٤) المرجع السابق ، ص١٨٣ — ١٨٤ ، ناجى زين الدين : مصور الخط العربى ، ص ٣٤٥ ، بدائع الخط العربى ، ص ٤٦٢ .

(٩٥) قطعة من النسيج الفاطمى باسم الخليفة العزيز بالله عليها شريطان كتابيان بخط الكوفى المورق وبينهما شريط زخرفى من رسوم البط ، متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٩٤٤٥ .

الذى يعلو واجهة مدرسة قلاوون بالقاهرة أو داخل مناطق ضيقة كتلك التى تزخرف نصل سيف باسم السلطان الناصر محمد ابن قلاوون[96] ، أو داخل دائرة اتخذت الكتابة فيها هيئة أشعاعية كتلك التى تزخرف القرصة العليا لكرسى عشاء الناصر محمد (لوحة ٤)[97] .

كما نجح الخطاط المسلم فى تصميم كتاباته بدقة ووضوح داخل مساحات صغيرة بطبيعتها كالكتابة داخل شبك قلة[98] ، أو على قطعة عملة[99] ، ونجح أيضا فى تصميم كتاباته ، وتنفيذها على أسطح مستوية كالكتابة على بدن زهرية أو مشكاة[100] . أو فى قاع طبق أو على جوانب سلطانية[101] ، أو على حافة صينية أو مبخرة ، أو على سطح حامل منشورى

---

(٩٦) محفوظ بمتحف طوبقابى سراى باستانبول ، رقم السجل ١/٣٥٢٠ .

(٩٧) محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٣٩ .

(٩٨) محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٧١٠٢ .

(٩٩) فلس نحاس باسم السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون ، ضرب القاهرة سنة ٧١٠ هـ ، من مجموعة باول ، بالوج :

Baloge : The Coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syrie. (New York, 1964) p. 152, No. 232.

(١٠٠) مشكاة من الزجاج المموه بالمينا باسم الامير الماس ، حاجب السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٣١٥٤ .

(١٠١) سلطانية من الفخار المطلى بالمينا باسم الأمير المملوكى شهاب الدين بن قرجى الناصري المتوفى سنة ٧٤١ هـ ، متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٣٩٤٥ .

الشــكل[١٠٢] •

ونجح الخطاط أيضا فى الجمع بين تصميمات متنوعة لكتاباته على عمل فني واحد كما في زخارفه الكتابية على نسيج مغربى كان يستخدم كغطاء لضريح وضم كتابات نسخية نفذت داخل مناطق نجمية وأخــرى دائرية مفصصة أو مستطيلة الشكل ، وأخرى كوفية مربعة[١٠٣] •

كما صممت كتابات أثرية أخرى على العمائر أو على التحف المنقولة بهيئة معقودة[١٠٤] ، أو داخل خرطوش كتابى مستدير[١٠٥] •

وفى مجال الاعجاز الفنى أمدنا الخطاط المسلم بتصميمات كتابية تشهد له باجتياز مرحلة الخبرة الى مرحلة الاعجاز حيث صمم بــعض الكتــابات عــلى هيئــة انســان أو حيــوان[١٠٦] أو طــائر[١٠٧] ،

(١٠٢) حامل من النحاس المكفت بالفضة من عصر المماليك (قرن ٨ هـ/ ١٤ م) محفوظ بمتحف المتروبوليتان بنيويورك •

Mayer : Saracenic Heraldry. pp. 94 — 95, pl. 38.

(103) Safadi : Islamic Calligraphy p. 113, pl. 125.

(١٠٤) عقد المحراب القديم بالجامع الازهر ، دكتور أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها جـ ١ ، لوحة ١٤ •

(١٠٥) شمعدان نحاسى باسم السلطان قايتباى ، مؤرخ بسنة ٨٨٧ هـ ، ويتوسط كتابات البدن خرطوش كتابي باسم السلطان والقابه ، متحــف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٤٠٧٢ •

(١٠٦) كتابات نسخية شيعية اتخذت هيئة حصان ، ايران (قرن ١٣ هـ/١٩ م) :

Safadi : op. cit. p. 137, Fig. 156.

(١٠٧) كتابات نسخية بخط الثلث اتخذت هيئة صقر ، ايران (قرن ١٣ هـ/١٩ م) •

Safadi : op. cit. p. 137, Fig. 156.

أو على هيئة مسجد[١٠٨] أو دورق[١٠٩] أو كف آدمى[١١٠] .

بل أنه نقش بعض الكتابات وقد تشكلت حروفها على هيئة كائنات حية ، اذ صور حرف الألف على هيئة انسان واقف ، وحرف العين على هيئة رأس آدمى ، وحرف الراء على هيئة بطة وهكذا ، ويتمثل هذا بوضوح فى كتابة « حية » نقشت بالتكفيت بالفضة على رقبة شمعدان من النحاس باسم الأمير المملوكى زين الدين كتبغا المنصورى (لوحة ٦)[١١١] .

كما راعى الفنان المسلم الملاءمة بين شكل الكتابة ووظيفة العمل الفنى المنقوشة عليه ، ويظهر هذا فى كتابة تزخرف شمعدانا نحاسيا باسم السلطان المملوكى قايتباى شكلت نهايات حروفها القائمة على هيئة ألسن اللهب المتقاطعة التى أمالها النسيم يمينا ويسارا ، وهى هيئة تتناسب مع نقشها على بدن شمعدان كانت وظيفته حمل الشموع للاضاءة[١١٢] .

وهكذا يتبين لنا مدى أهمية الكتابات العربية كعنصر زخرفى لعب دورا رئيسيا بين زخارف الأعمال الفنية الاسلامية ، وبلغ من أهمية هذا

---

(١٠٨) كتابات كوفية اتخذت هيئة مسجد من بورصة بتركيا (قرن ١٢ هـ/١٨ م) . Safadi : op. cit. p. 135, Fig. 152.

(١٠٩) كتابة متعاكسة لحرف الواو داخل اطار على هيئةدورق ، من تركيا ، قرن ١٢ هـ/١٨ م .. Safadi : op. cit. p. 137, Fig. 157.

(١١٠) رأس علم ايرانى يتخذ هيئة كف ادمى نقشت عليه كتابات بالخط الفارسى تضم أسماء الائمة الاثنى عشرية وبعض العبارات الشيعية ، ايران ، قرن ١٢ هـ/١٨ م . Safadi : op. cit. p. 121, pl. 134.

(١١١) محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٤٤٦٣ . انظر دراسة عنه للدكتور حسن الباشا : كتاب القاهرة ، تاريخها وفنونها وآثارها ، ص ٥٢٦ــ٥٣١ ، شكل ١٢٣ــ١٢٥ .

(١١٢) متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٤٠٧٢ .

الدور أنه كان يمثل العنصر الزخرفي الوحيد على بعض الأعمال ، كما يؤكد هذا الدور الزخرفي أن بعض الأعمال الفنية زخرفت برسوم حروف كتابية كوفية أو نسخية رسمت لذاتها دون أن يتكون منها نص كتابي يمكن قراءته ، كما أن اشتقاق بعض العناصر الزخرفية من أشكال الحروف العربية يؤكد دورها الزخرفي الكبير .

ولم يقتصر الدور الزخرفي للخط العربي على هذا وانما كان له تأثيره على غيره من الفنون الاسلامية اذ تأثرت بالأساس الجمالي الذي اعتمد عليه الخط وهو مدى التناسب فيه بين الخط والنقطة ، ولهذا غلب على الفنون الاسلامية الطابع الزخرفي وبالتالي اندمجت مع الخط العربي في تجانس كامل شهد به مؤرخو الفنون الاسلامية(١١٣) .

وآخر ما نذكره في دراستنا للكتابات الأثرية العربية من حيث الشكل أن الخط العربي مع تميزه بخصائص عامة كانت مشتركة في سائر بلدان العالم الاسلامي كانت له خصائصه الخاصة بكل بلد منها ، وبالتالي أمكن تمييز الأسلوب الفني المصري عن الأسلوب المغربي أو الايراني ، وهو ما يعرف في مصطلح تاريخ الفن بالمدارس أو الطرز الفنية ، واعتمادا على وضوح الطراز الفني للخط العربي في بلد بعينه يمكن تأريخ الأعمال الفنية الاسلامية غير المؤرخة ونسبتها الى مكان انتاجها على أساس مقارنتها بالمؤرخ المشابه لها أو القريب من أسلوبها ، ومن هنا تتضح لنا أهمية كبيرة أخرى لدراسة الكتابات الأثرية العربية من حيث الشكل .

ثانيا : الكتابات الأثرية العربية من حيث المضمون :

اذا كانت دراسة الكتابات الأثرية العربية من حيث الشكل تفيد الدراسات الأثرية من الناحية الفنية على النحو السابق شرحه ، فان

---

(١١٣) دكتور حسن الباشا : الخط الفن العربي الأصيل ، ص٣٣ ، أبو صالح الالفي : الفن الاسلامي ، دار المعارف بمصر ١٩٧٤ ، ص ١٠٢ـ ١٠٤ .

دراستها من حيث المضمون تفيد الدراسـات التاريخية والاجتماعية والعلمية الى جانب الناحية الأثرية فائدة كبيرة ، ذلك ان هذه الكتـابات أمدتنا بكثير من المعلومات عن اسـم المنشيء والقابه — فى الأعمال المعمارية ، أو ابسم الآمر بالصنع أو مالك العمل وألقابه فى الأعمال الفنية المصنوعة ، كما أن بعضها يتضمن اسم الصانع وألقابه الحرفية ، ومكان الصنع ، وتاريخه ، وهى معلومات أهملتها فى معظم الأحيان المؤلفات الأدبية المعاصرة مما جعل ذكرها فى نصوص الكتابات الأثرية هو المصدر الوحيد تقريبـا لها(١١٤) .

كما أمدتنا بعض النصوص بمعلومات عن النظم الاسلامية المختلفة بما كانت تضمه من مراسـيم وأوامر تنظم العمل داخل أرجاء الدولة الاسلامية ، بل أن بعض الكتابات الأثرية تفيد الباحثين فى اثبات بعض الحقائق التاريخية أو نفيها أو تعديلها خاصة وأن الكتابات الأثرية تعـد مصـدرا أصيلا لا شك فيه(١١٥) .

ولما كانت أعمال البناء للمنشآت الكثيرة كالمساجد والمدارس والقلاع والخانات والقصور ، وتأثيثها بقطع الأثاث والأدوات اللازمة مرتبطـة كلها بطبقة الحكام من خلفاء وسلاطين أو ملوك وأمراء ووزراء وقواد ، فان المعماريين والصناع كانوا فى أغلب الأحوال حريصين على تزويد معظم أعمالهم بأسماء المنشئين أو الآمرين بالعمل أو الصناعة مصحوبة بألقابهم الوظيفية والفخرية مع تاريخ البدء فى العمل والانتهاء منه أو أيهما ، ومكان الصنع أحيانا .

ونتيجة لهذا أمدتنا الكتابات الأثرية العربية بالعديد من أسـماء الحكام ووظائفهم ، وهى معلومات تؤكد ماذكرته كتب التاريخ عن أعمال

---

(١١٤) دكتور حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(١١٥) دكتور السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العـرب ص ١٥١ ، ١٥٢ والهامش .

هؤلاء الحكام الانشائية ، بل أن بعض هذه النصوص كشف لنا محاولات التزوير التى تمت فى عهود تالية بقصد نسبة انشاء بعض الأعمال الى بعض الحكام ، كما يتمثل فى النص التسجيلى الخاص بانشاء قبة الصخرة، فمن المعروف أنها بنيت سنة ٧٢هـ فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) فى حين يقرأ النص التسـجيلى هكذا « بنى هذه القبة عبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين سنة اثنين وسبعين » .

ويظهر فى النص عدم التوافق التاريخى بين اسم الخليفة العباسى المأمون الذى امتد حكمه فيما بين سنتى ١٩٧ — ٢١٨هـ وبين التاريخ الذى يحمله النص وهو سنة ٧٢هـ ، وتفسير هذا أن عمال الخليفة المأمون عند قيامهم باجراء بعض الاصلاحات فى القبة أرادوا نسبة بناء القبة الى خليفتهم فأزالوا اسم الخليفة عبد الملك ووضعوا اسم المأمون وفاتهم تغيير التاريخ الأصلى(١١٦) .

كما أفادت الكتابات الأثرية فى حسم بعض القضايا التاريخيـة وعلى سبيل المثال فان العثور على قطع عملة ضربت فى مدينة فاس بـين سنتى ١٨٥ ، ١٨٩ هـ حسم الخلاف حول بنائها سنة ١٧٢هـ على يد ادريس الأول بن عبد الله ، أم سنة ١٩٢هـ على يد ادريس الثانى اذ قطعت هذه العملة بصحة التاريخ الأول(١١٧) ، كما ثار جدل بين بعض المؤرخين حول تحديد تاريخ البدء فى بناء جامع أحمد بن طولون بمدينة القطائع حتى تم العثور على اللوحة التأسيسية للجامع والتى حددت تاريخ الانتهاء من بنائه فى شهر رمضان سنة ٢٦٥هـ وأصبح من الممكن القول بأن البناء

---

(١١٦) دكتور فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الاسلامية ، الهيئة العامة للكتاب ، المجلد الأول ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص٧٩ .،

دكتور كمال الدين سامح : العمارة الاسلامية فى صدر الاسـلام ، مطبعة مصر ١٩٦٤ ، ص ١٨—١٩ .

(١١٧) دكتور السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ — ١٥٨ .

استغرق ثلاث سنوات بناء على تحديد المقريزى لتاريخ البدء فيه سنة ٢٦٣ هـ (١١٨) .

وتضيف الكتابات الأثرية معلومات قيمة الى ماجاء فى كتب التاريخ من أخبار بل وتؤكدها اذ تكون بمثابة قرينة لمعلومات كتب التاريخ(١١٩)، ويتمثل هذا فيما أمدتنا به وقفيه باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله مؤرخه بسنة ٤٠٠هـ وتشيد الوقفية برعاية الخليفة الحاكم للجامع الأزهر وعمارته واصلاحه له واهدائه بابا للجامع يحمل اسمه ، وقد آل الباب الان الى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ويحمل كتابه بارزة أعلى مصراعيه نصها : « مولانا أمير المؤمنين الامام الحاكم بأمر الله صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه »(١٢٠) .

ومن عهد الحاكم بأمر الله أيضا وصلتنا كتابه تسجيلية على طبق من الخزف ذى البريق المعدنى يحمل اسم « غبن » قائد القواد فى عهده وأمكن بعد دراسة نص الكتابة — فى ضوء مصطلح الكتابة فى ذلك العصر — استكمال الكلمات الناقصة من النص لفقد أجزاء عديدة منه ، والقول بصناعة الطبق بين سنتى ٤٠٢ ، ٤٠٤هـ (١٠١١ — ١٠١٣م) وهى الفترة التى شغل فيها « غبن » وظيفة قائد القواد قبل أن يغضب عليه الحاكم بأمر الله ويأمر بقطع يديه ثم لسانه ، وتذكر احدى الروايات التاريخية ان احدى اليدين قدمت الى الحاكم فى طبق كبير ، وربما كان هو هذا الطبق(١٢١) .

---

(١١٨) دكتور حسن الباشا : جامع احمد بن طولون ، كتاب القاهرة : تاريخها وفنونها وآثارها ، ص ٤٤٠ .

(١١٩) دكتور حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج ٣ ، ص ١٣٦٣ .

(١٢٠) دكتور حسن الباشا : باب الحاكم بأمر الله ، القاهرة — تاريخها وفنونها وآثارها ، ص ٥١٤ — ٥١٥ .

(١٢١) دكتور حسن الباشا : طبق غبن ، القاهرة — تاريخها وفنونها وآثارها ، ص ٥٢١ — ٥٢٥ .

وأضافت بعض الكتابات الأثرية معلومات الى ماجاء بكتب التاريخ ومن أمثلة ذلك كتابة وصلتنا على شمعدان من النحاس محفوظ بمتحف الفنون التطبيقية بمدينة دوسلدورف باسم الأمير « يشبك الحمزاوى » اذ تضمنت الكتابة لقب « نقيب القلعة المنصورة بدمشق المحروسة » بعد اسم الأمير ممايدل على توليه هذه الوظيفة وهو مالم تذكره الكتب التاريخية عنه(١٢٢) .

كما أمدتنا الكتابات الأثرية بأسماء كبار موظفى الدولة الاسلامية بدءا من نواب السلطنة حيث تضمنت الأوامر والمراسيم الصادرة من الحكام أسماء الموظفين الصادرة اليهم وألقاب وظائفهم وكان بعضها ينقش على العمائر ، ومن أمثلتها مرسوم صادر من السلطان نور الدين محمود بن زنكى يرجع تاريخه الى شهر رجب سنة ٥٥١هـ ونقش على باب الشاغور بدمشق ويقضى بتنظيم حقوق التجار المسافرين بين العراق ودمشق(١٢٣) ، ومنها أيضا مرسوم من عهد السلطان المملوكى قانصوه الغورى مؤرخ بشهر ربيع الأول سنة ٩٠٧هـ ونقش أعلى باب قلعة قايتباى بالاسكندرية ويقضى بعدم التصرف فى ممتلكات القلعة وأبراجها من أسلحة وعتاد وآلات ويهدد المخالف للمرسوم بالشنق على باب البرج(١٢٤)

واشتملت بعض الكتابات الأثرية على نصوص تحدد أحيانا اسم المبنى أو العمل الفنى واسم المنشىء والقائم بالعمل فيه وهو مايتمثل فى النص التسجيلى لمقياس النيل بالروضة ويقرأ كما يلى : « مقياس يمن

---

(١٢٢) دكتور حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج٣ ، ص١٣٦٣ .

Mayer : Saracenic Heraldry. p. 251.

(123) Comb, Sauvaget et wiet : Rèperoire Chronologique d'Epigraphie Arabe. T. 9, p. 10, T. 14, p. 279.

(124) Van Berchem. Materiaux pour un corpus Inscriptionum Arabicarum. p. 490, pl. 38:

وسعادة ونعمة وسلامة أمر ببنائه عبد الله جعفر الامام المتوكل على الله أمير المؤمنين أطال الله بقاه وآدام عزه وتأييده على يدى أحمد بن محمد الحاسب سنة سبع وأربعين ومايتين »[١٢٥] . وأشارت بعض الكتابات الأثرية الى المكان الذى صنع العمل الفنى برسمه — أى لأجله — كما في كتابه وصلتنا على شمعدان نحاس مؤرخ بسنة ٨٨٧هـ تنص على أنه صنع « برسم الحجرة النبوية الشريفة » فى عهد السلطان المملوكى قايتباى[١٢٦] .

ومن الفوائد العلمية الهامة التى تحققها دراسة الكتابات الأثرية أنها تساعد على تأريخ المخلفات الأثرية غير المؤرخة من ذلك مثلا تحديد تاريخ صنع طبق غبن الذى سبقت الاشارة اليه ، بشكل يكاد يكون محددا بفترة سنتين فقط من ٤٠٢ — ٤٠٤هـ وذلك بدراسة الألقاب التى اشتملت عليها كتابة الطبق ومقابلتها مع مصطلح الألقاب فى ذلك العصر ، وبما جاء عن غبن في كتب التاريخ المعاصرة[١٢٧] .

---

(١٢٥) ذكرت بعض المراجع اسم المهندس العراقي محمد بن كثير الفرغاني على أنه المشرف على بناء المقياس وأنه استقدم من العراق لهذا العمل ، فى حين يدل النص التسجيلى المذكور على أن احمد بن محمد الحاسب هو الذى قام بالعمل حيث كان مدلول لقب « الحاسب » يتسع فى ذلك الوقت ليشمل مهندس البناء .

انظر : دكتور محمد عبد العزيز مرزوق : الفن المصرى الاسلامى ، ص٢٠ ،

دكتور حسن الباشا : الموجع السابق ، جا ، ص٤٠٨ .

(١٢٦) نص الكتابة « هذا ما أوقف على الحجرة النبوية مولانا السلطان الملك الأشرف ابو النصر قايتباى بتاريخ سبع وثمانين وثمانماية » ، دليل معرض الفن الاسلامى فى مصر ، ص١٢٦ .

(١٢٧) انظر الدراسة التى أعدها الدكتور حسن الباشا عن : « طبق من الخزف باسم غبن » ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٨ ، جـ ١ ، مايو ١٩٥٦ .

وبالمثل أمادت الكتابات المنقوشة على رقبة شمعدان كتبغا فى تأريخ التحفة بسنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) أى قبل تولى كتبغا السلطنة عندما كان يصرف أمور الدولة فى المرحلة الأولى من عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون[١٢٨] .

وتعتبر الألقاب الفخرية والوظيفية التى تضمنتها الكتابات الأثرية قرينة لها أهميتها للتدليل على مصطلح الألقاب السائد فى عصر من العصور وذلك بتتبع صياغة الألقاب وترتيبها فى سياق الكتابات الأثرية ونختار على سبيل المثال نصين يرجعان الى عهد واحد وهو عهد السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٧٤١هـ) لنتعرف على الفرق بين صياغة الألقاب في نص يتعلق بالسلطان وبين صياغتها في نص خاص بأمير ، والنص الأول يقابلنا على كرسي عشاء من النحاس المكفت ويقرأ كما يلي : « عز لمولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد قلاوون (لوحة ٥)[١٢٩] ونقرأ الثانى على علبة من النحاس المكفت كما يلى : « المقر العالى المولوى الأميرى الكبيرى المجاهدى السيفى الملكى الناصرى »[١٣٠] .

ويتبين لنا من النصين أن الكتابة الأولى افتتحت بلقب « مولانا » ثم بالألقاب الخاصة بالسلطان الملك ولقب التعريف الخاص به «الناصر» أما الكتابة الثانية فبدأت بلقب « المقر » وهو أحد الألقاب الأصول التى كانت تفتتح بها سلسلة الألقاب الخاصة بالأمراء فى عصر المماليك[١٣١] ،

(١٢٨) دكتور حسن الباشا : رقبة شمعدان كتبغا ، القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها ، ص ٥٣٠ .

(١٢٩) متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٣٩ .

(١٣٠) متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٣٩٨٥ .

(١٣١) دكتور حسن الباشا : الالقاب الاسلامية ، ص ٨٧ - ٩٠ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٤ .

(١٣٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٢ .

كما يلاحظ لضافة ياء النسبة الى القاب الأمير لانتسابه الى سيده ومولاه السلطان الناصر[١٣٢] .

كما أدى الربط بين أسماء الحكام وموظفى الدولة وألقابهم فى الكتابات الاثرية الى التعرف على أسمائهم ووظائفهم ، ومن هنا عرفنا وظائف النواب كنائب السلطنة ، ونائب الوالى ونائب الرئيس والولاة وكبار الموظفين كالمتولى والقاضى والكاتب والحاجب والناظر والكافل والشاد والمشرف والمفتى والمقدم والمحتسب والشيخ وغيرها .

ومن جهة أخرى أمدتنا الكتابات الأثرية بمجموعة كبيرة من الألقاب الفخرية التى اتخذها الحكام وغيرهم ممن لهم حق التلقب بها حسب مصطلح العصر ، وبعض هذه الألقاب يعكس أحداثا تاريخيه أو اعمالا قام بها الملقب كلقب « المثاغر » لمن أقام فى الثغور أو حصنها[١٣٣] . ولقب « المرابط » لمن أقام بالربط[١٣٤] ولقب « منصف المظلومين من الظالمين» للحاكم الحريص على عقد جلسات النظر فى المظالم[١٣٥] ، ولقب « المجاهد » أو « قاتل الكفرة والمشركين » للمحاربين من الحكام أو القواد ، فضلا عن الألقاب التى تعكس تدين الحاكم أو علمه كالعالم والعامل والفقيه والعادل أو خادم الحرمين الشريفين لمن يبسط سلطانه على مكة والمدينة[١٣٦] ، وتتصل بالألقاب نفسها الألقاب المركبة والمضافة الى « الدين » كعضد الدين ومجد الدين ، وناصر الدين ، وذلك كوسيلة لتعبير الحاكم أو الملقب عن غيرته على الدين وحمايته له[١٣٧] ، أو تلك المضافة الى الدولة كركن الدولة ، وشمس الدولة ، وعظيم الدولة ، وغيرها

---

(١٣٣) المرجع نفسه ، ص ٤٤٩—٤٥٠ .

(١٣٤) المرجع نفسه ، ص ٤٦٦—٤٦٧ .

(١٣٥) المرجع نفسه ، ص ٥١١—٥١٢ .

(١٣٦) المرجع نفسه ، ص ٢٦٦ — ٢٧٠ .

(١٣٧) المرجع نفسه ، ص ١٠٣ — ١٠٥ .

مما يوحى بادعـاء زعامة الـدولة والقبض على زمام الأمور والحكم بهـا[١٣٨] .

ويفيدنا ترتيب الألقاب فى استخلاص بعض المعلومات التـاريخية والادارية ، ذلك أن بعض الألقاب مثلا كان يستخدم كلقب فخرى أو وظيفى ولكن ورود اللقب بعد اسم الملقب به مباشرة يدل على أنه لقب وظيفى أما وروده قبل الاسم فيعنى أنه لقب فخرى[١٣٩] ، كما أن ترتيب بعض الألقاب كانت له دلالة خاصة حسب مصطلح الألقاب فذكر لقب النسبة الى الحاكم بعد اللقب الوظيفى يدل ان صاحب اللقب كان يشغل وظيفته فى عصر الحاكم الذى ينتسب اليه[١٤٠] .

ومن جهة أخرى أمدتنا الكتابات الأثرية وبصفة خاصة على شواهد القبور بأسماء وألقاب صغار الموظفين والصناع الذين لم تهتم بذكرهم كتب الأدب والتاريخ[١٤١] ، ومن أمثلتها ألقاب البياع ، والجرار (صانع الجرار) ، والجلاب ، والحمال ، والديباجى ، والزجاج ، والساع ، والصانع ، والصفار ، والصياد ، والطحان ، والفران ، والمزين ، والنجار ، والنحات وغـيرها[١٤٢] .

كما أمدت شواهد القبور المؤرخين بمعلومات قيمة عن القبـائل

---

(١٣٨) المرجع نفسه ، ص ٣٠٦ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٤٠٤ .

(١٣٩) دكتور حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ، ج ٣ ، ص ١٣٦٤ .

(١٤٠) دكتور حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ، ص ١١١ .

(١٤١) دكتور حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ، ج ٣ ، ص ١٣٦٠ .

(١٤٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٤ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ، ٤٢٩ ، ج ٢ ، ص ٥٣٧ ، ٥٦١ ، ٥٧٥ ، ٦٨٩ ، ٧٠٥ ، ٧٢٠ ، ٧٣٩ ، ٨٠٦ ، ج ٣ ، ص ١٠٨٢ ، ١٢٦٦ ، ١٢٧٤ .

العربية التى صاحبت الفتح العربى لمصر ، أو عن القبائل العربية التـــى هاجرت الى مصر فى مراحل تالية للفتح ، فمن المعروف أن هذه القبائل اختطت لها خططا وأحياء سكنتها وعند وفاة ابنائها خلدت شواهد القبور أسماءهم وأسماء قبائلهم التى حرصت كتابات الشواهد على تســجيلها وبالتالى أمكن المؤرخين أن يتعرفوا على أسمائها وأصولها — ســواء كانت من عرب الشمال أو عرب الجنوب — وأماكن اقامتها ودورها فى أحداث مصر وبخاصة فى نشر الاسلام واللغة العربية بها(١٤٣) •

كما أفادت دراسة الكتابات على شواهد القبور فى التعرف على أسماء بعض الطبقات والفرق كفرق الجيش مثلا ، وألقاب القواد ودرجة كل منها (١٤٤) ، وأيضا ألقاب وظائف أخرى فى قطاعات مختلفة كالقضاء ، والحسبة ، والشرطة ، والكتابة والادارة ، والدواوين ، والزراعة والتجارة والصناعة ، والفنون ، ولا تخفى أهمية هذه المعلومات لدراســة الأحوال السياسية والاقتصادية والادارية والاجتماعية والفنية •

ونكتفى بالتمثيل بقطاع الصناعة والفنون لنتعرف على ما أمدتنا به الكتابات الأثرية من معلومات عن الصناعة والصناع وحرفهم وأسمائهم وألقابهم الحرفية والمكانية الدالة على رتبة كل منهم بين أبناء حرفته ، فضلا عن الوقوف على مراكز الصناعة ونظم العمل وضوابطه ، ووظائف المشرفين على الصناع وغيرها من المعلومات التى تفيد المؤرخ والأثرى على الســواء •

---

(١٤٣) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص٤٩ — ٥٧ ، ٦٦ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٦ ،.

عبد الرحمن الرافعى وسعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٣٨ — ٤٢ •

(١٤٤) دكتور حسن الباشا : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٦١ •

وعن أسماء الحرف والصناعات وصلتنا ألقاب لا حصر لها وعلى سبيل المثال فى مجال صناعة المعادن عرفنا ألقاب الحداد ، والسباك والسنكرى والنحاس والصفار والضراب والكفتى والصائغ ، والنقاش والجوهرى وغيرها وفى ميدان صناعة السلاح وصلتنا ألقاب السلاح والزراد ، والطباع والجوشنى والرماح ، والحمائلى (صانع حمائل السيف) وغيرها وفى ميدان صناعة الخزف نعرف الخزاف والدهان والفخرانى وغيرها وفى مجال فنون الكتاب وصناعته وصلتنا ألقاب الخطاط والمذهب والمجلد والمزوق ، والناسخ ، والوراق والكتبى غيرها .

ومن صناعة النسيج وصلتنا ألقاب النساج والرفاء والمطرز والسراج والصباغ والصوف والبزاز والحريرى والديباجى وغيرها ، واذا انتقلنا الى مجال البناء والعمارة أمدتنا الكتابات الأثرية بألقاب البناء والجصاص والحجار والرخام والمعمار والمهندس وغيرها .

وتعتبر توقيعات الصناع على أعمالهم الفنية من أهم الكتابات الأثرية الاسلامية التى تعين الباحث فى هذا المجال فضلا عن أنها تعد المصدر الوحيد للتعرف على أسماء الصناع وألقاب حرفهم(١٤٥) .

وبالاضافة لألقاب الحرف والصناعات أمدتنا الكتابات الأثرية عامة وتوقيعات الصناع خاصة بأسماء عدد كبير من الصناع والفنانين وان كان مع كبره لايتناسب مع الانتاج الهائل من الأعمال الفنية الاسلامية المعمارية والمصنوعة مما يعرف بالتحف المنقولة ذلك ان ظاهرة تزويد

---

(١٤٥) عن توقيعات الصناع انظر : حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع على آثار مصر الاسلامية ، مجلة المجمع العلمى المصرى ، المجلد ٣٦ ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص٥٣٣ — ٥٥٨ .

حسين عبد الرحيم عليوه : دراسة لبعض الصناع والفنانين فى عصر المماليك ، مجلة كلية الآداب جامعة المنصورة ، العدد الأول ، مايو ١٩٧٩ ، ص ٨٩ — ١١٠ .

الفن بتوقيع صانعه جاءت متأخرة بعض الشيء ولم تكن مواكبة للإنتاج الفنى الاسلامى منذ بدايته .

ومن أهم الأسماء التى وصلتنا فى ميدان الصناعات المعدنية محمد ابن سنقر البغدادى صانع كرسى عشاء الناصر محمد بن قلاوون المحفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة وصندوق مصحف من العهد نفسه محفوظ بمتحف برلين الغربية للفن الاسلامى وأحمد ابن بارة الموصلى صانع صندوق مصحف من عصر المماليك محفوظ بمكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة وبدر بن أبى يعلا صانع ثريا ضخمة من عصر المماليك أيضا محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، ومن صناع مدرسة الموصل محود بن سنقر صانع دواة مؤرخه بسنة ٦٨٠هـ ومحفوظة بالمتحف البريطانى ومحمد بن فتوح الموصلى صانع شمعدان محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ويعود الى القرن السابع الهجرى (١٣م) ومحمد بن الزين صانع الآناء النحاس المعروف بمعمدانه سانت لويس والمحفوظ بمتحف اللوفر بباريس[١٤٦] وله صدرية من صنعه محفوظة بالمتحف نفسه وكلاهما يرجع الى القرن السابع الهجرى (١٣م) .

ومن صناع السلاح وصلتنا أسماء عديدة من أهمها من مصر : « يونس » صانع سيف باسم السلطان قايتباى محفوظ بمتحف طوبقابى سراى باستانبول[١٤٧] و« المعلم محمد المصرى » الذى كان عميدا لأسرة

(١٤٦) دكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٥٤٨ ، شكل ٤٤٩

Rica : Le Baptistire de Saint Louis (Bull. School of Oriental Studies, XIII, 1950, pp. 367—380, pls. 2—12 and 6 Figs.).

(١٤٧) رقم السجل ١٨٢/٢ — انظر :

Mayer : Islamic Armourers and their works p. 77.

تخصصت في صناعة السيوف في عصر المماليك ووصلتنا أسماء أبنائه وأحفاده [١٤٨] « وابراهيم المالكى » صانع السيوف الشهير في عهد السلطان الغـــورى[١٤٩] ، وابراهيم بن المغربى الذى عاصر أواخر عهد دولة المماليك وبداية عهد العثمانيين بمصر وصنع أســـلحة لحكـــام كل من الفترتين [١٥٠] .

ومن ايران وصلتنا أسماء أسد الله أصفهانى الذى صنع عــدة سيوف باسم الشاه عباس الأكبر وأحمد خوراسانى وغيرهما[١٥١] .

ومن السلاحين الأتراك في العصر العثمانى وصلتنا أسماء ارنبغا الزردكاش ، والحاج صنقور صانع مجموعة من السيوف للسلطان العثمانى سليمان القانوني[١٥٢] وغيرها .

ومن بين صناع الخزف وصلتنا أسماء سعد ومسلم بن الدهـــان من العصر الفاطمى وغزال وشرف الابوانى وغيبى بن التوريزى من عصر المماليك[١٥٣] وأبو زيد وعلى بن أبو زيد وابن عريشـــاه من قاشـــان بايران [١٥٤] وغيرها .

ومن فنانى الكتاب وصلتنا أسماء عديدة من أهمها بنو المعلم والكتامى

---

(١٤٨) ومنهم ابنه عبد الرحمن وابنه على ، وابراهيم المصرى :
Ibid. pp. 51—52, 59.

(149) Ibid. p, 42.

(150) Ibid.

(151) Ibid. pp. 18—20, 26.

(152) Ibid. p. 47.

(١٥٣) عبد الرءوف على يوسف : غيبى بن التوريزى ، كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها ، ص ١١٥ ـــ ١٢٠ .

(١٥٤) دكتور زكى محمد حسن : الفنون الايرانية ، ص ٢١٩ ـــ ٢٢٠ .

والناروك من مصوری مصر[155] ، وبهزاد وسلطان محمد ومحمدی ورضا عباسی من مصـــوری ایران[156] ، ویحیی الواسطی من مصوری العراق[157] ، وعثمان ولونی من مصوری ترکیا فی العصر العثمانی[158] .

ومن المذهبین ابراهیم الصـــغیر وحسن البغدادی والأســتاذ المصری[159] ومن المجلدین سالم بن محمد الحمودی ، ومحمد بن ابراهیم الحلبی الکتبی[160] وغیرهم ..

ومن الخطاطین المشهورین وصلنا اسم مبارك المكی علی مجموعة من شـــواهد القبـــور محفـــوظة بمتحف الفن الاســـلامی بالقـــاهرة[161] ومن خطاطی ایران وصلتنا أسماء میر علی التبریزی وسلطان علی المشهدی وابنه وشاه محمود النیسابوری الذی عمل فی بلاط الشاه اسمـــاعیل الصـــفوی[162] .

ویفیدنا الوقوف علی أسماء الفنانین والصـــناع فی التعرف علی خصائص أسلوب كل منهم فی الصناعة والزخرفة وبالتالی یمكن مقارنته بأسالیب غیره مما یساعد علی تتبع تطور الفنون والصناعات المختلفـــة

---

(١٥٥) دكتور حسن الباشا : بنو المعلم ، كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها ، ص ١٢١ — ١٢٧ .

(١٥٦) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص٥٦ — ٦٦ .

(١٥٧) المرجع السابق : ص ٤٣ .

(١٥٨) دكتور محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية فى العصر العثمانى ، ص ٢٠٤ — ٢٠٨ .

(١٥٩) دكتور حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ، ج ٣ ، ص ١٠٧٢ — ١٠٧٣ .

(١٦٠) المرجع السابق ، ص ١٠٢٤

(١٦١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٧٧ — ٤٧٨ .

(١٦٢) دكتور زكى محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٧١ .

وعقد دراسات مقارنة بين الأساليب والمدارس الفنية المختلفة ، وكشف التأثيرات المتبادلة بين الأساليب الفنية الاسلامية .

كما تفيدنا دراسة توقيعات الصناع فى التعرف على العلاقات الأسرية بينهم ذلك أن بعض التوقيعات أشارت الى صلة البنوة بين الصانع « على بن حسين بن محمد الموصلى » فى توقيعه على شمعدان نحاسى صنعه فى القاهرة سنة ٦٨١هـ[١٦٣]، وأبيه الصانع الشهير « حسين بن محمد الموصلى » الذى وصلنا توقيعة على ابريق نحاسى صنعة فى دمشق سنة ٦٥٧هـ[١٦٤] .

وربما هاجر الاب من الموصل الى دمشق أمام هجمات المغول ثم هاجر الابن من الشام الى مصر للسبب نفسه .

ومن جهة أخرى تدلنا بعض التوقيعات على صلة التلمذة بين صانع وآخر كما يتمثل فى توقيع النقاش اسماعيل بن ورد الموصلى على صندوق من النحاس مؤرخ بسنة ٦١٧هـ اذ أضاف الى توقيعه أنه « تلميذ ابراهيم بن الموصلى »[١٦٥]، وبعض الألقاب تدل على مكانة الصانع بين أبناء حرفته كلقب « غلام » الذى ورد فى توقيع « قاسم بن على غلام ابراهيم بن مواليا الموصلى » على ابريق من البرونز مؤرخ بشهر رمضان سنة ٦٢٤ هـ مما يعنى أن الأول كان غلاما — أو صبيا فى الصنعة للثانى[١٦٦] ، كما أن تلقب بعض الصناع بلقب الأستاذ أو المعلم يدل على ما بلغه الصانع من خبرة أهلته للتلقب بمثل هذا اللقب . ويتمثل هذا فى توقيع

---

(١٦٣) محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٥١٢٧ .

(١٦٤) محفوظ بمتحف اللوفر بباريس ، دكتور محمد مصطفى ، دليل متحف الفن الاسلامى ، ص ٦١ .

Farid Shafii : Simple Calyx Ornament. pp. 13—16.

(١٦٥) دكتور حسن الباشا ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٣٨ .

الصانع الأستاذ محمد بن سنقر البغدادى على كرسى عشاء الناصر محمد بن قلاوون ونصه : « عمل العبد الفقير الراجى عفو ربه المعروف بابن المعلم الاستاذ محمد بن سنقر البغدادى السنكرى » ويلاحظ أيضا حرصه على الانتساب الى أبيه فى عبارة « المعروف بابن المعلم » وهو يعكس تخصص أسرته فى صناعة المعادن وهو أمر كان شائعا فى العصور الوسطى .

كما تفيدنا التوقيعات فى التعرف على تخصص كل صانع فى مجال مهنته ، واسم هذه المهنة كما كان يعرف فى وقت الصنع ، ويساعدنا هذا على تتبع تطور كل مهنة ومدى احتفاظها باسمها القديم أو تغييره أو تحريفه .. وبالاضافة الى توقيعات الصناع وما يستشف منها من معلومات وصلتنا مجموعة من ألقاب بعض الموظفين الذين كانوا يشرفون على الصناع ويباشرون محال الصناعة والأسواق لمراقبة الصناع وأسعار البيع والشراء، ومنها العريف والنقيب والشيخ أو شيخ الصنعة والمباشر والمتولى والمحتسب وغيرها .

والحق أنه من الصعب حصر المعلومات التى يمكن أن نحصل عليها من دراسة الكتابات الأثرية العربية من حيث الشكل المتعلق بالخط وأنواعه وخصائصه ، أو المضمون الذى يمدنا بالعديد من المعلومات التى تفيد الدراسات التاريخية والأثرية ودراسة النظم والادارة والاقتصاد والمجتمع وغيرها .

ولهذا فان دراسة الكتابات الأثرية لا تتوقف لأن معينها لاينضب أبدا .

---

(١٦٦) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧٩٨ .

مصادر البحث ومراجعة

أولا : المؤلفـات العربيـة

ابراهيم أحمد العدوى (دكتور) :

— مصر الاسلامية — مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية — مكتبة الانجلو المصرية — ١٩٧٦ م .

— تاريخ العالم الاسلامى — جـ ١ — مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٣ م .

ابراهيم جمعة (دكتور) :

— قصة الكتابة العربيـة .

— دراسة فى تطور الكتابات الكوفية على الاحجار فى مصر فى القرون الخمسة الأولى للهجرة — القاهرة ١٩٦٩ .

ابن اياس :

بدائع الزهور فى وقائع الدهور — خمسة أجزاء — نشر دكتور محمـد مصطفى — القاهرة ١٩٧٥ — ١٩٨٤ م .

ابن خلدون :

المقدمة — طبعة بولاق ١٣٢١ هـ .

ابن عبد ربه :

العقد الفريد — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القـاهرة — ١٩٤٤ ه

ابن منظـور :

لسان العرب — طبعة مصورة عن طبعة بولاق — ١٣٠٨ هـ .

ابن النديم :

الفهرست — طبعة المكتبة التجارية — القاهرة ١٣٤٨هـ

ابو صـالح الألفى :

الفن الاسلامى — (دار المعارف بمصر — ١٩٧٤) .

احمد رضــا (الشيخ) :
رسالة الخط (نسخة بمكتبة جامعة القاهرة بدون تاريخ) .

أحمد فكرى (دكتور) :
مساجد القاهرة ومدارسها (جا — العصر الفاطمى — دار المعــارف بمصر ١٩٦٥) .

جرجى زيدان :
تاريخ التمدن الاســلامى (خمســة أجزاء مطبعــة دار الهــلال — القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦) .

حاجى خليفــة :
كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (المطبعة البهية بالقاهرة ١٩٤١) .

حسن الباشا (دكتور) :
— الألقاب الاسلامية فى التارخ والوثائق والاثار (مكتبة النهضــة المصرية — ١٩٥٧) .
— الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية (٣ أجزاء دار النهضة العربية ٦٥ — ١٩٦٦) .
— الخط الفن العربى الأصيل (حلقة بحث الخط العربى — المجلس الأعلى للفنون والاداب — القاهرة ١٩٦٨) .

حســن عبد الوهاب :
— تاريخ المساجد الأثرة (جزآن — القاهرة ١٩٤٦) .
— توقيعات الصناع على آثار مصر الاســلامية (مجلة المجمع العلمى المصرى — المجلد ٣٦ — ١٩٥٤) .

حســين عبد الرحيم عليوه (دكتور) :
— محمد بن سنقر (كتاب القاهرة — تاريخها — فنونها — آثارها — الأهرام ١٩٧٠) .
— كرسى الناصر (كتاب القاهرة) .
— دراسة لبعض الصناع والفنانين بمصر فى عصر المماليك (مجلة كلية الاداب — جامعة المنصورة — العدد الأول — مايو ١٩٧٩) .

ديماند (ترجمة احمد عيسى) :

الفنون الاسلامية (الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٨) .

زكى محمد حسـن (دكتور) :

— الفن الاسلامى فى مصر ـ (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٥) .
— الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى (دار الكتب المصرية ١٩٤٦)
— فنون الاسلام (مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٨) .

سـهيل أنور (دكتور) :

(ترجمة محمد بهجت الأثرى وعزيز سامى) .

— الخطاط البغدادى على بن هلال المشهور بابن البواب .
(مطبعة المجمع العلمى العراقى ببغداد ١٩٥٨) .

سـهيلة يس الجبـورى :

الخط العربى وتطوره فى العصور العباسية فى العراق .
(بغـداد ١٩٦٢) .

سـيد ابراهيم :

الخط العربى ـ وتطوره ـ (حلقة بحث الخط العربى ـ القاهرة ١٩٦٨)

السـيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

التاريخ والمؤرخون العرب (دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧) .

سيده اسماعيل كاشف (دكتورة) :

مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه (القاهرة ١٩٦٠) .

صـالح لمعى مصطفى (دكتور) :

التراث المعمارى الاسلامى فى مصر (بيروت ١٩٧٥) .

صـلاح الدين المنجد (دكتور) :

الكتاب العربى المخطوط الى القرن العاشر الهجرى (معهد المخطوطات العربية ـ القاهرة ١٩٦٠) .

عبد الرحمن الرافعى وسعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغـزو العثمانـى (دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٧٠) .

عبد الرؤوف على يوسف :

تحف فنية من عصر المماليك (المجلة — العدد ٦٢ — مارس ١٩٦٢) .

عبد الله خورشيد البرى (دكتور) :

القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة (دار الكاتب العربى للطباعة والنشر — القاهرة ١٩٦٧) .

عبد اللطيف ابراهيم (دكتور) :

— التجليد فى مصر الاسلامية (دراسات فى الكتب والمكتبات — دار الشعب ١٩٦٢) .

— وثيقة السلطان قايتباى (كتاب المؤتمر الثالث للاثار فى البلاد العربية بفاس — القاهرة ١٩٦١) .

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى (مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣) .

على ابراهيم حسن (دكتور) :

تاريخ المماليك البحرية — (مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧) .

فريد شافعى (دكتور) :

العمارة العربية فى مصر الاسلامية (المجلد الأول — القاهرة ١٩٧٠) .

القلقشندى :

صبح الأعشى فى صناعة الانشا (مطبعة مصورة عن طبعة المطبعة الأميرية فى ١٤ جزءا — القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩) .

كمال الدين سامح (دكتور) :

— العمارة الاسلامية فى مصر .

— العمارة فى صدر الاسلام (القاهرة ١٩٦٤) .

كينل (ترجمة دكتور أحمد موسى) :

الفن الاسلامى (بيروت ١٩٦٦) .

محمد طاهر الكردى :

تاريخ الخط العربى وآدابه — (القاهرة ١٩٣٩) .

محمد عبد الجواد الاصمعى :

تصوير وتجميل الكتب العربية فى الاسلام (دار المعارف بمصر ١٩٧٢).

محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور) :

— الفن المصرى الاسلامى القاهرة — ١٩٥٢ .
— الفن الاسلامى تاريخه وخصائصه (بغداد — ١٩٦٥) .
— المصحف الشريف (دراسة تاريخية وفنية — مجلة المجمع العلمى العراقي — ١٩٧٠) .
— الفنون الزخرفية الاسلامية فى العصر العثمانى (القاهرة ١٩٧٤)

محمد كرد على :

الاسلام والحضارة العربية (الطبعة الثالثة ١٩٦٨) .

محمد مصطفى (دكتور) :

متحف الفن الاسلامى — القاهرة ١٩٥٨ .

المقريزى :

— المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والاثار — (جزآن — طبعة بولاق ١٢٧٠هـ) .
— كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك — أربعة أجزاء — تحقيق دكتور محمد مصطفى زباده ودكتور سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٤٢ ، ١٩٧٠ — ١٩٧٣) .

معرض الفن الاسلامى فى مصر :

من ١٩٦٩ — ١٥١٧م — (وزارة الثقافة — ابريل ١٩٦٩) .

ناجى زين الدين المصرف :

— مصور الخط العربى (بغداد ١٩٦٨) .
— بدائع الخط العربى (بغداد ١٩٧٢) .

يوسف احمد :

الخط الكوفى (القاهرة ١٩٣٣) .

ثانيا : المؤلفات الأجنبية

Balog : The Coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syria. (New York, 1964).

Barrett : Islamic Metal Work in the British Museum. (London, 1949).

Berchem : Inscriptions Arabes de Syrie. (Memoire de L'Institute Egyptien, T. III, 1897).

Materiaux pour un Corpus Inscritpionum Arabicarum. Egypte. (Le Caire, 1894—1903).

Comb, Sauvaget et Wiet : Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe. (Le Caire 1931—1954).

Creswell : Early Muslim Architecture. (A short Account, 1958).

Farid Shafii : Simple Calyx Ornament in Islamic Art. (Cairo, 1956).

Flury : — Die Ornamente der Hakim und Ashar Moschee. (Heidelberg, 1912).

— Islamische Schriftbànder Amida-Diarbeker. (Basel, 1920).

— Ornamental Kufic Inscriptions on Pottery. (Survey of persian art, vol. II, London 1939).

Grube : The world of Islam. (London, 1966).

Grohmann : The Origin and Early Development of Floriated kufic (1957).

Hawary and Rached : Steles Funéraires. (T.I , Le Cairo, 1932).

Haurt : Les Calligraphes et Les Miniatureistes de L'Orient Musulman (Paris, 1908).

Kratchkovskaya : Ornamental Naskhi Inscriptions. (Survey of persian Art vol. II, London, 1939).

Lévi Provencal : Inscriptions Arabes d'Espagne. (Leyde, Paris, 1931).

Marcais : Les Monuments Arabes de Telemcen. (Paris, 1903).

Mayer : — Saracenic Heraldry. (Oxford, 1933).

— Islamic Metal Workers and their works. (Geneva, 1959).

— Islamic Armourers and their Works. (Geneva, 1962).

Migeon : Manuel d'Art Musulman. (Paris, 1927).

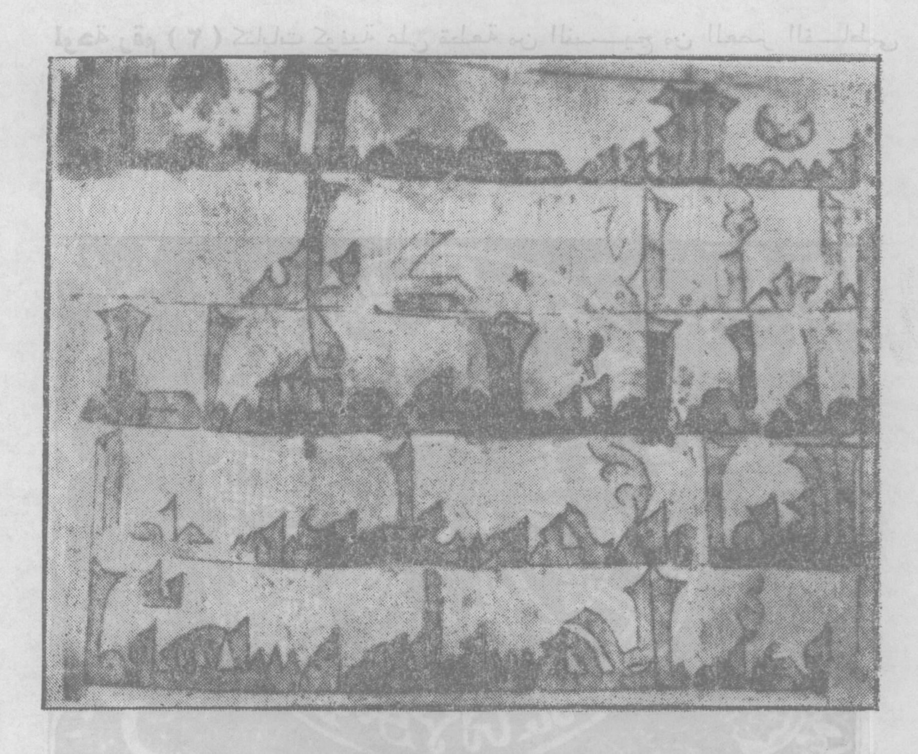
Pope : A Survey of persian Art. (6 vols. Oxford, 1938—1939).

Rice (D.T.) : Islamic Art. (London, 1979).

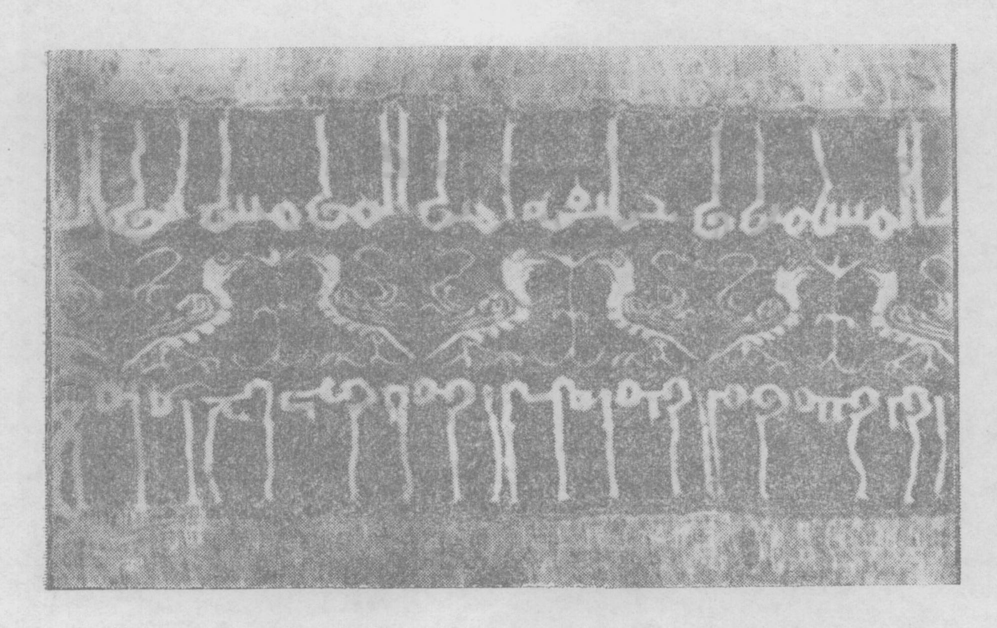
Safadi : Islamic Colligraphy. (London, 1978).

Wiet : Stèles Funéraires (T.II—IX, 1936 — 1941).

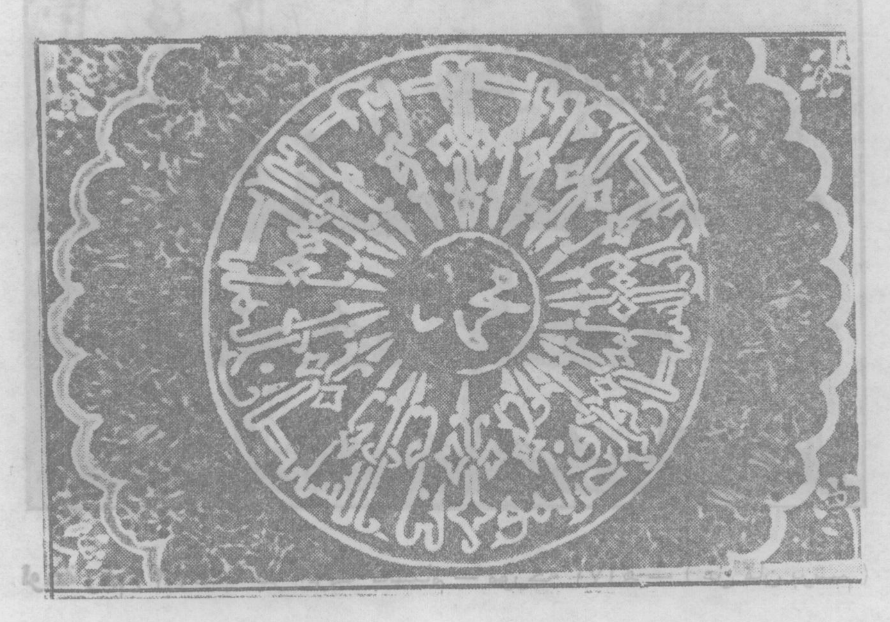
لوحة رقم (١) نقش حران النبطى مؤرخ بسـنة ٥٦٨ م ــ عن ابراهيم جمعة .



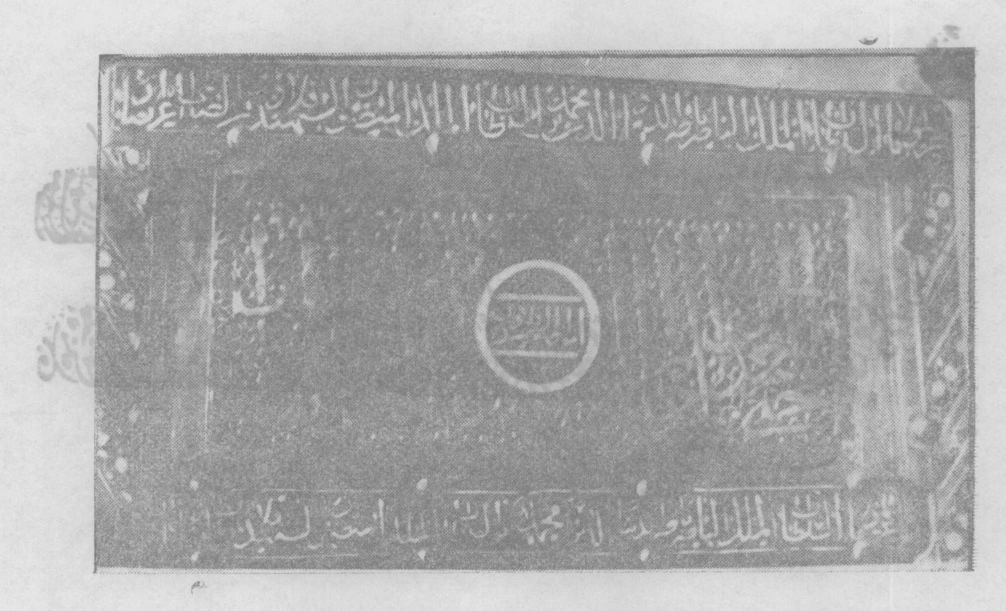
لوحة رقم (٢) كتابة بئر الرملة بالشام ــ مؤرخة ١٧٢هـ ــ (عن فان برشم)



لوحة رقم (٣) كتابات كوفية على قطعة من النسـيج من العصر الفـاطمى
متحف الفن الاسلامى بالقاهرة (عن زكى حسن)



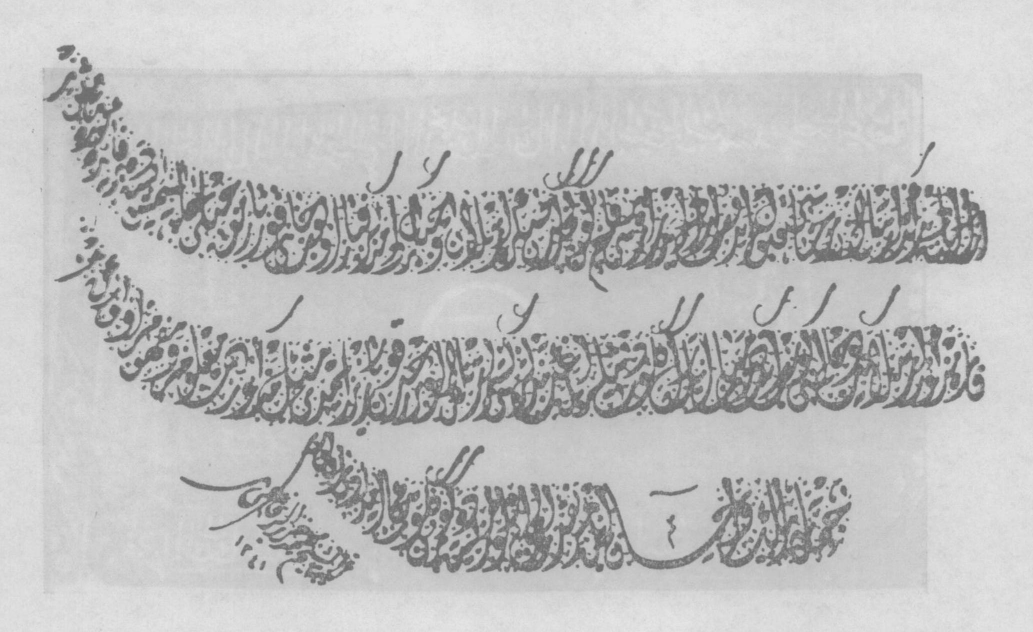
اللوحة رقم (٤) القرصة العليا لكرسى الناصر محمد وتزينها كتابات نسخية
وكوفية دائرية مشـعة .



اللوحة رقم (٥) حشوة كتابية بخط الثلث من بين حشوات كرسى الناصر محمد



اللوحة رقم (٦) تفريغ لأشكال الحروف الآدمية و الحيوانية فى كتابة رقبة شمعدان كتبغا (عن حسن الباشا) .



اللوحة رقم (٧) نمـوذج لكتابة بخط جـلى الديوانى بقلم الخطاط محمد عبد العزيز الرفاعى (عن حلقة بحث الخط العربى) .



لوحة رقم (٨) نموذج لكتابة بخط الثلث تتخذ هيئة مثناة — أو منعكسة ونصها : « لا إله إلا هو ربى ورب العالمين » بقلم الخطاط التركى الشهير محمد شفيق (عن حلقة بحث الخط العربى) .

المشـــكلة الايطالية فى السياسة الألمانية
فى العصور الوســطى

الدكتور رأفت عبد الحميد

أستاذ مساعد العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة عين شمس

فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، وعقارب الزمن تشير الى السنة الثانية من ستينيات هذا القرن ، كانت خشبة المسرح السياسى فى مدينة روما تعد ليعاد عليها تمثيل فصـــــول مسرحية كان قد جرى اخراجها من قبل بمائة واثنتين وستين سنة على وجه التحديد .

ففى ليلة عيد الميلاد لعام ثمانمائة .. أعنى الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ٧٩٩ ، تقدم الحبر الرومانى ليو الثالث ليضع على رأس ملك الفرنجة شارل العظيم Carolus Magnus (Charlemagne) تاجا ، وليعلنـــه امبراطـــورا للرومان وكان البـــابا ذاك قد تعالى من قبل فى الزمن صراخه ، مستغيثا بالملـــك الفرنجى ، متخوفا من ضربات اللومبارد فى الشمال الايطالى ، وعداوات نبلاء الرومان فى مدينة روما ذاتها ولما كان شارلمان يعلم يقينا ماسوف يجره عليـــه هذا التتويج من خلافات قد تصل الى العداء مع أصحاب الحق الشرعى فى التاج الرومانى على شطآن البسفور فى القسطنطينية ، فقد ادعى كاتب سيرته ومادحه اينهارد Einhard فى عمله الباقى Vita Caroli ان شارل

العظيم لم يكن يعلم عن هذه الناحية شيئا[1] وليس بخاف على أحد ان شارلمان – وان لم يكن قد خلع على نفسه لقب الامبراطور حتى تلك اللحظة ، الا أنه كان يحمل جوهره ، ويرفل فى حقيقته نتيجة توسعاته فى فريزيا وسكسونيا ، وحروبه مع المسلمين فى الأندلس ، ونشاطاته المتعددة فى الداخل [illegible] الثقافى .

والحقيقة التى لا مراء فيها ، أن المناداة بشارل العظيم امبراطورا فى الغرب على يد البابوية ، كان يمثل التتويج العملى لرحلة طويلة من المودة والتفاهم بين مملكة الفرنجة الميروفنجية ، ومن بعد الكارولنجية ، والكنيسة الرومانية ، بدأت منذ زمن طويل يعود الى عهد كلوفيس Clovis فى أوليات القرن السادس الميلادى عندما تحول الفرنجة وحدهم – والناس فى ذلك الزمان على دين ملوكهم ، الى المسيحية النيقية الكاثوليكية وراء زعيمهم ، دون القبائل الجرمانية الأخرى التى آوت الى المسيحية الاريوسية ، ووجدت لنفسها فيها مستقرا وايمانا[2] هذا من ناحية ، ومن الأخرى مسيرة العداء السائر قدما ، والتباعد بين كل من روما والقسطنطينية ، بفعل التناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، يسعر لهيبه حمى الخلاف العقيدى الذى كانت الحروب

---

(١) ناقشت هذه القضية باستفاضة فى تقديمى لترجمتى لكتاب العالم البيزنطى ص١٦ – ٢٠ ، ولمزيد من التفاصيل أنظر

Einhard, The life of Charlemagne, trans.
by : Lewis Thorpe, in (Two lives of charlemagne by Einhard and Notker stammerar). Penguin Book, 1969. G. Baraclough, The Mediaeval Empire · Idea and Reality.

وقد نقله الى العربية وعلق عليه الدكتور جوزيف نسيم يوسف فى كتابه « الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى » ص٣٨ – ٤٢ ، ١٨٣ – ١٨٩ . وراجع Bryce, The Holy Roman Empire, pp. 62-64. وأيضا : ديفز ، شارلمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ص١٧٢ – ١٨٧ .

(٢) أنظر للباحث الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع ، الفصل الثانى .

اللايقونية قروة توهجه ، والتي وجدت فيها البابوية فرصتها للخلاص من نفوذ ولو ضئيل لسلطة شرعية تتمثل فى أباطرة بيزنطة ، الى كيان تتبادل واياه مصالح مشتركة ، تمنحه التاج ، ويقدم لها الحماية والأمان .

والآن .. تؤدي البابوية بالمهارة نفسها ، ذلك الدور ، فيبعث البابا الغر يوحنا الثاني عشر صيحات الاستغاثة الى الملك الألماني أوتو الأول السكسوني ، بعد أن راح اللومبارد يهددون ممتلكاته في وسط ايطاليا ، ويضيق النبلاء الرومان عليه الخناق داخل المدينة ، ويوقعون به الأذى ، بعد أن سرى فى المدينة تهتكه وخلاعته مسرى الفضيحة (٣) .

وفى عام ٩٦٢ أتى أوتو الأول روما ، وأعاد البابا الى كرسيه الأسقفى ، وأعلن بوجوده العسكرى فى هيئة القديس بطرس حمايته لراعى الكنيسة فيها ، فكان جزاؤه أن عاد الى المانيا محملا بتاج الامبراطورية ، على غرار ماجرى لشارل العظيم منذ قرن ونصف من الزمان وينيف .

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التى قدم فيها أوتو الى ايطاليا ، لكن مجيئه السابق كانت له أسبابه الخاصة بايطاليا وألمانيا على قدر سواء ، ولكن البابوية لم تكن صاحبة الدعوة آنذاك ، ذلك أن الفوضى التى ابتليت بها ايطاليا فى القرن العاشر الميلادى ، ووقوعها بين أيدى قوى متعددة تتنازع أمرها على امتدادها الجغرافى ، كانت من بين العوامل الهامة التى

---

(٣) عن شخصية يوحنا الثانى عشر ، راجع
Stephenson, Mediaeval history pp. 243-245.
وأيضا Strayer and Munro, The Middle Ages, p. 152
ويصفه أورتون Orton بقوله « ليس هناك ذرة من أمل فى انتشاله من فسوقه» أنظر C.M.H. Vol. III, p. 161. وعن فساد البابوية بصفة عامة فى القرن العاشر والدور الذى قامت به سيدات المجتمع الرومانى أمثال ثيودورا وابنتها ماروزيا Marosia وسلطانهم المباشر ونفوذهم فى اختيار البابوات حسب هواهن ، راجع
Tout, The Empire and Papacy, pp. 29-30.

استحثت خطى الملك الألمانى على أن يقود جيشه عبر الالب باتجاه الشمال الايطالى ، فايطاليا كانت قد أضحت نهبا للطامعين خارجها والعابثين فيها، منذ أقدم الامبراطور جوستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥) على تدمير قوة مملكة القوط الشرقيين فى أوليات النصف الثانى من القرن السادس الميلادى • ورغم أن خليفته غير المباشر ــ موريس Maurice (٥٨٢ ــ ٦٠٢) حاول تدعيم النفوذ البيزنطى هناك أمام زحوف اللومبارد الذين عصفوا بجهود جوستنيان بعد ثلاث سنوات فقط من وفاته واكتسحوا الشمال الايطالى ، وذلك عندما أقدم على اقامة أرخونية رافنا ، التى يجمع حاكمها فى يديه السلطتين العسكرية والمدنية لمواجهة كافة الاحتمالات الا أن وجود نائب امبراطورى يتضاءل كثيرا أمام وجود حكومة قوية مستقرة كانت تمثلها مملكة الاوستروقوط • كما أن وسط وجنوب ايطاليا لم يكونا بمأمن من تهديدات المسلمين بعد أن تمت لهم السيطرة فى القرن التاسع الميلادى على صقلية ، وتعرضت روما نفسها لهجماتهم فى منتصف القرن ذاك • وهكذا باتت ايطاليا ، التى لم تعد سوى تعبيرا جغرافيا ، موزعة اشلاؤها بين اللومبارديين فى الشمال والوسط ، والبيزنطيين فى ابوليا Apulia وكالابريا Calabria بينما البابوية يمتد سلطانها على مناطق من وسط ايطاليا وترنو ببصرها الى أبعد من ذلك ، والمسلمون يشكلون خطورة لها أهميتها على السواحل الغربية وروما والجزر المجاورة•

فاذا أضفنا الى هذا التفسخ السياسى وحالة الضعف والتردى العام فى كل نواحى الحياة ، ثراء منطقة لومبارديا ، وخصب الريف الايطالى ، وسحر روما القديمة بكلاسيكيتها والوسيطة بمسيحيتها وقديسيها بطرس وبولس ، أيقنا أن هذه كلها كانت عوامل جذب تستحث أى غاز فيها أو طامع • وفى هذا السبيل بذلت المحاولات من ناحية رودلف الثانى Roudolf II ملك برجنديا ، عندما تم استدعاؤه فى عام ٩٣٠ من جانب النبلاء الايطاليين ، ثم عاود الكرة مرة أخرى فى سنة ٩٤٧ • بل ان دوقات ألمانيا أنفسهم رنوا بأبصارهم عبر الألب الى هذه المنطقة ،

وفى مقدمتهم دوق سـوابيا وهو ليودولف Liudolf ابن أوتو الملك الألمانى ، وكذا هنرى المشاغب Henry the quarrelsome دوق بافاريا فى عام ٩٥١ طمعا فى توسيع رقعة ممتلكاتهم(٤) .

ولا شك أن هذا الاتساع لممتلكات فصلين اقطاعيين من أفصـال أوتو الأول ، حتى لو كان أحدهما ابنه . سوف يحمل فى طياته نذر خطر يتهدد سلطانه ، ولم يكن أوتو بالذى يقبل بقيام ملكية ضعيفة يصـبح هو فيها فقط الأول بين أقرانه Primus inter pares كما تقضى سمات النظام الاقطاعى والملكية الألمانية الانتخابية ، ولكنه كان حريصا منذ البداية على أن يعيد الى الأذهان سيرة سلفه العظيم شارل الكارولنجى ، فتلقى تاج الملكية الألمانية فى آخن ، وأصر على أن يكون حفل التتويج نموذجا للتبعية المطلقة من جانب أفصاله الاقطاعيين وليس مجرد مراسم شكلية تقليدية(٥) ومن ثم لم يتوان أوتو عن العمل ليقف فى وجه أطماع كل من ملك برجنديا ودوقى سوابيا وبافاريا ، وانتهز فرصة الاسـتغاثة التى جاءته من ادلهيد Adelheid أرملة أحد المتنازعين على عرش مملكة

---

(٤) أنظر : Barraclough, The origins of modern Germany, pp. 49-51.

وايضـا Scott, Medieval Europe, p. 71.

وكذلك Strayer & Munro, op. cit., pp. 152-153.

(٥) فى المأدبة التى أعقبت مراسم التتويج قام الأمراء الألمان ، ابرهارد Eberhard دوق فرنكونيا ، وهرمان Herman دوق سـوابيا . وأرنولف Arnolf دوق بافاريا ، وجيزلبرت Giselbert دوق اللورين بالمهام التشريفية مابين الحجابة وتقديم الشراب ورئاسة الخدم ، وكان هذا تقليدا رمزيا من النظام الاطاعى ، غير أن الأيام أثبتت بعد ذلك أن مفهوم أوتو عن الملكية الألمانية يجب أن يبدو على هذا النحو ، فكبار الأمراء الألمان لابد ن يكونوا أفصالا تابعين يعملون فى خدمة التاج ، أما دوقياتهم فليسـت الا اقطاعا من الملك . أنظر :

Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 356.

وايضـا Davis, A history of Medieval Europe, p. 216.

لومبارديا ، تطلب فيها عونه ضد برنجار Berengar ماركيز ايفريا Ivria وقد حسم أوتو مشكلة الصراع على العرش بالزواج من الأرملة الحسناء هذي ، وحمل دون مراسم لقب ملك اللومبارديين وترك برنجار فصلا تابعا له فى شمالى ايطاليا •

واذ كان دافع أوتو الأول للتدخل فى ايطاليا عام ٩٥١ هو محاولته الوقوف فى وجه دوقى سوابيا وبافاريا ، والحد من أطماعهما ، فان هذين لم يكونا أقل حرصا على مبادلته المعاملة بالمثل ، فقد كان الأمراء العلمانيون يدركون تماما ما الذى يعنيه وجود ملك قوى على العرش الألمانى ، ولذا فقد أعلنوها حربا أهلية ضروسا ، استهدفت فى المقام الأول الاطاحة بأوتو من على العرش ، كما استهدفت فى الوقت ذاته حياته فاندلعت الثورة وشارك فيها ابنه دوق سوابيا وكونراد دوق فرنكونيا ، ودوق اللورين واستمرت قرابة السنوات الثلاث (٩٥٣ — ٩٥٥) حتى تمكن الملك الألمانى من اخمادها ، وكانت هذه الثورة السبب الرئيسى فى أن يولى أوتو وجهه شطر رجال الاكليروس ليجعل منهم جنده وأعوانه •

على أن النتيجة الرئيسية التى خرج بها أوتو من هذه الأحداث، تمثلت فى سعيه الدائب لتحطيم سطوة كبار النبلاء ، وتفتيت الدوقيات الكبيرة ، حتى لايجد فيها أصحابها سندا يحثهم على تحدى السلطة الملكية ، بل أن هذه النظرة تخطت الأمراء العلمانيين لتمتد الى الاكليروس ، ذلك أن السياسة الكنسية التى تبناها أوتو وسار عليها خلفاؤه ، وكانت بعينها تلك التى وضع قواعدها الأباطرة قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٧) Constantinus I وثيودوسيوس (٣٧٨ — ٣٩٥) Theodosius I وجوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) Iustinianus والتى اذا كانت تعترف بحق الكنيسة فى مناقشة المسائل العقيدية ووضع نظمها ، فانها مع ذلك تظل مجرد هيئة حكومية شأنها شأن باقى الهيئات الأخرى تحت سلطان الامبراطور الذى عد نفسه مسئولا مسئولية مباشرة أمام الله • ثم أليس بيبين الأول Pepin I هو الذى دافع عن

البابوية ، وعن طريق هبته الشهيرة نشـــأت الدولة البابوية ؟ ألم يكن شارلمان وخلفاؤه هم الذين حموا البابوات وأثروا الكنيسة ؟ ومن ثـم فرجال الكنيسة ، شأن الموظفين العلمانيين ، ليسوا الا رعايا الامبراطور ، انطلاقا من اعطاء ما لقيصر لقيصر[٦] • وفى المقابل كانت الكنيســة ترفض أى سلطان دنيوى عليها فهى قد نشأت دون مساعدة أحد ، وكثيرا ماكتب آباؤهم وعلى رأسهم أوغسطين Augustinus ان المؤسسات السياسية كانت النتيجة التلقائية لخطيئة آدم[٧] •

وبناء على ذلك، يمكننا أن نفسر الخلاف الذى وقع بين كل من أوتو الأول وابنه غير الشرعى الذى كان أسقفا لمينز Mainz ، عندما حاول الملك الألماني التدخل في شئون الكنيسة هناك ، فرفع الأسقف الابن الأمر الى البابوية فى روما • وهنـــاك أدرك أوتو أن أياديه البيضـــاء على الكنيسة الألمانية مازالت قاصرة عن تحويل الولاء الكامل لرجال الاكليروس اليه ، وأيقن الرجل أن الكنيسة الألمانية ليست بمعزل عن الكنيسة الأم فى روما ، وأنها ليست مستقلة الشأن ، ولذا فقد آمن أن عليه اذا ما أراد السيطرة على الكنيســة الألمانية بعامة أن يبسط سلطانه أولا على الكنيسة الرومانية ، أو بتعبير آخر ، فان الطريق الى الاكليروس الألمانى يبـــدأ من رومـــا •

وواتت أوتو الفرصة عندما استدعته الأحداث فى روما نفســـها ، ممثلة فى رجاء البابا يوحنا الثانى عشر أن يخف لنجدته من مضايقات

---

(٦) أنظر : Stephenson, op. cit., p. 247.

(٧) أنظر Pirenne, A history of Europe, pp. 136-7; 184-5.

وراجع : Augustinus, De Civitate Die, XXII, 22.

وكذلك Paoluci, The political writings of St. Augustinus, pp. 1-183.

برنجار وطموحه الذى يهدد الأملاك الباوية • ورغم أن يوحنا كان يلح فى طلبه منذ علم ٩٥٧ ، الا أن أوتو كان مشغولا عن البابا بنفسه ، يحاول تثبيت دعائم سلطانه ، والقضاء على المؤامرات التى كانت تبتغى رأسه ، فلما أفاق كان عليه أن يسرع الخطى الى روما ليجيب البابا الى مطلبه وليحقق فى المقام الأول سيادته على رأس الكنيسة الرومانية •

وفى فبراير ٩٦٢ ، وفى نفس المكان الذى توج فيه شارلمان من قبل مائة واثنتين وستين سنة تلقى أوتو الأول الملك الألمـانى ، من يد يوحنا الثانى عشر ، البابا الرومانى ، تاج الامبراطورية • وهذه الحادثة تشير بما لايدع مجالا للشك الىأن أوتو الأول راح يسلك سبيل سلفه العظيم شارل ، أو على حد تعبير أحد المؤرخين الألمان ، أن الملكية الألمانية كانت موجهة الى السير على درب الثيوقراطية الكارولنجية [٨] مع فارق لايخفى شأنه ، هو أن الكارولنجيين عملوا على جعل الدولة هيئة دينية ، بينمـا حاول أوتو أن يجعل من الكنيسة مؤسسة دنيوية[٩] •

وما كان لأحد أن يدعى لقب ملك اللومبارد ، ويتشح برداء شارلمان ، ويحمل لقب امبراطور الرومان ، ويتدخل بصورة عملية ومباشرة فى شئون ايطاليا « الممزقة » ، دون أن يورط نفسه ودولته فى مآزق لا حصر لها ، وأن يفتح على نفسه جبهات من العداء كان عليه حتما مقضيا أن يكتوى بمياسم سعيرها ، بفعل الاضطرابات الداخلية بين اللومبارديين والبابوية والنبلاء الرومان والبيزنطيين والمسلمين ومن بعد النورمان •

على أنه مما تجدر الاشارة اليه بادىء ذى بدء ، أن أوتو الأول جاء الى ايطاليا بدافع من المصالح الألمانية فى المقام الأول ، وأن ظـروف ألمانيا الداخلية ، ومحاولته المستميتة اقامة ملكية ألمانية قوية ، يجلس على عرشها ملك مقتدر ، يحنى له الأفصال من العلمانيين والاكليروس ، الهام

8) Joachimsen, The investiture contest and the German Constitutions, p. 98.
9) Pirenne, op. cit., pp. 136-7, 184-185.

اجلالا وتوقيرا ، كانت الباعث الرئيسى وراء مقدمه على التـــدخل فى المشكلات الايطالية • واذا كانت الدعوة قد جاءته من البابوية ، فان الدافع كان كامنا فى ألمانيا • خاصة وأنها كانت فى القرن العاشر الميلادى تفوق بكثير جاراتها ، وأصبحت ذات مركز مرموق فى قيادة عالم المسيحية فى الغرب الأوروبى(١٠) ومن ثم فلا مجال هنا لما يرمى به بعض المؤرخين أوتو من لوم معتبرين اياه قد انساق بذهابه الى ايطاليا وراء تحقيـــق مكاسب شخصية وسمعة ذائعة يعيد بها لنفسه ذكرى ســـــلفه العظيم شارل (١١) وان كان هذا لاينفى أن أوتو الأول هو الذى وضع أســس سياسة الارتباط الكامل بين ايطاليا والمانيا ، لقرون طويلة سواء فى القوة أو الضعف(١٢) وما ترتب على ذلك من عواقب وخيمة لهذه وتلك •

---

10) Mayer, The historical foundations of the German Constitutions.

والحقيقة ان المانيا كانت اسعد حظا من فرنسا وانجلترا فى القرنين التاسع والعاشر ، ففى فرنسا بعد عزل شارل السمين سنة ٨٨٧ دخلت فرنسا فى حرب أهلية لمدة قرن بين أفراد البيت الكارولنجى وأمراء باريس ، بينما تحطمت ايطاليا تحت ضربات النبلاء ، وعانت انجلترا الكثير من هجمات الدانيين بعد وفاة الفرد العظيم سنة ٨٩٩ وخاصـــــة فى النصف الثانى من القرن العاشر وأوليات سنى القرن الحادى عشر ، هذا فى الوقت الذى أقدم فيه الأمـــراء الالمان على اختيار أرنولف الحفيد غير الشرعى للويس الألمانى ، ورغم أن هذا أدى الى احياء التقليد الجرمانى القديم الخاص بحق اختيار الزعيم ، وقاد الى تقوية نفوذ النبلاء واضعاف سلطان الملكية على المدى طويل ، الا أنه أعطى المانيا حكما قويا . وقد عاد الأمراء الألمان الى ممارسة حقهم ثانية سنة ٩١١ بعد وفاة لويس الطفل واختاروا كونراد دوق فرنكونيا . أنظر :

Barlow, The feudal Kingdom of England, pp. 1-3.

وايضـــا Strayer & Munro, op. cit., pp. 147-149.

وكذلك C.M.H. vol. III, pp. 311, 323-325.

11) Stephenson, op. cit., pp. 245-247.

Ch. Brooke, Europe in the Central Middle Ages, p. 163.

ودكتور سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطى . جا ص٢٧٥

12) Tout, op. cit., p. 32.

وايضـــا Pirenne, op. cit., p. 139.

فلقد كان حمل لقب « امبراطور الرومان » يثير من الناحية القانونية مشكلة تستعصى على الحل ، فهذا اللقب وان كان بصورة أخرى — أعنى « الامبراطور الرومانى » يحمله الأباطرة الرومان الشرعيون فى القسطنطينية ، وليس لأحد أن ينافسهم فيه • فسلسلة الأباطرة هناك لم تنقطع ابتداء بأوكتافيانوس أوغسطس فى روما القديمة ، الى قسطنطين العظيم فى روما الجديدة ، وصولا الى الجالس على العرش آنذاك نقفور فوقاس Nicephorus Phocas والنظرية السياسية الرومانية لا تعترف أبدا بوجود امبراطوريتين رومانيتين ، بل هى امبراطورية واحدة ، حتى وان جلس على عرشها أربعة أو ثلاثة أو اثنان ، بل وان تنازع على هذا العرش ستة أباطرة[١٣] •

وليس أدل على ذلك من أن المعاصرين الجرمان ، وهم أعداء الامبراطورية ، البعيدون حضاريا عن سمتها ، قد أدركوا هذه الحقيقة فى جلاء ، ويتضح هذا مما أقدم عليه القائد الجرمانى أودواكر Odovacar فى عام ٤٧٦ عندما عزل رومولوس أوغسطولوس Rumulus Augustulus آخر أباطرة النصف الغربى من الامبراطورية ، وبعث بتاجه وصولجانه مع وفد من السناتو الرومانى ، الى امبراطور النصف الشرقى فى القسطنطينية ، زينون Zeno وراح يوضح على لسان مبعوثيه أن الامبراطورية يكفيها الان وجود حاكم واحد على عرشها هو القائم بالفعل على شطآن البسفور فى مدينة قسطنطين ، ويطلب اليه أن يعتبره نائبا عنه فى حكم ايطاليا • وبغض النظر عن النتيجة التى انتهى اليها أمر أودواكر وموقف زينون منه ،

---

(١٣) على عهد الامبراطور دقلديانوس كان يحكم الامبراطورية أوغسطسان وقيصران ، وهو النظام الرباعى Tetrachia الذى وضعه دقلديانوس ، ولما توفى قسطنطين عام ٣٣٧ خلفه أبناؤه الثلاثة ، بينما خلف ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ ابناه أركاديوس فى النصف الشرقى وهونوريوس فى النصف الغربى ، أما الأباطرة الستة الذين تنازعوا على عرشها فقد كان ذلك فى عام ٣٠٨ بعد اعتزال دقلديانوس سنة ٣٠٥ •

فهذا بلا شك يعد اعترافا صريحا من جانب أحد زعماء الجرمان بوحدة الامبراطورية • ولـ ميدر بخلد أودواكر ، وكان باستطاعته ذلك ، ولا بخلد غيره من زعماء بني جنسه ، أن يعلن من نفسه امبراطورا منافسا أو حتى شريكا ، وكان بمقدورهم جميعا أن يفعلوا ذلك بعد أن أصبحت بيـدهم مقاليد الأمور فى شطري الامبراطورية عقيب وفاة ثيودوسيوس عـام ٣٩٥ [١٤] •

وهكذا لم يجرؤ أحد من الجرمان على أن يفعل ذلك حتى عنـدما تساقطت ولايات النصف الغربى للامبراطورية فى أيديهم ابان القـرن الخامس الميلادى وطوال قرون آتية • ومن ناحيـة ثانية فان الحروب العسـكرية التى خاضـها الامبراطور جوسـتنيان Iustinianus (٥٢٧ — ٥٦٥) على امتداد ربع قرن من الزمان لاستعادة ولايات الغرب هذى الضـائعة ، خير دليل على حرص الأباطرة الرومان على تحقيق النظرية السياسية الرومانية القائلة بالامبراطورية الواحدة • ولم يكـن خلفاء جوسـتنيان أقل « رومانية » منه فى هذا السبيل وان اختلفت أساليبهم السياسية عن سلفهم العظيم •

وهكذا أحجم الجرمان فى ضوء (وعيهم) بوحدة الامبراطـورية عن اقامة امبراطور من بينهم فى الغرب ، ولكن البابوية اجترأت عنـدما توجت الجرمانى الفرنجى شارلمان امبراطورا ، متحدية بذلك مشـاعر الأباطرة الرومان فى القسـطنطينية • ولعل هذا هو الذى دعا كاتبه ومؤرخه اينهارد Einhard أن يذكر فى كتابه « حياة شارل » Vita Caroli عدم معـرفة الامبراطور مسبقا بمسـألة التتويج ، رغـم ما فى هذا القول من مغالطة واضـحة [١٥] كى يظهر سيده بمظهر

---

(١٤) كان ستيلكو الجرمانى هو القائد العا ملجيوش الامبراطورية ومقره فى الغرب « ميلانو » حيث توفى ثيودوسيوس . بينما آلت الى زميله جايناس الجرمانى الأمور فى القسطنطينية •

15) Einhard, The life of Charlemagne, 28.

الذي لم يكن طامعا في شيء من ذلك ، حتى لايجر على دولته عداء القسطنطينية .

والبابا فى روما ــ بعمله هذا ــ تخطى حدود سلطانه الروحى وراح يمارس سلطات زمنية غير قانونية ، فهو من الناحية الرسمية واحد من رعايا الامبراطور ، لكنه لمنافع دنيوية ومصالح شخصية[١٦] ولعداوات طويلة بين روما والقسطنطينية ، زادها ضراما تأجج نيران العداء تجاه الايقونات الذي حمل الأباطرة الايزوريون والعموريون مشعله ، ووقوف روما معارضة متحدية ، كل هذا دفع البابوية كى تتوج جرمانيا امبراطورا للرومان . وكان هذا ــ أعنى لقب « امبراطور الرومان » وليس « الامبراطور الرومانى » بالألف واللام والنسبة ، هو الذي حمله شارلمان . وحتى على هذا النحو لم يحظ شارل العظيم الا باعتراف واهن فى عام ٨١٢ من جانب الامبراطور ميخائيل رانجابيه Michael I Rangabe نتيجة لظروف سياسية عصيبة كانت تعانيها الامبراطورية البيزنطية ، ولم يكتب لهذا الاعتراف أن يرى دائرة الضوء لأن مجلس السناتو فى القسطنطينية لم يصدق عليه ، ولم يلبث الموت أن اختفى بشارلمان من الحياة[١٧] .

ومن ثم فان الإمبراطورية البيزنطية وهي في أوج قوتها وازدهارها زمن المقدونيين ، عصرها الذهبى ، لم تكن أقل حرصا على بقاء اللقب الرومانى من حق أباطرتها وحدهم دون غيرهم . وكان أوتو الأول يعلم

---

16) Ibid, 28.

17) Ibid, 17.
Vasiliev, History of the Byzantine Empire, I, p. 268.

وايضا ديفز : شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى . ص ١٧٨ ــ ١٨٩ .

ودكتور نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا . ص١٧٨
وكذلك دكتور جوزيف نسيم يوسف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ص ١٧٨ ــ ١٨٨ .

هذه الحقيقة تماما ، حتى أن لقبه التقليدي ظل دائما « الامبراطور العظيم » Imperator Augustus ولم يرد ذكر روما فيه ، ولهذا كان هذا اللقب مجرد منصب شخصي فحسب ، ومع ذلك فان عملية التتويج وما تبعها من التدخل الرسمي في شئون ايطاليا ، وضعه وجها لوجه أمام الامبراطورية الرومانية « البيزنطية » في وقت كانت آخذة في الصعود والاستعداد للتوسع والعودة الى الغزو تحت قيادة نقفور فوقاس[18] .

ومع ذلك فقد كان واضحا بصورة جلية أن من المستحيل أن تحتفظ بيزنطة بمركز قوي لها فيما كان يعرف واقعا بالجزء الغربي pars Occidentalis أمام قوة المسلمين في الجنوب الايطالي وعداء الملوك السكسون ، الأباطرة الجدد ، ولذا سعت للحفاظ على الحالة الراهنة status que هناك ، وشرع الامبراطور باسل الثاني في تنظيم الحكم البيزنطي في ولايتي ايطاليا الجنوبيتين اللتين اتحدتا الان تحت سيطرة حاكم واحد يعرف باسم قطبان Catapan لا يختلف عن الاكزارك ويجمع في يديه السلطتين المدنية والعسكرية[19] . ورغم أنه كان أمرا بعيد المنال أن يقوم في الغرب شبيه لتلك الامبراطورية الرومانية Imperium Romanum القائمة في القسطنطينية . الا أن خلفاء أوتو الأول ، خاصة سميه ، ولده وحفيده ، وهنري الثاني ، انتهزوا فرصة الظروف الصعبة للادارة البيزنطية في ايطاليا ، وحمل أوتو الثاني لقب امبراطور الرومان وأصبح ملازما له لايفارقه ، وظهرت عبارة « الامبراطورية الرومانية » في المكاتبات الرسمية زمن هنري الثاني وكونراد الثاني[20] . وبات الفرق واضحا بين سياسة أوتو الأول الذي

---

(١٨) جوزيف نسيم يوسف : الدولة والامبراطورية . ص٢٠٦

(١٩) هسى : العالم البيزنطي : ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد . ص١٥٣ — ١٥٤ .

(٢٠) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق . ص٢٠٨ — ٢٠٩ وأيضا
Bryce, op. cit., pp. 142-146.

جاء الى ايطاليا لدوافع المانية ، وسياسة خلفائه الذين استهوتهم فكرة « الامبراطورية » ، أو على حد تعبير المؤرخ باراكلاف هو الفرق بين السياسة « السكسونية » لاوتو الأول ، والسياسة (الرومانية) لخلفائه[21] .

وإذا كان التدخل الألمانى فى ايطاليا ومشكلاتها العديدة ، حتى غدا الارتباط بينهما وثيقا ، قد أغرى الأباطرة الألمان بالاصطراع مع « بيزنطة » حول « رومانية » الامبراطورية فى الغرب ، فان الرغبة الشديدة فى الوصول الى حوض البحر المتوسط ، وهى منطقة لها أصالتها الحضارية ، كان باعثا قويا لزيادة حدة الصراع مع القسطنطينية ، صاحبة السيادة الآن أعنى القرنين العاشر والحادى عشر ، على حوض البحر المتوسط الشرقى بعد انحسار موجة المد الاسلامى فيه آنذاك . وهذا كله يفسر المحاولات العسكرية التى قام بها أوتو الأول وولده أوتو الثانى فى جنوب ايطاليا من أجل فرض السيطرة الألمانية على هذه المنطقة ، وتوسيع حدود « الامبراطورية » على حساب البيزنطيين والمسلمين على السواء غير أن هذه الجهود باءت بالفشل ، بل ولقى أوتو الابن هزيمة مروعة عند خليج كولون سنة ٩٨٢ على يد المسلمين ، أفلت منها هو نفسه بصعوبة بالغة . وكانت هذه الهزيمة كارثة فادحة لحقت بالامبراطورية الألمانية ، ظهر أثرها واضحا فى أنها قضت لمدة قرنين تاليين على طموح الامبراطورية الغربية فى السيطرة على وسط ايطاليا وجنوبها[22] .

ولم متحل المناوشات العسكرية بين الطرفين دون بذل الجهود الدبلوماسية بين الامبراطوريتين ، فدارت المفاوضات بين الطرفين زمن

---

(21) The origins of modern Garman, p. 62.

(٢٢) C.M.H. Vol. III, 169-170. وأيضا دكتور سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ص٢٧٩ وكذلك دكتور ابراهيم طرخان : المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى ص٢٦٤ وأيضا : Vasiliev, op. cit., I, p. 328.

أوتو الأول ونقفور فوقاس ، تضمنها ذلك التقرير Relatio de Legatione Constantinopolitana الذي وضعه ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremono مبعوث الامبراطور الألمانى [٢٣] ، والذي يتسم بالحقد والسخرية اللاذعة تجاه البيزنطيين الذين لم يستقبلوا الأسقف – في اعتقاده – بمظاهر الحفاوة والتكريم اللائق به . وقد استمرت هذه المفاوضات على عهد يوحنا تزيمسكس Iohannes Tzimisces وكان أقصى ما استطاع أوتو الحصول عليه ، زوجة بيزنطية تدعى ثيوفانو Theophano لابنه ووريثه أوتو الثانى ، وهى تنتمى لأسرة من كبار ملاك الأراضى ، وليست من البيت الامبراطورى كما كان يشتهى .

وقد ساهمت التغيرات السياسية التى طرأت على خريطة المنطقة فى ازدياد ما بدا أنه تقارب ودى بين الامبراطوريتين ، ذلك أن النورمان وقد ورثوا البيزنطيين والمسلمين على السواء فى جنوب ايطاليا وصقلية فى القرن الحادي عشر ، ورثوا أيضا العداء التقليدي تجاه الامبراطورية الألمانية ، ومن ثم أدرك الطرفان أن عليهما أن يعملا معا ضد عدوهما المشترك ، وظهر هذا واضحا فى عدة أمور منها ، زواج الامبراطور مانويل كومننوس Manuel Commenus (١١٤٣ – ١١٨٠) من برتا Bertha من سولزباخ Sulzbach أخت زوجة كونراد الثالث Conrad III (١١٣٩ – ١١٥٢) وهى التى عرفت باسم الامبراطورة ايرين Irene عند اقترانها بمانويل [٢٤] . وأدى هذا الزواج السياسى الى زيادة التقارب بين الرجلين خاصة بعد فشل الحملة الصليبية الثانية التى قادها كونراد

---

23) Liutprand of Cremona, report, in «Contor, Med. World, pp. 166-176.

(٢٤) كانت المفاوضات قد جرت بشأن هذه الزيجة بين يوحنا كومننوس (١١١٨ – ١١٤٣) وكونراد ، حيث طلب الأول الى الأخير أن يختار من بين الاميرات الألمان زوجة لابنه مانويل انظر :
Letter of Conrad III to the «Creek emperor John Comnenus 1142

الثالث بالاشتراك مع لويس السابع ملك فرنسا ، فقد تم عقد اتفاقية سالونيك بين مانويل وكونراد الثالث ١١٤٨ ، تعهد فيها الأخير برد ايطاليا الى الامبراطور كبائنة لايرين (برتا) ، وان كانت هذه الفقرة من المعاهدة قد اختفت من المصادر الغربية ، وتدور أهميتها أساسا حول ما تعنيه كلمة « ايطاليا » ، هل تعنى جنوب ايطاليا فحسب أم ايطاليا كلها ؟[٢٥] ،

غير أن فترة العسل القصيرة هذه سرعان ما انتهت باعتلاء فردريك بربروسا Frederick I Barbarossa عرش ألمانيا ، فقد كان الرجل يطمح فى مملكة النورمان فى صقلية وعرش القسطنطينية على السواء ، ولذا نراه يتفق مع البابا يوجنيوس الثالث Euginius III على عدم التخلى عن « أية منطقة » على هذا الساحل « لملك اليونان » Rex Grecorum وهى التسمية التى كان يحلو لفردريك الألمانى أن يخلعها على امبراطور القسطنطينية ، بل ان هذا اللقب جرى استخدامه من جانب الأباطرة الألمان ، كما يتضح من الرسالة التى بعث بها كونراد الثالث ليوحنا كومننوس سنة ١١٤٢[٢٦] ومع ذلك فقد حاول الامبراطور البيزنطى مانويل كومننوس أن تظل روابط المودة قائمة بين الدولتين ، فعرض عليه التحالف ضد النورمان فى الجنوب ، لكن هذه المحاولة ذهبت سدى ، وان كان السفير البيزنطى قد نجح بدبلوماسيته وأمواله فى ضم عدد من المدن على رأسها انكونا Ancona والمتمردين النورمان ، وأخيرا البابوية ، مما عده فردريك خرقا لاتفاقية كونستانس[٢٧] ،

وأمام هذا التغير فى السياسة الألمانية ، شن مانويل هجومه على

---

(٢٥) هسى العالم البيزنطى ، ص١٩٣ وقارن
Ch. Brooke, op. cit., pp. 373-4.
وايضا : Z. N. Brooke, A history of Europe, 911-1198, pp. 284-331.

26) Letter of Conrad III to the « Greek emperor John Comnenus, 1142
وايضا : Letter of Frederick I. to Eugene III.

27) Z. N. Brooke, op. cit., pp. 292-294.

جنوب ايطاليا منتهزا الفرصة التي قدمها له الثائرون النورمان عقب وفاة روجر الثاني سنة ١١٥٤ م غير أنه لم يحقق نجاحا يذكر، بل ازدادت حدة العداء تجاه القسطنطينية من جانب فردريك بربروسا الذي راح يشجع سلطان قونية السلجوقي على المجاهرة بالعداء للامبراطور البيزنطي، حتى اذا لقي الأخير الهزيمة القاصمة عند ميريوكيفالوم Myriocephalum في ابريل الصغرى سنة ١١٧٦ كتب فردريك اليه رسالة تقطر بالاحتقار وتومئ الى ضرورة خضوع « ملك اليونان » Rex Graecorum للامبراطور الروماني، يعني نفسه، وأعلن فردريك نفسه وريثا للاباطرة الرومان، وادعى أن ذلك يتضمن السيطرة على المملكة اليونانية Regnum Greciae[٢٨] بل أن فردريك بربروسا تمادى في سياسته، فكتب الى ابنه وخليفته في المانيا، هنرى السادس، وهو في الشرق يقود جحافله ضمن قوات الحملة الصليبية الثالثة، يأمره باعداد حملة جديدة تستهدف القسطنطينية ذاتها، ورغم أن هذا لم يتحقق الا أنه يدل على مدى العداء بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الألمان • غير أن الظروف السياسية التي راحت تعاني كل منهما منها باعدت بين عدائهما، واذ لم تمض سنوات قلائل على وفاة فردريك بربروسا (١١٩٠) حتى دهمت جحافل اللاتين جنود الحملة الصليبية الرابعة القسطنطينية عام ١٢٠٤م، فخرجت بذلك الامبراطورية البيزنطية من العاصمة لتقوم في نيقية وابيروس وطرابيزون، ولتحل محلها امبراطورية لاتينية حتى عام ١٢٦١ عندما تمكن ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeologus حاكم نيقية من استعادة القسطنطينية • بينما دخلت امبراطورية الألمان في صراع عنيف مع البابوية حول مشكلة التقليد العلماني وما تبعها من النزاع على السيادة العالمية، بالاضافة الى المحاولات الجادة التي بذلتها أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufens في ألمانيا للسيطرة على مملكة النورمان في صقلية وجنوب ايطاليا، مما يشكل خطرا جسيما على نفوذ البابوية وسلطانها وسط ايطاليا •

---

(٢٨) هسي: العالم البيزنطي ص١٩٧ •

وكانت البابوية قد اعترفت فى اتفاقية ملفى Melfi التى عقدت سنة ١٠٥٩ ، بين نيقولا الثانى Nicholas II من ناحية ، وزعيمى النورمان ، ريتشارد دوق أفرسا Aversa وروبرت جويسكارد بشرعية حكم النورمان لجنوب ايطاليا ، مقابل اعترافهم بالتبعية للبابوية ودفع جزية سنوية (٢٩) ولقد جاء هذا نتيجة لفشل البابا الراحل ليو التاسع في التصدى لطموحهم ، وهزيمته على أيديهم عند كيفيتاتى Civitate عام ١٠٥٣ وأسره لديهم بضعة شهور . كما أن البابوية وجدت فيهم — ربما — حليفا طبيعيا ضد أعدائها من النبلاء الرومان فى روما ، وعدوها اللدود ، الامبراطور الألمانى . وبتعبير أدق فقد وجدت فيهم الى جانب أسلحتها الروحية « الحرمان والمصادرة » سلاحا زمنيا فتاكا ، بما لهم من قوة عسكرية ترهب بها أعداءها . وتمثل هذا بصورة واضحة عندما استنجد بهم البابا جريجورى السابع للتصدى لقوات هنرى الرابع التى فرضت حصارها على روما وهاجمتها عدة مرات فى الفترة ما بين عامى ١٠٨١ — ١٠٨٤ . ولكن كان النورمان ، حلفاء البابوية ، لم يرعوا للمدينة حرمة ، فاستباحوها وعاثوا فيها فسادا ، مما دفع جريجورى السابع الى الارتحال فى حمايتهم جنوبا فرارا من الغضب المتأجج فى صدور رعيته الرومانية تجاهه باعتباره المسئول الأول عما فعله حلفاؤه النورمان .

ولم تلبث هذه العلاقات الودية أن تحولت الى تحالف رسمى بين البابا هادريان الرابع ووليم الأول ملك صقلية سنة ١١٥٦ ، كانت أهم سماته اعتراف البابوية بحق الملك النورمانى فى الاشراف على عملية اختيار رجال الاكليروس فى مملكته (٣٠) وهو الحق الذى تدعيه البابوية لنفسها ، وتناضل من أجله ضد ملوك المانيا طيلة أربعة قرون كاملة (من العاشر حتى الثالث عشر) ، نعنى مشكلة التقليد العلمانى ثم السيادة

---

29) Oath of Robert Guiscard to Nicholas II 1059.
ولمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث .. أنظر
Haskins, The Normans in European history, pp. 202-204.
(٣٠) راجع نص الاتفاقية فى
Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 181-183.

العالمية • ويمكن القول بصورة واضحة ان هذا التحالف كان موجها بصفة رسمية الى فردريك الأول بربار وسا ، الامبراطور الألمانى ، الذى لم يكن طموحه يخفى علـى ملوك النـورمان فى صـقلية ، ولا خطره يغيب عن البابوية • خاصة وأن فردريك كان يعتبر أقاليم جنوب ايطاليا وصقلية جزءا من مملكته الألمانية ، مما دفعه الى ابداء معارضته واحتجاجه لدى هادريان الرابع على هذا التحالف ، معتبرا اياه نقضا لشروط معـاهدة كونستانس Constance التى وقعت بينهما عام ١١٥٣ وتجـاهلا لادعاءاته هذه [٤١] • غير أن هادريان الرابع كتب الى فردريك رسـالة مطولة دحض فيها هذه الاتهامات ، وأبان عن أن اتفاقه مع النورمان لايعنى اهانة موجهة الى الملك الألمانى « لأن الأراضى التى يسيطر عليها وليم ، ليست من حق فردريك ، بل هى ممتلكات البابوية »[٤٢] مشيرا الى ماجاء

---

(٣١) من المعروف أن نص المعاهدة لم يتضمن شيئا مطلقا عن حقـوق الملك الألمانى فى جنوب ايطاليا وصقلية ، راجع نص المعاهدة فى
Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 178-180.

(٣٢) راجع نص الرسالة في
Tierney, The crisis of church and state pp. 105-106.
وأيضـا : Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 183-185.
وهذه الرسـالة ذات مدلول هام فى تاريخ الصراع الطويل بين البـابوية والامبراطورية ، فقد تضمنت كلمة beneficia والتى فسرت فى حضرة الامبراطور فى بيزانسون Besancon سـنة ١١٥٧ على أنها تعنـى كون الامبراطورية « اقطاعا » للامبراطور ، وكاد المندوب البابوى يلقى حتفه على يد أنصار فردريك لولا تدخل الأخير بنفسه لمزيد من التفاصيل أنظر :
Thompson & Johnson, op. cit., p. 400.
وأيضـا : C.M.H. Vol. V, pp. 390-391.
وكذلك Bryce, op. cit., p. 166. Davis, op. cit., p. 326.
وقد أصدر فردريك بربا روسا بيانا فى الشهر التالى مباشرة (أكتوبر ١١٥٧) يفند فيه ـ ما اعتقد أنه ادعاءات بابوية ، واضطر هادريان الرابع أن يبعث برسالة ثانية الى الامبراطور فى أوائل عام ١١٥٨ يوضـح فيها أنه لم يعن بكلمة beneficia « اقطاعا » بل يعنى بها « جميلا » أو (عمـلا طيبا) • راجع بيان فردريك ورسالة هادريان الثانية فى
Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 186-188.
وعن هذا التفاصيل كلها ، راجع للباحث « السمو البابوى بين النظـرية والتطبيق » بحث منشور فى المجلد الثالث من « ندوة التاريخ الاسـلامى والوسـيط » •

فى إتفاقية « أملفى » باعتبار الممتلكات النورمانية فى الجنوب اقطاعا بابويا •

ورغم ذلك لم يتخل فردريك بربار وسا لحظة واحدة عن ادعاءاته فى جنوب ايطاليا وصقلية وتمكن من أن يحقق نجاحا كبيرا فى هذا الميدان عندما حظى بالأميرة كونستانس Constance ابنة وليم الثانى وريثة عرش النورمان ، زوجة لابنه هنرى السادس ، فكسب لنفسه بهذه الزيجة مكانة ، ولدولته إتساعا ، ولسلطانه امتدادا• ولكن هذا كله لم يمر هكذا حسبما تشتهى نفس فردريك الطموحة ، فجرت الظروف السياسية فى المنطقة على غير ماكان يتمنى هو أو خلفاؤه ، ذلك أن الارتباط الوثيق بين المانيا وجنوب ايطاليا وصقلية كان يعنى للبابوية وقوعها بين شقى الرحى ، وهو ما كان من المستحيل على البابوية تقبله • ولما كان طبيعيا أن يعض الملوك الألمان على ما اكتسبوه بالنواجز ، وتبذل البابوية الجهد ، كل الجهد ، فى سبيل الحيلولة دون نجاحه ، جرى النزاع سافرا أحيانا ، خفيا أحيانا أخرى ، بين الطرفين ليزيد حمى الصراع والعداء بينهما الى درجة أسفرت فى النهاية — كما سنرى — عن تحطيم الامبراطورية •

ولم يكن من السهل نجاح هذا الارتباط بين المملكتين الألمانية والصقلية ، للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة عند كل منهما ، والميراث الحضارى الماثل لكليهما ، فما خلفه المسلمون فى صقلية على امتداد قرنين من الزمان ، هما فترة مكثهم فيها والذى حرص النورمان ، السادة الجدد ، على الافادة منه الى حد بعيد جدا ، كان يعد شيئا مغايرا تماما لما كان عليه الحال فى ألمانيا ، وبينما كانت الملكية فى المانيا انتخابية ، اذا هى وراثية فى صقلية • كما أن القطيعة الجغرافية بينهما والتى طولها شبه الجزيرة الايطالية ، تعتبر حائلا طبيعيا يباعد بين كليهما • وبمقتضى المعاهدات التى عقدت بين البابوية وملوك النورمان

فى صقلية ، كان هؤلاء الأخيرون ، أو بعضهم يعتبرون البابوية صاحبة السيادة الاقطاعية فى البلاد ، فى الوقت الذى يرفض فيه الألمان ذلك بالنسبة لبلادهم ، وحتى لمناطق طموحهم فى صقلية ، ولعل ماوقع فى بيزانسون[٣٣] خير دليل على ذلك • وفوق هـذا كله وذاك ، لم يكن مقت الصقليين للملك ألمانى يتولى أمورهم ، أقل من كراهية الألمان لذلك اذا ماحدث واعتلى عرشهم صقلى[٣٤] •

من أجل هذا كله لم يكن غريبا أن يوجد فى صقلية حزب نورمانى يعارض انتقال العرش الى ملوك أسرة الهوهنشتاوفن ، وأن يقدم هـذا الحزب على اختيار تنكرد Tancred ملكا خلفا لأخيه غير الشـقيق وليم الثانى عقب موته سنة ١١٨٩ ، ضاربا عرض الحائط بحق كونستانس فى ميراث عرش أبيها ، وبالتالى حق زوجها هنرى السادس • بل لقـد سعى هذا الحزب الى توسيع دائرة العداء تجاه الملوك الألمان ، فجـذب الى صفه جماعة الولفيين (Guelfs) Welfs فى ايطاليا ، الاعـداء التقليديين لأسرة الهوهنشتاوفن ، وعقد تحالفا مع ريتشارد الأول مـلك انجلترا وهو فى طريقه الى الأراضى المقدسة قائدا لجيـوش بلاده فى الحملة الصليبية الثالثة ، حيث كانت أخته هى أرملة وليم الثانى •

وكان على هنرى السادس أن يواجه هذا التحالف الصقلى الايطالى الانجليزى ، فقاد جيوشه الى ايطاليا سنة ١١٩١ ، ووضع على رأسـه التاج الامبراطورى ، غير أن الفشل لحق به فى حملته هذه ، الا أن القدر عوضه عن ذلك بأن ساق اليه صيدا ثمينا عندما وقع فى أسره ريتشارد

---

(٣٣) راجع الحاشية السـابقة •

(٣٤) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ــ الجزء الأول • ص٢٠٧

ملك انجلترا أثناء عودته من الأراضي المقدسة (٣٥) • أو بتعبير آخر — على حد قول فرانك بارلو F. Barlow امتلك هنري السادس — في شخص ريتشارد ، مفتاحا من ذهب ســــوف يفتح أمامه جميع الأبواب الموصدة (٣٦) • ذلك أن هنري استغل هذه الفرصة بذكاء كبير ، فضمن أن يقف الى جانبه فيليب أوغسطس Philip Augstus ملك غرنسا ، العدو اللدود للملك انجلترا ، وجون الانجليزى أخو ريتشارد ، اللذان طالبا هنرى أن يبقى عدوهم المشـــــترك فى أسره دون فكاك • وان كان الملك الألمانى قد أطلق سراح خصمه بعد عامين من الأسر لقاء فدية ضخمة قدرها مائتا ألف مارك ، بالاضافة الى خمسين ألفا أخرى مقابل أن يحله من وعده بمساعدته ضد النورمان (٣٧) • وفى نفس العام حالف الحظ هنرى مرة أخرى اذ مات تنكرد النورمانى ، فتم تتويج هنرى الملك الألمانى ، وامبراطور الرومان له ملكا على صقلية وأبوليا وكالابريا •

هكذا امتد ســلطان المانيا على جنوب ايطاليا وصقلية ، لكنه كان سلطانا مزعزعا ، يتهدده العداء النورمانى الكامن فى الجنوب ، والفوضى العارمة التى توشــك أن تعصف بالمانيا ذاتها ، من جراء انشغال ملوكها بطموحاتهم الخاصة فى مملكة الصقليين • والحقـــد البابوى والكراهية المقيتة يحملها الجالس على كرسى القديس بطرس فى روما تجـــاه هذا « الانتشار » الألمانى ، والذى أوقع البابوية بصــــورة عملية بين فكى « كماشة » ألمانية لذا كان أمرا طبيعيا أن يرفض البابا تتويج فردريك الثانى ابن هنرى السادس وكونستانس ، فى حياة أبيه ، فى الوقت الذى قبل الألمان اختياره ملكا على المانيا •

---

(٣٥) وكان ريتشارد قد أسر على يد ليوبولد الرابع Leopold IV دوق اوستريا سنة ١١٩٢ الذى سلمه بدوره لسيده الملك الألمانى هنـــرى السادس فى عام ١١٩٣ بناء على طلبه . للمزيد من التفاصيل انظر :
Barlow, op. cit., pp. 361-364.

(٣٦) أنظر Ibid. 164.

(٣٧) المرجع الســـابق . الصفحات نفسها .

ولم تلبث الحرب الأهلية أن اندلعت فى المانيا عقب وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ بين الولفيين بزعامة أوتو الرابع دوق برنسويك ، والهونشتا وفن تحت قيادة فيليب السوابى ، واستمرت ستة عشر عاما كاملة ، تداول فيها الطرفان النصر والهزيمة ، وتدخل فيها البابا انوسنت الثالث بصورة سافرة ، متقلبا بين الجانبين بما يحقق مصالحه الزمنية فى المانيا وايطاليا على حد سواء ، هذا فى الوقت الذى حرصت فيه كونستانس على الاحتفاظ بعرش صقلية لابنها فردريك ، غير أن البابوية وقد قلب لها أوتو الرابع ظهر المجن بعد أن توجته فى سنة ١٢٠٩ فى أعقاب مقتل فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى ، رأت أن مصالحها الزمنية تفرض عليها الوقوف الى جانب الأمراء الكارهين لأوتو الرابع ، والذين أقدموا على اختيار فردريك الثانى ملكا عليهم سنة ١٢١١ .

وقد يبدو هذا الأمر غريبا الى حد كبير ، فالبابوية تبذل قصارى جهدها كى تقف عقبة كأداء فى سبيل اتمام أى نوع من الترابط بين المانيا ومملكة الصقليتين ، والتى آلت الى ملوك المانيا الآن . فاذا بها تساند فردريك الثانى ملك صقلية وترفعه على العرش الألمانى ليضع بذلك قدمه الأخرى على الأرض الألمانية ، بعد أن كان قد ثبت الأولى فى صقلية . لكن الغرابة سرعان ماتختفى ، اذا أدركنا أن انوسنت الثالث أراد أن يصطنع لنفسه فردريك ويتخذه أداة طيعة ضد أوتو الرابع الذى راح يمارس — بعد حصوله على التاج (١٢٠٩) نفس سياسة أعدائه الهوهنشتاوفن تجاه ايطاليا وصقلية والحبر الرومانى . ولاشك دار بخلده أن فردريك سوف يحمل له فى نفسه كل التقدير بعد أن أعاد اليه حقا كان يبدو بعيد المنال . غير أن الأحداث خيبت فأل البابوية .

فمنذ نجاح هنري السادس في فرض سيادته على جنوب ايطاليا وصقلية عام ١١٩٤ ، ووراثة ملوك ألمانيا بشكل واقعى لعرش النورمان، ورثوا معه أيضا تطلعهم الى السيادة على عالم البحر المتوسط ، وصادف ذلك هوى كبيرا فى نفس فردريك الثانى بصفة خاصة ، ولم لا وقد أمضى سنى عمره الأولى فى شوارع صقلية ، وأجاد العربية ، ونهل من

الثقافة الاسـلامية ، وتأثر بالتراث البيزنطى ولم يتخل عن الطمـوح الألمانى وسياسة الهوهنشتاوفن وأتقن عدة لغات ، وتعمق فى بعض من العلوم، حتى صار « محير العالم » أو (أعجوبة الدنيا) Stupor Mundi من هنا كانت محاولاته الالتزام بالتقاليد النورمانيـة التى انحرفت بالسياسة الامبراطورية عن دروبها الرئيسية • لقـد كان الاتحاد التام بين المملكة الصقلية والامبراطورية unio regni ad imperium الذى أراده فردريك ، السبب المباشر فى انحراف هذه السياسة الامبراطورية عن جادة الصواب(٣٨) •

وعلى هذا النحو ازدادت حدة العداء بين البابوية والامبراطورية ، وفتح باب الصراع على مصراعيه ، وأيقنت البابوية أن عليها أن تكسب هذه الجولة الأخيرة ، والا كان فيها نهايتها ، فحشدت أسلحتها ، وسعرت لهيب نيرانها ، وأقدم البابا جريجوري التاسع فى عام ١٢٤١ على الدعوة لعقد مجمع كنسى فى روما بهدف عزل فردريك ، فلما حيل بين المؤتمرين والحضور ، بجهود الملك ، جدد البابا انوسنت الرابع الدعوة ثانية فى سنة ١٢٤٤ والتأم عقد المجمع فعلا فى ليون عام ١٢٤٥ وصدر قرار عزل فردريك الثانى(٣٩) • وشـهدت السـنوات الخمس الباقية من عمر الامبراطور عددا من الثورات فى شمال ايطاليا وجنوبها ، وحركات تمرد فى داخل ألمانيا ذاتها ، وقيام البابوية باختيار وليم أمير هولندا ملكا على ألمانيا • ورغم أن فردريك حقق بعض الانتصارات فى شمال ايطاليا،ولقى الأميرالهولندى الهزيمةعلى يد كونراد ابن‌فردريك،الا أن‌ذلك لم يجد نفعا، حيث مات الامبراطور فى نهاية سنة ١٢٥٠(٤٠) وعندها تنفست البابوية الصعداء ، ورأت فى موته فرصتها السانحة للاجهاز على الامبراطورية ،

---

38) Barraclough, The origins of modern Germany, p. 197.

(٣٩) راجع نص قرار العزل فى
Tierney, The Middle Ages, vol. I.
Source of Medieval history, p. 272.

40) Thompson & Johnson, op. cit., pp. 426-428.

وافتر ثغرها عن ابتسامة ساخرة ، سرعان ماتحولت الى ضحكة عالية وهى ترى مانفرد Manfred الابن غير الشرعى لفردريك ملكا على عرش صقلية ، وعلى عرش ألمانيا ابنه كونراد الرابع ، الذى لم يلبث أن توفاه الموت فى سنة ١٢٥٤ ليخلفه ابنه الطفل كونرادينو فهذا ماكانت تطمح اليه البابوية ، بمعنى تقطيع أوصال الامبراطورية ، وفسخ عرى الارتباط بين المانيا وايطاليا ، وهو ماجاهد فردريك بربروسا وهنرى السادس وفردريك الثانى للحيلولة دون وقوعه •

واذ أبصرت البابوية بعين السلطان الزمنى الفرصة مواتية لتحقق نصرها الكامل ، فقد اهتبلت ماسنح لها على التو ، وراحت تعرض عرش صقلية على ادموند Edmund ابن هنرى الثالث ملك انجلترا ، لكن هذه المحاولة لم تفلح حيث تمكن مانفرد من استعادة نفوذه على الجزيرة ، وان كان الى حين ، حيث لم يجد البابا الفرنسى الأصل ، كلمنت الرابع Clement IV صعوبة فى اقناع شارل دوق أنجو Charles of Anjou اخى لويس التاسع ملك فرنسا ، بقبول العرش الصقلى باعتباره اقطاعا بابويا • ولم يلبث المرشح الفرنسى للعرش الصقلى أن غزا أملاك الهوهنشتاوفن ، وأوقع الهزيمة بمانفرد الذى أسلم الروح فى المعركة التى دارت قرب بنفنتو Benevento فلما استدعى آخر سلالة الهوهنشتاوفن فى المانيا ، كونرادينو ، ليواصل مهمة الحفاظ على ميراث أجداده ، وهى مهمة صعبة وثقيلة ، لم يكن أسعد حظا من عمه ، فلقى الهزيمة على يد الجيوش الفرنسية بالقرب من تاجلياكوزو Tagliacozzo عام ١٢٦٨ • وقد سيق الصبى ، الذى لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره ، الى نابلى حيث أطيح برأسه بموافقة البابا حتى يجعل من القضاء على الهوهنشتاوفن والامبراطورية أمرا لا سبيل الى الشك فيه أو العودة اليه •

وفى تقديرنا أن الظروف السيئة التى كانت تحيط بالبابوية ، جعلتها تغض الطرف تماما أو لنقل بتعبير أكثر دقة ، تنسى كلية مهامها الروحية

ووسائلها الرعوية ، وتضع نصب أعينها شيئا واحدا وهدفا محددا هو السيادة الزمنية على العالم المسيحي ، وهو شيء كانت قد جعلته مبتغاها منذ أسقط قناع التقليد العلماني بمقتضى اتفاقية وورمز سنة ١١٢٢ بين هنرى الخامس وكالكستس الثانى Calixtus II ، وحققت في ذلك نجاحا لا بأس به عندما تزعمت عالم المسيحية فى الغرب وقادته لحرب المسلمين في الشرق تحت راية الصليب ، واعتلت سمت نجاحها عندما أسقط جنود الصليب فى الحملة الصليبية الرابعة ، القسطنطينية ، درع المسيحية فى الشرق وحامية الأرثوذكسية فى مطلع القرن الثالث عشر (١٢٠٤) ، الى الحد الذى دفع البابا انوسنت الثالث الى الاشادة فى رسائله الى قادة الحملة بغزوهم للقسطنطينية ، واعتباره فتحا عظيما ونصرا للبابوية نفسها على « امبراطورية منحرفة وكنيسة ضالة » [٤١] .

غير أن رياح النصف الثانى من القرن نفسه ، حملت لها نذير الكوارث المتتالية لهذا الامتداد الهائل لنفوذها فى الشرق المسيحى والامارات اللاتينية فى الشرق الاسلامى ، بل والحركة الصليبية ذاتها، فقد لقى لويس التاسع الملك الفرنسي ، والقديس ، هزيمة مروعة فى مصر عام ١٢٥٠ ، وتلك كانت ضربة قاصمة للصليبية فى أوروبا ، اذ لم تعد لمثلها ثانية بعد أن تولت الى الظل الروح الصليبية نفسها . ولم تفلح جهود لويس فى بلاد الشام خلال أربع سنوات قضاها هناك ، وكان فى حملته على شمال افريقيا سنة ١٢٧٠ ، حتفه [٤٢] . وقبل ذلك بسنوات

(٤١) راجع دكتور اسحق عبيد الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغس ص ١٣ — ١٤ .

(٤٢) فى عام ١٢٧٠ قاد لويس التاسع حملة صليبية جديدة الى تونس ، غير انه توفى على أبواب قرطاجة ، وكان موته كارثة بالنسبة للحركة الصليبية، فى وقت كانت فيه تحتضر ويتضح هذا من قصيدة كتبها شاعر فرنسى معاصر يدعى رتبوف Rutebeuf يقول فيها « أن من الحماقة أن يخاطر الانسان فى حرب دينية خارج بلاده اذا كان بوسعه أن يتصل بالله وهو فى وطنه يعيش فى سلام . ويسخر الشاعر فى القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا من الحروب الصليبية وسيلة لابتزاز الأموال . راجع مذكرات جوانفيل عن القديس لويس ، ترجمة وتعليق دكتور حسن حبشي ، ص ٣١٠ — ٣١٣ وكذلك دكتور جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

قلائل ، تلقت البابوية صفعتين متتاليتين ، إذ فقدت في عام ١٢٦١ سيادتها على القسطنطينية ، حين تمكن ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeologus من استرداد العاصمة البيزنطية والقضاء علي الامبراطورية اللاتينية واقامة أسقف أرثوذكسى ثانية فى كنيسة القسطنطينية • ولم يأت مايو عام ١٢٦٨ حتى كان المسلمون بزعامة الظاهر بيبرس ، سلطان مصر المملوكي ، قد استردوا امارة أنطاكية الصليبية ، ولم يبق للغرب اللاتينى فى الشرق الا طرابلس وبعض القلاع على ساحل بلاد الشام • ولا ريب أن هذه الأحداث جميعها قد وعتها البابوية جيدا ، فصممت على أن تحقق لنفسها نصرا على الأرض الأوروبية تمحو بها ويلات جراحاتها التى قذفت بها رياح الشرق على أرض الواقع الأوروبى •

هذه الصورة توضح بجلاء ما آل اليه أمر الامبراطورية الألمانية من جراء تورطها في ايطاليا بمشكلاتها العديدة المتشابكة شديدة التعقيد • واذا كانت السياسة الألمانية فى ايطاليا على النحو الذى رأيناه — قد أدت بالنفوذ الألمانى فى الخارج الى أن يتعرض لهذه الهزات العنيفة والتى انتهت باعدام آخر سلالة الهوهنشتاوفن ، تلك الأسرة التى تمثل انعظمة الاقطاعية في العصور الوسطى ، فكيف يمكن أن يكون عليه الحال في ألمانيا ذاتها من الداخل • واذا كانت البابوية قد وقفت هذا الموقف العدائي السافر تجاه السياسة الألمانية في ايطاليا وصقلية ، فان مافعلته داخل ألمانيا كان أشد وأنكى • وكان هذا حتما مقضيا مادامت المصالح بينهما قد تعارضت مفهوما وواقعا •

فقد حمل الأباطرة الألمان على عاتقهم ابتداء بأوتو الأول ، مهمة الاصلاح الكنسى بعد أن تردت البابوية خلال القرون من السابع الى الثلث الأول من الحادى عشر فى هاوية الانحلال الكامل ، غير أن مفهوم الاصلاح كان يختلف عند كل منهما عن الاخر • فالاصلاح فى نظر الأباطرة كان يعنى أن تتطهر الكنيسة من أمراضها الداخلية مثل السيمونية

وزواج رجال الدين ، وأن يعتلى كرسى القديس بطرس فى روما ، بابوات مصلحون ، شريطة أن يكون للامبراطور السلطة الكاملة على شئونها ، والتدخل المباشر فى اختيار رجال الدين وعلى رأسهم البابا ، وهذا واضح تماما فيما تم عليه الاتفاق بين أوتو الأول والبابا يوحنا الثانى عشر عند تتويج أوتو امبراطورا عام ٩٦٢ ، وما أخذه الأخير على الرومان من تعهدات سنة ٩٦٣ فى أعقاب نكوص يوحنا الثانى عشر على عقبيه وتحوله الى جانب برنجار اللومباردى عدو الملك الألمانى ، والقاضية بعدم الاقدام على اختيار أى أسقف لكنيسة روما الابموافقة الامبراطور[٤٣] . ومن هذا المنطق أيضا جرت سياسة أوتو الثالث فى تقليد برونو Bruno منصب البابابوية باسم جريجورى الخامس ، وهو أول بابا المانى يعتلى الكرسى البطرسى ، ومن أشد المتحمسين لحركة الاصلاح الكنسى ، فلما قبض صغيرا ، عين الامبراطور معلمه جربرت Gerbert أسقفا رومانيا باسم سيلفستر الثانى Sylvester II . ومن هذا المنطق أيضا أقدم الامبراطور هنرى الثالث على عزل ثلاثة من البابوات الفاسدين وعين على التوالى خمسة بابوات مصلحين ، ولم ير فى ذلك شيئا سوى اصلاح الكنيسة الكاثوليكية . وان كان من وجهة النظر الامبراطورية[٤٤] .

أما البابوية فقد كان لها رأى آخر ، فالاصلاح بالنسبة لها يعنى فى المقام الأول كف أيدى العلمانيين ، أيا كان شأنهم أو مراتبهم ، عن التدخل فى تعيين رجال الدين وبالأحرى البابا . واتخذت الخطوات الأولى فى سبيل ذلك عقيب وفاة هنرى الثالث وضعف السلطة الامبراطورية فى ايطاليا ، من جراء غض العمر الذى كان يعانيه الامبراطور الطفل هنرى الرابع ، اذ أقدم الاكليروس الرومانى على اختيار نقولا الثانى Nicholas II أسقفا لروما ، وكان أهم ماتضمنه قرار الاختيار ،

---

43) Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 118-119.

44) Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 122-124.

أن تتم عملية رسم البابا فى روما على يد كرادلة روما السبعة دون تدخل من الخارج[٤٥] بل تعدى الأمر ذلك الى تحقيق العدالة والصــــلاح فى المجتمع • والصلاح الذى تعنيه البابوية كما جاء على لسان جريجورى السابع ، الأنموذج الحقيقى للسلطة البابوية المطلقة ، هو الطاعة الكاملة للرب ، وهذه تتحقق عن طريق الانقياد التام للبابا ، والخروج عليه يعد — حسب تعبيره — ضربا من الشرك ونوعا من الوثنية[٤٦] وأباح جريجورى السابع لنفسه أن يستمد سلطانه من مكانته باعتبــاره خليفة القــديس بطرس ، ونائبه على الأرض ، واســــتخدم آية الانجيــل التــى جاءت فى خطاب المسيح لبطرس معتبرا اياه صــخرته التى ســـيبنى عليها كنيسته ، مخولا اياه سلطة الربط والحل على الأرض[٤٧] ، وراح يباشر

---

45) The Papal election decree of Nicholas II.
للمزيد من التفاصـيل انظر : Ullmann, op. cit., pp. 135-138.
46) Letter of Gregroy VII to Henry IV.

(٤٧) ورد فى الانجيل أن المسيح سأل تلاميذه يوما « من يقول الناس أنى أنا ابن الانسان » فأجابوه باجابات مختلفة ، الا سمعان قال « أنت هو المسيح ابن الله الحى » فأجابه المسيح « ... أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماوات . وكل ماتحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات » متى ١٦/١٣ — ١٩ •

وقد استخدم جريجورى السابع نص هذه الايات فى قرار العزل الأول الذى أصدره ضد هنرى الرابع والذى كتبه فى صيغة موجهة الى القــديس بطــرس •

انظــر :

The first deposition and excommunication of Henry IV by Gregory VII, in (Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 151-2).

وانظر نص القرار أيضا فى :

Tierney, The crisis of church and state, pp. 61-61.

The Middle Ages, Vol. I : Sources of Medieval History pp. 146-147.

وكذلك Henderson, Select historical documents of the Middle Ages, pp. 376-377.

وأيضا Lyon, Sources in Western Civilization, The high Middle Ages, 1000-1300, pp. 92-93.

سلطات زمنية واسعة ، زادت النار ضراما فى آتون الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى • وبمقتضى ذلك كتب الى هنرى الرابع يطلب اليه عزل خمسة من مستشاريه السياسيين كان قد صدر بشأنهم قرار عن مجمع روما سنة ١٠٧٥ باعتبارهم من السيمونيين(٤٨) ولم ير جريجورى فى ذلك غضاضة أو خروجا على حدود سلطانه • بل ان الاذلال الذى لقيه هنرى الرابع على يد هذا البابا فى كانوسا Canossa ، عدم المتعصبون للاراء الجريجورية ، أو الحزب البابوى ، نوعا من الندامة أو التوبة أقدم عليها الملك الألمانى ، وان كانت فى صدر هذا الأخير شيئا مغايرا تماما •

وانه لمن سخرية الاقدار حقا أن يكون أكثر الناس خسرانا من برنامج الاصلاح الكنسى هذا ، هم الأباطرة الألمان أنفسهم ، أولئك الذين جعلوا ، بجهود أوتو الأول وسميه الثالث وهنرى الثالث ، نجاح هذا الاصلاح حقيقة واقعة • لكنهم كانوا كمن يحفرون قبورهم بأيديهم، فقد تلاقت مصالح البابوية مع الأمراء الألمان ، فى ظل النظام الاقطاعى بسماته المميزة المتمثلة فى انحلال السلطة المركزية ، على اضعاف الحكومة الألمانية ، وجعلها مجرد صورة شاحبة ، باهتة ألوانها ، بعد أن فرضت مشكلة التقليد العلمانى نفسها بقوة كقاعدة رئيسية فى برنامج الاصلاح الكنسى الهلدبراندى أو الجريجورى •

وكان تلقى أوتو الأول التاج الامبراطورى من يد البابا ، يعنى بمفهومه التقليدى أن يقوم كل ملك ألمانى بعد تنصيبه فى ألمانيا بزيارة الحج الى روما لتلقى التاج هناك من البابوية ، وأصبح هذا أمرا لا مندوحة عنه بعد أن استقرت فكرة الامبراطورية فى أذهان وخطط الملوك الألمان منذ القرن الحادى عشر بصفة أساسية •

48) Leter of Gregory VII to Henry IV 1075.

ويعبر هنرى بيرين عن هذا في عبـــارات بليغة بقوله « لم تكـــن الامبراطورية بالنسبة لألمانيا قدرا محتوما ومهلكا فقط ، لأنها فرضت على ملوكها سياسة عالمية ، واضطرتهم الى التضـــحية بالدولة فى ســـبيل الكنيسة ، وأجبرتهم فى النهاية على أن يتركوا الميدان الى الظل ، بـــل لأنه كانت لها نتائج بعيدة المدى ، تمثلت فى السماح للبابوية بالتدخـــل المباشر فى شئون المانيا الداخلية ، اذ أن الملك الألمانى ، أو بتعبير أدق ، ملك الرومان ، باعتباره الامبراطور المعين ، وحيث أن روما كانت قادرة على هذا الأمر وبصـــورة مباشرة وواضحة ، فقد أصـــــبحت تدعى أن موافقتها تعد أمرا أساسيا لاختيار الامبراطور الجـــديد »[٤٩] • لقـــد كانت البابوية ، وعلى عهد انوسنت الثالث بصـــفة خاصة توافق عـــلى أحقية الأمراء الألمان فى اختيار مليكهم ، لكن جعل هذا الملك امبراطورا كان من سلطة البابا باعتباره نائب المسيح على الأرض ، ذلك أن الكرسى الرسولى فى روما هو الذى نقل الامبراطورية من القسطنطينيةالى الغرب زمن شـــــارلمان ، وأعاد احياءها من جديد بتتويج أوتو ، ومن هنا غدا الامبراطور فى نظر البابوية موظفا ، خلقه البابا ليكون عضده وساعده • فهو ليس الا مرآة تعكس عالمية الكنيسة الرومانية ، أو بتعبير آخر هو القمر الذى يعكس ضوء الشمس • نعنى الكنيسة الرومانية[٥٠] لذا لانكاد نجد ملكا ألمانيا واحدا على امتداد ثلاثة قرون كاملة ما بين عامى ٩٦٢ — ١٢٥٠ الا وقد جاء الى روما يسعى للحصـــول على اللقب الامبراطورى ، ولم يستثن من ذلك الا كوانرد الثالث (١١٣٩ — ١١٥٢) ولم يكن تمردا ولا هجرانا ، ولكن لأن ظروفه الداخلية لم تسمح له بهذه الزيارة ، وان كان كونراد أداة طيعة فى يد البابوية ، اذ سيرته برفقةقرينه ملك فرنسا، لويس السابع ، لقيادة جيشـــه فيما عرف بالحملة الصليبية الثانية ، التى لم تجن تحت أسوار دمشق الا الخسران •

---

(٤٩) انظر : Pirenne, A history of Europe, p. 319.

(٥٠) انظر : Ullmann, op. cit., p. 211.

وكان هذا الأمر ــ نعنى عملية الحج الملكى الألمانى الى روما من أجل اللقب بالامبراطورى يستتبع بالتالى وجود قوة عسكرية كبيرة يجــردها الملوك الألمان أثناء رحلاتهم هذه ، مما ترك أثره البالغ على المانيا نفسها ــ كما سنرى بعد قليل • وذلك لارهاب البابوية فى المقام الأول ، ولمواجهة خصوم الامبراطورية ممثلين فى المدن اللومباردية فى الشمال الايطالى ، والتى لقيت الجيوش الألمانية على يديها الهزيمة فى أكثر من موقع ، وكانت من الأسباب الرئيسية فى تحطيم النفوذ الألمانى فى ايطاليا • والنبلاء الرومان الثائرين دوما ضد امتداد السلطان الالمانى الى ايطاليا • والغضب البيزنطى البادى فى محاولات الأباطرة المقدونيين خلال القرن العاشر استعادة بعض ماكان لهم من سيادة آذنت شمسها بالمغيب ، والنورمان الطامحين والطامعين فى التهام ماتبقى من الأملاك البيزنطية والأعــداء الشرسين للملوك الألمان • وازاء هذه الفوضى الضاربة أطنابها فى ايطاليا، فان الوجود العسكرى الألمانى بها ، لم يحقق الاستقرار السياسى الذى كان ينشـــده أباطرة ألمانيا ، ولم يتجاوز سلطان الألمان فى ايطاليا على حد تعبير برايس حدود الزمان الذى كان يبقاه الجيش الألمانى هناك[51] •

فهذا هو أوتو الأول نفسه ، رغم دوافعه الألمانية للتدخل فى ايطاليا، فقد جاء اليها فى خمس حملات عسكرية لتدعيم سلطانه فى روما ، وابنه أوتو الثانى حكم عشر سنوات (٩٧٣ ــ ٩٨٣) أمضى الثلاث الأخيرة منها في ايطاليا فى جهود عسكرية فاشلة • وأوتو الثالث قضى فترة حكمه كلها (٩٨٣ ــ ١٠٠٣) فى ايطاليا ، ولم تره المانيا الا محمولا على أيدى الرجال ميتا ليدفن بأرضها • أما هنرى الثانى آخر الخط السكسونى ، فقد حج الى روما عام ١٠١٤ ليتوج امبراطورا وقصدها كونراد الثانى سنة ١٠٢٧ ، وقدم عليها هنرى الثالث مرتين مابين عامى ١٠٤٦ ــ ١٠٥٧ ، وعسكر هنرى الرابع بجيوشه محاصرا روما ثلاث سنوات ١٠٨١ ــ ١٠٨٤ بينما جاءها هنرى الخامس مرتين ، الأولى خلال عامى ١١١٠ ــ ١١١١ ،

---

51) Bryce, Holy Roman Empire, p. 171.

والثانية في سنتي ١١١٦ — ١١١٧ • وحج اليها لوثر فى عامى ١١٣٣ ، ١١٣٦ • أما فردريك برباروسا فقد قاد جيوشه الى هناك في ست حملات عسكرية لم تكن كلها لصالحه ، بل لم يكن لأولها من ضرورة على الاطلاق الا اذا أدخلنا فى اعتبارنا الناحية التقليدية لهذه الرحلات كما أسلفنا ، ذلك أنه من الصعب أن نجد بالفعل سببا مقنعا لقيام فردريك بحملتــه الأولى الى ايطاليا ١١٥٣ / ١١٥٥ فقد كان سلطانه على الكنيسة فى ألمانيا يكاد يكون تاما ، على حين كان البابا غارقا حتى آذانه فى مشاكله الخاصة مع أرنولد البريشى Arnold of Brescia ، بل وتجلت قوة فردريك فى تعيينه أســقف زيتز Zeitz رئيســـا لأســاقفة مجدبرج Magdburg وحصــوله على موافقة البابا على هذه الممارسة « غير الشرعية » للســلطة الملكية ، فمهما كان حق الملوك فى اختيار رجــال الاكليروس ، فان للبابا وحده الحق فى نقل أسقف من كرسى كنسى الى آخر • ومن ثم فلا تبرير لهذه الحملة الا رحلة الحج التقليدية ، أو أن يكون فردريك غير راض بسلطانه فى ألمانيا ، ازاء قوة أعدائه الوافدين ، ومن ثم كان يحلم بكسب مجد تحمله اليه حملة عسكرية موفقة • بالاضافة الى أنه كان غاضبا من بطء حركة مشروعاته فى المانيا ، ويطمح فى أن تحمل اليه ثروات المدن اللومباردية انطلاقة أسرع ، فلابد — فى نظره — أن مناطق السيادة الملكية عبر الألب سوف تكون أكثر غنى وأوفر أمنا(٥٢) •

بل ان فردريك بربارosa لقى فى ايطاليا سنة ١١٧٧ اذلالا شبيها الى حــد ما بالاذلال الذي لقيه هنــرى الرابع قبل ذلك بمائة عام فى كانوسا • وبينما أمضى ابنه هنرى السادس نصف عهده القصير الذى لم يتجاوز سبع سنوات (١١٩٠ — ١١٩٧) فى ايطاليا ، ومات فى بالرمو ، وهب فردريك الثانى جل عهده وحياته كلها من أجل مملكته الصقلية •

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد ، بل ان بعض الأباطرة الألمان ، فى محاولة لاسترضاء البابوية شاركوا فى الحملات الصليبية ، فاضافوا الى

52) Strayer & Munro, op. cit., p. 219.
وايضا : Ullmann, op. cit., pp. 178-188.

غيابهم عن المانيا بعدا جديدا ، وكان من بين هـؤلاء كونـراد الثالث ، وفردريك برباروسا وسميه الثانى ، ورغم أن ثالثهم هذا قد حقق نجاحا لم يسبقه اليه الا جنود الصليب فى الحملة الأولى ، الا أن البابوية ـــ فى جملة عدائها معه ـــ جزته عن ذلك جزاء سنمار ، وأوقعت ضـده للمرة الثانية قرار الحرمان الكنسى ثم العزل من بعد ٠

هذا الغياب المتوالى والمتقطع من جانب الأباطرة عن ألمانيا والذى امتد حوالى خمسة وتسعين سنة خلال مائتين وثمان وثمانين عاما (٩٦٢ ـــ ١٢٥٠) ، وتمثلت خطورته بشكل سافر فى تغيب أباطرة مثل أوتو الثالث وفردريك الثانى بصفة مستمرة عن دولتهم ، والاستنزاف العسـكرى المستمر لموارد ألمانيا ، والانهاك البشرى لزهرات شباب الألمان ٠ كان لابد أن يترك بصماته الواضحة على سلطان الملوك الألمان أنفسهم فى داخل دولتهم ، فى عصر ساده النظام الاقطاعى ، وسيطرت على مقاليد الأمور فيه أيدى الأمراء ، و تهاوت الى الحضيض السـلطة المركـزية للملوك ٠ ولما كانت ألمانيا بطبيعة تكوينها القبلى منذ البداية ، وجغرافيتها المتنافرة ، وعدم دخولها ضـــمن دائرة الامبراطورية الرومانية ، فقد افتقدت الحكومة المركزية ولم تعرفها الا قهرا على زمن شارلمان ، فقـد ظل الألمانى على امتداد ألف سنة يفاخر بأنه سكسونى أو بافارى أو فرنكونى أكثر من كونه ألمانيا ٠ ومن أجل هذا بقيت الملكية الألمانية انتخابية حتى وان تمثلت فيها الوراثة فى كثير من الأحيان[٥٣] ٠ وظل الامـراء الألمان يتحينون أية فرصة تسنح لهم ليفترصوها وليحققوا من ورائها ذواتهم ومطامحهم الاقطاعية التى كانت تتركز بصفة أساسية فى مزيد من الامتيازات واتساع فى الممتلكات ٠

ووجد الأمراء الألمان فى البابوية خير سند ومعين لتحقيق أغراضهم ،

---

(٥٣) للمزيد من التفاصيل عن هذه الناحية ، أنظر للباحث : الملكيـة الألمانية بين الوراثة والانتخاب فى العصور الوسطى ، بحث منشور فى ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ـــ العدد لثانى ـــ ١٩٨٣ ٠

فقد كانت بدورها تسعى حثيثا لتحطيم قوة الامبراطورية الألمانية بعدما تبين لها أنها تشكل خطرا جسيما على سلطانها ، خاصة فى المرحلة الثانية من الصراع بين البابوية والامبراطورية فى أعقاب توقيع اتفاقية وورمز ١١٢٢ • وفى الوقت الذى كانت الأولى فى عهدها الاصلاحى قادرة على التوصل الى تفاهم مع ملوك انجلترا وفرنسا ، فان سياسة الملوك الألمان كانت لاتروق لناظريها ، وذلك لأنها كانت بادرة يمكن أن تهدد سيادة روما على الكنائس الأخرى فى أوروبا ، ومن ثم فان التقارب الذى كان قائما بين التاج والكنيسة الألمانية زمن الأسرة السكسونية ، والسيادة التى تحققت للملكية على الاكليروس الألمانى على عهد الفرنكونيين السالبيين خاصة هنرى الثالث ، كان يعد شيئا لايتفق ومصالح البابوية(٥٤) وفى مواجهة هذه التحديات كان لزاما على الملوك الألمان أن يتبعوا سياسات متباينة بهدف الابقاء على ولاء الأمراء العلمانيين والاكليروسيين على السواء لسلطانهم ، ورغم اختلاف هذه السياسات الا أنهــا أودت فى النهاية بموارد التاج وبالتالى هيبته ومكانته •

فقد أقدم أوتو الأول على بذل المزيد من الهبات والامتيازات لرجال الاكليروس الألمان ، حتى يصطنعهم لنفسه فى مواجهة الأمراء العلمانيين، بعد أن أخفقت سـياسته فى استخدام أقاربه وأصـــهاره حكاما على المقاطعات • ورغم أن هذه السياسة قد حققت نجاحا فى حينها الا أنها أضحت مشكلة عانت منها ألمانيا من بعد ، اذ ساعدت على خلق طائفــة جديدة من الاقطاعيين هم أمراء الاكليروس • وكان على هنرى الثانى (١٠٠٢ ــ ١٠٢٤)أ ن يبذل هــو الآخر جهودا كبيرة لمعــالجة الأمور المتردية التى هوت اليها المانيا بعد غياب أوتو الثانى وابنه وســميه الثالث فى ايطاليا سنوات طويلة تقترب من ربع القرن • حتى اذا مات عاد الأمراء يمارسون هوايتهم المفضلة فى اختيار الملك الذى كان يعــد

54) Barraclough, Origins of modern Germany, p. 113.

بحق وفقط « الأول بين أقرانه » كما أسلفنا ، فرفعوا على العرش كونراد الثانى (١٠٢٤ — ١٠٣٩) الذى كان عليه لزاما أن يوقف استنزاف أراضى التاج الذى درج عليه الأمراء العلمانيون والاكليروسيون سواء • لكنه جاء شيئا نكرا عندما عمد الى خلق طبقة جديدة من صغار النبلاء اصطفاها الى جواره ليتصدى بها للنفوذ المتزايد لكبار الأمراء ، وأولئك يمثلون محدثى النعمة ممن لا أصول لهم ، وليست لهم جذور نبيلة ، فاضحوا على المجتمع الألمانى من بعد وبالا •

وشهدت السنوات التسع (١٠٥٦ — ١٠٦٥) التى قضاها هنرى الرابع يعانى غض العمر وسن القصور ، سعى كل الفئات على اختلاف انتماءاتها بين الكنيسة والدولة، لمحاولة تقوية نفوذها وتدعيم مركزها استعدادا لجولات آتية وجولات ، ذلك أن النبالة الألمانية علمانية كانت أم كنسية، تجاسرت على أن تضع يدها على مساحات شاسعة من الأراضى الملكية مدعية حق السيادة عليها • بل بلغ بهم الأمر الى حد اختطاف هنرى الرابع نفسه من بين أحضان أمه والوصية عليه الملكة آجنى Agnes لينشأ تحت رعايتهم ، وراحوا يقتسمون فيما بينهم المصدر الرئيسى لدخل التاج ، نعنى الأديرة الملكية • ولم يكن هؤلاء المختطفون الا الداهية آنو Anno رئيس أساقفة كولونى ، وادالبرت Adalbert رئيس أساقفة همبرج — بريمن Hamburg-Bremen وبات على هذا النحو واضحا أن الوصاية على الملك قد أمست نهبا بين أساقفة متعطشين ونبالة نهمة [٥٥] وحينما أصبح هنرى الرابع قادرا على التخلص من هذه الوصاية ، كان عليه أن يدخل فى صراع سافر مع هؤلاء وأولئك لاسترداد كل الأملاك والامتيازات التى اغتصبوها أثناء فترة الوصاية عليه • ولم يغفر له الأمراء هذا ، ولا صفحت عنه الكنيسة •

---

55) Thompson & Johnson, op. cit., p. 374.

فتحت ستار حل مشكلة التقليد العلماني أصدر البابا جريجوري السابع قراره الشهير بحرمان هنري الرابع وعزله
«a nathematis vinculo alligatus et a regia dignitate depositus»
وأعلن أن هنري الرابع لم يعد من حقه أن يعتلي العرش iustitio aum regnare prohibet وتم تحرير رعيته من الخضوع له أو الالتزام بأي واجبات أو تعهدات تجاهه(٥٦)
«Omnis populus quondam sibi subjectus a vinculo iuramenti eidem promissi sit **absolutus**».
وكان هذا يعني في حد ذاته تحريضا لرعاياه للثورة ضده ، فاندلعت الثورات فعلا في مناطق متعددة من ألمانيا خاصة جنوبها وسكسونيا . وأذلت الامبراطورية في شخص هنري عند كانوسا ، وذهبت الحادثة في التاريخ مثلا(٥٧) ومع أن الأحوال التي أمست عليها المانيا عام ١٠٧٥ عندما بدأ الصراع بين هنرى الرابع وجريجوري السابع ، كانت من العوامل المشجعة للبابا على تحديه السافر للملك الألماني ، حيث كانت تختلف اختلافا تاما عما تركها عليه هنرى الثالث لحظة وفاته ، اذ راحت تسير الملكية الألمانية الى التفكك ، وظهرت قوى جديدة كانت في الحقيقة مجرد عوامل اجتماعية أكثر منها سياسية ، ولعل ذلك يعود الى سياسة كونراد الثاني في اصطفاء عناصر غير معروفة ، بالاضافة الى ازدياد العداء من جانب الارستقراطية العلمانية ، والمعارضة الكامنة من جانب الاكليروس تجاه فكرة الثيوقراطية التي طبقها هنرى الثالث بعزل وتعيين البابوات ، نقول انه رغم ذلك ، فقد كان تدخل جريجوري في المانيا ، نقطة تحول خطيرة ليس فقط على عهد هنري الرابع ، بل على امتداد التاريخ الألماني ، اذ دمر هذا التدخل كل الخطط التي جاهد

---

56) Joachimsen, The investiture contest and the German constitutions, p. 117.

(٥٧) الدلالة الوضحة لهذه الحادثة هي خضوع الدولة الكنيسة . وقد وعى المستشار الألماني الأشهر في القرن التاسع عشر ، بسمارك ، هذا المفهوم وهو يصارع الكنيسة الكاثوليكية عندما أطلق عبارته الشهيرة « لن نذهب الى كانوسا » .

هنرى الرابع من قبل بكل قواه فى سبيل تقوية وتدعيم الملكية ، وغير تغييرا كاملا أشكال الحكومة والتركيب الاجتماعى لألمانيا • ولا شك أن طبيعة التطور الألمانى مابين عامى ٩١١ — ١٠٧٥ ، مهما كانت الصعوبات والمعاناة ، كانت شيئاً رائعا • لقد سلكت ألمانيا نفس السبيل الذى أقدم على اتباعه ملوك انجلترا النورمان بعد خمسين سنة من الان ، وكان من الصعب على ملوك أسرة كابيه فى فرنسا أن يصلوا اليه قبل النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، غير أن هذا الصرح تم تحطيمه نتيجة الصراع مع الكنيسة ، وكانت رسالة جريجورى السابع فى الثامن من ديسمبر ١٠٧٥ [٥٨] تفجيرا لثورة غيرت تماما طبيعة التطور السياسى الألمانى ، وفتحت صفحة جديدة فى التاريخ الألمانى بل فى التاريخ الأوروبى [٥٩] •

فقد وجدت النبالة الاقطاعية فى ألمانيا فرصتها التى تبحث عنها فى قرار العزل الذى صدر ضد هنرى ، وادعت عدم التزامه بقرارات مؤتمر تريبور Tribur [٦٠] ومارسوا رياضتهم المفضلة فولوا عليهم ملكا بديلا هو رودلف السوابى Rudolf of Suabia رغم أن هنرى عاد من رحلته المهينة الى كانوسا يحمل قرار العفو من البابا • وشهدت ألمانيا حربا أهلية استمرت ثلاث سنوات سويا (١٠٧٧ — ١٠٨٠) وأدى تباطؤ جريجورى السابع فى تبيان موقفه الى ازدياد أوار

---

58) Letter of Gregory VII to Henry IV 1075.

59) Barraclough, op. cit. p. 97.

(٦٠) عقد هذا المؤتمر فى مدينة تريبور فى اكتوبر ١٠٧٦ وضم أمراء ألمانيا الساخطين على هنرى سياسته ومحاولاته تدعيم السلطة الملكية ، وأساقفتها المرتعشين خوفا من بطش جريجورى ، وخلع المؤتمرون طاعة هنرى ، وقرروا وجوب حصوله على غفران البابا خلال خمسة شهور عليه أن يعتكفها فى أحد الأديرة . والتزم هنرى بذلك فى أول الأمر ، ثم انسل تاركا الدير متجها الى ايطاليا للقاء البابا ، بعد أن علم أن الأمراء دعوا البابا للحضور الى ألمانيا . وقد التقى هنرى بجريجورى فى كانوسا حيث جرت حادثة الاذلال الشهيرة .

هذا الصراع ، حتى اذ قتل رودلف اختاروا آخر خلفا له •• هيرمان Herman الذى لم يكن أكثر من ظل شاحب لم يقم له أحد وزنا على الاطلاق •

واستمرأت النبالة الألمانية أفعالها ، فدفعوا كونراد ابن هنرى الرابع الى أن يرفع فى وجه أبيه راية العصيان ، ونادوا به ملكا عام ١٠٩٣ ، تشد البابوية من أزرهم بيد أوربان الثانى • ولئن كانت هذه المحاولة قد باءت بالفشل ، فان غيرها قد نجحت بعد أن بلغ هنرى الرابع من العمر أرذله ، اذ رفع الأمراء هنرى الابن ملكا عام ١١٠٤ ، والذى عرف بهنرى الخامس ، ليتولى العرش فى حياة أبيه بعون البابا باسكال الثانى •

لا ريب أن هذه الأحداث ومثيلاتها ، حملت الملكية الألمانية وهنا على وهن ، راح يترك بصماته واضحة على البناء السياسى لألمانيا فى العصور الوسطى ، وازدادت حدته بوفاة هنرى الخامس سنة ١١٢٥ ، اذ انفجر الصراع سافرا بين حزب الولفيين القوى الذى يتزعمه هنرى المتكبر دوق سكسونيا ، والذى لم يكن ابنه ووريثه هنرى الأسد أقل منه صلفا وعنادا ، وبين أسرة الهوهنشتاوفن • وهو الصراع الذى أودى بقوة ألمانيا السياسية الى حد كبير ، رأى فيه أحد المعاصرين ، أوتو أسقف فريزيا ، الراهب السيسترشيانى Cistercian والأخ غير الشقيق لكونراد الثالث ، صورة قاتمة لمستقبل ألمانيا ، سجلها فى كتابه «تاريخ المدينتين» Historia de duabus civitatibus بقوله « انه يشعر أن المملكة الألمانية كانت تسير الى زوال ، وأن نهاية العالم قد دنت وليس هناك بارقة أمل الا فى المملكة السماوية التى هى لا ريب آتية »[٦١] • وكان من نتيجة هذا الصراع ابعاد الوريث الشرعى فردريك الهوهنشتاوفن باعتباره ابن أخ هنرى الخامس ، واختيار شخصية مغمورة ، أداة طيعة

(٦١) أنظر : Heer, The Medieval history, pp. 283-284.
وأيضا : Strayer & Munro, op. cit., p. 218.

فى يد الأمراء والبابوية ، لوثر ، ليكون ملكا على ألمانيا • وتجلى مدى ضعف الملكية الألمانية ابان عهده ، فى المرسوم الذى أصدره البابا انوسنت الثانى عام ١١٣٣ ، بمنحه أملاك الكونتيسة ماتيلدا Matilda أميرة تسكانيا ، اقطاعا من البابوية على أن يدفع عنها جزية سنوية[٦٢] • رغم أن ارث ماتيلدا كان فى قبضة ألمانيا واقعا منذ ضمه اليه هنرى الخامس فى أعقاب وفاة الكونتيسة •

وليس أدل على ازدياد نفوذ الاقطاع فى ألمانيا ، واتساع سلطان الأمراء من رفض هنرى الأسد زعيم البيت الولفى الان ، ودوق سكسونيا ، الانصياع لأوامر سيده فردريك بربروسا ، باعتباره فصلا اقطاعيا له ، عندما طلب اليه الاشتراك فى حملته الى ايطاليا عام ١١٧٦ ، مما كان له أثره الكبير فى هزيمة الملك الألمانى هزيمة ساحقة فى موقعة ليناتو Legnano على يد مدن العصبة اللومباردية ، ونزوله على ارادة البابوية • هذا الموقف من جانب هنرى الأسد كان نتيجة منطقية للضعف الذى انحطت اليه الملكية الألمانية من جراء الاغراق المستمر لفردريك الأول فى مشكلات ايطاليا ، حتى أن هنرى أقدم قبل ذلك عام ١١٦٤ على استقبال سفراء الامبراطور البيزنطى مانويل الذى كان يؤيد البندقية وعصبة فيرونا ضد الامبراطور الألمانى ، وثنى ذلك فى سنة ١١٦٨ بالزواج من ماتيلدا ابنة هنرى الثانى ملك انجلترا ، ووصل صلاته بهذه المصاهرة بالتاج الانجليزى وتخطاه الى الدانمرك • وعندما عرج على القسطنطينية فى سنة ١١٧٢ وهو فى طريقه الى الأماكن المقدسة ، سرت الشائعات وعلت بأنه يتآمر مع مانويل البيزنطى ضد فردريك الهوهنشتاوفنى الألمانى[٦٣] وقد كشف ذلك كله عن أن هذا

---

62) Tout, op. cit., p. 229.

63 Stephenson, Mediaeval history, p. 402.

وأيضا : Scott, Medieval Europe, p. 253.

وأيضا : Barraclough, op. cit., p. 187.

الفصل الاقطاعى ينتهج سياسة خارجية مستقلة ، ويدبر أمور دوقيته كما لو كان ملكا متوجا .

وكان لابد للملكية الألمانية الجريحة أن تصفى حساباتها مع هـذا الفصل المتمرد ، الذى ازداد تكبرا بعودة فردريك خاسرا من ايطاليـا على هذا النحو . وتمثل ذلك فى رفضه المثول بين يدى أقرانه حسـبما تقضى التقاليد الاقطاعية عندما دعى لمحاكمته عام ١١٧٩ على ما اقترفت يداه . عندها استجمع فردريك قواه ، واستحث صغار النبلاء بتأييده ، ووعدهم بأراضى وممتلكات هنرى الأسد اذا ماعاونوه فى تحطيم قـوة خصمه الولفى هذا . فلما تحقق لهما أراد سنة ١١٨٠ كان عليه أن يفى بما عاهد عليه الأمراء.

ولا شك أن هزيمة هنرى الأسد واستسلامه ونفيه ، كانت سـببا مباشرا فى تغيير الخريطة الألمانية تغييرا جذريا خاصة فى الشمال ، فقد اختفت الدوقية القديمة ، سكسونيا ، وظهرت بدلا منها مجتمعات صغيرة، وأصبحت وستفاليا دوقية مستقلة ، واتسعت سلطات رجال الاكليروس على مناطق فسيحة خاصة رئيس أسـاقفة بريمن ومجدبرج ، وعادت الاقطاعية التى كان هنرى الأسد قد ضمها لسلطانه ، الى الأساقفة[٦٤] . وهكذا اختفت الدوقات القبلية القديمة لتحل محلها وحدات صـغيرة ، وازدادت بالطبع عدد الدوقيات ، وباستثناء سوابيا ، فلم تعد احدى هذه الدوقيات تقارن بسابقتها فى المساحة أو الأهمية . ولم يعد لقـب الدوق يدل على نفس الأهمية التى كانت له من قبل ، وظهرت قوة أخرى من طبقـة أقل نبالة لكنها لهـا نفس السـلطان مثل حكام ثورنجيا وبراندنبرج[٦٥] وكان توزيع السلطة على هذا العدد الكبير من الأمـراء « غير النبلاء » بدلا من العدد القليل من النبلاء الأصليين ، يعنى فى الوقت ذاته تخلص الملكية الألمانية من التهديد الخطير الذى كان يتهددها،

64) Z.N. Brooke, A history of Europe, p. 503.
65) Mitteis, Feudalism and German Constitution, p. 259.

ولو كان فردريك بربا روسا على نفس قدر تفكير معاصريه ، روجر الصقلى وهنرى الثانى ملك انجلترا ، لكان من الممكن أن ينتهز هذه الفرصة لتدعيم سلطانه وخلق نظام ادارى مركزى متميز ، يثبت به دعائم الملكية •

ومن هنا يمكن القول مع « كانتور » ان محاكمة هنرى الأسد تمثل اللحظة الحاسمة فى تاريخ الاقطاع الألمانى ، ذلك أن فشل الامبراطور فى ضم أراضى أعدائه الولفيين ، كان يعنى أنه لايستطيع أن يستغل القانون الاقطاعى فى زيادة سلطانه ، كما كان عليه الحال فى انجلترا على مدى أكثر من قرن من الزمان ، وكما حدث بنجاح بعد ذلك فى فرنسا[٦٦] لكن فردريك لم يكن رجلا سياسيا ، بل كان تقليديا فى كل تصرفاته • ولما كان هدفه الامبراطورى فى ايطاليا يسيطر على سياسته ، فان ركيزته الأساسية للنجاح فى ذلك كانت الاعتماد على وضعه فى ألمانيا • ولم يستطع فردريك أن يمد بصره خلف القانون والتقاليد الاقطاعية • ومن ثم فانه نتيجة للحروب الأهلية المستمرة فى ألمانيا ، حتى قبل عهد فردريك بربا روسا ، راح الملوك يزدادون اعتمادا على « حسن النوايا » من جانب النبلاء[٦٧] ولذا كان عليهم باستمرار أن يقدموا تنازلات متزايدة لهؤلاء الأمراء لاكتساب تعاونهم وتأييدهم ، خاصة التأييد العسكرى • وكان هذا يعنى اعترافا متزايدا بطموحاتهم الخاصة وبحقوقهم السيادية فى مناطق سيادتهم ، بما فيها سلطاتهم على النبالة الدنيا ، وحقهم فى الوراثة • ومن ثم أصبح من السهل انتقال لقب الدوق أو الكونت من الأب الى ابنه وكذا الأراضى • وأمست فكرة اقامة دولة لها كيانها السياسى ، خاصة الالتزام العسكرى تجاه الملك ، أمرا عبثا • ولعبت المحلية الاقليمية التى ظهرت بعد هزيمة هنرى الأسد دورا كبيرا فى الابتعاد بالمانيا عن قيام دولة موحدة • ولقد كانت أهم وأخطر هذه الأمور — على حد تعبير باراكلاف — أن المانيا راحت تسير بخطى ثابتة

66) Cantor, Mediaval Europe, p. 434.

67) Z.N. Brooke, op. cit. pp. 505-506.

نحو تأصيل وترسيخ النظام الاقطاعي ، وكان هذا شيئا فرغت منه فرنسا فى القرن التاسع ، فراحت القلاع تقام فى كل مكان ، وساعدت الحروب الأهلية على تعميق الجذور الاقطاعية ، وبقدر ما حققه الأمراء من مكاسب، بقدر ما خرج التاج فى النهاية خاسرا(٦٨) .

وهناك صورة واضحة تعطينا دليلا على ما أسلفنا ، ذلك أن وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ بعد السنوات التى أمضاها بعيدا عن ألمانيا ، وموته غريبا فى بالرمو ، لم يكن الا اشارة البدء للحزبين المتصارعين فى ألمانيا للاقتتال . وطوال أربعة عشر عاما كاملة (١١٩٨ — ١٢١٢) اصطلت المانيا بنيران حرب أهلية طرفاها فيليب السوابي سليل أسرة الهوهنشتاوفن ، الوريث الشرعي باعتباره أخ هنرى السادس ، اذ كان فردريك ابن هنرى من كونستانس مايزال صبيا قاصرا ، وأوتو «الرابع» دوق برنسويك زعيم الولفيين ابن هنرى الأسد . ودون أن نخوض فى تفاصيل هذا الصراع نقول انه جر الى ساحته النفوذ الأجنبى للتدخل فى الشئون الداخلية لألمانيا(٦٩) اذ وقفت انجلترا الى جانب حلفائها الولفيين بينما أيدت فرنسا بحكم عدائها للانجليز ، حقوق فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى ، والذى اعتبر نفسه — رغم ضعف شخصيته ونفوذه الواضحين ، سليل القياصرة الرومان ، وخلع على نفسه لقب فيليب الثانى بعد فيليب الأول العربى الذى حكم الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث الميلادى (٢٤٤ — ٢٤٩) ، ولما كانت البابوية قد وضعت فى اعتبارها ضرورة الاجهاز على الهوهنشتاوفن ، فقد راحت تتدخل بكل ثقلها فى هذه الحرب ، أو بتعبير أدق على حد قول المؤرخ بيرين ، ان هذه الحرب جرت كما تشتهي البابوية(٧٠) ، فقد أخذت تنقل تأييدها من جانب الى آخر على عهد رجلها الأشهر انوسنت الثالث Innocent III

68) Barraclough, op. cit., pp. 136. 139, 141-147.

(٦٩) للمزيد من التفاصيل عن الحرب الأهلية هذه راجع
C.M.H. Vol. VI, pp. 44-79.
وأيضا : Ullmann, op. cit. pp. 206-212.

70) Pirenne, op. cit., p. 285.

الذى أعلن صراحة حقه ، باعتباره راعى الكرسى البطرسى ، فى اختيار المرشح الجديد لعرش ألمانيا « مادامت الامبراطورية تستمد أصـــولها وسلطتها من البابوية » أما أصولها فلأن الامبراطور اعتلى عرشـــه ، على يد البابا الذى توجه وسلمه مقاليد الامبراطورية »[71] وبناء على هذا الحق ، ومبررات تتفق وهواه ومصلحته السياسية ، أعلن اختيـار أوتو الرابع دون نظر الى أصحاب الحق الشرعيين ، لكن مع ذلك أخـذ يغير موقفه فيما بعد حسبما تحمل اليه رياح الحرب ومطامع كرسـيه أنباء جديدة أو آمالا معقودة • ولا شك أن طول الحرب الأهلية الألمانية على النحو الذى أرادته البابوية وكان الرابح الوحيد منه فى نهاية الأمر النظام الاقطاعى فى ألمانيا ، والذى راح يثبت جذوره بصورة عميقة ، نتيجة ما أقدم عليه زعيما الحزبين المتصـــارعين من تقديم التنازلات واعطاء الامتيازات للامراء الألمان ، ارضاء لهم على مناصرتهما • وانسحب هذا أيضا على رجال الكنيسة الذين حققوا فى هذه الفترة مالم يحققوه من قبل على عهد السكسونيين أو الفرنكونيين[72] •

ومن الطريف أن الأمراء ، الذين رفضوا فى البداية العرض الذى تقدم به اليهم فيليب السوابى باختيار فردريك ابن أخيه هنرى السادس ملكا بدلا منه ، حتى لايتهم باغتصاب العرش ، عادوا الآن بعـد أن أتخمت نفوسهم — وان كانوا مايزالون ينتظرون المزيد — الى التحول بولائهم المتقلب الى اختيار فردريك « الثانى » ملكا ، وهم الذين أغمضوا عيونهم عن حقه عمدا طوال هذه الســنوات •

وباعتلاء فردريك الثانى عرش ألمانيا ، تدخل المشكلة الايطالية ذروة تعقيدها فى السياسة الألمانية ، اذ يعد عهده تجسيدا كاملا لكل آمال الملوك الألمان تجاه ايطاليا ، وكل مظاهر العداء من جانب البابوية ازاء

---

71) Decision of Innocent III in regard to the disputed election of Frederick II, Philip of Suabia, and Otto of Brunswick, 1201.

72) Concessions of Philip of Suabia to Innocent III, 1213.

الملكية الألمانية ، وفكرة الامبراطورية التي بذرت هي بنفسها منذ البدء بذرتها ، وكل جوانب الابتزاز وتعميق النزعات المحلية والشكل الاقطاعى لسلطات امراء العلمانيين والاكليروس على السواء • وقد افتتح عهده بوعد قطعه على نفسه للبابا انوسنت الثالث ، تنازل له فيه عن كل ماكان يناضل البابوات من أجله طوال قرنين كاملين مضيا[٧٣] • يدفعه الى ذلك حداثة سنه واعتماده على تأييد البابوية فى التصديق على اختياره للعرش • وثنى ذلك بتعهد آخر للبابا فى سنة ١٢١٦ ضمنه تنازله عن صقلية لابنه الطفل هنرى[٧٤] • ولو قدر لهذه التعهدات والوعود أن تنفذ كما جرت ، لانتهى الصراع بين البابوية والامبراطورية تماما ، الا أن فردريك أدرك فيما بعد أنه قد تنازل عن كل ما جاهد أسلافه الأباطرة من أجله حول فكرة الامبراطورية • ومن ثم عمل على رفض كل ماقطعه على نفسه ، عند تتويجه ، فقاد الامبراطورية بذلك وأسرته الى حتفها •

فمن المعروف — على النحو الذى أسلفنا — أنه منذ اعتلت أسرة الهوهنشتاوفن العرش فى ألمانيا ، راحت مكانة ايطاليا فى السياسة الألمانية تتزايد بصورة بدت وكأنها أمست شيئا لا غنى عنه لالمانيا ، ومثلت حجر الزاوية فى سياستها كلها ، فمن كونراد الثالث حتى فردريك الثانى أضحى التحول كاملا — وذلك بحكم مولده من أم صقلية ، ونشأته فى صقلية ، فأضحى صقليا خالصا[٧٥] ، يريد أن يقيم فى ايطاليا ملكية مستبدة على نسق ما أقامه فى صقلية ، حيث جعل لنفسه الاشراف على القضاء الجنائى ، وحد من حريات النبلاء ورجال الدين والمدن ، ويعقد مؤتمرا فى كريمونا Cremona سنة ١٢٢٦ يعلن فيه حرصه الكامل على حقوق الامبراطورية فى السيادة على المدن اللومباردية ، ويثير مخاوف البابوية بمحاولاته المستمرة لاثبات سيطرته على جنوب ايطاليا ،

73) Promise of Frederick II to Innocent III, 1213.

74) Promise of Frederik II to resign Sicily after his Coronation as emperor, 1216.

75) Pirenne, op. cit., p. 314.

ثم لا يلبث أن يتوج ابنه هنرى ليخلفه على عرش الامبراطورية مما أفزع البابوية [٧٦] ودفعها الى اتهامه من جانب كل من جريجورى التاسع وانوسنت الرابع ، بالهرطقة والتجديف ، ووصفه بأنه « الحيوان الذى جاء ذكره فى سفر الرؤيا •• عبد الشيطان • نبى أعداء المسيح » [٧٧] •

وساعد فردريك البابوية بسياسته على أن تسعى جاهدة لتحطيمه ، وأن تستغل هذه السياسة فى اثارة الاضطرابات ضده فى المانيا ، وتدبير الثورات والمكائد للخلاص منه والتحالف مع الأمراء لازاحة هذه الأسرة من العرش الألماني وبالتالي صقلية ، وفتح باب ألمانيا أمام النفوذ الأجنبى الفرنسى الانجليزى • بل وعرض تاجها على روبرت أخى القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، وهاكون Haakon ملك النرويج ، وأمير من أمراء الدانمرك ، وهنرى راسبى الثورنجي Henry Raspe الذى قبله سنة ١٢٤٦ ، والذى كان على استعداد لتسليم كل سلطاته على الكنيسة الألمانية الى مندوبى البابا • فلما توفى فى العام التالى ، رشح انوسنت الرابع أحد صنائعه هو وليم الهولندى [٧٨] • ولايمكن القول ان أيا من المرشحين قد حظى بالاعتراف الكامل بسيادته فى ألمانيا ، لكن وجهة نظر انوسنت كانت تتلخص فى اثارة العراقيل والعقبات أمام فردريك أكثر من استقرار العرش الألمانى ، الى الحد الذى أقدم فيه البابا على ارسال مبعوث شخصى له الى المانيا هو فيليب أسقف فيرارا Ferrara • يحمل تعليمات واضحة مؤداها خلق الصعوبات والفوضى أمام التاج [٧٩] •

---

(٧٦) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جا ص٢٥٢ — ٢٥٣ ، ودكتور سعيد عاشور : أوروبا العصـــور الوسطى : جا ، ص٣٦٣ — ٣٦٤ وأيضا :

Hyde, Society and politics in Medieval Italy, pp. 119-124.

77) General Council of Lyons, Sentence of deposition promulgated by Innocent IV.

(٧٨) للمزيد من التفاصيل عن دور البابوية هذا : راجع

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 420-428.

وأيضا : Waly, Later Medieval Europe, p. 76.

79) Scott, op. cit., p. 268.

فعلى امتداد عهد فردريك الثانى أتت صقلية وايطاليا دائما فى المقام الأول ، وحظيت العناصر الايطالية بالمكانة المرموقة دوما على حساب العناصر الألمانية ، حتى أمست ألمانيا ابان حكمه مجرد ولاية تابعة أو حتى مستعمرة تدار بواسطة نائب عنه ، هو ابنه هنري أولا ثم كونراد من بعد • لقد كان كل اهتمامه في المانيا محصورا للحصول على اللقب الامبراطورى فقط •• ومن هنا فان اتجاهه الى ألمانيا كان لتدعيم نفوذه وسلطانه فى ايطاليا وصقلية[٨٠] وهذا الاتجاه يمثل سياسة مضادة تماما لما سعى اليه أوتو الأول ، عندما كان اهتمامه بايطاليا بحثا عن اقرار سلطانه فوق الاكليروس الألماني • وهكذا نرى أن التحول أصبح كاملا خلال هذه القرون الثلاثة مابين النصف الثانى من القرن العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر •

ويتساءل هنرى بيرين في صراحة •• ماذا كانت ألمانيا تعنى لفردريك ؟ ويجيب فى وضوح : لقد كانت مجرد طريق عليه أن يسير فيه ليعتلى عرش القياصرة ، أما قوته الرئيسية فكانت تتمثل فى صقلية •• انه لم يكن حتى يعرف اللغة الألمانية[٨١] • بل لقد كان فى رأى D. Waley يمقت ألمانيا[٨٢] • ويعتبرها « أرض الأحراج الكئيبة ، والمدن الموحلة ، والقلاع المنفرة »[٨٣] بينما كانت ايطاليا بالنسبة لفردريك — حسب تعبير كانتروفتش Kantorowicz « مرفأه الأمين من الطوفان ، وفردوسه الحانى وسط غابة الأشواك »[٨٤] ومن هنا كانت نظرته الي ألمانيا تحمل فى طياتها كل معانى التشاؤم والقنوط ، ولما كان ايطالى المولد والنشأة ، فان نظرته الى المانيا على هذا

---

80) Barraclough, op.c it., pp. 219-211.
81) Pirenne, op. cit., pp. 314-315.
82) Waley, op. cit., p. 75.
83) Barraclough, op. cit., p. 220.
84) Kantorowicz, Frederick the Second, p. 220.

النحو ، باعتبارها مجرد مصدر للرجال والأموال ، أكثر من كونها مملكة يحكمها بصفة مباشرة ، أمرا لايمكن تجنبه ، ومن ثم لم يكن بمقدوره أن يكون فى مملكته الايطالية والمانيا فى وقت واحد ، ولذا كان الغياب عن أيهما لابد أن يسوق الى تآكل السلطة الملكية بها •

وهذا هو ماحدث بالفعل لسلطة التاج فى المانيا ، من جراء اقامته فى صقلية وترك ابنه هنرى فى المانيا[٨٥] ، وتمثلت خطورة ذلك فى أن هذا الاختفاء للتاج جاء فى أعقاب الحرب الأهلية الطويلة التى تركت بصماتها الواضحة على الكيان السياسى للسلطة الملكية فى المانيا • مما أعطى الفرصة لكى تخضع المانيا بصورة عملية للامراء الاكليروسيين والعلمانيين • ولما بات كل مايرجوه فردريك من المانيا أن تثير فى وجهه المتاعب ، فقد أصبح على استعداد كى يذهب فى هذا التسبين الى آخر المدى ، وأن يقدم من التنازلات مايهيء له الفرصة لتثبيت دعائم سلطانه فى صقلية وايطاليا • ولعل هذا هو الذى يفسر اقدامه فى عام ١٢٢٠ على منح الاكليروس الألمانى امتيازات واسعة Privilegium in Favorem principum ecclesiasticorum تعطيهم حقوقا مطلقة فى اختيار الأساقفة ورؤساء الأساقفة ، والتصرف فى الاقطاعات الكنسية كيفما يحلو لهم ، واغفال الادعاءات الملكية برفع الضريبة عليها عند الضرورة أو بناء القلاع فوقها[٨٦] وتنازل عن حق اقامة مراكز جديدة لتحصيل المكوس الجمركية أو دور لضرب النقود فى الأقاليم الكنسية ، وترك للأساقفة كل ماكان قد بقى له من حقوق فيما تختص بالمحاكم وأمور التقاضى ووعد بأن ينظر الى أى شخص يصدر ضده قرار الحرمان الكنسى على يد أحد الأساقفة على أنه خارج عن القانون • ولاشك أن هذا التصرف الذى جاء فى صالح الكنيسة ، قد أساء بشكل واضح الى صورة العلاقات الطويلة بين الكنيسة والملوك الألمان ، ذلك أنه لم يعد لديها الان ما يدفعها

---

(٨٥) حكم فردريك الثانى ثمانية وثلاثين عاما (١٢١٢ — ١٢٥٠) لم يمكث منها فى المانيا سوى تسع سنوات على فترتين متباعدتين •

86) Concessions of Frederick II to the ecclessiastical princes of Germany, 1220.

الى البحث عن التحالف مع التاج ، ومادامت القوة الحقيقية قد انتقلت الى أيدى الأمراء العلمانيين ، فلن أمراء الكنيسة راحوا ينظرون اليهم باعتبارهم سندهم الزمنى ، فأطاح ذلك بالبقية الباقية من الولاء الرسمى لدى الاكليروس تجاه الحكومة[87] وهكذا .. فان ما أقدم عليه فردريك الثانى هنا يعد تدميرا كاملا للتاج الألمانى ، فقد صنع من كل أمير اكليروسى ، ملكا فى الحقيقة وان كان لايحمل اللقب ، فجرد التاج من حقوقه وسلطاته[88] .

وكانت هذه الامتيازات التى حصل عليها أمراء الاكليروس ، فاتحة خير وبركة للامراء العلمانيين ، وكارثة خطيرة فى الوقت نفسه للكيان السياسى فى المانيا ، فقد راح هؤلاء الأمراء يسعون بكل ما وسعهم الجهد لتدعيم نفوذهم وزيادة سلطاتهم وتوسيع رقعات أراضيهم ومساحات ضياعهم . منتهزين فرصة هجران الملك الألمانى لمملكته الألمانية . لكنهم اصطدموا الآن بالسياسة الجديدة التى راح يتبعها هنرى « السابع » مخالفا تماما لسياسة أبيه ، بل لسياسة أسلافه من الملوك الألمان جميعهم ، ذلك أن هنرى أبصر أمامه طريقا واحدا للخلاص أو على الأقل للحد من نفوذ النبالة الألمانية ،العلمانية والاكليروسية ، ألا وهو الاعتماد على المدن التى كانت تحاول جاهدة أن تحمل لنفسها على المزيد من مظاهر الاستقلال ، وتسعى للتحرر من سلطان الأساقفة المتزايد ،

---

87) Scott, op. cit., pp. 266-267.

وايضا Barraclough, op. cit., p. 235.

88) Thatcher & McNeal, op. cit. p. 233.

وكان فردريك الثانى يهدف أساسا بهذه التنازلات الى اجتذاب الكنيسة الالمانية الى صفه ، اذا ماحاولت البابوية التعرض له ولسياسته ، وذلك بما عدته خرقا للتعهدات التى قطعها على نفسه عند اعلانه ملكا ، بعدم توحيد المانيا وايطاليا تحت سيادة شخصية واحدة فى ذريته ، وذلك عندما أقدم على اعلان ابنه هنرى (السابع) ملكا على المانيا ، والذى كان يعد بصفة طبيعية ملكا على صقلية باعتباره الوريث الشرعى لأبيه ، الذى لم يكن يعترف فى قرارة نفسه بما اهد عليه فى البدء البابوية .

وتلك كانت السمة الرئيسية للقومونات التى شهدتها العصور الوسطى فى الشمال الايطالى فى لمبارديا ، وفى ألمانيا كذلك • ومن الغريب أن ملكا مثل فردريك الثانى ، يتمتع بهـذه القـدرات غير العادية ، والثقافة العالية ، والمهارة الادارية ، يغفل عن دور المدن الناشئة فى التصـدى لسلطان أمراء الكنيسة والأمراء العلمانيين ، بل لقد أقدم على اتخـاذ عدد من الاجراءات كان من شأنها حماية الأساقفة من « تطاول » المدن داخل الأقاليم الكنسية •

ومن البديهى أن ازدهار المدن كان مؤشرا طبيعيا نحو التحول عن النظام الاقطاعى والاقتصاد الزراعى ، والأرض باعتبارها المصـــدر الرئيسى للقوة الاقتصادية وبالتالى السياسية ، الى الاقتصاد النقـدى والأموال والتجارة بصفتها المحرك الأساسى لدولاب العمل الاقتصـادى فيما بعد • وكان هذا يعني بتعبير آخر انهيار النظام الاقطاعى ، وبتعبير أكثر وضوحا ودقة ، انهيار سلطان الأمراء العلمانيين والكنسيين • وساعد على سرعة هذا التحول أيضا فى القرن الثالث عشر عاملان رئيسيان ، أولهما ماحصلت عليه مدن العصـــبة اللومباردية من اعتراف بحقوقها وامتيازات فى أخريات القرن الثانى عشر (١١٨٣) ، بمقتضى معاهدة كونستانس Constance ، التى انتزعتها هذه المدن من الامبراطور فردريك الأول برباروسا ،بعد أن لازم سوء الحظ حملاته المتتالية على ايطاليا [٨٩] فأصبحت هذه الامتيازات مثالا يحتذى لدى المدن الأخرى فى بقية الدول الأوروبية ، وحرص رجال المدن على الحصـول عـلى « البراءات » التى تقرر مثل هذه الحقوق من جانب الأمراء • أما الثانى فهو الفشـــل الذى منيت به الحركة الصليبية مما أودى بها فى القرن الثالث عشر وعودة الأمراء الذين شاركوا فيها الى الغرب مفلسين ، أو موتهم فى الشرق ، وضياع الأرض الى صالح التاج بعد أن رهنها أصحابها قبل رحيلهم الى الأراضى المقدسة • ومن ثم راحت الأهمية الاقتصادية

---

(٨٩) أنظر : The peace of Constance, January 1183.

والسياسية للارض تتولى الى الظل تدريجيا ، بينما أضـــحت المدن الناشئة بنشاطها التجارى تلعب دورا هاما راح يتزايد مستقبلا بصفة مســتمرة •

ومما يدعو للعجب أن كل ملوك المانيا دون استثناء عصبوا عيونهم عن ابصار هذه الأهمية التى تمثلها تلك المدن • والأمثلة على ذلك كثيرة تجلت بصورة واضحة فى رفض هنرى الرابع العرض الذى تقدمت به مدن العصبة اللومباردية لتأييده وهو فى رحلته الى مذبح الاذلال فى كانوسا ، ليقدم لجريجورى السابع كبرياء الامبراطورية قربانا • ومع ذلك لم تتخل عنه هذه المدن فى أخريات عهده • ووقف فردريك بربارويسا موقف العداء السافر لقومون روما وأرنولد البرشى Arnold of Brescia وللمــدن اللومبــاردية التــى أرهقته من أمــره عســـرا خــــلال حملاته العسكرية الى ايطاليا ، والتى استنفذت كل طاقات ألمانيا من المال والرجال دون أن يفيق أو يحقق كسبا معينا ، مع أن فردريك بربار وسا كان يدرك يقينا أن أعداءه ، المدن اللومباردية والبابوية ، هما أيضــا يحملان لبعضهما عداء كامنا ، وكانت الاستراتيجية تقتضيه أن يعمـل كى يظل هذا العداء بينهما قائما ، بل وكان فى مقدوره أن يحقق ذلك بدلا من دفعهما — بسياسته — الى تكوين جيش واحد ضده • وكان عليه في الوقت نفسه أن يكون عارفا بقدرته التى لا تستطيع أن تحارب كل أعدائه دفعة واحدة ، وأن تحصل له على كل الحقوق ، وكان من الأفضل بالنسبة له أن يتفق مع أقل خصومه شأنا حتى يضمن تعاونهم معه ضد عدوه الأكبر البابوية ، التى كانت هى الأخرى خصمهم العنيد • غــير أن هذا هو الشيء الذى لم يستطع بربار وسا ، بل ولم يرد أن يتقــدم عليه[٩٠] وحتى فردريك الثانى نفسه ، الذى كان يجب أن يكون من بين الأباطرة أكثر تعقلا وادراكا لمغبة هذا الأمر ، استمر هو الآخر فى المراهنة على الجواد الخاسر ، وذلك باعتماده على الأمراء العلمانيين والاكليروسيين

90) Thompson & Johnson, op. cit., p. 430.

الذين كانوا من الطبيعى أن يهجروا جانب الامبراطورية فور حصولهم على ما يبتغون •

ولا ريب أن الامتيازات التى منحها فردريك الثانى لرجال الاكليروس ، وخاصة تلك التى تتعلق بموقف الأساقفة تجاه المدن ، تعد شيئا خطيرا ، ليس فقط لأنها تشير الى تحلل السيادة الملكية فى الأقاليم الخاضعة لرجال الكنيسة الطامحين الذين كانوا يقتربون الآن من الاستقلال الكامل ، بل لأنها كانت المثل الأخير فى العمل المقدور على كل أباطرة ألمانيا الذى حال دون ادراكهم ، كما أدرك ملوك آل كابيه فى فرنسا ، أن الصراع ضد النظام الاقطاعى ، وهو الشيء الذى لايمكن تجنبه اذا أريد قيام دولة قوية ، كان يقتضى بالضرورة أن تكون هذه المدن الناشئة هى الحليف القوى والطبيعى للملوك فى هذا الصراع [٩١] ولم يحاول هؤلاء الأباطرة أن يتعلموا شيئا من تجربة هنرى الرابع فى أيامه الأخيرة عندما بقيت هذه المدن على ولائها له ، بعد أن تخلت عنه الكنيسة ، وعاداه النبلاء ، وتمرد عليه حتى ابنه •

ولما كان هنرى « السابع » قد استوعب الأمر بكامله على هذا النحو ، ولما كان يعتبر نفسه فى المرتبة الأولى ملكا ألمانيا أكثر من اهتمامه بأن يكون امبراطورا رومانيا ، وهو ماسار على الضد منه كل خلفاء أوتو الأول ، فقد وضع ثقته كاملة فى المدن الألمانية التى أعطته هى الأخرى تأييدها المطلق ضد عدوهما المشترك ، الأمراء الاكليروسيين والعلمانيين • واستشعر هؤلاء الخطر يأتيهم من جراء السياسة الجديدة التى ينسج هنرى خيوطها ، مهددا بالضياع كل سلطاتهم ومكاسبهم التى حصلوا عليها خلال السنوات الطوال التى كان التاج الألمانى يعانى فيها أوجاع الضعف وآلام التدخل البابوى • ومن ثم أعلنوها ثورة عارمة ضد هنرى والمدن ، مما هدد ألمانيا بفوضى حرب أهلية جديدة كانت قد

---

91) Thompson & Johnson, op. cit., pp. 418-419.

برئت من بعض جراحاتها منذ عشرين عاما فقط • واستدعى ذلك قدوم فردريك الثانى على عجل ليقر الأمور فى ألمانيا ، حيث وجد نفسه مسوقا الى السير فى نفس الدرب الذى اختطه دون تدبر أسلافه • فأقدم على منح الأمراء العلمانيين امتيازات Statutum in favorem Principum (١٢٣١ — ١٢٣٢) حققت لهم ما كان قد أعطاه لأمراء الاكليروس منذ اثنتى عشرة سنة خلت ، فأضحت لهم السيادة كاملة على اجراءات التقاضى فى أقاليمهم ، وحق اقامة دور سك النقود ، واستخدام الطرق والمجارى المائية ، واتخاذ الاجراءات التى تكفل اغلاق أبواب المدن فى وجه الاقنان الهاربين • بل ان تلك الامتيازات قضت بأن كل القوانين الادارية الجديدة والضرائب المستحدثة ، لا يصبح لها الصفة الشرعية الا بعد استشارة الأمراء العلمانيين أو الكنسيين لهذه الأقاليم(٩٢) وهكذا فان هذه الامتيازات التى منحت الآن للامراء العلمانيين ، وقرينتها التى سبق اغداقها على الاكليروسيين ، أدت الى اتمام كمال التفسخ السياسى للنسق الاقطاعى فى ألمانيا ، وبصفة قانونية • وبهذا ذهب مع الريح سلطان الملك الألمانى •

ويعلق المؤرخ الألمانى فردريش هير F. Heer على ذلك ، بالنعى على ما ذهب اليه الامبراطور فردريك الثانى معتبرا اياه أستاذا لتوماس الأكوينى Thomas Aquinas فى شكه المزمن وريبته تجاه المدن(٩٣) ، ففقد فردريك الثانى بذلك نصيرا قويا كان من الممكن أن يقدم له يد العون كاملة فى صراعه ضد البابوية وحلفائها الأمراء فى داخل ألمانيا • ولما لم يكن هنرى الابن راضيا عن هذا المنهج ، فقد أقدم على التحالف مع مدن العصبة اللومباردية والمدن الألمانية التى وقفت الى جواره ، وأعلن الثورة فى ألمانيا ، مما دفع أباه الى القدوم فى زيارته الأخيرة الى ألمانيا

---

92) Statute of Frederick II in favor of the princes, 1231-1232.
93) Heer, The Medieval history, p. 71.

وأيضا :
Otto Freiheer, Constitutional reorganization and reform under the Hohenstaufen, p. 211.

عام ١٢٣٥ ، ليخمد هذه الثـــورة وليقبض على ابنه وينفيه الى أبوليا Apulia ليظل هناك فى سجنه حتى يأتيه الموت سنة ١٢٤٢[٩٤] •

هكذا أمست الصورة العامة لألمانيا فى منتصف القرن الثالث عشر حالكة السواد ، فالامبراطور مشغول عن بلده بمملكته فى صـــــقلية ، والبابوية تسعى حثيثا لتدمر كل شئ فى صقلية وألمانيا على السواء ، وأمراء الدين والدنيا حققوا كل ما تصبو اليه نفوسهم وشهوة السلطان فى صدورهم ، وانفصلت بوهيميا لتصبح مملكة مســـــتقلة ، واتحـــد انفرسان التيوتون مع فرسان ليفونيا Livonia واستولوا على شواطئ البحر البلطى لتزداد سطوتهم ضد التاج ، وازداد نمو المدن الألمانية مثل وورمز وميتز وكولونى وبازل مما قوض دعائم السلطة المركزية • وصدق على الامبراطورية الألمانية ملاحظة المندوب البابوى همبرت Humbert فى مجمع ليون المنعقـــد ســـنة ١٢٧٤ « انها أمســـت الى الضـــياع » quasi ad nihilum لقد أضاع الأباطرة الألمان سلطانهم فى ألمانيا بتدخلهم المستمر فى ايطاليا ، فأصبحوا كمن يبيع رخيصا ليشترى غاليا[٩٥] •

على هذا النحو ، فان انتهاء حكم أسرة الهوهنشتاوفن باعـــدام كونرادينو عام ١٢٦٨ ـــ كما أسلفنا ـــ أو حتى بوفاة فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ ، يحدد خاتمة حقبة معينة فى تاريخ ألمانيا ، فقد ولى الآن زمان الملوك الأقوياء بها وأقبـــل عصر أمراء الاقطاع • لقد حقق النظـــام الاقطاعى فى ألمانيا آنذاك انتصارا باهرا ، أو بعبارة أخرى ، لقد فشل الألمان فى التغلب على مشكلة الوحدة السـياسية • وكان الاقتناع الثابت لدى المؤرخين الألمان أن السبب الرئيسى فى اخفاق ملوك ألمانيا فى ذلك ،

---

(٩٤) يختلف المؤرخون حول وفاته ، فيعتقد بعض أنه ضاق ذرعـــا بعمليات المراقبة المستمرة التى فرضت عليه ، فألقى بنفسه من أعلى فمات منتحرا ، بينما يرجح آخرون أن أباه قد حرض على قتله ، ويدللون على صدق دعواهم بما اقدم عليه القسيس فى عظته عند دفنه حين قرأ آية الكتاب المقدس « ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه » (تكوين ٢٢ / ١٠) • للمزيد من التفاصـــيل انظر : Scott, op. cit. p. 288.

95) Mundy, Europe in the high Middle Ages, pp. 368-370.

هو ضياع جهدهم وطاقاتهم وموارد بلادهم ، بل ودماء الألمان أنفسهم جريا وراء أحلام بعيدة المنال عن السيادة على ايطاليا وعالمية الامبراطورية[٩٦] ، وارتسمت علامات الندم على أقلامهم وهم يلومون على ملوك المانيا ، مبينين أنهم لو قصروا جهدهم على ألمانيا وحدها لحالوا دون تفسخها على هذا النحو ، ولأمكن تحقيق الاتحاد الألمانى الذى تأخر الى القرن التاسع عشر قبل ذلك بسبعة قرون أو ربما خمسة على الأقل[٩٧] • فلقد ظل ملوك ألمانيا لفترة طويلة بعد تأكد فشل سياسة الأوتويين تجاه الامبراطورية ، يرفضون بعناد الاقرار بفشل هذه السياسة • وبدا لهم جوهريا وجود نوع من الوحدة السياسية ، شأن عالم المسيحية عقيديا • ولكن لا ألمانيا ولا ايطاليا غدت احداهما قوية ، اذ أضاع الأباطرة جهودهم عبثا فى حملات عسكرية متتابعة الى ايطاليا ، بدلا من بناء مملكة قوية فوق أراضيهم ، وابتعدت الدولتان قصيا عن حسن الادارة ومركزية السلطة التى تمتعت بهما غيرهما من دول الغرب الأوروبى[٩٨] فبينما كان أشهر معاصرى فردريك الثانى ، وهما لويس التاسع ملك فرنسا ، وهنرى الثالث ملك انجلترا ، أقل منه كفاءة ومقدرة وثقافة ، الا أن كلا منهما ترك دولة تتجه الى المستقبل ، وليست ظلا لماض فقط ، بعد أن اهتمت حكومتاهما باحتياجات شعبيهما[٩٩] •

لقد حاول ملوك ألمانيا على امتداد قرنين ونصف من الزمان اقتفاء خطى شارلمان أو منافسته ، ولكن قليلا منهم هو الذى كان يصلح حتى كى يكون فقط خليفة لأوتو الأول • فمن أجل الامبراطورية نسى كثير من الأباطرة خلفاء أوتو أنهم ألمان ، وفى طريق نضالهم من أجل الامبراطورية ، فشلوا فى تأمين حتى دوقية[١٠٠] بل ليس من المبالغة فى شىء القول

96) Thompson & Johnson, op. cit., p. 430.
97) Ibid, 430-431.
98) Strayer & Munro, op. cit., p. 153.
99) Ibid. 353.
100) Stephenson, op. cit., p. 245.

انه لم يكن هناك فى حقيقة الأمر ملوك لألمانيا ، بل كانوا يعرفون بالملك الرومانى Rex Romanorum والامبراطور الرومانى Imperator Romanorum وليس هناك ـ على حد تعبير هنرى بيرين ـ كلمات لوصف ألمانيا الا القول انها ذابت فى الامبراطورية ، بعد أن أهلك ملوكها قواهم فى تبنى السياسة الامبراطورية • حقيقة لقد كانوا جميعا ألمانا ، لكنهم لم يضعوا أبدا سياسة ألمانية ، وكانوا بصفة مستمرة غارقين فى ايطاليا • لقد قدر عليهم أن تتقطع أنفاسهم فى ملاحقة سياستهم التى وضعوها • ومن ثم أمست ألمانيا ضحية الامبراطورية[١٠١] فقد خرجت فى نهاية الأمر ضعيفة اذا ماقورنت بانجلترا أو فرنسا ، فبينما عمل ملوك الأخيرتين على تركيز سلطتهم المركزية وتقوية نفوذهم والحد من سلطان الأمراء ، وزيادة مساحة أراضى التاج ، كان ملوك ألمانيا على العكس من ذلك تماما ، اذ حاولوا فرض سيطرتهم وسلطانهم على مناطق يختلف أهلوها لسانا وحضارة وأهواء ، ودخلوا فى صراع مع المدن اللومباردية والنورمان فى جنوب ايطاليا وصقلية وظلوا طيلة قرنين هدفا لعداوة لاتنقطع وتدخل مستمر فى شئونهم من جانب البابوية • وحتى فى هذه الأخيرة كان حظ الملك الألمانى أسوأ بكثير من قرينيه فى فرنسا وانجلترا ، فوليم الفاتح تحدى جريجورى السابع ، ووليم الأحمر قاوم أنسلم ، أما هنرى الرابع وبربروسا فكانا عليهما أن يتصارعا مع بابوات يجمعون فى شخصياتهم هلدبراند وأنسلم معا • هذا بالاضافة الى أن الكنيسة الألمانية كانت شيئا مخيفا من جراء ممتلكاتها الواسعة ، والتى أغدقها عليها الملوك الألمان أنفسهم ، بحيث لا يجاريها مطلقا قريناتها فى الدول الأوروبية الأخرى[١٠٢] •

---

101) Pirenne, op. cit., p. 140.

102) Br yce, op. cit., p. 213.

وللمزيد من التفاصيل عن العلاقة بين ولم الفاتح والبابا جريجورى السابع ، أنظر Douglas, William the conqueror, pp. 340-341.
وعن وليم الأحمر وانسلم انظر Barlow, op. cit., pp. 156-158.

ومن الغريب أن هذه النهاية التى آلت اليها كل من انجلترا وفرنسا وألمانيا ، اذ خرجت الأولى من النظام الاقطاعى بملكية « دستورية » اذا صح هذا التعبير آنذاك ، وآل الأمر فى الثانية الى ملكية مستبدة ، بينما ودعت المانيا دنيا العصور الوسطى ممزقة شر ممزق • نقول ان هـذه النهايات لاتتفق مع ماجرى عليه الأمر مثلا بعـد انهيار امبراطـورية شارلمان ، فقد كانت ألمانيا أسعد حظا منهما ، ففى فرنسا مثلا دخـلت البلاد فى حرب أهلية لمدة قرن بين أفـراد البيت الكارولنجى وأمـراء باريس ، فى الوقت الذى أقدم فيه الأمراء الألمان على اختيار مليكهم أرنولف الحفيد غير الشرعى للويس الألمانى سنة ٨٨٧ ، وكونراد دوق فرنكونيا بعد وفاة لويس الطفل ٩١١ • ورغم أن هـذا أدى الى احياء التقليد الجرمانى القديم الخاص بحقهم فى اختيار الزعيم ، وقاد الى تقوية نفوذ النبلاء واضعاف سـلطة الملكية على المدى الطويل ، الا أن النتيجة المباشرة كانت اعطاء ألمانيا حاكما قويا [١٠٣] وتمثل ذلك بصـفة خاصة فى القرنين التاسع والعاشر ، وبشكل أساسى زمـن أوتو الأول وسميه الثانى ، بل وأيضا حتى عهد فردريك بربا روسا ، اذا استثنينا فترة التدخل البابوى السافر فى شئون ألمانيا على عهود هنرى الرابع ولوثر وكونراد ، فقد كانت الملكية الألمانية تقوم فى هذه الفترة على هيراركية عمادها الموظفون والدوقات والكونتات والأسـاقفة ومقدمو الأديرة ، يعينهم الملك ويدينون له بالولاء ، ولكن الأمر انتهى الى ملكية تسـتمد قوتها من مجموعة من الأفصال الاقطاعيين ، من غير ذوى الأصـول النبيلة ، علمانيين واكليروسيين[١٠٤] •

والى جانب هذه النتائج المدمرة التى أفرزها الصراع بين البـابا والامبراطور من ناحية ، وهذا والأمـراء من الثانية كانت هناك كارثـة ثقافية هى فقدان ألمانيا للزعامة الفكرية فى غرب أوروبا •• ففى سنة

103) Strayer & Munro, op. cit., p. 147.

104) Ch. Brooke, Europe in the central M. Ages, p. 157.

١٠٥٠ كانت الأديرة الألمانية مراكز كبرى للتعليم والفن كما كانت مدارس اللاهوت والقانون الكنسى الألمانية لاتبارى فى أى مكان آخر فى أوروبا • غير أن الحرب الأهلية الطويلة والمنازعات الشرسة بين الكنيسة والدولة استنزفت طاقة الكنيسة الألمانية وحولت اتجاهها ، بحيث أصبح الاكليروس مثابرا على تأليف المقالات عن العلاقة بين الدولة والكنيسة ، وتجاهلوا التقدم الهائل فى الفلسفة والقانون والأدب والفن الذى كان يجرى خلال الفترة نفسها غرب الراين وجنوب الألب • وهكذا تخلفت الحياة الفكرية فى المانيا عن عصرها ، ثم ما لبثت أن باتت متأخرة وعتيقة(١٠٥) • بينما عكف العلماء الفرنسيون والايطاليون على خلق مؤسسة جديدة للفكر الراقى والتعليم العالى ، وهى المؤسسة التى قدر لها أن تلعب الدور الرئيسى فى الحياة الفكرية فى العصور الوسطى العالية • فى الوقت الذى لم تقم فيه فى ألمانيا جامعة من هذا النوع قبل القرن الرابع عشر(١٠٦) بل ان فردريك الثانى نفسه عندما أقدم على انشاء جامعة ، أقامها فى نابولى ولم ينشئها فى ألمانيا • لقد تخلف الألمان ثقافيا كما تخلفوا سياسيا خلال النزاع على التقليد العلمانى والسيادة العالمية وانغماسهم فى المشكلة الايطالية ، ولم يستعيدوا مكانتهم أبدا على الأقل خلال العصور الوسطى •

وهكذا يمكن القول ان ألمانيا منذ نهاية القرن الثانى عشر لم تعد تلعب الا دورا تافها لا قيمة له على الاطلاق فى السياسة الأوروبية ، رغم أنها تحتل مساحة شاسعة جدا على الخريطة الأوروبية ، حيث امتدت من المستعمرات الألمانية على الألب الأدنى حتى نهر نيمن Niemen بحيث جاورت البحر من ناحية والصقالبة من ناحية أخرى فى روسيا

---

105) Cantor, op. cit., pp. 303-304.
De Wulf, Philosophy and Civilization in the Middle Ages, pp, 281-283.

106) Cantor, op. cit., p. 304.

وبولندا [١٠٧] بل ان بعض المؤرخين يذهبون الى أبعد من ذلك عندما يعتبرون سنة ١٠٥٦ عندما توفى هنرى الثالث ، العام الذى لم تعد فيه ألمانيا الحقيقة الرئيسية فى التاريخ الأوروبى[١٠٨] •

لقد كانت ايطاليا جرحا داميا فى جسم ألمانيا ، ظل ينزف طيلة العصور الوسطى حتى أعيا ذلك الجسد ، فأمسى شاحبا الى ذبول ، وتكاثفت عليه مباضع الجراحين تحاول أن تجد له طبابا شافيا وعلاجا ناجعا ، لكن الداء كان قد تأصل فى مباضع الجراحين أنفسهم ، أعنى أباطرة ألمانيا — الذين استمرءوا •• رغم — الفشل الذى لاحقهم — لعبة التدخل فى المشكلة الايطالية ، فساقوا دولتهم الى التفكك والانحلال الذى لم تبرأ منه ، وايطاليا هى الأخرى الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر •

107) Pirenne, op. cit., p. 331.
108) Strayer & Munro, op. cit., p. 161.

المصادر والمراجع

أولا : الوثائق والمصادر

— Adrian IV, (Pope 1154-1159) :

 — Treaty of Adrian IV and William of Sicily, 1156.

 — Letter of Adrian IV to Frederick I, 1157.

 — Letter of Adrian IV to Frederick I, 1158.

— Augustinus, De civitate Die, translated into English in two vols. by Marcus Dods, Edinburgh, 1949.

— Conrad III, (Emperor 1138-1152) :

 — Letter of Conrad III to the Greek (Byzantine) emperor John Comnenus, 1142.

— Einhard, Vita Caroli, translated into English in : two lives of Charlemagne» by Lewis Thorpe, Penguin books, 1969.

— Frederick I Barbarossa (emperor 1152-1190) :

 — Letter of Frederick I to Eugene III, 1152.

 — Manifesto of Frederick I, 1157.

 — The peace of Constance, 1183.

———————— and Eugene III (pope 1154-1153).

 — Treaty of Constance 1153.

— Frederick II (emperor 1212-1250) :

 — Promise of Frederick II to Innocent III, 1213.

 — Promise of Frederick II to resign Sicily after his coronation as emperor, 1216

 — Concessions of Frederick II to the ecclesiastical princes, 1220.

 — Statue of Frederick II in favor of the princes of Germany, 1213-1232.

— Gregory VII (Pope 1073-1085) :

— Leter of Gregory VII to Henry IV, 1075.

— First deposition and excommunication of Henry IV by Gregory VII.

— Innocent III (Pope 1198-1216) :

— Decision of Innocent III in regard to the disputed election of Frederick II, Philip of Suabia, and Otto of Brunswick, 1201.

— Innocent IV (Pope 1243-1245) :

— Sentence of deposition of Frederick II promulgated by Innocent IV in the general Council of Lyons 1245.

— Liudprand (Bishop of Cremona)

— Report of his embassy to Constantinople, 968.

— Nicholas II (Pope 1059-1061) :

— Papal election decree of Nicholas II, 1059.

— Philip of Suabia (Emperor 1197-1208) :

— Concessions of Philip of Suabia to Innocent III, 1203.

— Robert Guiscard, Oath, of Robert Guiscard to Nicholas II 1059.

— Cantor (N.F.), The Medieval World 300-1300, London 1968.

— Henderson (E.F.), Select historical documents of the Middle Ages, London 1925.

— Lyon (B. D.), The High Middle Ages 1000-1300, U.S.A. 1964.

— Thatcher (O.J.) & McNeal (E.H.),

— A source book for Mediaeval history Selected domuments illustrating the history of Europe in the Middle Age, New York.

— Tiermey (B.),

— The Crisis of Church & State 1050-1300, with selected documents, U.S.A. 1964.

— The Middle Ages, Vol. I ; Sources of Medieval history New York 1978.

ثانيا : المراجع الأوروبية

— Barlow (F.), The feudal Kingdom of England, 1042-1216, London, 1974.

— Barraclough (G.), Mediaeval Germany, 911-1250 : essays by German Historians, translated and ed. by Barraclough, Oxford 1948.

— The Origins of Modern Germany, Oxford 1947.

— Barry (W.), The Papal Monarchy, from st. Gregory the Greek to Boniface VIII, New York 1906.

— Brooke (Ch.), Europe in the Central Middle Ages, 962-1154, London, 1966.

— Brooke (Z.N.), A history of Europe from 911 to 1198, London 1966.

— Bryce (J. A.), The Holy Roman Empire, London 1950.

— Cambridge Medieval History, 8 Vols. planned by J. B. Bury, Cambridge 1964.

— Cantor (N.F.), Medieval history : the life and death of a civilization, New York, 1966.

وقد قام الدكتور قاسم عبده قاسم بترجمة هذا الكتاب فى جزءين ، صدر الأول منهما عن دار المعارف فى عام ١٩٨١ ، والثانى تحت الطبع . وقد تفضل مشكورا باطلاعي على النسخة الخطية لترجمة الجزء الثانى .

— Davis (R.H.G.), A history of Medieval Europe from Constantine to St. Louis, London 1957.

— De Wulf (M.), Philosophy and Civilization in the Middle Ages, New York, 1953.

— Douglas (D. C.), William the Conqueror, London, 1969.

— Freiherer (O.), Constitutional reorganization and reform under the Hohenstafen, trans. from German by Barraclough in, Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 203-233).

— Haskins (ch.), The Normans in European history, New York, 1966.

— Heer (F.), The Medieval world, trans. from German by Janet Sondheimer, New York, 1963.

— Hyde (J. K.), Society and politics in Medieval Italy, the evolution of the civil life, 1000-1350, London 1973.

— Joachimsen (P.), The investiture contest and the German constitutions, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 95-129.

— Mitteis (H.), Feudalism and the German Constitution, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 235-279).

— Mundy (J. H.), Europe in theh igh Middle Ages, 1150-1309, London 1973.

— Paoluci (H.), The political writings of St. Augustine, Indiana 1962.

— Pierenne (H.), A history of Europe, London 1951.

— Scott (W.), Medieval Europe, London 1975.

— Stephenson (C.), Mediaeval History, New York, 1962.

— Strayer (J.),, Munro (D.), The Middle Ages, 395-1500, New York 1970.

— Thompson (J. W.), Johnson (E. N.),

— An introduction to Medieval Europe, 300-1500, New York 1965.

Pirenne, op. cit., pp. 314-315.

— Tout (T. F.), The Empire and the Papacy, London 1924.

— Ullmann (W.), A short history of the Papacy in the Middle Ages, London 1974.

— Vasiliev (A. A.), History of the Byzantine Empire, 2 Vols. Madison and Milwauke 1964.

— Waley (D.), Later Medieval Europe from St. Louis to Luther, London 1976.

ثالثا : المراجع العربية والمعربة

ابراهيم طرخان (دكتور) :
المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦.

اســحق عبيد (دكتور) :
الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغروس ، منشورات جامعة بنغازى ، طبعة بيروت بدون تاريخ .

جوانفيل (ج) :
القديس لويس ، حياته وحمــلاته على مصر والشــام ، المعروف بمذكرات جوانفيل ، ترجمة وتعليق دكتور حسن حبشى — القاهرة ١٩٦٨ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :
العدوان الصليبى على مصر ، هزيمة لويس التاســع فى المنصورة وفارسكور . القاهرة ١٩٦٩ .

ديفــز (ر . هـ . س) :
شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى ، القاهرة١٩٥٩!

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول : التاريخ السياسى القاهرة ١٩٥٨ .

فيشر (هـ) :
تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جزءان . ترجمة دكتــور محمد مصطفى زيادة ودكتور السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٦٦ .

نور الدين حاطوم (دكتور) :
تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا ، بيروت ١٩٦٧ .

هارتمان (ل . م) وباراكلاف (ج) :
الدولة والامبراطورية : ترجمة وتقديم وتعليق دكتور جوزيف نسيم . القاهرة ١٩٧٠ .

هسى (ج . م) :
العــالم البيزنطى ، ترجمة وتقـــديم وتعليق دكتور رأفت عبد الحميد . القاهرة ١٩٨٢ .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

فى مدينة رشيد

فى العصر العثمانى

دراسة وثائقية

دكتور / صلاح احمد هريدى على
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية التربية بدمنهور
جامعة الاسكندرية

ان الدراسة التاريخية لمدينة رشيد من واقع سجلات المحكمة الشرعية بالشهر العقارى بمدينة الاسكندرية قد حفزت الباحث نحو الوقوف على كثير من الحقائق والمعلومات التاريخية عن هذه المدينة مع التركيز على تاريخها الاقتصادى والاجتماعى ، خاصة أن تلك الوثائق موجودة بكثرة هناك ، وان كانت مرتبة فى سجلات ، الا أنه لوحظ أن بعض السجلات بعضها متآكل فى أغلب صفحاتها والبعض الاخر غير مرتب السنوات ، ولكن فى النهاية أقول أن هذه المصادر غنية بمادتها ، كما لوحظ أن محكمة اسكندرية الشرعية تضم محاكم عديدة تابعة لمحكمة الاسكندرية مثل رشيد ودمياط وأبو قير[1] .

---

(١) سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، سجلات أرقام ٧ مواد ٢٥٠ ، ص١٠٨ ، بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ٩٧١هـ / ١٥٦٣م ، ٢٥٨ ، ص١١٢ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ٩٧١هـ / ١٥٩٦٣٠ ، سجل رقم ٨ مادة ٦٣٨ ، ص٢٢٤ بتاريخ ٢٦ ذى الحجة ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م ، سجل رقم ٩ مادة ١٣٦ ، ص١٤٤ ، بتاريخ ١٣ شوال ، ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م ، سجل رقم ٤١ مادة بدون رقم ، ص١٥ ، ص٢٧ ، على سبيل المثال لا الحصر .

ولذلك فقد قسمت هذا البحث الى تمهيد مبسط لمدينة رشيد وتطورها ، ثم تطرقت بعد ذلك لبيان أهميتها السياسية فى مصر العثمانية ، ويلى ذلك الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

أما عن الناحية الاقتصادية ، فقد تعرضت للزراعة والصناعة والتجارة وبعض الحرف الموجودة فيها ، حيث كانت سائدة فى تلك الفترة ، أما الناحية الاجتماعية فقد شملت عمليات الزواج والطلاق والمعاملات بين الأهالى بعضهم البعض ، وبينهم وبين بعض العرب المقيمين هناك مثل المغاربة والشوام والحجازين وغيرهم ، كما تعرضت أيضا الى دور الأوروبيين ومشاركتهم فى هذه الحياة . بالاضافة الى ذلك فقد عرضت للأعمال الخيرية وغير ذلك ، مدعما ذلك بالوثائق .

ولذلك تعتبر مدينة رشيد قاعدة لمركز رشيد ، وهى من مدن الثغور المصرية القديمة ، وردت فى جغرافية استرابون باسم Bolbitine وأنها واقعة على مصب فرع بولبتين ، وذكرها اميلينو فى جغرافيته فقال ان اسمها القبطى Rachit ومن اسمها العربى رشيد واللاتينى Rossete ، ويقال ان رشيد كانت واقعة فى شمال موقعها الحالى ، الذى نقلت اليه فى عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩م[٢] .

على أية حال فقد تطورت رشيد بعدة تطورات من الناحية الادارية، فنجد أنها كانت محافظة من محافظات مصر ، وفى عام ١٣١٣هـ / ١٨٥٩م، صدر أمر عال بالغاء محافظة رشيد ، واعتبرت بعد ذلك مركزا من مراكز مديرية البحيرة منذ عام ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م[٣] .

ولقد كانت لمدينة رشيد أهمية خاصة عند سلاطين المماليك ، وأنشأ السلطان قانصوه الغورى (٩٠٧هـ / ١٥٠١م ـ ٩٢٢هـ / ١٥١٦م) سور

---

(٢) محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، جـ٢ ، ص٣٠٠
(٣) المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص٣٠٠ أصبحت مديرية البحيرة محافظة منذ عام ١٩٦٠ .

وأبراج لحفظها[٤] وشجع الأجانب وخاصة البنادقة على الاستقرار بها وخاصة أنها ــ رشيد ــ كانت محظورا دخول الأجانب بها لصفتها الحربية منذ عهد الأيوبيين ، وكان منعهم من ذلك يرجع الى الشك الذى كان يحيط بهم دائما من محاولتهم غزو مصر من الشمال ، ولكن سمح للبنادقة بالدخول اليها [٥] • كما أن السلطات المماليكية نقلت النشاط التجارى الى ميناء بلدة فوة جنوبه ، وهى تتصل بالاسكندرية بقناة ملاحية ظلت تعمل حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى [٦] • كما أنه من جنوبى رشيد تخرج قناة تصل الى ميناء البرلس بين رشيد ودمياط ، وهو مفتوح طوال العام ، وله مدخلان الشمالى للسفن المسيحية والغربى للسفن الاسلامية • وتتبع الموانيء نائب الاسكندرية الذى يحصل مندوبوه رسوم الدخول وشحن وتفريغ السلع [٧] •

وعقب الفتح العثمانى لمصر عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، فقد قام السلطان سليم (١٥١٢ ــ ١٥٢٠) بزيارة رشيد وأشاد بها كثغر من الثغور المصرية[٨] • وقد وصل اليها آخر خلفاء العباسيين بالقاهرة الخليفة المتوكل وأقام بها عدة أيام ، قبل سفره الى استانبول[٩] عقب سقوط دولة المماليك بمصر ، وعندما غادرها ومعه بعض الحرفيين وغيرهم وساءت الأحوال الجوية فى البحر المتوسط عادوا مرة أخرى الى رشيد[١٠] • واعتنى العثمانيون برشيد عقب الفتح ، فأنشأ بها سليمان باشا الخادم

---

(٤) محمد بن اياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٥ ، ص٩٤ ــ ٩٥ •

(٥) نعيم زكى وصفى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، ص٩١ •

(٦) المرجع نفسه ، ص١٣١ •

(٧) المرجع نفسه ، ص١٣٢ •

(٨) محمد محمود زيتون ، اقليم البحيرة ، صفحات مجيدة من الحضارة والثقافة والكفاح ، ص١٢٧ •

(٩) محمد بن اياس الحنفى المصدر السابق ، جـ٥ ، ص١٨٤ ــ ١٨٥

(١٠) المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص٢٨٣ ــ ٢٨٤ •

(٩٣١هـ / ١٥٢٤م — ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م) قيسارية وفندقا[١١] كما أنشأ داود باشا (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م — ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م) فندقا آخر سمي خان داود باشا[١٢] وأنشأ على باشا فندقا عام ٩٥٦هـ / ١٥٤٩م بالاضافة الى خانات أخرى بفوة ، كما عمر وكالة كبيرة فى رشيد[١٣] واهتم أحمد باشا الخادم بها (٩٩٩هـ / ١٥٩٠م) بانشاء وكالة وقهوة[١٤] • كما قام محمد باشا السلحدار (١٠١٦هـ / ١٦٠٧م — ١٠٢٠هـ / ١٦١١م) بانشاء وكالة أخرى حيث كانت مخصصة لكبار المسافرين ، بالاضافة الى انشاء عدة حوانيت وقهوة وسوقا للصاغة ، واستولى على غالبية الجزر المقابلة لرشيد وضمها اليها[١٥] •

وكانت لرشيد أهمية سياسية خاصة لدى الادارة العثمانية ، وعلى هذا فقد كان قبودان دمياط ، الذى كان يشار اليه باسم قبودان دمياط مع بندر رشيد[١٦] عليه امداد الاسطول العثمانى باحتياجاته عند مروره بالشواطىء المصرية ، وان كان يقوم نيابة عن قبودان الاسكندرية بتلك المهام ، وعليه تنظيم الملاحة فى مينائى دمياط ورشيد ، والعمل على استتباب الأمن فيها أما رسوم الملاحة فكانت محددة بـ ١٧٥ بارة[١٧] • أما عن مرتب القبودان فقد كانت تقدر بحوالى ٢٠٠ر٠٠٠ بارة سنويا ، ولكنها بلغت فى القرن الثامن عشر الى ٣٠٠ر٠٠٠

---

(١١) محمد محمود زيتون ، المرجع السابق ، ص١٢٧ — ١٢٨ •

(١٢) المرجع نفسه ، ص١٢٨ •

(١٣) المرجع نفسه ، ص١٢٩ •

(١٤) المرجع نفسه ، ص١٢٩ •

(١٥) محمد محمود زيتون ، المرجع السابق ، ص١٣٠ •

(17) Stanford Shaw, Ohoman Egypt in The Age of The Fnench Revulution, pp. 80 — 81

(١٦) سجل رقم ٧ ، مادة ٢٥٠ ، ص١٠٨ ، بتاريخ ١٥ ربيع الأول عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م وأنظر ايضا ص١ من هذا البحث •

بارة بالاضـــافة الى مرتب عينى بلغ ٥١٥ أردب من الغلال سنويا[١٨] وقد اســـتطاع هذا القبودان فى القرن الثامن عشر ، أن يحقق دخـــلا لا بأس به •

ومما يلاحظ أن حســـين أفندى الروزنامجى ، أشار عند اجابته عن القبودانات فذكر أنهم أربعة قبودانات اســـكندرية ودمياط ورشـــــيد والسويس ، ولكن أغلب المصادر تؤكد أنهم ثلاثة لاشراف قبودان دمياط مع رشيد[١٩] • بالاضافة الى ذلك نجد أهمية رشيد السياسية من ناحية أخرى ، ترجع لاستقبالها الولاة العثمانيين الجدد قبل ذهابهم للقاهرة[٢٠] •

الحياة الاقتصـــادية :

أما عن الحياة الاقتصادية فى مدينة رشيد ، فقد تمثلت فى الزراعة والصناعة والتجارة واحترافهم بعض الحرف ، فانتشرت زراعة الأرز فى مساحات عديدة ، مثل المنصورة ودمياط والمنزلة ، ورشـــيد ، فبلغ انتاج الفدان في المناطق السابقة تسعة أرادب ، أما فى رشيد فبلغ الانتاج من سبعة الى ثمانية أرادب[٢١] • ويعتبر أحد المحاصيل الصيفية ، ويحصل العمال الذين يقومون باقتلاع وشتل الفدان الواحدة بالمقابلة مقابل أجر

---

(١٨) محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص١٥ ، ليـــلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣٨٦ — ٣٨٧ •

البارة = $\frac{١}{٤٠}$ من القرش • (أنظر ، عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ص٥٧٣) •

(١٩) سجل رقم ٧ ، مادة ٢٥٠ ، ١٠٨ ، بتاريخ ١٥ ربيع الأول عـــام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م •

(٢٠) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، تاريخ وقايع مصر ، ص١٧ ومابعدها Stanford Shaw **Egypt in The Eighteenth century,** p. 14

(21) Stonford Shaw, **Ottuman Egypt in The Age of The Fnench Revolution,** p. 19 .

جيرار ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، ترجمة زهـــير الشايب المجلد الرابع ، ص٦٢ •

خمسة بوطاقات هذا بالنسبة للعمال الآتين من بلبيس ، أما عمال المنصورة الذين يذهبون الى رشيد والدلتا لحصاد الأرز فتدفع أجورهم نقدا ويحصلون على أربعة بطاقات ، مقابل حصد محصول الفدان وربطه فى حزم ونقله الى الجرن[٢٢] ، ولا نعرف الأسباب التى أدت الى خفض أجور هؤلاء عن أجرة العمال الآتين من بلبيس ، ربما يرجع ذلك الى خبرة هؤلاء العمال عن الآخرين ، أو يكون ذلك مؤداه أن العمال يكثرون فى هذا الموسم فيقل الاقبال عليهم ، ويؤدى ذلك الى تخفيض أجرتهم ، أما أجرة درس الأرز فغالبا مايدفع للعامل عن الفدان الواحد قدر معلوم من حزم الأرز[٢٣] أى أن الأجر يدفع عينا •

أما عن زراعة الشعير، فقد وجدت فى رشيد ، وبلغ انتاج الفدان من ثمانية الى عشرة أرادب ، ويصدر من رشيد ودمياط والقصير[٢٤] ، ويزرع الحمص أيضا ، ويستخدم كغذاء للفلاحين ، كما هو الحال فى مدن أخرى كالقاهرة ودمياط ومدن الدلتا[٢٥] • ووجدت زراعات أخرى مثل السمار التى كثرت زراعته فى ضواحى رشيد ودمياط ، وأطراف بعض الواحات بالصحراء الغربية ، الذى يصنع منه أجود أنواع الحصر[٢٦] •

أما عن الصناعة فقد كانت فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، بدائية تعتمد على عدد قليل من العمال لتزويد السكان بما يحتاجون اليه من غذاء وكساء وأدوات منزلية • وكانت تعتمد — الصناعة — فى المقام

---

(٢٢) المرجع السابق ، ص٦١ . **بوطاقة** : وهو الريال أبو طاقة نسبة للنافذة أو الطاقة (أنظر عبد الرحمن فهمى ، المرجع السابق ، ص٥٧٨) .

(٢٣) جيرار ، المرجع نفسه ، ص٦٤ .

(٢٤) المرجع نفسه ، ص٦٢ .

(٢٥) المرجع نفسه ، ص٦٨ — ٦٩ .

(٢٦) أحمد أحمد الحتة ، تاريخ الزراعة فى عهد محمد على الكبير ، ص ٢١٣ .

الأول على القوى العضلية والمواشى ، واستخدم بعض المهاجرين الأجانب قوة الهواء فى ادارة الطواحين بها[٢٧] .

وكانت صناعة ضرب الأرز وتبييضه تتركز فى رشيد[٢٨] ، وانتشرت صناعة المنسوجات الحريرية فى كثير من المناطق الشمالية من الوجه البحرى نظرا لسهولة استيراد الحرير من سوريا[٢٩] ، وملاءمة تلك المناطق للتصدير الى أسواق الأقطار المجاورة ، وقد أصبح لبعض القرى شهرة واسعة بالصناعات مثل منوف ، محلة مرحوم ، وبربة ، وأبيار ، وبيسون ، وسمنود ورشيد ، ودمياط وأنشاص[٣٠] . ووجدت صناعة التيل والمنسوجات الكتانية[٣١] ، كما تصنع رشيد كذلك نوعا من أقمشة كتانية بها خطوط من الحرير الأبيض ، تستخدم بصفة خاصة ، فى صنع قمصان النساء[٣٢] كما يصنع من الكتان قلوع المراكب ، ويفضل من كان يصنع فى رشيد[٣٣] .

وكان لهذه الحرفة شيخ من أقدم المشايخ يتولى شئونها ويفصل فى المنازعات القائمة بين أفراد حرفته ، ويوزع عليهم الضرائب شأنه فى ذلك شأن شيخ أى حرفة أخرى[٣٤] كما قامت صناعة تمليح السمك[٣٥] ،

---

(٢٧) على الرجيتلى ، تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ص١٦ — ١٧ .

(٢٨) عبد الرحيم عبد الرحن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص١٨٢ .

(٢٩) سجل رقم ١٨ مادة ٢٦٧ ، ص٩٢ ، بتاريخ ١٣ رجب عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢ م .

(31) Shaw, op. cit., p. 132

(٣٢) جيرار ، المرجع السابق ، ص٢٠٨ .

(٣٤) محمد فهمى لهيطة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، ص٣٤ . وللمزيد من التفصيلات ، أنظر صلاح أحمد هريدى ، الحرف والصناعات فى عهد محمد على ، ص٣٩ — ٥٣ .

(٣٥) على الجريتلى ، المرجع السابق ، ص١٩ .

ووجد بصناعة السكر الذى كان يصدر الى الخارج[٣٦] وصنعت المراكب فى رشيد[٣٧] ، ويطلب بعض البحارة من مطوبس صناعتها فى رشيد ، ويرجع ذلك الى خبرة الأهالى الطويلة فى هذه الصناعة[٣٨] .

أما عن التجارة ، فكانت هناك تجارة داخلية ، وتجارة خارجية ، فالتجارة الداخلية تنحصر فى تبادل منتجات أقاليم مصر ، بين مدينة وأخرى ، فى أسواق عامة تقوم فى يوم محدد من أيام الأسبوع ، حيث يتوجه الى هناك من كل مكان البائعون والمشترون ، فتتم عمليتا البيع والشراء وأحيانا يتم البيع عن طريق المقايضة أما بسلعة زراعية أو صناعية أو البيع بالنقود . ويلاحظ أنه ليست لمدينتى رشيد ودمياط على الاطلاق أسواق بمعنى الكلمة لشئون التجارة الداخلية ، لكنهما مستودعات لتجارة دول أوربا وشعوب سوريا[٣٩] . بالاضافة الى ذلك وجد برشيد مؤسسات أوربية لمختلف الدول وذلك فى القرن السادس عشر ، وخاصة البنادقة حيث كان لهم فندق خاص بهم ، ويرجع ذلك لتفوق تجارتهم مع رشيد على سائر الدول الأخرى ، وازدادت الفنادق الأوروبية الأخرى فى مدينة رشيد فى القرن الثامن عشر[٤٠] .

ولذلك وجدت تجارة الأرز ، وقام بعض أهالى رشيد والبرلس من البحارة بعملية النقل الى الاسكندرية ، وكان التجار العثمانيون لهم نصيب كبير فى هذه التجارة ، وأحيانا يختلفون معهم على دفع بقية الأجر المتفق عليه ، وينتهى بهم الأمر بالالتجاء الى المحاكم التى تصدر أحكاما ضدهم بايداعهم فى السجن لعدم التزامهم بدفع بقية المحاكم التى تصدر

---

(٣٦) محمز زيتون — المرجع السابق ، ص١٢٧ .
(٣٧) سجل رقم ١٩ ماذد ٤٥٧ ، ص١٨٥ ، بتاريخ ١٧ محرم عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م .
(٣٨) سجل رقم ١٧ ، مادة ٦٧٤ ، ص٢٢٥ بتاريخ ١٨ محرم عام ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م .
(٣٩) جيرار ، المرجع السابق ، ص٢١٠ .
Shaw, op. cit. , p. 143 .
(٤٠) محمد محمود زيتون ، المرجع السابق ، ص١٢٩ .

أحكاما ضدهم بايداعهم فى السجن لعدم التزامهم بدفع بقية الأجر المتفق عليه[٤١] • ويرجع ذلك الى نزاهة القضاء فى تلك الفترة ، واننا نجد أن السبب يرجع فى ذلك ، الى أن القضاء لم يضيع حقوق الناس حتى لو كان هؤلاء من العثمانيين أنفسهم • واشتغل بعض التجار من أهالى البلاد فى هذه التجارة أيضا[٤٢] • وصدر الأرز الى أزمير ، ففى تلك الحالة تدفع الأجرة هنا بالعثمانلى الأستانبولى[٤٣] ، ويحدث أن بعض المراكب كانت تخشى من الغرق أثناء رحلتها ، فتضطر الى القاء بعض حمولتها فى البحر(٤٤) •

ووجدت تجارة القمح الشامى[٤٥] ، والشىء الملفت للنظر أن بعض المغاربة المقيمين برشيد قد اشتغلوا فى هذه التجارة[٤٦] ، ويرجع ذلك الى الأرباح الهائلة التى تجبى من الاشتغال فى هذه التجارة ، وصدر القمح

---

(٤١) سجل رقم ٦ مادة ٢٢ ، ص٢ بتاريخ ٢٩ صفر عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م ، سجل ٣٢٢ ، ص١٠٧ بتاريخ ١٧ رمضان عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م •

(٤٢) سجل رقم ٧ ، مادة ٢٥٠ ، ص١٠٨ بتاريخ ١٥ ربيع الأول عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م ، سجل رقم ١١ مادة ١٠١٨ ، ص٢٥٠ بتاريخ أول ذى الحجة الحرام عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م ، سجل رقم ٥٥ ، مادة ٣٩ ، ص١٦ بتاريخ ٨ ربيع الأول عام ١٠٩٦هـ / ١٦٨٤م •

(٤٣) **عثمانلى :** اسم لعملة تركية فضية ، تسكت فى عصر السلطان عثمان الثانى (١٠٢٨هـ / ١٦١٨م — ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م) ، وسكت بمعرفة بكير افندى بناء على الفرمان الصادر فى غرة المحرم ١٠٢٨هـ / ١٦١٨م بعد سبعة اشهر من جلوس السلطان • (أنظر ابراهيم سلطحى ، تاريخ مصر العثمانية ، ص٢٠٢ ، وكان العثمانلى يساوى نصف بارة (ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٤٥٠) •

(٤٤) سجل رقم ١٢ مادة ٣٨٠ ، ص١٣٧ بتاريخ ٨ صفر عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٠م •

(٤٥) سجل رقم ١١ ، مادة ٩٦٨ ، ص٢٣٩ ، بتاريخ ٢٢ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

(٤٦) سجل رقم ١١ ، مادة ٨٩٣ ، ص٢٢٦ ، بتاريخ ١٣ ذى القعدة الحرام عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م ، مادة ١١٦١ ، ص٢٨٣ ، بتاريخ ١٥ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

الى الخارج ، ولكن عند حدوث أزمات اقتصادية ، كما حدث فى عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م ، صدرت الأوامر بعدم تصديره ، ومن أجل هذا الغرض أجريت عملية التفتيش للسفن المسافرة للخارج ، للتأكد من عدم تصديره (٤٧) بالاضافة الى ذلك وجدت تجارة الدقيق ، الذى كان يباع على أقساط شهرية وخصوصا للحمامين ، الذين كانوا يتباطئون فى بعض الأحيان فى دفع بقية الأقساط ، وينتهى الأمر بهم فى النهاية بايداعهم فى السجن(٤٨) • ولم يكن بعض الحمامين وحدهم يتباطئون فى دفع ما عليهم من ثمن الدقيق أو القمح ، ولكن يحدث ذلك فى بعض الأهالى (٤٩) • ووجدت تجارة الفول أيضا(٥٠) •

أما عن تجارة المواد الغذائية ،فكان لأهل رشيد نصيب فيها ، وعلى هذا فقد وجدت تجارة السكر ، الذى كان يرد اليها من فوه(٥١) ربما كان يصنع هناك أو يجلبه التجارة الى فوه ومن هناك ينقل الى رشيد بغرض التجارة ، ووجد تجارة القصب ، والتى كانت أحيانا تتم بالمشاركة(٥٢)

---

(٤٧) سجل رقم ٧ ، مادة ٢٥٨ ، ص١١٢ بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م •
وكان ذلك ابان حكم على باشا الصوفى (٩٧١هـ / ١٥٦٣م — ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م) •

(٤٨) سجل رقم ٨ ، مادة ٥١٥ ، ص١٧٧ بتاريخ ١١ جمادى الثانية ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م •

(٤٩) سجل رقم ٥ ، مادة ٥١٢ ، ص٢٢١ ، بتاريخ ١٥ ربيع الثانى ١٠٣٨هـ / ١٦٢٨م •

(٥٠) سجل رقم ٨ ، مادة ٤٥ ، ص١٦ بتاريخ ١٢ محرم ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م سجل رقم ١٧ مادة ٢٩ ، ص٧ بتاريخ ١٩ رجب ٩٨٩هـ / ١٥٨١م •

(٥١) سجل رقم ١١ ، مادة ١٣٦ ، ص٤١ ، بتاريخ ٢١ رجب ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

(٥٢) سجل رقم ٩ ، مادة ٦٦٢ ، ص٢١٢ ، بتاريخ ٨ رمضان ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م ، سجل رقم ١١ مادة ٨٨٠ ، ص٢٢١ ، بتاريخ ١٦ ذى القعدة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م ، مادة ٨٩٩ ، ص٢٢٦ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

وتاجروا أيضا فى العسل الأبيض[٥٣] • ويبدو أن الانتاج المحلى من العسل لم يكف الاستهلاك الفعلى ، فجلبوا كميات كبيرة من القاهرة[٥٤] • وانتشرت تجارة العجوة ، وكانت فى بعض الأحيان فاسدة[٥٥] ربما كان الهدف من ذلك عملية الغش التجارى ، أو الحصول على أكبر قدر ممكن الأرباح ، وفى تلك الحالتين يدخل هذا أو ذاك السجن • ويلاحظ أن العجوة لم تكن السلعة الوحيدة الفاسدة ، ولكن وجدت بعض السلع الأخرى الفاسدة مثل الجبن وغير ذلك[٥٦] • ويرجح أن يكون فساد السلعة ليس ناتجا عن الغش التجارى أو الحصول على الأرباح الكثيرة ، ربما يكون ذلك راجع الى ظروف ليس للبائع أى هدف منها ، مثل العوامل الجوية مثلا ، أو سوء التخزين • ويلاحظ أنهم أحيانا يستوردون الجبن من بعض الدول الأوروبية وخصوصا قبرص[٥٧] •

ووجدت تجارة الياميش وخصوصا الجوز القبرصى ، وأحيانا يكون مغشوشا ، وعلى هذا يطالب المشترى بالتعويض اللازم الناتج عن هذا الغش ، ويدافع البائع عن نفسه أنه لم يعلم أنه — الجوز — كان مغشوشا[٥٨] • ومن الملاحظ أيضا أنه قد انشئت شركة مشاركة

---

(٥٣) سجل رقم ١١ مادة ٩٣٩ ، ص٢٣٤ بتاريخ ١٧ شوال عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م ، مادة ٩٦٢ ، ص٢٣٨ ، بتاريخ ٢٦ ذى القعدة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م ، مادة ٩٨٨ ، ص٢٤٤ بتاريخ ٢٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م سجل رقم ١٢ مادة ٢١٢ ، ص٢٧٩ بتاريخ ٧ محرم عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م •

(٥٤) سجل رقم ١١ مادة ٦٧٦ ، ص١٧٥ بتاريخ ١١ شوال عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

(٥٥) سجل رقم ١١ مادة ٦٤٨ ، ص١٦٦ ، بتاريخ ١١ شوال عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

(٥٦) سجل رقم ٥ مادة بدون رقم ، ص١٩٨ بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م •

(٥٧) سجل رقم ١٨ مادة ١٢ ، ص٥ بتاريخ ٦ جمادى الأولى ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م •

(٥٨) سجل رقم ٥ مادة بدون رقم ، ص١٩٨ بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م •

للتجارة فى الكتان والعجوة ، وبذا يكون الهدف التجارى ليس قائما على مجال التخصص ، فنجد أن الشركاء من السقايين والاخر من البرلس ، ويذكر قيمة رأس المال العينى والنقدى ، ويحدث أن يختلف الشريكان نتيجة أن أحدهم قد أخل بشروط الاتفاق فيما بينهم ، مثل قيامه ببيع بعض الأصناف أثناء غياب شريكه ، دون علمه ، وعلى هذا يطلب الشريك ، فصل الشركة ، ودفع التعويض المناسب[٥٩] •

وكانت بعض السلع تباع بالمقايضة مثل التمر ، الذى يباع بالمقايضة على ورد ، فيدفع جزءا من السعر بالورد ، ويقسط الباقى على أيام[٦٠] • ويرى الباحث أنه بالرغم من أنه قد جرت العادة على عملية البيع بالتقسيط الشهرى فى بعض السلع الا أننا نرى أنه ربما يكون سعر البيع نفسه قليلا ولايستحق التقسيط على آجال شهرية ، ولهذا يقسط على أيام ، أو أن الدافع لذلك هو تسديد الثمن بأقصى سرعة •

أما تجارة « البكسماط » فتاجر فيها بعض المغاربة المقيمين برشيد، كما أنهم عملوا كوكلاء لحلبيين مقيمين بالقسطنطينية ، ويشترون بموجب هذا التوكيل[٦١] وبخصوص البكسماط الذى يتم توريده للعمارة الشريفة ، فنجد الأوامر الصادرة دائما بضرورة الاهتمام بتوريد القمح الخاص بصناعته وتوريده[٦٢] • وكان بعض الأهالى يبيع بأقساط شهرية،

---

(٥٩) سجل رقم ١٤ مادة ١١٦٥ ، ص٣٥٧ بتاريخ ١٥ ربيع الثانى ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م •

(٦٠) سجل رقم ١٢ مادة ٤١٧ ، ص١٤٧ ، بتاريخ ١٦ صفر ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م ، سجل رقم ١٨ مادة ٧٧ ص٢٦ بتاريخ ١٧ رمضان عام ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م •

(٦١) سجل رقم ١٢ مادة ٣٦٧ ، ص١٣٢ ، بتاريخ ١٧ صفر ٩٨٦هـ / ١٥٧٨ م •

(٦٢) سجل رقم ١٥ مادة ١٤ ، ص٩ بتاريخ أول ذو القعدة عام ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م •

ويتباطأ بعضهم فى دفع بقية الأقســاط ، وينتهى بهم الأمر الى ايداعهم فى الســجن[٦٣] •

ووجدت تجارة الزيت الحار ، ويباع غالبا على أقساط شهرية[٦٤] ، واشتغل المغاربة فى تجارة السيرج ، وخصوصا مع بعض اليهود الربان ، الذين يصرون على أن تكون المعاملة بالدينار الذهبى الجديد[٦٥] • ويرى الباحث أن السبب فى ذلك يرجع الى حرص اليهود الى المعاملة بالعملة الذهبية ، حرصا منهم على الاحتفاظ بقيمتها الاقتصادية ، وخصوصا أن بعضــهم كانوا صــيارفة ، فمن الطبيعى أن يعرفوا قيمة العملة •

أما تجارة البن اليمنى ، الذى يتم استيراده عن طريق ميناء القصير ثم ينقل بعد ذلك الى قنا ثم الى القــاهرة(٦٦) ثم يوزع بعد ذلك الى البلاد ومنها الى رشيد[٦٧] • ووجدت تجــارة البيض ، الذى كان يورد للحلوانية[٦٨] وهذا يرجع الى طبيعة عملهم لأن البيض يستخدم فى صناعة الحلوى • كما اشتغل بعض المغاربة فى تجارة الخضار ، حتى أنهم اشتهروا بتلك التسمية ، ويطلق عليهم أحيانا المغربى الخضرى ، وأحيانا يبيعون خضارا فاسدا ، وينتهى بهم الأمر الى معاقبتهم على ذلك[٦٩] أما

---

(٦٣) سجل رقم ١٦ ، مادة ٤٥٥ ، ص١٨٥ بتاريخ ١٧ محرم ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م •

(٦٤) سجل رقم ٦ مادة ٣٥٦ ، ص١٤٥ بتاريخ ١٦ صفر عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م •

(٦٥) سجل رقم ١٢ مادة ٤٤٠ ، ص١٥٤ بتاريخ ١٨ صــفر عــام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م •

(٦٦) جيراز ، المرجع السابق ، ص٣٠١ •

(٦٧) سجل رقم ١١ مادة ٩١٣ ، ص٢٢٨ بتاريخ ٢١ ذى القعــدة عــام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

(٦٨) سجل رقم ١٤ ، مادة ٦٨٧ ، ص٢٠٠ بتاريخ ١٦ رمضان عــام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م ، سجل رقم ١٦ مادة ٥٦٤ ، ص٢٢ ، بتاريخ ١٤ شعبان عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م •

(٦٩) سجل رقم ١١ مادة ٦٣٥ ، ص١٦٧ بتاريخ ١٢ شــوال عــام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

تجارة الليمون الملح (المخلل) فكانت موجودة وخصوصا أنها كانت تورد الى البقالين[٧٠] ويرجع هذا لطبيعة عملهم • بالاضافة الى ذلك وجدت تجارة الزبيب الأسود ،ويلاحظ أن بعض الحجازيين وخصوصا الجدوين ، تعاملوا فى هذه التجارة مع بعض الأروام ، وأحيانا أن يضيع منها بعض العبوات أثناء الشـــحن[٧١] •

وكان لأهل الذمة المقيمين برشيد ، نصيب فى التجارة وخصوصـــا اليهود ، فقد تاجروا فى الخيار الشنبر[٧٢] ، بالاضافة الى ذلك فقد تاجروا فى الخمور ، وخاصة الخمور المستوردة من ســالونيك ، ويلاحظ أنهم قاموا فى التجارة كوكلاء عن بعض التجار الأوروبيين المقيمين بالخارج[٧٣] ويرجع السبب فى ذلك لسبب ديني ، لأن المسلمين كرهوا بيع الخمور ، وعـــلى هـــذا فقد تركت هذه التجارة لأهل الذمة ، ويتضــــح ذلـــك فى أن بعض التجار الأوروبيين المقيمين برشيد وخصوصا القبارصـــة يشتغلون أيضا بهذه التجارة ، ويحدث أحيانا بيع الخمور بالمقايضـــة بالكتان ، ويتم تحديد السعر لكل من السعرين ، ثم يدفع الفـــرق بين السعرين ، وتتم هذه العملية غالبا بين الأوروبيين[٧٤] •

وبعد فهذه أمثلة على سبيل المثال لا الحصر ، لبعض الأنشـــطة

---

(٧٠) سجل رقم ١٦ مادة ١٠١١ ، ص٣٧٤ بتاريخ ٢ جمادى الثانية عام ٩٥٥هـ / ١٥٨٦م •

(٧١) سجل رقم ١٧ ، مادة ٨٢٥ ، ص٢٧٣ بتاريخ ١٦ صفر عـــام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م •

(٧٢) سجل رقم ٩ مادة ٦٦٤ ، ص٢١٣ بتاريخ ٨ رمضان عام ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م (خيار شنبر هو نبات ملين (أنظر ليلى عبد اللطيف المرجع السابق ص ٤٤٦) •

(٧٣) سجل رقم ١٤ مادة ١٩ ، ص٥ بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م ، ســـجل رقم ١٧ مادة ١٢٣ ، ص٣٩ بتاريخ ١٧ شـــعبان عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م •

(٧٤) سجل رقم ٤ مادة ١٧٨ ، ص٥٦ ، بتاريخ ١٩ جمادى الثانى عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

التجارية الخاصة بتجارة بعض المواد الغذائية التى كان يتعامل بها أهل رشيد أو العرب المقيمين بها ، وبعض أهل الذمة سواء كانوا من أهل البلاد أو من البلاد الأوروبية . وان كانت هناك تجارة فى بعض السلع الأخرى مثل تجارة الشمع الذى كان يستورد من أماليا (ايطاليا) فكان له نصيب للتجارة فى رشيد[٧٥] . وكانت بعض النساء تعمل فى تجارة الشمع ، ففى تلك الحالة توكل بعض الرجال فى استلام مايخصها من الثمن ، أو تحصيل مايتبقى من أقساط[٧٦] .

أما تجارة المنسوجات فقد تمثلت فى تجارة الكتان والجوخ والحرير والصوف ، وغير ذلك من المنسوجات الأخرى ، ولذلك فقد ازدهرت تجارة الكتان فى رشيد نظرا لشهرتها فى تلك الصناعة[٧٧] ويصدر للخارج[٧٨] ، وقد كان للاوروبيين نصيب فى هذه التجارة ، واتبعوا أساليب ملتوية مع الأهالى ، مثل التقليل من سعر البضاعة ، وفى هذا المجال نجد أن المغاربة قاموا بأعمال الترجمة بين الأوروبيين والأهالى[٧٩] . وبعد الاتفاق على البيع يشحن الكتان للاسكندرية ، وأحيانا يتعرض للنقص

---

(٧٥) سجل رقم ١٢ ، مادة ٨٩٦ ، ص٢٢٥ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

(٧٦) سجل رقم ١٨ ، مادة ٣ ، ص٢ بتاريخ ١٤ جمادى الأولى ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م .

(٧٧) سجل رقم ١١ ، مادة ١٠٤٣ ، ص٢٥٥ بتاريخ ٧ ذى الحجة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

(٧٨) سجل رقم ٧ ، مادة ٢٥٨ ، ص١١٢ بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م .

(٧٩) سجل رقم ٨ ، مادة ٥٠٢ ، ص١٧٣ بتاريخ ١٠ جمادى الثانى عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م ، مادة ٥٢٤ ، ص١٧٩ بتاريخ ١٢ جمادى الثانى ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م ، سجل رقم ٩ ، مادة ٥١١ ، ص١٨٣ بتاريخ ٢٩ ربيع الثانى عام ١٠١١هـ / ١٥٩٣م .

أثناء الشحن ، أو يحدث خلافا على أجرة الشحن[٨٠] • ويحدث أحيانا أن تتم المقايضة على بيع غزل منسوجات فى بلاد الشام على أن يتم استيراد بدلا منها حرير ، ويراوغ المشترى ولايورد الحرير ، ويدعى بأنه قد دفع الثمن ، ولم يحدث عملية المقايضة [٨١] • وبخصوص تجارة الجوخ المستورد من الهند ، فيباع على أقساط شهرية نظير رهن عقار المشترى ، حتى يتم تسديد بقية الأقساط[٨٢] • ويرى الباحث أن السبب فى ذلك ربما يؤدى الى أزمة الثقة بين الاثنين نتيجة لتعامل سابق ، أو يرجع الى ضخامة الكمية المباعة ، فعلى هذا الأساس أراد البائع أن يضمن حقه فرهن عقار المشترى ، أو ربما أراد أن يضمن حقه فى حالة وفاة المشترى ، وهذا لايمكن الأخذ به لأن البائع نفسه لايضمن عمره• ووجدت أيضا تجارة أغطية الرأس للسيدات والتى كانت لها شهرة وخاصة الأغطية الحجازية [٨٣] • ووجدت تجارة الصوف المغربى الذى كان له شهرة فى تلك الفترة وخلط بالكتان[٨٤] • واستخدم فى صناعة الأحرمة الصوفية •

ووجدت أيضا تجارة الأخشاب ، ويلاحظ أن بعض الأوربيين وخصوصا الايطاليين كانوا يقومون بعملية الاستيراد والتعامل مع التجار

---

(٨٠) سجل رقم ٥ مادة بدون رقم ، ص٢٣ بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٨٩هـ / ١٥٨١م ، سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٤٨ ، ص٣٨٣ ، بتاريخ ١١ جمادى الثانى عام ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م ، سجل رقم ٧ ، مادة ٦٧ ، ص٢٢٤ بتاريخ ١٨ محرم عام ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣ •

(٨١) سجل رقم ١٨ مادة ١١٨٣ ، ص٣٨٤ ، بتاريخ مستهل ربيع الأول عام ٩٩١هـ / ١٥٨٣م •

(٨٢) سجل رقم ١٦ ، مادة ٤٧٧ ، ص١٩٣ بتاريخ ٢٣ محرم عام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م •

(٨٣) سجل رقم ٧ ، مادة ١٢٥ ، ص١٢٩ بتاريخ ١٦ شعبان عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م •

(٨٤) سجل رقم ١٤ ، مادة ١٤٧ ، بتاريخ ١١ شعبان عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م •

من أهالى المدينة[٨٥] ، كما أن التجار يقومون ببيعها بالأجل والدفع بعد مدة معينة[٨٦] ، ويتعهد الأهالى بتوريد الخشب اللازم للترسخانة (الترسانة) ، وفى تلك الحالة يورد الخشب بصفة عاجلة دون أى تباطىء أو اهمال ، ومن يهمل ذلك يعامل بحزم ، كما يورد معه الزفت[٨٧] وتاجر بعض الحدادين فى أدوات المعمار مثل المسامير(٨٨) ، كما قام بعض التجار المغاربة المقيمين برشيد بالتعامل فى هذه التجارة التى كانت تباع أيضا على آجال ، ونجد مندوب البائع هنا يكون بعض القبانية[٨٩] .

أما تجارة المرايات ، فقد كانت تستورد من الخارج ، ولن لم يذكر اسم البلد المستورد منها ، ولكن يلاحظ أن بعض المغاربة الصنهاجيين والحجازيين يؤخذ بشهادتهم فى حالة الخلاف[٩٠] .ووجد للتجار الأوروبيين المقيمين برشيد نصيب أن بعض العبوات كانت ناقصة الميزان ويحدث خلافا على ذلك[٩١] .

واذا كانت رشيد قد قامت بدور هام ، فى أدوات المعمار وغير ذلك ، فاننا نجد أنها قامت بدور هام أيضا فى تجارة الحيوانات ، وخاصة

---

(٨٥) سجل رقم ١٤ ، مادة ٦٧٩ ، ص٢٠٠ ، بتاريخ ١٦ رمضان عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م ، سجل رقم ٨ ، مادة ٢٧٣ ، ص٤١٢ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م .

(٨٦) سجل رقم ١٤ مادة ٦٨٩ ، ص٢٠٦ بتاريخ ٢٠ رمضان عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م .

(٨٧) سجل رقم ١٥ ، مادة ١٩ ، ص٢٤ ، بتاريخ أواسط جمادى الأول عام ٩٨٩هـ / ١٥٨١م .

(٨٨) سجل رقم ١٦ ، مادة ٩٤٠ ، ص٣٤٩ ، بتاريخ ٥ ذى القعدة الحرام عام ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م .

(٨٩) سجل رقم ١٦ مادة ٩٤٠هـ ، ص٣٤٩ ، بتاريخ ٥ ذى القعدة الحرام عام ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م .

(٩٠) سجل رقم ١٣ مادة ٢١٩ ، ص٨٢ بتاريخ ١٦ محرم ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م .

(٩١) سجل رقم ٧ مادة ٧٦ ، ص٢٧ بتاريخ ١٦ ربيع الأول عام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م .

الجمال ، فيذكر دائما عددها ولون كل منها ، ومواصفاتها ، ومن الملاحظ هنا أن الذى يقوم بعملية البيع والشراء بعض العربان ، وكان البيع بالفضة الجديدة ، وأحيانا بالمقايضة بأثوار ، مع دفع فرق السعر بالفضة ، وذلك بالاتفاق بين البائع والمشتري[٩٢] . ويرجع ذلك الى أنهم يفضلون التعامل بالفضة ، ولم يكن العربان وحدهم في هذا المجال ، ونجد بعض الأهالي يشتغلون بهذه التجارة ، وغالبا المشتري هنا يكون من العربان نظرا لظروفهم واحتياجهم للجمال في حياتهم اليومية[٩٣] ، كما قايضوا الجمال على حيوانات أخرى مثل البغال[٩٤] . كما تاجر فيها بعض الأهالي[٩٥] .

ولتجارة البغال نصيب في هذه التجارة ، ويذكر بها العيوب ان وجدت وتتم عملية البيع أحيانا على أقساط شهرية ، وأحيانا أخرى بالرغم من اتفاق البائع على البيع بالتقسيط الا أنه لم يسلم له البغل ، الا بعد تسديد جميع الأقساط من جانب المشترى ، ولانعرف سببا لذلك ، ربما يرجع لعدم الثقة بينهم ، أو أن يكون ذلك راجعا الى تعامل سابق بينهما ، وحدثت بعض المتاعب فى السداد ونظرا لاحتياج أهل الحرف للبغال وخصوصا الطحانيين ، فقد تاجروا فيها سواء بالبيع أو الشراء ، وبالرغم من البيع بالتقسيط دون الرهن ، فان المشتري قد يتباطأ فى

---

(٩٢) سجل رقم ٥ مادة ٢٧٣ ، ص١٠٠ ، بتاريخ ٣٠ شوال عام ٩٦٩هـ / ١٥٦١م ، سجل رقم ٦ مادة ١٥٧ ، ص٦٢ بتاريخ ١٧ ربيع الثانى عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م .

(٩٣) سجل رقم ١٦ مادة ١١٢٦ ص٤١٣ ، بتاريخ ١٤ ذي الحجة عام ١١٠٣هـ / ١٦٠٤م .

(٩٤) سجل رقم ٨ ، مادة ٣٢٣ ، ص٨٢ ، بتاريخ ٢ جمادى الأول عام ٩٧٣هـ / ١٥٧٥م ، سجل رقم ١٧ مادة ٤٥٨ ، ص١٥٦ ، بتاريخ ٩ ذى القعدة عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م .

(٩٥) سجل رقم ١٨ ، مادة ٧٩١ ، ص٢٦٦ ، بتاريخ ٢٣ ذي القعدة عام ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م

الدفع ، ففى تلك الحالة فالبائع ليس أمامه الا أن يلجأ للقضاء[٩٦] • ومن الملاحظ أن بعض الشوام المقيمين برشيد ، قد ساهموا فى هذه التجارة ، التى كانت تتم أحيانا بالمقايضة • ووجدت تجارة الأحصنة أيضا[٩٧] ، بالاضافة إلى ذلك فكان لتجارة الحمير نصيب فى هذه التجارة ، وخاصة أنه كان يمثل وسيلة النقل الوحيدة فى تلك الفترة ، وكانت تجارته سائدة بين المكارين[٩٨] أو بينهم وبين الأهالى ، وتباع على أقساط شهرية متفق عليها[٩٩] وأحيانا يدخل بعض الصعايدة فى هذه التجارة[١٠٠] ، كما تباع الحمير لبعض الادكاوية[١٠١] •

واعتمدت تجارة الجلود أساسا على جلود الثيران والبقر[١٠٢] ، ويتم البيع أحيانا على أساس المقايضة ، أما على الثيران وجلودهم مع بعض المحصولات الزراعية مثل القمح وغير ذلك من المحصولات

---

(٩٦) سجل رقم ٨ ، مادة ٢٢٣ ، ص٨٢ ، بتاريخ ٢ جمادى الأول عام ٩٧٣هـ / ١٥٧٥م •

(٩٧) سجل رقم ١١ ، مادة ١٢٠٣ ، ص٢٩٦ ، بتاريخ ١ محرم عام ٩٧٩هـ / ١٥٣١م •

(٩٨) سجل رقم ١١ ، مادة ٥٢٠ ، ص١٥٠ بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •
، سجل رقم ١١ ، مادة ١٢٧٤ ، ص٣١٦ ، بتاريخ ١٩ محرم عام ٩٧٩هـ / ١٥٧١م •

(٩٩) سجل رقم ١٣ مادة ١٧٢ ، ص٧٤ بتاريخ ١٧ رجب عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م •

(١٠٠) سجل رقم ١٤ مادة ٤٧٢ ، ص٨٤ ، بتاريخ ٥ رجب ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م •
، مادة ٨٨٣ ، ص٢٥١ ، بتاريخ ٤ ذى القعدة ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م ، مادة ٧٨٤ ، ص٢٥٢ بتاريخ ٤ ذى القعدة عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م •

(١٠١) سجل رقم ١٦ مادة ٢٩٣ ، ص١٢١ ، بتاريخ مستهل شعبان عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م •

(١٠٢) سجل رقم ١٧ مادة ٩١٠ ، ص٣٠٣ بتاريخ سلخ ربيع الأول عام ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م •

(١٠٢) سجل رقم ٦ ، مادة ١١٠ ، ص٤٥ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م •

الأخرى[١٠٣] • وتاجر التجار الأوروبيين وخصوصا الفرنسيين فى هذه التجارة ، الذين كانوا يقومون بالشراء على أقساط شهرية ، ويتباطأ بعضهم فى دفع بقية الأقساط ، وينتهى الأمر بايداعهم فى السجن[١٠٤] بالاضافة الى ذلك وجدت تجارة العصيان من الخيزران[١٠٥] •

كما كانت هناك تجارة من نوع غريب ، الا وهى تجارة الشعر ، فيتفق مع بعض الشعراء على كتابة عدد من الأبيات بسعر معين ،ولكن بعد الانتهاء من الكتابة ، لايدفع بقية الأجر المتفق عليه[١٠٦] ويرجع ذلك اما أن يون ناتجا لعدم تذوقهم الشعر ، واما أن يفعلوا ذلك بغرض التسلية •

أما تجارة العبيد والجوارى ، فقد وجدت هذه التجارة ، ومن الملاحظ أنه لم يذكر أحيانا جنسية العبد أو الجارية التى تباع ، بالرغم من تحديد سعر البيع ، ويتم أحيانا البيع على أقساط شهرية[١٠٧] ففى تلك الحالة يباع العبد المجهول الجنسية بمبلغ أقل[١٠٨] ربما يرجع ذلك الى أنه ـ العبد ـ أراد صاحبه أن يتخلص منه ، أو أن يكون ذلك مرجعه لعملية المساومة التى تتم بين البائع والمشترى ، أو أن يكون به بعض العيوب الخلقية • ويلاحظ أن عملية البيع بالأجل يحدث بعض

---

(١٠٣) سجل رقم ٦ ، مادة ٦٢٠ ، ص٢٥٨ ، بتاريخ ١٢ ذى الحجة عام ١١٠٣هـ / ١٦٠٤م •

(١٠٤) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩٨ ، ص٩٣ بتاريخ ٢٣ رجب عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

(١٠٥) سجل رقم ١٤ ، مادة ٢٠١ ، ص٦٣ بتاريخ ٢٣ جمادى الثانى عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م

(١٠٦) سجل رقم ١٤ ، مادة ١٩٠ ، ص٦٠ ، بتاريخ ٢١ جمادى الثانية عام ٩٩٨٧هـ / ١٥٧٩م •

(١٠٧) سجل رقم ٦ ، مادة ٢١ ، ص٨ ، بتاريخ ٢٩ صفر عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م •

(١٠٨) سجل رقم ٦ ، مادة ٢٦ ، ص١٥ ، بتاريخ ١٥ ذى الحجة الحرام عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م •

الخلافات على دفع بقية الأقســـاط ، وينتهى بهم الأمر الى الالتجاء القضاء[١٠٩] ومن السمات الواضحة أن سعر الجارية كان مرتفعا[١١٠] . وتتم عملية الشراء أحيانا عن طــريق المقايضة ، يدفع مبلغــا مقدما من السعر المتفق عليه ، ويتم تسديد الباقى من مصنوعات مستوردة مثــل الجوخ الجزائرلى ، أو مصنوعات محلية مثل الأقمشة القطنية[١١١] .

ولم تكن تجارة العبيد والجوارى ، قاصرة على الأفراد فقط ، بل شملت فى بعض الأحيان أسرة بأكملها ، تشمل الزوج والزوجة والابن ، ويذكر فى تلك الحالة جنسيتهم ، من القبارصة مثلا ، ويعطى وصــفا تفصيليا لهم ، ويكون المشـــــترى هناك أوروبيا[١١٢] ، ومن ثم يطرح التساؤل خصوصا أن عملية البيع تكون فى أغلب الأحوال للمسلمين ، وهنا يحدث العكس ، ربما يكون الهدف من ذلك خشية تحويلهم للاسلام ، ولذلك نجد أن كثيرا من الأوروبيين يتعاملون فى هذه التجارة وخصوصا الايطاليون الذين دفعوا المبالغ من الدينارات الناقصة الوزن ، وينتهى بهم الأمر الى المثول أمام المحاكم ، التى تلزمهم — الايطاليون — بدفع مبالغ أخرى غيرها[١١٣] ، ولم تقتصر تجارة العبيد والجــوارى ، على أفراد أو أسرة كاملة ، ولكنها كانت أحيانا ، جارية بأبنها الرضيع ، وقد تكون خاصة بورث أحد الأبناء عن والدته المتوفية ، ففى تلك الحالة يقوم بالبيع ، والده وخصوصا اذا كان هذا البائع قاصرا ، وتباع — الجارية —

---

(١٠٩) سجل رقم ٦ مادة ٣٠ ، ص٧ بتاريخ ١٦ ذى الحجة الحــرام عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م .

(١١٠) سجل رقم ١٤ ، مادة ٧٣٩ ، ص١٧٨ ، بتاريخ ٢٥ شـــوال عام ٧٩٨هـ / ١٥٧٠م .

(١١١) سجل رقم ٦ ، مــادة ٢٠٦ ، ص٨٢ ، بتاريخ ٢٣ صفر عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م .

(١١٢) سجل رقم ١١ ، مادة ٤٠٩ ، ص١٢٢ ، بتاريخ ١٥ رمضــان عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

(١١٣) سجل رقم ١٣ ، مادة ٢٣ ، ص١٢ ، بتاريخ ١٣ ذى الحجة عام ٩٨١هـ / ١٥٧٣م .

نقدا ويدفع الثمن بعد المعاينة خشية وجود عيوب بها[١١٤] • وقد لوحظ أن بعض المنوفيين كانوا أيضا يتاجرون فى هذه التجارة ، وخصوصا العبيد السود ، ويكتب بعقد البيع وصفا تفصيليا للعبد المباع ، ويصر على دفع الثمن كاملا بعد المعاينة[١١٥] • ولم يكن أهالى مدينة رشيد أو الأوروبيون والمنوفيون وحدهم فى هذه التجارة ، ولكن وجد الى جانبهم بعض المغاربة أيضا ، وخصوصا فى بيع الجاريات ، وكان من حرصهم الشديد ، أنه يذكر بعقد البيع خلو الجارية من أى عيوب وأن المشترى قد فحصها ، ويلجأون لذلك خشية الغش التجارى[١١٦] •

دراسة لبعض الحرف[١١٧] :

ان دراسة موضوع طوائف الحرف فى مصر العثمانية ، تلقى الضوء على جانب هام من جوانب حياة المجتمع المصرى العثمانى ، الذى انقسم فيه المجتمع الى هيئات طائفية كان منها العلماء ، والملاك والتجار ، والصناع ، فجميع الأفراد الذين تضمهم مهنة واحدة ، أو عمل واحد ، أو مذهب دينى واحد ، كانوا ينظمون أنفسهم فى شكل طائفة لرعاية مصالحهم[١١٨] • وقد ضمت الطوائف جميع فئات المجتمع بلا استثناء أو تفرقة ، فاليها كان ينضم المسلمون والمسيحيون واليهود ، واليها كان الرعايا يميلون الى تقديم ولائهم أكثر من تقديمه الى السلطة الحاكمة[١١٩] •

---

(١١٤) سجل رقم ١٨ مادة ٢٦٧ ، ص ٩٢ بتاريخ ١٣ رجب عام ٩٩٠هـ / ١٥٨٢ م •

(١١٥) سجل رقم ١٤ مادة ٨٢ ، ص٢٥ بتاريخ ٤ جمادى الأولى عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م •

(١١٦) سجل رقم ٨ ، مادة ٥٥٢ ، ص١٨٦ ، بتاريخ ١٠ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٤م •

(١١٧) أنظر للمزيد من التفصيلات عن الحرف ، صلاح احمد هريدى على ، المرجع السابق ، ص١٣ — ٢٩ •

(١١٨) ليلى عبد اللطيف أحمد ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ، ابان العصر العثمانى ، ص٥٧ •

(١١٩) المرجع نفسه ، ص٥٧ •

واذا طبقنا نظام الحرف على مدينة رشيد ، فاننا نجد أنها تتبع نفس النظام الذى كان ساريا فى جميع مدن مصر العثمانية ، من حيث تشكيل نظام الطوائف الحرفية ، وكثرت هناك الحرف التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالبيئة مثل « جلفطة المراكب » وتعاملوا أحيانا مع بعض أهالى الأندلس، الذين وفدوا بمراكبهم لرشيد والاسكندرية ، وانتهزوا فرصة رسوهم فى رشيد ، وقاموا بعملية الجلفطة ، واتفقوا على المبلغ المخصص لذلك مثل تحديد أجرة الصانع والعامل وغير ذلك[120] . واشتغل البعض منهم كبحارة على المراكب[121] وتحدد أجرتهم على أساس حمولة المركب[122] .

وكانوا أثناء ابحار المراكب يتعرضون للعواصف الجوية ، مما يجعل البضائع تتعرض للتلف ، كما تتعرض المراكب أحيانا للغرق ، وفي تلك الحالة يضطرون الى تخفيف حمولة المركب بالقاء جزء من حمولتها فى البحر ، وعندما يطلب منهم بيان الغرض من ذلك تكون اجابتهم بالمبررات التى أدت لقيامهم بهذا العمل[123] ولم يقتصر أعمالهم كبحارة في النيل

---

(١٢٠) سجل رقم ١ ، مادة ٢٤٦ ، ص٥٥ بتاريخ ٢٨ رمضان عام ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م .

وتذكر هذه الوثيقة أن أجرة الصانع تتراوح مابين سبعة أنصاف فضة وستة أنصاف فضة ، أما أجرة الصبى اليومية ، فقد تراوحت ما بين نصفين فضة . وبهذا يظهر الفرق الواضح بين أجرة الصانع المحترف وبين أجرة الصبى الذى مازال تحت التدريب .

سجل رقم ١١ مادة ٥٠ صفحات ١٠٨ ، ٢٢٦ .

(١٢١) سجل رقم ٦ مادة ٣١٠ ، ص١٢٤ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م ، مادة ٣١٦ ، ص١٢٤ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م ، مادة ٣١٥ ، ص١٢٦ ، بتاريخ ٨ ربيع الأول عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م .

(١٢٢) سجل رقم ١١ مادة ٩٠٠ ، ص٢٢٦ بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

كانوا يحصلون على نقل جوال الحنا من رشيد الى الاسكندرية ثلاثة أنصاف فضة .

(١٢٣) سجل رقم ٧ ، مادة ٥٥٩ ، ص٢٢٦ بتاريخ ١٥ ذى القعدة الحرام عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

فقط ، أو البحر المتوسط ، للتنقل بين الموانىء الداخلية مثل دمياط والاسكندرية ورشيد ، ولكنهم عملوا كبحارة على مراكب الشختور[١٢٤] ونقلوا البضائع بين موانىء البحر المتوسط مثل من طرابلس الى الاسكندرية وهكذا[١٢٥] ، ومما و جدير بالذكر أن هؤلاء كان رئيسهم أحيانا مغربيا ، ويقوم باقراضهم بعض المبالغ أثناء ابحارهم فى بعض الموانىء ، ويتفق معهم على تسديد هذا المبلغ عند العودة[١٢٦] . وقد يحدث أن يتفق على أجرة حمولة معينة بسعر معين من احدى موانىء البحر المتوسط الى الاسكندرية ، ولكن عند الوصول قد يختلف على السعر[١٢٧] . ويلاحظ أنه لم يستخدم الأهالى فقط كبحارة ، ولكنهم استخدموا بحارة أوروبيون ، وقد يطردوا لسوء سلوكهم أو غير ذلك من الأسباب ، وينتقم منهم بالاستيلاء على بعض حمولة ماتحمله المراكب[١٢٨] . وقد تكون المركب مشاركة بين اثنين ، ويحدث خلافا فيما بينهم بعد ذلك . ويكون أحد الشهود من الحجازيين[١٢٩] . ويشترى

---

(١٢٤) **الشحتور** : وصحتها الشختور وهى من المراكب النيلية التى كانت تستعمل لتعدية الناس فى النيل ، وكانت من مراكب الصيد النيلية ، ولم تكن تستعمل فى مصر ونيلها فحسب ، بل كانت تستعمل ايضاً فى البحر المتوسط ، حيث عرفها البيزنطيون وأهل الشام وغيرها من الأماكن الأخرى (أنظر درويش النخيلى ، السفن الاسلاميةعلى حروف المعجم ، ص٧٤ — ٧٥)

(١٢٥) سجل رقم ٨ مادة ١٤١ ، ص٥١ بتاريخ ٩ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م ، سجل رقم ١١ ، مادة ٢٤١ ، ص٧٠ ، بتاريخ ١١ شعبان ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

(١٢٦) سجل رقم ١١ مادة ٣٢٨ ، ص٩٤ ، بتاريخ ٢٦ شعبان عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م ، مادة رقم ٩٠٠ ، ص٢٢٦ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

(١٢٧) سجل رقم ١٣ ، مادة ١٠٧٩ ، ص٣٣٣ بتاريخ ١٧ رجب عام ٩٥٥هـ / ١٥٨٦م .

(١٢٨) سجل رقم ١٦ مادة ١٠٧ ، ص٢٨ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول عام ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م .

(١٢٩) سجل رقم ١٧ ، مادة ١٩٥ ، ص٦٣ ، بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م .

بعض الأوروبيين المراكب منهم ، فيدفع جزء من ثمنها ويقسط الباقي على أقساط شهرية ، ويحدث أن يموت البائع ، ففي تلك الحالة يطلب ورثته بقية الأقساط ، ويحدث ما لم يكن في الحسبان ، أن ينكر المشتري ، ويدعى بأنه دفع المبلغ كاملا للمتوفى[١٣٠] .

ووجدت حرفة أخرى تتعلق بصناعة المراكب ، أو عمليات البناء، ألا وهي حرفة الحدادة ، ومن الملاظ أن صاحب المحل يتعاقد مع الحرفيين في حرفته لمدة معينة ، ويحدد الأجر ، وأحيانا قد يحدث خلاف على الأجر[١٣١] . وقد يكون هذا الخلاف اما راجعا الى الحرفي نفسه طالبا بزيادة أجره ، أو أن يكون من صاحب المحل ، ربما يكون طمعا منه ، أو كسادا في حرفته . وحرفة أخرى تتعلق بالبناء وهي حرفة المعمار في المدينة[١٣٢] ومن المعروف أنه كان يرأس هذه الحرفة معمارجي باشي ، وكان يتقاضى من العمال (أو من مباشرهم في كل عمارة من العمارات السلطانية التي يشرف عليها محبوبا واحدا) أو ١٨٠ فضة يوميا[١٣٣] .

أما الحرف الأخرى ، فقد وجدت حرفة الخياطين ، ولجأ بعضهم الى الاقتراض وخصوصا من اليهود ، الذين يقرضونهم مبالغ تسدد على أقساط شهرية[١٣٤] لأنهم — اليهود — يحترفون عملية الصرف (أى اقراض النقود) ويعمل آخرون صيارفة[١٣٥] وحرفة السقا[١٣٦] لأن

---

(١٣٠) سجل رقم ١٧ ، مادة ٨٣٢ ، ص٢٧٦ ، بتاريخ ٢٨ صفر عام ١٠٠٢هـ / ١٥٩٢م .

(١٣١) سجل رقم ١٤ ، مادة ٢٧١ ، ص٨٣ ، بتاريخ ٥ رجب عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م .

(١٣٢) سجل رقم ٧ ، مادة ١٦٥ ، ص٦٣ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م .

(١٣٣) محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص١٩ .

(١٣٤) سجل رقم ٧ مادة ١٩٩ ، ص٨١ .

(١٣٥) ادوارد وليم لين ، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة عدلي طاهر نور ، ص٤٧٣ .

(١٣٦) سجل رقم ٧ ، مادة ٦٣٨ ، ص٣٥٦ بتاريخ ١٩ صفر عام ٩٨١هـ / ١٥٧٣م ، سجل رقم ١٢ ، مادة ٦٦٣ ، ص٢٢٩ بتاريخ ١٦ ربيع الأول ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م .

هذه الحرفة كانت موجودة فى تلك الفترة ، وكانوا ينقلون الماء فى مزادات[١٣٧] ، فكانت جماعة السقايين عنصرا أساسيا من عناصر المظهر الاجتماعى • وبحكم ذهابهم من منزل لآخر — كما تقتضى وظيفتهم — فقد هيىء لهم أن ينفذوا الى أعماق البيوت حيث السيدات • وربما يكون نتيجة لذلك قد لعبوا دورا هاما فى نقل الأخبار ونشرها،أو ساهموا بطريقة مباشرة فى الحياة اليومية للاهالى[١٣٨] وهناك حرفة كانت سائدة فى تلك الفترة فى مصر العثمانية ، ألا وهى حرفة الحمامين ، والتى يبدو أن التقاليد الطائفية « النقابية » عندهم كانت قوية لحد كبير اذ أنهم وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، فى وقت كانت الروابط الطائفية فى كثير من الحرف قد ضعفت فيه ، ظلوا يقومون باحتفالات الشد ، وكان يمارس هذا التقليد بالاضافة اليهم الحذاءون والحلاقون[١٣٩] • ولذلك نجد تعاملهم دائما فى التجارة التى تتعلق بحرفتهم وخصوصا تجارة الدقيق[١٤٠] • ويرجع ذلك الى أن بعض الذين يدخلون لعملية الاستحمام يقضون أغلب اليوم هناك ، فيلزمهم اطعامهم ان لم يأخذوا معهم طعاما •

وهناك حرفة أخرى تتعلق بوسيلة النقل الأساسية التى كانت موجودة سواء أكان ذلك داخل المدن أو خارجها وتعتمد أساسا على التنقل بالحمير ، وكان لهؤلاء حرفة معينة عرفت بحرفة المكارية ، وكان لهم مواقف خاصة بهم ، ويتفق معهم على الأجرة مقدما ، ويدفع أحيانا عربون ، وقد يسترد[١٤١] ويكون ذلك مرجعه الى خوفهم — الركاب — من الأخطار

---

(١٣٧) ادوارد لين ، المرجع السابق ، ص٢٨١ .

(١٣٨) أندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، ص١٠٦ ، وانظر أيضا أحمد هريدى ، المرجع السابق ، ص٥٥ — ٦٢ .

(١٣٩) أندريه ريمون ، المرجع السابق ، ١٥٤ .

(١٤٠) سجل رقم ٨ مادة ٥١٥ ، ص١٧٧ بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م .

(١٤١) سجل رقم ٩ مادة ١١٠٦ ، ص٣٩ ، بتاريخ ١٧ محرم عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م .

التى يتعرضون لها فى الطريق ، ومن السمات الواضحة أنه كثيرا ماتحدث مشاجرات بين أبناء هذه الحرفة ، وقد يكون أحد أسبابها راجعا الى دخول حمير بعضهم الى اسطبلات غيرهم ، أو نتيجة استيلاء بعضهم على حمار الآخر ، دون اذن صاحبه وتأجيره وحصوله على أجرته[١٤٢] • وأحيانا يلجأ بعض المستأجرين بقتل بعض الحمير ، فيلجأ صاحبه للقضاء والمطالبة بثمن الحمار المقتول ، ففي هذه الحالة ينكر المستأجر ذلك أمام القاضي[١٤٣] • ويرى الباحث أنه ربما يكون قد حدث بالفعل هروب من دفع الأجرة ، أو ربما تكون هناك ضغينة قديمة بين المستأجر وبين صاحب الحمار ، واحتمال آخر ربما يرجع هذا الى أنه لم يحدث بالفعل • وأدى الى احترافهم المكارية ، فقد وجدت حرفة خاصة بتطبيب الحيوانات ألا وهى حرفة البيطار[١٤٤] •

بالاضافة الى هذه الحرف ، فقد وجدت حرف أخرى مثل الخبازين[١٤٥] والقبانية[١٤٦] والقصابة ، وكان للشوام نصيب منها ، وباعوا اللحوم بالأقساط للاهالى ، وقد يلجأ بعضهم الى عدم الدفع[١٤٧] •

---

(١٤٢) سجل رقم ١١ ، مادة ١٠١٩ ، ص٢٦٧ بتاريخ ١٤ ذى الحجة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م ، مادة ١١٠٠ ، ص٢٦٩ ، بتاريخ ١٧ ذى الحجة عام عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م ، مادة ١٠٩٢ ، ص٢٦٧ بتاريخ ١٥ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

(١٤٣) سجل رقم ١٢ ، مادة ٤٧٩ ، ص١٦٧ ، بتاريخ ١٤ صفر عام

(١٤٤) سجل رقم ١١ مادة ٧٣٩ ، ص١٨٧ بتاريخ ٢٥ شوال عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

(١٤٥) سجل رقم ٩ مادة ٦٦٢ ، ص٢١٢ بتاريخ ٨ رمضان عام ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م ، سجل رقم ١١ مادة ٨٩٩ ، ص٢٢٦ بتاريخ ٩ اذى القعدة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

(١٤٦) سجل رقم ١٢ مادة ١٢٨ ، ص٥١ بتاريخ ٢٦ جمادى الثانية عا م٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

(١٤٧) سجل رقم ١١ ، مادة ٣١٥ ، بتاريخ ٢٤ شعبان عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م • ص٩١ •

الحياة الاجتماعية :

أما الحياة الاجتماعية ، فكانت متمثلة فى العادات والتقاليد ، مثل الزواج والطلاق والمعاملات والميراث وأعتاق المماليك وغير ذلك من مظاهر الحياة اليومية ، التى كانت سائدة فى تلك الفترة ، ومن الملاحظ فى حالة الزواج يذكرون دائما مقدم الصداق والمؤخر ، الذى كان فى أغلب الأحوال يقسط على أقساط شهرية ، أو يدفع فى حالة الفراق بسبب الطلاق أو وفاة أحدهما • وأحيانا لايدفع مؤخر الصداق طالما أنها فى عصمته • واذ تم الزواج من امرأة سبق لها الزواج لابد وأن يذكر أنها قد أوفت العدة الشرعية لها ، خاصة ان كانت مطلقة و توفى زوجها •

وقد لوحظ أن مقدم الصداق يختلف من فئة لأخرى ، ويكون ذلك راجعا الى حرفته أو الى مقدرته المالية ، فنجد المكارى مثلا يدفع مقدم صداق معقول بالنسبة له ، أما المؤخر فهو يقسط على أقساط شهرية متساوية[148] وعندما يتباطأ بعضهم فى دفع بعض الأقساط الشهرية ، ففى تلك الحالة تلجأ الزوجة للقضاء لتحصل أقساطها الشهرية من مؤخر الصداق[149] والسؤال الذى يطرح نفسه الان هو لماذا يدفع الزوج مؤخر الصداق على أقساط شهرية ، الاجابة على ذلك أنه ربما يرجع ذلك لعدم الثقة بينهما ، والدليل على ذلك أنه عندما يتأخر الزوج فى دفع بعض الأقساط فانها تلجأ للقضاء • أو ربما يرجع ذلك لاستخدام مثل هذا الأسلوب فى هذه الحرفة فقط ، أو ربما يكون ذلك قد جرى العرف به فى تلك الفترة ، لأن تقسيط مؤخر الصداق كان ساريا فى بعض فئات المجتمع ، ولوحظ ذلك اذا تأخر الزوج فى دفع قسطين متتاليين من زواجها[150] •

---

(١٤٨) سجل رقم ٦ مادة ٢٢٩ ، ص١٨٤ ، بتاريخ ٢٢ صفر عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م •

(١٤٩) سجل رقم ٧ مادة ٣٧٧ ، ص٢٦٧ ، بتاريخ ١٩ صفر عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م •

(١٥٠) سجل رقم ٧ مادة ٣٧٧ ، ص٢٦٧ بتاريخ ١٩ صفر عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م •

وبالنسبة لانخفاض قيمة مقدم الصداق لم يقتصر على المكارين فقط ، ولكن يحدث ذلك لامرأة سبق لها الزواج ، قبل ذلك مطلقة أو كانت جارية ثم عتقت وتزوجت من أحد المغاربة مثلا ، وفى تلك الحالة يشترط عدم دفع مؤخر صداقها الشهرى طالما أنها فى عصمته ، وجرت العادة بأن يتعهد الزوج بكسوتها شتاء وصيفا[١٥١] • ولكن لماذا يشترط على الزوج بكسوة زوجته علما بأنه مطالب بذلك طالما أنه تزوجها على كتاب الله وسنة رسوله ، والباحث يرى أن السبب فى ذلك ، ربما يرجع الى أن البعض قد يتكاسل فى ذلك ، طمعا فى أن يكسيها أهلها ، أو غير ذلك ، أو قد تكون ثرية • وعلى هذا الأساس يشترط عليه كسوتها • كما أن عملية الزواج من امرأة سابقة لم تقتصر على الأهالى فقط ، ولكن شمل ذلك بعض المغاربة السفاقس المقيمين برشيد ، أحيانا تزوجوا من زوجة سابقة ، كانت جارية ثم اعتقت وتزوجت ثم طلقت ، وتوفى العدة ويتزوجها المغربى السفاقسى ، ففى تلك الحالة يذكر ذلك فى قسيمة الزواج ، ويذكر مقدم الصداق ، والمؤخر الذى يقسط على أقساط شهرية[١٥٢] • ولم تقتصر عملية الزواج من مطلقات على بعض الأهالى أو بعض المغاربة ، نجدها أيضا تحدث لدى بعض الهوارة الصعايدة[١٥٣] • وان كان ذلك يخالف عاداتهم وتقاليدهم بعدم الزواج من غير الهواريين ، ويرجع ذلك اما أن يكون ذلك الهوارى هاربا من الصعيد ، أو أن يكون ذلك راجعا لظروف اقتصادية بحتة • وما دمنا قد تحدثنا عن زواج البدو من الأهالى ، فاننا نلاحظ أن البدو الازديين المقيمين بالبحيرة يتزوجون من الأهالى ويشترط

---

(١٥١) سجل رقم ٦ مادة ٦٢٢ ، ص٢٥٩ بتاريخ ١٣ رجب عام ١٠١٣هـ / ١٦٠٤م •

سجل ١٢ مادة ١٢٦ ، ص٥٠ بتاريخ

مادة ١٦٠ ، ص١٦٢ بتاريخ ٢٨ ذى الحجة ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م ، سجل رقم ١٧ مادة ١١٨ ، ص٣٨ بتاريخ ٢٦ شعبان عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م •

(١٥٣) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٣٩ ، ص٥٥ بتاريخ ١٣ ذى الحجة عام ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م • وانظر ايضا ، صلاح أحمد هريدى ، دور الصعيد فى مصر العثمانية ص٤١٩ •

عليه كسوتها [١٥٤] أو البدو ، ولكن نجد أن بعض الأهالى قد زوجوا بعض بناتهم لبعض أبناء المدن الأخرى مثل دمنهور ، ففى تلك الحالة يرتفع مقدم صداقها وأيضا المؤخر [١٥٥] . وترجع هذه الزيادة لزواجها من شخص غريب عن المدينة ، وان كان ذلك ينطبق على بعض الحرف الأخرى مثل السقايين [١٥٦] أو غيرهم .

ويختلف الحال هنا عند الطلاق ، فقد تبرىء الزوجة زوجها من مؤخر صداقها [١٥٧] ويتم هذا التنازل بمحض ارادتها دون كره منها ، ربما يرجع ذلك الى أنها قد سئمت الحياة معه فتطلب منه الطلاق ، ويشترط عليها ذلك ، أو أن تكون غير راغبة فى المعيشة معه . وأحيانا تلجأ الزوجات لعدم العودة لبيت زوجها ، وتنتهز فرصة زيارة منزل أهلها وترفض العودة ، ويحادل زوجها مرارا بعودتها لمنزله ولكنه لايستطيع ، وينتهى به الأمر فى النهاية الى الالتجاء للقضاء ويحكم له بطاعتها [١٥٨] وعندما تعود الزوجة المطلقة لعصمة زوجها مرة ثانية ، ففى هذه الحالة يطلب من الزوج زيادة مقدم الصداق [١٥٩] ولايعرف سببا لهذه الزيادة ربما يرجع ذلك ردا لاعتبار زوجته على أساس أنه قد طلقها ، أو أن يكون قد تم الاتفاق على الزيادة من جانب أهل الزوجة ، وتزوج بعض الشوام

---

(١٥٤) سجل رقم ١٦ مادة ٦٥٠ ، ص٢٥١ بتاريخ ٤ جمادى الاخرة ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م .

(١٥٥) سجل رقم ١٦ مادة ١٥٥٤ ، ص٥٤٥ ، بتاريخ سلخ ذى الحجة ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م .

(١٥٦) سجل رقم ١٢ مادة ٦٦٣ ، ص٢٢٩ ، بتاريخ ١٦ ربيع الأول عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨ .

(١٥٧) سجل رقم ٦ مادة ٣٨١ ، ص٢٧٤ ، بتاريخ ١٥ رجب عام ١٠١٣هـ / ١٦٠٤م .

(١٥٨) سجل رقم ٨ مادة ٢١٩ ، ص٨٠ بتاريخ ١ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م .

(١٥٩) سجل رقم ١١ مادة ٩٩٨ ، ص٢٤٧ بتاريخ ٢٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

منهم ، وفى حالة الطلاق يدفع مؤخر الصداق المتفق عليه[١٦٠] وأحيانا يكون الزواج غير موفق ، ويطلق الزوج زوجته فى مدة لاتزيد عن شهر من زواجه ، ففى تلك الحالة تبريه الزوجة من مؤخر الصداق[١٦١] .

وفى حالة موت الزوج ، فان زوجته تحصل على مؤخر صـداقها من ميراثه وبعد مضى مدة العدة ، تتزوج من آخر بالرغم من أنها تكون قد أنجبت منه — زوجها المتوفى — أولادا ، ففى هذه الحالة يقر الـزوج الثانى بالانفاق عليها وعلى أولادها وكسوتها وكسوتهم[١٦٢] . والشىء الملفت للنظر هو لماذا تحصل الزوجة على مؤخر صداقها بعد وفاة زوجها بالرغم من انجابها منه ، ربما يكون ذلك مرجعه الى أن الزوج قد يكون متزوجا من أخرى وتنازلت عن نصيبها ونصيب أولادها طمعا فى الزواج بأخرى ، أو ربما يكون قد تم هذا باتفاق مع اخوة المتوفى على ذلك نظير زواجهـا .

واتخذت الحياة الاجتماعية مظهرا ثانيا ، ألا وهى الأوقاف والحياة الدينية ، منها الأوقاف الموقوفة للحرمين الشريفين ، فكانت تؤجر للاهالى ومن حصيلة ايجارها ، يصرف على الحرمين الشريفين[١٦٣] ، ولم يقتصر عملية الوقف على الحرمين الشريفين فقط ، بل كانوا يؤسسون المساجد فى البلاد الأوروبية مثل قبرص ، فيرسلون اليها البسط والحصر ، وبعض الأموال للصرف عليها يتعاقدون مع بعض المراكب المتجهة الى هنـاك ،

---

(١٦٠) سجل رقم ١٤ مادة ٧٣٤ ، ص٢١٥ بتاريخ ٢٧ رمضـان عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

(١٦١) سجل رقم ١٤ مادة ٩٠٩ ، ص٢٦٠ بتاريخ ١٤ ذى القعدة عام ٩٨٧هـ / ١٥٨٠م .

(١٦٢) سجل رقم ١٤ مادة ٩٠٩ ، ص٢٦٠ ، بتاريخ ١٤ ذى القعـدة عام ٩٨٧هـ / ١٥٨٠م .

(١٦٣) سجل رقم ٨ مادة ٦٣٨ ، بتاريخ ١٣ ربيع الثانى عام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م .

ويرسلون معها الهدايا لدار السلطنة الشريفة[١٦٤] وكان الوقف أحيانا يؤجر لبعض الأهالى ، ويصرف منه على أوجه البر والخير مثل أوقاف الأشرف قايتباى فى مدن الاسكندرية ورشيد ودمياط ، وينبه دائما على على المستأجرين من حين لاخر بضرورة دفع ماعليهم من ايجار أو الذين يتباطئون فى ذلك[١٦٥] . ويلجأ البعض لوقف بعض أملاكه للصرف على أولاده القصر ، وعلى هذا يستردون أوقافهم بحجة شرعية[١٦٦] وأحيانا يوقف بعض أملاكه ، وتؤجر للاهالى مدة معينة[١٦٧] .

كما اتخذت الحياة الدينية مظهرا آخرا ، وهو ظهور البعض حبه للخير والعطف على الفقراء والمحتاجين ، ويقوم بشراء الغلال من بلاد الشام ابان حدوث الأزمات الاقتصادية كما حدث عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م ، وبيع بسعر معقول للفقراء فى ثغرى الاسكندرية ورشيد ، ففى هذه الحالة يدعو الأهالى دائما للسلطان العثمانى ودوام الدولة[١٦٨] . بالاضافة الى ذلك فقد ظهر عملية اعتاق العبيد لوجه الله تعالى وابتغاء رحمته ، فقام بعض الأهالى باعتاق عبده ففى تلك الحالة ، يذكر جنسيته ، ومواصفاته الجسمانية ، وغير ذلك ويقر بأنه — العبد — قد أصبح حرا من أحرار المسلمين ، وله نفس الحقوق والواجبات[١٦٩] . ولم تكن اعتاق

---

(١٦٤) سجل رقم ١١ مادة ٨٦٧ ، ص٢١٧ بتاريخ ١٧ ذى القعدة الحرام عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

(١٦٥) سجل رقم ١٥ مادة ٣١ ، ص٣٠ بتاريخ ١٥ جمادى الثانى عام ٩٨٣هـ / ١٥٧٥م .

(١٦٦) سجل رقم ١٣ مادة ٤٨٩ ، ص١٥٢ ، بتاريخ ٤ رمضان عام ١٠٤٦هـ / ١٦٣٦م .

(١٦٧) سجل رقم ٤١ مادة ٤٨٩ ، ص٢٧٩ ، بتاريخ ١٢ رجب عام ١٠٠٧هـ / ١٥٩٨م .

(١٦٨) سجل رقم ١١ مادة ٩٨٤ ، ص٢٤٣ بتاريخ ٢٩ شوال ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م .

(١٦٩) سجل رقم ١٤ مادة ٨٥٤ ، ص٢٤٦ ، بتاريخ ٢٨ شوال عام ٩٩٨٧هـ / ١٥٧٩م .

، سجل رقم ٥٥ مادة ٤٦٢ ، ص٢١٤ بتاريخ ٦ رجب عام ١٠٩٧هـ / ١٦٨٥م .

العبيد قاصرة على الرجال ، بل شملت أيضا الجوارى من النساء[١٧٠] •

واتخذت الحياة الاجتماعية لونا آخرا من ألوان التعامل بين الأهالى بعضهم البعض ، وبينهم وبين بعض العرب المقيمين هناك ، وأيضا بين أهل الذمة وغيرهم • فقد يحدث أن يقوم بعض الأهالى بتأدية فريضة الحج ، ويترك مبالغ طائلة بصفة أمانة لدى أحد المقربين اليه ، لحين العودة ، ولكنه مات هناك ، ففى تلك الحالة يطالب ورثة المتوفى منه برد المبلغ المودع لديه بصفة أمانة ، ولكنه ينكر ذلك ، ويستشهد بشهود [١٧١] طبعا من طرفه فينفوا عنه ، وتكون النتيجة ضياع المبلغ ، لأنه ليس لديهم — الورثة — دليل مادى على هذا ، وقد يحدث أن يكون المتوفى صاحب ديون لدى الغير ، فنجد الوصى على أولاده القصر أحيانا يكون جدهم لأمهم ، يطالب المدينين بذلك ، ويتعهدوا بدفع ما عليهم على أقساط شهرية[١٧٢] واذا كان البعض قد أنكر الأمانة المودعة لديه ، الا أننا نجد نوعا آخر من الذين يردون الأمانة مثال ذلك أن احدى السيدات كانت تحتفظ بمصاغها عند شقيقها بصفة أمانة ، ويذكر أنواعها وأوزانها ، وتستردها كاملة دون أى نقص منها[١٧٣] وقد يتبادر الى الذهن أن أخاها يخشى ذلك ولكن حدث أن قام بعض الرجال بايداع مبالغ معينة قبل الاخرين بصفة أمانة ، واسترده كاملا[١٧٤] • كما أن عملية الاقتراض بين الأهالى بعضهم البعض كانت شائعة ، وأحيانا لا يرد

---

(١٧٠) سجل رقم ١٤ مادة ١١٧٣ ، ص٣٦١ بتاريخ ٥ محرم ٩٨٧هـ / ١٥٧٩ م •

(١٧١) سجل رقم ١٦ مادة ٢٥٣ ، ص١٠٦ بتاريخ ٥ رجب عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م •

(١٧٢) سجل رقم ١٦م مادة ١٥٥ ، ص٣٨٥ بتاريخ ٩ ذى القعدة عام ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م •

(١٧٣) سجل رقم ١١ مادة ٥٥٧ ، ص١٥٢ ، بتاريخ ١٥ شوال عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

(١٧٤) سجل رقم ١١ مادة ٩٨م٦ ، ص١٧٩ ، بتاريخ ٣ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م •

المدين المبلغ الذى اقترضه منه ، وينكر انكارا تاما المدين[175] وقد يكون وكيل الدائن سيدة لابنتها [176] ولا نعرف سببا لذلك ، ربما يرجع ذلك لعدم ثقتها فى زوجها أو أن ذلك يرجع الى عدم الثقة فى الرجال وهذا أمر بعيد الاحتمال • وقد قامت بعض النساء بعملية أعطاء القروض نظير الرهن حتى تضمن قوتها ، فكانت توضع رهنا لديها بعض جهـاز المنزل (غطاء ــ وسادة) ولم يكن القرض فى هذه الحالة قرضا ماليا ولكنه كان قرضا عينيا مثل أقمشة وغير ذلك ، وأثناء ذلك تحدد البائعة سعر البيع بسعر أعلى نظير بياعها على آجال ، الأمر الذى جعل المشترية تطلب برد البضاعة لارتفاع سعرها[177] وأحيانا يتم الاقتراض نظير رهن بعض المصوغات [178] وان كانت الوثائق لاتذكر هل المبلغ المقترض قد رد بزيادة على حسب ماكان شائعا فى تلك الأيام ، وأحيانا يطمع الدائن فى المصوغات فيرد مصوغات أخرى أو ينكر استلامها ، وقد يكون القرض بقية عن أجر شحن البضائع مثلا[179] • وأحيانا توكل الزوجة فى ارتهان بعض مصاغها ، لزوجها ، ويحدث الانفصال ، فتطالبه برد الرهن ، فنجد الزوج يستقطع بعض المصاريف مثل أجرة مركب لنقل بعض المتعلقات الخاصة بها من الاسكندرية لرشيد ، وشراء بعض الأصناف الخاصـة بها وغير ذلك[180] • ولنا أن نتساءل كيف يحدث ذلك بين الزوج وزوجته،

(١٧٥) سجل رقم ١٤ مادة ٩٨٩ ، ص٢٧٩ بتاريخ ١٣ ذى الحجة عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م •

(١٧٦) سجل رقم ١٦ مادة ٨٩٣ ، ص٣٣٠ بتاريخ ١٥ جمادى الثانية عام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م •

(١٧٧) سجل رقم ١٤ مادة ٨٥٧ ، ص٢٤٧ بتاريخ ٢٨ شـوال عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م •

(١٧٨) سجل رقم ١٦ مادة ١١٢٨ ، ص٤١٤ بتاريخ ١٤ ذى الحجـة عام ١٠١٣هـ / ١٦٠٤م •

(١٧٩) سجل رقم ١٦ مادة ١١٢٨ ، ص٤١٤ بتاريخ ١٤ ذى الحجة عام ١٠١٣هـ / ١٦٠٤ م •

(١٨٠) سجل رقم ١٦ مادة ٢٣ ، ص ٧ بتاريخ ١٦ محرم عام ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٥م •

هل الزواج قائم على المصالح الشخصية بين الاثنين ، وان كانت المصادر لاتذكر ان كانت الزوجة تعمل فى التجارة أم لا ، ولكن الذى يحير الباحث هو كيف يكون ذا التعامل بين الزوج والزوجة ، فاننا نجد الزوج عندما تطالبه الزوجة بعد الانفصال برد الرهن ، فانه يستقطع بعض المصروفات منه ، اذا كانت النية مبيتة لديه بعدم رد الرهان اذا استمرت العلاقات الزوجية قائمة • ولذلك نجد أن القاضى قد أصدر الحكم بايداعه فى السجن • ولذلك فقد اتخذت عملية الاقتراض بين الأهالى وبين سكان المدن الأخرى مثل القاهريين ، الذين أقرضوا بعضهم أثناء رحلتهم لرودس ، وطالبه بالمبلغ عند العودة ودفعه[181] وحدث أيضا بين بعض الصعايدة والأهالى[182] •

كما أن عملية الاقتراض بين الأهالى بعضهم البعض وبينهم وبين سكان المدن الأخرى لم تكن قاصرة عليهم ، ولكن وجد أن بعض المغاربة كان يقرض بعض الأهالى مبالغ معينة ، ويتباطأ بعضهم ، فى الدفع ، ولكنهم – المغاربة – يلجأون للقضاء الذى كان دائما ينصفهم[183] ولم يكن المغاربة وحدهم فى الميدان بل كان الحجازيون وخصوصا من أهل مدينة بدر ومن الشرايفة بالذات[184] • كما حدث تعامل بين المسلمين وأهل الذمة وخصوصا من اليهود ، فقد أقرض ميراللو الشريف السلطانى بثغر دمياط ورشيد مبلغا لأحد اليهود الذى كان ملتزما للاموال

---

(١٨١) سجل رقم ١٢ مادة ٢٢٥ ، ص٨٦ بتاريخ ١١ محرم عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م •

(١٨٢) سجل رقم ١٧ مادة ٢٣٧ ، ص٧٧ بتاريخ ٢٢ رمضان عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م •

(١٨٣) سجل رقم ٩ مادة ٤٠٥ ، ص١٤١ ، بتاريخ ١٩ رمضان عام ٩٨٤هـ / ١٥٧٦م •
، سجل رقم ١٧ مادة ٩٥ ، ص٣٠ بتاريخ ٢٠ شعبان عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م

(١٨٤) سجل رقم ١٢ مادة ٢١٣ ، ص٧٩ بتاريخ ٧ محرم عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م •

السلطانية برشيد[185] . وأحيانا كانت عملية الاقتراض تتم بين أهل الذمة بعضهم البعض ، فكان بعض المغاربة اليهود قد أقرض بعض المسيحيين الذين تاجروا فى الخمور[186] .

أما بخصوص المعاملات اليومية ، فقد كانت عملية الاعتداء على الاخرين كانت ظاهرة طبيعية تحدث فى كل مكان وكل عصر ، فمثلا تعرض الأهالى للاعتداء من جانب بعض الأتراك الاستانبوليين[187] واتهم بعض الأهالى بالكفر[188] واعتداء أحد الأفراد على الاخر بذبح بقرته ، الذى ينكر معرفته لصاحبها ، وعلى هذا الأساس يطالب صاحبها بالتعويض[189] كما اعتدى بعض الصعايدة لبعض الأهالى واهانه ، مما جعله يلجأ للقضاء ويطلب تعويضا عن الضرب والاهانة[190] ، ويحدث أن يدعى البعض على البعض الاخر باستيلائه على نقوده ، فقد حدث أن نام بعض الأفراد مع بعضهم فى منزل أحدهم ، وكان مع أحدهم نقود ويعلم الجميع بذلك ، ووضع المبلغ تحت البساط الذى نام عليه ، ولكنه عندما استيقظ من نومه لايجد المبلغ ، ويتهم صاحب المنزل وينكر ذلك وينكر

---

(185) سجل رقم ١٤ مادة ٧٩٩ ، ص٤٤١ بتاريخ ٢١ صفر عام ١٠٩٧هـ / ١٦٨٥م .

، سجل رقم ٧ مادة ٤٤ ، ص١٦ بتاريخ ١٢ محرم عام ٩٧٣هـ / ١٥٧٥م

(186) سجل رقم ١٧ مادة ١٢٣ ، ص٣٩ ، بتاريخ ١٧ شعبان عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م .

(187) سجل رقم ٩ مادة ١٠ ، ص٦ بتاريخ ٢ ذى الحجة عام ٩٧٥هـ / ١٥٦٧م .

(188) سجل رقم ٩ مادة ٥١٥ ، ص١٧٨ بتاريخ ١٦ ربيع الاخر عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م .

(189) سجل رقم ١٧ مادة ١٨ ، ص٦ بتاريخ ١٩ رجب عام ٩٨٩هـ / ١٥٨١م .

(190) سجل رقم ١٣ مادة ٢٥٦ ، ص٨١ بتاريخ ٢٠ صفر عام ٩٨٦هـ / ١٥٦٨م .

الإخرون[191] ولكن من الطريف أنه قد وجد مبلغه بعد ذلك ، ويذهب الى القاضى ويخبره بذلك وبراءة صاحب المنزل من التهمة الموجهة اليه[192] وان دل ذلك على شىء فانما يدل على أن صاحب المبلغ يمتلك من الصفات الأدبية ، والشجاعة ، وكان يستطيع أن ينكر أنه وجد المبلغ ، ولكن خلقه أبى عليه ذلك .

أما عن عملية النزاع على الميراث ، فكانت موجودة ، فقد يحدث أن يستولى أحد الاخوة على ميراث اخوته ، من أرض زراعية وغير ذلك ، ويستولى على ريعها من الحاصلات الزراعية ، ويلجأ الورثة للقضاء الذى ينصفهم برجوع حقهم فى الأرض والريع[193] وقد يكون النزاع على أرض مباعة لأكثر من فرد ، فنجد البائع قد ورث هذه الأرض ، وباعها لأحد الأفراد الذى قام بدوره ببيعها لأحد المغاربة ، ثم قام بعد ذلك هو الاخر ببيعها لأحد الأفراد الاخرين ، وينتهى الأمر بدخول الجميع فى نزاع مع بعضهم[194] ويحدث أن يكون لأحد المغاربة المقيمين خارج البلاد ميراثا شرعيا فى رشيد ، ويوكل أحد الأهالى باستلام ميراثه وصرفه على الورثة الموجودين فى رشيد[195] وأحيانا يكون تقسيم الارث بالطريقة

(١٩١) سجل رقم ١٧ مادة ٩٦ ، ص٢٣٠ بتاريخ ٢٠ شعبان عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م

(١٩٢) سجل رقم ١٧ مادة ٩٤٢ ، ص٣١٥ بتاريخ ١٥ ربيع الأول عام ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م .

(١٩٣) سجل رقم ٥ مادة ٥٦٨ ، ص٢٤٧ بتاريخ ١ ذى القعدة عام ٩٨٩هـ / ١٥٨١م .

(١٩٤) سجل رقم ١٤ مادة ١١٥٧ ، ص٣٥٣ بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م .

(١٩٥) سجل رقم ٧ ، مادة ٤٥ ، ص١٢٨ ، بتاريخ ١٥ ربيع الثانى ١١٤٣هـ / ١٧٢٩م .

الشرعية مابين الورثة بعضهم البعض[196] ، واذا كان البعض تنازع على الميراث فاننا نجد نوعاً آخر من ذلك ، مثال ذلك فقد حدث أن توفيت زوجة والد أحد الأفراد ، وقبل وفاتها أخبرت ابن زوجها بأنها تريد أن تكتب وصيتها ، وأرسلته الى قاضي الشرع الذى قام بارسال منـــدوب عنه ، وأخبرته بوصيتها دون أن يتدخل ابن الزوج في شيء ، بالرغـــم من أنها قد أوصت بصرف مايخصـــها على فقراء المسلمات[197] وان دل ذلك على شيء ، فانما يدل على أن ابن الزوج لم يطمـــع في شيء من ميراث زوجة أبيه ، لأن البعض قد يخفى خبر مرضها أو وفاتها لأنه سيكون بذلك صاحب الارث الشرعى ، واحتمال شيء آخر هو أن يكـــون الوازع الدينى هو الذى جعله يتصرف على هذا الأساس ، واتخذ من الموت نفسه عظة له ، وعلى هذا الأســـاس قد بلغ القاضى .

وتتم عملية بيع العقارات بين الأهالى بعضهم البعض ، وقد تكون البائعة سيدة ، ففى كل الحالات يذكر الوصف الكامل للعقار ، ومساحته وحدوده وثمنه الكلى ، والمدفوع عنه والمبلغ المقسط ، ونجد أحيانا الشهود من الحجازيين[198] . وقد تكون الأرض تابعة لأحد الشرايفة المقيمـــين

---

(196) سجل رقم 71 ، مادة 122 ، ص111 ، بتاريخ 15 صفر عام 1143هـ / 1729م .

(197) سجل رقم 5 مادة 362 ، ص174 ، بتاريخ 12 ربيع الأول عام 1097هـ / 1685م .

(198) سجل رقم 16 ، مادة 311 ، ص128 ، بتاريخ 6 شعبان عام 1003هـ / 1594م .

، مادة 238 ، ص90 ، بتاريخ 3 محرم عام 1003هـ / 1594م

، مادة 317 ، ص130 بتاريخ 8 شعبان عام 1001هـ / 1592م

، سجل رقم 55 مادة 139 ، ص62 ، بتاريخ 16 جمادى الثـــانى عام 1096هـ / 1684م .

برشيد ، المنضمين لطايفة عزبان هناك والمشترى هـو أغا الجوالى[١٩٩] وأمين الجمرك[٢٠٠] .

أما عملية الايجار ، فيذكر فى عقد الايجار وصفا تفصيليا للعقار والأجرة المتفق عليها ، ومدته ، وغير ذلك من الشروط الأخرى[٢٠١] .

---

(١٩٩) أغا الجوالى : هو ملتزم رسوم الجوالى المقررة على أهل الذمة فى مصر (انظر ، ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانلى ، ص ٤٤٠) .

(٢٠٠) أمين الجمرك : الجمرك هى الهيئة المختصة بتنظيم فرض الضريبة وتحصيلها على التجار فى داخل البلاد والواردة اليها والمصدرة منها . والأمين هو الملتزم عليـه . (انظر ، ليلى عبد اللطيفه المرجع السابق ، ص٤٤٤) .

، سجل رقم ١١ ، مادة ٣٩ ، ص١٧ ، بتاريخ ٨ ذى الحجة ١٠٩٥هـ / ١٦٨٣م .

(٢٠١) سجل رقم ١٣ مادة ٣ ، ص٤ بتاريخ ١٦ ربيع الآخـر عـام

، سجل رقم ٧١ ، مادة ٢٥٤ بتاريخ ١٠ رجب عام ١١٤٣هـ / ١٧٢٩م

٩٨١هـ / ١٥٧٨م .

مصـــادر ومراجع البحث :

أولا : المصـــادر :

١ — وثائق لم تنشر بعـــد :

سجلات محكمة اسكندرية الشرعية ، بالشهر العقارى بالاسكندرية

٢ — مصطفى بن الحاج ابراهيم ، تاريخ وقائع مصر ، وأقوم حاليـــا بتحقيقها •

ثانيا : المراجع :

١ — المراجع العربيـــة :

١ — ابراهيم يونس سلطح

تاريخ مصر العثمانية من ٩٢٣هـ / ١١٣١م — ١٥٠٧ — ١٧١٩م • من خلال مخطوطة تحفة الأحباب بمن ملـــك مصر من الملوك والنواب ، ليوفف الملوانى الشـــهير بابن الوكيل ، رســـالة ماجستير غير منشـــورة عام ١٩٨١ — كلية آداب الاسكندرية •

٢ — ادوارد وليم لين

المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة عدلى طاهر نور ، القاهرة ١٩٧٥ •

٣ — اندريه ريمون

فصول من التاريخ الاجتمـــاعى للقاهرة العثمانيـــة ، القاهرة ١٩٧٤ •

٤ ـــ دكتور أحمد أحمد الحتة

تاريخ الزراعــة المصرية فى عهــد محمد على الكبير ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

٥ ـــ جــيرار

الحياة الاقتصــادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٨ .

٦ ـــ دكتور درويش النخيلى

السفن الاســــلامية على حروف المعجم ، الاسكندرية ١٩٧٤ م

٧ ـــ دكتور صلاح أحمد هريدى

الحرف والصناعات فى عهد محمد على ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الاسكندرية ١٩٧٨ .

٨ ـــ

دور الصعيد فى مصر العثمانية ، رسالة دكتوراه غــير منشورة ، عام ١٩٨٢ .

٩ ـــ دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٧٤ .

١٠ ـــ دكتور عبد الرحمن فهمى

النــقود المتداولة أيام الجبرتى ، ضــمن عبد الرحمن الجبرتى ، دراسات وبحوث ، باشراف الدكتور أحمــد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٧٦ .

١١ ـــ دكتور الجريتلى

تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القــرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٠ .

١٢ ــ محمد بن اياس الحنفى

بدائع الزهور فى وقائع الدور ، الجزء الخامس ، تحقيق دكتور محمد مصطفى زيادة عام ١٩٦١ .

١٣ ــ محمد رمزى

القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين الى عام ١٩٤٥ ، القسم الثانى ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٣ .

١٤ ــ محمد شفيق غربال

مصر عند مفترق الطرق ، مجلة كلية آداب القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول عام ١٩٣٦ .

١٥ ــ دكتور محمد فهمى لهيطة

تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، القاهرة ١٩٤٢ .

١٦ ــ محمد محمود زيتون

اقليم البحيرة ، صفحات مجيدة من الحضارة والثقافة والكفاح ، القاهرة ١٩٦٢ .

١٧ ــ محمد مختار

التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية بولاق ١٣١١هـ

١٨ ــ دكتور نعيم زكى وصفى

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٥ .

١٩ ــ دكتورة ليلى عبد اللطيف أحمد

الادارة فى مصر فى العصر العثمانى القارة ١٩٧٨ •

٢٠ ــ

دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ابان العصر العثمانى ١٩٧٩ •

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1 — Stanford Shaw, ottoman Egypt in The Age of The Fhench Revolution, Cambnidgee, 1964

2 — Egypt Inthe Eigtheenth Centuny,

سجل مبايعات نمرة ٦

عملية محكمة اسكندرية الشرعية ، ص٧ ، مادة ٢٠ .

موضوع الوثيقة : بيع عبد .

لدى الفقير لله تعالى

اشترى على بن محمد بن محمد المعروف بالعجمي الرشيدي من أحمد بن ابراهيم بن عبد الغنى جميع عبد مولد أحمر اللون معتدل القامة فصيح اللغة معلوم بينهما شرعا بمبلغ جملته من الذهب الجديد السلطاني تسعة وعشرون دينارا ثمنا حالا مقبوضا بيد البايع المذكور بالمعاينة وتسلم المشترى ما اشتراه التسليم الشرعى بعد النظر والمعرفة والتعليب الشرعى وشرط البراه من كل عيب له بان فان المشترى رضى شهودهما .

الخميس المبارك ٢٦ ذى الحجة عام ٩٧١هـ .

الوثيقة رقم ٢

سجل رقم ٦ ، ص٨ مادة ٢١

موضوع الوثيقة : بيع جاريتين .

وفيه لديه أحسن الله اليه

قبض وتسلم محمد بن أحمد المعروف بابن قفه الرشيدى من أحمد ابن كريم بن عبد الغنى الجبلى المذكور أعلاه مبلغا قدره من الذهب الجديد تسعة عشر دينارا وان ذلك هو الباقى من الخمسين دينارا من الذهب ثمن الجاريتين وتبعها المعين ذلك بسجل المحكمة القبض والتسلم الشرعيين وبريت ذمته من الثمن المذكور البراءة الشرعية .

الخميس المبارك ٢٦ ذى الحجة عام ٩٧١هـ .

الوثيقة رقم ٣

سجل رقم ٦ ، ص٦٢ ، مادة ١٥٧

موضوع الوثيقة : بيع عدد ٦ جمال .

وفيه لديه

تصادق الحاج خير الدين بن المرحوم المعلم مصطفى القصاب باسكندرية مع سليمان القصاب بن الحاج على بن محمد المعروف باشى العربان الرشيدى الحاضر معه بالمجلس تصادق شرعيا وهما بحال الصحة والكلام والطواعية والاختيار على أن المعلم حسين والمذكور الراشدى بما لنفسه من الحاج خير الدين المذكور فباعة جميع ستة جمال مختلفة الشاه أحدهما أحمر اللون عالي القد على فخده كى نار والباقى أحمر اللون أيضا على القد على خده كى نار والثالث أحمر اللون عال القد أيضا على رقبتيه ذاع بالنار والرابع أبيض عالى القد مكوى بالنار على رقبته والخامس أبيض اللون عال القد أيضا مكوى بالنار على رقبته والسادس أزرق اللون عال القد أيضا مكوى بالنار على فخده معلوم ذلك العلم الشرعى الثانى للجهالة شرعا اشترا شرعيا وبيعا لازما عرضت بثمن قدره عن ذلك بحساب الفضة الجديدة العددية معادلة تاريخة بالديار المصرية ستة آلاف نصف يقوم له بذلك على مايتين فيه قسمين ذلك مايوعل المحلول الف نصف وستماية نصف مقبوضا منه فى الثغر نصف وخمسماية نصف وثمن من نصف من ذلك جميع أربعة أثوار ويقرة مختلفة الألوان والشباه معلومة لهما شرعا تفويض شرعيا تصادقا على الاتجاه والقبول والسلم الشرعين وقبض البائع المذكور أعلاه باقى المبلغ الحال المشترى المذكور على يد حسين الجمال القبض التام الشرعى بالاعتراف الشرعى يقوم المشترى المذكور بالقدر والمتاجرة فى الثمن المذكور وأربعة آلاف ونصف وأربعماية نصف مقسطا فى مدة اثنى عشر شهر أولها شهر ربيع الثانى الاتى بعد شهر تاريخه مقسط كل ستة شهور ألف نصف اثنتان ومايتى

نصف على أن سليمان المذكور تسلم الجمال الستة المبيعة المذكورة أعلاه سلما شرعيا بعد النر والمعاينة الشرعية .

١٧ ربيع الثانى عام ١٠٠٤هـ /

الوثيقة رقم ٤

سجل رقم ٦ مادة ٢٢١ ص١٧٨ .

موضوع الوثيقة : بيع بن

وفيه لديه

ادعى ونيس ابن على الرشيدى على الشيخ محمد بن الشيخ على ابن الشيخ أحمد القهوجى انه يستحق فى ذمته مبلغا قدره من الذهب السلطانى الجديد معاملة تاريخه بالديار المصرية أربعة وعشرون دينارا صرف كل دينار أربعين نصفا من الأنصاف الجديدة معاملة تاريخه بالديار المصرية وسبعة انصاف باقي ثمن بن قدره معلومة لهما شرعيا ابتاع ذلك وتسلمه قبل تاريخه لابتياع والصلة الشرعية ويطالبه بذلك فسأل المدعى عليه المذكور عن ذلك فأجاب بالاعتراف بذلك وثبت اعترافه بذلك لدى سيدنا الحاكم المشار اليه بشهادة شهود وصدوره لديه ثبوتا شرعيا والزم الذى عليه المذكور بذلك فشرع الى الرضى عليه واعتقل بالجلد في تاريخه .

١٧ صفر عام ١٠٠٤هـ .

الوثيقة رقم ٥

سجل رقم ٨ مادة ١٧٣ ص٥٠٢ .

موضوع الوثيقة : شراء كتان على يد أوربى

وفيه بين يدي الحاكم الشرعى الشافعى أحسن الله اليه

ادعى على بن أحمد بن على البرلسى القاطن بثغر رشيد على فرونى

بن بادلو النصرانى المذكور بالمشترى منه ثلاثة خيشات كتان سعر كل قنطار تسعة وعشرين دينار ونصف دينار والفين كارنة فضة كل عشر دراهم بثلاثين فقلب أول خيشة كلها وقلب ثانى خيشة كلها ورماها على الأرض وتوجه هو خلاهم على الأرض وأراد أن يوكسه فى بضاعته وسيل سواله فسل فأجاب بالاعتراف بأنه قلب خيشتين وما أعجبته الثالثة وانه عمل البيع فى ثلاثة خيشات بالسعر المذكور والأكارسة بثلاثين العشرة فلما اختلف عليه الكتان أراح وخلاه بترجمت الحاج محمد بن أحمد المغربى .

١٠ من جمادى الثانى ٩٧٣هـ

الوثيقة رقم ٦

سجل رقم ٨ ، مادة ٥١٥ ، ص ١٢٧

وفيه بين يدى سيدنا الشيخ شمس الدين أبى عبد الله محمد فياض المالكى أيده الله .

موضوع الوثيقة : بيع دقيق لحمامى

ادعى سيدى بن الحاج أحمد الشهير لستجنب الرشيدى على المعلم شهاب الدين بن سليمان الحمامى انه يستحق فى ذمته ثلاثة ذهب كرونه وأربعة وثلاثين نصف ثمن دقيق ابتاعه منه قبل تاريخه وتسلمه وهو معلوم عندهما شرعا وسئل سؤاله فسل فأجاب بالاعتراف فى القدر المعهود وذكر انه له من ذلك دينار ذهب كرونه وثمانية انصاف وخرج فى وضاه على ما اعترف به فاختار اعتقاله فاعتقل وبه شهد عليهما فى تاريخه .

١١ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ .

الوثيقة رقم ٧

سجل رقم ١١ ، مادة ٦٢٨ ، ص١٦٦ •

موضوع الوثيقة : بيع جبنه فاسده

وفيه لديه

ادعى اسماعيل بن ناصر الدين الاخر من البانوبى على محمد محمد بن حبه الرشيدى انه يستحق فى ذمته دينار ذهب جديد باقى ثمن جبن ابتاعه وتسلمه منه قليل تاريخه ويطالبه بذلك ويسأل سواله أجاب بالاعتراف وذكر انه سلمه جبنا عافنا •

١١ شوال عام ٩٧٨هـ •

الوثيقة رقم ٨

سجل رقم ٦١ ، مادة ٩٦٨ ، ص٣٣٩ •

موضوع الوثيقة : بيع قمح شامى

وفيه بين يدى الشيخ برهان الدين الدسوقى الشافعى أيده الله

تصادق على بن الحاج ابراهيم الشهير بالخباز الرشيدي الوكيل الشرعى عن الجناب العالى علاى الدين بن جعفر الرشيدي الثابت توكيله عنه بالسجل الثبوت الشرعى والحاج محمد بن الحاج تركى المعروف بأن عبد العال الشيشينى التصادق الشرعى وهما بحالتى صحة واختيار على أن موكله المذكور قبض من الحاج محمد المذكور مبلغا قدره من الذهب الأكرونى مايتان دينار ثنتان ودينارا واحدا القبض الشرعى وعلى أن ذلك ثمن سبعة وستون غرارة من القمح الشامى المبتاع ذلك له من قبل تاريخه وعلى أن الحاج محمد المذكور اشترى من موكله المذكور تسعة غراير من القمح المذكور بالكيل السكندرى بثمن قدره من الذهب السلطانى

العتيق سبعة وعشرون دينار يقوم له بذلك بعد مضى سنة أشهر من تاريخه مقرا أعلاه انه وقدرته على ذلك ويتسلم ذلك التسلم الشرعي حسبما تصادقا على ذلك وكل ذلك ثبوت وحكم من سيدنا الحاكم المشار اليه فى تاريخه •

٢٢ شهر ذى القعدة سنة ٩٧٨هـ •

الوثيقة رقم ١٩

سجل رقم ١٢ ، مادة ٤٧٩ ، ص١٦٧ ••

موضوع الوثيقة : تأجير حمار ثم قتله المستأجر بعد ذلك •

وفيـــه لديه

ادعى على بن حولى بن محمد الرمنتــيدى المبارك على ابراهيم الأمروف وعلى أحمد وحسين بالى الجميع من أضربة أنهم قبل تاريخـــه بأربعة أيام استأجروا الثلاثة حمير برشــيد يحضروا عليها الى الثغـــر السكندري وانهم ضربوا منها حمار زيتوني بسيف فقتلوه بخارج رشـــيد قيمته عشرة دنانير ذهبا جديدا ويطالبهم بذلك وبما يترتب عليهم بسبب ذلك فسيلوا عن ذلك فأجابوا بالانكار لذلك فالتمس المدعى المذكور ايمانهم على ذلك فحلفوا بالله العظيم اليمين الشرعى انهم لم استأجروا منه الثلاث حمير المذكورة ولم ضربوا الحمار المذكور الضربة المذكورة وخرجوا على ذلك فى تاريخه •

الوثيقة رقم ٢٠

سجل رقم ١٢ ، مادة ٦٦٣ ، ص٢٩٩

موضوع الوثيقة : وثيقة زواج سقا من أهالى رشيد ومطالبته ببقيـــة صـــداقها •

ادعى عبد العزيز بن على الرشيدي المعروف بالعبيط على ســـالم بن يوسف السقا انه دفع له ثلاثة دنانير ذهبا جديدا وثمانية أنصـــاف

من صداق يمين المراه ابنة المرحوم يحيى بن محمد طاروس وواقعه على أن صداقها الحال أربعة دنانير فسئل عن ذلك فأجاب بأنه وافقه على أن حال صداقها ست دنانير الذهب الموصوف وانه لم يقبض منه شيء وانما قبض الثلاثة دنانير المذكورة عن المذكورة فلم يصدقه على ذلك وخرجا على البيـــان •

الوثيقة رقم ١١

سجل رقم ١٣ ، مادة ٣ ، ص٤ •

موضوع الوثيقة : تأجير منزل ، مع وصفه وحدوده وقيمة الأجرة •

وفيه لديه

ادعى محمد بن عم الحافظ المثلق الرشيدى على الحاج ابراهيم بن محمد قاسم الرشيدى العتال أنه أجره جميع الدار الكاينة برشيد المجاورة لبيت الفقيه على القبولي من الجهة القبلية من مدة شهرين المشتملة على دهليز ومجاز تبول منه الى حوش وجميع ذلك • حدود أربع القبلى الى دار السجينى والبحرى دار الفقيه المذكور والشرقى الى دار الاخر المذكور والغربى الى أول طرق وفيه الباب مدة تسعون سنة بأجره مبلغا عن ذلك من الذهب السلطانى الجديد خمسون دينارا وأنه تسلم العين الموجرة ويسال سواله عن ذلك فأجاب انه أجره ذلك المدة المذكورة بالنقد المذكور وان أخوه محمد قبل وفاته أوقف على ذلك وبذلك حجة شهد بذلك

١٦ ربيع الاخر سنة ٩٨١هـ •

الوثيقة رقم ١٢

سجل رقم ١٤ ، مادة ١٩ ، ص ٥ •

موضوع الوثيقة : تجار اوربيون يتاجرون فى الخمور بالمدينة •

اشهد علية اسحاق بن موسى اليهودى الربان الاشهاد الشرعى وهو بحالتى صحة واختيار انه قبض وتسلم للرايس على بن محمد الرشيدى

المعروف بقصير من اسحاق بن منصور اليهودى االربان سبعة وعشرون دينار ذهبا جديدا القيض والتسليم الشوطيين من ثمن الثلاث بتـــانى الخمر المختصةبيوسف السلانيكي وابراهيم الشامى اليهودين الربانيين الموذه لاسحاق بن منصور فى بيع ذلك لوفا ما عليهما من الدين الثابت عليهما للرايس على قعير المذكور بالحجة الشرعية المؤرخة برابع عشر شهر جارى وقدره من الذهب الموصوف بستة واربعون دينارا وصدقه على ذلكاسحاق بن منصور الزكور تصديقا شرعيا وعلى اسحاق القابض المذكور الخروج من عهده ذلك للرايس على قعير المذكور بالطريق الشرعى جرى ذلك وحرر فى تاريخه •

الوثيقة رقم ١٣

سجل رقم ١٤ ، مادة ٧٣٤ ، ص ٢١٥ •

موضوع الوثيقة : وثيقة طلاق وتذكر الزوجة براة زوجهـــا من مؤخر صداقهـــا •

سالت الحرمة دلال الدعوة زبيدة المراة ابنة زين الدين المدعـــو يسبرك المصرية زوجها هندى بن الحاج على بن عبد الله الشيدى ان يطلقها من عصمته وعقد نكاحه طلقة اولى بعد الدخول بها ولا صابة علية تسعين نصفا من الانصاف الجديدة معاملة تاريخية اقبضها ماله بالمجلس وعلى براه ذمته لها من باقى صدقها عليهوقدره خمسة دنانير ذهبا جديدا كما ذلك معين بقية صدقها على المؤرخة بثالث شهررمضان سنة تاريخه فاجاب سوالها لذلك وطلقها على ذلك الطلقة المسولة فيها على العـــوض المذكور معترفين بالدخول ولاجابة الاعتراف الشرعى وثبت الاشـــهاد عليها بذلك لدى ســـيدنا الحاكم المشار اليه بشهادة شهوده وصدوره لديه ثبوتا شرعيا وحكم بموجب ذلك حكما شرعيا تاما مرعيا واشهد على نفســـه بذلك فى تاريخه •

٢٧ رمضان ســـنة ٩٨٧هـ

الوثيقة رقم ١٤

سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٧ ، ص٢٨ •

موضوع الوثيقة : اســتخدام بحارة أوربيون وطــردهم وانتقامهم من أصــحاب المراكب •

ادعى الرايس بن زين الدين بن على المعــروف بابن زوين الرشيدى على جورج بن ستفنو كلا النصرانى الفرنجي الكندي أنه كان بحارا بمركبه ثم تركه غاييا فحضر فى غيبته ومعه جماعة أروام وأخذ صندوقه ووضع يده على ثمانية جلود بقرى ويطالبه بذلك وبما يترتب عليه على ذلك وسبيل واجاب بالاعتراف فى ذلك بان محمد بن الياس الدونى وذكر أنه ذلك ان الجلد ملكه ولم يصــدقه الشرعية عليه فذكر له بخصوصه •

٢٨ ربيع الأول ســنة ٩٥٧هـ

العلاقات العثمانية ــ المغربية

فى عهد كل من :

مولاى محمد ١٧٥٧ ــ ١٧٩٠

وابنه يزيــد ١٧٩٠ ــ ١٧٩٢

اعــداد

د٠ عبد الله محمد عزباوى

أستاذ مساعد التاريخ الحديث بكلية التربية بالفيوم

جامعة القاهرة

امتد النفوذ العثمانى الى تونس والجزائر من أوائل القرن السادس عشر[١] على أن العثمانيين لم يستطيعوا السيطرة الكاملة على معظــم الجزائر الا عند منتصف القرن السادس عشر[٢] وصادف ذلك قيام الدولة السعدية فى المغرب الأقصى « مراكش » على يد محمــد المهدى الذى استطاع فى سنة ١٥٤٩ أن يقضى على آخر نفوذ لأسرة الوطاسية [٣] وبذا أصبح هناك فى المغرب قوتان اســـلاميتان الأتراك العثمانيون والأشراف السعديون ٠ وكان لابد وأن تقوم بينهما علاقة ما ، ودية أو عــدائية ٠

وكان من المتوقع حدوث تضامن بين القوى العثمانية والســعدية

---

(١) صلاح العقاد ، المغرب العربى ، القاهرة ص١٩ ــ ٢١ ٠

(٢) عبد الكريم كريم : المغرب فى عهد الدولة السعدية ، الرباط ١٩٧٧، ص ٧٥ ٠

(٣) صلاح العقاد ، المصـــدر السابق ، ص٥٤ ، عن منشأة الدولة السعدية أنظر الناصرى ، الاستقصاء لاخبار دول المغرب الأقصى ، ص٥

فى المغرب نظرا لأن هدف سياستها كان واحدا ، وهو القضاء على النفوذ الأوربى فى بلاد المغرب[٤] وهو ما أدخل الرعب على الأسبان والبرتغال وجعلهم يترقبون قيام تعاون بين القوتين الاسلاميتين ضد مراكز الاحتلال المسيحى فى كل من الجزائر والمغرب ، ويتضح ذلك من التقارير والرسائل التى بعثها حاكم وهران الأسبانى Comte d'AL caudete الى حكومته[٥] .

وقد كتب المولى محمد المهدى «السعد» الى باشا الجزائر يقترح عليه القيام بعمليات عسكرية مشتركة لفتح وهران والمرسى الكبير ، والدخول فى حرب ضد أسبانيا[٦] ويتضح من جميع اتصالات المولى محمد المهدى باتراك الجزائر أن الحاكم السعدى كان يهدف الى قيام تعاون مشترك بينهما ضد المسيحية الأسبان والبرتغال لتحرير المناطق المحتلة بشمالى افريقيا وخاصة الموجودة منها ببلاد الجزائر والمغرب مع احتفاظ السعديين بكامل سيادتهم على بلادهم[٧] فى حين أن السلطان العثمانى سليمان القانونى كان يرى أن هذا التعاون لايمكن أن يتم الا على أساس أن تدخل الدولة السعدية فى تبعية الدولة العثمانية[٨] . بدعوى توحيد القوى الاسلامية بشمال افريقيا ضد الأخطار الأسبانية والبرتغالية[٩] . وقد أرسل سفارة بهذا المعنى الى محمد المهدى . الا أن المهدى مع انه لم يكن قد دخل فاس بعد ، فقد رفض تلك الفكرة وأصر فى رده على تلقيب نفسه بأمير المؤمنين[١٠] الأمر الذى عجل باصطدام قواتهما خصوصا بعد أن بسط الأتراك نفوذهم على مدينة وجدة باب

---

(٤) صلاح العقاد المصدر السابق ، ص٥٥ .

(٥) عبد الكريم كريم المصدر السابق ، ص٧٥ — ٧٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص٧٦ .

(٧) المصدر السابق ، نفس المكان .

(٨) صلاح العقاد ، المصدر السابق ، ص٥٥ .

(٩) عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص٧٦ .

(١٠) صلاح العقاد ، المصدر السابق ص٥٥ .

المغرب الشرقى ، فى محاولة لتطويق امارة تلمســان التى كانت تعيش أيامها الأخيرة ـ لاتخاذها قاعدة إنطلاق ضد المغرب فى المستقبل[11] .

وقد استمرت العلاقات العدائية بين الطرفين طوال عهد الــدولة الســعدية وأن تحسنت نوعا ما فى عهد المنصور الذهبى بعد انتصاره على البرتغاليين فى موقعة وادى المخازن سنة ١٥٧٨ . فقد كان من أهم نتائج هذه المعركة أن أصبحت للمغرب شخصية بارزة ممتازة فى العالم كله ، وقد تقاطرت الوفــود من كل الجهــات تحمــل الهدايا وتقدم التهانى للمنصــور[12] . وكان من بين هذه الوفود الوفد العثمانى الــذى كان يضم عددا من علية القوم أوفدهم مراد لتهنئة المنصور[13] .

على أن هذا الوئام الذى حل بالعلاقات العثمانية ـ المغربية فى عهد المنصور الذهبى سرعان ماينتهى عند وفاة الأخير ، الذى أعقبت وفاته فترة من الفــوضى سيطرت خلالها الطرق الصــوفية على بعض أقاليم المغرب . وقد استطاعت الأسرة العلوية توحيد المغرب تحت حكمها على يد مولاى الرشيد سنة ١٦٦٦ ، الذى يعد بحق مؤسس الأسرة العلوية التى مازالت تحكم المغرب حتى الآن[14] . وهكذا ورثت الأسرة العلوية حكم المغرب بعد الأسرة السعدية ، وكان عليها ادارة الحوار مع الدولة العثمانيــة .

وقد بدأت الأسرة العلوية عهدها بالاصطدام مع الحكومة العثمانية بالجزائر مما جعل سلطان باشا والى الجزائر أن يبعث الى مولاى الرشيد يلومه على تفرقة كلمة المسلمين[15] .

---

(١١) عبد الكريم مرافق ، المصدر السابق ، ص٧٦ .
(١٢) شوقى الجمل ، المصدر السابق ، ص١٨١ .
(١٣) عبد الكريم كريم ، المصدر السابق ، ص١١٠
(١٤) عن منشأ الدولة العلوية فى المغرب ، أنظر الناصرى ، ج٧
(١٥) صلاح العقاد : المصــدر السابق . ص٦٩

وقد استمدت العلاقات العدائية بين العثمانيين والعلويين فى المغرب فى عهد مولاى اسماعيل الذى يعتبر من أعظم سلاطين الأشراف العلويين وأطولهم حكما اذ استمد أكثر من نصف قرن عمل خلالها على توطيد قوة الحكومة المركزية من جهة واعادة هيبة المغرب فى العالم الخارجى من جهة أخرى[16] •

وقد شهد المغرب بعد وفاة مولاى اسماعيل فترة من الاضطرابات والحروب الأهلية ، وتنازع على السلطة بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وفي الفترة مابين ١٧٢٧ ، ١٧٥٧ تعاقب على حكم البلاد خلالها ستة من السلاطين[17] • ولم يخرج المغرب من هذه الفترة الا بوصول المولى محمد عبد الله الى الحكم سنة ١٧٥٧ • فقد عاد الاستقرار الى المغرب مع حكم هذا السلطان ، حفيد المولى اسماعيل • وقد استمر حكمه حتى سنة ١٧٩٢ — وتعتبر فترة حكمه ، فترة زاهية ومزدهرة فى تاريخ المغرب وخاصة وأن الاستقرار سمح بازدهار العلوم والمعارف[18] •

ويعد حكم هذا السلطان صورة مصغرة لعهد مولاى اسماعيل فقد حاول مولاى محمد تجديد العلاقات مع بعض الدول الأوربية من ناحية وامتأنف الجهاد ضد الجيوب المسيحية من ناحية أخرى[19] •

وتتميز سياسة مولاى محمد باتجاه جديد ، وهو توثيق الروابط مع الدولة العثمانية والشرق الاسلامى بصفة خاصة فقد تبادل المراسلات والهدايا مع الباب العالى[20] ، وهو مالم يحدث من قبل طوال فترة العلاقات العثمانية — المغربية ، باستثناء فترة المنصور الذهبى •

---

(١٦) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٧) المصدر السابق : ص٧٣ •

(١٨) جلال يحيى : المغرب الكبف ، ص٧٢ ، بيروت ، ١٩٨١

(١٩) صلاح العقاد : المصدر السابق ، ص٧٤ •

وقد عاصر حكم مولاى محمد ١٧٥٧ – ١٧٩٠ ، ثلاثة من سلاطين الدولة العثمانية وهم مصطفى « الثالث » ١٧٥٧ – ١٧٧٤ ، عبد الحميد الأول « ١٧٧٤ – ١٧٨٩ » ، وسليم الثالث « ١٧٨٩ – ١٨٠٧ » .

العلاقات المغربية – العثمانية فى عهد مولاى محمد كما تصورها الوثائق التركية[٢١] .

تصور الوثائق التركية العلاقات الودية التى كانت قائمة بين الدولة العثمانية والمغرب فى عهد مولاى محمد بن يزيد .

ومن الموضوعات التى تتناولتها الوثائق التركية التى بين أيدينا – موضوع تحرير « مولاى محمد » ل ٥٣٦ من أسرى المسلمين فى جزيرة مالطة وارسالهم الى الاستانة . فقد كان « مولاى محمد » مهتما بفك أسرى المسلمين الذين تحت يد المسيحيين ففى سنة ١١٨٢هـ / ١٧٦٧م أرسل ملك أسبانيا – بعد عقد الصلح مع مولاى محمد – الى مولاى محمد يطلب منه التوسط لدى الجزائر فى تبادل الأسرى بين البلدين وأنه مستعد لدفع الفداء فى الأسرى الأسبان الذين يزيدون عن عدد أسرى الجزائر ، وطلب منه أن يتم هذا التبادل على يديه ، وبالفعل اتصل مولاى محمد بحاكم الجزائر يعرض عليه ما طلبه ملك اسبانيا لكنه امتنع أول الأمر ، ثم وافق بعد ذلك ، وتم تبادل الأسرى بين الجانبين الجانب الجزائرى والجانب الأسبانى فقد تم تبادل حوالى ١٦٠٠ أسير من كلا الجانبين وفيما زاد عن ذلك أفداه الأسبان[٢٢] .

وعن تحرير مولاى محمد لـ ٥٣٦ أسيرا من المسلمين من جزيرة

---

(٢٠) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢١) يجب أن نضع فى اعتبارنا أن غالبية هذه الوثائق غير مؤرخة . بدون تاريخ انظر ملحق رقم ١ .

(٢٢) الناصرى ، المصدر السابق ، ص٣٨ – ٣٩ .

مالطة وارسالهم الى الاستانة فنجد فى احدى الوثــائق التركية وهى عبارة عن تقرير مرسل من أمين الجمرك الى السلطان العثمانى يقول له فيها « أرسل حاكم المغرب نائبه الى مالطة فى هذه الاونة فاشـــترى خمسمائة وستة وثلاثين من المسلمين وخلصهم من الأسر • وقد وصـــل بهم الى الاستانة السعيدة اليوم على ظهر سفينتين فرنسيتين [٢٣] •

وقد قامت الدولة العثمانية بعمل عرض لهؤلاء الأسرى بحيث يمرون أمام قصر السلطان العثمانى ، ففى تقرير مرسل من الباشا القائمقام الى السلطان ــ بدون تاريخ جاء فيه « تعين الجاويش من الترسانة العامرة على الأسرى الذين أحضروا ويرسلون مع حراسهم اجرى التنبيه بأنه سيحدث مرور بالقرب من قصر « الا » والمجىء الى الأبواب وقت الظهر فى هذا اليوم • وأرسل رســـول الى الميناء لاطلاع عبدكم على خبر التشريفات بالقصر المذكور »[٢٤] •

وقد قام السلطان العثمانى بمنح هؤلاء الأسرى المسلمين بعض المال، بعد أن اقترح عليه الباشا القائم مقام ذلك ، ففى نفس التقرير السابق يقول القائمقام « وعلى الرغم من أن ملك المغرب خلصهم ــ يقصــد الأسرى ــ بالنقود وأرسل الهدايا للدولة العلية فان جرى اكرامهم ، فانهم سيقولون أن اكرامنا لم يأت من الدولة العلية ، واعتقد أن المناسب فى هذه الحالة أن نعطى كلا منهم بقشيشا « منحة » واذا صدرت الارادة بتحديد المقدار الذى يوجب لكل منهم فسيتم التنفيــذ »[٢٥] وقد أشر السلطان على ذلك بقوله « اعط البقشيش بالطريقة المناسبة للاسرى»[٢٦] •

---

(٢٣) وثيقة رقم ١/٢ ــ ٣٠٦ من أمين الجمرك الى السلطان العثمانى ــ بدون تاريخ انظر ملحق رقم ١ •

(٢٤) وثيقة رقم ١/٢ ــ ٣٤٤ من الباشا القائمقام الى السلطان ــ بدون تاريخ • انظر ملحق رقم ٢ •

(٢٥) المصــدر السابق •

(٢٦) المصدر الســابق •

وكانت الدولة العثمانية ترغب فى تجنيد هؤلاء الأسرى فى الجيش العثماني واشتراكهم فى حروبها ، ولكنها رأت ولا معرفة رأيهم فى هذا الموضوع ، فنرى فى هذا التقرير السابق ، اشارة لذلك فقد جاء فيه ، « بعد أن يأتى هؤلاء ـ الأسرى ـ الى الأبواب ، ينقلون الى معسكر قاليونجى الحالى ، وطبقا للفرمان الهمايونى الذى صدر بالأمس يجرى استجوابهم هل يريد أحد منهم أن يذهب للحرب طواعيه ثم يعوض الموضوع على الحضرة السامية »[27] .

وقد رفض هؤلاء الأسرى الذين كان معظمهم من عرب المغرب — الانضمام الى الانكشارية والاشتراك فى حروب الدولة العثمانية وذلك نتيجة لانهيار معنوياتهم من جراء وقوعهم بالأسر وان كان العثمانيون يرجعون ذلك الى افتقادهم « الى الخصال الحسنة والغيرة والحماس الذى يوجد فى الجنود عادة حيث أنها جبلت على افساد العالم فى نفس الوقت »[29] فقد جاء فى تقرير مرفوع الى السلطان العثمانى بخصوص هؤلاء الأسرى « بناء على المعلوم الهمايونى اذا ذهب الأسرى الذين جاءوا من قبل حاكم المغرب طواعية الى الحرب يتم التحرير بخصوص ذلك ، ويرسل الى عبدكم أمين الترسانة الخاصة ، واذا رفض المذكورون ساعة التكليف وقدموا بعض الاعذار ، فعلى عبدكم الأغا أمين الترسانة المومىء اليه عرض ذلك على العتبة العلية . لماذا أرسل حاكم المغرب هؤلاء ؟ أيريد أن يمد الجيش بهم ؟ اذا كان ذلك من أجل الثواب لكان عليه أن يردهم الى بلادهم ... انهم يرفضون الذهاب للمعركة ويقولون لانريد أن نذهب الى معسكر الانكشارية . أليست هذه روح عساكر الكفار ؟ تشرف الخط الهمايونى العظيم بالصدور طبقا لما ورد عاليه

---

(٢٧) المصدر السابق .

(٢٨) وثيقة رقم ٢/١ — ٣٥١ تقرير مرفوع الى السلطان العثمانى لايعرف كاتبه وربما كان الباشا القائمقام — بدون تاريخ . انظر ملحق رقم ٣

فى التذكرة المذكورة بخصوص تكليف شباب هؤلاء العساكر بالعمل الذى يجيدونه وترفض طائفة العساكر هذه الذهاب للحرب برضى وطواعية للعمل فى سبيل الدين لأنها تفتقد الى الخصال الحسنة والغيرة والحماس الذى يوجد فى الجنود عادة ، حيث أنها جبلت على افساد العالم فى نفس الوقت ، وهذا مايتطابق مع ماجاء فى الخط الهمايونى تماما ويتفق مع الواقع أن عبدكم قد أصابته الحيرة والدهشة من هذا الوضع ويتوسل الى الله تعالى التصفية على هذه الادعاءات[٢٩] •

— ونظرا لرفض هؤلاء الأسرى الانضمام الى الانكشارية فقد رأت الدولة العثمانية الاستفادة منهم فى ناحية أخرى ، وهى ارسالهم الى المعسكرات لكى يعملوا كملاحين للسفن ، فقد كان جزء كبير منهم من الملاحين وعلى معرفة بأحوال البحار ولايمكن الاستفادة منهم كمحاربين فى القوات البرية فقد جاء فى التقرير السالف المرفوع للسلطان « لن يرسل الأسرى الى ولاياتهم ، ولكنهم سيرسلون الى الاستانة العليه •• وأغلب الأسرى المذكورين الذين أرسلوا الينا هذه المرة من عرب المغرب ، وجزء منهم من الملاحين على حد قولهم ، ولا أمل على الاطلاق فى أنهم ينفعون اذا أرسلوا لحرب برية • واذا صدر الأمر فسيرسل ثلاثمائة منهم الى المعسكرات لكى يعملوا على السفن كملاحين لأنهم يعرفون أحوال البحار جيدا ، وفضلا عن أنهم يجيدون الملاحة فسوف يتم تنظيمهم بناء على مايراه قواد السفن ، واذا وافق الرأى السامى على أن يرسل العدد المذكور الى المعسكرات لكى يعملوا كملاحين • اقتضى الوضع كتابة تحريرات بهذا الخصوص من قبل عبدكم أمين الترسانة[٣٠] •

وتشير الوثائق التركية التى تحت أيدينا الى الهدايا والأموال التى كان يرسلها مولاى محمد الى الحرمين الشريفين عن طريق الدولة العثمانية

---

(٢٩) المصدر السابق •

(٣٠) المصدر السابق •

فهناك وثيقة بدون تاريخ تشير الى أن سفير مولاي محمد قد طلبه من الدولة تحويل السبائك التى أهديت الى أهالى الحرمين الشريفين مع السفرة السلطانية الى « زر محبوب » وقد عرض الصدر الأعظم ذلك على السلطان العثمانى ، الذي أشر على ذلك بقوله « اذا كان لايحصل فى ذلك خسارة لجهة الميرى ، فأحيل الأمر الى الدفتردار لينظمه مع الأغا ناظر الضربخانة ، والسفير المذكور »[٣١] وقد تبين أنه لايمكن تحـويل هذه السبائك الى « زر محبوب » ورؤى من المناسب ارسال السبائك كما هى الى بلاد المغـرب كى ترسل عينا »[٣٢] وقد أشر السلطان على هذا التقرير الذى بعث به اليه الصدر الأعظم بكلمة « اولماذا » أى لايكون[٣٣] ونحن لاندرى هل المقصود بذلك ، انه لايوافق على تحويل السبائك الى « زر محبوب » أو انه كان يقصد بذلك عدم موافقته على عودة السبائك الى المغرب كى ترسل بدلا منها الأموال • وان كنا نرى أن السلطان العثمانى كان يقصد الأمر الأول ، اذ ليس من المعقـول أن لا يوافق السلطان على عدم عودة السبائك الى المغرب كى ترسل عينا ، حتى لايؤدى الى سوء العلاقة بين البلدين •

وهناك وثيقة تركية أخرى تشير الى أن مولاى محمد كان قد أرسل فى أحد المرات الفى كيس « الكيس خمسمائة قرش » من النقود الى الحرمين الشريفين ، مع أربع سفن كهدية للدولة العثمانية[٣٤] ومن العجيب أن كاتب هذا التقرير السابق يفسر ارسال مولاى محمد الأمـوال الى الحرمين وكذلك السفن الى الدولة العثمانية بأن ذلك يرجع الى أن الحاكم المذكور — يقصـد مولاى محمد — يحب التظاهر كما يدل على ذلك

---

(٣١) وثيقة رقم ٢/١ — ١٠ بدارة الملك عبد العزيز بالرياض • من الصدر الأعظم الى السلطان بدون تاريخ • أنظر ملحق رقم ٤ •

(٣٢) المصـدر السابق •

(٣٣) المصـدر السابق •

(٣٤) المصـدر السابق •

مشربه »[٣٥] ويبدو أن مولاى محمد كان من هذا الطراز من الحكام الذين يحبون التظاهر والمفاخرة ، فقد رأينا الناصرى مؤرخ المغرب الشـــهير أثناء الحديث عن سفارة الزيانى سنة ١٢٠٠هـ — ١٧٨٦م للدولة العثمانية والتى حمل فيها الزيانى سبائك الذهب كهدية الى الدولة العثمانيــة يعلل عظمة هذه الهدية الى أن مولاى محمد كان « يقصد بمثل ذلك الفخر على الملوك واظهار الغنى وكمال الثروة وذلك من غريب السياسة لمن أقدره الله عليها »[٣٦] • ويكرر الناصرى ذلك أثناء الحديث عن « انعقاد المصاهرة بين السلطان سيدى محمد بن عبد الله وبين الشريف سرور حيث قال : « كان السلطان محمد بن عبد الله يحب الفخر ويعنى به »[٣٧] •

وتتحدث وثيقة أخرى ، مؤرخة في جمادي الثانية ١٢٠٤هـ / ١٧٩٠م وهى عبارة عن تقرير من الباشا القائمقام الى السلطان سليم الثالث ، عن أن مولاى محمد قد أرســل ســنة ١٢٠٤هـ سفارة جعل على رأسها القائد طاهر بن عبد الحق ومعه هدية عبارة عن ألف سبيكة من الذهب كى توزع على فقراء الحرمين الشريفين[٣٨] وتشير هذه الوثيقة الى هــدايا « مولاى محمد » الى الدولة العثمانية التى كان أرسلها من قبل فتقــول « لما كان المشار اليه — مولاى محمد — قد أرسل فيما سبق ألف قنطــار من البارود على سبيل الهدية للدولة العليا • وبعد ذلك أرسل أربع قطع من السفن وخلص خمسمائة وخمسة وثلاثين أسيرا وأرسلهم الينا »[٣٩] •

وتشير الوثيقة بعد ذلك على أن الذهــب المرسل من مولاى محمد — قد وصــل « الى مكانه بصحبة أمين البصرة الهمايونية وســيد على

---

(٣٥) المصــدر السابق •
(٣٦) الناصرى ، المصدر السابق ، ص٦٠ •
(٣٧) المصدر السابق ، ص٣٤ •
(٣٨) وثيقة رقم ٢/١ — ٢٨٥ بدار الملك عبد العزيز بالرياض ، أنظر ملحق رقم ٥ •
(٣٩) المصــدر الســابق •

من قبل الحاكم المشار اليه لكى يوزع على أصحابه بموجب قائمة »[٤٠]
ولما كان سيد على الشيبانى وهو من قبل مولاى محمد قد ذهب مع أمين الصرة الهمايونية ، من قبل الدولة العثمانية الى الحرمين الشريفين كى يشرف بنفسه على توزيع الذهب على أصحابه ، بموجب قائمة يحملها ، فان الباشا القائمقام قد اعتبر ذلك تدخلا من قبل سيد على الشيبانى مندوب مولاى محمد وطالب بأن لايتدخل أحد من المغرب فى الحرمين الشريفين عن طريق الدولة العلية وأورد لذلك الأسباب الاتية : —

أولا :

بعد المسافة بين بلد الحاكم المشار اليه — مولاى محمد — وبين الحرمين الشريفين .

ثانيا :

ومن ناحية أخرى اذا اقتضى الموضوع ارساله هو ، فلن يوزع على أصحابه الذين يستحقونه .

ثالثا :

لما كان قد أرسل عطايا وافرة الى شريف الحرمين وابنه ، اتضح أن الشريف سرور[٤١] المتوفى قد بددها ، كما بدد ابنه أكثر منه ، وبدد الشريف الحالى ، الشريف غالب أيضا[٤٢] لهذه الأسباب السالف ذكرها ، يرجو القائمقام توزيع العطية وتقسيمها كلها علي أصحابها بمعرفة أمين الصرة تحت رعاية الدولة العلية كى لايتدخل أحد فى أمر العطية التى أرسلها سالف الذكر أو يتعرض لها »[٤٣] .

---

(٤٠) المصدر السابق .

(٤١) كان الشريف سرور متزوجا من ابنة مولاى محمد . وقد تزوجها فى سنة ١١٨٢هـ / ١٧٦٨م .. أنظر الناصرى ، المصدر السابق ، ص٣٤ .

(٤٢) المصدر السابق .

(٤٣) المصدر السابق .

وقد أرسل مولاى محمد مع سفيره طاهر بن عبد الحق رسالتين الى السلطان سليم الثالث والصدر الأعظم فقد كتب على حاشية الوثيقة السابقة « ترجمة الرسالتين العربيتين اللتين أرسلهما هذه المرة حاكم المغرب الداعى لكم « مولى محمد » الى العتبة الملكية على يد وزيره طاهر بن عبد الحق فى جمادى الثانية ١٢٠٤هـ [٤٤] كما كتب أيضا « ترجمة الرسالة وترجمتها للخلاصة الهمايونية لكى تعرض على الحضرة السامية

وقد تبين أن الرسالة وترجمتها قد تم عرضهما ، وسوف تقدم رسميا فيما بعد نفس الرسالة التى أرسلت للصدر الأعظم ، وأصل الهفارة التى سترسل الى السفير .. » [٤٥] ، ويتضح من هذا التعليق السابق أن السلطان سليم الثالث قد أرسل مع السفير « طاهر بن عبد الحق » ردا على رسالة مولاى اليه .

وهناك سفارة أخرى أرسلها مولاى محمد الى الدولة العثمانية وهى سفارة محمد بن عبد الله رئيس وزراء مولاى محمد وصهره كما تذكر ذلك الوثيقة التى سنتعرض لها الان . من هذه الوثيقة عبارة عن تقرير مرفوع من رئيس الكتاب على مايعتقد السلطان العثمانى [٤٦] . وهو بدون تاريخ يتحدث فيه كاتبه عن مراسم استقبال سفير المغرب السالف الذكر من قبل الصدر الأعظم . وتبدو أهمية هذه الوثيقة فى أنها تعطينا وضعا تفصيليا لمراسم استقبال سفير المغرب فقد جاء فيها « أرسل مولى محمد حاكم المغرب الداعى لكم رئيس وزرائه وصهره محمد بن عبد الله سفارة الى العتبة العلية المتعلقة بالخلافة العظمى ، وعندما

---

(٤٤) المصدر السابق .

(٤٥) المصدر السابق .

(٤٦) وثيقة رقم ٢/١ — ٥٦٦ بدار الملك عبد العزيز بالرياض . انظر ملحق رقم ٦ .

وصلت الارادة فى ذلك اليوم ، مرغ الوجه على الباب الأصفى « بـاب الصدر الأعظم » وذكر ماجرى ترتيبه •

تحرك المومى اليه « سفير مولاى محمد » من منزله فى الساعة الرابعة حسب التوقيت المستعمل • وعندما وصل الى الباب الأصفى نزل فى « نيكطاش » المخصص لأغوات قواد الجاويشية • وقد استقبله فى « نيكطاش » أغا السلام وأغوات بلوك الحجاب ، وبعد أن قضى ومرافقوه جلسة خفيفة فى غرفة الضيوف ، دخل غرفة الاستقبال الخاصة بالصدر الأعظم ، وقد تفضل حضرة سيدنا صاحب الدولة الباشا القائمقام باستقباله فى وسط الغرفة ، وبعد أن شرب القهوة ، سلم رسائله وتحريراته الى الأفندى رئيس الكتاب ، ثم ألبس بعد ذلك سمورامى الكورك • ووضع على كتفه شال هندى ، كما ألبس اثنان من نوابه وكاتب سره الخلعه وألبس خازنه ووكيل خراجه الخلع ، وألبس مترجمة شالا من الصوف ، وألبست الخلع لعدد محدد من خدامه وبعد ذلك قابلهالكتخدا بك ورئيس أفندى « ناظر الخارجية » ثم أعيد الى منزله بعد استكمال المراسم له »[٤٧] •

وتتحدث الوثيقة بعد ذلك عن التشريفات التى أجريت لسفير المغرب والتى جاءت على النحو التالى :[٤٨]

— أغوات السوباشى والعسسى باشى من العبيد « من قوات الشرطة »

— بعدهم الأغوات المرشدون من العبيد •

— بعدهم عشرة من أغوات جاويشية الديوان الهمايونى من العبيد الذين يلبسون الزخرف •

— بعدهم العبد مترجم الحرمين ومترجموه أيضا •

---

(٤٧) المصدر السابق •

- بعدهم الأغا كاتب الجاويشية وأمينه من العبيد •

من العبيـــد •

- بعـــدهم أغاوات الضـــيافة من العبيد والعامل على خزينة الشريفات

- بعدهم هؤلاء العبيـــد •

- بعدهم أربعة من كتخدا الأبواب من العبيد « أي معقبو أمـــور الولايات فى الاستانة •

- وراءهم عبدكم السفير المومى اليه •

- بعده نائبه وكاتب سره من العبيد •

- بعده المكاف خزائنه ووكيل خراجه من العبيد •

وكان السفير المذكور يحمل معه رسالة من مولاي محمد ، فقد جاء في تقرير مرفوع من الباشا القائمقام الى السلطان بدون تاريخ ، « دعي الى الأبواب فى الساعة الرابعة من هذا اليوم سفير المغرب الداعى لكم الذى حل بالأبواب العالية العطوفة ، وبعد تقديم اجراءات مراســـم الضيافة له ، وجد أنه يحمل رسالة من حاكم المغرب عندما التقينا به»[٤٩] كما أشارت هذه الوثيقة الى مراسم الاســـتقبال التى أجريت لســـفير المغرب ، فقد جاء فيها « ليكن معلوما لدى الذات السلطانية أن الســـفير المشار اليه أجرت له مراسم التشريفات كما حدث لسفراء المغرب الذين وردوا قبل ذلك ودعوا للابواب العالية • وقد عرض الأمر على الحضرة الهمايونية فى ورقة منفصـــلة»[٥٠] •

وتشير احدى الوثائق التركية الى تقديم أحد سفراء المغرب هدية أثناء مقابلته للصدر الأعظم فقد جاء فيها « حضر سفير المغرب الى الأبواب بينما كان يقدم هديته أثناء تقديم رسالته أو لم يرد بالخاطر بســـبب

---

(٤٩) المصـــدر السابق •

(٥٠) المصـــدر السابق •

مهابة تقبيل الأعتاب الشاهانية »[٥١] ويبدو أن المقصود بهذا السفير هو « محمد بن عبد الله » رئيس وزراء وصهر مولاى محمد وكانت الهدية عبارة عن « الأوعية المأثورة داخل محفظة من الذهب أطرافها مزدانة بفصوص من الماس ووسطها من الزمرد »[٥٢] . وقد علق السلطان على هذه الوثيقة بقوله « اطلعت على هديته ، تترجم رسالته وتعرض على »[٥٣] .

وهناك سفارة أخرى ورد ذكرها فى الوثائق التركية ، وهى سفارة محمود باشا ، الذى يعتقد بأنه من أقرباء « مولاى محمد » ومن الشخصيات الهامة فى المغرب[٥٤] وقد أنزل هذا السفير أول الأمر فى أحد القصور وكان السلاملك به « قاعة الاستقبال » ، ضيقات ويبدو أن هذا القصر لم يكن يليق بالسفير المغربى المذكور ، لمكانته « ولوجود اعتقاد بأن السفير المشار اليه من أقرباء الحاكم الموصى اليه ، ومن الأكابر هناك »[٥٥] وقد أشار السفير المغربى بذلك الى المسئولين الأتراك فقد أبلغهم بأن سفير المغرب السابق كان ينزل فى قصر السلطان ولا يليق بمقامنا هذا المكان الضيق[٥٦] ولهذا فقد ارتأى الباشا القائمقام نقله الى قصر « أسماء السلطان » وأرسل الى السلطان باقتراحه هذا . وقد وافق السلطان على ذلك وأشر على اقتراح الباشا القائم مقام قائلا « أسكن السفير فى قصر أسماء سلطان »[٥٧] .

---

(٥١) وثيقة تركى رقم ٢/١ — ٣٦١ بدارة الملك عبد العزيز بالرياض . أنظر ملحق رقم ٧ .

(٥٢) المصدر السابق .

(٥٣) المصدر السابق .

(٥٤) وثيقة تركية رقم ٢/١ — ٣٤٤ بدارة الملك عبد العزيز بالرياض من الباشا القائمقام الى السلطان العثمانى — بدون تاريخ .

(٥٥) المصدر السابق .

(٥٦) المصدر السابق .

(٥٧) المصدر السابق .

وتشير احدى الوثائق التركية « بدون تاريخ » الى ارسال مولاى محمد خزنتين على ظهر سفينتين اسبانيتين هدية الى الدولة العثمانية بالاضافة الى أربع صناديق تحمل كل واحدة منها ستة وثلاثين مدفعا[58] .

هذا عن السفارات المتبادلة بين مولاى محمد والدولة العثمانية التى ورد ذكرها فى الوثائق التركية التى تحت أيدينا .

وكان السلطان العثماني يقوم باعطاء الهدايا الى بعض سفراء المغرب الذين يردون من طرف مولاي محمد ، سواء عند حضورهم أو عند مغادرتهم ، وأحيانا كان يكتفي باعطاء الهدايا للبعض منهم عند ذهابهم فقط[59] وتشير احدي الوثائق التركية الى انه قد أعطى الى أحد سفراء المغرب واتباعه مبلغ ١٨٠٠ قرش عند وصوله ولكن بسبب أوجه الصرف الكثيرة للدولة العثمانية فقد صرف النظر عن اعطاء هدايا الى هذا السفير عند عودته . الا أن السفير المذكور أرسل على ظهر السفينة التى يركبها متجها بها الى المغرب يطلب مصروف للطريق ويطلب خمسة أو ستة أكياس من الاقجة[60] ولاندرى ان كانت الدولة العثمانية قد استجابت لطلبه **أم لا** .

أما عن سفارات الدولة العثمانية الى المغرب فى عهد مولاى محمد، فتشير احدى الوثائق التركية الى سفارتين ، احداهما هى سفارة أحمد عزمى أفندى مأمور التحريرات[61] . وقد ورد ذكر هذه السفارة فى

---

(٥٨) وثيقة تركية رقم ٢/١ ـــ ٣٠٩ بدون تاريخ بدارة الملك عبد العزيز بالرياض من أمين الجمرك الى السلطان العثماني .

(٥٩) وثيقة تركية رقم ٣٢/٦ بدارة الملك عبد العزيز بالرياض ـــ يعتقد أنها من الباشا القائمقام الى السلطان العثمانى . انظر ملحق رقم ٨ .

(٦٠) المصـــدر السابق .

(٦١) وثيقة تركية رقم ٢/١ ـــ ٥٨٢ بدارة الملك عبد العزيز بالرياض من الباشا القائمقام الى السلطان العثمانى ، بتاريخ ١٢٠٥هـ . انظر الملحق رقم ١١

المصادر المغربية[٦٢] . والسفارة الثانية هي سفارة محمد أفندى الموصلى احد العلماء[٦٣] .

هذا عن العلاقات المغربية العثمانية فى عهد مولاى محمد كما صورتها الوثائق التركية . وقد خلف مولاى محمد فى حكم المغرب ابنه مولاى يزيد ، وقد أشارت احدى الوثائق التركية الى ذلك وهى عبارة عن تقرير مكتوب من شخص يسمى مسعود بائع العبيد عن وفاة مولاى محمد بن عبد الله ابنه يزيد »[٦٤] جاء فيه : « أفاد بائع العبيد المشار اليه في تونس — مسعود — بأنه تحقق نبأة وفاة مولى محمد حاكم فاس . وأن ابنه الكبير يزيد قد تولى أمر البلاد بعد أبيه . وكان يزيد المشار اليه قد قام بقتل وتدبير وأخذ أموال كثير من التجار اليهود ، عندما حل محل أبيه ، ولذلك تقرر وبصفة نهائية التوجه الى ميناء سبتة لجمع كثير من العساكر[٦٥] ويتضح من هذه الوثيقة السابقة أن مولاى يزيد بن محمد قد قام بالتنكيل بيهود المغربه ، كما أنه أخذ يستعد لحملته على سبته والتى انتهت بمقتله .

أما عن العلاقات العثمانية فى عهد مولاى يزيد بن محمد ١٢٠٤ — ١٢٠٦هـ ١٩٧٠ — ١٧٩٢ كما جاءت فى الوثائق التركية فنجد اشارة في احدي الوثائق التركية الى احدى السفارات التي أرسلها مولاى يزيد الى السلطان العثماني سليم الثالث في عام ١٢٠٥هـ / ١٧٩١ وهي عبارة عن تقرير من الباشا القائمقام الى السلطان سليم الثالث يطلب فيه الموافقة على عبور احدى البوارج الأنجليزية من البوغاز وهي تحمل سفير المغرب .

---

(٦٢) حسن ابراهيم شحاتة ، أطوار العلاقات العثمانية — المغربية ص٤٤٧ الاسكندرية ١٩٨١ .

(٦٣) وثيقة تركية رقم ٢/١ — ٥٨٢ بدارة الملك عبد العزيز بالرياض .

(٦٤) وثيقة تركية رقم ٧/١ — ٣٤ بتاريخ ٢٥ محرم ١٢٠٥ هـ انظر ملحق رقم ١٠ .

(٦٥) المصدر السابق .

جاء فيه « ورد في التقرير الذي قدمه سفير انجلترا أنه قد وردت اليوم الى قلاع البوغاز لابارجة الانجليزية التي تحمل سفير المغرب هذه المرة لكي يدخل دار السعادة ويطلب الموافقة على عبور البارجة المذكورة من البوغاز . عندما يتم المنظور السامي عند عرض التقرير المذكور على العتبة العلية ، فان صدور الفرمان متعلق بسلطاني العظيم مولاي ولي نعمتي صاحب الشوكة والكرامة والقدرة(٦٦) وقد علق السلطان على ذلك بقوله « فلتأت بموجب اذني السلطاني ، ولا داعي لأن تعزف الجوقة الرسمية »(٦٧) ، ولا ندري لماذا أمر السلطان بعدم عزف الفرقة الموسيقية الرسمية ، وربما يرجع ذلك الى حداد الدولة على موت مولاي محمد .

ومما يثير الانتباه وصول سفير المغرب الى الدولة العثمانية على احدى البوارج الانجليزية ، وربما كان ذلك نتيجة لاعلان مولاي يزيد الحرب على أسبانيا ومحاصرته لميناء سبته من أجل استرداده ، ونقض الصلح الذي سبق أن عقده والده مع أسبانيا سنة ١١٧٩هـ / ١٧٦٥ . فخشى أن يقع في أيدي الأسبان وحلفائهم من الفرنسيين ، ولذا فقد سافر على هذه البارجة الانجليزية ، خاصة اذا أدركنا أن مولاي محمد كان يستميل الدول البروتستانتية التي كانت قد تكتلت في حرب السنوات السبع ضد فرنسا وأسبانيا معا ، فعقد معاهدة تجارية مع الدنمرك كما جدد المعاهدة البريطانية المعقودة سنة ١٧١٦ — (٦٨) بين مولاي اسماعيل والحكومة البريطانية — وهي معاهدة تجارية حصلت بريطانيا من وراءها على عدة امتيازات ، وأصبحت منذ ذلك الوقت وحتى قبيل الحماية الفرنسية أكبر عميل في تجارة المغرب الخارجية(٦٩) .

---

(٦٦) وثيقة تركية رقم ٢/١ — ٣٦٣ بدارة الملك عبد العزيز بالرياض وهي بتاريخ ١٢٠٥هـ كما كتب عليها . أنظر ملحق رقم ٩ .

(٦٧) المصدر السابق .

(٦٨) صلاح العقاد ، المصدر السابق ، ص٧٤ .

(٦٩) المصدر السابق ، ص٧٢ — ٧٣ .

ونعتقد أن السفارة السابقة هي سفارة سيد قائد محمد ، حيث تشير وثيقة أخرى اليه ، فهي تتحدث عن سفارة سيد قائد محمد الذي جاء من قبل الحاكم المشار اليه[70] ثم تشير بعد ذلك الى عودته الى بلاده على السفينة الانجليزية التي أتى عليها »[71] • وسواء أكانت السفارة السابقة هي سفارة سيد قائد محمد أم لا فانه من المؤكد أن هناك سفارة سيد قائد محمد الى الدولة العثمانية من قبل مولاى يزيد ، مما يدل على استمرار العلاقات الودية بين الطرفين في عهده •

وقد قوبل سيد قائد محمد — مثل غيره من سفراء المغرب — بالترحاب من جانب الدولة العثمانية فقد قام كبار الشخصيات في الدولة باستضافته ، والى ذلك تشير الوثيقة السابقة الى ذلك ، وهي عبارة عن تقرير مرفوع من الباشا القائمقام الى السلطان العثماني سليم الثالث ، جاء فيه : « كان عبيدكم من رجال الدولة العثمانية يدعون الى منازلهم أيام متفرقة الذين يردون الى دار السعادة — القسطنطينية — مع سفارة من قبل حكام المغرب في السابق ، ويوفون بواجبات الاكرام والضيافة ، وقد أخبرونا بأنهم قد عقدوا العزم على دعوة سيد قائد محمد الذى جاء من قبل الحاكم المشار اليه وأمثاله • وقد استضاف عبدكم الباشا القبطان « قائد عام البحرية » السفير المومى اليه ذات يوم ، كما قام عبدكم الكتخدا وعبدكم الدفتردار باستضافته عدة أيام وقام الرييس أفندي « ناظر الشئون الخارجية » بدعوته بالأمس • وانتهت مراسم الولائم والاكرام »[72] •

وعند عودة سيد قائد محمد الى بلاده ، طلب من المسئولين في الدولة العثمانية ارسال سفير من قبلها « لابداء مظاهر التبريك والسعادة

---

(٧٠) وثيقة تركية رقم ٢/١ — ٥٨٢ بدارة الملك عبد العزيز بالرياض من الباشا القائمقام الى السلطان بتاريخ ١٢٠٥هـ •

(٧١) المصدر السابق •

(٧٢) المصدر السابق •

بمناســبة جلوس حاكم المغرب مولى محمد يزيد ــ بقصد مولاى يزيد بن محمد ــ على العرش مكان أبيه[٧٣] وقد أجاب عليه الدفتردار « ناظر الشــئون المالية » قائلا : « لا أدرى بماذا تصدر الارادة السامية لمولانا فى هذا الخصوص • لننظر وســوف نخبركم بفحــوى الارادة اذا صدرت »[٧٤] وقد أرسل الباشا القائمقام يخبر السلطان بطاب سـفير المغرب « سيد قائد محمد » السالف الذكر طالبا اليه ابداء رأيه فى هذا الموضوع اما « بارسال عبد لكم يرافق السفير لتهنئة الحاكم المشار اليه بتولى الحكم مكان أبيه أو بتأخير الموضوع »[٧٥] وقد أجاب الســلطان على ذلك بالموافقة على ارسال سفير من قبل الدولة العثمانية مع السفير المغربى للتهنئة ، بحيث يحمل رسائل من الســلطان العثمانى ردا على الرسائل التى كان يحملها سيد قائد محمد عند مجيئه من المغرب فقد علق السلطان على تقرير الباشا القائمقام بقوله « الباشــا القائمقام ، من المناسب فى نظرنا ، ارسل مع السفير المذكور لست أدرى اذا كان ينبغى ارسال رسول للتهنئة ، وفى نظرنا انه اذا أرسل فيما بعد لايكون مناسبا • والآن أكتب الرد على التحريرات التى وصلت ، اعرضه علينا • هل يمكن أن نعطيه فى يده هذه التحريرات »[٧٦] •

ويعلل الباشا القائمقام حرص سيد قائد محمد على اصطحاب سفير عثمانى معه على ظهر البارجة الانجليزية لتهنئة مولاى محمد بمناســبة جلوسه على العرش الى ســببين أحدهما : أن الحاكم المشار اليــه يقصــد مولاى يزيد ــ على وشــك محــاربة الأسبان حاليًــا ، وهذا اشعار باهتمام دولته العلية به • والآخر هو : أن السفير المومى اليه

(٧٣) المصــدر الســابق •

(٧٤) المصــدر السابق •

(٧٥) المصــدر الســابق •

(٧٦) المصــدر الســابق •

ـ سيد قائد محمد ـ على وشك العودة الى بلاده على السفينة الانجليزية التى أتى عليها • وعلى الرغم من وجود العداوة القائمة هذه الأيام بين الانجليز والأسبان والفرنسيين فلربما تصادفه احدى سفن أسبانيا ، وفرنسا أثناء الطريق ، ومن الملاحظ أن وصول رسول من قبل الدولة العلية يمنع الضرر والخطر [77] •

***

وبعد أن استعرضنا سويا « الوثائق التركية التى تتعرض لموضوع العلاقات المغربية العثمانية فى عهدى كل من مولاى محمد بن عبد الله وابنه مولاى يزيد •• يتضح لنا أهمية هذه الوثائق فى دراسة موضوع العلاقات المغربية ـ العثمانية بصفة عامة ، اذ أن هذه الوثائق تعطى لنا الوجه الاخر من هذه العلاقات ، وتعنى به الطرف العثمانى فمعظم الذين تصدوا لهذا الموضوع اقتصروا على دراسة الموضوع فى ضوء المصادر المغربية فقط وهذه فى رأينا لايمكن أن يفى بالغرض المقصود ، اذ أنها تبدو مبتورة ناقصة كما او كنا قد اعتمدنا على الوثائق التركية فقط فهى وحدها لاتكفى أيضا • فالصورة لاتبدو واضحة الا من خلال الإعتماد على المصادر بنوعيها المغربية والتركية سواء أكانت مؤلفة تاريخية أو وثائق رسمية بالاضافة الى المصادر الأوربية ولهذا ياحبذا لو أعيد كتابة هذا الموضوع اعتمادا على هذه المصادر التركية الى جانب المصادر الأخرى •

---

(77) المصدر السابق •

الملاحــق

ملحــق رقم ١ ،

رقم الوثيقة ١/٢ ــ ٣٠٦ تركى بدارة الملك عبد العزيز بالرياض

الموضــوع :

حاكم المغرب يحرر ٥٣٦ من المسلمين من الأسرى ويرسلهم الى الاسـتانة • وهى عبارة عن تقرير مرفوع من أمين الجمرك الى السلطان العثمانى بدون تاريخ •

النــص :

تقرير عبدكم أمين الجمرك • عندما تتفضل الذات السلطانية بالنظر والعام يصدر فرمان حضرة ولى الأمر •

أرســل حاكم المغرب نائبه الى مالطة فى هذه الاونة فاشــترى خمسمائة وستة وثلاثين من المسلمين وخلصهم من الأسر ، وقد وصل بهم الى الاستانة السعيدة اليوم على ظهر سفينتين فرنسيتين •

أرسل حاكم المغرب المشار اليه للدولة العلية خزينتين على ظهــر سفينتين أسبانيتين على سبيل الهدية ، فضلا عن تقديمه أربع ســفن تحمل كل واحدة منها ستة وثلاثين مدفعا ، وقد كتبت تقارير بخصــوص هذا الموضوع من قبل رجال الكتخدا النائب ، المومى اليه ، والأسـير الســابق بمالطة القطبان أحمد أحد القباطنة الأميرية والأسرى الذين خلصوا هذه المرة وسبق ذكرهم • ولم تدخل الاستانة حتى الان السفن الأربع الهدية ، وسفينتا الخزينتين ، وقدروا جميعا قائلين : سوف يساعدها الهواء وتصــل الى الأماكن القريبة ثم تصل الى دار السعادة اليــوم أو غدا وبعون عناية البارى وعندما يعلم دولتكم فان الأمر والفــرمان متعلقان بحضرة من له الأمــر •

ملحق رقم ٢ :

رقم الوثيقة ١/٢/ حـ ٣٤٤ تركى بدارة الملك عبد العزيز بالرياض

الموضوع :

تتناول هذه الوثيقة ثلاثة موضوعات هى :

١ ـ طلب الموافقة على نقل سفير المغرب الى قصر أسماء السلطان ليكون مناسبا لسكناه •

٢ ـ تعيين الجاويشية من الترسانة « العثمانية » على الأسرى المسلمين •

٣ ـ طلب الموافقة على أعطاء الأسرى منحة •

وهى عبارة عن تقرير مرفوع من الباشا القائمقام الى السلطان العثمانى • بدون تاريخ •

النص :

ولى نعمتى وسيدى صاحب الشوكة والكرامة والمهابة والمقدرة ، نقل محمود باشا السفير الذى جاء من المغرب الى القصر المجاور له ، والمستأجر من المحارب العربى عمر أغا • أن الموصى اليه وحرمه يسكنان سويا بالقصر • وعندما سكنت حرمه بالقصر المذكور ، فان السلاملك[١] لم تكن كافية لها • وقد استدعى الوضع نقله فى مكان آخر ، ولوجود اعتقاد بأن السفير المشار اليه من أقرباء الحاكم الموصى اليه ، ومن الأكابر هناك ، فان هذا لايليق به • ولقد افضى بهذا الكلام : لقد أسكن سفير المغرب الذى سافر من عندنا من قبل فى قصر السلطان ، ولا يليق بمقامنا هذا المكان الضيق • وعندما ينمو الخبر للمعلوم السامى ، فان كان موافقا للرأى السامى نقله الى غرفة استقبال سراى « أسماء السلطان » بجوار ميناء قدرغمه واسكانه بالقصر يتم نقله اليوم •

(١) السلاملك : هو قاعة استقبال الضيوف •

تعين الجاويشية من الترسانة العامرة على الأسرى الذين احضروا ويرسلون مع حراسهم • جرى التنبيه بأنه سيحدث مرور بالقرب من قصر « الا » والمجيء الى الأبواب وقت الظهر من هذا اليــوم • وقد أرسل رســـول الى الميناء لاطلاع عبدكم على خبر التشريفات بالقصر المذكــور •

بعد أن يأتى هؤلاء الى الأبواب ينقلون الى معسكر قاليونجى الحالى وطبقا للفرمان الهمايونى الذى صدر بالأمس يجرى استجوابهم هــل يريد أحد منهم أن يذهب للحرب طواعية ثم يعرض الموضوع على الحضرة الســامية • وعلى الرغم من أن ملك المغرب خاصيــهم بالنقود لاطلاق سراحهم وأرسل الهدايا للدولة العليا ، فان جرى اكرامهم فانهم سيقولون أن اكرامنا لم يأت من الدولة العلية • واعتقد أن المناسب فى هذه الحالة أن تعطى كلا منهم بقشيشا « منحة » واذا صــدرت الارادة بتحــديد المقدار الذى يوهب لكل منهم فسيتم التنفيذ • وعندما ينمو العلم المعلوم السامي ، فان صدور الفرمان راجع لحضرة من له الأمر •

وقد علق السلطان على هذا التقرير قائلا :

البشا القائمقــام

أسكن السفير فى قصر اسماء سـلطان •

لعط البقشيش « المنحة » بالطريقة المناسبة للاسرى •

ملحــق رقم ٣ :

رقم الوثيقة ١/٢ ـــ ٣٥١ تركى بدارة الملك عبد العزيز بالرياض

الموضــوع :

تخصيص الذهب المرسل من حاكم المغرب للحرمين وارسال ثلاثة من الأسرى الى الترسانة لمعرفتهم بأحوال البحر •

وهو عبارة عن تقرير موضوع الى السلطان العثمانى لايعرف كاتبه وربما كان الباشا القائمقام ، بدون تاريخ .

النص :

ولى نعمتى وسيدى صاحب الشوكة والكرامة والمهابة والمقدرة بناء على المعلوم للهمايونى ، اذا ذهبت الأسرى الذين جاءوا من قبل حاكم المغرب طواعية الى الحرب ، يتم التحرير لخصوص ذلك ، ويرسل الى عبدكم أمين الترسانة الخاصة ، واذا رفض المذكورون مناعد التكليف وقدموا بعض الاعزاز فعلى عبدكم الأغا أمين الترسانة الموصى اليه عرض ذلك على العتبة العلية لماذا أرسل حاكم المغرب هؤلاء ؟ أيريد أن يمد الجيش بهم ؟ واذا كان ذلك من أجل الثواب لكان عليه أن يردهم الى بلادهم . أن الذهب لايكون من أجل المساعدة والاعانة ، انه يكون من أجل الحرمين ليس الا . ماهذه الهدية التى أرسلت مع السفير ؟ انهم يرفضون الذهاب للمعركة ، ويقولون لانريد أن نذهب الى معسكر الانكشارية . أليست هذه روح عساكر الكفار ؟ تشرف الخط الهمايونى العظيم بالصدور طبقا لما ورد عاليه فى التذكرة المذكورة بخصوص تكليف شباب هؤلاء العساكر بالعمل الذى يجيدونه . وترفض طائفة العساكر هذه الذهاب للحرب برضى وطواعية للعمل فى سبيل الدين ، لأنها تفتقد الى الخصال الحسنة والغيرة والحماس الذى يوجد فى الجنود عادة ، حيث انها جبلت على افساد العالم فى نفس الوقت وهذا مايتطابق مع ماجاء فى الخط الهمايونى تماما ويتفق مع الواقع . أن عبدكم قد أصابته الحيرة والدهشة من هذا الوضع ويتوسل الى الله تعالى النصفة على هذه الادعاءات . كان ينبغى أن يوزع الذهب والعسكر الذى ورد قبل حاكم المغرب كهدية فى حينها اعانة لغزاة الدولة العلية كما مضى الخط الهمايونى . لن يرسل الأسرى الى ولاياتهم . ولكنهم سيرسلون الى الإستانة العليه . وبخصوص الذهب للحرمين أيضا . وبناء على تقرير

سفير الحاكم المشار اليه فقد أرسل الحاكم المذكور ألفى كيس من النقود وأربع سفن على سبيل الهدية للدولة العلية وهى على وشك الوصول .
وهذا يدل بما لايدع مجالا للشك على أن الحاكم المذكور يجب التظاهر كما يدل على ذلك مشربه ، وأغلب الأسرى المذكورين الذين أرسلوا الينا هذه المرة من عرب المغرب وجزء منهم من الملاحين على حد قولهم ولا أمل على الاطلاق فى أنهم ينفعون اذا أرسلوا لحرب برية ، واذا صدر الأمر فسيرسل ثلاثمائة منهم الى المعسكرات لكى يعملوا على السفن كملاحين ، لأنهم يعرفون أحوال البحار جيداً . وفضلاً عن أنهم يجيدون الملاحة فسوف يتم تنظيمهم بناء على مايراه قواد السفن . واذا وافق الرأى السامى على أن يرسل العدد المذكور الى المعسكرات لكى يعملوا كملاحين اقتضى الوضع كتابة تحريرات بهذا الخصوص من قبل عبدكم أمين الترسانة . وعندما يتم المعلوم السامى ، فان الأمر والفرمان راجعان الى سلطانى العظيم مولى نعمتى وسيدى صاحب الشوكة والكرامة والمهابة والمقدرة .

ملحق رقم ٤ :

رقم الوثيقة ١/٢ – ١١٠ تركى بدارة الملك عبد العزيز بالرياض

الموضوع :

السبائك المهداه من قبل حاكم فاس المولى محمد التى طلب تحويلها الى زر محبوب . وهى عبارة عن تقرير مرفوع من الصدر الأعظم الى السلطان العثمانى . بدون تاريخ .

النص :

كنت عرضت فى تقرير سابق أن سفير حاكم فاس المولى محمد طلب بأن تحول السبائك التى أهديت الى أهالى الحرمين مع الصرة السلطانية فى هذا العام الى زر محبوب ، فأعيد الى التقرير موشحا

بالخط العثملنى بما يتضمن عملة اذا كان لايحصل فى ذلك خسارة لجهة الميرى ، فأحيل الأمر الى الدفتردار لينظمه مع الأغـا ناظر الضربخانة والسفير المذكور ولما تم هذا تبين أنه لايمكن تحويل السبائك الى زرمحبوب ورؤى من المناسب ارسال السبائك كما هى الى محلها ، كما قال بذلـك السفير الى ترجمان الحرمين ، وقد استأذن الدفتردار فى اعادة السبائك وتسليمها لترسـل عينا .

وانى اذ أقدم التقرير السابق لناظر الضربخانة فى هذا الصـــدد أرقب التفضل بالأمر والفرمان الذى هو منوط بحضرة ولى نعمتى السلطان

وقد أشر السلطان على التقرير بكلمة واحدة وهى « أولماز » أى لا يكـون .

ملحـق رقم ٩ :

رقم الوثيقة ٩/٢ ــ ٨٥ تركى بدارة الملك عبد العزيز بالرياض

الموضـوع :

ترجمة الرسالتين العربيتين اللتين أرسلهما مولى محمد حاكم المغرب بخصوص الذهب الذى أهداه لفقراء الحرمين . وهى عبارة عن تقـرير مرفوع من الباشا القائمقام الى السلطان العثمانى سليم الثالث ، فى جمادى الثانية ١٢٠٤هـ .

ترجمة الرسالتين العربيتين اللتين أرسلهما هذه المرة حاكم المغـرب الداعى لكم « مولى محمد » الى العتبة العلية الملكية على يد وزيره طاهر بن عبد الحق فى جمادى الثانية ١٢٠٤هـ .

النـص :

بعد الدعاء ،

لما كان الحاكم المشار اليه قد أرسل فيما سبق ألف قنطار من البارود

على سبيل الهدية للدولة العلية ، وبعد ذلك أرسل أربع قطع من السفن وخلص خمسمائة وخمسة وثلاثين أسيرا ، وأرسلهم الينا • فانه أرسل هذه المرة أيضا ألف سبيكة من الذهب مع القائد المشار اليه طاهر بن عبد الحق لكى توزع على فقراء الحرمين الشريفين فى عام ١٢٠٤ وبالتحديد وقد وصل الذهب المرسل الى مكانه بصحبة أمين الصرة الهمايونية ، وسيد على الشيبانى من قبل الحاكم المشار اليه لكى يوزع على أصحابه بموجب قائمة ، وأمر ألا يتدخل أحد فى هذا الموضوع أو يتعرض له • والمرجو أيضا أن يرسل الذهب عن طريق الدولة العلية فلذلك عدة سباب : أولا : بعد المسافة بين بلد الحاكم المشار اليه وبين الحرمين الشريفين ثانيا : ومن ناحية أخرى اذا اقتضى الموضوع ارساله هو ، فلن يوزع على أصحابه الذين يستحقونه • ثالثا : لما كان قد أرسل عطايا وافرة ذات مرة الى شريف الحرمين وابنه اتضح أن الشريف سرور المتوفى قد بددها ، كما بدد أبنه أكثر منه ، وبدد الشريف الحالى المسمى الشريف غالب، أيضا والمرجو توزيع العطية وتقسيمها كلها على أصحابها بمعرفة أمين البصرة تحت رعاية الدولة العلية ، كى لايتدخل أحد فى أمر العطية التى أرسلها سالف الذكر أو يتعرض لها •

وقد أشر السلطان على هذا التقرير بقوله :

« الباشا القائمقام قيأت الى الديوان كما جرت العادة » •

وكتب أيضا على حاشية الوثيقة •

« ترجمت الرسالة العزيزة التى وردت بالأمس من حاكم المغرب الى الصدر الأعظم ، وقد أرسلت الرسالة وترجمتها الخاصة الهمايونية لكى تعرض على الحضرة السامية وقد تبين أن الرسالة وترجمتها قد تم عرضهما ، وسوف تقدم رسميا فيما بعد نفس الرسالة التى أرسلت للصدر الأعظم وأصل الرسالة التى سترسل الى السفير وصدور الفرمان متعلق بحضرة من له الأمر •

ملحق رقم ٦ :

رقم الوثيقة ١/٢ ـ ٥٦٦ تركى بدارة الملك عبد العزيز بالرياض

الموضـــوع :

تقرير عن مراسم استقبال سفير ملك المغرب فى الأستانة لايعرف كاتبه على وجه الدقة وان كان يعتقد أنه رئيس الكتاب • بدون تاريخ •

النص :

أرسل مولى محمد حاكم المغرب الداعى لحكم رئيكو وزوالته وصهره محمد بن عبد الله سفارة الى العتبة العلية المتعلقة بالخلافة العظمى وعندما وصلت الارادة فى ذلك اليوم مرغ الوجه على الباب الأصفى[1] وذكر ما جـــرى ترتيبه •

تحرك المومى اليه « سفير ملك المغرب » من منزله فى الســـــاعة الرابعة حسب التوقيت المستعمل • وعندما وصل الى الباب الأصفى نزله فى نيكطاش المخصص لأغوات قواد الجاويشية وقد استقبله فى نيكطاش أغا السلام وأغوات رئاســــة بلوك الحجاب ، وبعد أن قضى ومرافقوهم جلسة خفيفة فى غرفة الضيوف داخل غرفة الاستقبال الاصفية[2] ، وقد تفضل حضرة سيدنا صاحب الدولة الباشا القائمقام باستقباله فى وسط الغرفة ، وبعد أن شرب القهوة سلم رسائله وتحريراته الى الأفندى رئيس الكتاب ، ثم ألبس بعد ذلك سمورا من الكورك ، ووضع على كتفه شيـــال هنـــدى كمـــا ألبس اثنان من نوابه وكاتب سره الخلعة ، وألبس خازنه ووكيل خراجه الخلع ، وألبس مترجمه شالا من الصوف وألبست الخلع لعدد محدد من خدامه وبعد ذلك قابله الكتخدابك ورئيس أفندى[3] ثم أعيد الى منزله بعد استكمال المراسم له •

---

(١) باب الصدر الأعظم •
(٢) الخاصـــة بالصدر الأعظم •
(٣) ناظر الخارجية •

ترتيب الألوية[١] :

أغوات السوباشى والعسسى باشى من العبيد[٢] .

بعدهم عشرة من أغوات جاويشية الديوان الهمايونى من العبيـــد الذين يلبسون الزخرف .

بعدهم العبد مترجم الحرمين وتمرجمون أيضا .

بعدهم الأغا كاتب الجاويشية وأمينة من العبيد .

بعدهم أغاوات الضيافة من العبيد والعامل على خزينة التشريفـــات من العبيد وبعدهم هؤلاء العبيد .

بعدهم أربعة من كتخدا الأبواب من العبيد[٣] .

وراءهم : عبدكم السفير المشار اليه .

بعده : نائبه وكاتب سره من العبيد .

بعده : المكلف بخزائنه ووكيل خراجه من العبيد .

ملحق رقم ٧ :

رقم الوثيقة ١/٣ ـ ٣٦١ تركى بدارة الملك عبد العزيز بالرياض

الموضـــوع :

سفير المغرب يقدم هديته أثناء تقديم رسالته وهى عبارة عن تقرير مرفوع من الصدر الأعظم الى السلطان العثمانى . بدون تاريخ .

النـــص :

مولاى ولى نعمتى صاحب الشوكة والكرامة والقـــدرة ، حضرة سفير المغرب الى الأبواب بينما كان يقدم هديته أثناء تقديم رسالته ولم يرد بالخاطر ذلك بسبب تقبيل الشاهانية . وقدم الأوعية المأثورة داخل

---

(١) ترتيب الألوية = ترتيب التشريفات .
(٢) من قوات الشرطة .
(٣) معقبو أمور الولايات فى الاستانة .

محفظة من الذهب ، أطرافها مزدانة بفصوص من الماس ووسطها من الزمرد وعندما يتم المعلوم السامى بمحتوى الهدية ، فان صدور الفرمان متعلق بسلطانى العظيم مولاى ولى نعمتى صاحب الشوكة والكرامة والمهابة والقدرة •

وقد علق السلطان على هذا التقرير قائلا :

« اطلعت على هدينه تترجم الرسالة وتعرض على » •

ملحق رقم ٨ :

رقم الوثيقة ٦ — ٣٢ تركى بدارة الملك عبد العزيز بالرياض

الموضوع :

سفير المغرب يطلب مصروف الطريق عند مغادرته الاستانة ، وهى عبارة عن تقرير مرفوع للسلطان العثمانى لايعرف كاتبه وان كان يعتقد أنه الباشا القائمقام • بدون تاريخ •

النص :

صاحب الشوكة والكرامة والمهابة والقدرة ولى نعمتى منذ مدة والهدايا تعطى الى بعض السفراء الذين وصلوا الى استانبول من طرف حكام فاس • وذلك سواء عند حضورهم أو عند مغادرتهم • وكانت تعطى كذلك الى البعض منهم عند ذهابهم فقط • وقد سلم الى سفير فاس والى اتباعه مبلغ ١٨٠٠ من القروش وذلك لدى وصوله فى هذه الأيام، بيد أنه بسبب أن للدولة العلية أوجه للصرف كثيرة فلقد تم صرف النظر عن الهدايا المذكورة الى السفير لدى ذهابه ، ولكن السفير المذكور قد أرسل الى اليوم من على ظهر السفينة التى يركبها رسالة عربية العبارة بأن له مصروف الطريق ويطلب خمسة أو ستة أكياس من الاقجة •

ملحق رقم ٩ :

رقم الوثيقة ١/٢ ـ ٣٦٣ تركى بدارة الملك عبد العزيز بالرياض

الموضوع :

طلب الموافقة على عبور البارجة الإنجليزية التي تحمل سفير المغرب من البوغاز وهى عبارة عن تقرير مرفوع من الباشا القائمقام الى السلطان العثمانى مؤرخة عام ١٢٠٥هـ •

النص :

مولاى ولى نعمتى صاحب الشوكة والكرامة والمهابة والقدرة •

ورد فى التقرير الذى قدمه سفير أنكلترا أنه قد وردت اليوم الى قلاع البوغاز البارجة الانكليزية التى تحمل سفير المغرب هذه المرة لكي يدخل دار السعادة[1] ويطلب الموافقة على عبور البارجة المذكورة فى البوغاز وعندما يتم المنظور السامى عند غرض التقرير المذكور على العتبة العلية فان صدور الفرمان متعلق بسلطانى العظيم مولاى ولى نعمتى صاحب الشوكة والكرامة والمهابة والقدرة •

وقد علق السلطان على هذا التقرير بالتعليق الاتى :

« فلتأت بموجب اذنى السلطانى ولا داعى لأن تعزف الجوقة الموسيقى الرسمية » •

ملحق رقم ١٠ :

رقم الوثيقة ١/٧ ـ ٣٣ تركى بدارة الملك عبد العزيز بالرياض

الموضوع :

وفاة مولاي محمد وتولية ابنه يزيد وهو تقرير لايعرف كاتبه ويبدو أنه مرفوع للسلطان العثمانى • مؤرخ فى عام ١٢٠٥هـ •

---

(١) الاستانة •

النص :

تقرير مكتوب من شخص يحمى مسعود بائع العبيد • وهو الخطاب الذى ورد هذه المرة من ناحية المغرب ٢٥ محرم ١٢٠٥هـ •

أفاد بائع العبيد المشار اليه في تونس بأنه تحقق من نبأ وفـاة مولى محمد حاكم فاس، وانه ابنه الكبير يزيد قد تولى أمر البلاد بعـد أبيه ، وكان يزيد المشار اليه قد قام بقتل وتدبير أخذ أموال كثيرة من التجار اليهود ، عندما حل محل أبيه ، ولذلك تقرر وبصفة نهائية التوجه الى ميناء سبته بجمع كثير من العساكر •

ملحق رقم ٦٢ :

رقم الوثيقة ١/٢ — ٥٨٢ تركي

الموضـوع :

ارسال سفير من الدولة العثمانية لتهنئة حاكم المغرب بالجلوس على العرش بصحبة السفير المغربي • وهي عبارة عن تقرير مرفوع من الباشا القائمقام الى السلطان العثماني • في عام ١٢٠٥هـ •

النـص :

مولاي ولي نعمتي ، صاحب الشوكة والكرامة والمهابة والقـدرة كان عبدكم من رجال الدولة العثمانية يدعون الى منازلهم فى أيام متفرقة الرجال الذين يردون الى دارة السعادة مع سفارة من قبل حكام المغرب فى السابق • ويوفون بواجبات الاكرام والضيافة وقد أخبرونا بأنهـم قد عقدوا العزم على دعوة سيد قائد محمد الذى جاء من قبل الحاكم المشار اليه وأمثاله • وقد استضاف عبدكم الباشا القبطان[1] السفير المومي اليه ذات يوم ، كما قام عبدكم الكتخدا بك الدفتردار باستضافته عدة أيام وقام الريس أفندي بدعوته بالأمس وانتهت مراسم الـولاء

---

(١) قائد عام البحـرية •

والاكرام كالعادة ، وعند عودة السفير المومى اليه ، سأل : هل يرسل من قبل الدولة العليا سفير مستقل معي لأبداء مظاهر التبريك والسعادة بمناسبة جلوس حاكم المغرب مولي محمد يزيد على العرش مكان أبيه • وقد أجاب عليه عبدكم الدفتردار قائلا لاأدرى بماذا تصدر الارادة اذا صدرت • وطلب السفير المومى اليه فى الدولة العاية ارسال سفير على هذه الصورة فى معتيه له سببان : أحدهما أن الحاكم المشار اليه على وشك محاربة الأسبان حاليا ، وهذا اشعار باهتمام الدولة العلية به • والاخر هو : أن السفير المومى اليه على وشك العودة الى بلاده على السفينة الانجليزية التى آتى عليها • وعلى الرغم من وضوح العداوة القائمة هذه الأيام بين الانجليز والأسبان والفرنسيين فلربما تصادفه احدى سفن أسبانيا وفرنسا أثناء الطريق ، وفى أن وجود رسول من قبل الدولة العلية يمنع الضرر والخطر • أرسل عبيد لكم من قبل الدولة العلية مع سفارة مرتين الى حاكم المغرب حسبما اقتضت الظروف فى السابق • فمرة أرسل عبدكم أحمد عزمي أفندي مأمور التحريرات الذي ذهب الى بروسيا فى السابق • ومرة أخرى أرسل عبدكم الداعى لكم المدرس محمد أفندي الموصلى أحد العلماء • وعندما يحاط علمكم السامى بهذه الصور ، فان صدر الارادة هذه المرة بارسال عبد لكم يرافق السفير لتهنئة الحاكم المشار اليه يتولى الحاكم مكان أبيه ، أو بتأخير الموضوع ، وصدر الأمر السامى ، فان صدور الفرمان على كل حال متعلق بسلطانى العظيم مولاى ولى نعمتى ، صاحب الشوكة والكرامة والمهابة والقدرة » •

وقد علق السلطان على هذا التقرير بالتعليق التالى :

« الباشا القائمقام • من المناسب فى نظرنا ارسال سفير مع السفير المذكور • لست أدرى اذا كان ينبغى ارسال رسول للتهنئة وفى نظرنا أنه اذا أرسل شيئا بعد لايكون مناسبا والان أكتب الرد على التحريرات التى وصلت اعرضه علينا هل يمكن أن نعطيه فى يده هذه التحريرات •

مصـادر الدراسة

أولا : الوثائق غير المنشـورة :

الوثائق التركية الموجودة بدارةالملك عبد العزيز بالرياض المنقولة عن الأصـل التركى الموجود بتركيا •

وقد أشرنا الى أرقام هذه الوثائق خلال البحث •

ثانيا : الكتب والمراجع العـربية :

١ ــ ابراهيم شـحاتة حسن :

أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الاسكندرية ١٩٨١ •

٢ ــ جـلال يحـى :

المغرب الكبير ، بيروت ١٩٨١ •

٣ ــ صـلاح العقـاد :

المغرب العربى ، القاهرة •

٤ ــ شوقى عطا الله الجمل :

المغرب العربى الكبير ، القاهرة •

٥ ــ عبد الكـريم كـريم :

المغرب فى عهد الدولة السعدية ، الرباط ١٩٧١ •

٦ ــ ممحد بن عبد السلام بن عبود :

تاريخ المغرب ، جـ٢ ، فطوان ١٩٥١ •

٧ ــ النـاصرى :

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ٥ ، ٨٧ •

قائمة المراجع

أولا : [illegible] و المخطوطات :

[illegible]

• [illegible]

ثانيا : الكتب والمراجع العربية :

١ — [illegible] :

• [illegible]

٢ — [illegible] :

• [illegible]

٣ — [illegible] :

• [illegible]

٤ — [illegible] :

• [illegible]

٥ — [illegible] :

• [illegible]

٦ — [illegible] :

• [illegible]

٧ — [illegible] :

• [illegible]

مساعى الأمير حليم والخديو اسماعيل من أجل عرش مصر أثناء الثورة العرابية

الدكتورة لطيفة محمد سالم

أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر

كليـــة آداب بنهـــا

نشـــاط الأمير حليم :

وفقا لنظام وراثة العرش كان يحق للأمير حليم وهو الابن الأصغر لمحمد عـــلى أن يتولى حـــكم مصر ، لكنه لم يتمكن من ذلك لمجهودات اسماعيل ، فالعداء كان مستحكما بينهما ، وقد رأى الأخير ضرورة القضاء على ذلك المنافس الخطير لينال مراده ، وكان التعامل بالمال هو من سماته فوصل به لاتفاق مع حليم بأنيعطيه ٦٠ ألف جنيه مصرى لمدة أربعـــين سنة فى سبيل أن يتركحقه فى العرش ، ونفذ الاتفاق حتى جاء قـــرار الحكومة فى ١٥ ديسمبر ١٨٧٩ ليخفض راتبه الى ١٥ ألف جنيه فاحتج على هذا الاجراء[١] ، كذلك قام اسماعيل بالاستيلاء على ما يمتلكه من الأطيان الأثرية والجفالك والأباعد العشورية وأطيان والدته بما فيهـــا من مـــواشى وماكينات وطلمبـــات ووابورات مياه وأشجار فى نظـــير مبالغ »[٢] وجاء فرمان ١٨٧٣ الذى بذل اسماعيل فيه الأموال ليغير نظام

---

(1) Egypt No, 1 (1881), No 1, Sir Rivers wilson to Earl Granville, August, 14, 1880.

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١٢٦ ، تراجم محمد على باشا وعائلته، دفتر نمرة ١٢ ، أوامر كريمة للدائرة الســـنية ، صورة الأمر الكريم نمرة ١٢ معية ، صادر الى الادارة فى غاية ذى القعدة ١٢٨٢ (١٨٦٥) .

الوراثة ويحرم حليم من حقه[3] ، ولم يلبث الأمر أن اتهمه بالتامر عليه وأمر بنفيه خارج مصر واضطهد جميع مؤيديه فرحل أغلبهم[4] .

وفى الخارج بدأ يمارس نشاطه ويبذل مساعيه من أجل استرداد حقه الذى أفقده له اسماعيل فطرق جميع الأبواب ووجد المؤيدين ، فعندما ظهرت بوادر ضعف توفيق أمام منصبه رأت فرنسا أن تحل مكانه حليم « وكان سفير فرنسا بالاستانة مداوما على الاجتماع مع البرنس حليم باشا »[5] ، وكانت صادقة فى مسعاها اذ يقول مراسل التيمز بالاستانة « توجد أسباب تدل على أن فرنسا قبلت طلب عبد الحليم باشا حتى قيل أنها فتحت المخابرة فى هذا الشأن »[6] واحتضنت باريس مناصريه فمنها خرجت صيحات يعقوب بن صنوع الذى كان يميل اليه ويرى أنه أكثر ملاءمة لحكم مصر من اسماعيل وتوفيق نظرا لما كان يعلنه حليم من مبادىء يريد تحقيقها اذا تولى عرش مصر .

ولاعتماد حليم على فرنسا وميلها له جعل انجلترا تشكل معارضة تجاه ذلك وتقف أمام كل خطوة للاستحواذ على حقه ، فكانت وراء حركاته وتراقب أتباعه وخاصة فى مصر عن طريق قنصلها[7] ، وكان من رأى دى فريسنيه الذى كتب الى جرانفيل يقترح عليه استبدال توفيق بحليم لكن وزير خارجية انجلترا يرفض[8] ، هذا بالرغم من علاقات الود والتفاهم بينهما .

---

(3) Cromer : Modern Egypt, London 1906, p. 136.

(٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، جا ، الطبعة الثانية ، النهضة المصرية ١٩٤٨ ، ص٢٤٤ ومارلو : تاريخ النهب الاستعمارى لمصر ١٧٩٨ — ١٨٨٢ ترجمة د. عبد العظيم رمضان ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ، ص٢١٧ .

(٥) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٦) المفيد ، عدد ٥٣ فى ٤ مايو ١٨٨٢ .

(٧) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، عابدين محفظة ١٦٣ ، ملف ثابت باشا ، برقية من الخديو الى ثابت باشا ، ٢٧ نوفمبر ١٨٨١ .

(٨) احمد شفيق : مذكراتى فى نصف القرن ، جا ، مطبعة مصر ، ١٩٣٤ ص ١٢٣ .

ويحاول حليم استرضاء انجلترا فيتصـــل بالسفارة الانجليزية بالآستانة« ويوعد السفير بطرد العرابى باشا وغيره من كبار رجـــال الثورة واعادة النفوذ الأوروبى الى مصر كالأول فى حالة اعطائه خديوية مصر »[٩] لكن تلك التصريحات لم تلق قبولا لدى انجلترا ومضت تعارض تعيين حليم[١٠] ، فى الوقت الذى أيدت فيه ألمانيا والنمسا اعطاءه عرش مصر فيذكر بلنت « ان المانيا والنمسا اللتان يمثلهما روتشلد وبعض الماليين راضيتان بالعلاج الذى استعمل عام ١٨٧٩ بدخول السلطان فى المسألة وتعيين حليم مكان توفيق »[١١] .

أما عن الدولة العثمانية فقد كانت تميل اليه ، وتعلم بنياته ورغباته وتشجعه ، فـ يذكر مندوب الخديو لدى الباب العالى أنها تسمح له بالذهاب الى أوروبا « لعمل الفساد »[١٢] ، وكان حليم يعرف جيدا كيف يرضيها وينفذ الى داخلها فهى تعمل من أجل المزيد لمصـــالحها ، فعقب عزل اسماعيل رأت الفرصة لاسترجاع نفوذها فى مصر وأرادت تعيين حليم بدلا من توفيق وذلك لالغاء الامتيازات التى حصلت عليها مصر ، وقد قال محرر التيمز بعد حديث له مع اســـماعيل قبل تنازله عن العرش « فهمت أن الباب العالى هو من أشار بتولية الأمير حليم لكن انجـــلترا وفرنســـا أشارتا على الخديو بالتنازل ووعداه بمساعدته على تولية ابنه توفيق »[١٣] ، وبذلك تتضح الثقة التى عقدتها الدولة على حليم وموقف انجلترا وفرنسا ازاء ذلك ومع أن فرنسا كانت تميل لنصرة حليم الا أن النفوذ الانجليزى كان قويا فى هذه المسألة .

---

(٩) محافظ الأبحاث ، نفس المصدر ، محفظة ١٦٤ ، ترجمة خطاب من ثابت باشا الى رئيس الديوان الخديوى ، ١١ ابريل ١٨٨٢ .

(10) Cromer : op. cit, p. 196.

(11) Blunt : Secret History of English Occupation of Egypt, London 1907, p. 276.

(١٢) محافظ الأبحاث ، نفس المصدر ، محافظة ١٦٣ ، برقية من ثابت باشا الى الخديو ، ٨ ديسمبر ١٨٨١ .

(١٣) للوطن ، عدد ٨٧ فى ١٢ يوليو ١٨٧٩ .

استطاع حليم أن يكسب بجواره الكثير من الساسة الأتراك ، ومع بداية الثورة والدولة تحوم حول احلال وال آخر مكان توفيق وأن تجعل تعيينه محدودا بمدة زمنية معينة وهي خمس سنوات ويذكر السفير الفرنسى لوزير خارجيته « أن السلطان لديه مشروعا وينتهز الفرصة لكى ينفذه »[١٤] ، وعلى ذلك كثر تردد حليم على السلطان لدرجة أنه كانت هناك اجتماعات تعقد معه » تم استقدام حضرة حليم باشا لدى الحضرة السلطانية وذلك عقب وفود الموسيو مالت قنصل جنرال انجلترا فى مصر على الآستانة »[١٥] ، كما انه لم يترك مجالا الا ويقوم بعرض آرائه ومقترحاته حول المسألة المصرية[١٦] ، بعد اذن السلطان لكنه فى نفس الوقت يرفض أن يعطيه السلطة فى حديثه اذا أظهر فيه الاشارة بأنه سيكون خايفة للخديو[١٧] ، وهذا من سياسة الدولة المعروفة .

لم تغفل انجلترا ذلك فقد كانت على علم بكل تلك الخطوات ، ففى حديث لكوكسن مع عرابى أبان له تلك السياسة التركية من أجل اعادة حليم وتولية عرش مصر[١٨] ، وعلى صفحات التيمز كتب مراسلها فى الآستانة يقول « ان عبد الحليم باشا تعهد لأهل السياسة فى الاستانة بأن يكون آلةللباب العالىبمصر ويمضى ان فرض وتمكن منقصدهوجب عليهأنيعطى للباب العالى الكفالات القوية عن صداقته فى المستقبل »[١٩] ، وقد وافق

(14) Documents Diplomatique Francais, Tom IV, No 134, M. Tissot ambassadeur de France à Constantinople à m. pa thélemy Saint Hilaire Ministre des Affaires Etrangers, Thérapia, Sept. 15, 1881, p. 124.

(١٥) المصباح ، عدد ١٩٩ فى ١٩ سبتمبر ١٨٨١ .

(١٦) البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها اثناء الثورة العرابية ، ترجمة الدفتر ٢٨٧ ، برقية ٤ من القبو كتخدا الى الخديو فى ١٢ سبتمبر ١٨٨١ .

(17) Archives des maison, de cour et d'etat, Vienne, Fasc XXX1/9, Rapport du consulat general i R au Ministre des Affaires Etrangeres, le Caire, 6 Mars, 1882.

(18) Broadly : op. cit, p. 85.

(١٩) المفيد ، نفس العدد .

هذا ماذكره عرابى «الحضرة السلطانية راغبة وتظهر كل يوم ميلها الى حليم باشا وتقربه منهـا وهو يعدها بالخضـوع والانقياد لأوامرها ونواهيها »[٢٠] .

ولم تعد مسألة تولية حليم عرش مصر خافية خارجيا أو داخليا ، واهتز عرش توفيق ، ففى عهد نظارة الثورة الثانية انتشر مايفيد بموافقة الدولة لتنازل توفيق لحليم عن الخديوية[٢١] ، وأرادت الدولة أن تنفـذ ما تصبو اليه ، وأثناء مؤتمر الآستانة يذكر السفير النمساوى بالاسـتانة « ان السلطان عين مندوبين له فى المؤتمر ، وزير الخارجية وباشا آخر من أجل مهمة سرية الى السفيرين الانجليزى والفرنسى ليقنعهما بقبول تغيير شخص الخديوى بديلا عن الحلول الأخرى باسـتبدال توفيق بحليم كوسيلة مناسبة يرى فيها اقرار النظام والحالة فى مصر ، هذا فى الوقت الذى قدم فيه هذا الاقتراح السلطان نفسه الى دفرين الذى تلقى من حكومته جوابا بالرفض ، وقد استقبل السلطان القائم بالأعمال الألمـانى لنفس الاقتراح »[٢٢] هذا فى الوقت الذى كان فيه يتفاهم مع عـرابى فى امكانية اتمام ذلك[٢٣] ، رغم انه فيما سبق هذه الفترة كان يبين انه لايهمه من يكون خديو مصر .

لكن ماذا عن موقف المصريين من حليم ؟

---

(٢٠) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصريـة المشهورة بالثورة العرابية مذكرات مخطوطة محفوظة بالهيئة المصرية العامة للكتاب ، جـ٢ ، ص١٠٣ .

(٢١) محافظ الأبحاث ، نفس المصدر ، برقية من ثابت باشا الى الخديو فى ٢٥ أبريل ١٨٢ .

(٢٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ ، المجموعة ٢٦/٣١ ، رقم١٨٤ ، برقية شفرة من البارون كاليه الى وزارة الخارجية النمساوية ، القسطنطينية فى ٢١ يوليو ١٨٨٢ .

(٢٣) نفس المصدر ، رقم ٥٨ ، برقية شـفرة من الكونت لودولف الى الكونت كالنوكى ، روما فى ٢٢ يوليو ١٨٨٢ .

كانت خطة حليم متشعبة الأطراف خارجيا من أجل الاستحواذ على مصر ، أما داخليا فقد كثف نشاطه وأراد بكل الطرق التقرب من الثوريين الذين يمكن لهم أن ينادوا به حاكما عليهم بعد أن يسقطوا من يقف ضد ثورتهم ، وبذلك يمكن له أن يتولى العرش بناء على ارادة الشعب ويمارس سلطته كحاكم شعبى •

رأت الثورة أن يلغى نظام الحكم القائم ، وأن تجتث الشجرة العلوية من جذورها وكان عرابى يكره حليم(٢٤) ، بل الأسرة جميعها وكثيرا ماأعلن وضع نهاية لها(٢٥) ، ويذكر لنا بلنت « أن هدف الثوار كان وطنيا بحتا وانهم لم يكونوا مقتنعين بولاية حليم مكان توفيق أو بأى فرد من العائلة الخديوية »(٢٦) •

ومع هذا كان من بين الخطة امكانية الرضا بحليم لانهاء الحكم القائم كخطوة يمكن لهم بعدها الاطاحة به ماداموا قد برهنوا على النجاح فى اسقاط حاكم وتنصيب آخر • هذا بالاضافة الى أن حليم كان يروج مبادىء له ليست وليدة الأحداث ولكنها من الأسباب التى جعلت اسماعيل يتخلص منه تلك التى تتفق مع مصلحة المصريين (٢٧) ، وكانت اعلاناته وتصريحاته عقب ذلك تضع ستارا وراء تلك الطبيعة التى تتفق وصفات بقية عائلته المتسمة بروح المؤامرة والتعالى(٢٨) ، فهو يمثل الرجل التركى الجامد الطاغى الفاسد القاسى المرتشى(٢٩) ، لكنه يخفى ذلك كله حتى ينال مايسعى اليه ويظفر بعرش مصر •

---

(٢٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ قضايا المتهمين ، على راغب قبودان ضابط بحرى ، دوسيه ٢٤٦ •

(25) Biovés : Francais et Anglais en Egypt, Paris, 1910, p. 89.

(26) Blunt : My Diaries, vol I, London, N. D., p. 13.

(27) Chaille : Les trois Prophetes : Le Mahdi-Gordon - Arabi, Paris 1886, p. 272.

(28) Archives d'etate et de La cour, Vienne, Actes, Politico, Commerciaux, Finances 1880, No 40 pol, Schaeffer à Hay merie, le Caire, 5 Mai, 1880.

(29) Duse, M. : In the Land of the Pharaohs, London, 1911, p. 13.

أضف الى هذا انه كان له بعض الموالين فى مصر ، الذين كانوا يقتنعون انه من الأوفق والمصلحة لمصر أن يكون حليم حاكما لها في اطار الاستقلال الذاتي بمعنى أنه اذا كان ولابد من الارتباط بالدولة العثمانية فى ظل الفرمانات فيفضل حليم عن أى فرد في الأسرة العلوية ، ومن بين هؤلاء عبد السلام المويلحى فقد كان يميل اليه وهو وكيل لدائرته[٣٠]، كذلك حسن موسى العقاد ، وعن هذا الطريق كان التأثير على اتجاه قادة الثورة .

وبدأت الاتصالات بين الطرفين ، وكان عثمان فوزى أحد أداة التفاوض — وهو شركسى الأصل وأحد مماليك محمد على وظل مخلصا لابنته زينب وعمل وكيلا لدائرتها — فساند سياسة حليم وراح يعمل لتحقيقها ، فنراه يتحول الى جانب الثورة ويتقرب الى عرابى ويؤيد كل خطواته من أجل اعتلاء حليم العرش ، كما كانت له علاقاته مع العقاد الذى نجح فى أن يجعله من مؤيدى حليم[٣١] .

ولم يكن عرابى يجهل نوايا عثمان فوزى لكنه لم يكن فى يوم من الأيام على صلة بحليم فلم يعثر على أية مكاتبات منه أو اليه تؤكد ذلك[٣٢] ، ولكن تناول قادة الثورة فى اجتماعاتهم التى كان يحضرها عثمان فوزى والعقاد مسألة تعيين حليم ، فيقول الأول فى محضر التحقيق معه أن محمود سامى سأله عن سن حليم « فأخبرته انه مثل سن اسماعيل باشا الخديو السابق أعنى الخمسين سنة ، فقال لى يوجد له صورة فقلت له موجود فطلبها منى وأحضرتها لهم »[٣٣] .

---

(٣٠) المقطم ، عدد ٧٨٨ فى ٩ أكتوبر ١٨٩١ .

(31) Broadly : How we defended Arabi and his Friends, London, 1884, pp. 143, 361, 363.

(٣٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، قضايا المتهمين أ ، أحمد عرابى باشا ، دوسيه ٥٣/أ

(٣٣) نفس المصدر ، محفظة ١٣ ، قضايا المتهمين ، عثمان باشا فوزى ، دوسيه ٢٣٠/ب .

ومضت الدعاية لحليم الذى بذل من أجلها هو وأخته الأموال ، واتهم العقاد بنشاطه فى هذا المجال « ليصرفها فى جلب قلشوب بعض الناس وترغيب العالم لحضور حليم باشا »[٣٤] ، لكن العقاد أبان أنه ليس فى حاجة الى تلك الأموال فقد بلغ من الثراء مداه .

كذلك كان للعنصر النسائى « الحريم » دور فى هذه المسألة ، ففى خطاب من على فهمى الى عرابى يشير الى أسماء بعض السيدات اللائى يحضرن الى مصر ومعهم جوابات من الآستانة من طرف زينب هانم وينقلن ردها[٣٥] ، كما كانت جميع مساعى حليم فى تركيا أو خارجها تعلمها مصر ، فترد البرقيات من الآستانة مفادها السعى فى خلع الخديو « ولم يكن يستطيع أحد أن يطلع عليها الا بعد أن يلتقى بالعقاد »[٣٦] .

وجاء موقف توفيق واحتضانه لمذكرة مايو المشتركة واحتجاج الثوار واستقالة الوزارة فى صالح حليم وتدعيما لموقفه خاصة بعد انتشار أخبار رضاء الدولة العثمانية عليه ، ومن هنا أصبح التقارب بينه وبين الثورة واضحا ، فتقول بالتيمز « ان عرابى يعمل لخدمة حليم ليعين خديويا لمصر اعتقادا منه انه رجل أمين »[٣٧] ، وهذا فى حد ذاته اعتراف منها أن عرابى يعمل لمصلحة مصر ويريد لها الرجل الأمين وليست له أطماع فى الاستحواذ على الحكم . ونجد الطائف تذكر « تنهج الجرائد الآن باسم البرنس عبد الحليم ورضاء السلطان عنه ونجاح أعماله وهذا يفهم منه أن الحضرة السلطانية مقرة على تعيينه خديويا لمصر ورضيت بذلك

---

(٣٤) نفس المصدر ، محفظة ١٦ ، قضايا المتهمين ، محمود فهمى باشا ، دوسيه ٣٨٤/أ .

(٣٥) نفس المصدر ، محفظة ١٣ ، قضايا المتهمين ، الأوراق المضبوطة بمنازل المتهمين ، على باشا فهمى ، دوسيه ٢٦٤/ب .

(٣٦) نفس المصدر ، محفظة ١١ ، قضايا المتهمين ، الأوراق المضبوطة بمنازل المتهمين ، طلبه عصمت باشا ، دوسيه ١٧٦/ب .

(37) The Times, May, 31, 1882.

بعض الدول وبقى البعض فهى تترضاهم قطعا لمشاكل مصر ودفعا لمن جلب عليها هذه الشرور »[٣٨] .

وفى اجتماع ٢٧ مايو ١٨٨٢ الذى عقده السلطان ونودى فيه بعزل توفيق ، اتجهت الأفكار الى تعيين حليم[٣٩] ، كاجراء وقتى للتخلص من توفيق ، وليأتى حليم ليرفض المذكرة ويعيد البارودى ويحكم وفقا لرغبات الثورة ، وكان حليم قد تبنى أفكار الثورة وأظهر انه قلبا وقالبا معها وأثنى على رجالها ، ففى خطاب منه الى مندوبه فى مصر عثمان فوزى يقول له : « لاتخافوا من شيء تأتى به أعمال عرابى يغاير أمل الناس فيه ويخل بالراحة والاصلاح ، فانه ممن سعى هو واخوانه للاصلاح وهو ماشى بالتدبير والعقل والحكمة ، ومثل هذا الرجل العاقل يلزم أن لايفتكر فى نتيجة أعماله الا الخير والصالح لوطنه »[٤٠] ، وكثرت تلك الخطابات التى فاضت بالتأييد والتشجيع للثورة وقادتها ، بدليل انه كان عقب وصولها يطلع عليها « ديوان الجهادية »[٤١] .

وبذلك دخل حليم فى الاطار الثورى ، وأصبح من بين مضمون مراسلات القادة الى الدولة العثمانية طلب عزل توفيق وتعيين خليفة له وجرى التختيم على محاضر بهذا الشأن كان أحيانا الطلب لا يذكر اسم البديل وأخرى يذكر حليم ، فيقول العقاد « أحضرنا أحمد عرابى فى منزله مع جميع العلماء والأعيان ووجدناه جارى تختيم الناس على عرضحال للحضرة السلطانية بطلب استبدال الحضرة الخديوية بدون

---

(٣٨) الطائف ، عدد ٥٦ فى ١١ أغسطس ١٨٨٢ .

(39) Malortis : Egypt, Native, Rulers and Foreign Interferrnce, London 1883, p. 221.

(٤٠) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ قضايا المتهمين ، الأوراق المضبوطة بمنازل المتهمين عثمان فوزى باشا ، دوسيه ٢٣٠/ب ، ١٠ أبريل ١٨٨٢ .

(٤١) نفس المصدر ، محفظة ١٠ ، قضايا المتهمين ب ، ج ، حسن موسى العقاد ، دوسيه ١٢٣/أ .

تعيين اسم البدل وانا ختمت بالجملة »[٤٢] ، أما المحاضر التى عين فيها طلب حليم فقد سعى لها العقاد [٤٣] ، وأمام ذلك انهار توفيق واستدعى وكيلى انجلترا وفرنسا وأبلغهما بأن « الجهادية سوف تعزله وتعلن البرنس حليم خديويا »[٤٤] .

وكان من بين علماء الدين من هو ميال الى حليم ، فقد طالب الشيخ عليش تعيينه خديويا [٤٥] كما أيده الشيخ العدوى[٤٦] ، وترددت أصداء ذلك بين المصريين « محمد عبد الله عمدة الصنافين شرقية كان يحضر من المحروسة ويقول القياسى ان الخديو اتخلع بأمر السلطان وأن عرابى سيحضر عبد الحليم باشا وأن بحضوره يكون خديويا »[٤٧] ، ولعل كان الترحيب بذلك بناء على أنه ثورة ومؤيد من قادة الثورة وخاصة عرابى ، وانه سيكون حاكما وفقا لدستور الحزب الوطنى[٤٨] .

وتكثفت مجهودات حليم وأتباعه عقب اعلان الحرب وانضمام توفيق نهائيا للاعداء وايقاف الأمة لأوامره واعتباره شبه معزول ، ففى مسودة لخطاب عثر عليه لدى العقاد « لمناسبة انضمامه (توفيق) للانجليز وجلب حربهم على المصريين ، أصبح مشاعا انه سيأتى عساكر عثمانية الى مصر ومعها البرنس حليم باشا ، على أن المتراءى بأنه اذا كان المقصود حضورهم لأجل رحيل الانجليز عن مياه الاسكندرية وخلافها وتوصيل

---

(٤٢) نفس المصدر .

(٤٣) نفس المصدر ، محفظة ١١ ، قضايا المتهمين ، سليمان داود ، دوسيه ١٥٤ .

(44) Egypt No, 11 (1882), No, 6 Sir Malet to Earl Granville, Cairo, June 1, 1882, p. 2.

(٤٥) محافظ الأبحاث ، نفس المصدر ، برقية من الخديو الى ثابت باشا فى ١٦ يونيو ١٨٨٢ .

(٤٦) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : الثورة العرابية ، ص٨٦ .

(٤٧) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٥ ، قضايا المتهمين ، محمد عبد الله عمدة الصنافين شرقية ، دوسيه ٣٤٢ .

(48) Ninet : Arabi Pacha, Paris, 1884, p. 77.

البرنس الى مستقرة فلا بأس وان كان المقصود نفى عرابى باشا واخواته من مصر حسب رغبة الانجليز فلايمكن التسليم فى ذلك »[٤٩] ، وواضح أن الأنظار قد اتجهت لعودة الأمير المنفى .

وقد اعتقد أن مؤتمر الآستانة سيعالج الموقف عن طريق تعيين حليم لدرجة أن العقاد « جارى التجهيزات اللازمة لعمل الزينة لقدوم البرنس بصفة خديو مصر » كما أنه فى خطاب منه الى حميد أبو ستيت يذكر له « أما أفندينا حليم باشا فقد عينه حضرة السلطان خديويا على مصر ووافقت على ذلك جميع الدول ، وفقط المعارض الانجليز لتطابهم بعض شروطا وجزما لابد عن النهو فى هذا الشهر وبعدها يتشرف الى القطر »[٥٠] ، وانتاب العسكريون نفس التوقعات بعد ان كانت مراسلات الآستانة تفيد بالموافقة على خلع توفيق وتنصيب حليم « وانه مزمع حضور الباشا المشار اليه عن قريب »[٥١] .

وبعد أن استشم حليم موقف الدولة العثمانية بتحولها عنه ، أراد أن يعمل بمفرده فعرض على السلطان رغبته فى السفر الى مصر لا كحاكم ولكن كمجاهد وطنى يلتحق بجيش عرابى ، وطلب منه السماح له بذلك فرفض السلطان[٥٢] ، ولم يكن حليم مصريا ولا وطنيا لكى يدافع عن مصر لكنه وجد انه يمكنه عن هذا الطريق الوصول الى قلب مصر ، ولم تساعده الظروف عندما تغيرت الأهواء العثمانية لتضع مصلحتها فوق كل الاعتبارات فثبتت توفيق على عرش مصر لتعصف بمجهودات حليم الى الأبد .

---

(٤٩) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، قضايا المتهمين ب ، جـ ، حسن موسى العقاد ، دوسيه ١٢٣ .

(٥٠) نفس المصدر .

(٥١) نفس المصدر ، محفظة ١٧ ، قضايا المتهمين ، يعقوب سامى باشا وكيل الجهادية ورئيس المجلس العرفى ، دوسيه ٢٠٨/٤/أ .

(٥٢) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والآستانة اثناء الثورة العرابية، ترجمة ٢٨٨ ، برقية واردة من قدرى أفندى فى ٢٢ نوفمبر ١٨٨٢ ، ص٥ .

دسائس الخديو أسماعيل :

يعد ماقام به اسماعيل بمصر من الأسباب التى أدت لقيام الثورة ، وقد أسعد المصريون خروجه منها اذ نقم عليه الجميع ، ولم تثبط الثورة عزيمتها لحظة عن مهاجمته لاساءته لمصر ، وهو أيضا لم يهدأ لحظة وهو أيضا لم يهدأ لحظة وهو فى الخارج اذ مارس جميع نشاطاته من أجل العودة مرة ثانية الى مصر واسترجاع عرشها .

كانت علاقاته سيئة مع انجلترا وفرنسا وهذا شىء طبيعى ، فهما اللتان عزلتاه ، أما تركيا فهى لا ترتاح اليه أبدا هذا من ناحية ، ولم تكن تستطيع أن تتصرف دون موافقة الدولتين من ناحية أخرى ، فقد أبان سفير فرنسا بالآستانة الى وزير خارجيته « ان السلطان استدعى اثنين من وزرائه لأخذ رأيهما فى امكانية عودة اسماعيل لكنهما أبانا له أن انجلترا وفرنسا ترفضان ذلك بشدة ولربما تعلن استقلال مصر عن تركيا » ويمضى ليتصنح بأنه يجب الوقوف أمام دسائس اسماعيل[٥٣] .

فكر اسماعيل فى العودة الى مصر عن طريق الحجاز ، وكان راتب باشا مندوبه ووكيله والرجل الأول لديه فى تنفيذ المخطط، فقد أبرقت السفارة العثمانية فى روما الى الخارجية بالآستانة بأن « اسماعيل باشا قد أوفد راتب باشا بالأسرار المحرمة الى الحجاز على الباخرة التى استأجرها لهذه الغاية وانه قد أوفد للاتفاق مع الشريف لتدبير المفاسد وسيخرج من ميناء ينبع حتى لايلفت اليه أنظار موظفى الحكومة فى جدة »[٥٤] ، وتم الاتصال بين اسماعيل والشريف عبد المنعم شريف مكة

---

(53) Documents Diplomatique Francais, Tom III, No, 34, M. Fournir ambassadeur de Franue à constantinople à M. De Freycinet Ministre des Affaires Etrangeres, Pera, February, 25, 1880.

(٥٤) محافظ الأبحاث ، نفس المصدر ، برقية من ثابت باشا الى الخديو فى ٢٠ نوفمبر ١٨٨١ .

وراح يزوده بالسلاح ويحرضه لاعلان خلافته فى الحجاز[٥٥] ، اذ كانت لديه النية فى الخروج على الدولة العثمانية والاستقلال فاحتضن كل معارض لها .

كذلك أوجد اسماعيل علاقات مع بعض الأجانب الرأسماليين بمصر اذ رأى أنه من الممكن بواسطتهم أن يحقق مايريده ، وقد أفادت معلومات من ضبطية مصر عن هذا النشاط الذى يقومون به من « عمال دسائس لاعادة الخديو السابق واليا لمصر وهم اخوان سوارس وقطاوى بك وموسى قطاوى »[٥٦] ، ولم يكن هؤلاء فقط بل كان هناك أعوان له يعملون من أجله .

كان اسماعيل يكره الثورة والثوار ، لكن فى سبيل مصلحته وكما عاهدناه يتقرب الى الحركة الوطنية ليصل الى أهدافه ويضرب بها أعداءه وقد هداه تفكيره أن يعود الى مصر عن طريق الثورة الموجودة فيها « فكان يرى فى ظهور أحمد عرابى واتساع كلمته واستفحال الخلل بديار مصر وتهديد مقام ولده توفيق باشا فرصة ربما كان من ورائها خلع ولده وعودته الى كرسى الخديوية »[٥٧] . ومضى يخطط ليحقق هدفه ، فأشاع أن الثورة المصرية هى بتحريض منه وأن عرابى هو صنيعة له فأبرق سفير انجلترا من روما الى حكومته ليخبرها بأن « اسماعيل يباهى فى نابولى بأن عرابى فى جيبه »[٥٨] ، حتى لقد وصل الأمر أن اعتقد جرانفيل فى ذلك . فاخبر بلنت أن لديه معلومات على أن اسماعيل

---

(٥٥) نفس المصدر ، محفظة ١٦٤ ، مذكرة ثابت باشا فى ٢٩ نوفمبر ١٨٨١ .

(٥٦) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، قضايا المتهمين أ ، الأوراق المضبوطة بمنازل المتهمين ، أحمد عرابى باشا ، دوسيه ٥٣/د/٧ .

(٥٧) ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، جـ٤ ، المطبعة الأميرية ١٩٠٠ ، ص٢٧٣ .

(58) Blaunt : Secret History of the English Ocoupation of Egypt, p. 222.

مسيطر على عرابى ، وأن كل مايجرى فى مصر هـو مؤامرة يراد بهـا عودة اسماعيل »[٥٩] •

وفى مصر نرى تكدر توفيق لعلمه برغبة أبيه الأكيدة فى العودة ، فكان يرسل من يتحرى عن تحركاته واتصالاته[٦٠] ، وبناء على ما أشاعه اسماعيل ، اعتقد توفيق أن هناك علاقة سرية تربطه بعرابى كما صرح بذلك الى قنصل النمسا[٦١] •

لقد توهم اسماعيل عندما ظن أنه من الممكن أن يقدم له عـرابى المساعدة للوصـــــول الى مايصبو فهو يكرهه من أعماق قلبه ، وجميع تصريحاته انصبت على الهجوم عليه وبأنه المتسبب لكل ماجرى لمصر من كوارث ، ويقول بلنت : « ان موقف عرابى فى ذلك الحين أدل منه فى أى وقت آخر على عدائه للباشوات الشراكسة أنصار اسماعيل الذين كانوا يدسون الدسائس لتوفيق ، فلم يكن يخفى على كل حال أن لاســـــماعيل أغراضا فى اظهار الاضطراب فى مصر على أنه لحسابه »[٦٢] هذا هو موقف القائد ، وأيده فيه العسكريون الذين عارضوا وبشدة عودة سلطة الحكم الى اسماعيل مرة أخرى[٦٣] ، أيضا صورت الصـحافة المصرية بانوراما كاملة تنطق برفض خديوى مصر السابق ، وبالتالى توغل شعور العداء فى قلوب المصريين •

لم يكف اسماعيل لحظة عن العمل ، وعندما رأى استمالة العناصر

---

(59) Ibid, p. 221.

(٦٠) أحمد شفيق ، المرجع السابق ، ص٩٤ •

(61) Archives de maison, de cour et d'etat, Vienne, Fasc XXXI/9, Rapport du consulat general i R au Caire au Ministre des Affaires Etrangeres, Le Caire, 19 Fevrier, 1882.

(62) Blunt : op. cit, p. 222.

(63) The Times, April. 20 1882.

الثورية عن طريق راتب باشا فشلت محاولاته [٦٤] ، فطرق بابا آخر ، أرسل زوجته الأولى من نابولى الى الاسكندرية ، وأيضا زوجته الثانية بدعوى أنها مريضة ومشرفة على الموت ومعها مايزيد عن ٣٥ شخصا من الأتباع والجوارى ، وعقب وصولها الى الميناء رفضت أن يكشف عليها الأطباء ، فهذا جعل توفيق يأمر بعودة تلك الزوجة على نفس الباخرة [٦٥] ، التى كان عليها ابن اسماعيل وهو يرتدى أثواب النساء ومحتجبا بالباخرة (٦٦) ، حتى انه اذا نجحت الخطة يستولى على العرش لحين حضور أبيه .

أعلن عرابى رسميا رفضه لنزول الزوجة على الأرض المصرية ، وأبان أن الأمة المصرية والجيش يرفضون مجيء أي انسان يساعد الخديو السابق ويكون عضدا له ولدسائسه ، وأذاع بلاغا مفاده « أشيع على ألسنة العامة عن ورود احدى نساء الخديو السابق الى الاسكندرية وأن ناظر الجهادية وضباط العسكرية يميلون الى دخولها للاقامة بالقطر المصرى وانتشرت تلك الاشاعات حتى خيف من دخولها على بعض الأذهان، فحملنى هذا على المبادرة بتكذيب هذا الخبر عن نفسى وعن كل ضابط بل كل فرد عسكرى فى مصر ، فان ضباط العسكرية عموما يشاركون أهالى القطر المصرى بأجمعهم فى النفور التام من دخول أى شخص يأتى من قبل الخديو السابق من نساء أو رجال لما يعلمونه عما حدث عن هذا من الضرر للبلاد » [٦٧] .

---

(٦٤) أبو نظارة ، عدد ٥ فى ٣ مارس ١٨٨٢ .

(٦٥) محافظ الأبحاث ، نفس المصدر ، برقية من الخديو الى القبوكتخدا بالآستانة ، ١٠ ابريل ١٨٨٢ .

(٦٦) مصر ، عدد ١٧ فى ١٦ ابريل ١٨٨٢ .

(٦٧) مصر ، عدد ١٩ فى ١٩ ابريل ١٨٨٢ ، المفيد ، عدد ٥٠ فى ٢٣ ابريل ١٨٨٢ .

ومما لاشك فيه انه كان للمعسكر المضاد للثورة أراجيفه فى هـذا الشأن ، فهو يعلم أن الثورة جاءت لتقضى على مفاسد اسماعيل التـى تركها فى مصر ، فاذا نسب علاقات لرجال الثورة مع هذا المستبد فربمـا ينفصـل التلاحم وينفك الارتباط وتضرب الثورة • كما أنه كان لتلك الاشاعات التى نشرها اسماعيل صداها فى الداخل اذا كان على عرابى الوقوف أمام هذه العاصـفة •

وقد حاول اسماعيل استمالة رجال الدين فى مصر لمعرفته بأنهـم ركن أساسى فى الثورة فيتصل بالشيخ حسن العدوى ليطلب منه السعى فى حضور عائلته لمصر ، كما كان يبعث بمن تموت من جواريه للصـلاة عليها ودفنها بمصر[٦٨] ، لكن لم يترك اسماعيل أى أثر طيب له حتـى يفكر أحد من المصريين فى مساعدته •

وأهم تلك المحاولات لاسماعيل كانت الثورة تقف له بالمرصـاد ، ولم تكن الثورة بمفردها ، كذلك توفيق اذ اعتقد أن اسماعيل أصـبح مقربا للسلطان بعد السماح له بالعودة الى الآستانة[٦٩] ، ولكن الهـدف وضعه تحت المنظار وكشف المؤامرات التى يحيكها ، وراح توفيق يبحـث وينقب عن كل صغيرة وكبيرة يمكن لها أن تعود بنفوذ أبيه حتى أنه عندما أشيع أن عائشة هانم رئيسة الزار — التى تبخر الخديو وملابسه وتتلوا عليه العزائم والتمائم — تجرى « أعمال دسائس من قبل اسماعيل باشا» عمل على نفيها الى سواكن ورحلت فى الحال[٧٠] ، وشغل توفيق بتلك الاجراءات التى يقوم بها اسماعيل الى أقصى حد لدرجة أنه لم تـكن

---

(٦٨) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، قضايا المتهمين ب ، ج ، الشيخ حسن العدوى مدرس بالأزهر ، دوسيه ١١٥ .

(69) Archives de maison, de cour et d'etat, Vienne, op. cit.

(٧٠) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، قضايا المتهمين أ ، الأوراق المضبوطة بمنازل المتهمين ، احمد عرابى باشا ، دوسيه ٥٣/د/٥ ، ٥٣/د/٧

تخلو مقابلة من مقابلاته مع القناصل الا وكان يعرضها ويشكو الأمر[71] •

وأخيرا وعندما وجد اسماعيل انه من المستحيل تحويل الثورة عن مسارها واستخدامها لخدمة أغراضه بالوصول على أكتافها لعرش مصر انعطف الى طريق آخر ودبر خطة بايجاد حركة مضادة تقضى على الثورة، وفى زمرة الاضطرابات التى يمكن أن تحدث تكون الفرصة لدخول مصر واستعادة ملكه ، فكانت المؤامرة الشركسية لاغتيال قادة الثورة والتى كان له يد فيها « وهذا يؤدى الى ايجاد ثورة مضادة تحدث دوامة تهيىء لاسماعيل فرصة العودة »[72] ويحلل عرابى الموقف بقوله : « طاب احداث الفتن والانقلاب لعله يصادف انقلابا تقول فيه أوروبا بأن حكومة مصر لاتكون أمينة من الاضطراب الا اذا أطلقت فيها التصرف للخديو »[73] ويمضى ليبين ما ظلم به اسماعيل مصر والمصريين • وفى خطاب من محمد عبده الى بلنت فى ٢٥ أبريل يسب فيه اسماعيل وينسب اليه العمل من أجل القضاء على الثورة « الخديو اسماعيل العدو الأكبر لمصر ، يجد سعادته فى عمل الدسائس لكى يدمر حكومتنا ويفكر انه بعمله هذا يمكنه العودة الى مصر ، لكن الله بدد آماله فذهبت مع الريح ، فكل مصرى يعلم أن رجوع اسماعيل لايعنى سوى دمار مصر »[74] •

وبذلك فشلت جميع المحاولات أمام صمود الجبهة الثورية ولم يعد اسماعيل الى مصر ليحكمها بالكرباج وبالسجون والمعتقلات ، لكن ليوارى فى ترابها •

---

(71) Politisches archiv, Alexandrien, Fasz XXXVIII/195, No, 2863, Rapport du Baron kosjek au Ministre des Affaires Etrangeres, le Caire, 5 Decembre, 1881.

(72) Blunt : op. cit., p. 249.

(73) Broadly : The trial and Pardon of Arabi Pasha, vol. II.

(74) Blant : op. cit, p. 249.

العلمانية والفكر المصرى الحديث

دكتور أحمد زكريا الشّــلق

١ ـ حول مفهوم العلمانية وينابيعها :

سوف تتشعب هذه الدراسة أساسا على رصد الاتجاهات التى يمكن وصفها بالعلمانية ، والتى ظهرت بأشكال متفاوتة ، خلال تطور الفكــر المصرى الحديث ، ومن زاوية التطور التاريخى ، واعتمادا بشكل أساسى على تراث وأدبيات المفكريين المصريين ، منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى أواسط القرن الحالى ، ومن ثم ان يكون تركيزنا على دراســـة العلمانية ذاتها كقضية فكرية قائمة ومستمرة ، وما دار حولها من جــدل ، وانما ستتم ملاحظة ذلك خلال نسيج التطور التاريخى لموضوع الدراسة باعتبارها « موقفا فكريا » لهذا المفكر أو ذاك •

وأول مايقتضينا توضيحه هنا هو المعنى الذى نقصده باصــطلاح « العلمانية » على ضوء فهمنا له وعلى ضوء الخصوصية التى تجعل بعض الكتاب والمؤرخين يستخدمون اصطلاحات من نوع « العلمانية المصرية » أو « العلمانيون المسلمون » •• وثمة حقيقة لايمكن انكارها فى البــداية مؤداها أن مصطلح العلمانية Secularism لايوجد فى تراث مصر الثقافى، بل وربما العربى عامة ، حتى أواخر القرن التاسع عشر تقريبا بل ان من تبنى اتجاهات ذات طابع علمانى ، أو يمكن وصفها بالعلمانية فى الفكــر المصرى الحديث ، لم يستخدم اصطلاح « العلمانية » فى كتاباته ، ليس

عن غير وعى بالضرورة ، ومن ثم فان وصـــف أفكار هذا المفكر أو ذاك بالاتجاه أو الميل نحو العلمانية هو مجرد حكم أو وجهة نظر قابلة للجدل.

وبشكل عام فان العلمانية تنسب الى العام ، والعلمانى Secularist هو العالم الدنيوى الذى يختلف عن الدينى أو الكهنـــوتى • ومن ثم فالعلمانى هو العالم الذى يتبنى الأفكار العلمانية أو يعتنق المذهب العلمانى Secularism فى مقابل رجل الدين أو الكهنوتى •• والعلمانيون يحكمون بوجه عام العقل ويرعون المصلحة العامة دون تقيد بنصوص أو طقـــوس دينية • ومن هنا كانوا على خلاف مع رجال الدين(١) •

وتتفق أغلب المصادر على أن الاصطلاح أوربى المنشأة واللفظ ، وان كان التراث الأوربى يميز بين نوعين من العلمانية ، نوع فكرى اعتقادى ، يفرض فكره اللادينى على المجتمع ، ومن ثم يتخذ موقفا عدائيا من الدين، ويعتبر العلمانية دعوة اجتماعية ـ فلسفية ذات مضمون قابل لأن يحـــل محل المضمون الدينى ، وهذا النوع يرفض التعايش مبدئيا مع الدين ، ويرى حصره فى نطاق فردى ضــــيق • أما النوع الثانى فهو العلمانية بالمعنى المحايد أو القانونى الشكلى الذى يفصل بين الدين والحكومة ـ لا بين الدين والمجتمع ولا بين الدين والفرد ـ وهذا النوع يترك للدين حريته الكاملة فى مجالاته الروحية والأخلاقية والاجتماعية ، متجها فقط لتنظيم الجانب المسمى بقوانين وأنظمة تحقق المساواة بين المواطنين بغض النظر عن دياناتهم(٢) •

والعلمانية بالمفهوم السابق موقف فكرى من تطور العام وعلاقتـــه بالدين وصراع رجال الدين مع رجال الدولة ، أو سلطة الكنيسة وسلطة الدولة ، بل ان بعض الكتابات ترى أن العلمانية هى الاسم الدينى للفلسفة

---

(١) ابراهيم مدكور (مشرفا) معجم العلوم الاجتماعية ص٤٢٥ ، عاطف غيث (مشرفا) قاموس علم الاجتماع (مادة علمانية) .

(٢) محمد جابر الأنصارى : تحولات الفكر والسياسة ص١٢٥ .

الانســانية [٣] ، والتي انتصرت في أوربا ، بعد فصل الدين عن الدولة ، وظهور الدولة القومية ، التى تعتمد على القوانين الوضـــعية بدلا من الشرائع الدينية المقدسة ، والتي حل فيها الحق الطبيعى فى الحكم محل الحق الآلهى المقدس • كذلك ارتبطت العلمانية تاريخيا بانتهاء الدولـــة الثيوقراطية ومناهضة الكهنوت وهجرة الرهبان للاديرة ، وذبول العلوم اللاهوتية ، وازدهار العلوم الوضعية ، الى جانب ارتباطها بظهور أجهزة الاعلام الجماهيرية ، والانتشار التدريجى للتعليم المدنى •

لقد فرض الصراع بين العلم والدين نفسه فى أوربا استجابة لتعاظم المعرفة ونمو المعرفة العلمية وكشف الحقائق الجديدة عن الانسان والكون، مما دفع الى الايمان « بالنبى الجديد » وهو العلم ، ومناهجه ونتائجه • ومن هنا نشأ الصراع بين العلوم الدينية واللاهوتية • ذات الطابع التأملى، وبين العلوم التجريبية ، وبات واضحا لدى كثير من المفكرين أن الدولة والمجتمع هما حاصل علاقات انسانية واقعية ، وليسا انعكاســا لارادة الهية ، فظهرت الأفكار العلمانية بوصفها محاولة لإدراك معنى العـــالم بوصفه معقولا ينطوى فى المحل الأول على امكانية ادراكه وبالتالى تغييره، من خلال التقاء الانسان والعالم في وسيط العقل ، دون ماحاجة للقوى الفوقية أو الدينية [٤] • من ذلك يتضح ارتباط مفهوم العلمانية عند نشأته الأوربية ، بقضـــية « تحـديث » المجتمع الأوربى ومحاولة تطويره (الدين والعلم) ، نفس ارتباطه بصراع الكنيسة مع المؤسسة السياسية (الدين والدولة) •

وعندما بدأت محاولات تحديث المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، على أساس أوربى ، بدأت الأفكار العلمانيـــة « تغازل » المجتمع المصري ولم يتم ذلك قبل هذه الحقبة لارتباط ذلك

---

(٣) لويس عوض : قصة العـــلمانية فى مصر ، مجلة المصـــور فى ٣٠ سبتمبر ١٩٨٣ •

(٤) شوقى عبد الحكيم : علمنة الدولة وعقلنة التراث ص ص ١٥ — ١٧ •

بخصوصية المجتمع المصرى المسلم ، الذى يدين بالولاء الدينى والسياسى للخليفة ــ السلطان العثمانى ــ كما لايوجد فى الاسلام سلطة كنسية أو اكليروسا ، وبالتالى لم تكن هناك سلطتان ، دينية وسياسية ، وان كان التطور التاريخى قد أفضى الى الشك فى مقدرة الخليفة السلطان على حماية العالم الاسلامى ، بل لقد أصبحت مصالح مصر وولاتها الطموحين ، تتعارض مع مصالح الخليفة ، بينما وجدت مصر أن من مصلحتها التعامل مع أوربا بشكل مباشر ثقافيا وحضاريا ــ بعد حملة الغزو الفرنسى (١٧٩٨ ــ ١٨٠١) ــ وبمطلق ارادة حكامها ، بينما توالت لبنات بناء « القومية المصرية » بمفهومها الحديث ، بفعل المؤسسات الثقافية المستحدثة ، وعمليات التمصير المستمرة فى الادارة والجيش والاقتصاد حتى لقد تبلورت فى النهاية مشاعر قومية خاصة ومتميزة عن الشعور القومي ــ الدينى العام الذى كان يربط مصر بدولة الخلافة ، فى الوقت الذى بدأت فيه دولة الخلافة ذاتها مصر بطبيعة الحال •

وفى ذات الوقت حدثت تحولات فكرية داخل المجتمع المصرى من جراء الاتصال بالغرب ، فشقت الثقافة والقيم الغربية طريقها الى المجتمع المصرى الذى بدأ يتعرف على الليبرالية أو الحرية الفردية ، ومنها حرية المعتقدات والديمقراطية ، والقوانين الوضعية التى يصنعها البشر ، والمساواة أمامها ... الخ • وجاءت توسعات الثقافة الحديثة من صحف ومدارس للترجمة ومدارس التعليم المدنى الحديث ، لتعلو بصخب المؤسسات التقنية على مشاعر الجماهير الدينية ، وأنتج ذلك كله فى النهاية مجتمعا مصريا مختلفا فى طبيعته وثقافته ووعيه ، بل وخارطته الاجتماعية ، حيث اندفعت شرائح اجتماعية جديدة من المثقفين من أبناء الأعيان المصريين الذين برزوا الى سطح الحياة العامة كقوة اقتصادية واجتماعية ، فارتقى أبناؤهم درجات السلم الاجتماعى ، مستندين الى قيم الثقافة والتعليم الحديث ، بعد أن ترسخت أصولهم الاقتصادية ، بفعل اجراءات وقوانين تمليك المصريين لأراضى بلدهم ، وباتت الشرائح الاجتماعية الجديدة تلعب دورها لتصبح مؤثرة فى حركة الثقافة والفكر •

واذا كان لنا أن نحدد تاريخيا القنوات الثقافية والفكرية التى دلفت خلالها الى مصر الأفكار الجديدة المتعلقة بالدين والعلم والدولة ، فيمكن رصد عدة ظواهر بدأت مع أوائل القرن التاسع عشر ، واستمرت تفعل فعلها طواله ممثلة فى : الاحتكاك بأوربا ، أفكارها ومؤسساتها ، وماصحب ذلك من موجات « تغريب » ورد فعل . وقد بدأ هذا الاحتكاك بشكل قسرى منذ الحملة الفرنسية ، ثم أصبح اختياريا خلال عصر محمد على (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) من خلال البعثات التعليمية الى أوربا وحركة الترجمة الواسعة واستقدام الخبراء والمعلمين الأوربيين الى مصر ، وقد لقى هذا الاحتكاك استجابة تدريجية ، وبأشكال متفاوتة ، لدى المصريين ، كان أبسط مافيها أنه أوجد فى النهاية اعتقادا بأنه لكى تواجه مصر أوربا لابد من فهم ، ان لم يكن تبنى ، أفكارها وأساليب حضارتها . ومن هنا كانت الخطوة التالية الممثلة فى بناء الدولة الحديثة فى مصر ، نظمها وأفكارها ، وفى ادارتها وجيشها ومصانعها ، فى شكل مشروع حضارى كبير وطموح خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ليضيف الى عوامل بناء قومية مصرية متميزة عناصر جديدة ومؤثرة ، يضاف الى ذلك نمو الحركة الوطنية ، فى مقابل تزايد الضغط الأوربى على مصر ، ثم سقوطها فى النهاية تحت وطأة الاحتلال البريطانى (١٨٨٢) أمام عجز دولة الخلافة الاسلامية صاحب السيادة على مصر .

فى ظل هذه التطورات نمت وتكاثرت خمائر الفكر السياسى والاجتماعى الجديد ، وكانت العلمانية بعض عناصر ، وهذه التطورات فى حد ذاتها لاتجعلنا نبالغ ونتصور أن مصر خلال عمليات تحديثها وتغريبها خلال عصرى محمد على والخديو اسماعيل قد قطعت شوطا فى اتجاه العلمانية[٥] ، على اعتبار أن قيام حكامها باستزراع مؤسسات

(٥) انظر مقالات لويس عوض عن قصة العلمانية فى مصر وتدور حول فكرة مغلوطة تصف انجازات من حكموا مصر بدءا ببونابرت وانتهاء بكرومر وحتى عبد الناصر بأنها عملية علمنة لمصر بشكل مطرد ، كما تجاهل كتابات المفكرين والمثقفين المصريين وتجاهل دور الدين فى علاقته بالدولة والمجتمع .

التحديث الأوربية فى مصر ، يمثل عملية « علمنة » لبنائها الســـياسى والاجتماعى ، ذلك أن أيا من حكام مصر لم يكن راغبا ، أو حتى بوسعه، فى تنحية الدين جانبا ، فقد كانوا فى النهاية يحكمون مصر كنواب عن الخليفة — السلطان العثمانى — الذى يحكم باسم الدين ، شعوبا تموج بالولاء الدينى • هذا بالاضافة الى أن محمد على ذاته كان يضع بفتوحاته أسس دولة اسلامية كبرى وخير مثال على ذلك نشر الاســـلام خلال فتوحاته الافريقية • كذلك فان المفكرين المصريين خلال نفس الحقبة ، كان الدين الاسلامى نقطع انطلاقهم فى دعواتهم للاصلاح والتطوير ، حتى أن من انبهر منهم بحضارة الغـــرب ، لم يشـــأ أن يبدى اعجابه بالعلمانية ، وراح يبحث فى التراث الاسلامى عن بديل للافكار الجديدة على نحو ماسنرى • ومع ذلك يمكن القول بأن محاولات حكام مصر تحديث مجتمعها وتطويره ، بدءا بمحمد على ، لم يكن يتم على أساس علمانى ، وان كانت عملية التحديث فى حد ذاتها قد جملت الى مصر أفكارا لهـــا موقف مغاير من الدين فى صلته بالمجتمع والدولة جعل البعض يحـــكم عليها بالعلمانيـــة •

٢ — الاتجـــاه التوفيقى :

واذا راجعنا كتابات المفكرين المصريين وماطرحوه من رؤى تتعلق بتحديث المجتمع وتطويره ، وكانت هذه المسألة قضـــية أساسية بالنسبة لهم ، فان ذلك يقودنا بالضرورة الى تحديد موقفهم من الدين ، باعتباره يشكل الأصل فى علاقته بكل من المجتمع والدولة على اعتبار أن التحديث سوف يتناول التعامل مع العلم الحديث ، كما سيحدد موقفا جديدا لعلاقة الدولة فى نظامها السياسى بالدين • ومن المسلم به أنه حتى مطلع القرن العشرين كان كل المثقفين المصريين يتلقون تعليما دينيا ، وتمثل الثقـــافة العربية والاسلامية أسس تفكيرهم ، كما كانت تحدد اطاره •

فهذا هو رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) تعلم فى الأزهر ويتخذ

موقفا دينيا من الحياة ، وعندما سافر الى فرنسا عام ١٨٢٦ ودرس المجتمع الأوربى ، نظمه وثقافته ، انعكس موقفه الدينى على نظرته للمجتمع ، فطالب بالاقتباس من نظم الغرب مع التوفيق بينها وبين الاسلام ، ولكنه يسقط مايخالف الدين أو يتناقض معه ، وكان ايمانه بالعقل مستمدا من ايمانه بالله ، على اعتبار أن الله هو الذى وهب الانسان ذلك العقل ، ومن ثم كان يرى اطلاق قدرات العقل للتحليل والتقويم والتركيب فى العلوم النظرية والتطبيقية ، ولكن اذا تعارضت حقائق العلم التى يتوصل اليها العقل ، مع حقائق الدين ، اعتبر هذه الحقائق الأخيرة هى المطلقة ، ومن ثم كان يحسم الخلاف لصالح الدين . الأمر الذى قد يدفعه أحيانا لتفسير حقائق العلم تفسيرا ميتافيزيقيا . فالحقيقة الدينية عنده هى المطلقة . فكان المثل الأعلى عنده أن يأخذ المسلم بعلوم الغرب ليطور دنياه على أن يحتفظ باسلامه ، الذى يهديه الى الصواب والخطأ كما ورد بالشرع ـ وعلى حد تعبيره « فالدين أساس المملكة ، ولا قوام لها الا به »[٦] . وهكذا انتصر أبو الفكر المصرى الحديث للدين ولم يؤمن بالعلمانية فى علاقة الدولة بالدين ، أو بقيام الدولة على أساس علمانى ، وان كان قد تبنى العقلانية فى مجال العلم طالما لاتتعارض مع الدين ، ومن ثم لم ير تعارضا بين الحضارة الغربية والاسلام .

ومهدت أفكار الطهطاوى الطريق لظهور أفكار جديدة تتعلق بموقف الدين الاسلامى من الحضارة الحديثة ، بحيث تأصلت وتعمقت لتصبح تيارا متميزا في الفكر المصرى حين شغلت قضية البعث الاسلامى ، وتحديث المجتمع المصرى ، الجيل التالى ، خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فكانت نقطة الانطلاق لجمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ ــ ١٨٩٧) الذى امتازت نظرته بالتسامح مع من مالوا الى تبنى أساليب الحضارة الحديثة ، فكان يؤمن بأن الاسلام لم يكن ضد العلم . ذلك

---

(٦) رفاعة الطهطاوى : المرشد الأمين ، ص١٠٨ .

أن أصول الاسلام ليست قاصرة على شئون الروح وانما جاءت وافية للمعاملات وتنظيم الحياة في المجتمع وتحديد سلطاته كما ورد بمجلة « العروة الوثقى » فالاسلام عنده دين ودولة وليس ثمة انفصال بينهما، فلم يخرج بذلك عن الفكر السياسى التقليدى فى الاسلام ، ولم يكن الأفغانى ملحدا ، كما وصفه بعض خصومه ، وانما كان أقرب فى فهمه للدين الى عقلانية الفلاسفة الأوربيين الماديين فى القرن الثامن عشر ، ذلك انه يعتقد بضرورة الألوهية لسعادة الانسان ، كما يرى فى الدين مؤسسة قادرة على زجر الانسان الى جانب تنظيمه للعلاقات المادية بين الناس • وقد تميزت دعوة الأفغانى بالترويج لفكرة بعث ماضى الاسلام المجيد فى ظل رابطة تجمع الشعوب الاسلامية ، لمقاومة الضغط الأوربى، وليس لمجرد قيام الدولة على أساس دينى[٧] •

وباسهامات محمد عبده (١٨٤٨ — ١٩٠٥) تلميذ الأفغانى ، تتخذ قضية الاصلاح الاسلامى أبعادا أرحب وأعمق ، فكانت من أهم غاياته بيان أن جوهر الاسلام لايتناقض مع الحضارة الحديثة ، فليس ثمة تناقض بين الدين والعلم ، وان اصلاح المجتمع الاسلامى عن طريق الدين، أسهل وأصح ، مع الاحتكام للعقل ومقياس المصلحة والاجتهاد • لقد كانت احدى غايات محمد عبده التوفيق بين الاسلام والعلم الحديث ، تنقية الاسلام أولا مما شابه خلال عصور الضعف ، واعادة النظر فى كل مايتصل بالمذاهب الاسلامية فى ضوء العلم الحديث ، كما أن اجتهاداته فى رسائله وفتاويه ومقالاته ، بل ودعوته لاقامة جامعة عصرية ، ذات طابع دنيوى ، ومحاولاته الجادة اصلاح الأزهر ونظامه التعليمى ، وكذلك اصلاح نظم القضاء الشرعى ، تصب كلها فى نهر التجديد العصرى، على أساس رؤية توفيقية فى مجال الاصلاح الدينى[٨] لقد تجاوز محمد

---

(٧) مجيد خدورى : الاتجاهات السياسية ص٧٠ — ٧١ ، غالى شكرى النهضة والسقوط ص١٦٦ — ١٦٧ •

(٨) غالى شكرى : النهضة والسقوط ص١٩٧ — ٢٠١ ، محمود اسماعيل : مقالات فى الفكر والتاريخ ص٢٨ ، أحمد عبد الرحيم مصطفى : حركة التجديد الاسلامى ص٦٢ •

عبده مفهوم الطهطاوى ، الذى كان قد حسم المسألة لصالح الدين فكان أكثر واقعية حين حاول اثبات أن الاصلاح والمدنية لايتمان الا بالاحتكام الى الاسلام ذاته ، الذى هو مرادف للتمدن ، فنظر الى القضية من « داخل » الدين الذى كان نقطة انطلاقه ، لا من « خارجه » كما فعل الطهطاوى .

أما فيما يتعلق بعلاقة الدين بالدولة والسلطة ، فقد اتضح موقف محمد عبده خلال محاورتيه الشهيرتين مع كل من هانوتو (١٩٠٠) وفرح أنطون (١٩٠٢) حيث استبان خلالهما ايمانه بأن لا سلطة فى الاسلام سوى سلطة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى حد تعبيره « فليس فى الاسلام مايسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه » كما أنه ليس فيه سلطة ثيوقراطية يتلقى فيها الحاكم الشريعة ويختص بالتشريع وقد ذكر أن المؤسسات ذات الطابع الديني كدار القضاء والافتاء وهيئة العلماء ، أو شيخ الاسلام ، ليس لها سلطات دينية تتعلق بالعقائد، وانما هى سلطات مدنية قررها التشريع الاسلامى . ولعل هذا وراء تفسير بعض نقاد محمد عبده لآرائه هذه بأنها تمثل موقفا « علمانيا » ضد الثيوقراطية ، وأن آراءه مع ذلك لم تنجح فى اضفاء الصبغة الاسلامية على التقليد الليبرالى القائل بالفصل بين الدين والدولة[٩] . والواقع أنها ليست كذلك اذا أخذنا فى اعتبارنا أنه كان يتحاور مع مفكرين مسيحيين ، واذا مانظرنا اليها من زاوية تأكيده على أنه ليس ثمة حاجة الى العلمانية ، كما فى المجتمعات الأوربية ذلك ان المجتمع الاسلامى ليست فيه أصلا سلطتان ، دينية وزمنية ، بينهما صراع ، ومن ثم فان آراء محمد عبده لاتبلور موقفا علمانيا بقدر ماتنفى ضرورة الأخذ بالتقليد العلمانى الغربى وبالتالى لم يكن بحاجة الى اضفاء صبغة اسلامية على التقاليد الغربى القائل بفصل الدين عن الدولة .

---

(٩) غالى شكرى : المرجع السابق ص ١٩٧ ، أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص٦٣ — ٦٤ .

وربما كانت أهمية أفكار محمد عبده وهى تقرب بين الاسلام والمدنية الحديثة ، أنها ستفتح الباب للاجتهادات ، التى ستجعل من الصعب التمييز بين مايتفق مع الاسلام ومايخالفه ، مما يفسر كيف أنه وهو يحاول أن يقيم جدارا ضد العلمانية ، فاذا بفريق من أنصاره وتلاميذه يعتبرونه جسرا يعبرون عليه بأفكار ذات طابع علمانى وداعين لابعاد الدين عن مجال التطور الاجتماعى .

٣ ـ العلمانيون المسلمون :

انطلق هذا الفريق من تلاميذ محمد عبده من العصريين الليبراليين ، بأفكارهم المتعلقة بالدين والمجتمع ، محاولين الى أن يصلوا بأفكار الشيخ الى ما اعتقدوا أنها نهاياتها المنطقية ، داعين الى الحد من تدخل الدين فى أنظمة المجتمع وقوانينه ، وقد اصطلح بعض من الكتاب على تسمية هذا الفريق بأنهم أصحاب الاتجاه « العلمانى ـ الاسلامى » أو « العلمانيون المسلمون »[١٠] رغم ما فى هذا الاصطلاح من عدم دقة . ومن أبرز أنصار هذا الاتجاه قاسم أمين (١٨٦٣ ـ ١٩٠٨) وأحمد فتحى زغلول (١٨٦٣ ـ ١٩١٤) ، وأحمد لطفى السيد (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣) ممن عاصروا أستاذهم ، ثم الجيل التالى الذى برز خلال العشرينات من هذا القرن وفى مقدمته الدكتور محمد حسين هيكل (١٨٨٨ ـ ١٩٥٦) وعلى عبد الرازق (١٨٨٨ ـ ١٩٦٦) والدكتور طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) .

بينما ظهر الفريق الآخر من تلاميذ محمد عبده ممن يتمسكون بالأصولية الاسلامية ويفسرون أفكاره فى اطارها ، وقد عبرت عن أفكاره

---

(١٠) خدورى : المرجع السابق ص٧٨ ، هشام شرابى : المثقفون العرب ص٣١ ويقصد شرابى بهم المسلمين غير المندمجين مباشرة فى حركة البعث الاسلامى ، تمييزا لهم عن أولئك المندمجين فى الحركة أى العلماء المصلحين .

مدرسة مجلة المنار (١٨٩٧ ــ ١٩٣٦) وعلى رأسه كان محمد رشيد رضا (١٨٦٥ ــ ١٩٣٥) ، وظهرت أفكاره ممثلة فى الحركات الدينية التى نشأت خلال العشرينات كالشبان المسلمين (١٩٢٧) والاخوان المسلمون (١٩٢٨) وعلى رأسها زعيمها ومؤسسها الشيخ حسن البنا (١٩٠٦ ــ ١٩٤٩) وكان بروز هذه الجماعات وتشددها رد فعل لمواجهة أنصار الاتجاه العصرى الليبرالى ، بقدر ماكانوا اتجاها قائما بذاته يفسر أفكار محمد عبده من زاوية مغايرة تماما ، تفهم البعث الاسلامى على أنه عودة للاصول وتمسكا بالنصوص الدينية وحدها .

١ ــ ويعد قاسم أمين أبرز دعاة الاتجاه العصرى ، وقد انطلق من الأرضية المألوفة لجيله ، بثقافته الاسلامية والتى دعمها بدراسته الأوربية . فمع تأكيده لايمانه بالدين ، يؤكد أيضا اقتناعه بقانون داروين عن التزاحم وبقاء الأصلح فى تفسير النشوء والارتقاء ، فأعلن أن بقاء المجتمع وتطوره لايعتمدان على الأخلاق أو الدين ، بقدر مايعتمدان على أهليته للمشاركة فى الصراع[11] . ويؤكد قاسم ايمانه بالعقل ، فيذكر فى معرض حديثه عن المدنية الاسلامية أن عامل الدين لم يكن وحده المؤثر فى وجود الحالة الاجتماعية ، ويقوده ذلك الى الدعوة الى الحرية ، وحرية الرأى والنقد بشكل خاص ، فذكر أن الانسان فى البلاد الحرة قد يجاهر بأن لا وطن له ، ويكفر بالله ورسله ، ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم .. يقول ويكتب ماشاء ولايفكر أحد فى أن ينقص شيئا من احترامه لشخصه متى كان قوله صادرا عن نية حسنة واعتقاد صحيح . لقد كان قاسم يرى أن الايمان مسألة شعور صرف وأنه ليس مسألة عقلية أو عملية ، وتساءل : لم يعتقد المسلم أن عوائده لاتتغير وأنه يلزمه أن يحافظ عليها الى الأبد ؟[12] .

---

(١١) قاسم أمين : تحرير المرأة ص١١٨ ، شرابى : المرجع السابق ص ١٠١ .

(١٢) قاسم أمين : تحرير المرأة ص٣١ .

أما بالنسبة لعلاقة الدين بالسلطة السياسية فقد أكدت كتاباته على الحقيقة القائلة بأنه لا سلطة روحية في الاسلام ، أما السلطة السياسية التي يمارسها الخلفاء فهي تمارس فقط باسم الدين ، ومن ثم أنكر وجود نظام سياسي في الاسلام وذكر أن شكل الحكومة كان عبارة عن خليفة غير مقيد ، ذلك أنه لم يكن في النظام مايرده الى أصول الشريعة ، وأنه اذا قيل أن هذا الخليفة يبايعه أفراد الأمة الاسلامية ومن ثم فان سلطته مستمدة من هذه الأمة ، فنحن لاننكر هذا ولكن هذه السلطة لاتتمتع بها الأمة سوى بضع دقائق وهي سلطة لفظية ذلك أن الخليفة هو وحده صاحب الأمر[١٣] • وهكذا انتقد قاسم نظام الخلافة في الاسلام مبتعدا تدريجيا عن أفكار محمد عبده ، يؤكد ذلك أيضا أنه كتب في كتابه أقامها محمد عبده بين الاسلام والمدنية ، ومع احترامه للاسلام بشكل الأخير « المرأة الجديدة » (١٩٠٠) عن الاستناد الى القرآن والسنة ، مستمدا شواهده من العلوم والأفكار الغربية ، وقد ذكر في مقدمة هذا الكتاب أن العلم هو الأساس الشرعي الوحيد للحقيقة وأن المنفعة هي المحك الوحيد للقيمة • لقد أوضح قاسم أن تمدين المجتمع يتوقف على عدة عوامل ليس الدين الا واحدا منها ، فقطع قاسم بذلك الصلة التي أقامها محمد عبده بين الاسلام والمدنية ، ومع احترامه للاسلام بشكل عام الا أنه أعطى المدنية الحق في أن تبني قواعدها الخاصة لتعمل على ضوئها ، لقد كان يرى أنه اذا كان الاسلام هو الدين الحقيقي ، فان هذا لايعني بالضرورة أن المدنية الاسلامية هي المدنية الفضلى • وقد رأى مفسرو آراء قاسم أن أفكاره هذه لقيت قبولا بسبب لهجته المعتدلة وحججه البليغة في أوساط الاصلاحيين والعلمانيين على حد سواء ولأنه لم يغترب عن محيطه الاسلامي ، فقد أثبت امكانية التعايش بين النزعة الاصلاحية والنزعة العلمانية في الاسلام[١٤] •

---

(١٣) قاسم أمين : المرأة الجديدة ص١٧٥ — ١٧٦ •
(١٤) هشام شرابي : المثقفون العرب ص١٠٢ — ١٠٣ •

ويقف أحمد فتحى زغلول نفس الموقف تقريبا من العلم والدين ، وهو من أنصار محمد عبده وأصدقائه ، وكان قد أوفد لدراسة القانون فى أوربا ، وربما كانت أعظم اسهاماته هى ماقدمه من ترجمات للفكر السياسى والاجتماعى الأوربى ، وكان مؤمنا بمذهب بنتام عن المنفعة ، بل لقد ترجم الى العربية كتابه « أصول الشرائع » وقد شغلت قضية تمدين المجتمع المصرى فتحى زغلول ، وكان مؤمنا بحتمية التطور العلمى لتقدم وتمدن المجتمع الاسلامى ، وكان من نتيجة اهتماماته أن ترجم كتاب ديمولان « سر تقدم الانجليز السكسونيين » وكذلك كتاب لوبون « سر تطور الأمم» وقد أسبق ترجماته بمقدمات نقدية ذات طابع تطبيقى تناولت قضايا المجتمع المصرى كما نبه خلالها الأذهان الى أن العلوم ليست هى علوم الدين فحسب أو أن المفيد منها ليس هو فقط مايختص بعلاقة الانسان بربه ، وكان يتساءل : أين منا المؤرخ والنباتى والطبيب والكيميائى والمهندس والطبيعى وعالم الزراعة وغير هؤلاء ؟ (١٥) •

وكثيرا ماتناول اثبات فكرة أن الحقيقة بنت البحث العلمى ، وليست بنت الايمان الساذج بالمسلمات ، وقد انتشرت فى كتاباته الدعوة لتبنى العقلانية • ورغم عدم تعرض فتحى زغلول الدين بشكل مباشر ، مع احترامه له ، الا أن تجاهله ، من حيث صلته بالمجتمع الذى خاض تقريبا فى كل قضاياه ، وتأكيده الدائب والعملى على نقل تراث الفكر الليبرالى الأوربى الى مصر ، يستشف منه موقفه من الدين ، بالاضافة الى اعجابه الشديد بكتابات صاحب مذهب المنفعة ، وايمانه القاطع بالعقل ، كل هذا مال به نحو أفكار هى من طبيعتها تعد من قبيل الاتجاهات العلمانية ، أبعدته عن القواعد الدينية التى انطلق منها هو ورفاقه منذ البداية •

وقد نحى أحمد لطفى السيد نفس المنحى حين لم يعالج قضايا الدين بشكل مباشر ، وقد انصب اهتمامه حول الدعوة القومية المصرية ،

---

(١٥) ادمون ديمولان : سر تقدم الانكليز السكسونيين ص٢٦ (مقدمة فتحى زغلول) •

بمفهوم علمانى ، فى مواجهة الرابطة الاسلامية ، التى كان يسميها « الجامعة الاسلامية » ، وكذلك المطالبة بانتهاج المذهب التحررى (الليبرالى) بما يستند اليه من أسس وقيم فلسفية وحضارية ، مما يستشف منه اتجاهه الفكرى بشأن قضية تحديث المجتمع المصرى ، وكان كفتحى زغلول يؤمن بمذهب المنفعة ويدعو المصريين الى الأخذ بمنفعة وطنهم ونبذ « أوهام » الجامعة الاسلامية •

وقد تجاوز لطفى« التوفيقية » التى أرساها محمد عبده،وكان اتجاهه حاسما حول أخذ مصر عن الغرب وحضارته ، دون حاجة الى وجود الخلافة ، روحية كانت أو زمنية ، تركية أو عربية ، وكان أساس دعوته الى التحديث الأخذ عن الغرب مباشرة ، بغير توفيق أو تلقيح فاستبعد « الاسلام » كطرف فى معادلة التقدم ، مكتفيا بجانبه الخلقى دون حاجة الى الجانب التشريعى ، وكانت الترجمة السياسية لذلك فى نظره هى نبذ الخلافة العثمانية ، وفصل الدين عن الدولة وقيام حكم دستورى(١٦) • ومن هنا نادى بهوية وطنية مصرية ، تستند الى تاريخ مصر المتواصل ، الذى لم يكن الحكم الاسلامى فيه سوى مجرد حقبة ، محيلا الدين الى ضمير الفرد ، وقد مالت به أفكاره هذه نحو العلمانية فى مجال علاقة الدين بالدولة • وان لم يتناول الدين بشكل مباشر ، ذلك أن الدين لم يكن المبدأ المسيطر على تفكيره ، فالدين سواء كان الاسلام أو غيره لايعنيه الا كأحد العوامل المكونة للمجتمع • لقد كان لطفى مقتنعا بأن المجتمع الدينى خير من المجتمع اللا دينى ، على الأقل فى مرحلة معينة من التطور ، لكنه لم يكن مقتنعا بأن المجتمع الاسلامى أفضل من المجتمع اللا اسلامى ، وحين بحث عن الأسباب التى يزدهر بها المجتمع الاسلامى

---

(١٦) محمد جابر الأنصارى : تحولات الفكر والسياسة ص١٩ — ٢٠ ، وكذلك
Wendell,Ch. : The Evolution of Egyptian Notional Image, p. 230.

لم تكن المفاهيم التى أجاب بها عن ذلك هى مفاهيم الفكر الاسـلامى ، بل مفاهيم الفكر الأوربى • بل لقد كان واضحا ادى لطفى السـيد أن القومية المصرية هى محور الشخصية الجماعية والولاء الفردى • وان قيم الحضارة الأوربية العلمانية هى « العقيدة » المطلوبة لتلك الشخصية ، وأن الاسـلام والعروبة يمثلان رافدا ضمن الروافد المتعـددة للتراث المصرى المتنوع ، الموغل فى القدم ، وأنهما لايمثلان أكثر من ذلك[١٧] •

(ب) أثمرت أفكار هذا الجيل — جيل قاسم أمين وفتحى زغـلول ولطفى السيد فى دفع عجلة هذا التيار الفكرى الى الأمام ، بعيدا عن الأرضية الاسلامية التى شكلت وجدانهم وملامح ثقافتهم فى البداية ، وعبرت بهم الجسر الذى أقامه محمد عبده للتوفيقية ، ومع احترامهـم لأفكاره ، انطلقوا بقوة دفع ذاتية يبشرون بتراث وفكر الغرب ، ينهلون من ثقافته بغير حدود يترجمون ويلخصون وينشرون ويستخدمون مناهجه، مقتربين بشـكل واضح نحو تبنى أفكار جديدة عن علاقة الدين بالدولة والمجتمع ، هى فى جوهرها من صميم العلمانية وان ظل دينهم الاسلامى يحظى باحترام خاص •

ومع سنوات الحرب العالمية الأولى ، وبتسرب الضعف الى الكيان الاسلامى الجامع بدأت الحركة القومية المصرية تتخذ طابعا وطنيا محليا ، خاصة بعد أن بدأت دولة الخلافة الاسلامية تسقط صريعة الحضـارة الغربية المتفوقة ، فبرزت الأفكار العلمانية عن القومية تتخذ طابعا جديدا، وجاءت ثورة عام ١٩١٩ الشـعبية لتضع أنصار الاتجاهات الاسـلامية ، والقومية المصرية معا فى بوتقة حركة وطنية ملتئمة ، وبرزت فى أعقابها أحزاب تعبر عن ولاءات سياسية وطموحات قومية بأسلوب غربى (مثلا حزب الأحرار الدستوريين عام ١٩٢٢) وجاء الغاء الكماليين للخـلافة

(١٧) الانصارى : تحولات الفكر ص١٢٠ ، لطفى السـيد : تأملات ص ٧٢ — ٧٣ •

الاسلامية فى تركيا عام ١٩٢٤ ليمد دعاة التغريب والعلمانية بحجة قوية فى مواجهة الأصوليين الاسلاميين ، وعلى ذلك شهدت السنوات الأولى من فترة مابين الحربين بروز جيل جديد انحرف بشكل عملى وراء الفكرة القومية ، ومال الى استبدال ولائه للاسلام بالولاء للقومية الاقليمية بمفهوم علمانى ، متأثرا بتجربة تركية الكمالية ، التى ألغت المؤسسات الاسلامية ، كما تأثر البعض الآخر بالأفكار الغربية العلمانية . وهذا الجيل فى الواقع يعتبر امتدادا طبيعيا لأنصار الاتجاه العصرى اللبرالى من تلاميذ محمد عبده مما يؤكد استمراريته خلال العشرينات ومابعدها ، وان كان سوف يشهد « تراجعا » الى المصالحة التوفيقية التى أرساها محمد عبده ، وسوف يتناول الموضوعات الدينية بروح جديدة .

ومن المهم ملاحظة أن انفساح المجال أمام دعاة هذا الاتجاه ارتبط بتراجع الاسلام السياسى فى هذه المرحلة بفعل الضغط الأجنبى على مصر ، حيث توارث قوة الاسلام السياسية وانحصرت على الصعيد الشعبى فى جوانبه الدينية ونشاطه الصوفى ، بينما الأقلية المتعلمة والنافذة والمتأثرة بالغرب فكرا وسلوكا ، توالى ضغطها من خلال التأثير الاجتماعى والتربوى فى ظل السيطرة المباشرة ، وبتأييد ضمنى منها ، وهكذا ارتبطت ظاهرة التغريب بالضغط الاستعمارى ، مما يوضح كيف أن عملية التغريب وما صحبها من موجات علمية ، لم تكن اختيارا حرا جماعيا ، ولعل هذا يفسر كيف أن ما أن تراخت القبضة الغربية على مصر حتى انقلبت الصورة تماما ، وتقدم الاسلام كقوة عقيدية ، اجتماعية وسياسية[١٨] .

كانت هذه هى الخلفية التى مهدت لظهور أفكار تتعلق بالدين والدولة كتلك التى طرحها القاضى الشرعى على عبد الرازق (١٨٨٨ — ١٩٦٦)

---

(١٨) الأنصارى : المرجع السابق ص١١٢ — ١١٧ وأنظر هجوم كرومر على الاسلام بكتابه

Modern Egypt, London, 1908.

فى كتابه الهام « الاسلام وأصول الحكم » عام ١٩٢٥ ليعرض قضية نظام الحكم فى الاسلام بأسلوب جعله يميل للأخذ بالعلمانية وليجمل بالضجة التى صحبت الكتاب ، قضية العلمانية مطروحة على نطاق واسع ، حيث برزت الى ساحة الفكر مشكلة العلاقة بين السلطتين الدينية المدنية من جديد • وتقوم دراسة على عبد الرازق على فرضية أساسية مؤداها أن الخلافة ليست نظاما اسلاميا ، ومن هنا فهى ليست ضرورية ، لأنها كانت مصدر انقسام بين المسلمين ، وأنه من الضرورى أن تتخذ السلطة فى الاسلام شكل الخلافة ، وقد ذكر كذلك أن التشريع الاسلامى للمسائل المدنية لم يدع الى الجمع بين السلطات الدينية والمدنية ، ولذلك فلا بأس من أن تناط جميع الشئون المدنية بعد زوال الخلافة بسلطة مدنية علمانية، ومن ثم تعدل جميع القوانين ، عدا الدينية الصرفة ، لتناسب الظروف القائمة • ومن هنا اتهم على عبد الرازق بالالحاد ، رغم أنه كان مصرا على اسلامه وتقديسه لنبى الاسلام ، وربما يعد صحيحا أن خطورة هذه الآراء تكمن فى أن صاحبها استند الى حجج ومبررات دينية شرعية ، مستمدة من القرآن والسنة والتاريخ الاسلامى لتبرير أفكار انتصرت العلمانية لها ، وضمن أطار الفكر الدينى ذاته ، ومن داخله ، وليس من منطلق العلمانية الخالصة المنافية للدين(١٩) •

وقد وجدت أفكار على عبد الرازق فى صحيفة « السياسة » ورئيس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل (١٨٨٨ — ١٩٥٦) تأييدا ودفاعا ، دفاعا عن حرية الفكر وتجديده وكان هيكل قد نشأ نشأة دينية ثم درس الاقتصاد السياسى فى باريس حيث تفتحت أمام آفاقه نوافذ ثقافية أوربية ، تغلغلت الى عناصر ثقافية بأفكار لبرالية ، زلزلت قناعاته مذكراته عن يومياته فى باريس ، تأثر فيها كثيرا بأفكار « رينان » ، وان ظل ايمانه الفطرى بالله ورسوله قائما ، وشهدت الفترة التالية مساهمته فى موجة التغريب بشكل واسع فوضع كتابا عن « روسو » عام ١٩٢٣

---

(١٩) المرجع السابق ص — ص ٢١ — ٢٢ •

شرح فيه فكرته عن الدين الطبيعى ، ودراسات عن « أناتول فرانس » عام ١٩٢٤ ، وقدم شروحا وتلخيصات لفلسفة « كونت » عام ١٩٢٦ ولم يكن هيكل يمتلك الجرأة فى التعبير عن أفكاره ، كما فعل على عبد الرازق ، فألبس أفكاره الدعوة الى حرية الفكر والدفاع عنها ، وحاول نفى فكرة أن هناك علاقة بين التجديد والالحاد ورغم انه لم يترك أثرا فكريا أحدث دويا كبيرا فى هذا المجال ، الا أنه خلق « مناخا » فى صحيفة السياسة كان أشبه بذلك الذى خلقه لطفى السيد فى صحيفة « الجريدة » (١٩٠٧ — ١٩١٥) قبل أن يعود هيكل ثانية ليخضع قناعاته بالفكر الغربى الى موقف عقلانى حذر يجعله يتخذ موقفا « انتقائيا » خلال الثلاثينات كما سوف نرى .

وفى عام ١٩٢٦ كتب اسماعيل مظهر (١٨٩١ — ١٩٦٢) فى مجلة المقتطف يدعو لاحلال العقلية العلمية الأوربية محل العقلية الغيبية التى تميزت بها الحضارة الاسلامية ، دون تغريب أو توفيق ، وكان مظهر قطبا فى جماعة العصور التى كانت تصدر مجلة بهذا الاسم ، بدأ دراسته فى انجلترا وتأثر بخاله لطفى السيد واستوحى ايمانه بالفكر الحر ، وان كان اهتمامه قد انجذب أكثر الى حلقة يعقوب صروف ، ثم أصدر عام ١٩١٩ ترجمة عربية لكتاب داروين « أصل الأنواع » وحين أصدر مجلة العصور (١٩٢٧ — ١٩٣٠) وأشعل على صفحاتها ثورة فكرية ، تناول خلالها المسائل الدينية ، وتعرض لرجال الفكر السلفى والتوفيقى بالهجوم ، وتناول المعتقدات الدينية بجرأة غير معهودة ففى مقال له عن علاقة الانسان بالله ذكر أن من المفاهيم الخاطئة لدى الانسان اعتقاده أن الله خلقه على صورته وأن الحقيقة أن الانسان هو الذى تصور الله بطريقة تعكس صورته هو .. وذكر مرة أن الشك يحرك الانسان بقدر مايحركه الايمان ، ودحض الأسس التى استند اليها عباس العقاد فى تفسيره الايمان بالله[٢٠] وربما كان وراء أفكار مظهر هذه أنه استقى أولا من

---

(٢٠) خدورى : الاتجاهات السياسية ص٢٣٥ — ٢٤٠ ، اسماعيل مظهر : رسالة الفكر الحر جا ص ص٣ — ١٥ .

نبع العلوم الغربية داخل حلقة يعقوب صروف ، الذى أثر كثيرا فى تكوينه بشكل أبعده عن أصوله وجذوره الاسلامية •

وفي نفس موجة العشرينات أصدر طه حسين (١٨٨٩ — ١٩٧٣) كتابه « فى الشعر الجاهلى » عام ١٩٢٦ مطبقا فيه منهج ديكارت للشك فى الشعر الجاهلى والروايات التاريخية بل وأشار لامكانية استخدام النقد التاريخى لغربلة الروايات والنصوص الدينية ، بما فى ذلك القرآن، مما طرح امكانية نقده من وجهة نظر البحث العلمى ، ومن هنا جاءت خطورة الكتاب والمنهج الذى استخدمه ، وكان يؤكد فى ذلك الوقت ان التوفيق بين الدين والعلم محال ، وطالب بنسيان العواطف القومية والدينية ورفض اعتبار شواهد الكتب المقدسة حقائق تاريخية صحيحة، مما اعتبر هجوما مباشرا على الدين ، ومن هنا اتهم بالالحاد والعمالة للمستشرقين الأوربيين • وفيما يتعلق بالدين والدولة أكد طه على فكرة عبد الرازق أن الاسلام دين وليس نظاما سياسيا ، وأن الاسلام ترك للمسلمين حرية اختيار النظم السياسية التى تلائمهم وكذلك حرية تطويرها وقد أعطى حسين انطباعا بأن الاسلام يوحى باقتباس النظم الغربية ، وحاول اثبات أهمية للفصل بين الدين والسياسة وأن الدين ذاته لايستلزم التوفيق فيها[٢١] •

وفى عام ١٩٣٨ أصدر طه حسين كتابا هاما بعنوان « مستقبل الثقافة فى مصر » أبدى فيه ايمانه الصحيح بمعناها العلمانى ، داعيا الى ربط مصر بتراث البحر المتوسط الثقافى ، والى التعليم المدنى الدنيوى بشكل حاسم ، والى استبدال المؤسسات الدينية بالمؤسسات العلمانية ، وشن حملة واسعة على رجال الأزهر الذين لايفهمون القومية بمعناها العلمانى الغربى • لقد تأثر طه حسين بنظرة « كونت » الوضعية، التى رأت أن النظرة الدينية الى الوجود تشكل مرحلة من مراحل تطوره

---

(٢١) ساباپارد : الرحالون العرب صص٣٥٤ — ٣٥٥ والاقتباسات من كتب طه حسين : من بعيد — من لغو الصيف — نقد واصلاح .

وعليه اعتبر سيطرة العاطفة على الفكر العلمى من بقايا العصور الوسطى •• وان كان طه قد عاد فيما بعد للتوفيق بين ايمانه بالاسلام وايمانه بالبحث العلمى الحر ، ليميل الى اثبات أن فى الاسلام عقلانية العلم ، منعطفا بأفكاره العلمانية الى نظرة دينية وجدت فى الاسلام سبيل التطور العلمى ورفضت الالحاد الذى توصل اليه العقلانية العلمانية اذا ماوصلت الى أقصى غاياتها ، بل لقد ذهب طه لأبعد من ذلك حين تحدث عن معجزات النبى وأظهر عجز العقل عن الاحاطة بها لضعفه وقصوره مما أعطى فى النهاية تأكيدا بعودته الى التوفيق بين هويته المصرية الاسلامية التى أودعها فيه تراثه ، وهويته الأوربية التى اكتسبتها ثقافته •

٤ ــ الصحوة السلفية والتوفيقية الجديدة :

(أ) لقد أشرنا الى أن مدرسة محمد عبده انقسمت الى فريقين يمثل كل منهما اتجاها متميزا ومختلفا فى النظرة الى الدين وعلاقته بالسياسة والمجتمع ، الفريق الأول من أنصار الاتجاه العصرى اللبرالى الذى مال الى تبنى أفكار تدخل فى نطاق العلمانية ، أما الفريق الثانى فأنصاره من دعاة التمسك بالأصولية الاسلامية ، على أسس سلفية وكان على رأسه فى البداية الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ ــ ١٩٣٥) الذى شغلته كأستاذ محمد عبده قضية اصلاح المجتمع الاسلامى ، ولكنه رفض منذ البداية أسلوب الفريق المتحرر فى فهم أفكار أستاذهم وتفسيرها ذلك أن أنصاره ، فى رأى رشيد رضا ، قد أطلقوا سراح العقل بغير ضوابط ولا الزام ، فى حين أن محمد عبده لم يقصد ذلك ، وعلى ذلك اعتقد رشيد بأنه يفهم أفكار محمد عبده على وجهها الصحيح ، وكان مؤهلا للحكم على ذلك بحكم دراسته المتعمقة والمتكاملة للاسلام ، حتى أنه وجد فيه مايبرر أفكاره واتجاهاته بمقدرة خاصة ، مستمدا وحيه من تراث السلف الصالح ، الذين فهموا المعنى الصحيح لمبادىء الاسلام ، كما وردت فى القرآن والسنة ، ومن هنا كان اعتماده الأساسى ، حيث

رأى ضرورة كبح جماح العقل بزيادة المصادر الملزمة الى حد كبير ، الى جانب اعادة مبدأ الاجماع الذى ارتبط بفترة الخلفاء الراشدين •

أما بالنسبة لمسايرة المجتمع الاسلامى للمدنية الحديثة ، فانه يقبل الحضارة الأوروبية وان لم يكن شديد الاعجاب بها ، بالقدر الكافى لاستعادة المجتمع الإسلامى قوته وحيويته ، وعلى ذلك استنتج ضمنا أن هناك مبادىء مشتركة بين الاسلام والمدنية الحديثة، وأنه لن يتم فهم ذلك الا بالنفاذ الى جوهر الاسلام أولا بفهمه فهما صحيحا ولذلك أخذ على عاتقه مهمة تفسير الاسلام تفسيرا يناسب ظروف الحياة المعاصرة ، وقدم نتيجة لذلك تفسيرا شاملا ومفصلا للقرآن ، عرف باسم مجلة « المنار » •لقد كان رشيد رضا يعتقد بضرورة « احياء » الحضارة الاسلامية لا (استردادها) ومن هنا كان الاسلام قاعدته ومجال حركته، منذ البداية وحتى النهاية أما الحضارة الأوروبية فهى « بضاعة » اسلامية — كما قال الأفغانى — نتجت عما تعلمه الأوروبيون من المسلمين فى البداية ، ولذا رأى وجوب العودة الى المنبع الأصلى ، الذى ارتوى منه الأوربيون • وربما كان الفارق الجوهرى بين رشيد رضا وأنصاره من جهة وأنصار الاتجاه العصرى اللبرالى من جهة ثانية ، ان المجتمع الاسلامى كان محور تفكيره ونقطة انطلاقه للاصلاح ، بينما الاخرون كانت الحضارة الغربية هى محور تفكيرهم من حيث الاستفادة بها ونقلها الى مجتمعهم•

أما بالنسبة لمسألة الخلافة الاسلامية ، فقد كانت مجلة المنار تدعو منذ سنواتها الأولى الى اقامة مجتمع اسلامى واحد يستظل براية الخلافة العثمانية ، قاعدته مكة وفروعه تنتشر فى كل بلد اسلامى ، ولذا دعا رشيد رضا الى الوحدة والتضامن الاسلاميين ، وكان يرى أن تاريخ الخلافة الطويل ، وانتشار ثقافة مشتركة ، وقرون الاحتكاك والزواج الطويلة ، كل ذلك قد أنشأ أمة دينية مدنية فى آن واحد ، هى الأمة الاسلامية ، والخلافة فى نظره « ضرورة » لاتستطيع الأمة الاسلامية أن تعيش

بدونها[٢٢] • وقد عبر عن أفكاره هذه عام ١٩٢٣ حين وضع كتابه « الخلافة والامامة العظمى » حيث بسط فيه أفكاره ودافع عنها وهاجم القومية القائمة على الجنس ، باعتبارها تمثل خطرا يهدد الأمة الاسلامية •

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى توالت الأحداث بدءا بتطوير الحركة الوطنية المصرية وقيام الثورة عام ١٩١٩ ، والاحباط الذى منيت به حين لم يتحقق مطلبها فى الاستقلال الكامل ، وما أعقبها من تجربة النظام الوطنى الليبرالى بأحزابه وبرلماناته ، فى ظل النفوذ البريطانى ، وعجز النظام عن حل القضية الوطنية المصرية ، وصراع أحزابه ، مما زاد فى قوة الرفض ليس فقط للتسلط الأوربى وحده ، وانما أيضا للحضارة الأوربية ذاتها ، فانتشر لدى الأوساط السلفية والمحافظة شعور فادح بالخطر المهدد للكيان الاسلامى ، ليس فقط فى اطاره السياسى فحسب ، فهذا الاطار قد تم تدميره ، وانما فى جوهر معتقداته وأسس وجوده ا وقد تمثل هذا الشعور فى عنف رد الفعل الذى أثاره صدور كتابى على عبد الرازق وطه حسين (١٩٢٥ — ١٩٢٦) فاشتد عنف التيار الأصولى الاسلامى فى هجومه على الغرب الأوربى ، بل وعلى دعاة فكره من أنصار الاتجاه العصر اللبرالى منذ العشرينات •

وقد لخص حسن البنا (١٩٠٦ — ١٩٤٩) مؤسس جماعة الاخوان المسلمين وزعيمها ، التطور الجديد فى مذكراته قائلا : « اشتد تيار موجة التحلل فى النفوس وفى الاراء باسم التحرر العقلى ، لقد قامت تركيا بانقلابها الكمالى ، وأعلن مصطفى كمال الغاء الخلافة وفصل الدين عن الدولة ، وتحولت الجامعة المصرية من معهد أهلى الى جامعة حكومية تديرها الدولة ، وكان للبحث العلمى والحياة الجامعية حينذاك فى رؤوس الكثيرين صورة غربية مضمونها أن الجامعة لن تكون جامعة

---

(٢٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : حركة التجديد ص٧١ ، خدورى : المرجع السابق ص٨١ •

علمانية الا اذا ثارت على الدين وحاربت التقاليد الاجتماعية المستمدة منه »[٢٣] .

وقد اتخذ رد الفعل الديني في البداية شكل جمعيات دينية واجتماعية تبث في الجيل الجديد روح الأخلاق الدينية وكان الاقبال على تأليف هذه الجمعيات ثوريا وحماسيا فتأسست جمعيات الشبان المسلمين ابتداء من عام ١٩٢٧ ، وكانت طليعة لمثيلاتها من الجمعيات التي لعبت دورا أكثر نشاطا في الحياة العامة ، وقد عمرت هذه الجمعيات طويلا لأنها ركزت على الأمور الدينية والاجتماعية وحاولت الابتعاد عن النشاط السياسي لكن التيارات الدينية كانت تطمح الى تعبير أقوى من مجرد الانبعاث الديني فانتشرت الدعوة الى تركيز الجهود على الارشاد الديني ونشأت جماعات عديدة كرست نشاطها للشعائر الدينية والصوفية ولمحاربة العادات الاجتماعية المفسدة والأفكار العلمانية ، وكانت أقوى هذه الجماعات وأبعدها أثرا جماعة الاخوان المسلمين التي أسسها الشيخ حسن البنا عام ١٩٢٨ ، والتي رفعت في البداية شعارات البعث الاسلامي واتخاذ القرآن دستورا ثم تدرج الشيخ البنا الى اثبات أن الاسلام ينظم شئون الناس ، بما في ذلك القضايا المعاصرة ، وأنه لايقتصر على الشئون الدينية فحسب ، وأنه دين شامل لايترك مجالا لاستعارة أفكار ومؤسسات من مجتمعات أخرى ، وأن الهدف ليس طرح أفكار جديدة بقدر ماهو خلق جيل مسلم جديد قادر على فهم المعنى الحقيقي للاسلام والعمل وفق تعاليمه ، لتحقيق التقدم واستعادة مكانة الاسلام وسطوته، وهذا بالضرورة سوف يؤدي الى ظهور « أمة اسلامية » جديدة[٢٤] .

أما بخصوص السلطة في نظر الاخوان ينبغي أن تستمد حسب النظرة الاسلامية السياسية من مصدر الهي وأن على من يتولون أمرها أن

---

(٢٣) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية ، ص٥٣ .

(٢٤) خدوري : المرجع السابق ص٨٩ .

يسترشدوا بوازع الدين وحده وأن السياسة لايمكن أن تنفصل عن الدين وبالتالى فان الذين يعتقدون أن لا دخل للاسلام فى السياسة، لايفهمون المعنى الحقيقى للدين[٢٥] •

وقد فسرته احدى الدراسات المعاصرة[٢٦] صحوة حركة التسييس للاسلام باعتبارها ظاهرة ممتدة تاريخيا من زاوية أن السياسة لم تنفصل عن الدين أساسا ، وأن الذى حدث لايعدو أن يكون عودة الفهم الأصلى للاسلام • أى اطلاق قواه الاجتماعية والاقتصادية الكامنة ، والتى ظلت حبيسة تحت سيطرة القوى الأوربية المباشرة ، وفى عهد الحكومات غربية الولاء ، وأنه ما أن تراخت القبضة الأوربية حتى جاء الاسلام يقدم أنماطه الثقافية والسياسية • وما أن أخذت مكانة الغرب فى التدهور، حتى انبعثت المثل الدينية ، وتولدت العوامل التى جعلت من الدين قوة سياسية عبرت عنها الجماعات الجديدة •

(ب) تصدعت توفيقية محمد عبده نتيجة الصراع بين أنصار الاتجاه العصرى والعلمانية ، ودعاة الاتجاه الأصولى السلفى ، وبدأ أنصار الاتجاه العصرى والعلمانيةع ، ودعاة الاتجاه الأصولى السلفى ، وبدأ أنصار الاتجاه الأول ، يراجعون حساباتهم ، ويخضعون قناعاتهم بشأن العلم ومناهجه ونتائجه لموقف نقدى ، ويخضعون نتاج الحضارة الحديثة لموقف انتقائى ، فكان على عبد الرازق أول من ألقى السلاح ، خاصة وقد أوذى بشكل مباشر من جراء كتابه • وكان من جراء ذلك أن انسحب من الحياة الفكرية والثقافية بشكل نهائى ، وباستثناء بعض المقالات التى كان ينشرها بين الحين والاخر فى المناسبات الدينية الاسلامية ، كأنما ليكفر عن كتابه بتأكيد ايمانه ، وباستثناء المحاضرات التى ألقاها فى

---

(٢٥) المرجع السابق ص٩١ وراجع ماكتبه عن أيدلوجية الاخوان ص٩٩

(٢٦) محمد جابر الأنصارى : تحولات الفكر والسياسة ص١١٦ — ١١٧ ، ص ١١٩ •

المجامعة حول قضية الاجماع عند المسلمين ، لانجد له أثرا فكريا يستحق التسمية[٢٧] .

أما الدكتور هيكل فلم يعد فى أواخر العشرينات مطمئنا الى سلامة تفكيره العلمى الوضعى ، وقد كتب سنة ١٩٢٧ مقالات عن المعتقدات الدينية ، كرر فيها الفكرة القائلة بأن لا خلاف بين العلم والدين ، وركز على أن القيم الروحية فى حياةالأمم أهم من الأمور المادية وذكر أن الايمان بالنسبة للحضارة الجديدة سيكون مزيجا من نتائج مايكتشفه العلم والدين ، بل وكتب عام ١٩٢٩ يبدي تشككه في قدرة العلم التجريبي المطلقة على حل ألغاز الكون ، وراح يبشر بحضارة شرقية جديدة يتزاوج فيها العلم والايمان ، وهكذا بدأت نزعته الايمانية الجديدة تزحزح اعتقاده اليقينى فى العلم التجريبي ، لتصل به فى النهاية الى نوع من السلاح الروحى . وفى عام ١٩٣٢ طالب ببعث ماضى مصر والشرق معانا كفره بنقل الغرب بغير انتقاء ، وهاجم الاستعمار الغربى والتبشير المسيحى واستكمل اتجاهه الجديد حين نشر كتبه الاسلامية : حياة محمد، فى منزل الوحى (١٩٣٥ ، ١٩٣٦) وسلسلة كتبه عن الخلفاء الراشدين، بلور خلالها رؤيته الجديدة . مؤكدا على ضرورة بعث تراث الانتسلام الثقافى وماضيه الحضارى بالاستعانة بطرائق البحث العلمى الأوربى بنظرة جديدة ، مما كان نقطة بداية لنزعة توفيقية جديدة[٢٨] .

شملت نفس الموجة تقريبا طه حسين ، فكتب على هامش السيرة عام ١٩٣٣ متخليا عن العقلانية الحاسمة التي تميزت بها العلمانية ، والتى لونت كتاباته في العشرينات وربما كانت الحملة التى واجهته عندما نشر كتابه « فى الشعر الجاهلى » قد جعلته يخفف من غلوائه فجعل يراجع نفسه ، وازداد ميلا لطرق الموضوعات الدينية ، وكتب سلسلة كتبه الاسلامية « الفتنة الكبرى ــ الوعد الحق ــ الشيخان »

---

(٢٧) محمد عمارة : الاسلام واصول الحكم لعلى عبد الرازق ص٤٣ .
(٢٨) احمد زكريا الشلق : حزب الأحرار الدستوريين ص ص٤٨٦ ــ ٤٤٨ .

حتى لقد كان تحوله مثار حيرة إعتبرها البعض « ردة دينية »[٢٩] ، الا أنه من المسلم به أنه خلال هذه المرحلة عاد الى المنبع الاسلامى ، يستمد منه ومن تاريخه قيما أخلاقية ومبادىء اجتماعية ، وأكد أن المبادىء السياسية والاجتماعية التى يقتبسها المصريون من الغرب ، موجودة فى تراثهم الاسلامى ، الذى سبق الغرب اليها[٣٠] .

ولأن اسماعيل مظهر لم تكن اتجاهاته دينية منذ البداية حيث بدأ يرفض الدين وارتبط بالاتجاه العلمى الذى مثله الشوام فى مصر ، وبالذات فى حلقة يعقوب صروف والمقتطف ، فهو لم « يتراجع » فكريا ، وانما انتهى دوره فعلا فى موجة التراجع ، ويمثل توقفه عن الكتابة بشكل عام بعد عام ١٩٣٠ ، فى حد ذاته انتصارا للعودة للتوفيقية الجديدة ، التى أبطلت حجة المتشيعين للغرب الحضارى واتجاهاته العلمانية بالذات فهو جم مظهر لالحاده ، من المتدينين والمجددين على السواء ، ولم ينجح فى كسب أنصار له ، رغم مقدرته وعلمه ، ولذلك اختفى وانسحب الى قريته متعزلا عن الحياة العامة .

ويمثل ظهور مجلة « الرسالة » عام ١٩٣٣ لأحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ــ ١٩٦٨) أصدق تعبير عن التيار التوفيقى المستجد ، حيث صدرت المجلة لتكون جامعة بين روح الشرق وحضارة الغرب ، وكأنها استجابة لطبيعة المرحلة ، ولتعبر عن الحاجة الملحة لظهور نموذج تربوى متوازن ومتكامل من رجال الثقافة ، يتجاوز الثنائية التى وقعت بفعل الانشطار الاجتماعى والفكرى بين التغريب والسلفية ، ولتكون الرسالة مجالا لأقلام رجال جمعوا بين الثقافة الدينية الاسلامية العميقة ، وبين الثقافة الأوربية العلمية الدقيقة .

تواكبت التطورات مع تزايد الدعوة لاصلاح الأزهر ، تلك المؤسسة

---

(٢٩) سابايارد : الرحالون العرب ص ٤٤٠ ــ ٤٤٣ .

(٣٠) أنظر كتاب طه حسين : الوان على سبيل المثال .

الدينية التعليمية المصرية ، وكانت دعوة الاصلاح تتناوله من زاوية عصرية ، وهذا أمر له مغزاه ، فمن المسلم به أن الأزهر لم يكن يمثل سلطة دينية عليا أو مركزيا فى مصر ومن ثم لم يكن بوسعه أن يفرض برنامجه الإصلاحى على المؤسسات الدينية الأخرى والزامها باتباعها بل ان اصلاح الأزهر ذاته لم يكن مسألة سهلة ، رغم أحداث بعض التغييرات فى بنيته وأسلوبه التربوى ؛ وكانت هذه الإصلاحات قد بدأت منذ عهد محمد عبده ، الذى قدم أول خطة للاصلاح والتحديث ، واستمرت الدعوة قائمة حتى عهد الشيخ محمود شلتوت (توفى ١٩٦٤) الذى أضاف الى المناهج الدينية مناهج معاصرة شملت فروع الطب والعلوم الطبيعية واللغات الحديثة . وقد تم على يدى شلتوت تحول الأزهر الى « جامعة » (فى يونيو ١٩٦١) ذات طابع عصرى ، وتجاوزت فيها علوم الدين واللغة مع العلوم التقنية والطبيعية وان كان هذا الاتجاه قد لقى معارضة المحافظين ، ممن رأوا فى ذلك تبنيا لاتجاهات علمانية لاتتناسب ودور هذه المؤسسة التعليمية الدينية ، وعلى اعتبار أن مؤسسات التعليم المدنى تتولى هذه المهمة ، وكان هؤلاء يرون حصر المجال التعليمى للازهر فى علوم الدين وفروعها . وفى الواقع فان هذا التطوير العصرى للازهر فى علوم الدين وفروعها . وفى الواقع فان هذا التطوير العصرى للازهر لايعد فى حد ذاته « علمنة » له ، بقدر ما هو اثبات امكانية وأهمية تجاوز العلم والدين ، والتأكيد على فكرة أن الاسلام لايتعارض مع العلوم الحديثة ، وأن المهمة الخلقية للازهر ايجاد المسلم المستنير بعلوم العصر ليساهم فى منجزاته الحضارية .

ومع استمرار تيار التراجع والعودة للاصول الاسلامية بروح عصرية ، لدى من مالوا من قبل الى اتجاهات أقرب الى العلمانية ، انتشرت خلال المؤسسات الدينية وفى اطارها حركة تحديث تنظر الى الدين نظرة عقلانية ذات طابع اصلاحى دينى ، لم تبلغ مبلغ الدور الذى لعبه لوثر فى الكنيسة الكاثوليكية ، ذلك أن أصحابها تبنوا منهاجا اصلاحيا تدرجيا هادئا . وفى خضم التيار الجديد ظهرت كتابات الشيخ

مصطفى عبد الرازق (١٨٨٥ - ١٩٤٧) الذى كان تلميذا لمحمد عبده ودرس الفلسفة فى فرنسا ، وأدرك حضارة الغرب وضرورة اللحاق بها ، وحيث لاغنى عن الافادة بها . وظهرت كتابات مصطفى عن الاسلام باعتباره نظاما دينيا عقلانيا تقدميا ، واعتبر مجددا كبيرا بكتابيه الهامين « الفلسفة الاسلامية والفقه الاسلامى » ثم « فى الدين الاسلامى » . حيث دفع خلالها بتأثير من النزعة العقلانية الفرنسية بتفسيرات محمد عبده خطوة الى الامام وركز على دور العقل فى تطوير الدين الاسلامى ، وباعتباره مصدرا من مصادر القانون الاسلامى عن طريق الاجتهاد .

ومن معقل الأزهر أيضا برز خالد محمد خالد ، ليقدم أفكارا متطورة بكتبه التى أثارت ردود فعل مؤثرة حين صدرت وهى « الدين فى خدمة الشعب (١٩٤٨) « من هنا نبدأ » ، « مواطنون لا رعايا » (١٩٥٠) هاجم فيها المؤسسات الدينية والاجتماعية القائمة وحمل حملة شعواء على رجال الدين الفاسدين ، وكانت نقطة انطلاقه هى التمسك بأصول الايمان وجوهره الروحى ، معبرا عن كراهيته للكهانة وداعيا لاقصاء رجال الدين عن ميادين الحياة العامة ، ليظل الناس على اخلاصهم للدين . وقد نحا خالد بأفكاره منحى اشتراكيا هاجم فيه ما اعتبره تمسكا « بالقناعة المقدسة ، والفقر المحبوب واشتراكية الصدقات » حيث يستغل ايمان الناس الحقيقى .

وبشكل عام كان محور كتاباته خلال هذه المرحلة يدور حول السلطة الدينية والخلق الدينى ، وكان يؤكد على أن هناك شرطان يجب تحقيقهما ليحافظ الدين على سلطانه فى قلوب البشر : أولهما تفاعله المستمر مع حاجات المجتمع ، وثانيهما احتفاظه بخصائصه الذاتية وأهدافه التى من أجلها شرعه الله ، وهى اسعاد الناس فى نطاق المساواة . وقد ركزت كتابات خالد كذلك على وجوب فصل السلطات الدينية عن السلطة المدنية ، لأن الاسلام يدعو الى الحب وتمجيد الله والتوحيد بين البشر ، وهذه هى أغراض الدين الأساسية وقد تساءل : وأى مساس لهذه

الأغراض بالدولة ؟ الا أنه كان يرى أن يمثل الفقهاء فى المجالس الوطنية والبرلمانية ، ليقدموا المشورة للسلطات المدنية في أمور الدين والعقيدة •

ويمثل ظهور محمد أحمد خلف الله اضافة جديدة لهذا التيار ، وقد تخرج من كلية الآداب عام ١٩٣٩ ثم قدم رسالة لنيل درجة الدكتوراه عام ١٩٤٩ عن الفن القصصى فى القرآن الكريم ، أثارت زوبعة فى حينها لتبنيها اتجاهات لم تكن مألوفة في تأويل قصص القرآن ، ثم لم يلبث أن قدم دراسات جديدة عن « القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة » انتهى فيها الى تقرير أن الشريعـة الاسلامية لا تعارض أبدا قيام دولة ذات مؤسسات عصرية ، كما ورد خلال دراسات تالية له عن « القرآن والدولة » وكذلك « العروبة والاسلام » أفكار على عبد الرازق حول عدم وجود نص قرآنى قطعى الدلالة عن الخلافة ، وان كان ماجاء من أحاديث تروى على لسان النبى فى شأن وضع من أوضاع الخلافة ، وان كان ما جاء من أحاديث تروى على لسان النبى فى شأن وضع من أوضاع الخلافة هى مكذوبة وليست صحيحة ، كما لم يرد نص يطالب الناس بصيغة معينة فى تنظيم الدول ، وقد أضاف بشـكل حاسم أن التقاليد السياسية التـى تركها الرسول كالبيعة والشورى ورأى أولى الأمر فى المسائل الدنيوية ، انما تدخل فى بناء الدولة العلمانية ولا تتعارض معها • كما ردد خلف الله أفكارا حول محاربة القرآن لسلطة رجال الدين (الأحبار والرهبان وغيرهم) وذكر أن الشريعة الاسلامية جعلت قيام الدولة وتنظيمها من مسئوليات البشر ، مما يتطلب قيامه على أسس علمية وعصرية وفى معرض دفاعه عن العروبة ، ذكر أنها هى الأصل وأن الاسـلام هو الفرع وأن التجربة الاسلامية عربية قبل كل شىء • وقد أضاف خلف الله أن الاسلام باعتباره ديانة عالمية لم ينص وحيه الالهى أن عالميته تستلزم أن يكون العالم كله وحدة سـياسية ، استنادا الى أن تحقيق العالمية الدينية لا يسـتلزم الوحدة السياسية ، فالدين ليس هو الرابطة القومية التى هى أسـاس قيام الدولة القومية •

٥ ـ خاتمـة :

من خلال العرض السابق ينبغي أن نكون قد لاحظنا أن انتقال الأفكار والمؤثرات الثقافية الأوربية ، ومنها مايتصل بالعلمـانية الى المجتمـع المصرى ، منذ بدأت محاولات تجديثه وتمدينه على أسس أوربية وغربية منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وهذا يسجل ارتباط انتقال الأفكار العلمانية لمصر بعمليـة تغريبها ، مدا وجزرا • فالعلمانية بغيـر جدال واحدة من القضايا الأساسية للفكر السياسي والاجتماعى الأوربي ، ولم تكن وليدة مجتمع شرقي اسلامى شأن مصر التي يمثل الفكر السياسى الاسـلامى ، الذى يعتبر الخلافة الاسلامية انما هى لخلافة النبوة في حراسة الدين ولسياسة الدنيا ، أساس بنائها الخلقي والفكرى ، والتي يلعب الدين في حياة شعبها اليومية دورا بارزا • وحين انشـغل المثقفون والمفكرون المصريون بقضية تحديث مجتمعهم وتمدينه ، لم يكن بوسعهم تجاهـل الحضارة الأوربية الحديثة ، بل ظهرت لديهم قناعة مؤداها أنه لا يمكن مواجهة الغرب الا بفهم ـ ان لم تبنى ، أفكاره وأساليب حضارته ، ومن منطق التعامل مع هذه الحضارة ، وعلى ضوء الخصوصية المميزة لمجتمع شرقى مسلم ، كان لابد من الوصول الى نقطة التقاء أو توفيق ، مثلهـا محمد عبده ومدرسته •• وفى خضم انتقال الأفكار الأوربية الى مصر خلال عمليات التعامل أو التوفيق ، انتقلت الى مصر أفكار تتعلق بالدين وعلاقته بالدولة ونظمها السياسية وقوميتها وعلاقته بالمجتمع والعـلم ومنجزاته وكانت هذه احدى اسهامات العلمانية •

وينبغى أن نشير الى أن تتبع هذه الأفكار خلال معالجات المفكرين المصريين كما وردت فى تراثهم وأدبياتهم ، لايجعلنا تحكم بشكل عام ، على نقل منجزات الحضارة الأوربية التقنية ومحاولات استزراعها فى مصر ، بأنها عمليات « علمنة » للمجتمع المصرى رغم أنها مست بشـكل مؤثر المؤسسات الاجتماعية ذات الطابع الدينى التقليدى كالقضـاء والأوقاف والأزهر ومؤسسات التعليم الدينى ، كما أن قبول بعض الأفكار

العلمانية لدى قطاع من المفكرين لايعنى بالضرورة علمنة المجتمع المصرى أيضـــا •

وبحكم أن المجتمع المصرى له طبيعة ثقافية ودينية ، مســتمدة من تراث عربى اسلامى ، يختلف بحكم طبيعته عن المجتمع الأوربى ، فان المفكرين المصريين قد « اختاروا » من العلمانية الأوربية جانبها المعتدل حيال الدين ، والذى يكتفى بالمطالبة بتجديد دوره فى مجالات تنظيـم الدولة والمجتمع ، دون مهاجمة ، ودون دعوات الحادية لا دينية ، ومن ثم بقى الدين محترما فى مصر لدى من مالوا لتحديد دوره فى السياسة والمجتمع من المفكرين المصريين • وربما كان هذا وراء عصر هؤلاء اهتمامهم على فكرتين أساسيتين من الأفكار العلمـانية ، وهما علاقة الاســلام بالحضارة العلمية والعقلية الحديثة ، ثم علاقته بتنظيم الدولة ســياسيا وقوميا ، وكان المجتمع المصرى الاســلامى نقطة البداية ومجال الاهتمـام فى أغـلب الأحوال •

ومن الملاحظ كذلك أن تيارا علميا أو علمانيا مســتقلا عن الدين والمجتمع الاسلامى ، لم ينشأ فى مصر الحديثة مثلما حدث فى المجتمعات الأوربية ، فلم يعرف الفكر المصرى دعاة للعلمانية وانبفيها بعيدا عن نطاق الدين ، رغم محاولات سابقة لنفر من المثقفين العلميين الشــوام الذى أقاموا بمصر ، ومنذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، والتى لم يقدر لها الاستمرار أو كسب الانصار والمؤيدين لتنجح فى خـلق تيار علمانى متميز فى مواجهة التيارات الدينية • وخير مايؤكد هــذه الحقيقة أن جميع من تبنوا أفكار واتجاهات تدخل فى اهتمامات العلمانية، كانوا من مشايخ وعلماء الأزهر ، معقل الثقافة والتربية الاسلامية فى مصر ، ولعل هذا كان وراء تسميتهم « بالعلمانيين المســلمين » ربمـا لاحتواء هذا الاصطلاح على معنى « التوفيق » أكثر من احتوائه على مغالطة فى التعبير • وكما اتضح لنا أن الأفكار التى مالوا الى قبولها من العلمانية ، قد وجهت بردود فعل عنيفة من قبل المحافظين والمتدينين

الذين رأوا فيها الخطر كله على المجتمع الاسلامى ، الى جانب أن أصحابها أنفسهم تراجعوا عنها ، متبنين اتجاهات توفيقية جـديدة وعائدين الى قواعدهم الاسلامية ، التى كانوا قد ابتعدوا عنها حينا تحت شـعارات التحديث والتغريب مأخوذين ببريق الأفكار التحررية ، فكانوا فى كل الأحوال فرسان التراث والتجديد ومساهمين بدرجة فى قضية الأصالة والمعاصرة التى مازالت تواجه المجتمع المصرى .

المصـادر والمراجع

— ابراهيم بيومى مدكور (محررا) :

معجم العلوم الاجتماعية . الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٥

— أحمد زكريا الشلق :

— حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية ، القاهرة ١٩٧٩

— حزب الأحرار الدستوريين ١٩٢٢ ـ ١٩٥٣ ، القـاهرة ١٩٨١

— أحمد عبد الرحيم مصـطفى :

حركة التجديد الاسلامى فى العالم العربى الحـديث القاهرة ١٩٧١ .

— ألبرت حـورانى

الفكر العـربى فى عصر النهضة ، ترجمة كريم عزقول ، بيروت ١٩٦٨ .

— أنور عبد الملك :

— الفكر العـربى فى معركة النهضة ، ط(٣) ، بـيروت ١٩٨١ .

— نهضة مصر ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٨٣ .

ـ اسماعيل مظهر :

رسالة الفكر الحر ، جـ١ تجاريج الشباب ، دار الثقافة ، بدون تاريخ •

ـ جوزيف مغيزل :

العروبة والعلمانية ، بيروت ١٩٨٠ •

ـ شوقى عبد الحكيم :

علمنة الدولة وعقلنة التراث العربي ، عكا ، بدون تاريخ

ـ طارق البشرى :

المسلمون والأقباط فى اطار الجماعة الوطنية ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨١ •

ـ على المحافظة :

الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة ، بيروت ١٩٧٥ •

ـ غالى شكرى :

النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث ، بيروت ١٩٧٨ •

ـ فاروق أبو زيد :

عصر التنوير العربى ، بيروت ١٩٧٨ •

ـ لويس عوض :

قصة العلمانية فى مصر ، مجلة المصور بمصر (٢٣ سبتمبر ـ ٧ أكتوبر ١٩٨٣) •

- مجيد خدورى :

عرب معاصرون ، بيروت ١٩٧٣ .

الاتجاهات السياسية فى العالم العربى ، بيروت ١٩٧٢

- محمد أحمد خلف الله :

العروبة والاسلام ، الكويت ١٩٨٢ .

- محمد البهى :

الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، القاهرة ١٩٧٨ .

العلمانية وتطبيقها فى الاسلام ، القاهرة ١٩٨٠ .

- محمد جابر الأنصارى :

تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى ، الكويت ١٩٨٠ .

- محمد حسين هيكل :

الايمان والمعرفة والفلسفة ، القاهرة ١٩٧٨ .

- محمد عمارة :

الاسلام بين العلمانية والسلطة الدينية ، القاهرة ١٩٨٢

- محمود اسماعيل :

قضايا فى التاريخ الاسلامى ، بيروت ١٩٧٤ .

مقالات فى الفكر والتاريخ ، الدار البيضاء ١٩٧٩ .

- منصور فهمى :

أبحاث وخطرات ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٣ .

— منير موسى :
الفكر العربى فى العصر الحديث ، سوريا من القرن الثامن عشر حتى عام ١٩١٨ ، بيروت ١٩٧٣ .

— نازك سابايارد :
الرحالون العرب وحضارة الغرب ، بيروت ١٩٧٩ .

— هشام شرابى :
المثقفون العرب فى عصر النهضة ١٨٧٥ — ١٩١٤ ، ط٣ بيروت ١٩٨١ .

— Ahmed, J. M. The intellectual Origins of Egyptian Nationalism Oxford 1960.

— Heyworth- Dunne, Religious and Political Trinds in Modern Egypt Washington 1950.

— Safron, N. Egypt in Search of Palitical Community, Harvard 1961.

— Wendall, Ch., The Evolution of the Egyptian National image California 1972.

— حسين مؤنس : [illegible]

— شارل عيساوي : [illegible]

— طارق البشري : الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥ — ١٩٥٢ [illegible]

— Ahmed, J. M. The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism Oxford 1960.

— Heyworth-Dunne. Religious and Political Trends in Modern Egypt Washington 1950.

— Safran, N. Egypt in Search of Political Community, Harvard 1961.

— Wendall, Ch., The Evolution of the Egyptian National Image California 1972.

دراسة حول :

قضية كتاب « وطنيتى » للشيخ على الغاياتى .

دكتور يواقيم رزق مرقص

المشرف بمركز تاريخ مصر المعاصر

كتم الحاضرون أنفاسهم ، وزاغت أبصارهم وهى معلقة على رئيس الجلسة فى محكمة جنايات القاهرة ، وهو ينطق بحكمه يوم السبت الموافق ٦ من أغسطس عام ١٩١٠ فى القضية رقم ٦٧ سايرة الأزبكية ضد كل من المتهمين الحاضرين :

الأول : الشيخ عبد العزيز جاويش

الثانى : الشيخ محمد حسن القزوينى

الثالث : الياس أفندى دياب

بمعاقبة الأول بحبسه ثلاثة أشهر حبسا بسيطا ، وكل من الاثنين الآخرين بالحبس لمدة شهرين وأمرت بوقف تنفيذ العقوبة بالنسبة لكل منهما .

ثم غيابيا على الشيخ على الغاياتى (*) بالحبس لمدة سنة مع الشغل عن التهمة الأولى ، وببراءته عن تهمة التحريض على القتل .

(*) ولد فى ٢٤ اكتوبر ١٨٨٤ فى دمياط حيث تعلم القراءة والكتابة فى كتاب القرية — حفظ الكثير من الشعر لحبه فيه ثم انتقل الى جامع البحر بدمياط وكان تابعا للأزهر الشريف ، لاستكمال دراسته وانتهى من دراسته فيه عام ١٩٠٦ ثم سافر الى القاهرة فى ابريل ١٩٠٧ ، ولجأ الى جريدة الجوائب المصرية التى كان قد انشأها خليل مطران ، حيث نشر أشعاره التى كان يكتبها ، ثم الحق فى يولية ١٩٠٧ بقسم التحرير فيها ، وفى ١٩٠٨ عمل مصححا فى جريدة اللواء ونشر فيها أشعاره التى جمعها فى هذا الكتاب الذى عنونه « بوطنيتى » .

على عبد الرشيد : سيرة وحياة على الغاياتى ، القاهرة ١٩٨١ ص ص ١٠٩ — ١١٩ .

وما أن انتهى النطق بالحكم الا وهاج الكثير من الحاضرين ، وفلتت أعصاب بعضهم فتفوه بألفاظ ضد هيئة المحكمة ، فكان نصيبه الحبس لمدة أربع وعشرين ساعة ، وخرج القوم فى شبه مظاهرة سياسية تسب الاحتلال وأعوانه ، ممن كانوا سببا فى النيل من أصحاب الرأى الجرىء[1] .

كان هذا هو الشق الأول من القضية ، أما الشق الثانى فقد تأجل السير فى اجراءاته : من ضبط وتحقيق ومحاكمة الى أن يتم القبض على المتهم فيه أو تسليمه نفسه ، ذلك المتهم الذى وجد نفسه مضطرا أمام مواطنيه بتسليم نفسه ، فقبض عليه وقدم للمحاكمة ، ليتم النصف الثانى من القضية الكبرى التى عرفت بقضية « وطنيتى » وينطق رئيس الجلسة فى يوم ٢٢ يناير ١٩١١ بالحكم حضوريا بحبس محمد فريد رئيس الحزب الوطنى آنئذ ستة أشهر حبسا بسيطا[2] .

ظنت السلطة أن هذه الأحكام هى اسدال الستار على قضية شغلت الرأى العام فترة طويلة ، كما أقضت مضجع السلطة فى مصر فترة أطول ، فكانت قضية وطنيتى من أشهر القضايا السياسية فى نهاية العقد الأول من هذا القرن ، فقد شهدت فريات كثيرة ، وكشفت الكثير من الأيدى : منها ما كان سيئا حاك هذه الفريات ، ومنها ما هو حسن استهدف المصلحة العامة ، مدافعة عن الحق بالحق .

وقد دارت هذه القضية أساسا حول كتاب بعنوان « وطنيتى » لمؤلفه الشيخ على الغاياتى فى شهر يونية عام ١٩١٠ ، وكان عبارة عن عدة قصائد شعرية جمعها فيه وكان قد نشرها من قبل فى الصحف منذ عام

---

(١) البلاغ المصرى ٨ اغسطس ١٩١٠ .

(٢) المؤيد ٢٣ يناير ١٩١١ .

١٩٠٧[٣] ، ووصفها هو بأنها « مجموعة قصائد ومقاطيع في موضوعات متنوعة وأغراض سياسية مختلفة دعت اليها الحركة الوطنيــة فى ذلك الحين »[٤] كما نشر بيانا فى صدر الطبعة الأخيرة التى بين أيدينا عــام ١٩٤٧ لخص فيها سيرة هذا الكتاب فقال فيه « ظهرت الطبعة الأولى من وطنيتى فى الأسبوع الأخير من شهر يونية ١٩١٠ ، وقد أقام هذا الديوان دنيا الاحتلال واقعدتها ، ولم يكد يصدر حتى صودر وهاجر صاحبه سرا من مصر فى ٦ يولية فحوكم غيابيا وحكم عليه فى ٦ أغسطس بالحبس سنة كما حكم على المرحوم الشيخ عبد العــزيز جاويش بالحبس ثلاثة أشهر ، لأنه كتب للديوان مقدمة قرظه فيها ، ولمثل هذا السبب حوكم كذلك المرحوم محمد بك فريد بعد عودته من أوربا وحكم عليه فى ٢٢ ينــاير عام ١٩١١ بالحبس ستة أشهر ، وكان المؤلف قد يمم شطر الاســتانة حيث أقام خمسة شهور الا قليلا ثم سافر الى سويسرا ، وبقى فى جنيف زهاء سبعة وعشرين عاما ، أسس فى خلالها أسرته سنة ١٩١٢ وجريدة « منبر الشرق » أو «La Tribune d'Orient» سنة ١٩٢٢[٥] .

(٣) يضم الكتاب ٤٦ قصيدة منها ما هو وطنى ومنها ما كان غزلا ، منها ما كان حزبيا حول مصطفى كامل والحزب الوطنى ثم محمد فريد ، شــايع الدولة العثمانية فى بعضها « الدستور العثمانى » وكان فى بعضها غمــز للخديو « وطنى يتناجى وبه » « على لبنان الأمير » ومنها ما كان فيه لكز ولكم للمؤيد كقصيدة الدستور وهى التى اثارت عليه الشيخ علي يوســف وكانت موضوع بلاغه للبوليس التى قامت عليها القضية موضوع هذه الدراسة ومنها ما كان فيه اضواء كثيرة على بعض الشخصيات والحركات السياسية كقصة اغتيال بطرس غالى « الحادث الخطير » « ودنجوات » ، وقد نشرت من قبــل فى الصحف فى تلك الفترة كاللواء والعلم ومنها ما القى فى محافل عامة .

(٤) وهى منشورة فى كتاب « وطنيتى » طبعة ١٩٤٧ .

(٥) صدر العدد الأول منها فى جنيف يوم الأحد الموافق ٥ فبراير ١٩٥٢ وظلت تصدر حوالى ستة عشر عاما ، وكانت تضم فى أول عهدها ــ بجانب القسم الفرنسى ــ صفحة عربية « كثيرة المتاعب كبيرة النفقــات » فرأى الغاياتى أن يستغنى عنها ، واكتفى باصدارها باللغة الفرنسية ، وصدر آخر عدد منها فى يوم الأربعاء ٢٦ مايو ١٩٣٧ .

وعاوده الحنين والرجاء فعاد الى وطنه المحبوب فى ٢٨ يونية عام ١٩٣٧ ، وأعاد وطبع « وطنيتي » فى ١١ فبراير عام ١٩٣٨ تحت سمع الحكومة وبصرها ، بعد أن سقط الحكم وتبدلت الأحوال •

وجاءت الحرب الماضية واستمرت نحو أربع سنوات لم يتخذ فيها أى اجراء ضد هذا الكتاب الذى يعتبر بحق سجلا تاريخيا للحركة الوطنية فى فترة قصيرة من الزمان الخالى ، ولكن الحليفة الماكرة الغادرة شعرت فجأة بأن فى نشره ورحى الحرب دائرة دعاية سيئة لها ، فما كان من القلم السياسى المصرى الا أن أوفد بعض ضباطه فى صباح السبت ١٧ يونية ١٩٤٣ الى المؤلف البحث عن وطنيتى عنده فلم يجدوها لديه ، وأخذوا تعهدا كتابيا عليه بالا يطبعها أو يوزعها ما دامت الحرب قائمة وبذلك تكون « وطنيتى » قد طبعت مرتين وصودرت أيضا مرتين !!

وها هى ذى الطبعة الثالثة أراد الله أن تظهر والبلاد من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال تطالب بالوحدة والجلاء ، ومن حسن الإتفاق أن يكون ظهورها كظهور الطبعة الثانية فى أيام ذكرى وفاة المغفور له مصطفى كامل باشا ، الذى فاض الديوان بآيات ذكره العطر المجيد •

أما الجزء الثانى من وطنيتى وهو « هجرتى » فلا يزال الأمل كبير فى جمعه وطبعه قريبا باذن الله •• انه نعم المولى ونعم النصير ••»

وقد نشر فى الصفحة المقابلة صورة لمصطفى كامل تشيعا لحزبه واعترافا بفضله لأنه كان أحد تلامذته فى اللواء ، حتى أنه وقع اسمه فى نهاية مقدمة الكتاب تحت عبارة « أحد جنود الحزب الوطنى » •

= بينما صدرت فى مصر فى أول عدد لها يوم ٦ مايو ١٩٣٨ بنفس الاسم وشعارها « للشرق الشرقيين » (جريدة مصرية مستقلة) ـ أنشئت فى جنيف عام ١٩٢٢ للدفاع عن حقوق الشرق الناهض باسم الكنانة واسم شعوب ناهضة لا باسم أحزاب ولا زعماء •

كل يزول وينقضى أما الحمى •• فوديعة الآباء للابنـــاء

على الغاياتى

وهذا يدعونا الى عرض مقدمات الكتاب ، والتى كانت ضمن موضوعات اتهام كاتبيها ، فقد بدأت مقدمة محمد فريد وكانت بعنوان « تأثير الشعر فى تربية الأمم » « •• الشعر من أفعل المؤثرات فى ايقاظ الامم من سباتها وبث روح الحياة فيها ، كما أنه من المشجعات على القتال ، وبث حب الاقدام والمخاطرة بالنفس فى الحروب ، ولذلك نجد الأشعار الحماسية من قديم الزمان شائعة لدى العرب وغيرهم من الأمم المجيدة كالرومان واليونان وغيرهما •

وليس من ينكر أن الأنشودة الفرنسية التى أنشأها الضابط الفرنسى « روجيه دى ليل » وسميت المرسيليز كانت من أقوى أسباب انتصار فرنسا على ملوك أوربا الذين تألبوا لاخماد روح الحرية فى مبدأ ظهورها ••• لقد كان من نتيجة استبداد حكومة الفرد سواء فى الغرب أو الشرق اماتة الشعر الحماسى ، وحمل الشعراء بالعطايا والمنح على وضع قصائد المدح البارد والاطراء الفارغ فى الملوك والامراء والوزراء ، وابتعادهم عن كل ما يربى النفوس ويغرس فيها حب الوطنية والاستقلال ••

تنبهت الامم المغلوبة على أمرها فجعلت من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية والأناشيد الحماسية باللغة الفصحى للمتعلمين وباللغة العامة لطبقات الزراع والصناع •• فكان ذلك من أكبر العوامل على بث روح الوطنية بين جميع الطبقات •• وقد لاحت « وطنيتى » فى طليعة هذه النهضة الميمونة الرشيدة ••

فعلى حضرات الشعراء أن يقلعوا عن عادة وضع قصائد المديح فى أيام معلومة وأن يستعملوا هذه الموهبة فى خدمة الامة •• »

أما كلمة الشيخ عبد العزيز جاويش فكانت بعنوان « الشعر والشاعر » تناول فيها أحاسيس الشعراء ، وقسم الشعر الى مصنوع ومطبوع ، وما الشعر الا مرآة يرى فيها آثار الانفعالات النفسية التى

تعبر عن نفس واضعها ، وانتهى فى كلمته القصيرة إلى قوله « •• ومن شاء أن يرى نموذجا من الشعر جمع بين رقة الألفاظ وجزالة المعاني وألف بين احكام التأليف وصدق العبارة فليقرأ شيئا من وطنيتى ، ومن شاء فليسأل عن آثارها تلك الهمم الناهضة ، والنفوس المتوقدة والعزائم الصادقة ، فأنها من غراسها وجميل ثمارها » ••

أما مقدمة المؤلف نفسه فهى طويلة ، تناول فيها الشعر والشعراء ، وشعراء مصر بالذات ، وما حولهم من خطوب ، وعاب عليهم اقتتالهم على الشهرة ، تاركين الاقتتال من أجل مصر ، ثم يقرر أن ما ضمه الكتاب هو مجموعة ما نشره من عام ١٩٠٨ الى أوائل ١٩١٠ منتبعا سير الحركة الوطنية ونشر معظمه فى اللواء والعلم ، ثم ذيل هذا الحديث الطويل بتاريخ نشيد المرسيلييز وظروف ظهوره ونشره هو نفسه بالفرنسية والعربية ، بالاضافة الى الأنشودتن الفرنسيتين الوطنيتن ، الأولى « فرنسا » La France والثانية « الوطن » La Patrie باللغتين الفرنسية والعربية كذلك •

ظروف تجريم الكتاب :

ان ما تضمنه الكتاب لم يكن يحتمل كل هذه الضجة والمحاكمات ، سيما وأنه كان قد نشر من قبل فى اللواء والعلم ، ووقع نظر العدو والصديق عليه ، ولم يتحرك أى من رجال السلطة باجراء من شأنه منع نشره أو مساءلة الصحف التى نشرته فى حينه ، ولكن هناك أسبابا وراء تجريم الكتاب فى عام ١٩١٠ :

أولا : سوء العلاقات بين السلطة والشيخ عبد العزيز جاويش ، ومحاولة الايقاع به والزج به أكثر من مرة فى مجال المحاكمات ، يحكم عليه فى واحدة ويبرأ فى البقية ، وكان افلاته من قضية الوردانى وتبرئته فى قضية « نشر الأخبار الكاذبة » واهانة نظارة الحربية عام ١٩٠٨ بمثابة لطمة لسلطات الاحتلال ، وألحت حاجة السلطة الى مجابهة الصحافة

الوطنية مما ظهر من ثورة جورست في تقريره لعام ١٩٠٨ عن « ان أفضل وسيلة لمواجهة هذه الصعوبات هو تطبيق قانون المطبوعات »[٦] .

ثانيا : انتهاز جورست فترة الهدوء السياسي مع القصر والتي عرفت بسياسة الوفاق ، مما أدى الى اتفاق السلطة الشرعية (الخديو) مع السلطة الفعلية (الاحتلال) لاتفاق مصالح كل منهما مع الأخرى ، وانتهى الى كبت حرية الصحافة آنذاك ، فاعيد العمل بقانون الصحافة في مارس ١٩٠٩ بهدف ضرب الحركة الوطنية في صحفها[٧] .

ثالثا : العداء القديم بين الحزب الوطني وصحفه وبين الاحتلال ، منذ مقالات مصطفى كامل الى مقالات الشيخ جاويش ، وكشف وجه الاستعمار البريطاني في كل مكان ، كمقالته عن سياسة السلطة البريطانية التعسفية في السودان في حادث الكاملين[٨] .

ويشير أحمد شفيق في مذكراته ، أن البرلمان الانجليزي أوصى وزير الخارجية الانجليزية بعدم التضييق على حرية الصحافة في مصر ، ولكن حدث أن أضطرت الحكومة الى الخروج عن هذا التحفظ :

أولا : لأن جريدة اللواء نشرت فصولا طويلة مدحت فيها دنجرا الهندى قاتل اللورد كيرزون في انجلترا واعتبرت عمله عملا طيبا خالدا ودعت الشبان الى التشبه به في وطنيته ، فاتخذتها فرصة لضرب الحركة الوطنية التي كان اللواء ومحرروه هم قادتها المتطرفون .

ثانيا : لأن الشيخ جاويش نشر في جريدة اللواء مقالا شديد اللهجة ، طعن فيه في حق بطرس غالى باشا وفتحى زغلول باشا ومحمد يوسف بك[٩] ، أما جريدة اللواء فقد تقرر انذارها بعد أخذ ورد بين مصر ولندن ،

---

(6) Annual Repart, 1908, p. 5.

(٧) ونان لبب : أثر قانون المطبوعات في الحركة الوطنية المصرية قبل الحرب العالمية الأولى ، المجلة التاريخية ١٩٦٦ ، ص ٢٦٢ .

(٨) اللواء ٢٨ ايو ١٩٠٨ مقالة بعنوان « دنشواى أخرى في السودان » .

(٩) اللواء ٢٨ يونية ١٩٠٩ مقالة بعنوان ذكرى دنشواى .

حتى أن بطرس غالى لوح بالاستقالة اذا لم تنذر هذه الجريدة[١٠] •

وقد تناول البان دى روجا فى صحيفته La Depêche الرد على افتراء الاحتلال على الشيخ جاويش واتهامه بالتعصب فقال «بلى وضع اسم الشيخ جاويش بجانب الغاياتى لمن أبدع الطرق السياسية فى تصوير التعصب الدينى تأثرا ضد الأجانب ، الا أن الشيخ جاويش رجل ذاع صيته حتى أصبح فى كل حادثة يصوره الوهم كأنه صورة خوافية مزعجة »[١١] •

رابعا : اختلاف علاقة الخديو بزعامة الحزب الوطنى الجديدة عنها أيام مصطفى كامل ، فقد أدت سياسة الوفاق بين الخديو والمعتمد البريطانى الى وضع الحزب الوطنى فى موقفه اختبار صعب اذ قد تأثر عدد من أعضائه الذين انضموا اليه سعيا وراء مركز أو لقب كنتيجة لرضاء الخديو عنهم فأصبح اختيار الحزب بين أن يظل على ولائه للخديو متخليا عن ولائه للقضية الوطنية وأما العكس فيعادى السلطة الشرعية تمسكا بالقضية الوطنية ، وكان الأخير هو موضع الاختيار ففقد الحزب مساندة الخديو نهائيا وكسب عداءه ، كما حدثت عدة اهتزازات داخل الحزب نفسه وبدأت انشقاقات أصحاب المصالح والمعتدلين الذين وجدوا أن مصلحتهم فى يد الخديوى[١٢] مما دفع الخديو أيضا الى الحقد على الحزب الوطنى واللواء معا ، فيروى أحمد شفيق كيف كان الخديو يكظم غيظه من أعمال اللواء والحزب الوطنى فى تطرفهما فى وصفه « بالخيانة »[١٣] ، مما يشير الى فقدان الحزب والصحيفة كل عون منه •

---

(١٠) صبرى ابو المجد : محمد فريد ، ذكريات ومذكرات (الهلال (اكتوبر ١٩٦٦ ، ص ٩٨ •

(11) La Depêche, Jullist 16—1910

(١٢) يونان لبيب : المرجع السابق ، ص ٢٦٥ •

(١٣) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١٦٩ •

خامساً : الشيخ على يوسف وحقده على الحزب او الصحيفة ، فقد اتضح أنه هو صاحب اليد الطولى فى هذه القضية ، بل كان هو المبلغ عنها ، وهو الذى اعطاها الشكل المثير ، ومن ثم كانت نقطة البداية ، فقد قال فى « المؤيد » « زارنا منذ يومين حضرة الشيخ على الغاياتى المحرر بجريدة العلم ، وقدم لنا نسخة من كتاب شعرى وضعه حديثا بعنوان « وطنيتي » ، وقال أقدمه اليك ، وأن يكن بلهجة حزب لا ترضيك لهجته » ، فقابلته بحسن القبول ، وعزمت على أن أقرظه كما يستحق أديب مثله يحسن الشعر ، ويعمل — كما يعتقد — لاحياء الشعور الوطنى ، ففتحت الكتاب فوقع نظرى على قوله :

يا ليت شعرى هل رأيت كما أرى	ان « المؤيد » معهد الهفوات
فنشرت فيه ما نشرت وانما	هى زلة من أكبر الزلات[١٤]

فاستوقفنى هذا السباب الى المؤيد هنيهة ، وقلت لعل حضرة الشيخ الغاياتى أراد أن يوجه لى هذا الكلام مشافهة ..

فبعد الاستئذان من قانون المطبوعات ، وبعد الاستعاذة من القوانين الجديدة ، وبعد الاعلان فانه لا اتفاق بين المؤيد وبين الشيخ على الغاياتى ، قال حفظه الله تحت عوان « وطنى يناجى ربه » :

رب ان البلاد أرهقها الظلا	م وحاقت بأهلها البأساء
رب ان الصدور أحوجها الوجـ	ـد وأودت بحلمها الأرزاء
فتدارك بلطفك النيل حتى	لا تجارى حياة مصر دماء[١٥]

---

(١٤) هذه الأبيات ضمن قصيدة فى الكتاب بعنوان (الدستور وحديث شاعر الأمير) وهو حديث لجراه مندوب المؤيد مع الشاعر أحمد شوقى انتهى فيه الى تصريحه بأن الخديو لا يستطيع منح دستور دون موافقة الاحتلال فنشر الغاياتى هذه الأبيات فى جريدة الدستور فى ٢٣ سبتمبر ١٩٠٨ وقرأها بطبيعة الحال الشيخ على يوسف ولكنه اختار لها هذا التوقيت للابلاغ عنها .

(١٥) المؤيد ٤ يولية ١٩١٩ ، وطنيتى .

وهكذا فجر الشيخ على يوسف قضية كبيرة بهذا البلاغ ، وظل يزكيها بقلمه وحيله الى أن انتهت بما كان يرمى اليه وهو سجن الشيخ عبد العزيز جاويش ومحمد فريد .

سير الأحداث بعد الابلاغ :

استجابت النيابة العامة لبلاغه ، وبدأت تحقيقها يوم ١٢ يولية ١٩١٠ مع الشيخ جاويش واسماعيل افندى حافظ المسئول عن جريدة « العلم » ، على أساس أن الأول كتب المقدمة — التى عرضنا بعضا منها — تقريظا لعمل الغاياتى ومدحا لاتجاهاته ، وانتهت بأنه يسعى بهذا العمل الى التحريض على القتل السياسى والعيب فى الذات الخديوية[١٦] ، كما كان ضمن الاتهامات ما نشره فى كتابه تحريضا للشعب

---

(١٦) احمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، ص ٢٣٤ ، خاصة وانه قد استنفر الرأى العام ضد الخديوى فكتب يقول :

أعباس هذا اخر العهد بيننا	فلا تخش منا بعد ذاك عتابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة	ننال اذا رمنا الحياة عقابا
ارضيت اعداء البلاد وأهلها	واصليتنا بعد (الوفاق) عذابا
رويدك يا عباس لا تبلأ المدى	ولا تستمع للظالمين خطابا
فما يبتغى غورست الا مكيدة	تحول اقلام السلام احرابا
وها قد رمى حرية القول رمية	بسهمك تجنى البلاد خرابا
الا أمطر الله الوزارة نقمة	ولا بلغت مما تروم مراما
تحاول أن تقضى علينا باثمها	ولكن سنلقى دون ذاك اثاما
وزارة خداع أقامته بيننا	يد الحاكمين الآثمين فقاما
وبين يديه عصبة بطرسية	تصوب نحو المصلحين سهاما
جنى ما جنى فى دنشواى وغيرها	ولم يكفه حتى استحل حراما
فقيد أقلام الصحافة علها	اذا ابصرت سودانه تتعامى

الى آخر القصيدة ، وقد نشرت فى اللواء يوم ٢٧ مارس ١٩٠٩ .

على القيام بالثورة[١٧] •

الا أن التحقيق مر بمراحل غريبة ، كسفر الغاياتى وهو المتهم الأول فرارا من القضية وما يترتب عليها من أحكام، ثم اجراءات محاكمة الشيخ عبد العزيز جاويش ، وموقف الأعداء والأصدقاء منه ، وتأجيل اجراءات التحقيق ، ومحاكمة المتهم الغائب فى أوربا ، وهو محمد فريد ، وفى سرد هذه الوقائع ، كما تظهر النية فى ضرب الحركة الوطنية فى أشخاصهم •

هروب الشيخ على الغاياتى :

فعندما أحس الشيخ على الغاياتى بتحرك البوليس للقبض عليه عزم على ترك مصر كلها ، وفكر فى الهروب الى الاستانة ، حيث لا تصل اليه أيدى أعدائه ، ولما كان ماله يقصر دون وصوله الى هدفه لجأ الى الاقتراض من بعض أصدقائه الذين تكتموا سره ، وتحرك ليلاً على أنه فى طريقه الى بلده دمياط ، فى حين سافر الى الاسكندرية متخفيا فى زى افرنجى بعد أن خلع العمامة (والكاكولة) وحملته الباخرة « الخديوية » الى الاستانة[١٨] ، وتمكن بذلك من اضافة غيظ اخر للسلطة فى مصر ، نفست عنه فى حكمها على الباقين •

---

(١٧) نشر الغاياتى هذه القصيدة بعد الحكم على الشيخ جاويش فى ٢٥ اغسطس ١٩٠٩ بالغراة فقال :

هــل ســال فى مصـــر الدم	أم ثــار فيهــا المســلم
ودعا دعــاء محمـــد	داع فهــب النـــوم
ومضــوا الى اهــل الضــلا	ل فاعدمــوا من أعدمــوا
واســتفتحوا باب الجحــيم	لــه ولــم يترحمــوا

الى آخر القصيدة التى بلغت أربعين بيتا وزادت أربعة •

وقد قام البوليس السرى بمهاجمة دار صحيفة العلم ـــ لسان حال الحزب الوطنى ، وجمع نسخ الكتاب وصدر قرار بتحريم بيعه أو تداوله ، البلاغ المصرى ٢٧ يولية ١٩١٠ •

(١٨) البلاغ المصرى ٢٦ يولية ١٩١٠ (طريقة سفر الغاياتى للاستانة) •

وما أن أحس الشيخ علي يوسف بهروبه الا وقام ينتقد القوى ضد الباقين ، وبدأوا بالتعليق على هذا الهروب ، فقال أحدهم نكتة : ليت الشيخ الغاياتي ينظم لنا قصيدة في واقعة هربه حتى يكون قد أكمل كل مميزات وطنيته[19] .

كما شاركت المقطم في التنديد بهروب الغاياتي والتقليل من همته باعتباره أحد رجال الحزب الوطني ، فنشرت على لسان مندوبها في الاستانة والذى تقابل معه هنـــاك ، واستفسر منه عن طريقة هروبه ، وتبادل المؤيد صيغ التهكم على هذا العمل[20] .

ولما وصلت هذه الأخبار الى الشيخ الغاياتى رد بمقال في البـــلاغ المصرى يكذب ما نشره المقطم عن أسباب فراره وأسلوبه في ذلك ، وأضاف أن المال الذى استعان به كان من رواج كتاب « وطنيتى » وبيعه ١٩٠٠ نسخة « لكبراء الامة وخيرة أبنائها وهو المقدار الذى وزعته بيدى قبل مبارحة القاهرة ، وحسبى ألف نسخة من هذا العدد لأعداد معـــدات السفر ونفقات الاقامة » وانتهى الى أن « تلك الاقلام التى لا تخط غير الافك والبهتان حتى احطمها تحطيما »[21] .

وتمر الأيام ، وبعد ثمان وعشرين سنة يدلل محمد لطفى جمعة على كلام الغاياتى فى هذا بأنه وصله بالبريد عام ١٩١٠ مائة نسخة من كتاب « وطنيتى » لتوزيعها على الطلاب فى فرنسا أيام أن كان طالبا فى قرية شار بونيير من ضواحى ليون[22] .

الا أن المؤيد يعود فيقص هذه الواقعة بصورة أدخل فيها محمد فريد رئيس الحزب الوطنى ، وعلى لسان الغاياتى نفسه فقال « جاءتنا

(١٩) المؤيد ١٣ يولية ١٩١٠ « تهمة الغاياتى وغيره » .
(٢٠) المقطم ٢٥ يولية ١٩٠ ، الغـــاياتى فى الاستانة « والمؤيد ٢٦ يولية ١٩١٠ « الغاياتى فى الاستانة » .
(٢١) البلاغ المصرى ٩ اغسطس ١٩١٠ .
(٢٢) منبر الشرق ، العدد الأل ٦ مايو ١٩٣٨ « من ذكريات الماضى » .

رسالة مطولة بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩١٠ تضمنت تاريخ الرجل مع الحزب الوطنى ، وكيف ألف كتاب « وطنيتى » وطبعه بمصاريف فريد بك رئيس الحزب الوطنى وكيف كانوا يصححونه ، ويزيدون فى جمله الحماسية ، وكيف حملوه على الهرب من مصر»[٢٣]

الا أن الشك يتطرق الى هذا الاتهام الجديد لمحمد فريد ، على أساس :

أولا : ان تاريخ الرسالة (١٣ أغسطس ١٩١٠) هو نفس تاريخ المقالة التى نشرها الغاياتى فى المقطم ، حليف المؤيد فى هذا المقام ، ضد الحزب الوطنى ، والذى يتبرأ فيها من الأسباب التى ادعاها مندوب المقطم انتحالا وليس صحيحا •

ثانيا : ان الشيخ على يوسف بعد أن سرد هذا الحديث قال : « ولكننا لم ننشر هذا الخطاب الطويل لعدم ثقتنا بخط الكاتب ، ولا يبعد أن يكون على الغاياتى استملاه استملاء لآخر وضمنه الحقائق التى يعرفها عن الحزب الوطني ليوقعه في ارتباك » ، وانهى حديثه أنه « على استعداد أن يعرضه على أعضاء الحزب الوطني ليعرفوا كيف قلب لهم الغاياتى ظهر المجن ، أو هو أراد أن يلعب بهم على حساب المؤيد لعبة جديدة »[٢٤] •

أثر موقف الشيخ على يوسف :

واضح هنا نية الشيخ على يوسف لتوسيع شقة الخلاف بين الغاياتى والحزب الوطنى من جهة وبين محمد فريد والسلطة من جهة أخرى ، مستغلا الشك الذى بدأ يتطرق لبعض أعضاء الحزب وبعض الصحف المسايرة له ، نتيجة كثرة طرقه هذا الموضوع ، فقد شك البلاغ المصرى فى موقف الغاياتى ، وبدأ يقلل من قدره على أساس أنه لم يكن « من

---

(٢٣) المؤيد ١١ اغسطس ١٩١٠ •
(٢٤) المرجع نفسه •

أساطين الحزب منتميا اليه انتماء يبغى من ورائه الشهرة الزائفة والصيت الطائر دون أن يكون عضوا فيه » وأضاف البلاغ تقييم عمله بقوله « اننا نعتقد أن الرجل بما عمل ، اما أن يكون ذلك الصديق الجاهل الذى يضر من حيث يريد النفع واما أن يكون عدوا لابسا ثوب الأصدقاء ، ذلك هو اعتقادنا فيه ، وللقراء أن يحكموا عليه بما شاءوا »(٢٥) .

ثم ما لبث الدبيش أن عاد ليعلق على هذه الفتنة ويحللها ليصل الى رأى جديد وهو أن الشيخ على يوسف هو الذى اتفق مع الشيخ على الغاياتى على أن يطلب من كل من محمد فريد والشيخ عبد العزيز جاويش أن يكتبا مقدمتيهما ، وهما يجهلان ما تضمه الأوراق ، ليوقع بهما فى هذه القضية ، ووصفا الاثنين بالجاسوسية والدناءة .

« ان قضية الغاياتى هى قضية الشيخ على يوسف هى قضية جاسوسية ودناءة ... من ذا الذى أوحى الى الشيخ على الغاياتى أن يسأل محمد بك فريد والشيخ عبد العزيز جاويش مقدة لديوانه الذى كان مضمونه مجهولا ، هو عقرب المؤيد ، ومن ذا الذى توسط للغاياتى فى أمر هذه المقدمة ، هو عقرب المؤيد ، ومن الذى أسرع بعد طبع المقدمة الى الوشاية بصاحبها وابلاغ أمرها الى الاحتلال ، هو عقرب المؤيد »(٢٦) .

وقد كان هذا الاتهام الجديد للشيخ الغاياتى محركا له ، فكتب يدفعه عن نفسه بأن أرسل خطابا الى البلاغ المصرى يقول فيه « لعمرى لو كان لأحد من دون الله علم بما يختلج الصدور ويستن فى الضمائر ، لكان لهما العلم بما أسررت وأخمرت ، وهما اللذان لهما فى فؤادى الحب الكين والمنزل الذى لا يتول .. ماذا جنيا وقد جنتهما راجيا أن ينفحانى بكلمات من كلماتهم الحكيمة فى الشعر وتأثيره فى تربية الامم ، تنائلا

---

(٢٥) البلاغ المصرى ١٩ يولية ١٩١٠ (الشيخ الغاياتى) .

(26) La Depêche, Juillet 21. 1910.

عن حسن نيته لهما ، انى سأجمع ما نظمته فى الحوادث الوطنية فى كتاب اسميته « وطنيتى » ، وقد شئت أن يكون لكتابى ميزة بقولكما وخطكما •• على أن حضرة محمد بك فريد اعطانى كلمة سودة وسافر الى أروبا ، وهو للآن لم ير كتابى ، وأن حضرة الشيخ عبد العزيز جاويش ما قرأ منه صفحة لانصرافه الى خدمة الأمة »[٢٧] •

وهكذا تظهر نية المعارضة المتمثلة فى المؤيد والمقطم فى ضرب الحزب من داخله كما ضربوه من الخارج ، فوقيعته بين الشيخ الغاياتى وبين الشيخ جاويش ومحمد فريد وصلت الى أن البعض صدقها واهتز ايمان الأعضاء بعضهم لبعض ، فيظهرون بوجه قبيح أمام مصر كلها وتكون لطمة للحركة الوطنية بجانب القضية الأصلية التى تمثل ضربة لعمل وطنى كبير فى ذلك الوقت •

ونأتى الى مرحلة تحد أخرى من الشيخ على يوسف للشيخ عبد العزيز جاويش ، فعندما استجوبت النيابة العامة الشيخ جاويش حول مدى مسئوليته عن اللواء عندما كان الغاياتى ينشر فيه قصائده أجاب بأنه فى تلك الفترة لم يكن هو المسئول عن الصحيفة بل كان المسئول عنها هو الدكتور منصور فمهى رفعت[٢٨] •

وما أن علم الشيخ على يوسف بهذه الاجابة حتى استنكرها ، وكتب ساخرا من صاحبها « انه ليس هناك شجاعة ولا اقدام ، وانما هو فرار من وجه القانون ، وانهزام أمام الكوارث وجزع فى مواقف الشدة •• وبالجملة هو ما وصف المؤيد به وطنيتهم فى عدد مضى بأنه الوطنية الفرارة »[٢٩] •

---

(٢٧) البلاغ المصرى ٢٧ ولية ١٩١٠ (هجرة الغاياتى) •

(٢٨) البلاغ المصرى ١٩ يولية ١٩١٠ (الشيخ جاويش وقضية وطنيتى) •

(٢٩) المؤيد ٣١ يولية ١٩١٠ « الوطنية الفرارة » •

ب - أما المقطم فقد قال « ان الشـــيخ باجوبته هذه أمام النيابة قد فقد احترام المقطم »[٣٠] •

يتضح من هذا مدى تحامل المعارضة على الحزب ، وفرحهم بالايقاع به فى دائرة الاتهام وشماتتهم فى اقطابه مما دفع البلاغ المصرى الى الدفاع عنهم ، فقال عن الشيخ جاويش « ان القول بأنه فقد منزلتـــه الأدبية عندهم ، فنحن نعلم منزلة أولئك الذين سقط » •

وكأنى بلسان حاله يقول :

اذا رضيت على كرام عشـــيرتى فلا زال غضبانا على لئامها[٣١]

وكان البلاغ هو أكثر الصحف الموالية للحزب الوطـــنى جرأة فى الرد ، لأن المسئول عنه كان البان دى روجا الفرنسى الجنسية والذى حمته جنسيته من الوقوع بين براثن قانون المطبوعات ، فكان هو الصوت الصارخ فى وجه الظلم الذى حاق بمتهمى هذه القضية •

وهكذا تظهر خيوط التآمر بين أداة القصر وهو المؤيد وأداة الاحتلال وهو المقطم ضد الحزب الوطنى منتهزة ظهور هذا الكتاب ، وما واكب ظهوره من أحداث •

ســـير المحاكمة :

وعلى أية حال فقد استمرت النيابة فى تحقيقها حتـــى تبلور ذلك التحقيق فى قرار الاتهام الذى أعلن به المتهمون الموجودون والغاياتى الغائب •

أما فريد فلأنه كان غائبا خارج البلاد ، ولظـــروف مركزه كرئيس للحزب الوطنى ، بل النية المبيتة للتشهير به ، فاعلنوه مرجئين محاكمته

(٣٠) المقطم ١٩ يولية ١٩١٠ •
(٣١) البلاغ المصرى ٢٠ يولة ١٩١٠ •

ريثما يعود[٣٢] ، وكان فى هذا احراج له اذا ما تخلف أو ظل فى الخارج فيترجم الموقف بخوفه من المحاكمة .

أما قرار الاتهام فكان ضد كل من :

١ ــ الشيخ على الغاياتى ــ المصحح بجريدة العلم ، الغير معلوم له محل اقامة بالقطر المصرى .

٢ ــ الشيخ عبد العزيز جاويش ــ المحرر بجريدة العلم والمقيم بالعباسية بمصر بجهة ميدان الحربية .

٣ ــ الشيخ محمد حسن القزوينى ــ الموظف بقلم تحرير العلم ومقيم بشارع الموسكى .

٤ ــ الياس أفندى دياب ــ صاحب مكتبة التأليف وساكن بالفجالة .

وكان الاتهام الموجه الى المتهم الأول « على الغاياتى » هو وضعه ونشره كتابا يسمى « وطنيتى » ويشتمل على قصائد ومنظومات ، يتضمن بعضها التحريض مباشرة على جناية القتل ، وبعضها التحريض على كراهية الحكومة والازدراء بها ، وبعضها تحسين الجريمة التى كان قد ارتكبها الشيخ عبد العزيز جاويش وحكم عليه من أجلها فى العام الماضى وغيرها ، وبعضها العيب فى حق ولى الأمر ، وبعضها اهانة ناظر الحقانية بصفته موظفا عموميا ، وبعضها اهانة هيئة الوزارة والحاكم .

وقد طبع هذا الكتاب ونشر بمصر وضبط فى يومى ٦ ، ١١ يولية ١٩١٠ .

أما المتهم الثانى « الشيخ عبد العزيز جاويش » وضعه مقدمة للكتاب المذكور تتضمن تمجيده وتحسينه والحض على قراءته ، وبذلك يكون مسئولا عن الجرائم المبينة آنفا (اما بصفته فاعلا أصليا) مع الشيخ

(٣٢) المقطم ٢٥ يولية ١٩١٠ .

على الغاياتي لاتيانه عملا من الأعمال المكونة لهذا الكتاب ، وهي المقـدمة المذكورة التى طبعت ونشرت ، وذلك طبقا لقانون العقوبات (واما بصفته شريكا فيها) وذلك بمساعدة الفاعل مع علمه بالجريمة على ترويج ونشر هذا الكتاب بوضعه هذه المقدمة له أو عن جريمة تحسين وتمجيد وضـع هذا الكتاب ونشره .

المتهمان الثالث والرابع : بقتضى المواد المذكورة آنفا بانهما نشرا الكتاب المذكور بأن باع الأول منه عدة نسخ للثانى يقصد بيعها وهـذا عدها للبيع وباع منها لاشخاص آخرين ، وذلك بعد العلم بضبطه بمعرفة الحكومة ، منعا لانتشاره ، وبذلك يكونان مسئولين عن الجرائم المتقدم ذكرها بصفتهما فاعلين أو شريكين[٣٣] .

وكان الدفاع عن الشيخ عبد العزيز جاويش من الاستاذ محمد بك على المحامى بأسيوط وأحمد بك لطفى المحامى بالقاهرة .

أما المتهمان محمد حسن القزوينى والياس أفندى دياب فقد وكلا عنهما الاستاذ محمد بك أبو شادى المحامى[٣٤] .

وقد أشار الاتهـام الى القصائد التى حملت المعانى التى يحرمها القانون .

وكان المؤمل أنه اذا ما وصلت الأمور الى أعتاب القضاء تمسكت الألسن فى انتظار حكمه ، ولكن المعارضة ظلت تزكى النار من حـول المتهمين وتناحرت الصحف فيما بينها ، ولعـل المقطم والمؤيد كانا يريدان نصب شراك لايقاع أكبر عدد من رجال الحزب الوطنى وكتابه ! أو كانا يبغيان بما كانا ينشرانه زيادة الضرب على الحركة الوطنيـة ؟! أم كانا

(٣٣) ورد نص اعلان المتهمين بالاتهامات الموجهة اليهم وحضور جلسة المحاكة فى البلاغ المصرى ٢٧ يولية ١٩١٠ .

(٣٤) البلاغ المصرى ٢٨ يولية ١٩١٠ .

يهدفان الى ارضاء الاحتلال ، فالمقطم بوقه ، والمؤيد صوت الخديو الذى توافق وتآلف مع الاحتلال منذ سنوات ؟ !

تلك فروض وان كانت مؤشرات ترقى الى مرتبة الحقيقة ..

ففى هذه الفترة الحرجة من سير القضية جعلت كل من الصحيفتين تنشران المقالات المثيرة فنشرت المقطم بعنوان « المتاجرة الوطنية » مقالا كله تهجم وتهكم « اعترف الشيخ على الغاياتى فيما قاله لمندوبنا بالاستانة انه طبع من ديوانه ألفى نسخة وباع منها ١٦٠٠ نسخة قبلما غادر هذا القطر — تجارة رابحة وأيم الحق — يطبع الواحد منا كتابا من أنفع الكتب ويكتفى بألف نسخة فتأكل نصفها الجرذان قبلما يبيع النصف الآخر ، وهذا الغاياتى باع من ديوانه ١٦٠٠ نسخة قبلما جف الحبر على الورق ، ولما أراد التوسع فى نفقات السفر أعطى ما أراد ، فلبس وتقمش ، وقصد دار السعادة وهو واثق ان نفقاته تصل اليه أينما حل ، فهل فى العالم تجارة أربح من تجـــارة الوطنية — الغاياتى ومن سبقه ومن سيلحقه من الكتاب والخطباء الذين تاجروا هذه التجارة الرابحة ، فكسبوا بها أحياء وأمواتا سعوا الى مصالحهم فنالوها ورأوا فيها مغنما فغنموه »(٣٥) .

فهى فى هذا انما تقصد العاملين فى الحزب الوطنى وتحاول اتهامهم بأنهم يسعون من وراء أعمالهم الوطنية الى كسب شخصى ومجد ذاتى .

وظل المؤيد ملتزما جانب الاثارة ليس فى القول والمقالة وحسب ، بل تنبيه سلطات التحقيق والمحاكمة الى أمور من شأنها تحقير المتهمين — ومن هم المتهمون ؟! — تلك الأمور التى كان يمكن لهذه السلطة التجاوز عنها ، لأنها لم تكن أصيلة فى الاجراءات ، أو يتطلبهـــا هذا النوع من التحقيق ، كأن نبهت الى عمل صحيفة الة جنائية للمتهمين (تشبيه) وهو اجراء لا يتخذ الا مع المجرمين المتمهين بجرائم مخلة بالشرف والامانة ،

---

(٣٥) المقطم ٢٧ يولية ١٩١٠ .

أو أن يكون مجرما معتاد الاجرام لتحسب جرائمه وتدخل فى تقرير العقوبة الأخيرة الى الاتهام الماثل به المتهم أمام القضاء[٣٦] .

وكم ثارت الصحف الحزبية وغيرها ، فمنها من تناول الموضوع غمزا وامتعاضا فى كلمات وجيزة كالاهرام[٣٧] ، بينما تحمل الدفاع على طول المسار البلاغ المصرى الذى كان يتمتع — كما قلنا — بالحماية الاجنبية ، الذى انتهى فى احدى مقالاته فى الرد على هذه النقطة الى قوله « ألا يكفى حكومتنا أن يكون سجن الكاتب مع الشقى والسارق والقاتل والناهب »[٣٨] ، وظل يتناول موضوع التشبيه هذا فى عدة مقالات ، على أيام متتالية ، تارة فى القسم الفرنسى فى مقالات بعنوان : La Doighr de Cheikh أو أصبح الشيخ ، وكان حديثه فيها بتهكم صارخ فكتب يقول « أصابع الشيوخ نادرة فى قلم تحقيق الشخصية ولذلك أراد رجالنا أن يحصلوا على بصمات أصابع الشيخ عبد العزيز جاويش ومتى حصلوا عليها كانت لهم أكبر فوز وأعظم تعزية ، وكم من أشياء يقرأونها من خلال بصمات تلك الأصابع التى طالما كتبت مقالات دفاعا عن الحرية ، وأحيانا كتبت مقدمات « للوطنية »[٣٩] .

ثم تارة أخرى فى البلاغ المصرى يستكمل نفس الموضوع ولكن بقلم كاتب آخر كتب يعلق ويستكمل ما بدأه البان دى روجا فى الدبيش « ... أصبح الشيخ عبد العزيز جاويش لا يتحرك الا ليحرك القلوب الجامدة ، ولا يكتب الا ليثير فى النفس كامل الاشجان ، ويشعل فى القلوب نار الحرية ... أما أصبع الشيخ على — وشتان بين الاصبعين — .. فان أشقى شىء فى ذلك الشيخ أصبعه فهو يأتى المنكرات ويرتكب الخيانات ، ويضر بصاحبه وبالناس أجمعين »[٤٠] .

---

(٣٦) البلاغ المصرى ٢٩ يولية ١٩١٠ (تشبيه الكتاب — الاحتجاج على تشبيه صحافى) .
(٣٧) الاهرام ٣٠ يولية ١٩١٠ .
(٣٨) البلاغ المصرى ٢٩ يولية ١٩١٠ .
(39) La Depêche : Julliett 29—1910.
(٤٠) البلاغ المصرى أول اغسطس ١٩١٠ (أصبع الشيخ بقلم زهير) .

وما كان من الشيخ على يوسف الا أزاد من اضرام النار حول الحزب الوطني كله ، عندما كتب فى المؤيد « ‥ فالغاياتى اذا فوض من جنود الحزب الوطنى ، ولو لم يكن فارا اليوم لكان مجرما قاتلا ، فهل كل جنود الحزب الوطنيمن أمثال الوردانى والغاياتي ، وما وظيفة قواد هؤلاء الجنود فى مصر بعد ذلك »(٤١) ٠

أى أن المؤيد فى هذا ـ وهو فى حمى السلطة ـ استطاع أن يصل الى كثير من أهدافه ، وحقق الكثير من خطته فى ضرب الحزب الوطنى ، وكال له كل تلك الكلمات ، وكانت السلطة بشقيها الشرعى المتمثل فى الخديوى والفعلية وهم الانجليز راضية عما كان يفعل مقيدة بقيةالصحف بقيود قانون المطبوعات ، الذى كانت يد الاحياء قد تناولته منذ حوالى عام قبل هذه القضية ٠

وهذا ما عكسه البان دى روجا الذى التزم هو أيضا بجانب الدفاع فى هذا السجال فقال بأن « كل سلطة تحس بأنها صارت الى الضعف تعمد الى سياسة الشدة وكل حكومة ترى انها مكروهة تعمد الىالاضطهاد، وهذا سبيل كل سلطة وحكومة تحس بأنها متداعية(٤٢) ٠

ان قضية الغاياتى سينظر فيها بعد أسبوع ، وهل فى استطاعة السلطة التى أقفلت الباب فى وجه مبادىء الحرية والتسامح أن تتجنب هذا الفخ الذى تنصبه هى بنفسها ٠

ما أسخف هذه المؤامرة السوداء الذى سيضحك منها جميع من بضاعتهم اضحاك الناس فى أوربا ‥‥ واذا ألقي الشيخ عبد العزيز جاويش فى السجن ، فما هى بأول مرة برهنت فيها وطنيته على قبوله مثل هذا العقاب برزانة فلسفية فى سبيل مبادئه »(٤٣) ٠

---

(٤١) المؤيد ٢ أغسطس ١٩١٠ ٠

(42) La Depêche Julliet 31—1910.

(43) Ibid.

وهكذا بدأت القضية تدخل ساحة المحكمة وتمثل أمام القضاء وسط جو مشحون من كل ناحية ، فكان يوم ١٦ أغسطس ١٩١٠ يوما مشهودا ، شددت فيه الحراسة ، وأصطف الجند حول مبنى المحكمة وكأنها دنشواى جديدة ، وكانت هيئة المحكمة قد تشكلت برئاسة محمد بك مجدى القاضى وعضوية على بك ذو الفقار والمسيو سوذان ومثل النيابة توفيق بك نسيم، ويبدو أن غليان النفوس كان واضحا ذلك من قطع رئيس الجلسة أعماله لينبه على الحاضرين بالتزام « الهدوء والأدب » .

وجعل رئيس الجلسة يسأل كل منهم عما هو منسوب اليه ، فنفى الشيخ جاويش حضه الناس على شراء الكتاب وقراءته واتباع ما فيه ، وكذلك أنكر الشيخ القزوينى ترويجه وقرر بأن « غاية ما هناك أن الشيخ الغاياتى ترك لى عشرين نسخة ثم جاء تابع الياس أفندى وأخذها » .

ونفى الياس أفندى دياب علمه بأن الكتاب مصادر ، وانه لم يقرأه شأن كل الكتب التى يتجر فيها(٤٤) .

وبدأ وكيل النيابة مرافعته بالقاء الاتهـــام على كل من المتهمين ، حاولات جهده الصاق التهم بكل منهم خصوصا الشيخين جاويش والغاياتى بكل ما أوتى من أدلة وحسن بيان .

فبالنسبة للشيخ على الغاياتى فقد وصفه بأنه « من الذين ينظرون بغير رؤية ويحكمون بغير عقل ، وأخذ لنفسه حقها من كثرة استباحة الجرائم وتنظيم الحياة ومن سوء التهجم على أسمى مقام فى البـــلاد والتجرم على هيئة الحكومة بما أودعه كتابه » وأورد نماذجا مما حــواه الكتاب ، ثم ساق كلمتى كل من محمد فريد والشيخ جاويش دليلين على سوء قصدهما ، سيما وان الغاياتى كتب أنه تليمـذهما ، ومن ثم فهما

---

(٤٤) البلاغ المصرى ٧ اغسطس ١٩١٠ ، وقد قارنا ما ورد فى هــذا الصدد فى المؤيد — كصحيفة معارضة — فوجدت مطابقة على أســاس انها وقائع حضرها جمع شهود الطرفين فلم تتطرق اليها يد التغيير .

مسئولان معه عما كتب سيما وان مقدمة محمد فريد تحدث فيها عن الشعر وكيف أنه يحض على القتال ،وانه يجب اقتحام الاخطار وحمل النفوس على المكاره ويعيب ما يقال من الشعر مدحا فى الأمراء والكبراء •

أما مقدمة الشيخ جاويش وفيها أن الشعر يترك فى النفس أثرا يوقد العزائم ، ولم يعترف بدفاع الشيخ فى التحقيق من عدم علمه بما احتواه الكتاب ، وانه انما كتب هذه المقدمة من باب المجاملة ، وقال وكيل النيابة فى مرافعته « ليس أهون يا حضرات القضاة من جلوس الكتاب وراء مكاتبهم فيطير بهم خيالهم ، ويرساون أقلامهم ، فيحملون على الرجال ، ويرمون البعض بالمروق » •

وانتهى الى أن الشيخ جاويش يعلم بيقين ما ضمه الكتاب وانه كان رئيسا لتحرير اللواء عندما كان الشيخ الغاياتى ينشر قصائده فيه وان كان الغاياتى قد أضاف قصائد أخرى بعد أن كتب جاويش مقدمة الكتاب •

وبعد أن انتهى من مرافعته بدأ الدفاع مرافعته فركز على النقاط الآتيـة :

أولا : ان هذه الجرائم لم تكن مجرمة حال وقوعها ، اذ أن القانون الذى جرمها صدر أثناء مثولها للطبع ، وانه نشر فى الوقائع المصرية فى ٢٠ يونية ١٩١٠ أى قبل ظهورها للقراء بأربعة أيام ، وان القانون يسرى بعد خمسة عشر يوما من نشره أى لا ينسحب عليها تماما •

ثانيا : ان المؤلف سبق له نشر معظمها فى الصحف وقرأتها السلطة عندما قرأها الناس ولم يحدث أى اعتراض عليها •

ثالثا : ان من عادة المؤلفين عندما يجمعون شتات أفكارهم وانتاجهم كما فعل الشيخ الغاياتى ، انما يحسون بحاجة الى الاطراء ، فكان ان لجأ الغاياتى الى جاويش ومحمد فريد ليكتبا له مديحا مستطردا ، كما أن الشيخ الغاياتى أعلن عن ظهور كتابه وهو فى المطبعة وانه فى هذه الفترة

طلب المقدمة من كل منهما ، وبذا فانهما لم يكونا يعلمان بما ضـــمه الكتاب •

رابعا : بدأ بعد ذلك يخوض فى نواحى فقهية وقانونية مثل :

(أ) هل تدخل هذه الكتابات تحت طائلة قانون العقوبات ؟

(ب) هل يعتبر الشيخ جاويش فاعلا أصليا أم شريكا ؟

(جـ) هل تعتبر كتابته للمقدمة تحسينا لارتكاب الجرائم كما ورد فى الادعاء[٤٥] ؟

ثم قدم الدفاع فى النهاية مذكرة فيها تعليق على ما نشره فى كتاب «وطنيتى» وطلب نشرها ضمن وقائع الجلسة فرفضت المحكمة نشرها بعد قبولها وأبلغت النيابة العامة ادارة المطبوعات بمنع نشرها لأن فى ذلك اعادة نشر لمحتويات الكتاب من جديد وبصورة رسمية[٤٦] •

صـــدى المحاكمة :

بعد هذه المرافعات أصدرت المحـــكمة حكمها الذى تصدر هـــذه الدراسة ، سيق بعده الشيخ جاويش الى سجن الاستئناف بالقـــاهرة فى اليوم التالى ، وبدأت الصدور تخرج ما حوته من ضغوط ، وبات واضحا انها ضربة للحزب الوطنى ، فالحكم انصرف فقـــط الى كل من الشيخ على الغاياتى والشيخ عبد العزيز جاويش حيث أوقف تنفيـــذ العقوبة بالنسبة لبقية المتهمين ، وسواء كان ايقاف التنفيذ هذا مبنـــاه القانونى صححا أم غير ذلك فان المعارضة قد وصلت الى هدفها وبات الاحتلال والخديو قرير العين •

ولكن الأمور لم تهدأ ونستقرئها فيما تناولته الصحف •

---

(٤٥) البلاغ المصرى ٧ اغسطس ١٩١٠ •

(٤٦) المقطم ٦ أغسطس ١٩١٠ •

ولنبدأ بالصحف المعتدلة كالاهرام والجريدة ، ثم نعقب بالسجال الذى بدأ ثانية بين صحف اليمين واليسار •

فنشرت الاهرام غداة المحاكمة مقالا بعنوان « محاكمة الصحافيين » استنكرت فيه أسلوب الحكومة فى معاملة هذه الفئة والحث فى طلب سن قانون خاص بمعاملتهم اذ لا يجب معاملة الصحافى صاحب الرأى معاملة السارق والقاتل والسفاح « فتسجنهم فى ذلك القفص الحديدى أثناء المرافعة »[٤٧] •

وهى بهذا تكون قد قامت بواجبها فى المجاملة اذ المعروف عن الاهرام بعدها عن الخوض فى الموضوع لأنها لم تكن صحيفة حزب ولذلك اهتمت بالشكل فقط •

ولو انها لم تسلم من لوم المقطم عندما رد عليها فى هذا الصدد ، وناشدت الحكومة الاستمرار في القسوة ومعاملة « المنحـــرفين » من الصحافيين هكذا « حتى لا يكون خرقا فى الرأى وخطأ في الســياسة وتقهقرا أمام الحزب الوطنى ، لأنه اذا سن للصحافيين قانون يضـــمن لهم راحتهم •• ضاعت حكمة القصاص وعد حملة الأقلام السجن مكانا يغيرون فيه الهواء »[٤٨] •

أما الجريدة فكانت قد أظهرت موقفها المعتدل قبيل جلسة الحــكم فنشرت كلمات عامة عن عادة التقريظ للمؤلفات وأسلوب طلب المؤلف لها ، وأشارت بين طرف خفى الى أن مقرظى كتاب الغاياتى لم يكونا يعلمان بمحتواه ، وان ما كتب لم يكن تحسينا مباشرا للكتاب أو موافقة لصاحبه على ما أورده فيه « فصاحب الكتاب الذى يود أن يقرظه بعض الذين لهم شهرة ذائعة فى عالم التأليف يبذل نفسه فى سبيل ذلك ، وربما كان له مع

---

(٤٧) الاهرام ٨ اغسطس ١٩١٠ •

(٤٨) المقطم ٩ أغسطس ١٩١٠ •

المقرظ علاقة ودية فيكون التقريظ مبنيا على تلك الرابطة لا على قيمة الكتاب .

وكثيرا ما يحدث أن يكون لدى المقرظ أشغال تضطره الى اغفال الاطلاع على خفايا الكتاب المقدم اليه ليقرظه فيقدم على مدح الكتاب بغير علم بما فيه وربما كان كله خطأ وخطلا وتناقضا فله العذر فى ذلك ، فان الحاف المؤلف يضطره الى التقريظ أو بعبارة أخرى لتقييد فكره على الاستحسان والمدح حيث يجب الاستقباح والقدح »[٤٩] .

ثم كتب أحمد لطفى السيد بصراحة رأيه فى القضية ، سيما وانه كان من أصحاب الرأى فى ذلك الحين ، « نحن نثق بقضائنا مهما ألمع الناس فى أحاديثهم الى قصد الحكومة من تعقب رجال الحركة الوطنية ورجال الحزب الوطنى على وجه الخصوص .. ولكن رأينا .. أن مقرظ الكتاب أو ناقده الذى يقول أطلعت على كتاب كذا واقره وأرى رأى المؤلف فيه يعتبر فاعلا أصليا مع المؤلف فى الجريمة ، فاذا كان حضرة الشيخ عبد العزيزجاويش يقر الغاياتى الشاعر على ما جاء فى ديوانه فهو داخل معه فى المسئولية عن الفاعلية الأصلية » .

ولو أن الشيخ جاويش جاء أمام التحقيق واعترف باستحسانه لكل ما ورد فى الكتاب فليس ذلك مدخلا اياه فى المسئولية الجنائية لأن المعاقب عليه قانونا انما هو النشر لا الاستحسان المجرد الذى وقع قبل النشر أو بعده ، فأما وتقريظ الشيخ جاويش لا يدل بعبارته ولا باشارته ولا باقتضائه على أنه اطلع على كل بيت من الأبيات الشعرية واقر الشاعر عليه فلا مسئولية جنائية ..

وان قصائد الشعر لتقبل الزيادة والنقص بل عادة الشعراء انه كلما خلا أحدهم الى شيطانه فأوحى اليه فكرة جاء بها فرحا مسرورا يدسها فى

---

(٤٩) الجريدة يوم أول أغسطس ١٩١٠ (عادة التقريظ بقلم ع.ق. حسن) .

غضون قضيدته ولو كانت فى المطبعة ومن له مران بطبع دواوين الشعر يعلم من الشعراء هذا الوصايس .

متى تقرر ذلك وجب أن تثبت النيابة العمومية أمام القضاء أن الشيخ جاويش اطلع على الديوان مجموعا تاما بعد كل زيادة أو حذف ، وليس على الشيخ جاويش أن يثبت هو أنه لم يطلع على الديوان ، لأن الاطلاع على الديوان بالجملة والتفصيل والديوان بالنشر هو دون العلم بالجريمة .. ولقد علمنا أن تقريظ الشيخ جاويش ينحصر فى أنه يستحسن شعر الغاياتى .

.. فمن أى جهة فان تقريظ الشيخ جاويش لا تجده موقعا له فى المسئولية ولا الفاعلية ولا بالاشتراك مهما احتاطت الحكومة مجزمة من مواد القانون[51].

هذا عن صحف الاعتدال ، ولكن حدث أن اضطلعت فى الجانب الآخر جريدة المقطم بالتهليل والتقليل من شخص الغاياتى كرمز للحزب الوطنى .

وهنا تظهر عدة أمور : أولها ، انفراد المقطم — صحيفة الاحتلال — بشخصية الغاياتى دون بقية المتهمين ، والرأى عندى انها انما فعلت ذلك رغم معاداتها للجميع لأن الشيخ جاويش بات فى السجن ، ونالت هى بذلك مأربها ، ومحمد فريد فى الخارج ، وما زالت القيود فى انتظار يديه ، أما الغاياتى فهو السبب الأصلى وأنه فى الخارج ولا أمل فى رجوعه ، بل ولم يكن يفتأ يكتب فى وصف الحزب الوطنى .

ثانيها : عدم تناول المؤيد الشخصيات التى حوكمت بالتعليق بعد ذلك ، اكتفاء منها بقيام زميلها المقطم بواجبها فى هذا المجال ، وكأنما كانت اللعبة قسمة بينهما ، المؤيد تشعل القضية وتتبعها منذ الابلاغ عنها

---

(51) الجريدة يوم ٢ اغسطس ١٩١٠ « رأى فى حاكمة المقرظين — لأحمد لطفى السيد » .

وتصويرها جريمة يعاقب عليها القانون الى يوم الحكم أما المقطم فتقوم بدور الشماتة والتهليل ضد الحزب الوطنى ورجاله •

ثالثها : ان صحف الحزب نفسها لم تستطع أن تكتب في صراحة فى هذا الموضوع نظرا لصدور قانون المطبوعات ، الذي أضحى سيفا مسلطا على رقاب كتابها ، فلم يستطع الدفاع والتعليق سوى البلاغ المصرى والدبيش احتماء بصاحبهما الأجنبى •

وهنا نعرض لبعض ما كتبه المقطم تعليقا على الغاياتى :

« أكبر القضاء الغاياتى صاحب كتاب وطنيتى ، وأحله ملأ أكبر من نفسه ، وترك الجرائد السامية تنقل نظمه الذى أنكره الشعر بابنية المعانى ••• ضاقت الدنيا بسعتها عليه وتبرم منه كل انسان ، وعافه المربع والمضجع ، وكادت تميد به أرض دمياط ، فساقه القدر الى مصر وهى أم العجائب » « •• والغاياتى ما خلق ليكون انسانا فاذا حكم عليه القضاء فى قضيته فسيحكم عليه الأدباء فى سخافته وسينقم الأدب من فلان وفلان وفلان فى يوم قريب ، اللهم امتنى قبل هذا اليوم »[١] •

وفى مقالة أخرى « ما هى بالحادثة التى تستحق مثل ذلك الاهتمام ، والذنب كل الذنب واقع على أولئك الذين أنزلوا كتاب الغاياتى هذه المنزلة ، وأحلوه هذا الحل على ركاكته وحقارته والا فمن هو الغاياتى وما هو كتاب وطنيتى حتى يسمونه ديوانا ، الا عوض الله الشعراء خيرا وألهمهم الصبر الجميل »[٥٢] •

وفى الجانب الآخر نورد جزءا من تعليق صحيفة الحزب الوطنى « العلم » غداة الحكم وهى من المقالات القليلة التى ظهرت آنئذ فى

---

(٥١) المقطم ٩ أغسطس ١٩١٠ (من هو الغاياتى ـ ايضاح واعتراف) لمحمد امام العبد •

(٥٢) المقطم ١١ اغسطس ١٩١٠ (من ٤٩٦ هو الغاياتي) لعبد المجيد كامل •

صحف الحزب . « ما غرض رجال السلطات الانجليزية من كل ذلك الا القضاء على الحركة الوطنية متوهمين أن حبس شخص أو عدة أشخاص كاف لتحقيق ذلك »[٥٣] .

أما البلاغ المصرى فشنت هجوما عنيفا على الاحتلال والحكومة ، وظلت فى لهجتها الشديدة حيالها وإن كان قد حدث تغيير فى الهجوم فى البلاغ فاصبحت التوقيعات باسماء مستعارة مثل : ناصح ، المصرى ، حقوقى حر ، المطيع لأمر الوطن ، عدو الاحتلال ، أبو الهول ، كما كانت هناك بعض مقالات غفل من الأسماء .

ففى يوم المحاكمة (٦ أغسطس ١٩١٠) نشرت La Depeche صورة لكل من الشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ على الغاياتى ، وكلمة عن كل منهما . وما نسب اليهما من إتهامات بعنوان L,Affaire Wataniti ثم فى اليوم التالى نشرت بعض ما دار فى قاعة الجلسة فى صفحتها الأولى .

وفى البلاغ (العربى) كانت هناك المقالات باللغة العربية والأخرى التى ترجمها عن قسيمه الفرنسى امعانا فى توصيل الرأى الأجنبى الى القارىء العربى فتقول « ان القضاء الذى سلحته يد السياسة قد حكم حكمه ، فلننحن أمامه ، كما سينحنى أمامه ضحايا هذا القانون الاستبدادى ولكن ذلك لا يغير رأينا ، فان الفكرة الوطنية المصرية لا تصيبها هـذه الشدة غير المنتظرة ، وسيكون التأثير خارج مصر مؤلما حين يعلمون أن حكومة أجنبية عجزت عن ايقـاف تيار الوطنية ، وقامـت تضرب بلا شـفقة »[٥٤] .

---

(٥٣) العلم ١٠ أغسطس ١٩١٠ (قضية استبدادية فى مصر) .

(٥٤) البلاغ المصرى ٧ أغسطس ١٩١٠ وهى مترجمة عن مقال بالقسم الفرنسى بقلم البان دى روجا .

ثم نشرت كذلك مقالة فيها تنديد بالحكم على الشيخ جاويش « ... لما علمت مساء أمس بهذا الخبر المنتظر والمدهش دهشة مؤلمة ، لم يدع لى انفعالى مجالا الا لكتابة بعض السطور أخصها بذلك الوطنى الذى رأيته فى غاية التسليم الحكيم والرزانة والشمم .. ذلك السجين الذى كان أقل حظا من بعض اللصوص أو بعض القتلة الذين لم يهتد اليهم بوليسنا لأنه أعمى فى بعض الأحيان »[٥٥] .

تلك بعض الأصداء وبعض المواقف من الجانبين ، أما الشعب فقد كان يظهر استياءه فى الشوارع وعلى المقاهى غير عابئ بالنتيجة[٥٦] .

وقد أمضى الشيخ عبد العزيز جاويش الشهور الثلاثة الأولى فى السجن راضيا قارئا متأملا الى أن أفرج عنه سرا فى أكتوبر ١٩١٠ حتى لا يثير شغبا عندما يستقبله مريدوه .

ومما يجدر ذكره فى شأن الافراج عنه أن البان دى روجا المسئول عن البلاغ المصرى كتب يطلب أكثر من مرة الافراج عنه قبل موعده بمناسبة حلول عيد الفطر « لتكمل فرحته وفرحة العالم الاسلامى » واستطرد فى طلبه يقول « ربما لا يجوز لى لكونى أجنبيا مسيحيا أن أتداخل فى قضية حكم فيها القضاء المصرى العالى طبقا لاغراضه وضميره ولكن ليس فى امكانى أن أنسى أن الشيخ عبد العزيز جاويش رصيف لى »[٥٧] .

---

(٥٥) البلاغ المصرى ٩ أغسطس ١٩١٠ « الحرية تضرب عشاقها » وهى أيضا مترجمة عن البان دى روجا .

(٥٦) قام أحد المواطنين غداة الحكم بالتجمهور فى مقهى الف ليلة بالقاهرة يدعى محمود أفندى فهمى وكان موظفا بالسكة الحديد المصرية وخطب فى الجالسين معترضا على الحكم وهتف فيهم ورددوا هتافه (فليسقط القضاء) وقد حقق البوليس معه وارسلت محافظة القاهرة صورة المحضر من قسم الموسكى الى ادارته لمجازاته اداريا (الجريدة ١٣ أغسطس ١٩١٠) .

(٥٧) البلاغ المصرى ٣ ، ٤ اكتوبر ١٩١٠ .

وهكذا جاس الشيخ جاويش تجربته بقسوتها ومرها فى تحمل ، وخرج بعدها ليكتب بأسلوب آخر مبتدئا بمقال « ما هى علتنا الحقيقية » التى بدا منها أنه صار أكثر عمقا فى فهم مبادئه ، وأنه رأى أن التربية الوطنية أكثر أهمية فى بناء الامم وأشد ضرورة لمقاومة الاحتلال ونفوذه، حيث دعا الى توجيه الهمم الى تكوين نفسية الشباب وتربيتهم التربية الحقيقية التى هى مجمع الفضـائل ومبعث الكمالات وان « التربيـة النفسية هى التى تتوقف عليها رفعة الأمم وانحطاطها بل يتوقف عليها عدلها ووجودها » ودعا — كدعوة مؤسس الحزب الوطنى من قبل — الى نشر المدارس فهى التى تنمى الحس والعقل والنفس بل دعا الى تأسيس « ادارة معارف أهلية » .

واذا كانت الصفحة الأولى من المحـاكمة قد طويت ، فقد فتحت الصفحة الأخرى وهى :

محاكمة محمد فريد :

تمت الاجراءات التى عرضناها ، وحكم فى القضـية فى غيـاب أحد متهميها وهو ، محمد فريد ، ولذلك أرجأت سلطة التحقيق اجـراء محاكمته عندما يحضر الى مصر لأنهم رأوا أن فى الحكم عليه غيابيا حافزا له لعدم العودة ، وهو أمر لم تكن السلطة فى مصر راغبة فيه .

ولم كثر اللغط فى حقه كتبت اليه احدى بناته فى ١٤ أغسطس ١٩١٠ تطلب اليه أن يحضر ويحاكم وليظهر رأيه أمام الناس ويقطع الألسن التى تناولت موقفه بالنقد « ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثـل ما حكموا به على الشيخ جاويش فذلك أشرف من أن يقال بأنكم هربتم وما تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم .. واختم جوابى بالتوسل إليكم باسم الوطنية والحرية التى تضحون كل عزيز فى سـبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن »[٥٨] .

---

(٥٨) عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد رمز الوطنية ، القاهرة، ١٩٦٢ ، ص ٢٥٧ .

استجاب محمد فريد لوطنيته وتوسلات ابنته وعاد الى مصر وسرعان ما ألقي القبض عليه وسيق الى التحقيق حيث قرر أنه كتب مقدمته لكتاب وطنيتى دون أن يطلع على محتوياته وقبل أن يتم على الغاياتي كتابته وأنه سلمها اليه فى فبراير ١٩١٠ أى قبل أعداد الكتاب للطبع لأنه سافر الى أوروبا فى ٥ مايو وظهر الكتاب بعد ذلك[٥٩] •

وتبلور التحقيق عن اتهام محمد فريد بالآتى :

حسن كتاب « وطنيتى » الذى طبع ونشر من ٢٤ يونية الى ١٠ يولية ١٩١٠ ، والذى هو فى حد ذاته يشتمل على جملة أمور معاقب عليها قانونا ، وذلك بأن امتدح الكتاب المذكور بمقدمته فيه بامضائه تحت عنوان « تأثير الشعب فى تربية الأمم » وهذه الأمور هى تحويض الناس على كراهية الحكومة والازدراء بها والعيب فى حق ذات ولى الأمر وتحسين جريمتى دنجرا[٦٠] والوردانى واهانة ناظر الحقانية بصفته موظفا عموميا ، وبسبب وظيفته ، وتحسين جريمة الشيخ جاويش الذى حكم عليه من أجلها[٦١] وحدد لنظر الجلسة يوم ٢٢ يناير ١٩١١ •

وشكلت هيئة المحاكمة برئاسة المستر دلبروجلى وعضوية كل من أحمد بك ذو الفقار وأمين بك على ومثل النيابة توفيق بك نسيم •

وقد أحضر محمد فريد مقبوضا عليه بدون محام ، ولما سئل عن التهمة الموجهة اليه نفاها مدللا على ذلك بعدم وجوده عند ظهور

---

(٥٩) عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق ، ص ٢٥٥ •

(٦٠) كان دنجرا طالب هندى يتعلم فى انجلترا وكان من حزب الأحرار الفدائيين من الهنود يكره الاحتلال البريطانى لبلاده ، وانتهز فرصة وجود السير كيرزون ويللى فى حفلة اقيمت فى فندق دي أبير انستيتوت بلندن فى يولية ١٩٠٩ وقتله — ثم حوكم بسرعة حيث قضى باعدامه ونفذ الاعدام فى ١٧ اغسطس ١٩٠٩ •

اما الوردانى فهو الذى اغتال بطرس غالى باشا رئيس مجلس النظار فى عام ١٩١٠ •

(٦١) المؤيد ٢٤ يناير ١٩١١ •

الكتاب « وهى كمقالة يصح أن تنشر فى جريدة كما تكون مقدمة لكتاب ، واذا كانت المحكمة ترى محاكمتى فلها رأيها » وأضاف « أنا لم أحسن أو اقرظ وانما كتبت مقدمة لكتاب وان سكوت الحكومة وقت نشره بالجرائد جعلنى اقرظه بدون لكثرات والذنب على الحكومة التى تركته ينشر أولا فى الصحف »[٦٢] .

وترافع ممثل النيابة قائلا : « فصل القضاء فى موضوع كتـــاب وطنيتى وقضى بتأثيم واضعه ومن اطواه وحسن موضوعاته .. ولم يبق أمامنا سوى تقرير مسئولية صاحب المقالة الأولى التى وردت فى الكتاب المذكور تحت عنوان « تأثير الشعر فى تربية الأمم » ... لماذا يكون احسن الشعر ما يحض على القتال ، ولا يكون ذلك الخيال الذى يرى به الانسان الطبيعة بجمالها وينظم ويقال فى المواضـــيع الشريفة لتثقيف العقول وتهذيب النفوس ، لماذا تكون تربيـــة الأمم بالشعر الحمـــاسى ولا تكون بالشعر الذى يحض على نشر العلم ورفع الجهل .. بل لمـــاذا لا يكون مدح الامراء والوزراء بمنزلة القول الهجو »[٦٣] .

ورغم دفاع محمد فريد فقد انتهت المحكمة الى أنه كتب مقدمته وهو عالم بما سيجمع الغاياتي وأن تأخر طبع الكتاب فلا تأثير له فى ثبوت التهمة فى حقه ، وبل استبعدت التصور بأنه لم يطلع على ما جمعـــه الغاياتي فى كتابه « خصصا السابق نشره فى جريدة اللواء، وما انذرت من أجله ، سيما وان مركزه وما له من الاشراف لا يتصور معه عدم اطلاعه على ما ينشر فى جريدة تخص الحزب »[٦٤] .

وما لبثت المحكمة أن أصدرت ضده الحكم المتصدر لهذه الدراسة .

---

(٦٢) المؤيد ٢٣ يناير ١٩١١ .

(٦٣) المرجع نفسه .

(٦٤) من حيثات الحكم المنشورة فى المؤيد بتاريخ ٢٤ يناير ١٩١١ .

صدى هذه المحاكمة :

قوبل الحكم فى هذه القضية بالسخط وعمت الدهشة إنصار محمد فريد فى الحزب الوطنى ، وساد بينهم رأى أن ما حدث كان للتنكيل بقيادة الحزب ، والقاء الرعب والفزع فى نفوس أعضائه ، ولينصرف الناس عنه تفاديا لمثل ما وقع .

ونعرض كذلك لموقف الصحف من موالية ومضادة ، وللعجب أن المؤيد التزمت نفس موقفها السابق ، فلا يقلق سوى كلمات انهت بها سطور الحكم لدى نشره « ونحن نأسف أشد الأسف على صدور هذا الحكم الذى نعتبره شديدا عما كان ينتظر لهذه القضية »[٦٥] . وهنا يتأكد رأينا فى موقفها ، فلقربها من السلطة كانت تعرف حدود ما سيحكم به نهاية لما سبق ان حاكته للحزب من شراك ، ولكن المحكمة زادت فى تقديرها ، وسكت المؤيد بعد ذلك وكأنما كان يخفى فرحة النصر .

وقد علقت العلم فى مقال لامين الرافعى بعنوان « هناك اجماع على الاستياء » .

« هناك اجماع على الاستياء .. اجماع على أن الحكم صارم .. اجماع على انه اذا كان لابد من الحكم فكان ايقاف التنفيذ واجبا ، اجماع على الدهشة من التفاوت فى الاحكام في قضية واحدة وتهمة واحدة »[٦٦] وهو قول رجل له درايته بالقانون وأقرب الى المعقولية ، ولكن الفكرة المسيطرة هى ضرب رؤوس الحزب للتبدد البقية .

وقد تصدى امين الرافعى كثيرا لهذه القضية ، فتصدى للقوى المتحالفة ضد تيار الوطنية آنذاك فى مقالة بعنوان « انزلوا بنا ما شئتم من الشدة »[٦٧] .

---

(٦٥) المؤيد ٢٣ يناير ١٩١١ .
(٦٦) العلم ٢٧ يناير ١٩١١ .
(٦٧) العلم ٢٤ يناير ١٩١١ .

أما محمد فريد فقد نشر مقالا بعنوان « من سجن الى سجن » كشف فيه مؤامرة المتآمرين عليه « مضى على ستة أشهر فى غيابات السجن ولم أشعر بالضيق إلا عند اقتراب أجل خروجى لعلمى انى خارج الى سجن آخر هو سجن الأمة المصرية ، الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال ... ظن أعداء حزبنا الوطنى وخشى محبونا أن يكون للحبس هذا أقل تأثير فى سير الحزب وانتشار مبادئه الحقة بين طبقات الشعب ووصولها الى أعماق قلوبه ، ولكن الله الحمد فقد برهن حزبنا أثناء اعتقالى بين جدران هذا السجن على أنه حزب الوطن ، حزب الشعب لا يؤثر موت رئيس »[٦٨] .

ومن الغريب أن هذه القضية لم تأخذ مساحة واضحة فى مذكرات محمد فريد ، فيذكرها عندما يذكر جاويش وموقفه منه فقال « وفى ١٩١٠ حبس ثلاثة أشهر أخرى لمقدمة كتاب الفاياتى التى حبست أنا من أجلها ستة شهور فى ١٩١١ من ٢٣ يناير الى ١٨ يولية »[٦٩] .

ولقد عرض عليه الخديو وهو فى سجنه رتبة الميرميران ورئاسة الوزارة ان شاء ، على أن يعتذر له عن بعض ما أورده عنه فى مقالاته التى كتبها فرفض[٧٠] .

وهكذا سارت قضية كتاب « وطنيتى » : صدرت الأحكام ونفذت ولكن لم تصل يد السلطة الى المتهم الأول الذى ظل طليقا فى أوربا الى أن سقط الحكم ضده وعاد ادراجه ليؤسس جريدة « منبر الشرق » لتحمل فى أول أعدادها اعلانا عن كتاب « وطنيتى » فى طبعته الجديدة على النحو التالى فى عام ١٩٣٨ :

---

(٦٨) العلم ١٩ يولية ١٩١١ .

(٦٩) مذكرات محد فريد ك ٢ ص ٤٦ .

(٧٠) منبر الشرق ٦ مايو ١٩٣٨ (من ذكريات الماضى) لمحمد لطفى جمعة .

« وطنيتى »

أحدث ظهور كتاب « وطنيتى » عام ١٩١٠ ضجة كبيرة فى مصر وقد صودر وبلغ ثمن النسخة منه جنيها ، وحوكم صاحبه بعد أن فر سرا الى الخارج وحكم عليه غيابيا بالحبس سنة ، وها هو قد عاد الى وطنه أخيرا ، وبادر بطبع ديوانه طبعة ثانية بعد مرور ثمانية وعشرين عاما على الطبعة الأولى ، ويطلب هذا الكتاب من ادارة منبر الشرق ومن المكاتب الشهيرة بالقاهرة وثمنه عشرة قروش ، وهو يرسل هدية لكل مشترك جديد فى هذه الجريدة »[٧١] .

---

(٧١)منبر الشرق ٦ مايو ١٩٣٨ .

المراجـــع :

Report by his Majesty,s Agent and Consul general on finance' administration and general condition, 1908.

ـ أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، القاهرة ١٩٣٦ •

ـ صبرى أبو المجد : محمد فريد ، ذكريات ومذكرات ، الهـــلال أكتوبر ١٩٦٩ •

ـ عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد ، رمز الوطنية ، القـــاهرة ١٩٦٢ •ـ

ـ على عبد الرشيد : سيرة وحياة على الغاياتى ، القاهرة ١٩٨١ •

ـ على الغاياتى : وطنيتى ، القاهرة ١٩٤٧ •

ـ يونان لبيب رزق (دكتور) : أثر قانون المطبوعات فى الحـــركة الوطنية ، دراسة فى المجلة التاريخية ١٩٦٦ •

الصـــحف :

الاهـــرام
البـــلاغ المصرى
العلم
اللـــواء
المقطم
منبر الشرق
المؤيد

La Depêche.

من قضايا العنف السياسي في مصر

اغتيال أمين عثمان ودلالاته السياسية

د. عبد المنعم الدسوقي الجميعي

الأستاذ المساعد للتاريخ الحديث
بكلية التربية — جامعة القاهرة

أمين عثمان من السياسيين المصريين الذين تلقوا تعليماً أوربيا ودرسوا العلوم الغربية ، فقد حصل أمين عثمان على البكالوريوس في التشريع من جامعة اكسفورد عام ١٩٢٣ ثم حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة باريس في عام ١٩٢٦[1] وعاد الى مصر حيث تقلد مناصب مرموقة بها ، فقد عين في وظيفة مفتش بوزارة المالية عام ١٩٢٧ ، وفي عام ١٩٣٠ اختاره وزير المالية مكرم عبيد ليكون سكرتيرا أول بمكتبه[2] وخلال هذه الفترة كان أمين عثمان وطيد الصلة بالانجليز الموجودين في مصر خصوصا وأنه كان متزوجا من انجليزية تدعى الليدي كاتلن جريجوري[3]. وعندما وصل الى البلاد السير مايلز لامبسون نشأت بينه وبين أمين عثمان روابط من الصداقة[4] ، وكان الأخير دائم

---

(١) دار المحفوظات العمومية : ملف خدمة وربط معاش أمين باشا عثمان دولاب ١٠٠ محفظة ٥٢١٠ رف ٣ مسلسل ٥٤٣٥٦ مذكرة مرفوعة الى مجلس الوزراء في ٢٣ يناير ١٩٣٠ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه تحت عنوان شهادة من ورثة أمين باشا عثمان .

(٤) الأهرام : العدد ٢١٨٤٤ في ١٩٤٦/١/٦ .

الزيارة له وفى عام ١٩٣٦ نقل أمين عثمان الى سكرتارية مجلس الشيوخ ثم وقع عليه الاختيار ليكون سكرتيرا عاما لهيئة المفاوضات الرسمية بين بريطانيا ومصر وقد أظهر خلال ذلك جهودا كبيرة وأظهر نشاطا ودبلوماسية فائقة في أمور المفاوضات حيث قام بالتوفيق أكثر من مرة بين المفاوضين المصريين والانجليز(٥) حتى وقعت معاهدة ١٩٣٦(٦) كما أنه كان وسيطا أساسيا بين الوفد والانجليز ، فكان يظهر للانجليز وجهة نظر الوفد على أنها نصائح منه ، ونتيجة لذلك نال أمين عثمان رتبة الباشوية فى عام ١٩٣٧ كما منحته بريطانيا وسام الامبراطورية من رتبة فارس(٧) ، ومنحه بعض المصريين لقب « ابن لامبسون » نظرا لعلاقته الوثيقة بالسفير الانجليزى وازدادت ثقة الانجليز فى أمين عثمان بعد أن رأوا أن دوافعه نحوهم لم تعد محلاً للشك ، فأصبح مصريا قريبا الى نفوسهم يطلعوه على أدق أمورهم السياسية فى مصر حتى أنه كان الرجل الوحيد الذى عرف بحوادث ٤ فبراير ١٩٤٢ قبيل وقوعها وقد وضح ذلك محمد التابعى بقوله ان أحمد الوكيل ذكر له أن النحاس باشا هو الذى سيتولى الوزارة والانجليز سيتمسكون بتولية وزارة وفدية ، ولما سأله عن الطريق الذى عرف منه هذا الخبر قال ان أمين عثمان ذكر له أن الوفد هو الذى سيشكل الوزارة وانه كل طلباته ستجاب(٨) .

كان هذا فى صباح ٣ فبراير أى قبيل وقوع الحوادث المعروفة بنحو ٣٦ ساعة فكيف عرف أمين عثمان بما سيحدث وكيف أمكنه أن يقطع بأن النحاس هو الذى سيؤلف الوزارة وأن طلباته ستجاب ؟ .

---

(٥) المصور : العدد ١١٠٩ فى ١١ يناير ١٩٤٦ .

(٦) دار الوثائق : الداخلية — تقارير أمن — قضية أمين عثمان ١٩٤٦/١/٦ .

(٧) المصرى : العدد ٣١١٦ فى ١٠ يناير ١٩٤٦ .

(٨) آخر ساعة المصورة : العدد ٥٣٩ فى ٤ فبراير ١٩٤٥ تحت عنوان (٤ فبراير وأمين عثمان) .

ان ذلك يقطع بأن أمين عثمان قد اشترك « فى توجيه الخطة وسير الأمور » أو على الأقل كان على علم بها[٩] وقد كوفيء أمين عثمان بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ بأن اختير رئيسا لديوان المحاسبة ثم عينه مصطفى النحاس وزيرا للمالية فى ٢ يونية ١٩٤٣ .

ولم تقتصر جهود أمين عثمان فى خدمة الانجليز على وجوده داخل السلطة بل حاول مساندة بقائهم فى مصر أيضا وهو خارج السلطة فبعد أن اعتزل منصبه كوزير للمالية على أثر استقالة الوزارة النحاسية قام بتكوين رابطة من خريجى كلية فيكتوريا لتوطيد الصداقة والتعاون بين المصريين والانجليز ، وقد أطلق عليها (رابطة النهضة) .

وتتضح أهداف هذه الرابطة من البند الثاني من لائحتها حيث ينص على أن الارتباط بانجلترا حتمى ، وان مصر وانجلترا تزوجا زواجا كاثوليكيا لايفصم ، ولو تركت انجلترا مصر فانه يتحتم على مصر ألا تتركها[١٠] الأمر الذى أدى الى استياء الشعور الوطنى المصري ، وتكونت جماعة من الشبان المناهضة له وأخذت تعمل سرا على التخلص منه ، واستمر أمين عثمان على منواله ، وأخذ يعمل على تعزيز الروابط بين مصر وانجلترا حتى أنه وجه نداء الى الشعب المصرى يطالبه فيه بجمع التبرعات لتخليد ذكرى معركة العلمين ، وانتهى الأمر بأن جمعت تبرعات تصل الى مائة ألف جنيه سافر على أثرها أمين عثمان الى بريطانيا وقدمها باسم الشعب المصرى هناك فى حفل عام قال فيه « لو أن البريطانيين لم يثبتوا فى عام ١٩٤٠ لما استطاعت مصر أو الولايات المتحدة أو روسيا أن يثبتوا فى الوقت المناسب »[١١] .

---

(٩) آخر ساعة المصورة : المقال السابق .

(١٠) انور السادات : البحث عن الذات . القاهرة — المكتب المصرى الحديث ١٩٧٨ ص٧٢ .

Donald Reid : Political Assassination in Egypt 1910 — 1954, International Journal of African Historical Studies 15-4-1982 p. 534.

(١١) المصرى : العدد ٣١١٦ فى ١٠ يناير ١٩٤٦

وفى رابطة النهضة حاول أمين عثمان أن يرسخ فى أذهان الشباب أهمية العلاقات مع بريطانيا وضرورة توطيد الصلة بها وايجاد علاقات صداقة مع الانجليز ، وكان يعقد الاجتماعات لذلك بعد ظهر السبت من كل أسبوع فى نادى الرابطة[١٢] والتى أطلق عليها الشباب المعارض (رابطة الخيانة) وعملوا على افسادها فقام عدد منهم بالاشتراك فى هذه الرابطة لمعرفة مايدور فى ناديها من أحداث وأحاديث واتخاذ مايرونه لازما لاحباطها ، وقد اهتدى هؤلاء الشبان الى أن اغتيال أمين عثمان هو الخلاص لمصر من عمالته التى تهدف الى تثبيت الاحتلال الانجليزى لمصر ، ومقاومة الحركة الوطنية المناوئة له وبدأت المحاولة عندما كان أمين عثمان متوجها من منزله الى منزل النحاس فى ٢ مارس ١٩٤٥ فطعنه شخص مجهول بآلة حادة ، ولكنها لم تصبه الاصابة المنشودة ، وعندما قامت النيابة بالتحقيق فى الأمر لم تتوصل الى الجانى[١٣] .

ونتيجة لفشل هذه المحاولة فكر هؤلاء الشبان فى تكرارها أثناء ذهاب أمين عثمان الى نادى الرابطة ، ومن أجل ذلك درسوا موقع النادى، وعرفوا الأوقات والمواعيد التى يتردد فيها أمين عثمان على النادى والطريق الذى يسلكه فى ذهابه وايابه ، وفحصوا مصعد العمارة الذى يستعملها أمين عثمان واسترعى انتباههم أن هذا المصعد من النوع القديم الذى يرتفع فى بطء شديد ، كما وجدوا أن الصعود على درجات سلم العمارة أسرع من الصعود فى هذا المصعد ، وجاءتهم فكرة تنفيذ اغتيال أمين عثمان بداخل المصعد الذى يصعد ببطء حاملا جثته الى الطابق العلوى الأمر الذى يضمن تأخير اكتشاف الحادث مما يعطيهم الفرصة للابتعاد

---

(١٢) تأسس نادى الرابطة فى احدى شقق الدور الثالث من العمارة رقم ١٤ بشارع عدلى بجوار عمارة سنجر ، وفى مواجهة مكتب التلغراف العمومى .

(١٣) مضبطة مجلس النواب . الجلسة الخامسة عشرة فى ١٦ أبريل ١٩٤٥ ص ٣٩٧ .

عن مكان الجريمة[١٤] وقد بدأ هؤلاء الشـــبان فى تنفيذ خطتهم يوم ٥ يناير ١٩٤٦ فكمن بعضهم حول مدخل العمارة وفى الطريق ، وصـــعد بعضهم الى النادى ، ولما حانت الساعة المرتقبة لوصول أمين عثمان كانت المفاجأة أن أمين عثمان لم يحضر فى سيارته الخاصة التى اعتاد الحضور بها ، بل حضر فى سيارة أجرة ونزل بها قبل باب العمارة لذلك لم ينتبه اليه الشبان الذين كمنوا له فى الطريق ليعطوا اشارة بوصوله ، بل فوجىء به الكامنون حـــول مدخل العمارة مما أربكهم وغير خطتهم الموضوعة فلم يتركوه حتى يدخل الأسانسير حسب خطتهم بل أسرع اليه أحدهم وهـــو حسين توفيق مناديا « ياأمين باشا » فما أن هم بالالتفات اليه حتى فاجأه باطلاق ثلاث رصاصات قبل أن يصل الى المصعد ثم خرج محـــاولا أن يبدو هادئا[١٥] وكان فى امكانه أن يهرب دون أن يلتفت اليه أحد ، ولكن تصادف أن رآه أحد ضباط الطيران وهو ينفذ عمليته فنبه الناس الى ماحدث فجروا وراء الجانى الذى ظل يجرى متجها نحو ميدان الأوبرا وهو يطلق أعـــيرة نارية من مســـــدسين كان يحملهما والناس تتعقبه بالصياح[١٦] ولما ازاد عدد المطاردين ، واشتد حصارهم ألقى حســـين توفيق قنبلة[١٧] كان يحملها تجاه من كانوا يتعقبونه بشارع الملـــكة فريدة فأحدثت انفجارا شديدا ودويا مروعا بين المطاردين وأصــــابت

---

(١٤) روز اليوسف : العدد ١٤٤٠ فى ١٦ يناير ١٩٥٦ تحت عنـــوان « مذكرات الجـــزار » .

(١٥) المتحف القضائى : القضية رقم ١١٢٩ جنايات عابدين ١٩٤٦ . اغتيال أمين عثمان ص١٦ .

(١٦) المصرى : العدد ٣١١٥ فى ٩ يناير ١٩٤٦ .

(١٧) عهد البوليس الى فريق من ضباطه بالاشتراك مع بعض ضباط الجيش المختصين بالقنابل فى البحث عن شظايا القنبلة فى المكان الذى دل عليه الشهود أمام صندوق الدين ، وقد عثر هؤلاء على بعض الشظايا وترجح لهم أن القنبلة التى ألقاها القاتل على الجمهور كانت من القنابل المستعملة فى الجيش البريطانى .

الأهرام العدد ٢١٨٤٤ فى ١٩٤٦/١/٦ تحت عنوان « البحث عن القتلة »

شظاياها بعضهم[١٨] فذعر الناس وتوقفوا عن مطاردته فتمكن بذلك من الفرار[١٩] وهكذا نجح القاتل فى تدبير جريمته فى منطقة من أشد مناطق القاهرة ازدحاما .

وعلى أثر وصول نبأ محاولة اغتيال أمين عثمان الى مصطفى النحاس اهتم بالحادث وبادر على الفور بالانتقال الى مكانه وشاهد موقع الجريمة ثم توجه بعد ذلك الى مستشفى مورو بصحبة زوجته حيث استفسر عن صحة أمين عثمان وظل فى حجرة العمليات ومعه فؤاد سراج الدين أثناء اجراء العملية له كما اهتم المندوب السامى البريطانى بالأمر فاستدعى الدكتور واكلى Wakley كبير جراحى الجيش الانجليزى فى محاولة لانقاذ أمين عثمان الذى كان فى حالة خطيرة نتيجة للجروح الغائرة التى حدثت له لدرجة أن طبيبه المعالج رفض مقابلة حسن أنور حبيب وكيل النيابة له لمعرفة ما قد يفيد فى الكشف عن القتلة بحجة أن حالته خطيرة ولا تسمح بسؤاله[٢٠] .

وحاول الأطباء بذل جهودهم لانقاذ أمين عثمان الذى أصيب برصاصتين فى الرئة اليسرى وثالثة فى البطن[٢١] ولكن محاولتهم ذهبت سدى واسلم المصاب روحه الى بارئها عن عمر يناهز سبعة وأربعين عاما .

نعى مصطفى النحاس أمين عثمان الى الأمة ووصفه بأنه كان «رجلا من أكرم رجالات مصر برا ببلاده ووطنه ، رجلا وهب نفسه لخدمة

---

(١٨) الدستور : العدد ٢٤٩٩ فى ٦ يناير ١٩٤٦ تحت عنوان « مصرع أمين عثمان » .

(١٩) المصرى : العدد ٣١١٥ فى ٩ يناير ١٩٤٦ تحت عنوان البيان الأول للنيابة عن حادث مقتل أمين عثمان .

(٢٠) المتحف القضائى : قضية اغتيال أمين عثمان ص١٦ .

(٢١) دار الوثائق — الداخلية . تقارير أمن — قضية أمين عثمان ١٩٤٦/١/٦ .

القضـــية المصرية فكان من خيرة العاملين على تحقيق استقلالها الساعين لخيرها فى حاضرها ومستقبلها »[٢٢] .

ونعى مجلس الشيوخ أمين عثمان واســـتنكر ماحدث له وأســـف على فقده ، وقامت هيئة مكتبه بالاشتراك رسميا فى تشييع جنازته نيابة عن المجلس[٢٣] كما استنكر محمود فهمى النقراشى رئيس مجلس الوزراء ماحدث وندد بوسائل العنف والاغتيال وقد شارك فى تشـــييع الجنازة مندوب من قبل الملك ورئيس الوزراء والنحاس باشا وعدد من أعضـــاء الوفد وكبار رجال الدولة[٢٤] وأثناء سير الجنازة دبر حزب الوفد مظاهرة أعلنت عن استنكارها لما حدث ، ولم يتعرض رجال البوليس لها »[٢٥] .

ونتيجة لاختفاء الجانى تحرج موقف الحكومة خشية اختفاء معالم الجـــريمة وتعذر القبض على مرتكبيها فأعلن وزير الداخلية عن مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه مصرى لكل من يدلى للنيابة العامة بمعـــلومات تؤدى الى معرفة الجانى أو من اشترك معه فى اغتيال أمين عثمان[٢٦] .

وتقدم عدة أشخاص ممن رأوا المتهم فى طريق خـــروجه وأدلوا بشهاداتهم وقرر بعضهم أنه تحقق من وجه الجانى ، ودل أحدهم ويدعى عبد العزيز الشافعى وكان مهندسا بوزارة المواصلات وأحد الأعضـــاء برابطة النهضة أنه رأى منذ الأيام الثلاثة السابقة على الحادث شابين يحومان حول باب العمارة التى يوجد بها مقر الرابطة وينتظران لفترات طويلة ، وذكر أنه يعرف أحدهمـــا لأنه ابن توفيق أحمد وكيـــل وزارة

---

(٢٢) الأهرام العدد ٢١٨٤٤ فى ١٩٤٦/١/٦ .
(٢٣) الأهرام العدد ٢١٨٤٦ فى ١٩٤٦/١/٨ تحت عنوان « فى مجلس الشـــيوخ ـــ نعى المرحوم أمين عثمان » .
(٢٤) الدستور : العدد ٢٤٩٩ فى ٦ يناير ١٩٤٦ تحت عنوان تشييع جنازة أمين عثمان باشـــا .
(٢٥) مضابط مجلس النواب ، مضـــبطة الجلسة الرابعـــة عشر فى فبراير ١٩٤٦ من ٩٧٧ .
(٢٦) الأهرام : العدد ٢١٨٤٤ فى ١٩٤٦/١/٦ .

المواصلات التى يعمل بها ، وأن هذا الشاب كان يتردد كثيرا على الوزارة لزيارة قريبه وانه كان قد تعرف عليه هناك ، ونتيجة لذلك طلب النائب العام من محمد القاويش وكيل النيابة تفتيش بيت الشاب المذكور وعند التفتيش وجدوا مسدسين من نفس عيار وماركة المسدسين الذين ضبطا بعد الجريمة فى الطريق كما عثروا على أوراق تتصل بالتحقيق فألقى القبض على حسين توفيق وأخيه سعيد توفيق ولما عرضا على الشاهدين تعرفا على حسين توفيق من بين كافة المقبوض عليهم[٢٧] وبدأت النيابة فى التحقيق مع حسين توفيق ثم أعلنت أنه ليس من المصلحة اذاعة أخبار أو تفاصيل التحقيق حتى لايتسبب ذلك الاضرار بسير القضية[٢٨] وظل التحقيق يدور فى تكتم شديد ، وفى أثناء التحقيق ورد للنيابة رسالة بشأن الحادث معنونة باسم النائب العام وموقعا عليه بامضاء « ص • أ » نذكرها بنصها لأهميتها وهى :

« أرجو مخلصا أن تتبع هذه المعلومات التى أستأذن فى تقديمها فى التحقيق الجارى بشأن الاغتيال السياسى عموما ومصرع المرحوم أمين عثمان على وجه خاص وأؤكد أن هذه المعلومات أو بالأحرى الاستنتاجات من معلومات عابرة متفرقة متباعدة لها من الأهمية مايجعلها تهدى تماما لوضع اليد على الجناة :

١ — ليست الجريمة عابرة بل مدبرة تبعا لخطة مرسومة فيما يبدو ولها ماض تاريخى يصعب معرفة الحقيقة بدون الالمام به ولذلك أورده بتركيز كاف •

(أ) كان حزب مصر الفتاة نشطا قبل الحرب ، وكان لفرق القمصان الخضراء مهمة الاعتداء والقمع كما كان لمثيلاتها فى ألمانيا وغيرها •

---

(٢٧) دار الوثائق — الداخلية — تقارير أمن — قضية امين عثمان .

(٢٨) المصرى : العدد ٣١١٧ فى ١٢ يناير ١٩٤٦ تحت عنوان « بلاغ رسمى من النيابة العامة » .

(ب) وكان الحزب يمرن أعضاء مختارين على استعمال المسدسات وغيرها في الصحراء •

(جـ) وكان يشرف على التمرين شخص اسمه (مرزوق) لا أعرف بقيـــة اسمه لكنه هو الذى آوى عزيز المصرى باشا ، بعد محاولة طيرانه، انه هو المدرب والمشرف •

(د) وكان الحزب يمجد على ماهر باشا وعزيز المصرى باشاء تطـــالع صـــحفه للتأكد والتنور •

(هـ) انقسم الحزب بعد الحرب تقريبا الى قسمين أحدهما لأحمد حسين والآخر لفتحى رضـــوان •

(و) يضم قسم فتحى رضوان عصبة تلوذ بعـــزيز المصرى ومرزوق وسائر الجماعة ، هذه العصـــــبة ترى أن سبب نكبة البلد زعماء الأحزاب تفكيرهم فردى ارهابى بحت ، ولذلك قررت اغتيـــال الزعماء وأعلم أن قنبلة النحاس كانت منهم ـ الثلاثة ـ التى اشتبه فيها (الشاهد فى حادث القنبلة التى ألقيت فى شـــارع القصر العينى على النحاس باشا) وسبب نجاة النحاس باشـــــا هو أن سيارته مرت قبل الترام ولم تقف كما توقع الجناة ، ولذلك أسرعوا بالقاء القنبلة والقصد أن تصيب الزجاج من الخلف ولكن الله سلم

(ز) وفى قائمة الاغتيال النحاس (تعاد الكره عليه) وأمين عثمـــان وعطا الله باشا رئيس الجيش ومعه ضباط كثيرين وغيرهم ممـــن لا أستطيع معرفتهم ولكن الثلاثة السابقين على التوالى وبهـــذا الترتيب وربما شملت القائمة السفير البريطانى •

(ح) البعض تهدد العضو المعهود اليه بالتنفيذ بالقتل أو بقتل أهـــله وأصحابه اذا لم ينفذ المهمة أو أفشى السر » •

٢ ــ الجريمة سياسية فالتحقيق يجب أن يتناول المبادىء وهى ارجاع حالة الفساد للزعماء ولذلك كانت النتيجة وهى القضاء عليهم •

٣ ــ مما يقال فى بيئة الاجرام هذه أن فتحى رضوان بعيد عن حـادث أمين عثمان أما حادث النحاس وغيره فلا أعلم لكن المجرمين من شـيعته •

٤ ــ حادث المغفور له أحمد ماهر لا أعلم اذا كان مرتبطا بهذه الحوادث من عـدمه •

٥ ــ وكذلك حادث اغتيال أفراد الحلفاء من الجنود •

ملاحظات : طبعا أعضاء العصـابة أخفوا ماعندهم لأن المجرم المقبوض عليه منهم قطعا وهو الفاعل قطعا •

يبدو أن للعصابة (شىء) فى المعادى أو حلوان •• ببيت أحدهم أو شىء من هذا •• ويبدو أن فى هذا من آثار الجريمة على المحقق أن يرجع لهذا التاريخ من ملفات المباحث ان وجد ومن الصحف الخاصة بالحزب ، وعليه أن يتعرف هذا الخط الذى أوردته وأن يصبغ التحقيق بلونه الأصلى (السياسة) •

القنابل من الجيش المصرى •• عزيز المصرى أو اتباعه هم موردوها وبعد لا أستطيع أن أذكر اسمى لعدم الاطمئنان من ناحية ولأن هذا يحول بينى وبين مواصـلة تحرياتى ، ومتابعة أخبار الجناة من ناحية أخـرى وسأوافيكم بكل ماأحصل عليه »[٢٩] •

وبعد أن وصلت هذه الرسالة الخطيرة الى النيابة حاولت التعـرف

---

(٢٩) لطفى عثمان : المحاكمة فى قضية الاغتيالات السياسية . القاهرة ١٩٤٨ ، ص١٣ ــ ١٥ •

على صاحبها بشتى السبل فنشرت فى جريدة الأهرام اعلانا تناشده فيه بالاتصال بها ونصه :

« الى ص • أ خطابك وصل • اتصل بتليفون ٨٤٢٧٣ من الساعة الخامسة الى السابعة مساء » •

ومع ذلك فلم يتصل صاحب الرسالة بالنيابة ، وظل أمر رسالته لغزا محيرا • وعندما عرضت النيابة هذه الرسالة على حسين توفيق المتهم الأول فى القضية اتهم حزب الوفد بكتابتها لتلفيق التهم لخصومه•

وعلى كل حال فقد التزم حسين توفيق الصمت عند التحقيق معه فى اليومين الأولين ، ولما كان وكيل النيابة يعلم عنه حبه للافتخار بنفسه واظهار بطولته نصب له كمينا بأن أوعز الى الصحف بالاشارة الى أن الجريمة كانت أسبابها نسائية ، وهنا بدأ حسين توفيق يعترف بما حدث بالكامل ويدلى بأسماء المشتركين معه[٣٠] فذكر أنه ينتمى الى جمعية كونت فى عام ١٩٤٢[٣١] تدعى الجمعية الوطنية بهدف قتل الانجليز والزعماء المصريين الذين يتعاونون معهم وأن لهذه الجمعية عدة شعب كل منها لاتعرف الأخرى ، وان أعضاء هذه الجمعية نقلوا نظام جمعيتهم من بعض كتب موضوعة فى نظام الجمعيات السرية الروسية والايرلندية ، وان عدد أعضاء هذه الجمعية حوالى خمسين عضوا ثم تحدث عن الغرض من الجمعية فقال انها ترمى الى قتل كل الزعماء[٣٢] الذين يتصلون بالانجليز وان زعماء الوقت الحاضر جميعهم يتصلون بالانجليز ليصلوا عن طريق ذلك الى الحكم ، وليس بهدف مصلحة البلاد ، وانهم كانوا قد قد وقع اختيارهم من قبل على قتل النحاس لقبوله التعاون مع الانجليز

---

(٣٠) أنور السادات : البحث عن الذات ص٧٣ •

(٣١) المتحف القضائى : قضية اغتيال أمين عثمان ص٤١٧ •

(٣٢) دار الوثائق : الداخلية — تقارير أمن • قضية أمين عثمان •

وتوليه الحكم فى ٤ فبراير على حرابهم ، وكذلك اتفقوا على قتل أمين عثمان ومكرم عبيد لأنهما اشـتركا فى مأساة ذلك اليوم ، كما أوضـح انهم نفذوا أكثر من خطة لاغتيال النحاس منهـا أنه قذف قنبلة عـلى سيارته جهة القصر العينى أثناء ذهابه فى رأس السنة الهجـرية الى النادى السعدى ولكنها لم تصـبه ، كما أنهم راقبوا تحركات مصطفى النحاس كثيرا لتدبير قتله ولكنهم لم يفلحوا لذلك تغيرت خطتهم باغتيال أمين عثمان حتى يخرج الناس للاشتراك فى تشييع جنازته فيقتلوه كما اعترف حسين توفيق بأنه هو الذى نفذ الجزء الأول من الخطة لكراهيته لأمين عثمان الذى يعتبر نفسه انجليزيا أكثر من كونه مصريا[٣٣] ولكنه لم يتمكن من تنفيذ الجزء الثانى لأن النيابة كانت قد قبضت عليه ، وعندما حاول وكيل النيابة استدراجه لمعرفة أعضاء الجمعية اعتذر عن الافصاح بشىء بحجة أنهم لايعرفون بعضهم بعضا كمجموعة وانما كل شـعبة تعرف أعضائها فقط ، وانه ليس للشعبة عدد معين من الأفراد وان كان يتراوح بين ثلاثة وسبعة أعضاء[٣٤] ثم اعترف حسين توفيق بأنه كان لهذه الجمعية مجلس ادارة تحت رياسته وعضوية محمود مراد ، ومحمد محمود كريم ، وعبد العزيز خميس ، ومحمود الجوهرى وكان هذا المجلس الذين اطلقوا عليه اسم المحكمة الشعبية[٣٥] يعقد جلساته ويصدر قراراته من منزل محمود مراد وأحيانا من مقهى فى عمارة متاينا أمام حديقـة الأزبكية ، وأن اليوزباشى أنور السادات اتصل بهم هناك وأخذ يمـدهم بالقنـابل[٣٦] .

وقد جاء فى مذكرات البكباشى محمد الجزار وهو أحد الذين قاموا بالقبض على حسين توفيق أنه قابل أنور السادات فى عام ١٩٥٦ وسأله

---

(٣٣) المتحف القضائى : قضية اغتيال امين عثمان ص٤١٨ .

(٣٤) الداخلية ـــ تقارير أمن ـــ مقتل امين عثمان .

(٣٥) المصور : العدد ١١١٧ فى ٨ مارس ١٩٤٦ تحت عنوان الجمعيـة الوطنية ـــ أهدافها وكيف تألفت .

(٣٦) الدستور فى ٨ مارس ١٩٤٦ تحت عنوان أفراد الجمعية وأغراضها

عن هذه الجمعية فقال له لقد كان هناك تشكيلان أحدهما من المدنيين والآخر من الضباط الأحرار ، وأنه كان ضابطا للاتصال بين التشكيلين ، وان أمين عثمان كان موضوعا تحت مراقبة التشكيل الأول الذى كان يحصى جميع تحركاته كما ذكر أنه تبين للجماعة من هذه المراقبة أن أمين عثمان توجه يوم الجمعة ٤ يناير ١٩٤٦ الى منزل مصطفى النحاس واجتمع هناك باللورد كيلرن ، وتناول الثلاثة طعام العشاء معا وعلمت الجماعة أن النية قد اتجهت الى تعيين أمين عثمان رئيسا للوزارة ، وان النحاس وافق فى هذا الاجتماع على ذلك ، ولهذا السبب بادر التشكيل الأول بقتل أمين عثمان(٣٧) وعلى كل حال فانه بعد محاولات النيابة اعترف حسين توفيق فى ١٠ يناير ١٩٤٦ بشركائه فى الحادث ، وأرشد البوليس على بعض أعضاء الجمعية فذكر أن العضو محمود يحى مراد ابن خالته كان معه فى حادث اغتيال أمين عثمان ، وعقب ذلك الاعتراف قبض رجال البوليس على محمود يحى مراد وهاجموا منزله فوجدوا فيه بندقية ، وقد اعترف محمود يحى فى أقواله بأنه فى وقت ارتكاب الجريمة كان يحمل مسدسا وان مهمته كانت مساعدة حسين توفيق على الهرب عقب الحادث ثم اعترف حسين توفيق بعد ذلك على آخرين منهم محمد على خليفة ومحمود كريم وسيد عبد العزيز خميس ومحمد عبد الفتاح الشافعى ومحمد ابراهيم كامل وسعد الدين كامل المحامى ابن اخت فتحى رضوان المحامى وعمر حسن أبو على واليوزباشى أنور السادات وحسن عزت المحالين للاستيداع والذين كانا معتقلين فى أثناء الحرب مع عزيز المصرى ، والراقصة حكمت فهمى ، ولما قبضت النيابة عليهم أنكروا جميعهم فى بادىء الأمر أى صلة لهم بالحادث ثم عاد بعضهم واعترف(٣٨) .

وبعد مدة اعترف حسين توفيق على آخرين وهم محمود الجوهرى

---

(٣٧) روز اليوسف : العدد ١٤٤٣ فى ٦ فبراير ١٩٥٦ .

(٣٨) اعترف محمود على خليفة ومحمد كريم وسيد عبد العزيز خميس ومحمد عبد الفتاح الشافعى وعمر حسن أبو على بالاشتراك فى الحادث انظر: الداخلية — تقارير أمن — مقتل أمين عثمان .

ومدحت فخري وعباس المرشدى وأحمد عباس ومحجوب على ومحمـد أحمد الحلوانى وكامل ابراهيم ، وقد أيد اعترافه بعض المقبوض عليهم • كما ذكروا أن جمعيتهم تكونت فى البداية لاغتيال القوات البريطانية ثم اتجهت أنظارهم الى اغتيال الزعماء المصريين الذين يتعاونون مع الانجليز، واعترفوا بأنهم كانوا يسرقون السيارات لاستعمالها فى الاعتداء عـلى الانجليز ثم يتركونها فى الطريق ، كما دل بعضهم على المكان المودع فيه السلاح وهو فى احدى فجوات جبل المقطم •

وعندما اقتحمت الشرطة هذا المكان عثرت فيه على ١٢ قنبلة يدوية ، ٦ مسدسات ، ٦٠٠ رصـاصة وقد اعترف حسـين توفيق للنيابة بأن اليوزباشى أنور السادات أحضر له بعض القنابل اليدوية مع ضابط طيار بالجيش المصرى يدعى طلعت عبد الوهاب[٣٩] وانه كان عضوا فى جماعة تضم بعض العسكريين وتعمل على مناهضة الانجليز ، وان الاسم المعروف به لدى الجماعة هو الحاج[٤٠] •

وبعد انتهاء النيابة من تحقيقاتها أحالت عـدد ٢٦ من المتهمين الى قاضى الاحـالة وهم :

١ ــ حسـين توفيق أحمد :

٢٢ سـنة ــ طالب بمدرسة فؤاد الأول الثانوية •

٢ ــ محمود يحى مـراد :

٢٢ سنة ــ طالب بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول

٣ ــ محمد أحمد الجوهرى :

١٩ سـنة ــ طالب بمدرسة فؤاد الأول الثانوية •

---

(٣٩) دار الوثائق ــ الداخلية ــ تقارير أمن ــ مقتل أمين عثمان وأيضـا :

Donald Reid : op. cit., p. 634.

(٤٠) المتحف القضائى : قضية اغتيال أمين عثمان ص٢٢٥ .

٤ ــ عمر حسين أبو على :

٢٥ سنة ــ مدرس بمدرسة الأمير عمر طوسون الابتدائية بشبرا

٥ ــ السيد عبد العزيز خميس :

٢٠ سنة ــ طالب بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول

٦ ــ محجوب على محجوب :

٢٠ سنة ــ طالب بمدرسة الدواوين الثانوية

٧ ــ محمد أنور السادات :

٢٨ سنة ــ مقاول نقل بالسيارات

٨ ــ محمد ابراهيم كامل :

٢٠ سنة ــ طالب بكلية الحقوق جامعة فؤاد .

٩ ــ سعد الدين كامل :

٢٢ سنة ــ محام تحت التمرين

١٠ ــ محمد محمود كريم :

٢٢ سنة ــ طالب بكلية الهندسة جامعة فؤاد

١١ ــ نجيب حسين فخرى :

٢٢ سنة ــ طالب بالمعهد العالى للعلوم المالية والتجارية

١٢ ــ مدحت حسين فخرى :

١٩ سنة ــ طالب بالسعيدية الثانوية

١٣ ــ سعيد توفيق أحمد :

١٧ سنة ــ طالب بمدرسة فؤاد الأول الثانوية

١٤ ــ مجدى عبد العزيز أبو سعده :

١٩ سنة ــ طالب بالمدرسة السعيدية

١٥ ــ أحمد وسـيم خالد :

١٧ سنة ــ طالب بالمدرسة السعيدية الثانوية

١٦ ــ مصطفى كمال حبيشة :

١٧ سنة ــ طالب بالمدرسة السعيدية

١٧ ــ محمد على خليفة :

٢٢ سنة ــ طالب بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول

١٨ ــ محمد عبد الفتاح الشافعى :

٢٤ سنة ــ طالب بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول

١٩ ــ عباس محمود المرشـدى :

٢٢ سنة ــ طالب بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول

٢٠ ــ على عزيز دياب :

٢٠ سنة ــ طالب بمدرسة القبة الثانوية

٢١ ــ أحمد خيرى عبـاس :

٢٠ سنة ــ طالب بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول

٢٢ ــ أحمد محمد خليل الحلوانى :

٢٠ سنة ــ طالب بمدرسة المعلمين العليا

٢٣ ــ كامل محمد ابراهيم الواحى :

٢٠ سنة ــ طالب بمدرسة فؤاد الأول بالثانوية

٢٤ ــ عبد الهادى محمد مسـعود :

٢٢ سنة ــ طالب وموظف بوزارة المعارف

٢٥ ــ جول اسـود نعيم :

٢١ سنة ــ كاتب بنادى سـبورتنج

٢٦ ــ أنور فائق جرجس :

٢٣ سنة ــ شريك فى محل هونولولو لأجهزة الراديو [٤١] .

وفيما يلى نعرض للتهم الموجهة لهؤلاء المتهمين

١ ــ حســين توفيق أحمد

نجل توفيق أحمد باشا وكيل وزارة الدفاع بدأ حياته الدراسية فى مدرسة الفرير بباب اللوق ثم فى سان مارك ثم فى الفرير بالخرنفش ثم فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية .

وقد نسب اليه تهمة قتل أمين عثمان فى مساء ٥ يناير ١٩٤٦ عمدا ومع سبق الاصرار بأن بيت النية على قتله وأعد لذلك مسدسين وقنبلة يدوية وترصد له عند الباب الخارجى للمبنى المحتوى على نادى فيكتوريا ورابطة النهضة وأطلق عليه ثلاثة طلقات نارية[٤٢] كما نسبت اليه عدة تهم منهـا :

(أ) الشروع فى قتل بعض الأشخاص بأن ألقى صوبهم قنبلة يدوية بقصد قتل من كانوا يتعقبونه للامساك به عقب قيامه بارتكاب جريمته ، مما أدى الى اصابة عبد المنعم القبانى وجمال عبد الشافى بشظايا القنبلة[٤٣] .

(ب) الشروع فى قتل النحاس باشا بأن ترصد له فى الطريق بين منزله والنادى السعدى وأعد لذلك مسدسا وقنبلتين يدويتين ألقى قنبلة منهما على سيارة النحاس باشا أصابت بعض الأشخاص بجروح مختلفة(٤٤) .

---

(٤١) المتحف القضائى : قضية اغتيال أمين عثمان ص ٢ ، ٣ وأيضا : لطفى عثمان : المرجع السابق ص١٩ ــ ٢٥ .

(٤٢) المتحف القضائى : قضية اغتيال أمين عثمان ص٤٧٧ .

(٤٣) نفســه ص٤٧٨ .

(٤٤) نفســه ص٤٨٠ .

(ت) الاشتراك مع بعض المتهمين فى اتفاق جنائي بهدف اغتيال النحاس باشـــا •

(ث) الشروع مع آخر فى قتل الأومباشى الانجليزى يونج بأن أعـد مسدسا واستقل سيارة اطلق منها عدة طلقات نارية عليه بقصد قتله •

(ج) الاشـــتراك مع بعض المتهمين خلال الســـنوات من ١٩٤٤ الى ١٩٤٦ فى اتفاق جنائى الهدف منه قتل رجال الجيش الانجليزى والمتعاونين مع الانجليز من المصريين •

(ح) اشعال النار عمدا فى مدرسة القنصلية البريطانية بالمعادى بأن وضع بترولا على باب المدرسة فى ١٤ يوليو ١٩٤١ ثم أشـــعل فيه النار •

(خ) الاشـــتراك مع آخر فى اشعال النار فى جراج بالمعادى بهدف حرق سيارات انجليزية •

(د) الاشتراك مع آخرين فى ارتكاب جنايات قتل وسرقة بالاكـــراه بأن اتفقوا على سرقة أسلحة الجيش الانجليزي وقتل رجاله •

(ذ) الشروع مع آخرين فى سرقة مسدس الكونستابل فؤاد محمد حسن بطريق الاكراه بأن اعتدوا عليه بالضرب أثناء تواجدهم بســـجن الأجـــانب •

٢ ــ محمود يحى مــراد :

بدأ حياته الدراسية فى مدرسة الزيتون الابتدائية ثم فى مدرســـة القبة الثانوية وبعدها التحق بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول •

وقد اتهم والده على مراد فى شبابه فى قضية ابراهيم الوردانىولكن لم يثبت عليه شىء •

وقد اتهمت النيابة محمود يحى مراد بعدة تهم هى :

(أ) الاشتراك مع آخرين فى قتل أمين عثمان بأن وقف الى جوار حسين توفيق أثناء ارتكاب الحادث مسلحا بمسدس لحمايته وشد أزره[٤٥]

(ب) الاشتراك مع آخرين فى محاولة قتل وكيل الأومباشى ميللر الانجليزى •

(ث) الاشتراك مع ثلاثة وعشرين متهما فى اتفاق جنائي الهدف منه قتل رجال الجيش الانجليز وبعض رجال مصر المتعاونين معهم •

٣ ـ محمد أحمد الجوهرى :

بدأ حياته السياسية بمدرسة بنها الابتدائية ثم فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية ، ونسب اليه الاشتراك فى قتل أمين عثمان باشا وذلك بوقوفه عند ناصية شارعى عدلى ومحمد فريد لتنبيه المتهم الأول عند مقدم سيارة المجنى عليه [٤٦] كما نسب اليه الاشتراك فى عدة تهم منها :

(أ) الاتفاق مع آخرين على قتل النحاس باشا بالقاء قنبلة على سيارته

(ب) الاشتراك مع آخرين فى اتفاق جنائى هدفه قتل الانجليز وبعض المصريين فى حادث سجن الأجانب •

٤ ـ عمر حسين أبو على :-

بدأ حياته الدراسية بمدرسة سعيد باشا الابتدائية بالاسكندرية ثم الرمل الثانوية ثم بالهندسة التطبيقية العليا •

وقد اتهمته النيابة بالاشتراك فى قتل أمين عثمان بطريق الاتفاق والمساعدة وذلك بالوقوف عند ناصية شارع عدلى وميدان ابراهيم باشا لابلاغ حسين توفيق بمقدم سيارة أمين عثمان كما نسب اليه أيضا

---

(٤٥) المتحف القضائى : قضية اغتيال أمين عثمان ص٤٧٨ •

(٤٦) نفسه •

الشروع فى قتل الذين كانوا يطاردون المتهم الأول [٤٧] وفى قتل النحاس باشـــا ، والاشتراك فى قتل الأومباشى الانجليزى يونج •

٥ ـ السـيد عبد العزيز خميس :

بدأ حياته الدراسية فى مدرسة المنصورة الابتدائية ثم فى السعيدية الثانوية ثم بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول واتهم بالاشتراك فى قتل أمين عثمان وذلك بالترصد له عند رابطة النهضة وابلاغ حسين توفيـــق بقدومه ، كما اتهم أيضا بالاتفاق على اغتيال النحاس باشا وقتل الجنود البريطانيين وبعض المصريين •

٦ ـ محجـوب على محجوب :

بدأ حياته الدراسـية فى مدرسة الجيزة ثم التحق بالســـعيدية الثانوية واتهم بالاشتراك فى الجريمتين الأولى والثانية والاتفاق الجنائى على قتل النحاس باشا وبعض الجنود البريطانيين وعدد من المصريين •

٧ ـ محمد أنور الســادات :

كان فى مدرسة الجامعة الابتدائية بالزيتون ثم فؤاد الأول الثانوية ثم الكلية الحربية وبعد تخرجه التحق بسلاح الاشارة ثم فصل من وظيفته فى عام ١٩٤٢ واعتقل فى معتقل الزيتون وتمكن من الهرب •

اتهم بالاشتراك فى قتل النحاس باشا وذلك باستئجار ســـيارة والوقوف بها أمام متحف الشمع على مقربة من مكان الحادث لمســـاعدة المتامرين على الهرب [٤٨] كما اتهم بالاتفاق على قتل أمين عثمان وبـــعض الجنود البريطانيين فقبض عليه وظل بالسجن لمدة واحد وثلاثين شهرا •

---

(٤٧) المتحف القضائى : قضية اغتيال أمين عثمان ص٤٧٨ .

(٤٨) نفســـه ص٢٢٥ .

٨ ــ محمد ابراهيم كامل :

تخرج فى كلية الحقوق وعمل محاميا ، وقد اتهمته النيابة بنفــس التهم الموجهة الى زميله السابق ، والاشتراك فى حادث وضع النار عمدا فى دار القنصــلية البريطانية •

٩ ــ ســعد الدين كامل :

عمل محاميا ، وقد اتهمته النيابة بنفس التهم الموجهة الى زميايه الســابقين •

١٠ ــ محمد محمود كــريم :

بدأ حياته الدراسية فى مدرسة قنا الابتدائية ثم فى أسوان الثانوية ثم فى الخديوية فكلية الهندسة •

وقد اتهم بالاتفاق الجنائى على قتل أمين عثمان والنحاس باشــا والجنود البريطانيين وعدد من المصريين •

١١ ــ نجيب حســين فخرى :

كان طالبا بمعهد العلوم المالية والتجارية •

وقد اتهم بالاتفاق الجنائى على قتل أمين عثمان والنحاس باشــا وعدد من الجنود البريطانيين وبعض أعوان الانجليز من المصريين •

١٢ ــ مدحت حســين فخرى :

كان طالبا بالسعيدة الثانوية ، وقد اتهم بالاتفاق الجنائى على قتــل النحاس باشا وبعض الجنود البريطانيين والمصريين والاشتراك فى قتــل الأومباشى الانجليز ميللر •

١٣ ــ سعيد توفيق أحمد :

شقيق المتهم الأول حسين توفيق ، وقد اتهم بالاتفاق الجنائى على قتل النحاس باشا والاشتراك فى قتل الأومباشى الانجليزى ميلر ، وفى الاتفاق الجنائى على قتل الجنود الانجليز وبعض المصريين والاشتراك فى حادث سجن الأجانب •

١٤ ــ مجدى عبد العزيز أبو سعده :

وقد بدأ حياته الدراسية بمدرسة المنصورة الابتدائية ثم السعيدية الثانوية وبعدها التحقق بكلية الزراعة ، واتهم بالاتفاق على قتل النحاس باشا وبعض الجنود البريطانيين وعدد من المصريين •

١٥ ــ أحمد وسيم خالد :

طالب بالسعيدية الثانوية •

اتهم بالاشتراك فى الاتفاق الجنائى على ارتكاب جنايات قتل ضد الانجليز وسرقة أسلحتهم ، كما اتهم فى حادث الهرم بأنه شرع فى قتل محمد ممدوح الشلقانى •

١٦ ــ مصطفى كمال حبيشة :

اتهم بالاشتراك فى الاتفاق الجنائى على القتل كما اتهم فى حادث الهرم أيضا •

١٧ ــ محمد على خليفة

طالب بكلية الهندسة بجامعة فؤاد الأول ، وقد اتهم بالاتفاق الجنائى على القتل •

١٨ ــ محمد عبد الفتاح الشافعى :

اتهم بالاتفاق الجنائى على القتل •

١٩ ــ عباس محمود مرشــدى :

اتهم بالاتفاق الجنائى على القتل .

٢٠ ــ على عزيز دياب :

اتهم بالتهمة السابقة .

٢١ ــ أحمد خيرى عياس :

اتهم بالتهمة السابقة وفى حادث سجن الأجانب .

٢٢ ــ أحمد محد خليل الحلوانى :

اتهم بالتهم السابقة .

٢٣ ــ كامل محمد أبراهيم الواحى :

اتهم بالتهمة السابقة .

٢٤ ــ عبد الهادى محمد مســعود :

تخرج فى كلية الآداب واشتغل فى مهنة التدريس ، وقد اتهم بالتهمة ذاتهــا .

٢٥ ــ جول أســود نعيم :

كان بمدرسة الفرير واشتغل فى شركة الهواء السائل واتهم بالتهمة الســـــابقة .

٢٦ ــ أنور فائق جرجس :

تعــلم فى مدرسة الفرير بالخرنفش ، ثم التحق بمعهــد ماركونى للاسلكى وتطوع فى الجيش البريطانى ، واشترك فى معركة العلمين أثناء الحرب الثانية وبعدها عمل فى تجارة أجهزة الراديو واصلاحها .

وقد اتهم بأن اشترك مع حسين توفيق المتهم الأول بوضع النـــار عمدا فى سيارة مستر شنتون •

ومن قائمة المتهمين يتضح أنهم فى معظمهم كانوا من طلاب الجامعات والمدارس ، وأن أعمارهم متقاربة فى سن يتراوح بين العشرين والثلاثين وبمعنى آخر فهم أبناء الجيل الذى نشأ ليرى احكام السيطرة البريطانية على بلادهم وعلى كل حال فقد أخذ قاضى الاحالة ملف القضية بما فيـــه من مستندات ووثائق وأدلة الى منزله فى حى الحلمية لدراسته ، وبعد اطلاعه على الملف المذكور كلف أحد الحجاب باعادة الملف الى المحكمة فى اليوم السابق على موعد القضية فذهب حاجب المحكمة ومعه دراجة لها حمالة من الخلف الى منزل قاضى الاحالة فسلمه القاضى دوسيه القضية، وقام الحاجب بتثبيته على الحمالة الخلفية ، وأخذ وجهته الى دار المحكمة عن طريق شارع محمد على ، ولم تمض لحظـــات على ذلك حتى أسرعت سيارة خضراء بانزال شاب حاول اختطاف دوسيه القضية ، ورغم أنه لم ينجح فى محاولته فقد أدت محاولة الاختطاف الى تناثر أوراق القضـــية فى الشارع وصراخ الحاجب ، ونتيجة لما حدث تجمع الناس على صراخ الرجل وانكب بعضهم على الأوراق المتناثرة يجمعونها من هنــا وهنــاك دون أن يعرفوا شـــيئا عنها أو عن مدى أهميتها وانطلق بعض آخر من الناس وراء الشاب الذى حاول اختطاف الأوراق وهو يلوذ بالفرار حتى تمكنوا من اللحاق به •

وعن هذه الواقعة ذكر الجزار فى مذكراته أن الملف الذى ســـلم للحاجب لينقله على حمالة الدراجة الى المحكمة هو أصل لا تنسخ منــه صور الا بأمر من محكمة الجنايات وليست له نسخة أو صورة أخرى[٤٩] •

وقد يدفعنا ذلك الى التساؤل عن الهدف من محاولة اختطـــاف ملف القضية والى أى جهة ينتمى المختطفون ؟ •

---

(٤٩) روز اليوسف : العدد ١٤٤٢ فى ٣٠ يناير ١٩٥٦ •

الواقع أنه اذا كانت عملية اختطاف ملف القضية قد نجحت وفقدت أوراقها بما فيها من أقوال المتهمين والأدلة والاثباتات التى تثبت ادانتهم فان هذا كان سيؤدى الى تمييع القضية لأنه لايمكن تقديم المتهمين الى المحاكمة الا بعد تحقيق جديد قد لايرتبطون فيه بأقوالهم السابقة أو بما عليهم من أدلة فى التحقيق •

ولخطورة ماحدث أسرع رجال النيابة والبوليس الى مكان الحادث للاطمئنان الى أن ملف القضية لم ينتقص منه شيئا ، وبعد أن جمعت أوراق القضية من يد الأهالى ومن الشارع رتبت حسب ترقيمها وتحقيق وقائعها فاتضح أنه لم يفقد منها شىء • والواضح أن مختطفى ملف القضية كانا من أعضاء الجمعية السرية التى ينتمى اليها حسين توفيق[٥٠] وأنهما قاما بذلك لاخفاء معالم القضية ، وما قد يكون ثابتا فى أوراقها فانه بعد القبض على صاحب السيارة الخضراء الذى أنزل من سيارته الشاب الذى حاول خطف دوسيه القضية اتضح أنه الضابط السابق حسنى عزت[٥١] أحد أعضاء التنظيم والذى اعترف حسين توفيق أثناء التحقيق معه بأنه ضمن أعضاء الجمعية الوطنية السرية •

وقد بدأت محكمة جنايات مصر فى محاكمة المتهمين يوم ١٢ فبراير ١٩٤٧[٥٢] وسط حشد كبير من الشهود والحاضرين الذين كان منهم بعض الوزراء وكبار رجال السياسة ومن هؤلاء على ماهر ، واسماعيل صدقى، وابراهيم عبد الهادى ، ومصطفى النحاس ، ومكرم عبيد ، وحسين سرى، وحافظ رمضان ، ومحمد حسين هيكل ومحمد لطفى جمعه[٥٣] وآخرون كما

---

(٥٠) وهما حسين عزت الضابط السابق وصاحب السيارة التى طاردت حاجب المحكمة .

(٥١) روز اليوسف : العدد السابق . مذكرات الجزار .

(٥٢) قدمت قضية اغتيال امين عثمان الى محكمة جنايات مصر تحت رقم ١١٢٩ جنايات عابدين ١٩٤٦ .

(٥٣) رابح لطفى جمعه : محمد لطفى جمعه . القاهرة ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ص. ١٠٠ ومابعدها .

ترافع عن المتهمين فى هذه القضية أكبر محامى مصر وأشهرهم من مختلف الانتماءات السياسية لأنها كانت كما ذكر البعض من أضخم القضايا التى شهدها القضاء المصرى[54] .

وعندما بدأت المحكمة فى استجواب المتهمين أنكروا جميعا التهم التى نسبت اليهم كما ذكر بعضهم أن النيابة أجبرتهم عن طريق التعذيب أن يدلوا بأقوال غير مطابقة للحقيقة ، ومن هؤلاء المتهم عمر حسين أبو على ، والمتهم أنور السادات فقد ذكر الأول أن أقواله فى التحقيق « أملتها النيابة عليه بتأثير وتعذيب وتهديد » وأوضح الآخر أن كل ماورد فى التحقيقات باطل ومن تلفيق البوليس .

أما عن صدى القضية على الرأى العام فى مصر فقد شغلته وأثارت انتباهه وانقسمت مواقف الصحف اليومية والاسبوعية بين مؤيد ومعارض

وفى أثناء محاكمة المتهمين بدأ الأستاذ أنورحبيب ممثل النيابة مرافعته بالهجوم على الانجليز بقوله « ان يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ سيظل وصمة عار فى جبين الامبراطورية البريطانية ، وسيظل دليلاً صارخا على البربرية التي هوى اليها الانجليز فى ذلك اليوم الأغبر الكالح وسنظل نلعن الانجليز أبد الدهر ماداموا محتلين بلادنا » كما طالب ممثل النيابة بالجلاء ووحدة وادى النيل وما أن سمع المتهمون والشهود هذا الكلام حتى صفقوا وهللوا وهتف بعضهم للنيابة صاحبة الدعوى فى الجمعية العمومية وصاحبة قرار الاتهام[55] ونتيجة لذلك حضر النائب العام للجلسة التالية وحاول شطب كلمة الأستاذ أنور حبيب مما أدى الي هياج الدفاع وعدد من المتهمين منهم حسين توفيق وأنور السادات وعمر حسين أبو على وسعد كامل ومدحت فخرى ، وقال أنور السادات موجها الكلام الى النائب

(٥٤) عن أسماء هؤلاء المحامين . انظر : المتحف القضائى قضية اغتيال أمين عثمان . ص٤ ، ٥ .

(٥٥) روز اليوسف : العدد ١٤٤٥ فى ٢٠ فبراير ١٩٥٦ .

العام « ازاى النائب العام المصرى الوطنى عايز يسحب الكلام ده ••
يا سعادة النائب العام انك مصرى والجميع وعلى رأسهم رئيس الحكومة
يرددون أماني المصريين ، وهى وحدة وادى النيل والجلاء التام ،
والنقراشى باشا قال فى مجلس الأمن ان الانجليز لصوص وقراصنة
فتأتى أنت لتسحب هذا الكلام •• يجب عليك أن تستقيل وتنزل عن
الكرسى » •

وقال حسين توفيق « عار عليك ياحضرة النائب العام أن تسحب
هذا الكلام الوطني •• كن شجاعا ولا تخشي شيئا » واستمر هياج
المتهمين وعلت الأصوات ، وحاولت المحكمة اسكات المتهمين وتهدئتهم
ونتيجة لذلك رفعت المحكمة الجلسة للاستراحة ، ولما عادت الجلسة للانعقاد
لم يعد النائب العام الى القاعة ، بل وقف أنور حبيب ليستكمل مرافعته[56]

وفى أثناء نظر القضية حاول سبعة من المتهمين المودعين فى غرفة
واحدة فى سجن الأجانب الهرب فطرقوا باب السجن من الداخل ، ولما
فتحه لهم الكونستابل فؤاد محمد حسن المعين لحراستهم انقضوا عليه
وجذبوه الى داخل غرفة السجن وأغلقوا عليه الباب وانهالوا عليه ضربا
« بقلة ماء » ثم ألقوه على الأرض محاولين الاستيلاء على مسدسه
فيستعينون به على الفرار فاستغاث الكونستابل وحصر كل جهده فى
المحافظة على مسدسه حتى لايستولى المتهمون عليه، ولما جاء العسكرى
الذى يساعد الكونستابل فى حراسة هذا الدور وحاول فتح الباب لم
يستطع فاستغاث بحراس السجن الذين قاموا بانقاذ الكونستابل
واعادة الأمور الى نصابها[57] •

---

(٥٦) لطفى عثمان : المرجع السابق ص٢٠٩ — ٢١١ •

(٥٧) المتحف القضائى : قضية اغتيال أمين عثمان ص٤٨٥ وأيضا الأهرام
العدد ٢١٨٩٠ فى ١٩٤٦/٢/٢٨ تحت عنوان سبعة من المتهمين يحاولون
الهرب ويعتدون على الكونستابل الحارس •

وظلت المحكمة تعقد جلساتها عدة شهور ، وقبل أن تصدر احكامها على المتهمين استطاع حسين توفيق المتهم الأول فى القضية أن يفلت من قيوده ويفر هاربا بعد ظهر الأربعاء ٩ يونية ١٩٤٨ أى قبيل صدور الحكم عليه ، وقد أخطرت المحكمة فى جلسة ١٠ يونيو بهروب المتهم والسؤال الذى يطرح نفسه هو كيف حدث ذلك الهروب وهل كان مدبرا ومحددا له يوم ٩ يونية ١٩٤٨ أو أنه كان انتهازا لفرصة سانحة وأين ذهب حسين توفيق بعد هروبه ؟ .

لقد ملأت الشائعات والأقاويل أنحاء البلاد حول هروب حسين توفيق ، كما تعددت الروايات حول هذا الموضوع ، وقبل أن نتعرض لهذه الروايات نذكر أن ادارة السجن كانت قد وافقت على السماح لحسين توفيق بالتردد على عيادة الدكتور جورج بطرس طبيب الأذن والأنف والحنجرة بشارع ابراهيم باشا لعلاج حنجرته من آلام لحقت بها على أن يرافقه فى ذلك بعض الحراس .

وفى يوم الأربعاء التاسع من يونيو ١٩٤٨ ، وفى نحو الساعة التاسعة والثلث صباحا قصد الملازم أول كمال الدين عرفه وجنديان أحدهما مسلح الى سجن مصر ، وتسلموا حسين توفيق ليصحبوه الى العيادة ، وفى تمام الساعة الأولى بعد ظهر ذلك اليوم خرج الضابط والجنديان وحسين توفيق من عيادة الدكتور جورج وفى الساعة الخامسة تلقت وزارة الداخلية أول بلاغ عن هرب حسين توفيق .

وكانت الرواية الأولى كما ذكرها الضابط عن فرار حسين توفيق هى أنه عقب خروجه من العيادة بعث أحد الجنديين ليحضر سيارة أجرة لنقل حسين الى السجن ، وفيما هو واقف ينتظر السيارة لمح شبحا يعبر شارع ابراهيم باشا الى الافريز الآخر بين السيارات الرائحة

والغادية ، وعندما تبينه عرف أنه حسين توفيق ، ولما هم بملاحقته واعتقاله كان قد اختفى عن ناظريه •

أما الرواية الثانية فقد جاءت بعد محاولات عديدة لاقناع الضابط بأن يذكر الحقيقة ، وهى أنه عقب خروجه من العيادة مع حسين والجنديين وجد سيارة والد المتهم تنتظرهم ، فترجاه حسين بأن يسمح له بتناول الغذاء مع أسرته ، فتقبل الضابط رجاءه وركب مع السيارة وصحبهما الجنديان الى مصر الجديدة حيث منزل والد المتهم[٥٩] ، ثم جلس الضابط مع المتهم وبعض أفراد أسرته فى حجرة المكتب بينما انتظر الجنديان فى حديقة المنزل ثم مالبثت السيدة سميرة عزمى ابنة شقيقه توفيق أحمد باشا أن دعتهما الى داخل المنزل ، وكان والد المتهم غائبا عن المنزل ، وفى أثناء جلوسهم فى حجرة المكتب عرضت والدة المتهم على الضابط صور ابنها عندما كان صغيرا ، وفى تلك اللحظة دق جرس التليفون فخرجت السيدة سميرة للرد عليه ، واستأذن حسين من الضابط لكى يدخل دورة المياه فسمح له ، وعندئذ فتح حسين بابا صغيرا على أنه باب دورة المياه ومضت فترة دون أن يعود فبدأت الشكوك تنتاب الضابط فقام وفتح الباب الذى دخل فيه المتهم فوجدوه يوصل الى فرنده ، وعندئذ أحس الضابط بالخدعة ، فجن جنونه وأخذ يبحث عن المتهم فى كافة أرجاء المنزل ولكن دون جدوى فقد هرب حسين توفيق المتهم الأول فى القضية من المنزل • ونظرا لخطورة ماحدث على الضابط حاول الانتحار بأن أخرج مسدسه وصوبه نحو رأسه وصاح « ان لم تحضروا حسين فسأطلق الرصاص وانتحر » فسارعت والدة المتهم تهدىء من روعه ، واتصلت تليفونيا بزوجها تطالبه بالحضور على عجل ، فحضر توفيق باشا وأخذ فى اقناع الضابط بالعدول عن الانتحار ، واتفق معه على أن يذكر أثناء التحقيق معه أن الهرب حدث فى العيادة وليس فى المنزل ، ولما خرج الضابط ليبلغ الحادث للجهات المختصة اتصل توفيق باشا بوكيل وزارة

---

(٥٩) المتحف القضائى : قضية اغتيال أمين عثمان ص٤٧٦ •

الداخلية وأبلغه بالحادث على حقيقته[٦٠] ونتيجة لذلك أصدرت وزارة الداخلية قرارا بمنح مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه لكل من يضبط حسين توفيق ويسلمه للحكومة ، كما هددت بعقوبات رادعة على كل من يخفيه أو يساعد على اخفائه أو يتضح أنه ساعده على الهرب .

وفى أثناء التحقيق ، وبعد يومين من الحادث تلقى احسان عبد القدوس خطابا بالبريد من حسين توفيق قال له فيه « عندما تصلك رسالتى هذه أكون فى طريقى الى فلسطين لأساهم فى تطهير الأرض المقدسة من العصابات الصهيونية ، وقد يظن بعضهم أني تركت السجن فرارا من وجه العدالة ولكن ليعلم هؤلاء انى ما أقدمت على هذا العمل الا لأتمكن من مواصلة الكفاح ضد الاستعمار واذنابه فما كنت لأخشى يوما ما حكم القضاء الا اذا كانت الوطنية جريمة يعاقب عليها القانون[٦١] .

وقد اهتمت النيابة بهذا الخطاب ،وندبت بعض الخبراء لمضاهاة خطه بخط حسين توفيق فاتضح أنه كتبه بخطه فعلا وان كان المحققون قد رجحوا أنه كتبه لمجرد التضليل[٦٢] .

وعلى كل حال فقد ظل حسين توفيق مختفيا أو مسموحا له بالاختفاء حتى قبض عليه فى سوريا[٦٣] واعتبر هناك لاجئا سياسيا ليس لحكومته حق المطالبة فى تسليمه[٦٤] .

---

(٦٠) لطفى عثمان : المرجع السابق ص٢٩٨ — ٣٠٠

(٦١) روز اليوسف : العدد ١٤٤٥ فى ٢٠ فبراير ١٩٥٦ .

(٦٢) لطفى عثمان : المرجع السابق . ص٣٠١ .

(63) Donald Reid : op. cit, p. 634.

(٦٤) روز اليوسف العدد ١١١٨ فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٩ تحت عنوان « رصاصات فى تاريخ مصر » . وقد اتهم حسين توفيق بعد ذلك وهو فى دمشق بالاعتداء على الكولونيل سترلنج مراسل التايمز واحد الجواسيس الانجليز . انظر العدد ١١٢٣ من روز اليوسف بتاريخ ١٩٤٩/١٢/٢٠ كما اتهم بالاشتراك فى محاولة اغتيال الشيشكلى مساعد رئيس هيئة أركان حرب الجيش السورى .

للتفاصيل أنظر صوت الأمة العدد ١٤٤٠ فى ٥ ابريل ١٩٥١ تحت عنوان « حسين توفيق يعترف بمحاولة اغتيال الشيشكلى » .

أن هروب حسين توفيق قبل محاكمته وذهابه الى سوريا والتباطؤ فى التبليغ عن هروبه مدة تزيد عن الأربع ساعات يوضح لنا مدى التساهل مع المتهمين في قضية اغتيال أمين عثمان لدرجة أن وصل الأمر الى السماح للمنهم الأول بمغادرة السجن الى عيادة الطبيب المعالج له دون أن يضع حراسه القيد الحديدى فى يده مما يدفعنا الى التساؤل عن أسباب ذلك ؟ وهل كان للقصر الملكى دور في تمييع هذه القضية خصوصا وان أمين عثمان كان الرجل الوحيد الذي كان يعرف باحداث ٤ فبراير قبل وقوعها .

والواضح أن القصر لم ينس ماحدث له من مهانة فى ٤ فبراير وانه كان ينتهز كل فرصة لتذكير الجماهير بتواطؤ الوفد مع الانجليز وتولية الحكم على حرابهم ، ومع أن الأوراق التى بين أيدينا لاتؤكد أى دور للقصر فى تمييع القضية فاننا لا نستبعده[٦٥] .

وعلى كل حال فقد استمرت محاكمة المتهمين فى القضية برغم هروب حسين توفيق وتابعها الرأى العام، وعندما انتهت المحكمة من دراسة القضية أصدرت أحكامها فى ٢٤ يوليو ١٩٤٨ فحكم على المتهم الأول حسين توفيق أحمد غيابيا بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات ، وكانت هذه أقصى عقوبة حكم بها على أحد من المتهمين فى هذه القضية اذ حكمت المحكمة على كل من يحى مراد ومحمود الجوهرى وعمر حسين أبو على والسيد خميس بالسجن خمس سنوات كما حكمت على كل من محجوب على ومدحت حسين فخرى وسعيد توفيق ووسيم خالد ومصطفى حبيشه بثلاث سنوات مع الشغل وحبس محمود محمد كريم سنتين مع الشغل وحبس كل من محمد على خليفة ومحمد عبد الفتاح الشافعى سنة مع الشغل وحبس أحمد خيرى عباس شهرا مع الشغل وبراءة كل من اليوزباشى أنور السادات ومحمد ابراهيم كامل وسعد الدين كامل ونجيب فخرى وعباس

---

(٦٥) يؤيد هذا الرأى ويؤكده Vatikiotis فى كتابه
Nasser and his generation. New York 1978. p. 102-103.

المرشدى وعزيز دياب وأحمد خليل الحلوانى وكامل الواحى وعبد الهادى مسعود وجول أسود وأنور فائق من التهم المنسوبة اليهم[٦٦] .

وتحليلا لما سبق يتضح أن حادث اغتيال أمين عثمــان كان حادثا سياسيا قام به بعض الشبان الوطنيين ضد من اعتبروه عملاء الانجليز فى مصر ، وبمعنى آخر أن أمين عثمان ذهب ضحية معتقداته الســياسية التى أفصح عنها أكثر من مرة فى صراحة نالت سخط الكثيرين ورضــا القليلين فقد تضايق الوطنيون من انتقاد أمين عثمان للشــباب المصرى واتهامه لهم بالاستسلام لكل مايقال ، والاعتماد على زعمائهم أكثر من الاعتماد على أنفسهم واعلانه أنه لايوجد فى مصر رأى عام بالمرة وان ذلك يتسبب فى اســـتهتار الزعماء بالشعب لأنه ليس هناك رأى عام يرهبونه[٦٧] يضاف الى ذلك أن أمين عثمان اتهم المصريين بأنهم لايحترمون أنفسهم وينقصهم التعاون والغيرة على المصلحة العامة[٦٨] موضــحا بأن الانجليز يفضلون دائما الاستجابة الى الشعوب المتحدة الكلمة والتى تعــرف كيف تحملهم على احترامها ، وانهم لايحتــرمون ارادة الذين لايعرفون كيف يحترمون أنفسهم وحقوق وكرامة وطنهم[٦٩] وعن رأى أمين عثمان فى السياسيين المصريين قال « نحن فقراء فى السياسيين » ويجب أن نحرص على أن نحشد لخدمة مصر كل ســياسى مهما اختلفت نزعته الحزبية[٧٠] .

---

(٦٦) المتحف القضائى : قضية أمين عثمان ص٤٩٠

وأيضا : لطفى عثمان : المرجع السابق ص٣١٨ — ٣١٩ .

(٦٧) آخر ساعة المصورة : العدد ٥٤٤ فى ١١ مارس ١٩٤٥ تحــت عنوان « مصر لا تعجب أمين عثمان » .

(٦٨) المصور : العدد ١١٠٨ فى ٤ يناير ١٩٤٦ تصريح لأمين عثمـــان تحت عنوان « لسنا أقل من الانجليز » .

(٦٩) آخر ساعة المصورة : العدد ٥٥٢ فى ٦ مايو ١٩٤٥ تحت عنوان « أمين عثمان يقول » .

(٧٠) آخر ســاعة المصورة : العدد ٥٥٥ فى ٢٧ مايو ١٩٤٥ .

وقد وطد أمين عثمان علاقته بالانجليز وساند بقاءهم فى مصر لدرجة أنه قبيل اغتياله بساعات كان فى ضيافة اللورد كيلرن المندوب السامى البريطانى[٧١] .

وعلى كل حال ورغم المآخذ التى أخذها الوطنيون على أمين عثمان فليس هناك شك فى أنه كان سياسيا له دور فى صفوف السياسة المصرية ، وانه كان يقوم بدور « الفرملة » لرأب الصـــدع الذى كان يظهـــر بين الانجليز والوفد فى بعض الأحيان ، وانه كان مثالا للشـــباب الذكى النشيط الذى استطاع أن يصـــعد السلم قفزا الى آخر درجـــاته ، لقد اتهمه البعض بالمروق والخيانـــة ، وذكـــره البعض الآخر بأنه كان كارها للوطنية الرخيصة التى تقوم على التغرير بالمواطنين ودفعهم فى النهاية الى طريق الفشـــل[٧٢] .

والواضح أن سياسة أمين عثمان لم تؤسس على المغالاة فى المطالب والأطماع الوطنية بل كان سياسيا معتدلا له خطته وأسلوبه فى السياسة وكان شجاعا فى ابرازهما والعمل على تحقيق منطقه ، فقد حاول التوفيق بين حقوق مصر فى الاستقلال ومركز انجلترا فى الشرق الأوســـط ، مما أوقعه فى خلاف سياسى مع كثير من الزعماء السياسيين فى عصره ، لذلك اتهمه البعض بالخيانة .

لقد أدت سياسة أمين عثمان الى التوفيق بين الســـاسة المصريين والانجليز ، ونتج عنها نجاح عقد معاهدة ١٩٣٦ بعد تكرار فشـــلها عدة مرات وكانت هذه المعاهدة هى أقصى ماكانت تسمح به انجلترا للمصريين فى ذلك الوقت ، ولكنها لم تكن المعبرة عن آمال الشعب المصرى آنذاك .

---

(٧١) أنور السادات : البحث عن الذات ص٧٢ .

(٧٢) المصرى : العدد ٣١٢١ فى ١٦ يناير ١٩٤٦ تحت عنوان « قتـــلة الديمقراطية » .

ان الاختلاف فى الرأى أمر حيوى وجوهرى ، وحرية التعبير ظاهرة صحية تتيح لجميع الجوانب أن تعيد حساباتها ومواقفها بما قد يفيد الوطن وقضـــاياه ٠

وفى رأينا أن سفك الدماء فى حد ذاته أمر بغيض وحل المشـــكلات القومية لايأتى عن طريق تصفية المعارضين بسفك دمائهم كما حدث لأمين عثمان بل يأتى عن طريق المحاورة والمناقشات التحليلية الناقدة ، وتوضيح وجهات النظر ، لأن الاغتيال يولد فى المجتمع جو من الارهاب ، ويساعد على قتل حرية الرأى ومصادرتها وتكميم الأفواه ، كما أنه ليس لغـــة الشعوب المتحضرة بينما حرية الرأى والمناقشـــــات الموضوعية البناءة ، وعرض وجهات النظر المختلفة تدعم الاطمئنان بين كافة المواطنين وقديما قالوا الاختلاف فى الرأى لايفسد للود قضية ٠

وعلى كل حال فقد ذهب أمين عثمان ضحية معتقداته والشـــائعات المروجة ضده من خصومه قبل أن تســـنح له فرصة الاتصال بالجمـــاهير لتوضيح أفكاره ووجهات نظره ٠

الملاحـــق

ملحق رقم (١)

قضـــية أمين عثمـــان[١]

كان يبلغ من العمر ٤٧ عاما عند مقتله

تقلد عدة وظائف هامة فى الدولة كان آخرها وكيلا للمالية فرئيسا لديوان المحاســـبة فوزيرا للمالية فى وزارة النحاس باشا ١٩٤٣ وكان عضوا فى مجلس الشـــيوخ ٠

---

(١) دار الوثائق القومية ـــ الداخلية ٠ تقارير أمن ١٩٤٦/١/٦ ٠

وهو أحد المصريين القلائل تعلموا فى اكسفورد ثم عادو ليقفوا حياتهم على خدمة بلادهم ، ويتضح من سيرته سواء فى ميدان السياسة أو فى ميدان التعليم أنه أظهر نبوغا ومقدرة دبلوماسية فائقة فى أمور المفاوضات اذ كان فى سنة ١٩٣٦ سكرتيرا عاما للوفد المصرى الذى وقع المعاهدة ودعاه النحاس باشا ليتولى منصب وزير المالية فى الحكــومة الوفدية ٤٢ ــ ١٩٤٤ وظل فى هذا المنصب الى أن أقيلت الوزارة •

وقد نعى (النحاس باشا) الى المصريين رجلا من أكرم رجال مصر برا ببلاده ووطنه رجلا وهب نفسه للقضية المصرية فكان من خيرة العاملين لتحقيق استقلالها ــ كرس الشطر الأخير من حياته للعمل لقضية بلاده وساهم بقسط كبير فى اتمام معاهدة التحالف والصداقة والتقريب بين مصر وبريطانيا وخر فى ميدان الجهاد •

الشـــــهود :

عبد العزيز الشافعى • موظف بوزارة المواصلات •

أدلى بأقواله وهو أنه أحد أعضاء رابطة النهضة وكان يتردد على النادى كثيرا ، وقد رأى منذ ثلاثة أيام سابقة على يوم الحادث شابين يحومان حول باب العمارة وينتظران من مدة طويلة ، وذكر انه يعرف أحدهما لأنه نجل أحد كبار الموظفين فى وزارة المواصــلات ، وكان هذا الشاب يختلف الى الوزارة كثيرا وأمر النائب العام البكباشى محمد امام بالذهاب الى دار الموظف الكبير ثم فتشوها بدقة ، ووجدوا مسدسين فى مكتب شقيقه سعد توفيق من نفس عيار وماركة المسدسين الذين ضبطا بعد الجــريمة فى الطريق فألقى القبض على الأخوين ، وعرض المتهم على الشــاهد عبد العزيز الشافعى بين خمسة عشر شخصا فعرفه ضابط من ســلاح الطيران ، وقد ذكر هذا الضابط أنه شاهد هذا الجانى يفر من جانبه وهو يطلق الرصاص ، وقال انه تتبعه حتى قذف بالقنبلة ثم اختفى ، ولما عرض عليه المتهم بين آخرين تعرف عليه وأخرجه من بينهم •

سائق سـيارة النائب العام أحمد صبرى :

أدلى بأقواله منها أنه رأى القاتل أثناء فراره حينما كان جالسـا فى السيارة فى انتظار مخدومه ، وانه اذا ووجه به يتعرف عليه وأجريت عملية العرض واخرج المتهم بسـهولة •

وبعد يومين من التحقيق حضر رجل قال انه تردد كثيرا على قهوة نوبار ، وفى أثناء الحادث كان قادما من الجهة المقابلة للقهوة فىفنـدق الكونتننتال ،ولما انتقل الى الافريز الواقع فى منتصف الشارع المجاور لموقف السيارات شاهد الجانى ، وهو يعدو ورآه بكل وضوح ورأى أحد الكونستبلات وهو يلاحقه ، وعندما أطلق الجانى النار اختفى الكونستابل بين السيارات خوفا على حياته واحضر المتهم بين آخرين وتعرف عليه •

تقـرير الطبيب الشرعى :

أصيب الفقيد برصاصتين فى الرئة اليسرى وثالثة فى البطن ولوحظ أن الرصاص الذى أطلقه الجانى فى الحادث من نوع الرصاص الذى استعمل فى اطلاق الرصاص على الجندى البريطانى ميلر فى الجزيرة ، وعلى الجندى كنج فى مصر الجديدة ، وعلى بعض الضباط البريطـانيين فى المعادى ، وأن القنبلة التى انفجرت فى شارع القصر العينى وأصابت سيارة رفعت النحاس باشا •• فرجح المحققون أن هناك ارتباطـا بين هـذه الحوادث •

ومعلوم أن العيسوى قاتل أحمد ماهر باشـا قال ان عشرين من الأعوان سوف ينتقمون من أقطاب مصر ، فأخذ فى مراجعة أقواله من المحاضر الرسمية وخصوصا بعد ماثبت أن نوع السلاح واحد والقنـابل واحـدة •

اعتراف المتهم حسـين توفيق :

نحن جمعية تدعى الجمعية الوطنية ذات شعب كل منها لا تعـرف الأخرى ، وقد نقلنا نظام جمعيتنا من بعض كتب موضوعة عن نظـام

الجمعيات السرية الروسية والأيرلندية ، وعدد الأعضاء حوالى الخمسين.

وسأله النائب العام عن هذه الكتب قال انها كتب قديمة ومـزقت ثم تحدث عن أغراض الجمعية فقال انها ترمى الى قتل كل الزعماء الذين يتصلون بالانجليز ، وان زعماء الوقت الحاضر جميعهم يتصلون بالانجليز لتولى الوزارات والحكم ، وقد وقع الاختيار على قتل النحاس باشـا لأنه فى اعتقادنا جلب على البلد العار لقبوله التعاون مع الانجليز وبتوليه الحكم فى ٤ فبراير وكذلك أمين عثمان باشا ومكرم عبيد باشا اشـتراكا فى مأساة ذلك اليوم ، ووضعنا الخطط اللازمة لقتله وذهبت عدة مرات الى الأماكن التى أعرف أنه يتردد عليها فلم أتمكن منه ، ولما قرأت أنه سـيذهب الى النادى السعدى فى رأس السنة الهجرية ذهبت الى شارع القصر العينى ووقفت فى أجزاخانة فيكتوريا ، ولكنى وجدت أن البوليس ينتشر فى هذا المكان وخشيت ان اعتديت على النحاس من هذا المكان أن أصيب كثيرا من رجال البوليس بدون ذنب وعلى ذلك قررت أن انتقـل الى أول شارع رستم باشا فى انتظار سيارة النحاس باشا ، وصرت انتقل من رصيف الى آخر مدة طويلة ، ورأيت سيارة قادمة ولكنها لم تكن سيارة النحاس باشا التى أعرفها فلم أهتم بها ولكنى سمعت بعد مرور تلك السيارة هتافا وتصفيقا فأيقنت أنها سيارة النحاس باشـا ولما انحدرت السيارة الى شارع القصر العينى قذفت القنبلة الا أن سيارة الباشا كانت قد أسرعت تفاديا من سـيارة كانت قادمة من جهة القصر العينى تتبعها سيارة الفتيات اللاتى اصبن بشظايا القنبلة ، وكان بجوارى فى أثناء القاء القنبلة أزهـرى رآنى وقد رفعت يدى فظن أنى أهتف للنحاس وفعلا هتفت لكى أسلم من ظنونه واندمجت مع المزدحمين حول النحاس وكنت أفكر فى رميه بالرصاص من قرب ، ولكن الزحـام كان شـديد فلم أشأ أن أصيب غيره واجلت القتل الى يوم آخر .

محاولة ثانية لاغتيال النحاس :

وأخذنا بعد ذلك نتردد على النادى السعدى لوضع الخطط اللازمة لاغتياله وفكرنا فى نسف النادى ثم عدلنا عنه لاحتمال قتل أبرياء ، وقد حاولنا مرة أخرى الاعتداء على النحاس عندما قرأت فى الجرائد أن الشيوخ الوفديين سيحتفلون بنجاته يوم ٢٧ ديسمبر باحدى فنادق القاهرة الكبرى ورجحنا أن هذا الفندق هو الكونتنتال فأعددنا العدة وذهبنا الى هذا الفندق مثلا وانتظرنا هناك ولكن أحدا لم يحضر فذهبنا الى فندق شبرد ثم الى فنادق أخرى فلم نجد شيئا • وعلمنا بعد ذلك أن الحفلة قد تأجلت ، وراقبنا النحاس كثيرا بعد ذلك الا أنه لم يخرج كعادته ففكرت أن أقتل أمين عثمان فيخرج النحاس للاشتراك فى تشييع جنازته وفى أثنائها اقتله •

ولما نفذت الشطر الأول من مهمتى بقتل أمين عثمان لم أتمكن من تنفيذ الشطر الثانى لأن النيابة قبضت على ، ولو كان أعضاء الجمعية قد علموا بنبأ القبض على لنفذوا هم قتل النحاس فى الجنازة •

ولما سأل النائب العام المتهم عن شركائه اعتذر عن الافصاح بشىء وقال انه لايملك ذلك وانهم على العموم لايعرفون بعضهم بعضا كمجموعة وانما كل شعبة تعرف أعضاءها فقط وليس للشعبة عدد معين فهى تتراوح بين ثلاثة وسبعة أعضاء ، وقد قدم محاميه • رشدى عريضة الى النائب العام يذكر فيها أن البوليس السياسى ارهق أعصابه بابلاغه بأن والدته مريضة وانه من صالحه وصالح والده الاعتراف ، ولما اطلع المتهم على هذه العريضة كتب عليها بخط يده أنه اعترف بمحض ارادته وليس لأحد تأثير عليه وانه باعترافه هذا يعتمد على عطف الرأى العام عليه وعلى زملائه •

واعترف المتهم على العضو محمود يحى مراد نجل الأستاذ على مراد الذى سيأتى ذكره فى نهاية هذا التحقيق وكان اعترافه بخط يده فقال

[illegible] محمود يحيى ابن خالته كان معه فى حادث [illegible] عثمان وعلى هذا الاعتراف ذهب رجال البوليس والنيابة الى منزل محمود يحيى [illegible] وقبضوا عليه وفتشوا منزله فوجدوا عنده بندقية من طراز تومي [illegible] جزء منها فى حديقة منزله والجزء الآخر مخبأ فى جمالون المنزل .

اعتراف الزيك : بعد مدة اعترف محمود يحى أنه كان يحمل مسدسا وان مهمته كانت مساعدة حسين توفيق على الهرب [illegible] الرصاص ولم يعرف شيئا آخر ، وبقى مدة على هذه الحال ولم يشأ أن يعترف على آخـرين .

واعترف حسين توفيق بعد ذلك على آخرين منهم محمد على خليفة ومحمود كريم وسيد عبد العزيز خميس ومحمد عبد الفتاح الشافعى ومحمد ابراهيم كامل وسعد الدين كامل المحامي ابن اخت الأستاذ فتحى رضوان وعمر حسن أبو على و[illegible] وحسن عـزت [illegible] والذين كانا معتقلين فى أثناء الحرب مع عزيز المصرى [illegible] وقد قبضت النيابة عليهم أنكروا جميعهم فى بادىء الأمر ثم عاد بعضهم واعترف وهم محمود على خليفة ومحمود كريم وسيد عبد العزيز خميس ومحمد عبد الفتاح الشافعي وعمر حسن أبو عـلي وبعد مدة اعترف حسين توفيق على آخرين وهم محمود الجوهرى ومدحت [illegible] أحمد [illegible] ابراهيم ، وقد أيد اعترافه بعض المقبوض عليهم [illegible] بعضهم [illegible] التحقيق على أن الجمعية تكونت فى البداية لاغتيال [illegible] البريطانية ثم اتجهت الى اغتيال الزعماء الذين يتعاونون مع الانجليز .

[illegible] وقد اعترف مصطفى كمال بأنهم كانوا يسرقون السيارات لاستعمالها فى الاعتداء على الانجليز ثم يتركوها فى الطريق ، ثم اعترف على المكان المودع فيه السلاح وارشد عنه وهو في أحد فجوات جبل المقطم ، وقد عثر فيه على ١٢ قنبلة يدويه ، ٦ [illegible] ٦٠٠ [illegible] وقد اعترف

حسين توفيق بأن اليوزباشى المتوفى المعـمـلادات أحضر له بعض القنابل اليدوية من ضابط طيار بالجيش المصرى يدعى طلعت بن عبد الوهاب بن طلعت باشا وعند سؤال المدعو طلعت أنكر .

ملحق رقم (٢)

مذكرة مرفوعة الى مجلس الوزراء بشأن اغتيال أمين عثمان والصرف معاش لأسرته[1]

وزارة المـالية

رقم ١٠/٩٣٦/١ ماليـة

مذكرة مرفوعة الى مجلس الوزراء

توفى المغفور له أمين عثمان باشـــا فى ٦ يناير ١٩٤٦ على أثر الاعتداء الذى وقع عليه فى اليوم نفســه ، وكان رحمه الله وزيرا للمالية لغاية ٨ أكتوبر ١٩٤٤ وشغل قبل ذلك منصب رئيس ديوان المحاسبة ومناصب أخرى كبيرة فى الدولة .

وكان يستولى ابتداء من ٩ أكتوبر ١٩٤٤ عن مدة خدمته البالغة ٢٩ يوم ٤ أشهر ٢٠ سنة على معاش شهرى قدره ٧٢١ مليما ٨٤ جنيه يؤول منه لأرملته اللادى كاتلين جريجورى حلوانى ٧٧٠ مليم ٣١ جنيه فى الشهر وهو قيمة ثلاثة أثمان معاش زوجها أما كريمته السيدة عائشة عثمان فلا تستحق عن الفقيد معاشا لأنها تزوجت فى حياة والدها ولو كانت غير متزوجة فكان يبلغ نصيبها فى المعاش ١٨٠ مليم ، ٢١ جنيه أى ربعه . كما لايستحق فى معاشـــه شقيقتاه السيدتان منيرة هانم

---

(١) دار المحفوظات . ملف خدمة وربط معاش أمين باشا عثمان مسلسل ٥٤٣٥٦ دولاب ١٠٠ رف ٣ محفظة ٥٢١٠ .

وزينب هانم طبقا لقانون المعاشات رقم ٣٧ لسنة ١٩٢٩ الذى كان المورث معاملا به • وعلى ذلك فجزء المعاش الذى يؤول للخزانة يبلغ ٩٥١ مليم ، ٥٢ جنيه شهريا ونظرا لما أداه الفقيد من الخدمات الجليلة للدولة وبرا بأرملته من بعده ترى اللجنة المالية منحها معاشا شهريا قدره ٤٢ جنيه وهو نصف المعاش الذى كان يتقاضاه الفقيد وذلك من تاريخ وفاته •

وتتشرف اللجنة برفع رأيها الى مجلس الوزراء للتفضل باقــراره

السكرتير	الرئيس
امضاء	امضاء

فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٦

نمرة ١٥٠ ــ ٣٤ / ٥٣٦

الى وزارة المالية

وافق مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة فى ١٢ مارس ١٩٤٦ عــلى رأى اللجنة المالية المبين فى هذه المذكرة • على أن يكون المعاش الاستثنائى ٥٠ جنيه شهريا •

رئيس مجلس الوزراء

اسماعيل صدقى

ملحق رقم (٣)

Background of Selected Assassins and Fellow Conspirators

Year of Attempt & Name of Victim	Name of Accused	Age	Family Background	Education	Occupation	Political Affiliation
1910 Stack	Ibrahim Nasif al-Wardani	23	Son of deceased Govt. Offic.; uncle & guardian a pasha	St. Pharm. in Lausanne, Paris, Lon.	Pharmacist	Watani
1912 Abbas II	M. Tahir al-^{c}Arabi	18		Secondary	Student	Watani
Kitchener,	M. Imam Wahid	24		Expelled f. 2ndary school	Ex-student	Watani
M. Sa^{c}id	M. ^{c}Abd al-Salam	24			Journalist	Watani
1914 Abbas II	Mahmud Mazhar	18 or 22	Son of Nat. Courts Judge (a Pasha)	Naval Acad. Istanbul	Student	Watani
1915 Sultan Husayn Kamil	M. Khalil	ca.			Tradesman	
	M. Najib Hilbawi	27		Law School	Student	Watani
	M. Shams al-Din			Sch. of Commerce (higher)	Student	
1915 Ibrahim Fathi	Salih ^{c}Abd al-Latif Badawi	35			Min. Finance employee	
1919 M. Sa^{c}id	Sayyid ^{c}Ali Muhammad	17		al-Azhar	Student & Govt. clerk	
1919 Y. Wahba	^{c}Iryan Yusuf Sa^{c}d	ca. 20	Coptic; son of a bey	Sch. of Medicine	Student	Wafdist
1920 T. Nasim	Ibrahim Hasan Mas^{c}ud	ca. 20	3 yrs old when father died	Sch. of Law	Student	
1924 Zaghlul	^{c}Abd al-Latif ^{c}Abd al-Khaliq	22	Medical School, Germany	Student		
1924 Stack	^{c}Abd al-Hamid ^{c}Anayat	19	Son of govt. engineer	Higher Teach. School	Student	
	^{c}Abd al-Fattah ^{c}Anayat	22	Son of govt. engineer	Law School	Student	
	Ibrahim Musa	31			Laborer, RR	
	Mahmud Rashid	33		Vocat. School	Asst. Engin., Roads	
	^{c}Ali Ibr. Muh.	22			Laborer, RR	
	Raghib Hasan	23			Laborer, Teleg.	
	Shafiq Mansur	37	Son of law clerk	Law School, scribe	Lawyer Cairo & Paris	Wafdist, ex-Watanist
	Mahmud Isma^{c}il	28		Primary grad.	Clerk, Awqaf	
1937 Nahhas	^{c}Izz al-Din ^{c}Abd al-Qadir	ca. 20	Grandson of ^{c}Urabi Pasha		typist, Min. of Agric.	Young Egypt
1945 Mahir	Mahmud ^{c}Issawi	26	Son of tailor; divorced from Mahmud's mother	Law School	Lawyer	Watani
1946 ^{c}Uthman	Husayn Tawfiq	20	Son of ex-undersec. of Min Commun. (a Pasha)	2ndary	Student	
1948 Khazindar	Hasan ^{c}Abd al-Hafiz	24		Failed out of 2ndary		Muslim Brother
	Mahmud Sa^{c}id Zaynhum	22		Industrial School	Student	Muslim Brother
1948 Nuqrashi	^{c}Abd al-Hamid Ahmad Hasan	22 or 23	Son of deceased Min. Interior	Expelled f. Vet. School for pol. reasons		Muslim Brother
1954 Nasser	Mahmud ^{c}Abd al-Latif	35			Tinsmith	Muslim Brother

Donald Reid : «Political Assassination in Egypt». International Journal of African Historical studies 1982, p. 650.

ملحق رقم (٤)

Social Background of the Defendants in the Amin ᶜUthman Case*.

Age	16-19	20-24	27				Total
Number	12	12	2				26
Education or Occupation	Secondary Student	University Student	Lawyer	Teacher	Misc.		
Number	9	10	2	2	3		26
Father's Rank or Occupation	Pasha & Undersec. of min.	Bey	Other govt. employee	School Principal	Journal-ist	Unknown	
Number	2	5	2	1	1	15	26

Donald Reid : «Political Assassination in Egypt». International Journal of African Historical studies 1982. p. 651.

المصادر والمراجع

أولا : وثائق غير منشورة :

(أ) دار المحفوظات العمومية

ملف خدمة وربط معاش أمين باشا عثمان ، دولاب ١٠٠ ، محفظة ٥٢١٠ ، رف ٣ مسلسل ٥٤٣٥٦ .

(ب) دار الوثائق القومية :

محافظة الداخلية . تقارير أمن — قضية أمين عثمان ١٩٤٦/١/٦ .

(جـ) المتحف القضائى : قضية اغتيال أمين عثمان . جنايات عابدين ١٩٤٦ رقم ١١٣٩ . تم الاطلاع على النسخة المصورة منها بمركز تاريخ مصر المعاصر عن طريق الدكتور يواقيم رزق

ثانيا : وثائق منشورة :

مضابط مجلس النواب . مضبطة الجلسة الخامسة عشرة فى ١٦ أبريل ١٩٤٥ .

ثالثا : المراجع

(أ) العربية :

١ — أنور السادات : البحث عن الذات . القاهرة ، المكتب المصرى الحديث ١٩٧٨ .

٢ — رابح لطفى جمعه : محمد لطفى جمعه . القاهرة — الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ .

٣ — لطفى عثمان : المحاكمة الكبرى فى قضية الاغتيالات السياسية القاهرة ١٩٤٨ .

(ب) الأجنبيـــة :

P. J. Vatikiotis :

Nasser and his generation. New york 1978.

رابعـــا : الدوريات

(أ) العـــربية :

١ ـــ آخر ســـاعة المصورة فبراير ومارس ومايو ١٩٤٥

٢ ـــ الأهـــرام : يناير وفبراير ١٩٤٦

٣ ـــ الدستور : يناير ومارس ١٩٤٦ •

٤ ـــ روز اليوسف : نوفمبر وديســـمبر ١٩٤٩ ، ويناير وفبراير ١٩٥٦ •

٥ ـــ صوت الأمة : أبريل ١٩٥١ •

٦ ـــ المصور : يناير ومارس ١٩٤٦ •

٧ ـــ المصرى : يناير ١٩٤٦ •

(ب) الأجنبيـــة :

International Journal of African Historical studies 15,4 (1982).

(ب) الأجنبية :

P. J. Vatikiotis :

Nasser and his generation. New york 1972.

ثانيا : الدوريات

(أ) العربية :

١ — آخر ساعة المصرية بتاريخ ٥ مارس ١٩٥٠

٢ — الأهرام : يناير فبراير ١٩٥٦

٣ — المصري : يناير مارس ١٩٥٦

٤ — روز اليوسف : نوفمبر ديسمبر ١٩٥٤ . يناير فبراير ١٩٥٦

٥ — صوت الأمة : أبريل ١٩٥١

٦ — المصري : يناير مارس ١٩٥٦

٧ — الفجر : يناير ١٩٥٦

(ب) الأجنبية :

International Journal of African Historical studies 15,4 (1982).

عرض الكتب

فهرس الكتب

عرض الكتب : (١)

ريح الشرق : للدكتور أنور عبد الملك

عرض د. أحمد زكريا الشــلق

الكتاب نشرته دار المستقبل العربي بالقاهرة عام ١٩٨٣ ، ويقع في ٣٦٢ صفحة ويضم مقدمة للاستاذ فتحي رضوان ، ثم تمهيد وثمانية عشر فصلا هى عبارة عن دراسات منفصلة وحصيلة مناقشات وحلقات بحث ، نشرها المؤلف من عام ١٩٧٣ حتى ١٩٨٣ فى دوريات عربية وعالمية ، تجمع بينها وحدة موضوعية اهتم بها المؤلف وشكلت همومه ومعاناته منذ زمن طويل .. والمؤلف هو الأستاذ الدكتور أنور عبد الملك ، الكاتب والمفكـر المصرى العربى المعروف ، والذي أضاف للمكتبة العربية دراسات قيمــة هامة على رأسها : الجيش والحركة الوطنية ، الفكر العربى في معــركة النهضة ، ثم نهضة مصر .. الخ وقد أهدي المؤلف كتابه الي روح الشهيد البطل أحمد عبيد ، من قادة الثورة المصرية (١٨٨٢) وبطل من أبطــال معــركة التل الكبير .

والمجــال الموضــوعى للدراسات يتناول التراث الحضارى للشرق والممتد زمانا على مدى القرون ، والممتد مكانا من أقصى الشرق ، من اليابان حتى الدار البيضاء ، حيث يوجد رباط مشترك بين شعوب المنطقة ، وحيث يوجد العرب فى قلب حركة ينبغى أن تعيد للشرق مكانه ومكانته فى القيادة والتجــديد والبنــاء .. ولتهب من جديد ريح الشرق فى حركات تحــرير وثورات وعمليات تغيير ايجابية .. برغم الصدامات المتكررة مع الهيمنة الغــربية والتسلط الاستعمارى الصهيونى .

وفى التمهيد يتناول المؤلف ما أسماه بمفاتيح المبـادرة التاريخية والتى ظلت بين أيدى الغرب المهيمن ، منذ مرحلة التغيير — وهى مرحلة ١٩٤٩ حين انتصرت ثورة الصين — وحتى عام ١٩٧٣ ، مرحـلة حرب أكتوبر وتفجير سلاح النفط •• حين بدأت فى رأيه ، تنتقل تدريجيا مفاتيح المبادرة الى شعوب الشرق ، خلال حركات التحرر الوطنى وحـروب التحرير والثورات الوطنيةوا لاجتماعية التى تبلورت منذ مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ ، واستمرت تواجه من الاستعمار والصهيونية ضد تحـرك شعوب الشرق ودولها وقادتها • ويرى المؤلف انه انطلاقا من خصوصيتنا المصرية ، العربية ، الشرقية يكون الاطار التاريخى والفكرى والوجدانى لهـذه الدراسات ••

— وفى الفصل الأول وعنوانه « من أجل استراتيجية حضارية » يتتبع المؤلف محاولات الاستعمار والامبريالية تركيز هجومها على العرب لتفتيت شخصيتهم القومية ، لاقتلاع جذور المقاومة الحضارية للموجات الاستعمارية المنظمة ضدهم تاريخيا ، ومحاولة ضرب المحاولة الثانيـة للنهضة فى العالم العربى (المحاولة الأولى ١٨٠٥ — ١٨٨٢) وقد وضع المؤلف هذه المرحلة من الصراع فى اطـارها ضمن سلسلة الصراعـات التاريخية الممتدة منذ عشرة قرون ، وينبه الى أن الخروج من الأزمـة يقتضى ترسيخ الطلائع والقيادات السياسية فى الأرض التى تحيا عليها شعوب العالم بدراسة الواقع الخاص لكل قطر للتوصل الى خصوصيته، ثم دراسة ميزان القوى المتغير فى العالم ، ذلك أنه لم تعـد هنـاك دائرتان فقط للحضارة — هى الحضارة الغربية والحضارة الشرقية — فقد ظهرت حضارة الشرق الاشتراكى ومركزها الصين •

— أما الفصل الثانى فقد تعرض لمسألة فائض القيمة التاريخى مع

تتبع لجذور العنف والتسلح ، وتواجدها داخل التركيب التاريخى للنظام الدولى ، أى فى التكوين التاريخى للهيمنة الغربية المتجذرة فى فائض القيمة التاريخى ابتداء من القرن الخامس عشر ، حيث صعد الغرب الى مركز الهيمنة ، وحتى اجتماع يالتا عام ١٩٤٥ ، حين قضت أوربا على مراكز القوة فى الشرق ، فلم يعد فائض القيمة التاريخى محصورا ضمن مجال الاقتصاد فحسب وانما أتاح ذلك للبورجوازيات الغربية الوسيلة لضمان هيمنتها على العالم ، وبفضله أمكن للثورة العلمية الصناعية أن تحدث ، وحيث تم التدرج من الأشكال المبكرة للاستعمار الى الامبريالية الكلاسيكية ، الى الشكل الأوقع من الامبريالية فى عصرنا أى امبريالية الهيمنة .

ـ وفى الفصل الثالث يتناول المؤلف الغرب فى مهب الوفاق الدولى من خلال نظرة جيوسياسية ، ويتعرض المؤلف خلاله لفهم النهضة العربية ، بدراسة التكوين التاريخى للدول القديمة فى نطاق العالم العربى ، ومنطقة الثقافة ـ القديمة للعروبة ، فى الاطار الأشمل الحضارة الإسلامية ، وفى نطاق تشكيلها الاجتماعى ، ثم فى الاطار الجيوبوليتكى .

ـ أما الفصلان الرابع والخامس فيتناولان حرب أكتوبر من حيث مغزاها الحضارى ومن حيث توحيدها للعرب ، وبالنسبة للنقطة الأولى فقد حاول المؤلف التركيز على شخصية مصر الحضارية وتحرك أكتوبر مع ربط ذلك باطار حركة النهضة العربية بمفهومها الشامل منذ القرن التاسع عشر ، مع معالجة فكرة كيف أن تحرك أكتوبر قد تم فى اطار عالم متغير من حيث تشكيل موازين القوى وعلاقاتها والتى بلغت مرحلة الوفاق قبل اندلاع الحرب بعام ، وما حملته ذلك من تطور خطير ، ثم يركز المؤلف على فكرة أن نهضة مصر المعاصرة جزء لا يتجزأ من النهضة العربية

الشاملة ، وان كانت متميزة وموازية لتلك النهضة التى لايمكن فصلها عن نهضة مصر •• وقد أشار المؤلف الى أن حرب أكتوبر لم تنته بعد ، ذلك اننا نعيش آثارها ، كما أنها جاءت عنوانا قويا لنهضة العالم العربى ، وهى النهضة التى تكون أحد قطبى نهضة الشرق فى عصرنا ، جنبا الى جنب مع نهضة آسيا ومحورها الصين الشعبية •

ــ أما الفصل السادس فيتناول ثلاث رسائل حول الاستعمار الصهيونى ، وفيه يفند المؤلف ثلاث مسلمات اعتاد الباحثون التسليم بها : أولها أن أساس أزمة الحرب والسلام فى الشرق العربى هو قضية فلسطين ، ويرد المؤلف على ذلك بأن الواقع والتاريخ لايؤكدان ذلك ، فقضية فلسطين آخر الحلقات وأخطرها ، فالصراع بين دول الشرق وحضاراته من ناحية والغزاة الآتين من الشمال قديم ، منذ خمسين قرنا • والمسلمة الثانية أن الصهيونية ليست الا عميلة وطليعة للاستعمار الأمريكى ، والواقع أنها ليست الا آخر وأخطر حلقة فى سلسلة مستمرة من العدوان الغربى ضد الشرق العربى ، والصهيونية ليست الا الوجه المعاصر للاستعمار الغربى ضد العرب عبر التاريخ ، وأن الاستعمار العنصرى الصهيونى استعمار عالمى قائم بذاته وليس أداة للاستعمار الأمريكى • والمسلمة الثالثة هى أن حلفاء الأمة العربية يتمثلون فى تكوينات اليسار فى الغرب وخاصة المثقفين ، ويرى أن الحليف الطبيعى يتمثل فى مجموعة الدول الاشتراكية وعلى رأسها روسيا والصين ، الدول وليس الحركة العمالية العالمية ، ويتهم المؤلف قادة الفكر اليسارى فى الغرب بالعمل بشكل دائم لعزل المثقفين العرب عن طرح قضايا الثورة الاشتراكية طرحا قوميا وطنيا وحدويا ، ويضعفون الجبهات الوطنية الممتدة داخل الأمة العربية باسم « قدسية » الصراع الطبقى و « أولوية » التضامن بين اليسار فى كل مكان •

ـــ وفى الفصلين السابع والثامن وعنوانهما « الاسلام السياسى ، والاسلام والعروبة » فيتناول المؤلف فيهما فكرة ظهور الاسلام السياسى فى العصر الحالى كقوة ديناميكية عميقة الجذور ، وكقوة تغيير وتطوير من الجماهير الشعبية ، وتطابق ذلك مع المناطق التى تنمو فيها التناقضات بين مختلف المعسكرات الاقتصادية والاجتماعية والأيديولوجية ، وفى مناطق الصراع بين الشرق والغرب ، حيث تكون مقدرات الحرب والسلام ، فى نواة الاسلام السياسى ، ثم ينتقل الى معالجة موضوع الاسلام فى الفكر الوطنى التقدمى ، موضحا كيف أن الاسلام نظرية اجتماعية للصيغة الوطنية والتطور الاجتماعى ... أما بالنسبة للاسلام ، والعروبة فيعتقد المؤلف أنه لا تناقض بين الولاء للوطن والانتماء للأمة العربية ، وأنه لا تناقض مع الشعور بالانتماء الى الدائرة الأوسع وهى الاسلام .

ـــ وفى الفصلين التاسع والعاشر يقدم المؤلف تحليلا لفكرة تكوين الجبهة الوطنية بوصفها استراتيجية تاريخية مستمرة فى الشرق كنمط للاستمرارية الاجتماعية والاندماج السياسى ، ثم مسألة العالمية ومفهوم علمية ادماج العالم ، ثم تركيب هذه الجبهة الوطنية الممتدة ، والتحديات الحضارة والتاريخية التى تواجهها ، منتقلا الى دراسة الارتباط بين الاستراتيجية التاريخية والاستراتيجية الحضارية ، ليجيب على السؤال : هل هى مسألة تنمية أم نهضة حضارية ؟ من خلال استعراضه للصياغة التاريخية لتخلف المجتمعات العربية وعلاقة ذلك بأنماط التنمية الغربية .

ـــ ثم يتعرض المؤلف خلال الفصل التالى لدراسة وتحليل قضية « احتجاب مصر » بعد أكتوبر ١٩٧٣ ، موضحا مغزى الهجمة الحضارية الاستراتيجية للامبريالية والصهيونية ، التى تستهدف تفكيك الوحدة المقدسة ، منبها الى خطورة احتجاب مصر وحرمان الأمة العربية من مركز قوتها الفعالة ووحدتها .

وفى الفصل التالى يتناول المؤلف موضوعا هاما يتعلق بالخرافة والواقعة التاريخية ويحاول الاجابة عن التساؤلات المتعلقة بالتراث ، ماذا نأخذ منه وماذا نترك ؟ وما هو مفهوم التوفيق بين التراث والمعاصرة ، لكل ذلك فى ضوء الخصوصية الوطنية الثقافية للمجتمعات العربية فى اطار الأمة العربية ، وفى اطار الحضارة الشرقية الاسلامية الأفرو آسيوية ، كما يتعرض المؤلف في نفس الفصل لدور المثقف العربي ودوره فى المجتمع . أما الفصول من الثالث عشر حتى السادس عشر فيتناول فيهم مفهوم العالمية والوطنية ، وعلاقة ما هو عالمى بما هو وطنى . كما يجيب المؤلف عن أسئلة تتعلق بعلاقة العرب بالغرب من حيث المقاومة والتواصل والتفاهم والالتقاء ، وخطورة الغرب الإسلام ، وجدلية الحوار العربي الأوروبي المتعادل .

ويرفع المؤلف فى النهاية شعارا هاما مؤداه « ليخدم كل ما هو أجنبى ، ما هو وطنى » ثم يقدم لنا فى النهاية أنموذجا لمشروع حضارى متكامل ، يجمع بين الفكر والعمل ، يتناول مسألة التبعية والتحرر ، التحديات التى تواجه الفكر العربى ورؤيته للنظام العالمى الجديد ، وفى النهاية يجيب على هذا السؤال : هل يمكن للفكر العربي بما له من تأثير عالمى أن يوفر امكانية حوار حقيقى بين الحضارات ؟ .

ــ وفى الفصلين الأخيرين (١٧ ، ١٨) يحلل المؤلف العلاقة بين ظهور مراكز للتأثير والنفوذ والقوة العالمى فى آسيا يعنى التماس التحالف الصينى اليابانى من ناحية ومن بوادر ظهور القوة العربية الاسلامية الشرقية الأفرو آسيوية فى منطقتنا من ناحية أخرى . وذلك بادراك العلاقة بين جناحى الشرق ، الأمر الذى يمنحنا فى المنطقة العربية امكانات
العلاقة بين جناحى الشرق ، الأمر الذى يمنحنا فى المنطقة العربية امكانات
مماثلة ، منها على سبيل المثال الطاقة التكنولوجية والعلمية اليابانية ، كما يصبح لزاما على استراتيجيتنا الحضارية الشرقية ــ وفى قلبها الاستراتيجية الحضارية العربية ــ الاسلامية ــ أن تجهد امكاناتها فى

قلب حضارات الشرق ، وعلى تفاعل واع وسطى بين القوى الاشتراكية العظمى فى العالم ، وعلى صلة واقعية بالقطاعات المختلفة للحضـــارة الغـــربية •

ـ والكتابة فى النهاية دعوة هامة لمناقشة القضايا الحيوية التـــى أثارها المؤلف المهتم دائما بقضايا وطنه ، وطـــرحه لتصوراته المتعلقـــة بالحضارة وموقع امتنا العربية الاسلامية فى منطقة الصراع التاريخى بين الشرق والغرب • كما أنه دعـــوة للشرق ، وقد نهض من سباته ، لأن يعود الى دوره الحقيقى فى مواجهة الهيمنة الغربية بشكل حاســـم ، مستعيدا حضارته وروحانيته وعلمه ورسالاته •• وقد تميز الكتاب كذلك بالآراء والبرامج التى قدمها المؤلف ، وبتنوع القضايا التى أثارها وعمقها، بمقدرته الخاصة على التحليل والربط واعادة التركيب ، وان بدا بعضها أحيانا غير مترابط ، الى جانب استرداد بعضها ، الى حد التكرار أحيانا أخـــرى ، لمزيد من التأكيد والوعى بحركة الفكر والتـــاريخ بموقعنا فى العالم المعاصر •

[illegible]

[illegible]

والله الموفق .

عرض الكتب : (٢)

القصر ودوره في السياسة المصرية ١٩٢٢ — ١٩٥٢

• مذكرات حسن يوسف

عرض
دكتور أحمد زكريا الشلق

الكتاب أصدره مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام عام ١٩٨٣ ، ويقع في ثمانية وعشرين فصلا ، تشغلهم ٤٢٠ صفحة ، والمؤلف هو الأستاذ حسن يوسف باشا الذى كان وكيلا ، فرئيسا بالنيابة ، للديوان الملكى حتى عام ١٩٥٢ ، وقد قدم لنا كتابه باعتباره عاصر ، بل وشارك فى أحداث فترة حساسة فى تاريخ مصر المعاصر ، وكحصيلة لذكرياته وانطباعاته ، وسوف نسميها فى البداية — وعلى سبيل التجاوز — مذكرات حسن يوسف باشا ، وذلك لأن اعتبارها على النحو الذى خرجت به كمذكرات سياسية ، هو أمر يحتاج الى مواجهة ونقاش .

لقد بدأ المؤلف صلة بالملك فاروق حين كان سكرتيرا بالمفوضية المصرية بلندن عام ١٩٣٥ حيث كان فاروق أميرا يتعلم هناك ، وكان المؤلف ضابط اتصال بين وزير مصر المفوض ، ومقر الأمير ، ثم استأنف صلته به بعد ذلك عام ١٩٣٨ حين عين مديرا لمكتب الصحافة بوزارة الخارجية ، ثم مديرا للرقابة على النشر الى أن انتقل المؤلف الى الديوان الملكى مديرا للادارة العربية به عام ١٩٤٢ ، وأصبح وكيلا للديوان منذ عام ١٩٤٤ وحتى عام ١٩٥٢ ، تخللت ذلك فترات كان فيها رئيسا للديوان بالنيابة ، كما كان كاتم سر مجلس البلاط وحاملا لأختام الملك ، ومن هنا تكمن أهمية الكتاب الذى شارك صاحبه ، وشاهد عن قرب الكثير من أحداث عصره فى فترة بالغة الأثر من حياة مصر السياسية ، كان فيها الديوان الملكى أداة الاتصال الرسمية بين القصر والحكومة ، حيث أتيحت له فرصة الاتصال برؤساء

الوزارات بشكل مباشر ، وهم يمسكون بأزمة السلطة ، كما اتيحت له ، وهو يمتلك حس المؤرخ ، فرصة الالمام بالوثائق والأوراق الرسمية المحفوظة بالديوان ، وحين استقر به المقام أخيرا بوحدة الدراسات والبحوث التاريخية التابع لمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الأهرام ، أخرج لنا كتابه هذا كشهادة للتاريخ •

والفصل الأول بمثابة تمهيد للكتاب وعنوانه « دستور ١٩٢٣ ومكونات القصر » ويتناول فيه تشكيل لجنة الدستور والأزمات التى واجهتها عند اعداد نصوص الدستور ومحاولات تعديلها ، وحقوق المدة الدستورية ، ثم دراسة دواوين القصر وفروعها كمؤسسة قائمة بذاتها ، ثم أرشيف السراى الذى يضم محفوظات الديوان العام ، والمحفوظات الخاصة التاريخية • أما الفصلان الثانى والثالث فيتناولان سيرة حياة المؤلف وتدرجه فى الوظائف الدبلوماسية ثم الصحافية وأخيرا وظائفه واختصاصاته بالديوان الملكى وعرض ذلك كله فى تسلسل تاريخى محكم • أما الفصل الرابع فيتناول موقف القصر من الحركة الوطنية المصرية والمفاوضات المصرية - البريطانية - ويركز على أن القصر كان عاملا مشتركا فى ممارسة السلطة عن طريق أحزاب الأقلية وبعض المستقلين •• وقد تتبع المؤلف خلال هذا الفصل الهام سلسلة المفاوضات البريطانية موضحا موقف القصر منها •

أما الفصل الخامس فيتناول موقف الملك فؤاد من بعض الأزمات الدستورية ، وأولها محاولات الملك توسيع سلطاته عند اعداد دستور ١٩٢٣ ، وأزمة الملك مع سعد زغلول عام ١٩٢٤ ، وأزمة الأمر الملكى الخاص بحلف الوزراء يمين الولاء للملك ، وأزمة مجلس الوصاية عند وفاة الملك فؤاد والملابسات المحيطة بها •• الخ ، ثم يتابع الملك الأزمات الدستورية فى عهد الملك فاروق فى الفصل السادس ، وصراعه مع الوفد ، ونشأة المحاور داخل الوفد ودور الملك فى انقسامه ، وأزمة انشاء وزارة المقيمين ومسألة القمصان الزرقاء ، وأزمة تعيين الملك على ماهر رئيسا للديوان

الملكى ، وسلطات الوزارة فى منح الرتب والنياشين ، وتعيين خمس أعضاء الشيوخ ، ومحاولات الوفد عزل الملك واستبداله بالأمير محمد عبد المنعم .. والأزمات التى أدت الى اقالة الوزارة الوفدية (١٩٣٧) .

أما الفصل السابع فيتناول دور القصر فى سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب العالمية الثانية .. بينما خصص الفصل الثامن لحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وملابساته داخل القصر ، مع اشارة الى موقف الولايات المتحدة الأمريكية من الأزمة واعتراضها على محاولة عزل الملك فاروق .. وينتقل المؤلف بعد ذلك لدراسة موقف القصر من أزمة الوفد والكتاب الأسود فى الفصل التاسع وخصومة النحاس باشا ومكرم باشا ، وعناصر الخلاف بين الوزارة الوفدية والقصر ، وأسباب تجاوب الحكومة .. الخ . وقد تناول الفصل العاشر استكمال عناصر الخلاف بين القصر والوزارة ومحاولة القصر تعيين رئيس الديوان الملكى رئيسا للوزراء ، وكان أحمد حسنين باشا وقتها هو المكلف بتأليف الوزارة الجديدة ، ثم ألم بتطور الأحداث التى أنهت الفكرة بعد تدخل السفير البريطانى . ثم تنتهى الأزمة باقالة وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢ التى يتناولها المؤلف فى الفصل الحادى عشر .

وقد بدأ المؤلف يستعرض موقف الملك من عدة قضايا أساسية تناولت الفصول من الثانى عشر حتى السادس عشر : فيتناول موقف الملك من قضية الوحدة العربية ، وموقف الملك من القوات المسلحة ، وموقف القصر من مسألة السودان وتطورها ، ثم علاقة القصر بالأزهر والمعاهد الدينية ، وأخيرا يتناول فى الفصل السادس عشر نظرة الملك الى الممارسة الديمقراطية وفيه يتعرض لدور الملك من خلال الأحزاب اللاوفدية ومن خلال مناورات رئيس الديوان الملكى .

وفى الفصلين السابع عشر والثامن عشر يتناول المؤلف عودة الوفد الأخيرة الى الحكم ، وفى وزارته الأخيرة (٥٠ - ١٩٥٢) حيث يتعرض

للمناخ السياسى الذى خلف الحرب العالمية الثانية ومحاولات تأليف الوزارة القومية ثم الملابسات التى أدت الى عودة الوفد الى سلطة .. كما يتناول المؤلف قضية الأسلحة الفاسدة التى أثارتها مجلة روز اليوسف سنة ١٩٥٠ مع تتبع تحقيقاتها حتى تم حفظها بالنسبة لأفراد الحاشية .. ثم يعود المؤلف لتبادل اخفاق المفاوضات لحل القضية الوطنية المصرية ثم الغاء معاهدة عام ١٩٣٦ وما ترتب على ذلك من أحداث (فى الفصلين ٢٠، ٢١) بلغت ذروتها فى حريق القاهرة ، الذى تناوله المؤلف فى الفصل الثانى والعشرين ، مشيرا الى ازدياد شعبية الجماعات السياسية الجديدة (الاخوان — الشيوعيون — مصر الفتاة) .. ثم تتبع الأزمات التى أعقبت اقالة وزارة الوفد ، ثم وزارات الانقاذ ، والظروف التى مهدت لقيام الثورة . وفى الفصل الرابع والعشرين يعطينا المؤلف ملخصا ببعض الأزمات الوزارية التى وقعت فى حينها ثم رأى استعادتها وايضاحها فى فصل مستقل .. أما الفصل الأخير فهو بعنوان « على هامش المذكرات » وقد تعرض فيه المؤلف لبعض ذكرياته الخاصة والمواقف المتعلقة بالرتب والنياشين والتجاوزات فى استعمال السلطة .. الخ .

وهناك عدة ملاحظات وتعليقات منهجية تتعلق بالمذكرات ، وان كان هذا لايعنى أن المؤلف قد اتبع منهجا موضوعيا وتاريخيا فى آن واحد ، وفى لغة سهلة مشرقة وصياغة محكمة .. وأول ملاحظتنا أن المؤلف قد اختار لكتابه عنوانين معا هما : « القصر ودوره فى السياسة المصرية ، مذكرات حسن يوسف » مما يجعلنا نتساءل : هل هذه هى مذكرات حسن يوسف باشا بالفعل ، أم هى دراسة للقصر ودوره فى السياسة المصرية من خلال قدرات حسن يوسف وقلمه ؟ ومن المسلم به أن المؤلف لم يرجع الى دفاتر مذكراته الا بعد ١٠٦ صفحة من الكتاب .

ثم اذا كان المؤلف قد درس دور القصر من خلال مذكرات ووثائق القصر والوثائق الانجليزية فلماذا لم يستكمل الصورة السياسية الأخرى بدراسة المصادر التاريخية التى تعاملت مع القصر .. ثم هل هى مذكرات

أم مجرد ذكريات ؟ وربما كان من الأفضل لو بدأ المؤلف كتابه بالفصلين الثانى والثالث اللذين يتناولان سيرة حياته فى الوظائف ، وهما فى الواقع فصل واحد ، افتقر الى الحديث عن شخصية المؤلف من حيث نشأته ومولده وأصوله الاجتماعية وتكوينه الثقافى والسياسى ٠٠ الخ ٠

وهناك ملاحظة منهجية تتعلق بتقسيم الكتاب الى فصول بشكل مفتت على هذا النحو الذى خرج به ولكن يمكن للمؤلف أن يدمج فصولا تعالج موضوعا واحدا فى فصل واحد فعلى سبيل المثال :

ـ الفصلان الثانى والثالث : ويتناولان صاحب المذكرات من الدبلوماسية الى الصحافة ٠

ـ العاشر والحادى عشر : صراع القصر مع وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢

ـ الفصول ١٦ ـ ١٨ : عودة الوفد الأخيرة للحكم ٠

ـ الفصلان العشرون والحادى والعشرون : المفاوضات والغاء المعاهدة ٠

ـ الفصل الرابع والعشرون يمكن الغاؤه واضافة الجديد فيه الى الفصول السابقة فى سياقها الزمنى وذلك أن به تكرارا كثيرا واسترداد لحوادث وآراء تناولها المؤلف قبل ذلك ٠

وهناك ملاحظة تتعلق بكون الكتاب يركز على صراعات القصر مع الوفد خلال وزارات ٣٦ ـ ١٩٣٧ ثم ٤٢ ـ ١٩٤٤ ثم ٥٠ ـ ١٩٥٢ دون أن يكتب كثيرا عن محالفات القصر لوزارات الأقلية ومساندته لها ٠ كذلك فان المؤلف لم يذكر كل الأسرار التى يعرفها ، الأمر الذى يجعلنا نطالبه بجزء وثائقى من مذكراته ينشر فيها نصوص مذكراته نشرا وثائقيا جديدا ٠

وهناك تساؤلات أخرى حول حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ حيث لم يذكر لنا على عاتق من تقع مسئوليته وان كان قد أشار الى دور أمين عثمان ولم يقل لنا ماهو هذا الدور بالتفصيل ٠٠ كما أن المؤلف صور أزمة الكتاب

الأسود في إطار صراع القصر مع وزارة مصطفى النحاس مع الإشارة إلى تأييد السفير البريطاني المستمر للوزارة بصفة عامة بصرف النظر عن الأزمات المتتالية دون تحليل لأسباب الصراع بين مكرم عبيد ومصطفى النحاس وأسباب ونشأة هذا الصراع داخل الوفد.

وفي النهاية يبقى للمؤلف فضل ارتياد موضوع لم يسبق أن تناوله باحث حتى الآن بدراسة علمية منشورة، قدم لها بما جد من حقائق وأفكار ووجهات نظر وآراء مما أضاف للمكتبة العربية والتاريخية فائدة علمية فله منا جزيل الشكر وأجمل التقدير.

عرض الكتب (٢)

« سياسة التعليم في مصر تحت الاحتلال البريطاني »

١٨٨٢ – ١٩٢٢

تاليف : محمد أبو الاسعاد

عرض : د٠ احمد زكريا الشلق

يحمل هذا الكتاب عنوان « سياسة التعليم في مصر تحت الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ – ١٩٢٢ » للأستاذ محمد أبو الإسعاد ، ويقع في ٤٠٢ صفحة تضم مقدمة وفصولا تسعة وخاتمة بالمصادر والمراجع ، وقد أصدرته دار النهضة العربية بمصر عام ١٩٨٣ في طبعته الأولى ، وأهداه مؤلفه — وهو معلم وباحث للدكتوراه — إلى المعلم المصري آملا في قدرته الخلاقة على صنع مستقبل أفضل ٠٠ والكتاب جزء من عمل علمي ضخم ، نال به صاحبه درجة الماجستير في التاريخ الحديث من جامعة عين شمس عام ١٩٧٦ ، تحت اشراف شيخ المؤرخين المرحوم أ ٠ د ٠ أحمد عزت عبد الكريم ، واشترك في مناقشته وأجازته أ ٠ د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى و أ ٠ د ٠ صلاح قطب ٠ وكانت أصول البحث تضم تسعة عشر فصلا تحت عنوان « تاريخ التعليم في مصر تحت السيطرة البريطانية ١٨٨٢ — ١٩٢٢ » ويقع في ٤٣٢ صفحة ، ويمثل البحث الأصلي استكمالا لخط علمي يؤرخ للتعليم المصري ، سياساته ومؤسساته ، بدأه شيخ المؤرخين ويستكمله الآن زميل آخر ، يدرس الفترة التالية لعام ١٩٢٢ ٠ اختار الأستاذ أبو الإسعاد هذا الجزء المتعلق « بسياسة التعليم » آملا

أن يصدر لنا جزءا ثانيا يتناول فيه مؤسسات التعليم وتطورها ، سواء فى مراحل التعليم العام ، والعالى ، البعثات ، أو الأزهرى ، ثم معاهد اعداد المعلمين ، وكذلك مؤسسات التعليم الأهلى ، وكذا التعليم الأجنبى ،
وكان حريا بالمؤلف أن يستكمل دراسته لتاريخ التعليم فى عهد الملكية الدستورية ابتداء من عام ١٩٢٢ ، لكنه شاء أن يتجه وجهة أخرى تتصل بتاريخ مصر والعروبة ، فسجل لدرجة الدكتوراه موضوعا تحت عنوان : « مصر والمسألة الليبية ١٩١١ — ١٩٥١ » تحت اشراف أ• د• عبد العزيز نوار ، عام ١٩٨٣ •

وتبدأ نقطة انطلاق الكتاب من اهتمام المؤلف بقضية ضعف بناء الانسان المصرى الناتج عن خلل المؤسسات التعليمية ، وعجزها عن خلق المواطن القادر على تفهم مجتمعه وعصره والتعايش معه ، ومن ثم فهو محق تماما فى اعتقاده بأن التعليم هو أرض المعركة الحقيقية ، وفى مطالبته والدعوة أكثر الحاحا فى هذه الأيام ، باحداث ثورة تعليمية مصرية ، قوامها تغيير مفهوم التعليم وأساليبه وثقافته •

أما الفصل الأول من الكتاب وعنوانه « الأسس العامة لسياسة التعليم » فقد تعرض فيه المؤلف لوجهتى النظر المصرية والبريطانية ، وتناقضهما ، وأثر ذلك على سياسة التعليم وأهدافه ونظمه ، وقد ركز المؤلف على كشف أسس السياسة البريطانية فيما يتعلق بالتعليم ، وتفنيد الادعاءات الاستعمارية بشكل منهجى علمى ، وانتقل لدراسة دور القوى الوطنية فى حركة التعليم وسياسته ، وتتبع ذلك من خلال عرض الاتجاهات الوطنية فى مواجهتها لسياسة الاحتلال ، والتركيز على دور الجهود الأهلية فى هذا المجال ، بحثا عن نظام قومى للتعليم •

أما الفصل الثانى فتناول « ادارة التعليم » وقد عالج فيه المؤلف

الهيئات التى تشرف على ادارة التعليم ، وهى نظارة المعارف ، مصلحة المكاتب الأهلية ، ديوان الأوقاف ، ثم مجالس المديريات .. وتناول تنظيماتها واختصاصاتها ، كما وردت فى اللوائح والمراسيم ، وكما مورست عمليا ، ثم انتقل الى دراسة السيطرة البريطانية على ادارة التعليم من تكريس المركزية ، وسطوة ونفوذ مستشار نظارة المعارف الانجليزى (دنلوب) واستبداده بأمور النظاره ، ثم حجم الموظفين الانجليز وسلطاتهم ، وأخيرا تحدث عن مراقبة مجلس شورى القوانين لسياسة التعليم ، وتعبيره عن مطالب الأمة فى مواجهة سياسة « نجلزة » التعليم .

بينما تناول « ميزانية التعليم » فى الفصل الثالث ، وقد بدأ المؤلف بدراسة الظروف المالية والسياسية لمصر ، وعلاقتها بتطور ميزانية التعليم ، وماكان له من آثار سيئة على انكماش ميزانية التعليم وضغط مصروفاته بحجة حل الأزمات المالية ، وقد زود المؤلف دراسته ببعض الجداول الاحصائية التى تعطى دلالة خاصة لهذا الموضوع الهام ، ثم انتقل الى تحليل سياسة الانجليز المالية بخصوص موارد التعليم ومؤسساته ، وأوجه انفاق ميزانية التعليم ونسب توزيعها على فروعه المختلفة .

أما سياسة التوظف وعلاقتها بالتعليم فقد تناولها الفصل الرابع ، وفيه عالج المؤلف سياسة الاحتلال فيما يتعلق بالاعداد للوظائف الفنية والمتخصصة ، وخاصة فى مجالات الطب والصناعة والزراعة والتجارة واعداد المعلمين والقضاة ورجال الادارة .. الخ . وكذلك التركيز على مدى وفاء المتخرجين لحاجات الوظائف والمجالات السابقة ، ثم انتقل المؤلف بعد ذلك الى معالجة « ظاهرة التوظف » ومدى ارتباط التعليم بها ، مع دراسة هذه الظاهرة فى اطارها التاريخى وتحليل النتائج التى ترتبت

عليها ، والتى أخطرها فى نظره ، ماأصاب الشخصية المصرية من ضعف حيث أصبح اجتياز الامتحان هو هدف التعليم وغايته ، والاهتمام بالجانب التحصيلى دون غيره ••

وفى الفصل الخامس تناول المؤلف موضوع مصروفات التعليم ومجانيته ، فدرس المسألة فى تطورها التاريخى ، منذ كان التعليم مجانيا فى عصر محمد على ، وحتى فرضت بعض أنواع الرسوم عليه ، والى أن فرضت سلطات الاحتلال البريطانى المصروفات على التعليم ، بل وزيادتها بشكل تدريجى ، وقد تتبع المؤلف هذه المسألة فى كل مراحل وفروع التعليم ، تتبعا احصائيا دقيقا ، وكذلك تعرض لرد الفعل الوطنى ازاء هذه السياسة البريطانية ، التى عبر عنها مجلس شورى القوانين ، كما فقد حجج السياسة الانجليز لجعل التعليم بالمصروفات ، والتى وردت فى تقارير المعتمدين والمستشارين الانجليز بمصر ، ثم انتهى المؤلف الى الخروج بتحليل مؤداه أن القاعدة الأساسية التى سارت عليها سلطات الاحتلال كانت تقوم على أساس الغاء مجانية التعليم وجعله بالمصروفات، مع زيادة حجمها بحيث تتناسب مع مايتفق مع التلاميذ بالفعل •• وفى نفس الفصل عالج المؤلف موضوع « طبقية التعليم » فتحدث عن تمييز سلطات الاحتلال بين تعليم للأغنياء وآخر للفقراء ، ولكل مناهجه وأغراضه ، وانعكاس ذلك على نظرة المصريين للتعليم ، وازدرائهم للتعليم المهنى •• الخ ، ثم دلل على وجود أهداف سياسية تكمن خلف هذا التقسيم ، والتى تتمثل فى جوهرها فى حصر فرص التوظف فى مناصب الادارة ، وسلطات الدولة ووظائفها فى أيدى طبقة معينة محدودة من أبناء الأغنياء ، ممن ارتبطت مصالحهم بالسياسات البريطانية فى مصر ، وأفادوا من اجراءاتها •

أما الفصل السادس فقد تناول فيه المؤلف « ثقافة التعليم » أو ما أسماه بالصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية فى التعليم المصرى ، وارتباط ذلك تاريخيا بالمناقشة الاستعمارية الأنجلو فرنسية ،

ثم اتجاه سلطات الاحتلال البريطاني الى اضعاف الثقافة الفرنسية واللغة الفرنسية في مدارس التعليم ومؤسساته في مصر بشكل نهائي، وتناول بالمعالجة الاجراءات التي اتخذت بهذا الصدد ، لاحلال الثقافة واللغة الانجليزية محلها • وقد شملت المعالجة تتبع هذا التغيير بشكل احصائي ، خلال سنوات الاحتلال ، واعتماداً علي تقارير مستشار نظارة المعارف (دنلوب) ، حتي لقد سجل المؤلف نجاح الساسة الانجليز في هذه المسألة ، مما يؤكده انتهاء اللغة الفرنسية تقريبا من مناهج التعليم الابتدائي ثم انحصارها بشكل محدود جدا في بعض مؤسسات التعليم العالي وفروعه •

ويتصل بنفس القضية قضية دراسية « لغة التعليم » والتي اختص بها المؤلف الفصل السابع ، فبدأه بدراسة موقع اللغات الأجنبية في نظام التعليم المصرى خلال فترة البحث ، وأشار الى أهمية دراستها لتسهيل سبل الاتصال الحضارى بين مصر والشعوب المتقدمة ، ثم انتقل الى اثبات الحقيقة التاريخية التى مؤداها أن التعليم المصرى منذ عهد محمد على وحتى الاحتلال البريطانى ظل فى جوهره يعتمد على اللغة القومية فكانت اللغة العربية هى لغة التعليم وآداته ، وفى مختلف مراحله ، ثم ظهور اتجاه بين بعض المتأثرين بالثقافة الأوربية يدعو الى انهاض التعليم باتخاذ اللغة الأجنبية لغة التعليم والاستعانة بالمعلمين الأجانب لفترة من الزمن ، حتى يصبح هناك من المصريين من هم قادرين على تدريس العلوم العصرية باللغة العربية ، وبيان دور على مبارك فى هذا وخاصة عندما تولى نظارة المعارف عام ١٨٨٨ ، ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك لتتبع سياسة الاحتلال البريطانى فيما يتعلق بنجلزة لغة التعليم، وذلك فى دراسة احصائية تحليلية وافية ، تشير الى خطورة المسألة وآثارها ، بل وربط ذلك وبين ظهور الدعوة التى تبناها بعض المستشرقين الأجانب لتحويل المصريين عن اللغة العربية ، واتخاذ اللغة العامية أداة للكتابة والتعبير الأدبى ، وكان الهدف من وراء ذلك كله هدفا

استعماريا يتصل بقطع صلة المصريين بتاريخهم وتراثهم العربى وأصول دينهم الاسلامى مع عزلهم عن باقى أجزاء الوطن العربى ٠ ٠وقد انتقل المؤلف بعد ذلك بطبيعة الحال الى تناول رد الفعل الوطنى أو ما أسماه « معركة التعريب »بالرد على مزاعم الانجليز ومواجهتها الأمر الذىيجعل سلطات الاحتلال تميل فى النهاية للاستجابة الى المطالب الوطنية والتدرج فى تعريب التعليم ، ثم معالجة حركة التعريب عن طريق تنشيط مدرسة المعلمين وقيام حركة تعريب نشـــطة لأمهات الكتب والحرص على التأكيد على أن تكون لغة التعليم هى العربية فى مؤسســـات التعليم القائمـــة والمستحدثة ، حتى لقد سجل المؤلف فى النهاية نجاح خطة التعـــريب فى جعل التعليم باللغة العربية فى مختلف المدارس عدا مدارس الطب والصيدلة والمهندسخانة ٠

أما الفصل الأخير فكان عنوانه « الطلبة والسياسة » وفيه يتساءل المؤلف الى أى مد نجحت سلطات الاحتلال فى جعل المدرسة المصريـــة مؤسسة ديمقراطية وهل اســـتطاع الطلبة المشاركة فى أمور السياسة ؟ ويرصد المؤلف ظواهر الطابع العسكرى للمدرسة المصرية ،وعزل المدرسة عن المجتمع ، وارتباط مصير الخريجين بالعمل فى أجهزة الدولة ، وكلها ظواهر تبعد المدرسة عن أسس التربية الديمقراطية ٠٠ ثم انتقل المؤلف لدراسة الحركة الطلابية ونموها بفعل ظهور قادة الحركة الوطنية الشابة فى بداية عهد عباس الثانى ، ونشاط الصحافة الوطنية ونضوج الـــوعى القـــومى وبروز الطـــلاب ، ونشاط الصحافة الوطنية ونضوج الوعى سنة ١٩٠٦ ، وموقف سعد زغلول للقضاء على العناصر المتطرفة من الطلاب وتصاعد ونمو الحركة الطلابية وخاصة فى مواجهة سياسة الوفاق بين السلطتين الفعلية والشرعية ، وتتبع نمو المنظمات والمؤتمرات الطـــلابية فى الداخل والخارج ،وخلال احداث الثورة المصرية عام ١٩١٩ ، ومواجهة السلطات البريطانية لها ، وخلص المؤلف الى أن فصل الحركة الطلابية

كان يتصل بقداسة الوطن وكرامة الانسان المصرى وحقه فى الحرية والاستقلال •

ـ لقد عالج المؤلف دراسته بموضوعية وجدية ، مستخدما مصادر أصيلة من وثائق عربية وانجليزية ، منشورة وغير منشورة ، مستخدما منهجا تحليلا أجاد فيه استخدام مصادره ومراجعه ، ولكن هذا كله لايعقبه من الاتيان بخاتمة يقدم بها استخلاصا لدراسته ، والتى ربما أرجأها للجزء الثانى الذى نأمل أن يرى النور قريبا كما أن الدراسة قد تناولت بعض المسائل فى معالجة شديدة مثل « القوى الأجنبية ودورها فى حركة التعليم ص٢٨ » وكذلك (دور ديوان الأوقاف فى ادارة التعليم ص٤٦) التى نعتقد أنها كانت تحتاج الى وقفة أكثر من المؤلف ••

دكتور أحمد زكريا الشلق

١٩٨٤/٦/٨

SOME SUFI SPECULATIONS ON SOME ESCHATOLOGICAL VERSES OF THE QUR'AN

Dr. NAGHN MAHMOUD AL-GHONEIMY

AL-Azhar University, Cairo (*)

Ever since the dawn of history, eschatological ideas have been always a fascinating and puzzling integral part of Man's legacy.

These ideas derive from Man's intellect and intutive perception of another world, full of wonders and marvels and embody in a special way Man's recurring aspiration towards immortality.

It is through the revealed religions that this aspiration has found a stable and secure expression.

Islam has participated in the enrichment of this field in a very specal way. The Qur'an, Islam's Holy Book, presents belief in the Last Day as one of the five major components of the Islamic creed:

(ولكن البرمن آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . . .

Righteous is he who believes in Allah and the Last Day and the angels and the scripture and the prophets..).
QUR., II, 177.

As for the events of the Last Day, they are elaborated in many other Qur'anic verses in such detail and with such literary brilliance that it is easy to establish the enormous contribution of the Qur'an in the field.

(*) Delivered at International conference, «the Qur'an through Fourteen Centuries», the Australian National University, Canberra, Australia, 10 and 11 May, 1980.

The main purpose of the Qur'an in doing this is to initiate an enthusiastic desire for the next life through God's promise and threat وعد الله ووعيده Once this is established, sound and moral behaviour in this world will certainly follow.

Muslims, for their part, followed the example of the Qur'an, and so numerous exegisis, men of letters, philosophers, theologians and mystics have each, in their own way, contributed to the clarification and elaboration of the eschatological verses of the Qur'an.

This paper is intended to point out only some Sufi contributions to this feld.

A bird's eye view of the Sufi currents in relation to our subject will allow us to classify them into three main currents :

1. The orthodox current.
2. The ecstatic current.
3. The theosophical, philosophical and rational currents.

The orthodox current deals with moderate Sunni Sufis such as Mohasibi, Ghazali and their schools. Systematically they do not differ much from orthodox non-Sufi ideas and personalities.. So there is no urgent need to deal with them at the moment, especially as they have been studied by some contemporary scholars (1).

---

1. C.F. Massignon, Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane ; Textes Hallagiens, p. 244 where he dealt with Mohasibi's 2 books : Kitâb al ba'th wa'l noshoûr + kitâb al Tawahhom. C.F. also Dr. Abdel Halim Mahmoud : Al Mohâsibî, un mystique musulman religieux et moraliste, p. 46, ed. Paris, 1940, notice his interesting discussion on the authenticity of the book : al-ba'th wa'l noshoûr, and chap. VI entitled l'eschatologie chez mohâsibi, pp. 122-127.

C. F. also : Smith, Margaret, an early mystic of Baghdad, p. 47-8, London, 1977.

As for Gazali, his sources are so numerous and too many to be particularized. C.F. Abdel Rahman Badewi ; Al-Gazali's Works, Cairo 1961, arabic version.

The theosophical, philosophical current deals with the Sufi systems of such personalities as Ibn Arabi and his school, with the exception, more or less, of al-Djili.

Although this third current is as important as the ecstatic current, I shall, however, in this paper, limit mysetf to dealing only with the second current in so far as the Qur'anic eschatotogical verses are concerned.

Rabi'a al-Adawiyya (+ 185 H.) is considered by many scholars of Sufism as the first real Sufi in Islam. So it is fitting that I should begin my discussion with her.

Abdel Ra'uf al-Minawi (+ 1013 H.) a distinguished biograoher of Sufi personalities, narrates the following incident :

Rabi'a heard someone reciting : «Lo ! Those who dwell in paradise this dey are happily employed.» Rabi'a commented on this recitation by saying : «Poor are the people of Paradise. They and their wives are pre-occupie»d (2).

In order to have a comprehensive understanding of Rabi'a's response we need to refer to the related verses which depict the Qur'anic eschatological panorama. The following selections provide us with some insight : «and the trumpet is blown and lo ! from the graves they hasten unto their Lord, crying : /Woe upon us ! Who hath raised us from our place of sleep ? / This is that which the Beneficent did promise and the messengers spoke the truth. It is but one shout, and behold them brought together before us ! This day no soul is wronged in aught ; nor are ye requited aught save what ye used to do. Lo ! Those who merit Paradise this day are happily employed. They and their wives, in pleasant shade on thrones reclining. Theirs the fruit (of their good deeds) and theirs (all) that they ask. The word from a Merciful Lord (for them) is : Peace ». (3)

---

2. Abdel Raouf al-Minawi (+ 1031 H.), Tabaqat al-awliya', Ms. Damascus, No. 4164, Fol. 105 vers. 105 ver. C.F. also, Abdel Rahman Badawi : Rabi'a al-adawiyya, p. 84, p. 84, ed. Cairo, 1962, and also Ibid :Shatahat al Sufiyya, p. 27, ed. Kuwait 1976.

3. Qur. XXXVI, 50-57.

These verses, however do not themselves give us a sufficient clue for deciphering correctly the real meaning of Rabi'a's comment. Dr. Abdel Rahman Badawi took the liberty to interpret her phrase. He forcefully presented the argument that for Rabi'a the phrase «happily employed» masnt, «deflowering virgins». This interpretation was in accordance with that of many exegists. Dr. Badawi concluded that such a lusty and sensuous meaning created in Rabi'a's consciousness, accustomed to the idea of a spiritual Paradise, a sense of repugnance and sickness. Thus she made her comment. Although Dr. Badawi justified Rabi'a's behaviour, yet he attacked her on the grounds that she criticized what he termed «the sensual or sensuous descriptions included in the Qur'an, in particular, and in a more general sense, the sensual and sensuous aspects of Islam». (4) Badawi states, «Doing such a thing constitutes an unprecedented and very grave degree of daring and audacity which previously never occurred during the period of the Prophet or the Caliphs as well as the Umayyads». He sums up his point of view by stating that Rabi'a could be considered the first person to deal with a criticism of the Qur'an and Islam, especially the sensual and sensuous descriptions in the Qur'an related to Paradise. She could have been influenced by the Zanadiqa Movement current at the time, in a way that the state was obliged to attack severely.

Lastly Badawi states that «the purpose of Rabi'a's criticism is neither abuse nor destruction but rather it is a sublimation of the religious life and the meanings of the Qur'an and Islam to the highest possible standard of spiritualism ... » (5).

At the end of Badawi's hypothesis, he expresses his inability to decipher the real purpose of Rabi'a's statement : «The shortness of her statement will not allow us to reveal her purpose : was it a criticism against the exegists' interpretation of the Qur'an ? If so, then the statement was intended as a mockery ; or was it a criticism of the Qur'an itself ? ... . » Badawi goes on to say, « The latter hypothesis is more probable in view of the circumstances in which the statement was made, that is upon hearing a man reciting

4. Badawi, Rabi'a, p. 84-5.

5. Ibid, op. cit., op. cit., p. 86.

the verse. She was not facing an exegist, but merely a reciter of the Qur'an » (6).

I am sorry to quote Dr. Badawi's opinion in detail, but the reasons for that are three fold :

1) Dr. Badawi is reputed to be a brilliant and prolific scholar.

2) He is a Muslim and an Arab by birth.

Both reasons would ensure that his opinions, espieilly on Islamic and Arabic subjects, would be almost taken for granted, no matter what misinterprepretations they might contain.

3) I want to point out the wrong ideas he defended and the unscientific method he applied to Rabi'a's case, so that a more objective and scientific analysis can be put forward.

Could Rabi'a be criticising the exegists' interpretation of that Qur'anic verse ?

The interpretation of « happily employed » to mean « deflowering of virgins » was never unanimously agreed upon by exegists. In fact some exegists even neglected to mention it (7). But one thing is certain, all the exegists who rendered that sensual interpretation of the verse, mentioned at the same time six or seven various interpretations (8). If such is the case, why would Rabi'a choose one particular interpretation in preference of the others ? I do not think that she did so, nor do I think that she was criticising the Qur'an because if she did, why would she hide behind such a vague and ambiguous statement ? The stories about the Zanadiqa port-

---

6. Op. cit., p. 87

7. C. F. Baidawi Tafsir, p. 586, ed. Cairo 1305 H. ;

8. C. F. for example : Tabari, vol. 22., p. 12-13, ed. Cairo 1329 H. ; Qurtubi, vol. 15., pp. 43-44, ed. Cairo 1946 ; Abul-Sauod, vol. 4., pp. 510-11; Ibn Kathir, vol. 3., p. 575, ed. Syria 1980; Alusi, vol. 23., p. 32. ed. Cairo (n.d.); Sayuti and Galali, p. 520, ed. Cairo (n.d).

ray them all as outspoken and audacious. If Rabi'a was one of them, why should she be an exception, particularly in the matter of this Qur'anic verse ?

Dr. Badawi misunderstood Rabi'a and so he jumped to a very biased and conjectural conclusion. Also, by accusing her of being influenced by the Zanadiqa Movement, Dr. Badawi was certainly misguided in following the conclusions drawn by the late Prof. Massignon on this very subject (9).

In my opinion Rabi'a was criticising neither the exegists nor the Qur'an. In fact she was not criticising anyone or anything at all. She was simply uttering a statement, or rather. she was giving an impressional, ecstatic and auditional exclamation.

At this point I would like to somewhat elaborate on the phenomenon of ecstasy as a resultant state of audition, in order to make my analysis clearer.

Ecstasy is a very much desired psychological phenomenon of most Sufis because it is a sign of God's bliss and contentment. But divine ecstasy is so rare and so «delicious» that Sufis would not hesitate to take any risk to enjoy such an experience. The next logical step is the artificial process of initiating ecstasy. This can be achieved through various means, foremast «Sama'» or audition. «Sama'» basically means to hear something. However, for Sufis Sama' is a com plex phenomenon which is produced by such sound stimuli as poerry, prose, and music on the one hand, and impressional reactions on the other. The resultant state of ecstasy is assured for the Sufi. But for the spiritual supervisors, ourselves and the scholastic observers, it still has one more function inseparable from the former one : it helps to reveal and manifest the dominant state and the central idea obsessing the Sufi's heart. Let me give you one concrete example given by Sarag al-Tusi and Ibn Rajab al-Hanbali : «... a

9 C. F. la Passion de Hallag, vol. 1., p. 431-33, nouvelle édition, Gallimard 1975, where M. Massignon goes through the details concerning what he considered as « Zandaqa of Sufies » i.e. heresies, and he mentioned : Hasan al-Basri, zul-Nun al-Misri and Hallag, but he did not mention Rabi'a.

hawker was selling a herb called thyme. Wandering the streets he called out : « O » wild thyme ! » ! يا سـعترا برى

Abu Helman, a Sufi, upon hearing the hawker's call was overwhelmed and fainted. On regaining his senses, he was asked about the reason for his reaction. He replied, « I heard him saying : « move ! in order to see my benevolence' » (10). ! اسع ترى برى

Al-Sarrag al-Tusi made the following comment : « (Sama') audition, is in response to that which is innate in the heart, in terms of its pre-occupation, time, mood and presence. Don't you see that when the voice of the hawker reached Abu Helman, he responded to it according to his mood and pre-occupation» (11).

Ibn Rajab givs a slightly modified but significant version : « The same call « O' wild thyme ! » reached another Sufi who also reacted in a similar way ». When asked the reason why, he said, « Because I heard the words 'at once, you shall see my benevolence'. (12) ! الساعة ترى برى

Ibn Rajab's comment on both these Sufis is most interesting. (I quote) « While the former was in the station مقام of toil مجاهدة the latter was in the state of vision حال المشاهدة » (12)

Ibn Rajab's analytical comment is most precise and fitting in this context, because the station of toil مقام المجاهدة entails movement and seeking, in which case the elicited response, « move in order to see my benevolence » ! اسع ترى برى is most expressive and suitable. On the other hand the state of vision entails looking at, expecting and watching. Thus : « At once you shall see my benevolence! الساعة ترى برى is a very appropriate expression ». Sama is in a Way. a sort of intoxication or rather a

---

10. Luma', p. 362, ed. Cairo 1960; C.F. also Ibn Rajab's Tract, Fol. 9 rec. Ms. Cairo, DK. No. 21613. C.F. also Qushairi tract, p. 326-27.

11. op. cit., loc. cit.

12. Op. cit., loc. cit Notice the pun in the phrase ! ياسـعترا برى and ! اسـع ترى برى and ! الساعة ترى برى

hypnosis, the Sufi is intoxicated, hypnotized by audition, so he is given to ecstasy and the subconscious, or rather the innermost, is « afloat ».

So much for the ordinary Sama' through poetry or prose. Now I shall briefly deal with Sama' through the recitation of the Qur'an. Sarrag comments on Sama' through the recitation of the Qur'an by stating : « it needs a presence of heart, contemplation, meditation and remembrance ». The candidate's ability to listen to the Qur'an is in accordance to the dominant obsessive mood of his heart. But if he has no spiritual state at all, nor has his heart any scstatic appeal to audition of the Qur'an in a harmonious way, which entails movement, then his likeness would be : « as the likeness of one who calleth unto that which heareth naught except a shout and a cry. Deaf, dumb, blind, therefore they have no sense perception. » (13)

To give an example of the great impact that audition of the Qur'an has on a Sufi, I quote Mulla Jami : « Al Fadil b. 'ayad (+ 187 H.) had a son called Ali who excelled himself in asceticism, piety and worship ». Upon hearing a man reciting at the well of Zamzam ; « thou wilt see the guilty on that day linked together in chains » he cried out and fell dead. (14) Jami, commenting on this incident, states : « The lover makes a signal, whereas the gnostic pays with his life ».

«من المحب اشارة، ومن العارف بذل الروح » (14)

Jami's comment cannot be considered as a final solution and interpreptation for the problems of ecstasy and audition, and I think it is too early to reach such a criterion, if there is one at all. It is interesting to notice, however, that Jami's comment can be applied with validity to our case of Rabi'a al-adawiyya. Her statement is a mere signal of what is obsessing her innermost and subconscious. What could there be in the innermost of an avowed lover such as

---

13. op. cit. p. 355 and C.F. Qur'an 11, 171, also Qushairi tract, p. 360.
14. Mulla Abdel Rahman al-jami' (+ 898 H.), Nafahatu L-uns, arabic version by Zakariyya al Qorshi, Ms. DK. No. 9795, Fol. 23 rec. C. F. Qur.XIV, 49; C. F. also Qushairi, p. 361.

Rabi'a ? One aspect of her can be shown through the following lines of her poem :

« Two ways I love thee : selfishly, and next, as worthy is of thee. (Tis selfish love that I do naught;
Save think on thee with every thought ;

(Tis purest love when thou dost raise the veil

to my adoring gaze. Not mine the praise in that

or this, thine is the praise in both, I wis ». (15)

Another aspect of Rabi'a is clearly illustrated by the following story. She was also asked : « Do you love God Almighty ? »

« Yes. » « Do you hate the Devil ? » « My love of God », she replied, « leaves me no leisure to hate the Devil ». « I saw the Prophet in a dream ». He said : « O Rabi'a do you love me ? » I said : « O Apostle of God, who does not love thee ? - but love of God, hath so absorbed me that neither love nor hatred of any other thing remains in my heart ... .» (15)

Rabi'a, in short, was absorbed in Divine Love through the intoxication and hypnotic effect of Sama'. All hidden and subconscious elements would rush to the surface, whether positively or negatively.

Now, to return to the core of our discussion. When Rabi'a, upon hearing the aforementioned Qur'anic verse, showed pity for the people of Paradise. She was, in fact, revealing, unconsciously and negatively, the obsessing subject of her innermost : Divine Love. And if Rabi'a is told to denounce the pre-occupation and business of husbands and wives in Paradise for their sensual and pursuits, this is not because she wanted to criticize either the exegetists or the Qur'an, as we have shown before.

It seems also that Rabi'a was obeying and observing the moral code of the subi cononical sama' whichis unanimausly accepted by all Sufis and in al-Djili's phraseology :

---

15. Nicholson, R.A., a literary history of the arabs, p. 234, Cambridge 1962.

« The hearer should not hear but through God or through his prophet (s.a.s.) or that which is related to his path to Almighty God. He should not confine (himself) to the external meaning of words, rather he should pass to their internal meaning, unless the words were definite. A « faqir » (one in need of spiritual enrichment) should not affect interpretation, rather he should direct his innermost towards Almity God, and accept with all his being whatsoever he decrees. He should not hear through many of the corporal things relating to this world or the other world to come, such as the « fair ones » الحور, and the palaces القصور, for all these are due to the soul's lusty desire and sensual excessiveness, whereas the path of men is otherwise. (16)

Such is the moral code of the Sufis in relation to Sama'.

In conclusion, Rabi'a was attacking neither the Qur'an nor the exegetists ; but she was reacting in a mystical way to the Sama' of the Qur'anic verse, and she was obeying and observing its moral code as well.

It is still more interesting to note how al-Hallag (+ 309 H.) dealt wih the same Qur'anic verse with which Rabi'a dealt. Al-Hallag's comment was rendered by Solami (+ 412 H.) in the following way : « . . . the Almighty Truth has interrupted the enjoyment of the people in Paradise, through his manifestation, because he made tham pass away أفناهم from paradise through his manifestation, for fear that their enjoyment might continue and they would be bored. Thus their return to themselves, after the Almighty Truth's Manifestation to them would enable them to regain their enjoyment, whereas the Almighty Truth is not to be enjoyed (17).

Itis clear that Hallag's text contains three major elements : God's Manifestation, the act of interruption and the enjoyment of the people in Paradise. These three elements at first glance, seem to be in contradiction with each other, but in fact, they are harmonious, because each has a definite and limited function which would not overlap with the other. We can notice also that whereas Rabi'a

---

16. Ghonyat Arbab Al-Sama', Fol. 76 ver., Ms. DK. No. 360 Tasawuf.

17. C. F. Masignon, Essai, p. 393, No. 136, ed. Paris 1954.

satisfied herself with concentrating on the people of Paradise, Hallag added the Divine Element with His Manifestation, side by side with Rabi'a's element. Yet, both of them never attacked the Qur'an, nor the exegetists, nor can she (or he) be following in the footsteps of any Zindiq (heretic). Both practised a personal experience, and each reacted in his own way, in accordance with his mood, temper and his (or her) innermost.

But Hallag has other aspects in his personality which appears in many texts, some of which are rendered by Solami in his « tafsir». It reads :

> « When he was escorted to the execution, he was heard
> reciting the following Qur'anic eschatological verse :
> 'those who believe not therein seek to hasten to it,
> while those who believe are fearful of it and know that
> it is the Truth ....' and he uttered no other word until
> he was excuted ». (18)

To better understand al-Hallag we should mention the contextual verses which read :

> « Allah it is who hath revealed the Scripture with Truth,
> and the Balance. How canst thou know ? it may be that
> the hour is nigh. Those who believe ... the Truth ... .
> Are not they who dispute, in doubt concerning the Hour,
> far astray ? » (19)

It is curious to notice here that al-Hallag is reversing the mechanism of audition : He recites Qur'anic verses to fit in with the dramatic situation that confrons him and which give him courage to face such a situation, In doing this, Hallag seems not only a sencere, pious Muslim but also a normal human being and he reacts in the

---

18. Ibid, op. cit., p. 395-6, Text No 148

19 Qur., XLII, 17-18.

same way any human-being would : quoting one's Holy Scripture to calm down and soothe one's nerves and fears. Now that we have dealt with the last part of the text we shall now concern ourselves with the first part of the text. The First part of the text provides us with another aspect of Hallag's innermost, which is purely ecstatic, auditional and raptured though it is still in the reverse form to ordinary Sama'. Solami narrated that : «When it was morning, and he was led out to be executed, he rose and said : «It is sufficient for someone in esctasy to be individualized by the One.» Then he went out to meet the executioner, swaggering in shakles and uttered the following lines of poetry : « My pot companion is not attributed to injustice. He gave me to drink, the same as he drank ; just as a host would to his guest. When The cup was circulated, he called for the skin rug and the sword.» Such is the case with one who drank wine in the company of a dragon in summer ... .» (20)

The literal meaning of these lines of poetry is horrible ; the least they can amount to is a sense of blame and rebuke and a sense of treachery, dishonesty and savagery.

But such a literal method will bring us back again to the point from which this paper started; and we judged this as an invalid method.

Hallag, at the beginning of his long statement, was passing through ecstasy, in the face of an impending execution. As a result of this, Hallag was absorbed in agonizing ecstasy and burst into ecstatic expression.

However, to finish his statement with the recitation of the Qur'anic verse of «The Hour», means that he came back to his senses and began to react normally. It is also very significant for «The Hour» verse, adds to the bitterness and glomminess of the preceding lines of poetry. It reflects a simple man's cry for help, where no help can be given.

---

20. C.F. Massignon, op. cit., loc. cit., and also : Akhbar al-Hallag, Texts No. 16, 17, pp. 34-36, french translation on p. 70-71, C.F. Solami, Tafsir XLII, 17.

We still have other Hallagean statements on some other Qur'anic eschatological verses, most of which are theosophically and philosophically stamped; for such reasons we shall not deal with this third current found in Hallag's statements, but strictly limit ourselves to the second current (ecstatic) (21).

The next personality that I shall deal with in this paper is Bayazid of Bistam (+ 261 or 234 H.). Bayazid heard a man reciting the following verse : « On the day when we shall gather the righteous unto he Beneficent, a goodly company ». (22) Bayazid wept profusely, tears fell on the pulpit even blood gushed out of his eyes, and he cried out : (in auditional ecstasy) : « How come ! He who is His associate is gathered unto Him ? » (23) In anoher version he said : « Whosoever is with Him, he is in no need of being gathered (unto Him) because he is His perpetual associate ! » (24)

Dr. Badawi, once more, considers that Bayazid follows the footsteps of Rabi'a. The resemblance between them is very clear, even the way of interpreting some Qur'anic verses and denouncing their external meaning. He denounces here the gathering of the Righteous, because it indicates a corporal gathering on a known day, the spirits of the Rghteous are rather enjoying the Divine Presence foreover, they are the Truth's perpectual associates. So, how can it be said that they will be gathered unto the Beneficient as a group one day ! (25)

Dr. Badawi's analysis shows lack of understanding of Muslim Sufis. I am of the opinion that it was a very ordinary ecstatic and auditionary reaction.

Ibn Arabi's criticism of Bayazid's comment is most revealing. Ibn Arabi considers it wrong to bring together the Righteous المتقين

---

21. C. F. Massignon, Essai, p. 409, Tex. 194, and also p. 415, 418.
22. Qur. XIX, 85.
23. Ibn. Arabi, Futuhat, vol. III, p. 2977, Cairo 1974.
24. Abu No'aym al-asfahani : Hilyatu al-Awliya', vol. 10., p. 41. ed. Cairo 1351 H.
25. Badawi, Shatahat, p. 34-35.

(Literary : The protected) unto the Beneficent, because that divine name is in harmony with gentleness, and forgiveness from whom no one needs protection. Therefore the Righteous (or the protected) are apt to be gathered unto the Divine Name, the Compeller.

الجبار The protected المتقون are liable to be associates of the Compeller, in order to avoid His Authority, (26) Ibn Arabi, following a theosophical and philosophical method, inserted the question into the field of Divne Names with all its pro's and con's However, a discussion of this lies outside the scope of this paper.

The fourth personality I would like to discuss is Abu-Bakr al-Shibli (+ 334 H.) who heard a man reciting the following verse : He saith, « Be gone therein and speak not unto me ». (27) Al-Shibli said : « I wish I could be one of them ». (28) Before I quote the comment of Sarrag al-Tusi, it is convenient to mention the following contextual verses : « Our Lord ! Oh bring us forth from hence ! If we return (to evil) then indeed we shall be wrong-doers ». He saith : « Be gone ... ».

Sarrag Tusi points out that Shibli meant that he would like very much to be one of those to whom an answer from God is given even in hell. (29). The dominant idea in Shibli's innermost, at that moment, is Divine Love. He wants to speak with him even in hell.

Our fifth person, Isma'il al-Gabarti (+ 806 H.) al-Djili's spiritual supervisor, or sheikh, was well reputed for his auditional ecstasies. He heard a man reciting : « ١٠١ Those unto whom kindness hath gone forth before from us, they will not hear the slightest sound thereof, while they abide in that which their souls desire. The Supreme Horror will not grieve them, and the angels will welcome them, (saying) : this is Your Day which ye were promised ». (30).

---

26. Futuhat, vol. III, p. 297-8. ed. Cairo 1974.

27. Qur. XXIII, 108.

28. al-luma', p. 490, ed. Cairo 1960.

29. op. cit., loc. cit.

30. Qur. XXI, 101-3.

Gabarti commented : « The state of the poor has risen, how wonderful it is ! » And he recited the following line : « What harm could occur to whomsoever would come in honour on the Last Day if he were insulted and humiliated in the world ? » (31)

It is clear that Gabarti understood the Qur'anic description of the good people on the Last Day as a signal to the « fakir » (Sufis) and the rise of the Sufi state. It is again a revival of the typical function of audition.

Gabarti was reported to have said that « Sama' (audition) is a slippery stone upon whch only experienced men's feet could be fixed » (31).

Abdel Karim al-Djili (+ after 820 H.), the prince of Sufi audition, is the last personality in the ecstatic current with which we are dealing.

Al-Dijili is, in my opinion, the last form in the development of the school of Ibn Arabi. However, we can discern in Al-Djili, not only the theosophical, philosophical and rational elements, typical of Ibn Arabi and his school, but the ecstatic, auditionary one, typical of many personalities before Ibn Arabi. This can be discerned in his whole sysem, including his view on the eschatological verses of the Qur'an. However, again, we will restrict ourselves to the ecstatic aspect of al-Djili as we did with al-Hallag. Al-Djili dealt exhaustively with the Manifestations of the Divine Attributes. From among them the Manifestation of the Omnipotence Attribute is our concern, because it was such a challenge to Djili that he found no other way to describe it, than by referring to three famous eschatological chapters in the Qur'an. These include the « over-through » chapter التكـــوير , rending asunder الانشقاق and some verses from the chapter of « the cave » الكهف These verses give details of the « Rising of the dead (resurrection) – Day ». يوم القيامة Djili also user a kind of explosive language to cope with the eschatological verses he quoted and the description of the Manifestation of the Omnipotence Attribute that he termed صلصلة الجرس

31. Ahmad al sharagi, Tabaqat al-Khawas, p. 38-9 ;
Manawi, Kawakib, Ms. DK. No. 259, vol. 2., Fol. 289 ver.
C.F. also my Ph. D. thesis, p. 90, 325-26.

In that manifestation, God would manifest Himself to the worshipper through the atribue of Omnipotence, pride, greatness ... In this manifestation the worshipper would hear a sound of the «clanking of the bell» صلصلة الجرس The background of that sound is related in Islamic legacy to the story of the Prophet's (s.a.s.) Revelation. The «clanking of he bell» صلصلة الجرس describes one of the most burdensome kinds of Revelations (32).

Djili considers the clanking to be a result of the clashing together of Sublime Realities. Divine Realites emerge to prevent Sufi hearts from daring to enter the Divine Presence of Greatness الحضرة العظموتية and the revealation of the Divine Grade, it is the grandest veil between the Divine Grade and hearts of his worshippers. There is no way to remove this viel except after hearing the clanking of the bell» صلصلة الجرس (33).

Now, the hearing of this clashing together of Realities, or rather, the صلصلة الجرس Causes horrible physical reactions. In one of his works, Djili likens his state, during this agony, to a peice of old torn cloth, hung in a high tree blown to and fro by a very severe wind ; his stature was crushed and his form was decomposed .... (34) This is a recurring theme in his works.

In another place, he said, (and I quote in full) : « That night I was taken on a nocturnal journey to the heavens. Upon my arrival to this sublime station, the most beautiful scene, I found such fear on this occasion that my forces were dissolved, my stature decomposed, my parts smashed and my limbs broken. I did not hear but a clanking from fear of which the mountains are pulverized and to whose dignity the humans and the jinn submit ; and I do not see but clouds of lights, filled with tongues of fire. However I am in darkness of seas of the Essence الذات one above

---

32. C. F. Bokhari's Sahih, vol. I, No. 2. باب كيف كان بدء الوحي
and C.F. also Kirmani's commentary on S.B., I., p. 27 ;
also al-Badr al einy : omdatuL - Qari', I, p. 40 ; my Ph. D. p. 659.

33. C. F. al-Insanul Kamel, I., p. 107; Manazer Ilhiyya, p. 53.

34. CF. op. cit., I, p. 67.

the other, under which there is neither sky nor earth; thus the motionless mountains were removed, and I saw the earth protruding (and we shall gather them, all togeher, nor shall we leave out any-one of them. And they wil be marshalled before thy Lord in ranks) (35) and they will continue like that forever. I asked : « What happened to the sky ? » « It is rent asunder, and hearkens to (the command of) its Lord. And it must needs (do so) (36)... » I was answered. I asked : « What happened to the earth ?» «It is flattened, and casts front what is within it and becomes empty ».(36) I was answered. I asked : « What happened to the sun ? » « It is folded up and the stars fall, losing their lustre, the mountains vanish, and the she-camels, ten months with young, are left untended, and the wild beasts are herded together, and the oceans boil over with a swell and the souls are sorted out. And the female (infant) buried alive, is questioned, for what crime she was killed. And the scrolls are laid open and the sky is unveiled, and the blazing fire is kindled to fierce heat, and the garden is brought near » (37). I was answered. And I asked : « What happened to me ? » The Grand answered : « A soul knows what it has put forward ». (38) This is a small resurrection, the Truth rendered to me as an example of the Grand one in order that I might be sure of my God, and so I could guide to Him whosoever is of my party (39).

Again, al-Djili, like Hallag, faces a situation, a violent and very impulsive one, that of the Manifestaton of he Divine attribute of Omnipotence, or rather that of صلصلة الجرس ,For the description of the claking of the bell. At the height of his experience, he found no adequate way of expressing this state except through the Qur'an : Suras and verses concerning eschatology, because he considered his experience a small resurrection as a model of the future resurrection يوم القيامة described in the Qur'an.

---

35. Qur. XVIII, 47-48.
36. Qur. LXXXIV, 1-4.
37. Qur. LXXI, 1-13 with a slight change at the beginning of every verse (واذا) becomes just (,).
38. Qur. LXXXI, 14.
39. al-Djili, al Insanul-kamil, I, p. 107.

Now, to come to the end of the paper, I should mention the main results and outcomes of this paper, and summarize them as follows :

1. Sufis undergo a very special kind of personal experience ; and as such, general, external methods of analysis cannot be safely applied to their experiences.

2. Rather, we need some very private and very personal, internal method of analysis to cope with the Sufi private and personal modes of experiences. Even these kinds of the so-called private and personal methods, cannot be applied on a wide scale, or in a general way. we need, in fact, for every mystic, rather, for every Sufi statement and experience, a separate, personal method to be applied, especially in the ecstatic current. The case of the Sama' method applied in this ppaper is just one example. These private and personal methods cannot be specified and prescribed in the way we do in a medical diagnosis or a physician's prescriptions. They are chosen, mostly, according to the researcher's insight and his penetrative spirit, both of which are ambiguous and apt to be governed, often, by the researcher's eccentricities and whims. However, there is no other way out.

3. The final result is that our understanding of the Sufi personalities and legacy, in general, and the ecstatic current, in particular, is relative and proportional, nether decisive nor final. However, this would not prevent our enjoyment of reading and tasting their efforts, pursuits and persistence, as élite human beings, in bridging the wide gap between the Divine Presence, the Last Day, on the one hand, and the human aspirations to wards an immortal kind of existence, there beyond that veil of our wordly present life.

Last and not least, I should add that orthodox Islam has tolerated the ecstatic Sufi personalities and their statements ; the case of al-Hallag's execution is not an exception, because he was killed for involvement in political matters and not because of his Sufi views. Nevertheless, Islam would not agree with them, because they represent a very undisciplined kind of movement with their ecs-

tacies and auditional raptures, whereas orthodox Islam is a moderate form of religion :

«Thus, we have appointed you a moderate nation that ye might be witnesses to all mankind, and that the Apostle might be a witness to yourselves ».

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شـــــهيدا ...) صدق الله العظيم

Mr. Chairman, ladies and gentleman : Thank you very much for your attention.

THE WAQFS
AND THEIR SOCIAL AND ECONOMIC EFFECTS
IN OTTOMAN EGYPT

by

DR. ABDUL RAHIM ABDUL RAHMAN

INTRODUCTION

The word «Waqf» means the donation that cannot be sold, nor bought, nor donated. It also cannot be inherited and its revenues must be distributed only for benevolent purposes.

The Waqf system exists in Egypt since the Islamic Conquest (1) and has played a proeminent role in the economic, religious, cultural and political history of ths country, till the most recent times.

Due to the political and economic circumstances prevailing during the Mameluk period, ths system appeared more evidently, as half of the cultivated lands and properties were donated.

There were, during this period, two sorts of waqfs :

1. **Al Waqf al-Khairi**, or lands donated for benevolent purposes, for the sacred Mosques of Mecca and Medina, for churches, convents or other mosques. The waqfs consisted of cultivated lands granted by the Sultans and Emirs together with an official document called **Taqasit Diwaniyya** (2).

---

(1) Moh/Moh. AMIN : **Al-Awqaf wal hayat al igtima'iya fi Misr.** Cairo University Press, 1980, p. 1. — Also see the Arabic translation of the well-known **Description de l'Egypte** par les savants de Bonaparte : Waqf Misr, by Zoheir El Shayeb. Al-Khandji, publ. Cairo 1980, vol. VI, p. 18.

(2) Mohamed Amin : **op. cit.** p. 8-9-10. Regarding the Christian waqfs, see Arch. al Mahkama Il Shar'iya, Sijillat Mahkamet Misr al gadima No. 8—20.

2. **Al-Waqf al-ahli,** part of which was given to the heirs of the donator and he oher for benevolentpur poses. All waqfs were exampted of any tax although, during the Ottoman period, a symbolic one was imposed, called **Mal al Himaya** concerning the protection of the Waqf by the government Administration (3).

THE WAQF SYSTEM IN OTTOMAN EGYPT

When dealing with research of the Waqf documents, one can reach the following conclusions :

1. The Waqf donator would give his name and origin, stating that he is a Mameluk, and Egyptian or an Arab ; a Maghribi or a Shami (4).

2. He would fix the limits of the land he wished to donated and the province to which this land was relevant. He would also state the nature of this land, whether it was agricultural or any other kind. (5)

3. The Donator would also state the kind of benevolent funds he wished the waqf to be attributed, and if there was any part of it that he wanted to be spent in his own favour or in favour of his heirs. He therefore would deal with all details concerning the waqf. (6)

On the other side, the Donator Specified the beneficiaries and appointed a Nazir who was generally one of these beneficiaries or one of the Donator's heirs. Let us name, as an example, Shaykh Solayman al-Khodeiry who was appointed Nazir of his grand father's waqf, which consisted in a land near Mallawi

---

(3) 'Abd al Rahim 'Abd Al-Rahman : **Al Rif al Misri fi Al-qarn al thamen Ashar. Ain Shams Univ. Press, Cairo 1974, p. 69.**

(4) Der al Watha eiq al-Qawmiyya. Dafater Ehbassi No. 4619-4617 etc.

(5) Dar al Watha'iq al-Qawmiyya. Dafater Ehbass, Assiout No. 4619, Hogta dated 15 Moharram 1174/27 August 1100.

(6) Dar al-watha'iq al Qawmiyya. Dafater Ehbassi Quena No. 4617/7 Safar 1178/6 August 1764.

(7). Usually, the Nazir gave his land for rent and distributed the profits to the benefciaries. (8).

5. The Document concerning the Waqf contained the conditions fixed by the Donator and stated his complete freedom to modify these conditions. When the conditions fixed by the Donator did not exist any more after the death of the beneficiaries, leaving no surviving members between the heirs, then he Donator generally specified to whom he would allocate the waqf : the poors, the widows or the sacred mosques. The Nazir's duties ware to give he beneficaries the possbility of getting what was due to them (9).

6. The Donator would fix the period of validity of the waqf ; wiuld this be temporary or perennial (10).

(7) The Donator stated that n case of destruction of the land by negligence, i had to be repared by the Nazir and the tenants. This happened for example with waqf belonging to Al-Shihabi Ahmad Al-Akhmimi. Its surface was of 1393 Faddansa at Akhmim, wilayet Guirga. This land was neglected during 50 years, till the Ruznqmeh decided that it has to be remitted to the Fellaheen to be cultivated. As for the rent, it had to be delivered to the beneficiaries of the Waqf. (11)

8. Documents concerning the wasfs show that most of the conflicts occurred between the beneficiaries and the Fellaheen who were cultivating these lands. This situation remained as it was

---

(7) Mallawi, an old village in the province of Ashmunain (Moh. Ramzi : Al-Qamus al-geoghrafi) Part II vol. IV, p. 68.

(8) Al-Mahkama al Shar'iya. Sijill 278, Bab Al'ali, Doc. 593, p. 354 18 Safar 1186/21 Mai 1772.

(9) Al-Mahkamah al-Shar'yaa Bulaq. Sijil, 28, Hogga 1804, p. 389 18 sha'ban 1017/27 november 1608.

(10) Dar al watha'iq. Daftar Morattabat khidmat al-diwan araby-Hogga 987, p. 105-108.

(11) Ibid.

for a long period, until the Pacha signed a Frman fixing the legal waqf for obtaining the benefit of a waqf. (12).

9. Another aspect of the waqfs appears in the Ottoman documents. We see that these waqfs, became a menace against the agricultural lands paying the Miri tax. The reason was they that they were spreading all over Egypt, being inherited generation after generation (13). This leads us to discuss the extent of the waqf land during the Ottoman Period.

EXTENT OF THE WAQG LANDS DUOING THE OTTOMAN PERIOD

The Qanun Nameh proclaimed by Solayman the Legislator deals with the survey of the Egyptian lands and states that if any village the waqf surface is known, no survey is necessary. But if the waqf lands are mixed up with the **Kharadj lands**, they have to be surveyed and heir limits also fixed. The surplus had to be added to the Miri. But the **Qanun Nameh** does not fix the surface of the waqf land (14). It oes not give any statistical data regarding the extent of these lands. That is the reason why the evaluation of these lands durıng the Ottoman period is based on documents entitled. **Difater Al-Rizaq** kept at Dad a ffatha'iq al Qawmiyya, Cairo, and **Dafater al Tarabil,** prepared by the scholars of the French expedition. These Dafater are considered the most relable source as we find therein the surfaces of the waqf lands, village by village, feddan by feddan and qirat by qirat. They are based on the registers of the sarrafeen containiny all details regarding the waqf lands in the Egyptian villages (15). Fixation of the lands also based on the **Sijillat al Mahkama al-Shar'iyya** a though one cannot find in these documents a detailed view on these lands.

(12) Dar al-wath'iq. Deftar Rezaq Asiut No. 1619.

(13) Dar el-watha'iq. Daftar El Rizaq No. 7619-7617, 1621-1624.

(14) Qanun Nameh (Misr). Translated by Dr. Ahmed Fouad. Introd. and Notes by Abdul Rahim Abdel Rahman. (under printing).

(15) Dafater al Tarabi'; Dar al watha'iq, op. cit.

Finally, statements like those of Al-Djabarti and Ahmad Abdel Ghoni Shalaby and others give us valuable information on the subject. From all hese comparative sources, we come to the following results :

1. All the above mentioned documents show that many villages consisted entirely of waqf lands. Al-Djabarti points out that the surface of the waqf lands was superior to the lands cultivated by the fellaheen (16).

2. The Dafater al-Tarabi, show that the surface of the waqf lands in the Al Qortuny village, province of Giza had reached 1753 feddans and that these lands is the village of Estalna, Gharbiyya province, had reached 179 feddans, 20 girat, 20 sahm and the waqf lands in the village of Djanady. Gharbiya province, proved to be 9929 feddans, 7 qirat and 4 sahm The Dafater mention the lands village by village and show that these were more than of the entire surface of the village himself (17).

3. Our source prove also that the waqf lands were more than half of the surface of the whole cultivated lands in Egypt. Besides, only symbolic taxes were paid. That troubled the French Expedition and draw the attention of the Ottoman authorities, hence the attenion of Mohamed Aly to the danger that threatened the Egyptian Treasure. That was the reason why the Ottoman were organizing a new land system.

---

(16) Al-Mahkama shar'iyya, Sijillat al Bab al-'Ali Sijill 278, doc.593. p. 354, 18 safar 1186/21 may 1772 ; Sijill 196, Doc, 274. p. 83, 20 Rabi' thani 1095/7 April 1683. Sijill Isqat al Quara al Qura No. 3, part. 274, p. 87 15 Zul Qa'da 1145/22 May 1730. Sijill Isqat al Qura No. 3, doc. 303, p. 109. 1 Safar 1144/15 August 1731. Sijill Isqat al Qura No. 2 p. 95-96, Sijill 3, Doc. 13 p. 6 and p. 30. Sijill 5, p. 57.

(17) Dafatir al Tarabi, op. cit, also Sijill al Iltizam kept at Dar al Watha'iq al Qawmiyya.

SOCIAL AFFECTS OF THE WAQF SYSTEM

There is no doubt that in the early beginning, the waqf system covered social services. The Donator stated in the waqf document that its benefits were a permanent donation. This was in conformity

with the teachings of the Islamic Fiqh. That is the reason why the benefits of the waqf were specially destined to the students and the poor, at Al-Azhar University or elsewhere as well as to the sofi sects, the poor of the sacred Mosques of Mecca and Medina. The waqfs were thus considered as a guarantee for social welfare the time there was no systematic policy of the state for social welfare (18). The waqfs continued playing their role in the social field during the whole Ottoman Period, all throughout Egypt, in villages and towns (19).

It must be pointed out that the waqf system had an influence on the Egyptian village. During this period, the village witenced the existence of a privileged social class due to the overspreading of the waqf-lands, the rise of great fortunes among the beneficiaraes and tenants and the Nazirs, As we have already underlined, these lands were free of taxes except symbolic one called Mal al Hemaya. Al-Djabarti states that the Kharadj of these lands was inferior to the kharadj of the Fellaheen lands. He also says those among the fellaheen who owned one or more piece of land were envied by their fellow citizens.

The waqf lands did not extend to the country side. When we read that most of the Shaykhs in the villages were exploiting most of the lands for their own benefit, we understand why the waqf met with social discontent. This certainly was the negative side of the waqf system.

---

(18) Arch. Mahkama Shar'iyya, sijillat Bab' Ali 278, doc. 593, p. 354, 18 Safar 1186/Sijill 128, doc. 369, p. 18, 18 Gamad Thani 1060/8.

(19) Arch, Mahkama Shar'iyya, Sijillat Isqat al qura 1, 2, 3, 4, 5,- Al-Djabarti : 'Adjaib al athar fil Tarajim wal akhbar vol. IV, pp. 223-224, Dar al Watha'iq Mahafez al-huggag al Shar'iya, Mahfaza 3, Hugga 350, 14 Shawwal 1186/27 December 1743.

Certain classes, by being exempted from the payment of taxes, became rich and possessed considerable lands reaching in many villages 1000 feddans (20).

ECONOMIC EFFECTS OF THE WAQF SYSTEM

When dealing with this problem, one has to consider two sides of it :

1. Its effects on the Treasure.

2. Its effects on individuals and families.

Concerning the first element, whatever could the social goals be, we can say that its impact on the Treasure was catastrophic due to the absence of taxes of more than half of the agricultural lands. Al-Djabarti has confirmed this and stated that wealthy people possessed thousands of ardebs of grain but did not pay other taxes than 5 ardebs only, and this only when forced to do so. Scientists of the French Expendition to Egypt noticed that danger menacing he general economy of the country and reorganised the land system obliging wealthy people to pay the land taxes and to pay also benevolent funds only through the Treasure. As soon as the French left Egypt, the Ottoman Administration did the same. In September 1801 an officer was in charge of supervising the land system and the Nazirs, and controlling the incomes and expenses (21). It appears clearly from what Al-Djabarti has stated, that the Ottoman rulers took into consideration the danger of the waqf system on the country s economy. The same with Mohamed Aly who also tried to reorganize

---

(20) Al-Djabarti : op. cit., Vol. IV, pp. 223-224.

(21) Al-Djabarti : op. cit., III, p. 208, Vol. IV, p. 224; Dafater al-Tarabi' No. 805, 1705, 1608.

this system and who did not meet with any opponents except among the Shaykhs of Al-Azhar whose opposition he did not take into any consideration.

As regards the economic effects of the waqf system on individuals and families, it results, from Al-Djabarti's statements, the Dafater al-iitizam and he Sijillat al Mahkama al-Shr'iyya that many wealthy people possessed thousands of feddans, specially among the nomad Arabs. Al-Djabarti says also that many among the countryside notables had built their fortune on waqf lands. The same thing happened with the Mamluks. That was the reason why Mohamed Aly confiscated their lands and forced them to pay taxes.

The results of the waqf system during the Ottoman period appears as follows :

1. Political and economic elements interfered in the social effects of the waqfs ;

2. The overspreading of this system all throughout the country, was the reason that the general income of the Treasure was weakened ;

3. The waqf system created a new class in the countryside and social discontent into the villages.

---

(22) Al Djabarti : vol IV, pp. 225-228 : Yacoub Artin, Al Ahkam al mar'iya fi sha'n al aradi al Misriya, Cairo, 1889-1306 H. p. 48.

SOURCES

I. ARCHIVES

Archives of Al-Mahkama al Shar'iyya

— Sijillat Mahkamet Bulaq.

— Sijillat Mahkamet al Qisma al Askriyya

— Sijillat Mahamet Qanater al-Siba

— Sijillat Mahkamet Isqat al Qura.

II. DAR AL-WATHA'IQ AL-QAWMIYAA

— Dafater al Tarabi' No. 805, 1605, 1608.

— Dafater al-Iltizam

— Dafater al Rizag al-Ahbassiah

N 1617, 1619, 1624, 1626.

III. QANUN NAMAH MISR, Translated by Ahmad Fuad,

Introduction and Notes by Dr. Abdel Rahim Abdal Rahman (under printing).

PRINTED SOURCES

1. IBN IYAS : **Bad a i'al Zuhur fi waqa'a' al Duhur.** Cairo, El Halabi, 1971.

2. AL-DJABARTI : **'Ajaib al athar fil Tarajin wal Akhbar, 4** volumes, Cairo 1904.

3. ABDAL RAHIM ABDAL RAHMAN : **Al Rif al-Misri fil qarn al Thamin 'Ashar.** Cairo. Ain Shams University Publications 1974.

4. MOHAMED MOHAMED AMIN : **Al awqaf wal hayat al ijtima'iya fi Misr.** (648-923 H/1250-1517) University of Cairo, Publications 1980.

5. YA'COUB ARTIN : **Al Akhbar al Mar'iyya fi sha'n al aradi al Misriyya,** Cairo 1306 H/1889.